

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

رُوسُو والثَّوْرَة

تاريخ الحضارة في فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا
من ١٧٥٦ إلى ١٧٨٩

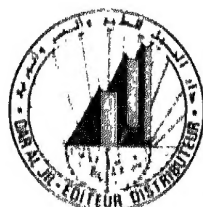
ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الرابع من المجلد العاشر



تونس

٤٢



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

۱۴۰۸ھ - ۱۹۸۸م

دار الجیل : ص.ب: ۸۷۳۷ - ت: ۲۶۶۱۵۸ - ۲۶۰۶۶۵ - ٹیکس: ۲۳۴۳۰
العنوان البرقي: دارمیلابے - بیردے - لبنان

فہرست

الجزء الرابع من المجلد العاشر

الكتاب السادس

انجلیترہ جونسن : ۱۷۵۶ - ۸۹

صفحة

١١	الثورة الصناعية	الفصل السابع والعشرون :
١١	أسبابها	١ -
١٥	مقوماتها	٢ -
٢٣	ملاباتها	٣ -
٢٩	عواقبها	٤ -
٣٥	...	٩٢	المسرحية السياسية ١٧٥٦ - ١٧٥٦	الفصل الثامن والعشرون :
٣٥	إلينية السياسية	١ -
٤٢	أبطال الدراما	٢ -
٥٩	المملك ضد البرلمان	٣ -
٦٥	البرلمان ضد الشعب	٤ -
٧٦	انجلترا ضد أمريكا	٥ -
٨٧	انجلترا والهند	٦ -
٩٦	انجلترا والثورة الفرنسية	٧ -
١٠٤	الأبطال ينفذون	٨ -
١٠٧	...	٨٩	الشعب الانجليزي ١٧٥٦ - ١٧٥٦	الفصل التاسع والعشرون :
١٠٧	أساليب الحياة الانجليزية	١ -
١١٢	الأخلاق الانجليزية	٢ -

٢١٣	٣ - فاني بيرنى
٢١٤	٤ - هوراس ولبول
٢٢١	٥ - ادورد جبون
٢٢١	(ا) اعداده ..
٢٢٨	(ب) الكتاب
٢٣٥	(ج) الرجل
٢٣٨	(د) المؤرخ
٢٤٢	٦ - تشاترن وكوبر
٢٤٩	٧ - أولفر جولدسمث
٢٥٩	...	٨٤	...	١٧٠٩	الفصل الثالث والثلاثون : صموئيل جونسن ١٧٠٩ - ٨٤
٢٥٩	٤٦	١ - النشأة المشوهة : ١٧٠٩ - ٤٦
٢٦٣	٥٥	...	٢ - القاموس : ١٧٤٦ - ٥٥
٢٧٠	٣ - الحلقة المسحورة
٢٧٦	٤ - الدب الأكبر
٢٨١	٥ - الفكر المحافظ
٢٨٧	٦ - الحرير
٢٩٠	٨٤	...	٧ - الافراج : ١٧٨١ - ٨٤
٢٩٥	٨ - بوزويل في أيامه الأخيرة

الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

٣٠٣	٨٣	...	١٧٧٤	...	الفصل الرابع والثلاثون : البهاء الأخير ١٧٧٤ - ٨٣
٣٠٣	٧٤	...	١ - ورثة العرش : ١٧٥٤ - ٧٤
٣٠٩	٢ - الحكومة
٣١٢	٣ - المملكة العنراء
٣٢٠	٤ - الملك الطيب
٣٢٤	٥ - وزارة طورجو
٣٣٦	٨١	...	١٧٧٦	٦ - وزارة نكير الأولى ١٧٧٦ - ٨١

صفحة

٣٣٩	٧ -- فرنسا وأمريكا
٣٤٩	٨٠٧ -- الفصل الخامس والثلاثون : الموت والفلاسفة ١٧٧٤
٣٤٩	١ -- نهاية فولتير
٣٤٩	(أ) الشفق في فرنه
٣٥٢	(ب) تمجيد فولتير
٣٦٠	(ح) تأثير فولتير
٣٦٣	٧٨ -- خاتمة روسو : ١٧٦٧
٣٦٣	(أ) الروح المعذب
٣٧٢	(ب) تأثير روسو
٣٧٩	٣ -- لحن سير جنائزى
٣٨٣	٤ -- خاتم الفلاسفة الفرنسيين
٣٨٨	٥ -- الفلاسفة والثورة
٣٩٣	٨٩ -- الفصل السادس والثلاثون : عشية الثورة ١٧٧٤
٣٩٣	١ -- الدين والثورة
٣٩٧	٢ -- الحياة على شفا الثورة
٤٠٢	٣ -- الصالونيات
٤٠٧	٤ -- الموسيقى
٤١٠	٥ -- الفن في عصر لويس السادس عشر
٤١٦	٦ -- الأدب
٤٢٥	٧ -- بومارشيه
٤٣٧	٨٩ -- الفصل السابع والثلاثون : تشريح الثورة ١٧٧٤
٤٣٧	١ -- النبلاء والثورة
٤٤٢	٢ -- الفلاحون والثورة
٤٤٤	٣ -- الصناعة والثورة

صفحة

٤	—	البورجوازية والثورة	٤٤٩
٥	—	احتشاد القوى	٤٥٤
		الفصل الثامن والثلاثون : الانهيار السياسى ١٧٨٣ — ٨٩	٤٥٩
١	—	القلادة الماسية : ١٧٨٥	٤٥٩
٢	—	كالون : ١٧٨٣ - ٨٧	٤٦٣
٣	—	لومينى دبرين : ١٧٨٧ — ٨٨	٣٦٦
٤	—	عودة نكير : ١٧٨٨ — ٨٩	٤٧١
٥	—	يدخل ميرابو	٤٧٥
٦	—	التجربة الأخيرة للدراما : ١٧٨٩	٤٨٠
٧	—	مجلس طبقات الأمة : ١٧٨٩	٤٨٣
٨	—	الى الباستيل	٤٩٢
		ختام	٤٩٥
		المراجع	٤٩٩

الكتاب السادس

انجلترا جونسن

١٧٥٦ .. ٨٩

الفصل السابع والعشرون

الثورة الصناعية

١ . أسبابها

لم بدأت الثورة الصناعية أول ما بدأت في إنجلترا ؟ لأن إنجلترا كانت قد انتصرت في حروب عظمى على القارة وحفظت في الوقت نفسه أرضها من خراب الحرب ، ولأنها حققت السيطرة على البحار فظفرت بمستعمرات وفرت لها الخامات واحتاجت إلى السلع المصنوعة ؛ ولأن جيوشها ؛ وأساطيلها ، ومساكنها المترابدين ، هيأوا لها سوقاً واسعة للمنتجات الصناعية ؛ ولأن النقابات الحرفية عجزت عن تلبية هذه المطالب المتسعة ؛ ولأن مكاسب التجارة المترامية الحدود كادت راسمال يبحث عن وجوه جديدة للاستثمار ؛ ولأن إنجلترا سمحت لنبلاتها - ولثرواتهم - بالاستثمار بالتجارة والصناعة ؛ ولأن إحلال الرعي تدريجياً محل فلاحية الأرض أجبر الفلاحين على النزوح من الحقول إلى المدن حيث زادوا من عدد العمال المتاحين للمصانع ؛ ولأن العلم في إنجلترا كان يوجه رجال ذوو نزعة عملية ، في حين كان على القارة - ونصرفاً أغلبه إلى البحث المجرد ؛ وأخيراً لأن إنجلترا كان لها حكومة دستورية حساسة لمصالح التجارة ، شاعرة على نحو غامض بأن السبق في الثورة الصناعية سيحقق لإنجلترا الزعامة السياسية للعالم الغربي طوال حقبة قرن أو يزيد .

أما سيطرة بريطانيا على البحار فكانت قد بدأت بهزيمتها للأرمادا الأسباني ، وامتدت هذه السيطرة بفضل الانتصارات على هولندا في الحروب الانجليزية الهولندية ، وعلى فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية ؛ ثم جاءت حرب السنين السبع فكادت تجعل تجارة المحيط محكراً على بريطانيا . وكان

للبحرية البريطانية التي لا تقهر الفضل في تحويل القنال الإنجليزي إلى ما يشبه الخندق المائي الحالي لهذا « الحصن الذي شيدته الطبيعة . . لبادراً عنها شر المرض وذراع الحرب » ^(١) (كما قال شكسبير) . فلم يعف الاقتصاد الإنجليزي من نهب الجنود المغيرين وسلبهم فحسب ، بل غلته وحفزه حاجات الجيوش البريطانية وجيوش الحلفاء المحاربة في القارة ، ومن هنا هذا التوسع الزائد في صناعات النسيج والمعادن ، والحاجة لآلات تزيد من سرعة الإنتاج ولصناعات تستكثر منه .

وسهلت السيطرة على البحار فتح المستعمرات . وكانت كندا وأغنى بقاع الهند الثمرة التي وقعت من نصيب إنجلترا في حرب السنين السبع . وأكسبت رحلات كرمجلات أنكبتي كوك (١٧٦٨ - ٧٦) الامبراطورية البريطانية جزائر أفادتها من الناحية الاستراتيجية في الحرب والتجارة وثبت انتصار رودنى على دجراس (١٧٨٢) - السيطرة البريطانية على جميعكا ، وبريدوس ، وجزر الهاما ، ثم ظفرت بنيوزيلنده في ١٧٨٧ ، وبأستراليا في ١٧٨٨ . وأتاحت تجارة المستعمرات وغيرها من أقطار ما وراء البحار للصناعة البريطانية سوقاً أجنبية لا ينافسها فيها منافس في القرن الثامن عشر . وكانت التجارة مع المستوطنات الإنجليزية في أمريكا الشمالية تستخدم ١,٠٧٨ - سفينة و ٢٩,٠٠٠ ملاح ^(٢) . وازدهرت لندن وبرسلي ولقربول وجلاسجو ثغوراً هامة لتجارة الأطنعلى هذه ، وأخذت المستعمرات السلع المصنوعة وأرسلت عوضاً عنها الطائيم والتبغ والتوابل والشاي والحرير والقطن والحامات والذهب والفضة والأخجار الكريمة . وقيد البرلمان استيراد المصنوعات الأجنبية بفرض الرسم العالي عليها ولبط تنمية صناعات المستعمرات أو الصناعات الأيرلندية المنافسة لصناعات بريطانيا . ولم تقم مكوس داخلية (كذلك التي عرقلت سير التجارة الداخلية في فرنسا) عتبة في سبيل انتقال السلع في أرجاء إنجلترا واسكتلنده وويلز ٤٠ وكانت هذه الأقاليم أوسع منطقة لتجارة الحرة في غربي أوروبا . وحظيت البلاتتان العليا والوسطى برخاء عظيم جداً ، وبقدرة شرائية كاثبت حافظاً. إضافياً للإنتاج الصناعي .

ولم تكن النقابات الحرفية كثرة لتلبية حاجات الأسواق المتسعة في الداخل والخارج . لقد أسست أولاً لسد حاجات البلدة وما حولها ، وغلت يدها نظم عتيقة ثبات الابتكار والتنافس والاحتكام ، ولم تكن معدة لجلب المواد الخام من مصادر نائية ، أو للحصول على رأس المال اللازم للإنتاج الموسع ، أو لحساب المطالبات من الخارج أو الحصول عليها أو تلبية . وحل محل معلم النقابة الحرفية شيئاً فشيئاً «مقاولون» ومتعهدون يعرفون كيف يجتمعون المال ، ويتوقعون الطالب أو مخلفونه ، وخصمون على الخدات ، وينظمون الآلات والمال للإنتاج لأسواق في كل أركان المسكونة .

أما المال فقد جاء من أرباح التجارة أو الأعمال المالية ، ومن غنائم الحرب ومراكب الترسية . ومن التعدين أو استيراد الذهب أو الفضة ، ومن الثروات الكبيرة التي تحققت في تجارة الرقيق أو في المستعمرات . كان الانجليز يرحلون عن بلادهم فقراء ، فيعود بعضهم أغنياء . ففي تاريخ مبكر (١٧٤٤) أتيح الخمسة عشر رجلاً عائلين من جزر الهند الغربية من المال ما يكفي لشراء انتخابهم للبرلمان^(٣) . وما وافى عام ١٧٨٠ حتى كان «النوابون» Nabobs الذين أثروا في الهند قوة في مجالس العموم ، والكثير من هذا المال المجلوب كان متاحاً للاستثمار . وبينما كان التبلد في فرنسا ممنوعين من الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ، كان نظرائهم في إنجلترا معفيين من هذا الحظر ، ونمت الثروة المتأصلة في الأرض بفضل استثمارها في المشروعات التجارية ؛ من ذلك أن دوق بردينجوت غامر بحملاته في تعدين النحاس . وأودع آلاف البريدانيين مدخراتهم في المصارف التي كانت تقرض النقود بفوائد منخفضة . وانتشر مقترضو المال في كل مكان : فقد اكتشف المصرفيون أن أسهل طرق الأثراء هي التعامل في نقود غيرهم . فكان في لندن عشرون مصرفاً في ١٧٥٠ . وخمسون في ١٧٧٠ ، وسبعون في ١٨٠٠^(٤) . وعد برك اثني عشر مصرفاً خارج لندن في ١٧٥٠ ؛ وفي ١٧٩٣ كان هناك أربعائة^(٥) . وأضافت النقود الورقية إلى التماس الخصب ، فبلغت في ١٧٥٠ اثنين في المائة من القيمة وفي ١٨٠٠ بلغت عشرة في المائة^(٦) . وغمرت الأموال المختزنة بالاستثمار حين نشرت التجارة والصناعة أرباحهما المتصاعدة .

واحتاجت الحيوانات والمصانع المتكاثرة إلى رجال . وتعاضم الملد والطبيعى من العمال بفضل العدد المتزايد من الأسر الريفية التى لم تعد قادرة على كسب قوتها من الفلاحة . وطالبت صناعة الصوف المزدهرة بالصوف ؛ وانتزع المزيد من الأرض من الفلاحة وخصص للرعى ؛ وحلت الأغنام محل الرجال ؛ ولم تكن قرية « أوبرن » (التى حزن عليها جولد سميث) القرية المهجورة الوحيدة فى بريطانيا . ففى الفترة من ١٧٠٢ إلى ١٧٦٠ كان هناك ٢٤٦ قانوناً برلمانياً يصرح بنزع اربعمائة فدان من الزراعة . ومن ١٧٦٠ إلى ١٨١٠ كان هناك ٢٠٤٣٨ قانوناً ، تأثرت بها خمسة ملايين فدان تقريباً (٧) . ولما تمسكت الآلات الزراعية . لم تعد الملكيات الصغيرة مرغوبة ، لأنها عجزت عن استعمال الآلات الجديدة أو دفع ثمنها ؛ فباع الألوف من المزارعين أراضيهم وأصبحوا أجراء فى مزارع واسعة أو فى مصانع ريفية أو فى المدن . وأنتجت المزارع الكبيرة المزودة بطرائق وتنظيم وآلات أفضل غلة للفدان أكثر من مزارع الماضى ، ولكنها كادت تمحو كل أثر للمزارعين الأحرار ، أو الفلاحين الملاك ، الذين كانوا الدعامة الاقتصادية والحرية والأخلاقية لانجلترا . وزادت أثناء ذلك الهجرة من إيرلنده والقارة اعداد الرجال والنساء والأطفال المتنافسين على الاشتغال فى المصانع .

ولم يلعب العلم إلا دوراً متواضعاً فى التحول الاقتصادى الذى طرأ على انجلترا القرن الثامن عشر . وقد استعان وات ببحوث ستيفن هيلز فى الغازات ، وجوزف بلاك فى الحرارة والبخار ، على تحسين الآلة البخارية . وكانت جمعية لندن الملكية يتألف أكثرها من رجال عماليين يحبذون الدراسات التى يرجح تعاقبها على الصناعة . كذلك كان استعداد البرلمان البريطانى لمراعاة الاعتبارات المادية ؛ ومع أن ملاك الأرض كانوا مهيمنين عليه ، فإن العديد منهم شاركوا فى التجارة أو الصناعة ، وكان أكثر الأعضاء ميالين إلى قبول الهدايا واستجابة إلى الالتماسات من رجال الأعمال لتخفيف القيود التى فرضتها الحكومات السابقة على الاقتصاد . وظفر المدافعون عن حرية المشروعات وحرية التجارة وترك الأجور والأسعار حرة فى الصعود أو الهبوط طبقاً لقوانين العرض والطلب — هؤلاء ظفروا بتأييد عمدة زعماء

برلمانين : فنحطمت ببطء الحواجز القانونية المعوقة لانتشار التجارة والمصنوعات . وهكذا تحققت جميع الشروط اللازمة لتفوق انجلترا في الثورة الصناعية .

٢ — مقوماتها

كانت العناصر المادية للثورة الصناعية هي الحديد والفحم والنقل والآلات والطاقة والمصانع . ولعبت الطبيعة دورها بتزويدها انجلترا بالحديد والفحم وسيولة الطرق . ولكن الحديد على الصورة التي جلب بها من المناجم كانت تتخلله الشوائب التي لا بد من إزالتها بصهره بالنار . كذلك كان الفحم تختلط به الشوائب التي أزيلت بتسخينه أو « طهره » حتى يستحيل إلى « الكوك » وتحول خام الحديد المحمي المنقى لدرجات متنوعة بالكوك اخروق إلى حديد مشغول أو زهر أو صلب .

ورغبة في زيادة الحرارة بنى ابراهام داربي (١٧٥٤ وما بعدها) أفراناً عالية تزود فيها النار بهواء إضافي من منفاخ تشغله ساقية . وفي ١٧٦٠ استعاض جون سميتن عن المنفاخ بمضخة هواء مضغوط تشغلها المياه من جهة والبخار من جهة أخرى : ورفع تيار الضغط العالي الثابت لإنتاج الحديد الصناعي من اثني عشر طناً إلى أربعين طناً للفرن في اليوم^(٨) . ورخص الحديد رخصاً أتاح استعماله في مئات النواحي الجديدة : مثال ذلك أن رتشرد رينولدز بنى في ١٧٦٣ أول سكة حديد معروفة — وكانت طرقاً حديدية يسرت لإحلال المركبات محل خيول الحمل في نقل الفحم والحديد .

وبدأ الآن عصر ساد فيه كبار صناع الحديد المشهورون الذين سيطروا على المسرح الصناعي وأثروا ثراء طائلاً باستخدامهم الحديد في أغراض بدت غريبة تمام الغرابة على ذلك المعدن . مثال ذلك أن جون ولكنسن وأبراهام درايب الثاني أقاما أول قنطرة حديدية على نهر سفرن (١٧٧٩) . وأضحك ولكنسن انجلترا حين اقترح بناء سفينة حديدية . وقال بعضهم إنه جن . ولكنه وقد اعتمد على المبادئ التي أرساها أركميدس . ركب

بالواح معدنية أول سفينة حديدية عرفها التاريخ (١٧٨٧) . وأقبل رجال الأعمال من الخارج ليشاهدوا ويدرسوا المصانع الكبرى التي أقامها واكنسن ، أورتشرد كرونشى أو أنتوني بيكن . وأصبحت برمنجهام القربية من طبقات ماثلة من الفحم والحديد أهم مركز لصناعة الحديد في إنجلترا . ومن هذه الورش تدفق إلى ورش إنجلترا ومصانعها الحديد من العدد والآلات الأكثر قوة واحتمالا والأحق بالاطمئنان إليها .

وكان الفحم والحديد ثقيان غالي النقل إلا بالماء . وأتاح الساحل الغنى بالمفجوات العميقة للنقل البحري الوصول إلى الكثير من مدن بريطانيا الكبرى . وكان لابد من أحداث ثورة في وسائل النقل لجلب المواد والمحاصيل إلى المدن البعيدة عن الساحل والأنهار الصالحة للملاحة وظلت حركة البضائع على البر شاقة رغم شبكة الطرق الرئيسية Turnpikes التي بنيت بين ١٧٥١ و ١٧٧١ . (وقد اشتق اسمها من الأبواب الدوارة turnstiles المرشوقة بالمنامخس التي تعوق المرور حتى تدفع المكوس)^(٩) . وقد ضاعفت طرق المكوس هذه سرعة العبور ونشطت التجارة الداخلية . وحل محل خيول الحمل عربات تجرها الخيل ، وأخطى السفر على ظهور الخيل مكانه لمركبات الريد . على أن الطرق الرئيسية تركت لأصحاب المشروعات الحرة ليعملونها وسرعان ما تدهورت حالها .

إذن ظلت حركة التجارة تؤثر الطرق المائية . لذلك ظهرت الأنهار لتحمل السفن الثقيلة ، وربطت الأنهار والمدن بالقنوات . وقد تحول جيمس برنيل ، الذي لم يكن له حظ من التعاليم النظامي أو الفني ، من مركب طواحين غير متعلم إلى أشهر مهندس قنوات في جيله : إذ حل بميله الميكانيكي مشاكل تمديد القنوات خلال الأهوسة والأنفاق وفوق السقابات . وفي ١٧٥٩ - ٦١ شق قناة جلبت إلى مانشستر الفحم من مناجم دوق برنجووتر في ورسلي ، فأنتقص هذا إلى النصف ثمن الفحم في مانشستر . ولعب دوراً رئيسياً في جعل تلك المدينة حاضرة صناعية . وكان من أجمل المناظر في إنجلترا القرن الثامن عشر منظر مركب تمخر مياه قناة برنيل - برنجووتر الممتدة بـ ٢٥ ميلاً تعلو تسمية وتعين قدماً فوق نهر ايرويل في بارتون . وفي

١٧٦٦ بدأ برندلى شق قناة الجراندي ترنك التي ربطت نهرى ترنت ومرزى
قفتحت بذلك طريقاً مائياً عبر وسط إنجلترا من البحر الإيرلاندى إلى بحر
الشمال . وربطت قنوات أخرى نهر ترنت بالتيمرز ، وما نشستر بلنبرول ،
ولم تنقضى ثلاثون سنة حتى خفضت مئآت القنوات الجديدة تكاليف نقل
النجارة في بريطانيا تخفيضاً كبيراً .

أما وقد توفر الثروة الصناعية المواد والوقود والنقل ، فقد بقى عليها
بعد ذلك أن تستكثر من السابح . وكان الطالب على الآلات ، اللازمة لتمجيد
الإنتاج على أشده في المندوجات . فالناس في حاجة إلى الكساء ، والجنود
والسببايا كان يجب تمويدهم بالأزياء الخاصة بهم . وكان القطن يدخل
إنجلترا بمقادير تزايد بسرعة - ثلاثة ملايين رطل في ١٧٥٣ . واثنان
وثلاثون مليوناً في ١٧٨٩^(١) . ولم يكن في طاقة العمل اليدوى أن يصنع
بضائع معصولة في الوقت الذى يلبي فيه الطالب . إن تقسيم العمل الذى كان
قد تطور في حرف الكساء أوحى باختراع الآلات وشجعه .

وكان جون كاي قد بدأ ميكنة النسيج بفضل مكوكه الطائر (١٧٣٣) ،
ولويس بول ميكن الغزل بطريقة البكر (١٧٣٨) . وفي ١٧٦٥ غير جيمس
هارجرىز ، وهو من أهالى مدينة بلاكبيرن بلانكاشير وضع عجلة الغزل
فجعلها أفقية بدل أن تكون رأسية . وركب عجلة فوق أخرى ، وشغل
ثمانى منها ببكرة واحدة وسير ، ونسج ثمانية خيوط في وقت واحد ، ثم
أضاف مزيداً من القوة لمزيد من المغازل حتى استطاع مغزله Spinning jenny
(وجنى هو اسم زوجته) أن ينسج ثمانين خيطاً في وقت واحد . وخشى
المغزالون اليدويون أن تفقدتهم هذه البدعة حرفة وقوتهم . فحطموا
آلات هارجرىز فهرب لحياته إلى نوتنجهام حيث أتاح نقص العمال للمغزله
أن تتركب . فالما حلت سنة ١٧٨٨ كان عددها في بريطانيا قد بلغ عشرين
ألفاً . وكانت عجلة الغزل بسببها إلى أن تصبح حلية رومانسية .

وفي ١٧٦٩ وفق رتشرد آركرائيت بناء على اقتراحات ميكانيكيين
شقى في تدابير « إطار مائى » تستطيع قوة الماء بواسطته أن تحرك ألياف القطن

(م ٢ - قصة الحضارة ، ج ٤٢)

بين سلسلة متعاقبة من البكرات تجذب وتمد الألياف فتجعلها خيطاً أكثر إحكاماً وصلابة . وسوالى عام ١٧٧٤ جمع صموئيل كرومبتن بين مغزل هارجريفز وبكرات آركرائيت فى آلة هجين لقبها ظرفاء الانجليز « بغلة كرومبتن » : فكانت حركة المغازل المتعاقبة الى الخلف وإلى الإمام بالتناوب تمد الخيط وتفتله وتلفه فتجعله أرفع وأقوى ؛ وقد ظلت هذه الطريقة إلى وقتنا هذا المبدأ الذى تقوم عليه أعقد آلات الغزل والنسيج . وكانت المغزلة القديمة (الجنى) والإطار المائى يصنعان من الخشب ، أما البغلة فقد استخدمت البكرات والعجلات المعدنية بعد ١٧٨٣ ، وأصبحت من المئات بحيث تحتل سرعة التشغيل الآلى وضغطه .

وكانت الأنوال الآلية التى تشغل بالكرانك والأنتقال تستعمل من قبل فى ألمانيا وفرنسا ، ولكن حدث فى ١٧٨٧ أن شيد إدموند كارترائيت فى دونكاستر مصنعاً صغيراً شغل فيه عشرون نولاً بقوة الحيوان المحركة . وفى ١٧٨٩ استبدل بهذا المحرك آلة بخارية . وبعد عامين اشترك مع بعض أصدقاء من مانشستر فى إنشاء مصنع كبير يدار فيه أربعائة نول بالبخار . وهنا أيضاً ثار العمال ، فأحرقوا المصنع وسووه بالأرض وهددوا بقتل مؤسسه . وبُنيت فى العقد التالى أنوال آلية كثيرة ، حطم المشاغبون بعضها ونجا بعضها وتكاثر ، وانتصرت الآلات .

وكان مما أعان إنجلترا على الصناعة توافر القوة المائية المتولدة من أنهار كثيرة يغذيها المطر الغزير . فأقيمت الطواحين والمصانع فى القرن الثامن عشر فى الريف أكثر مما أقيمت فى المدن على أنهار يمكن بناء سدود عليها تحدث مساقط للمياه لها من القوة ما يكتفى لإدارة عجلات كبيرة . هنا قد يتساءل شاعر ألم يكن من الخير لو لم يحل البخار قط محل الماء قوة محركة ، وأن تختلط الصناعة بالزراعة فى الريف بدلا من أن تحشد فى المدن . ولكن وسيلة الإنتاج الأكثر فاعلية وربحاً تزيج الوسيلة الأقل ، وقد وعدت الآلة البخارية (التى تألفت هى أيضاً — إلى وقت قريب — بوهج رومانسى) بأن تنتج أو تنقل من السلع والذهب أكثر مما شهد العالم فى أ زمان مضى .

ولقد كانت الآلة البخارية ذروة الثورة الصناعية لاثمرة لها تماماً . ولا داعي للرجوع بالذاكرة إلى هيرو الاسكندري (٢٠٠ م ؟) ، لأن دنتن بابين وصف جميع مكونات ومبادئ آلة بخارية عملية في ١٦٩٠ . ثم صنع تومس سافري مضخة يديرها البخار في ١٦٩٨ . وطورها تومس نيوكومن (١٧٠٨ - ١٢) إلى آلة يكشف فيها تيار متدفق من الماء البارد البخاري المولد من الماء المحمي ، ويدفع فيها تناوب ضغط الهواء كباساً إلى أعلى وأسفل ؛ هذه « الآلة الهوائية » ظلت الآلة القياسية حتى حولها جيمس وات إلى آلة بخارية حقيقية في ١٧٦٥ .

وكان وات بخلاف معظم مخترعي ذلك الجيل طالباً كما كان رجلاً عملياً . كان جده معلم رياضيات ، وأبوه معمارياً وبناء سفن وقاضياً . بلدة جرينوك في جنوب غربي اسكتلنده . ولم يحظ جيمس بتعليم جامعي ، ولكنه كان ذا تطلع نحق واستعداد ميكانيكي . ويعرف نصف العالم قصته مع عمته التي وبخته قائلة « لم أرق قط ولدأ خاملاً مثلك . . . فإنك لم تنطق بكلمة واحدة طوال هذه الساعة ، بل نزعت غطاء تلك الغلاية ، ثم أعدته إلى مكانه ، ثم أمسكت تارة قلنسوة وتارة ملعقة فضية فوق البخار ملاحظاً كيف يتصاعد من البزبوز ، وممسكاً بالقطرات محضياً إياها (١١) » . وفي القصة رائحة الأسطورة ، ولكن مخطوطاً خلفه جيمس وات بخط يده يصف تجربة فيها « ثبت الطرف المستقيم لأنبوب على بزبوز غلاية شاي » ، وجاء في مخطوط آخر : « أخذت أنبوبة زجاجية ملوثة وأدخلتها في فم غلاية شاي ، وغمرت الطرف الآخر في ماء بارد » (١٢) .

وحين بلغ وات العشرين (١٧٥٦) حاول أن يبدأ عمله في ج سجو صانعاً للأدوات العلمية . وأبت عليه نقابات حرف المدينة الرخصة بحجة أنه لم يكمل فترة التلمذة كلها ، ولكن جامعة جلاسجو أعطته ورشة داخل أرضها . واختلف إلى محاضرات الكيمياء التي يلقيها جوزيف بلاك ، وكسب صداقته ومساعدته ، واهتم خاصة بنظرية بلاك في الحرارة الكامنة (١٣) .

ثم تعلم الألمانية والفرنسية والإيطالية ليقرأ الكتب الأجنبية بما فيها كتب الميتافيزيقا والشعر . وقد راع السير جيمس روبينسن تنوع معلوماته . وكان يعرفه في تلك الآونة (١٧٥٨) . فقال « رأيت صانعاً ولم أتوقع أكثر من هذا . ولكنني وجدت فيلسوفاً » (١٤) .

وفي ١٧٦٣ طلبت إليه الجامعة أن يصلح نموذجاً من آلة نيوكومن كان يستعمل في تدريس الفزياء . وأدهشه أن يجد ثلاثة أرباع الحرارة التي تمد بها الآلة تضيق هباء . فبعد كل ضربة كباس تفقد الأسطوانة الحرارة من جراء استعمال الماء البارد لتكثيف كمية البخار الجديدة التي تدخل الأسطوانة ، فقد كان قدر كبير من الطاقة يتبدد حتى حكم أكثر أصحاب المصانع بأن الآلة غير مجزية . واعتزم وات تكثيف البخار في وعاء منفصل لا تؤثر درجة حرارته المنخفضة في الأسطوانة التي يتحرك فيها الكباس . وزاد هذا « المكثف » كفاءة الآلة في نسبة الوقود المستعمل إلى العمل المؤدى قرابة ثلاثمائة في المائة . يضاف إلى هذا أن الكباس بفضل اصلاح وات للآلة أخذ يحركه تمدد البخار لا الهواء ؛ لقد صنع وات آلة بخارية لامراء فيها .

أما الانتقال من الخطط والنماذج إلى التطبيق العملي فقد أفنى اثني عشر عاماً من حياة وات . ولكي يصنع عينات ويحدث تحسينات متعاقبة في آله اقترض أكثر من ألف جنيه ، أكثرها من جوزف بلاك . الذي لم يفقد إيمانه به قط . وتنبأ جون سميث ، وكان هو نفسه مخترعاً ومهندساً ، بأن آلة وات لا يمكن « تعميم استعمالها أبداً لصعوبة تصنيع أجزائها بالدقة الكافية » (١٥) . وفي ١٧٦٥ تزوج وات . وكان عليه أن يكسب مزيداً من المال . فنهج اختراعه وعكف على أعمال المساحة والهندسة ، فرسم تصميمات الثغور والكبارى والقنوات . وخلال ذلك قدمه بلاك إلى جون روبك الذي كان يبحث عن آلة أكثر فاعلية من آلة نيوكومن لضخ الماء من مناجم الفحم التي تمد بالوقود مصانع الحديد التي يملكها في كارون . وفي ١٧٦٧ وافق على أن يدفع ديون وات ويزوده برأس المال اللازم لصنع آلات طبق مواصفات وات . وذلك لقاء ثلثي الأرباح التي تتحقق من التركيبات

أو المبيعات . ورغبة في حماية استثمارهما طلب وات في ١٧٦٩ إلى البرلمان براءة اختراع تعطيه دون غيره حق إنتاج آله ، فمنح البراءة حتى عام ١٧٨٣ . وأقام هو وروبك آلة بخارية قرب أدنبره ، ولكن صنعة الحدادين الرديئة تسببت في فشلها ، وفي بعض الحالات كانت الأسطوانات التي صنعت لوات أكبر في قطرها ثمن بوصة في طرف منها في الآخر ،

وباع روبك نصيبه في الشركة إلى ماثيو بولتن (١٧٧٣) بعد أن فتت النكسات في عضده . وبدأ الآن ارتباط ملحوظ في تاريخ الصداقة كما هو ملحوظ في تاريخ الصناعة . ذلك أن بولتن لم يكن مجرد إنسان يجرى وراء الربح ، فلقد بلغ اهتمامه بتحسين طرائق الإنتاج وميكانيكياته حداً أنقذه ثروته في هذا السبيل . ففي ١٧٦٠ تزوج وهو في الثانية والثلاثين من امرأة غنية ، وكان في وسعه أن يتقاعد ويعيش على دخلها ، ولكنه بدلاً من ذلك بقي في سو هو قرب برمنجهام مصنعاً من أكبر مصانع إنجلترا ، يقوم بصنع أنواع كثيرة من الأدوات المعدنية من مشابك الأحذية إلى الثريات . وكان يعتمد على القوة المائية لتشغيل الآلات في مباني مصنعه الخمسة ثم اعتزم أن يجرب قوة البخار . وكان على علم بأن وات أثبت عدم كفاية آلة نيوكومن ، وأن آلة وات فشلت بسبب الأسطوانات التي ثقبت بغير دقة . فغامر مغامرة محسوبة مضمراً أن هذا العيب يمكن التغلب عليه . وفي ١٧٧٤ نقل آلة وات إلى سو هو ، وفي ١٧٧٥ لحق بها وات . ومد البرلمان أجل البراءة من ١٧٨٣ إلى ١٨٠٠ .

وفي ١٧٧٥ اخترع كبير الحدادين ولكسنن قضيب ثقب أسطوانياً بجوفاً مكن بولتن ووات من إنتاج آلات ذات قوة وكفاية لم يسبق لهما نظير . وسرعان ما أخذت الشركة الجديدة تبيع الآلات البخارية لأصحاب المصانع والمناجم في طول بريطانيا وعرضها . وقد زار بوزويل سو هو في ١٧٧٦ وكتب يقول :

« لقد تفضل على مستر هكتور بمرافقتي لرؤية مصانع مستر بولتن الكبرى . . . ووددت لو كان جونسن معنا ، لأنه كان مشهداً كان يسرني

أن أتململه على ضوء علمه . ولقد كانت ضخامة بعض الآلات وتعقدتها خليقة بأن تكون قريباً لعقله الجبار . ولن أنسى ما حييت عبارة مستر بولتن التي قالها لي « إنني ياسيدي أبيع هنا ما يريد العالم كله أن يملكه — القوة المحركة » . وكان يشتغل بمصنعه نحو سبعمائة نفس . وقد رأيت فيه « زعيم قبيلة حديدياً ، وبدا أنه أب لقبيلته »^(١٦) .

على أن آلات وات البخارية كانت لاتزال ناقصة ، وقد جاهد على الدوام لتحسينها . ففي ١٧٨١ سجل اختراعاً تحول فيه حركة الكباس المتناوبة إلى حركة دوارة ، مما جعل الآلة البخارية صالحة لإدارة المكنات العادية . وفي ١٧٨٢ سجل آلة بخارية ثنائية العمل ، يتلاقى فيها طرفا الأسطوانة دفعين من الغلاية والمكثف . وفي ١٧٨٨ سجل اختراع « ضابط على شكل بلية طباره » ينظم تدفق البخار ليزيد من السرعة المتماثلة في الآلة . وخلال سنوات التجريب هذه كان مخترعون آخرون يصنعون آلات منافسة ، وكان على وات أن ينتظر حلول عام ١٧٨٣ حتى تسدد مبيعاته ديونه وتبدأ في أن تؤتي ثمراتها . فلما انتهت فترة براءته اعتزل العمل النشط ، وواصل العمل في شركة بولتن ووات أبنائهما . وتسلى وات بالاختراعات الصغيرة ، واستمتع بشيخوخة رضية ، ومات ١٨١٩ وقد بلغ الثالثة والثمانين .

وكان هناك اختراعات أخرى كثيرة في هذا العصر الزاخر الذي « يملك كل معلم صناعة فيه تقريباً اختراعاً جديداً من بنات أفكاره ، ويدخل كل يوم تحسينات على مخترعات غيره »^(١٧) على حد قول الدين تكرر . وتوصل وات نفسه إلى طريقة لاستخراج النسخ المطابقة باستعمال حبر غروي وضغط الصفحة المكتوبة أو المطبوعة على فرخ مبلل من الورق الرفيع (١٧٨٠) : وطبق أحد موظفيه المدعو ولیم مردوك آلة وات البخارية على الجر ، وصنع نموذجاً لقاطرة سرعتها ثمانية أميال في الساعة (١٧٨٤) ، وقاسم مردوك رجلاً فرنسياً يدعى فليب لوبون امتياز استعمال غاز الفحم في الإضاءة ، وأثار بهذه الطريقة خارج مصنع سوهو (١٧٩٨) ، والمنظر المحوري للاقتصاد الانجليزي في نهاية القرن الثامن عشر هو منظر الآلة البخارية تقود المسيرة

وتزيد السرعة ، وتسخر نفسها للآلات في عشرات الصناعات ، وتصرف مصانع الغزل والنسيج عن قوة الماء إلى قوة البخار (١٧٨٥ وما بعدها) ، وتغير وجه الريف ، وتغزو المدن ، وتحجب السماء بغبار الفحم وأبخرته ، وتختفي في أحشاء المراكب لتسبغ قوة جديدة على سيادة إنجلترا على البحار .

واقضى الأمر عنصرين آخرين لجعل الثورة تامة ، المصانع ورأس المال . وكانت مقومات الصناعة — وهي الوقود والقوة المحركة والمواد والآلات والعمال — تتعاون على خير وجه إذا جمعت في مبنى أو مصنع واحد ، وفي تنظيم وضبط واحد ، تحت رئيس واحد . لقد كانت المصانع موجودة من قبل ؛ ولكنها الآن تكاثرت عدداً وحجماً لأن السوق الموسعة تطلبت الإنتاج المنتظم الواسع النطاق ، وأصبح « نظام المصنع » علماً على النظام الجديد في الصناعة . فلما أصبحت الآلات الصناعية والمصانع غالية التكلفة ، قوى سلطان الرجال والمؤسسات القادرة على جمع رأس المال أو تقديمه ، وتسلمت المصارف على المصانع ، واتخذ المركب كله اسم الرأسمالية — وهو اقتصاد يسيطر عليه الممولون . أما وقد توافرت كل حوافز الاختراع والمنافسة ، وتحورت المشروعات الصناعية تحرراً متزايداً من قيود النقابات الحرفية والمعوقات التشريعية ، فإن الثورة الصناعية تهيأت لتشكيل من جديد وجه بريطانيا وسماها وروحها .

٣ — ملابسها

كان على صاحب العمل والعامل كليهما أن يغيرا عاداتهما ومهاراتهما وعلاقاتهما . فأما صاحب العمل الذي أخذ يتعامل مع عمال لا يفتأ عددهم في ازدياد ، وفي دورة أسرع لرأس المال ، فقد فقد الصلة الحميمة بهم ، واضطر أن ينظر إليهم لا بوصفهم معارف عاكفين على عمل مشترك ، بل يشتغلون جزئيات في عملية لا يحكم عليها إلا بالأرباح . وكان معظم الحرفيين قبل في ورش النقابات أو في بيوتهم حيث لا تكون ساعات العمل صارمة ١٧٦٠ لاتلين ، وحيث يسمح بفترات للراحة ؛ وفي عهد أسبق كانت هناك عطلات دينية تحرم الكنيسة فيها كل عمل يأتي بربح . وعلمنا ألا تتمثل حال الرجل

من عامة الشعب قبل الثورة الصناعية في صورة مثالية ؛ ولكننا لانخطئ إذا قلنا أن المشاق التي تعرض لها آثد كانت تخفف منها التقاليد ، والتعود ، والهواء الطلق في كثير من الحالات . فلما تقدم التصنيع خفف من عناء العامل تخفيض ساعات العمل ، وزيادة أجره ، واتساع قدرته على الحصول على نصيب من السلع التي ازداد تدفقها من الآلات . ولكن نصف القرن الذي حدث فيه الانتقال من الحرفة والبيت إلى المصنع بعد ١٧٦٠ ، كان لعمال انجلترا نصف قرن حافلا بالذل اللإنساني الذي كان أحياناً شراً من العبودية .

كان أكثر المصانع في تلك الفترة يشترط اثنتي عشرة ساعة إلى أربع عشرة من العمل في اليوم على مدى ستة أيام في الأسبوع^(١٨) . وكانت حجة أرباب العمل أنه لا مفر من الاحتفاظ بالعمال ساعات طويلة لأنه لا يمكن الاعتماد عليه في الحضور بانتظام : ذلك أن عمالاً كثيرين كانوا يسرفون في الشراب يوم الأحد اسرافاً يعوقهم عن الحضور إلى المصنع يوم الإثنين ؛ وكان هؤلاء — بعد أن يشتغلوا أربعة أيام يلزمون بيوتهم في الثلاثة الباقية . وقد فسر آدم سمث هذه الظاهرة فقال « أن الجهد المفرط خلال أربعة أيام من الأسبوع هو في حالات كثيرة السبب الحقيقي للتبطل في الأيام الثلاثة الباقية » ؛ ونبه إلى أن اطالة فترة العمل أو الزيادة في سرعته قد تؤدي إلى الانهيار البدني أو العقلي ؛ وأردف « أن الرجل الذي يعتدل في العمل اعتدالاً يمكنه من أن يعمل باستمرار لاحتفظ بصحته أطول من غيره فحسب بل أنه على مدى السنة يؤدي أكبر قدر من العمل »^(١٩) .

أما الأجور الحقيقية فلا يمكن بالطبع قياسها إلا مرتبطة بالأسعار . ففي ١٧٧٠ كان رغيف الخبز الذي يزن أربعة أرطال في نتنجهام يباع بنحو ستة بنسات ، ورطل الجبن أو لحم الخنزير بأربعة ، ورطل الزبد بسبعة ، وقد حسب آدم سمث حوالي عام ١٧٧٣ متوسط أجر العامل اللندني بعشرة شانات ، وفي المراكز الأصغر بسبعة ، وفي إدنبره بخمسة^(٢٠) . وقال آرثر يونج حوالي عام ١٧٧٠ أن الأجر الأسبوعي للعامل الصناعي الانجليزي

يتفاوت جغرافياً من ستة شلنات وستة بنسات إلى أحد عشر شلناً . وظاهر أن الأجور كانت أقل كثيراً بالنسبة للأسعار منها الآن ، ولكن بعض العمال اشتغلوا بعض الوقت بالعمل الزراعى . وبعد ١٧٩٣ ، حين بدأت انجلترا حروبها الطويلة مع فرنسا الثائرة ، ارتفعت الأسعار بأسرع كثيراً من ارتفاع الأجور ، وبات الفقر مدقعا .

وأوصى كثير من اقتصاديى القرن الثامن عشر بخفض الأجور حفزاً للتشغيل المتصل . وحتى آرثر يونج صرح بهذا رأى ، وهو الذى أزعجه ما شهد من فقر فى بعض أقاليم فرنسا : « لا تجهل إلا أبله أنه لابد من الإبقاء على فقر الطبقات الدنيا وإلا لما نشطت أبدا » (٢١) . أو كما قال ج. سمث :

« من الحقائق التى يعرفها جيداً كل من غير هذا الموضوع أن العوز ، إلى حد ما ، يتميز على الاجتهاد ، وأن المصانع (أى العامل اليدوى) الذى يستطاع العيش على شغل ثلاثة أيام ، سيظل متبطلاً سكران بقية الأسبوع . ويمكننا على العموم أن نؤكد منصفين أن خفض الأجور فى صناعة الصوف سيكون بركة على الشعب ، وإن يضار منه الفقراء حقيقة . وبهذه الطريقة قد نحصون تجارتنا ، وندعم دخولنا ، ونصالح الشعب بالإضافة إلى هذه المنافع » (٢٢) .

واستخدمت النساء والأطفال فى المصانع ، عادة لأداء العمليات التى لا تحتاج إلى مهارة . وكانت بعض النساجات الماهرات يتقاضين أجوراً لا تتل عن أجور أزواجهن ، ولكن الأجور العادية لعمال المصانع بلغت فى المتوسط ثلاثة شلنات وستة بنسات - ولم تزد على نصف أجور العمال إلا فيما ندر (٢٣) . وكانت مصانع الغزل والنسيج وحدها فى ١٧٨٨ تشغل ٥٩.٠٠٠ امرأة و ٤٨.٠٠٠ طفل (٢٤) . وكان السير روبرت بيل يستخدم نيفا وألف طفل فى مصانعه بلانكاشير (٢٥) . ولم يكن تشغيل الأطفال بدعاً فى أوروبا ، فقد كان أمراً مسلماً به فى المزارع والصناعة الأسرية . وإذا كان التعليم العام أمراً لم يرض عنه المحافظون لأنه يفضى إلى فائض فى المتعلمين

وندره في العمال اليدويين ، فإن قلة قليلة جداً من الانجليز في القرن الثامن عشر هي التي رأت ضيراً في ذهاب الأطفال إلى المصنع بدلاً من المدرسة . وحين كانت الآلات من البساطة بحيث يستطيع الأطفال أن يقوموا عليها ، رحب أصحاب المصانع بالعلماء والفتيات ذوى الأعوام الخمسة أو يزيد . وكان المسئولون في الأبرشيات الذين ضاقوا بالإففاق على الأيتام أو أطفال الفقراء يجهزونهم لرجال الصناعة مغتربين ، أحياناً في أفواج من خمسين أو ثمانين أو مائة ؛ وفي حالات عدة كانوا يشترطون أن يأخذ صاحب العمل طفلاً معتمداً واحداً في كل عشرين طفلاً^(٢٦) . وكان يوم العمل العادي للعمال الأطفال يتراوح بين عشر ساعات وأربع عشرة . وكثيراً ما كانوا يسكنون جماعات ، وفي بعض المصانع كانوا يعملون في ورديات من اثنتي عشرة ساعة ، بحيث ندر أن توقفت الآلات أوخلت الأسرة من شاغلها . وكان النظام يحفظ بالطعم أو الركل . وقد وجد المرض ضحايا عاجزين عن درته في صبيان المصانع هؤلاء ؛ وكثير منهم أصابه العمل بتشوهات في جسده أو الحوادث بعاهات مقعدة ، ومنهم من قتل نفسه . وكان في بعض الرجال من رقة الشعور ما يكفي لدم تشغيل الأطفال هذا ، على أن هذا التشغيل تقلص لأن الناس أصبحوا أكثر رحمة ، بل لأن الآلات أصبحت أشد تعقيداً .

وأخضع الأطفال والنساء والرجال في المصانع لظروف ونظم لم يعرفوها من قبل . وكانت المباني في حالات كثيرة تشيد على عجل دون توخ للمتانة ، مما أعان قطعاً على كثرة الحوادث وتفشى المرض . وكانت القواعد صارمة ، وانتهكاتها تعاقب بغرامات قد تفقد العامل أجر يومه^(٢٧) . وكانت حجة أرباب العمل أن العناية الواجبة بالآلات وضرورة التنسيق بين مختلف العمليات ، والعادات المتسببة لسكان لم يألفوا النظام أو السرعة -- كل هذا يتطلب ضبطاً صارماً إذا أريد ألا تقضى الفوضى والتبديد على الأرباح وترفع سعر المنتجات بحيث تخرجها من السوق في داخل البلاد وخارجها . واحتمل العمال الانضباط لأن الصانع العاقل كان يواجه الجوع والبرد هو وأسرته ، وكان العامل المشتغل يعرف أن العمال العاطلين يتوقون

إلى أخذ وظيفته ، ومن ثم كان من مصلحة رب العمل أن يكون هناك « وعاء » من المتعطلين يأخذ منه البدائل للعمال المقعدين أو الساخطين أو المرفوتين . وحتى العامل الكفء الحسن السير والسلوك كان يواجه الرفض إذا تشبعت السوق المتاحة بـ « إنتاج زائد » يفوق قدرتها الشرائية ، أو إذا وضع السلام نهاية لاستعداد الجيوش المبارك لطلب مقادير متزايدة من السلع واستهلاكها بأسرع ما يمكن .

وكان العمال في ظل نظام النقابات الحرفية محميين بالأوامر النقابية أو البلدية ، أما في حركة التصنيع الجديدة فلم يجدوا حماية تذكر من القانون أو أى حماية إطلاقاً . وكانت دعوة الفزيوقراطيين لتحرير الاقتصاد من التنظيم قد تقدمت في إنجلترا كما تقدمت في فرنسا ؛ وأقنع أصحاب الأعمال البرلمان بأنهم لا يستطيعون مواصلة عملياتهم أو التصدى للمنافسة الأجنبية ما لم تترك الأجور لتحكمها قوانين العرض والطلب . وكان قضاء الصلح يحتفظون من قبل بعض الأشراف على الأجور في مصانع القرى ، أما في المصانع بعد ١٧٥٧ ، فلم يكن لهم أى إشراف^(٢٨) . ولم تر الطبقتان العليا والوسطى مبرراً للتدخل في شئون أقطاب الصناعة ، وكان فيض الصادرات المتعاطم يفتح أسواقاً جديدة للتجارة البريطانية ؛ وكان الإنجليز القادرون على الشراء مسرورين بوفرة المصنوعات .

ولكن العمال لم يصيبوا قسطاً من هذا الثراء فقد ظلوا — رغم تكاثر السلع بفضل الآلات التي يقوون عليها — فقراء عام ١٨٠٠ كما كانوا قبل قرن^(٢٩) . ثم انهم لم يعودوا يملكون أدوات حرقهم ، ولم يكن لهم نصيب يذكر في تصميم السلعة المنتجة ، ولم ينالوا كسباً من توسع السوق التي يغذونها . وزادوا فقراً على فقر بمواصلة الانحجاب المرتفع الذي يؤتى ثماره في المزرعة ؛ ووجدوا أكبر عزاء لهم في الشراب والجنس ، وظلت نساؤهم يقوون بعدد من يلدن من الأطفال . وانتشر الفقر المدقع ؛ وارتفعت المصروفات المخصصة لإغاثة الفقراء من ٦٠٠,٠٠٠ جنيه في ١٧٤٢ إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه في ١٧٨٤^(٣٠) . ولم تستطع الزيادة في الإسكان أن

تساير هجرة العمال الصناعيين أو تكاثرهم ، وكثيراً ما أكرهوا على العيش في مساكن متداعية تتزاحم في شوارع ضيقة كثيفة ، وعاش بعض العمال في أقباء زادت رطوبتها من أسباب المرض . ولم يحل عام ١٨٠٠ حتى كانت كل المدن الكبرى قد قامت فيها أحياء فقيرة مزدحمة باتت ظروف العيش فيها أسوأ من أى ظروف عرفت في تاريخ إنجلترا السابق .

وحاول العمال تحسين ظروفهم بالمشاغبات أو الاضطرابات أو التنظيم ، فهاجموا المخترعات التي تهددهم بالبطالة أو العمل الشاق والأجر الحقير . وقرر البرلمان في ١٧٦٩ اعتبار تخريب الآلات جناية^(٣١) . ولكن العمال في مصانع لانكاشير تجمعوا رغم ذلك عام ١٧٧٩ في حشد من الغوغاء تعاضم من خمسمائة رجل إلى ثمانية آلاف ؛ ثم جمعوا الأسلحة النارية والذخيرة ؛ وصهروا الأطباق البيوترية لبصنعوا منها الأعيرة ، وأقسموا أن يدمروا كل آلة في إنجلترا . وفي بواتن حطموا مصنعاً وأجهزته تحطيماً تاماً ؛ وفي أولدم اقتحموا عنوة مصنع نسيج روبرت بيل (أبى السيزروبرت الوزير) ، وحطموا أجهزته الغالية . وكانوا في طريقهم للهجوم على مصنع آركرائيت في كرامفورد حين لحق بهم الجنود المرسلون من لفربول ، ففروا للفور مدحورين . وقبض على بعضهم وحكم عليهم بالشنق . وعال قضية الصالح هذا بأن « تدمير الآلات في هذا الباد أن يكون إلا الوسيلة لنقلها إلى البلاد الأخرى . . . مما يؤذى تجارة بريطانيا »^(٣٢) . وطالب « صديق للفقراء » مجهول الهوية إلى العمال أن يتحملوا بمزيد من الصبر « أن كل الحسيينات بواسطة الآلات ينجم عنها أول الأمر بعض المصاعب للأشخاص بعينهم . . . أو لم يكن أول أثر للمطبعة هو حرمان الكثير من النساخين من حرفهم ؟ »^(٣٣) .

وحرّم القانون تأليف الاتحادات العمالية بهدف المساومة الجماعية ؛ ومع ذلك وجدت « جمعيات العمال المهرة » التي يرجع بعضها إلى القرن السابع عشر . وفي القرن الثامن عشر كثر عددها لاسيما بين صنّاع النسيج . وكانت أولاً أنندية اجتماعية أو جمعيات لتبادل المنافع ، ولكنها بتقدم القرن أصبحت أكثر عدواناً ، ونظمت أحياناً الاضطرابات حين كان البرلمان يرفض

ملتصساتها ، مثال ذلك أن السنتين ١٧٦٧ - ٦٨ شهدتا اضطرابات للملاحين والنساجين وصانعي القبعات والخياطين وطاحني الزجاج ، وصاحب العديد من هذه الاضطرابات العمالية عنف مسلح من الطرفين^(٣٤) ، وقد أجمل آدم سميث النتائج حتى ١٧٧٦ :

« ليس من العسير أن نتكهن بانتصار أحد الفريقين حتماً » في النزاع في جميع الظروف العادية ، وإكراهه الفريق الآخر على الامتثال لشروطه ، فأرباب الأعمال يستطيعون لقله عددهم أن يتكثروا بأسهل كثيراً من العمال ، والقانون . . . لا يحرم تجمعاتهم ، في حين يحرم تجمعات العمال : وليس لدينا قوانين برلمانية تمنع التكتل لخفض أجور العمال ، ولكن القوانين الكثيرة تمنع التكتل أرفعها . وفي جميع هذه النزاعات يستطيع أصحاب المصانع الصمود زمناً أطول بكثير . . . وكثير من العمال لا يستطيعون العيش وهم متعطّلون ولو أسبوعاً واحداً ، وقليلون يستطيعونه شهراً ونادر من يستطيعونه سنة »^(٣٥) .

وأنفذ أصحاب العمل مشيئتهم سواء في المصانع أوفى البرلمان ؛ ففي ١٧٩٩ قضى مجلس العموم بعدم شرعية أى اتحادات ترمى إلى الحصول على أجور أعلى أو إلى تغيير ساعات العمل ، أو إلى انقاص كمية العمل المطلوبة من العمال . ويعاقب العمال الداخلون في تكتلات كهذه بالسجن ويؤمن المبلغون عن هؤلاء العمال^(٣٦) .

٤ - عواقبها

كانت نتائج الثورة الصناعية هي تهرباً كل شيء تلاها في انجلترا إذا استثنينا الأدب والفن ؛ وليس في الاستطاعة إيفاء هذه النتائج حقها من الوصف إلا إذا كتبنا تاريخاً للقرنين الأخيرين . على أننا يجب أن نلفت النظر ولو إلى القمم البارزة لعملية التغير المستمرة والتي لم تنته بعد .

١ - تغير الصناعة نفسها بتكاثر المخترعات والآلات - وهي عملية من الكثرة بحيث تختلف طرائقنا الحاضرة في إنتاج السلع وتوزيعها عن

طرائق عام ١٨٠٠ أكثر من اختلاف هذه عن الطرائق التي سادت قبلها
بألفي عام .

٢ - انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية
إلى نظام الاستثمار الرأسمالي والمشروعات الحرة . وكان آدم سميث الصوت
البريطاني للنظام الجديد ، وأسبع بت الثاني على النظام التكريس الحكومي في
١٧٩٦ .

٣ - تصنيع الزراعة - أى الاستعاضة عن المزارع الصغيرة بمساحات
كبيرة من الأرض تدار رأسمالياً ، وتستخدم الآلات والكيماويات والقوة
الميكانيكية على نطاق واسع لإنتاج الطعام والألياف لسوق قومية أو دولية -
هذا التصنيع ما ض في طريقه اليوم . والمزرعة التي كانت تغلجها الأسرة
تنضم إلى النقابات الحرفية في ركب ضحايا الثورة الصناعية .

٤ - تشجيع العلم وتطبيقه وبثه . وقد انصب التشجيع أولاً على
البحوث العملية ولكن الدراسات في العلم البحث أفضت إلى نتائج عملية
هائلة ، ومن ثم فقد مولت البحوث النظرية أيضاً ، وأصبح العلم هو الطابع
المميز للحياة الحديثة كما كان الدين الدين للحياة الوسيطة .

٥ - أعادت الثورة الصناعية (لأنابليون كما توقع بيت الثاني) رسم
خريطة العالم بضمائها سيادة بريطانيا على البحار وعلى أكثر المستعمرات جلباً
للأرباح على مدى ١٥٠ عاماً . وقد عززت الأمبريالية لأنها حملت انجلترا -
ثم غيرها من الدول الصناعية - على فتح أصقاع أجنبية تستطيع أن توفر
الخمات أو الأسواق أو التسهيلات للتجارة أو الحرب . وأكرهت الشعوب
الزراعية على التصنيع وتقوية نفسها عسكرياً لتحصل على حريتها أو تصونها ،
وخلقت روابط اقتصادية أو سياسية أو حربية جعلت الاستقلال وهمياً
والتكافل واقعياً .

٦ - غيرت انجلترا طابعاً وحضارة بتكثير سكانها ، وتصنيع نصفها ،
وتحريكها شمالاً وغرباً إلى مدن مجاورة لمناجم الفحم أو الحديد ، أو للطرق

المائية أو البحر ؛ وهكذا نمت ليدز وشفيلد ونيو كاسل وما نشستر وبرمنجهام وليفربول وبرستل . . . وقد حولت الثورة الصناعية مناطق شاسعة من انجلترا ، ومن غيرها من الدول المصنعة ، إلى بقع ملطخة من الأرض تنفث دخان المصانع وتختنق بالغازات والغبار ، وأرسبت الخبث البشرى في أحياء قلذرة مدمخنة بائسة .

٧ — ميكنت الحرب ووسعتها وجردتها من الطابع الشخصى ورفعت قدرة الإنسان على التدمير أو القتل بدرجة هائلة .

٨ — فرضت تحسناً وسرعة في المواصلات والنقل وبهذا يسرت تكتلات صناعية أكبر وسهلت التحكم في مناطق أوسع من رأس مال واحد .

٩ — ولدت الديمقراطية برفعها طبقة رجال الأعمال إلى مكانة الثراء المهيمن ، وإلى التفوق السياسى نتيجة تدريجية لذلك . ولأحداث هذا الانتقال الخطير للسلطة ورغبة في حمايته ، جندت الطبقة الجديدة تأييد قطاع متزايد من الجماهير ، واثقة من أن في الإمكان الاحتفاظ بولائها بالهيمنة على وسائل الإعلام وتلقين المبادئ . ولكن رغم هذه الهيمنة أصبح شعب الدول الصناعية أفضل الجماهير إعلاماً في التاريخ الحديث .

١٠ — وإذا كانت الثورة الصناعية المتطورة تتطلب مزيداً من التعليم في العمال والمديرين ، فإن الطبقة الجديدة مولت المدارس والمكتبات والجامعات على نطاق لم يحلم به أحد من قبل . وكان الهدف تدريب الذكاء التقنى ، وكانت الحصيلة الجانبية توسعاً لم يسبق له نظير في الذكاء العلمانى .

١١ — نشر الاقتصاد الجديد السلع وأسباب الرفاهية بين نسبة من السكان تفوق كثيراً أى نظام سابق لأنه لم يكن من سبيل أمامه لصيانة إنتاجيته المطردة الارتفاع إلا بقوة شرائية مطردة الاتساع في الشعب .

١٢ — أزهفت العقل الحضري ، ولكنها بلدت الحس الجمالى ؛ وأصبحت مدن كثيرة قبيحة المنظر قبحاً يغم النفوس وفي النهاية أقلع الفن نفسه عن نشدان الجمال . وكان من آثار إسقاط الارستقراطية عن عرشها — زوال حافظة المعايير والأذواق وحكمتها ، وهبوط مستوى الأدب ، الفن .

١٣ - رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ووضعه ، وأفضت إلى التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وعودت الناس على التفكير باغة العلة والمعلول الماديين ، وأفضت إلى نظريات ميكانيكية النزعة فى علم الأحياء فحواها محاولة تفسير جميع عمليات الحياة على أنها أفعال ميكانيكية .

١٤ - تضافرت هذه التطورات فى العلم ، والنزعات الشبيهة بها فى الفلسفة ، مع الأحوال الحضرية والثراء المتسع ، على إضعاف العقيدة الدينية .

١٥ - غيرت الثورة الصناعية من الأخلاقية . إنها لم تغير طبيعة الإنسان ولكنها أعطت قوى وفرصاً جديدة لغرائز قديمة نافعة بدائياً ، مكدره اجتماعياً . وأكدت حافز الكسب إلى حد بدا فيه مشجعاً ومكثفاً لأزانية الإنسان الفطرية . لقد كانت الغرائز غير الاجتماعية تجهد كالجأ لجماحها فى سلطة الوالدين ، وفى التعليم الأخلاقى فى المدارس ، وفى التلقين الدينى ، ولكن الثورة الصناعية أضعفت هذه الكوابح كلها . وكانت الأسرة فى النظام الزراعى هى وحدة الإنتاج الاقتصادى كما كانت وحدة الاستمرار العرقى والنظام الاجتماعى ؛ وكانت تعمل جماعة على الأرض خاضعة للنظام الذى يفرضه الأبوان والفصول ؛ وقد علمت التعاون وشكلت الخلق . أما النزعة الصناعية فقد جعلت الفرد والشركة هما وحدتى الإنتاج ، وفقاً للأبوان والأسرة الأساس الاقتصادى لسلطتهما ووظيفتهما الأخلاقية . وإذا أصبح تشغيل الأطفال غير مجز فى المدن لم يعد للأطفال نفع اقتصادى . وانتشر ضبط النسل ، وأكثر انتشاره بين الأفراد الأكثر ذكاء ، وأقله بين الأقل ذكاء ، مما أحدث نتائج غير متوقعة للعلاقات العرقية والسلطة الثيوقراطية : وإذا حرر تحديد الأسرة والأجهزة الميكانيكية المرأة من هموم الأمومة وواجبات البيت ، فقد جذبت إلى المصانع والمكاتب ؛ وكان التحرير معناه التصنيع . وإذا استغرق الأبناء فترة أطول حتى يصلوا إلى الاعتماد على ذواتهم اقتصادياً فإن الفترة التى طالت بين النضج البيولوجى والاقتصادى جعلت العفة السابقة للزواج أشق ، وحطمت الزاموس الأخلاقى الذى كان ممكناً فى المزرعة بفضل النضج الاقتصادى المبكر ، والزواج المبكر ، والعقوبات الدينية

ووجدت المجتمعات الصناعية نفسها منساقة على غير هدى في فترة فاقدة لحس المسؤولية الأخلاقية ، بين ناموس أخلاقي يختصر وآخر جديد لم يتشكل بعد .

وما تزال الثورة الصناعية ماضية في طريقها قدماً ، وليس في قدرة عقل واحد أن يستوعبها في جميع مظاهرها ، أو أن يصدر حكماً أخلاقياً على نتائجها . ولتند ولدت مقادير وأنواعاً جديدة من الجرائم ، وألهمت العلماء كل ما اتصف به المبعوثون الدينيون والراهبان من اخلاص وتفان ، وأنتمجت المباني القبيحة ، والشوارع الكثيرة ، والأحياء الفقيرة المظلمة ، ولكن هذه لم تكن مستمدة من صحيحها ، وهو احلال القوة المكنية محل الجهد البشري . وهي الآن تهاجم شرورها ، لأنها وجدت أن الأحياء الفقيرة القدرة تكاف أكثر من التعليم ، وأن التخفيف من الفقر يثرى الأغنياء . وفي استطاعة المعمار الوظيفي والبراعة الميكانيكية — كما نرى في الكبارى مثلاً — أن يخلقوا جمالاً يزاوج بين العلم والفن . وأخذ الجمال يصبح مجزياً ، والتصميم الصناعي يتبوأ مكانه بين فنون الحياة وأسباب تجميلها .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

المسرحية السياسية

١٧٥٦ — ٩٢

١ — البنية السياسية

كانت الثورة الصناعية أهم عملية أساسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في إنجلترا ، والصراع السياسي أكثر الدرامات اثارة فيها . فقد جعل عمالقة الخطابة الانجليزية — شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان — هؤلاء جعلوا مجلس العموم مسرحاً لصراعات مريرة خطيرة بين البرلمان والملك ، وبين البرلمان والشعب ، وبين إنجلترا وأمريكا ، وبين ضمير إنجلترا وحكام الهند الانجليز ، وبين إنجلترا والثورة الفرنسية . وكان البناء السياسي اطار المسرحية وأداتها .

كانت حكومة بريطانيا العظمى ملكية دستورية ، بمعنى أن الملك كان يوافق ضمناً على أن يحكم وفق القوانين الراهنة والممارسات التقليدية ، وألا يضع قوانين جديدة دون موافقة البرلمان . أما الدستور فلم يكن وثيقة بل تراكمًا للسوابق باستثنائين ، أولهما المجنكا رتا الذي وقعه الملك يوحنا في ١٢١٥ ، والثاني نشأ حين أرفق مؤتمر وستمنستر في ١٦٨٩ (الذي عرض تاج إنجلترا على وليم أورنج وزوجته ماري) بهذا العرض « قانونا يعلن حقوق وحرريات الرعية ويسوى مسألة وراثة التاج » وقد أكد « قانون الحقوق » هذا كما سمي اختصاراً ، أن « سلطة وقف القوانين أو تنفيذ القوانين بأمر ، اكى دون موافقة البرلمان غير قانونيه » وأن « جباية المال للتاج أو لاستعماله بدعوى الحق الملكي الخاص ، دون إذن البرلمان . . . عمل غير قانوني » ثم أردف : « ونظراً إلى الثقة الكاملة بأن . . . أمير أورنج سوف

محميهم (أى البرلمان) من انتهاك حقوقهم التى أكدوها هنا ، ومن أى اعتداءات أخرى على دينهم وحقوقهم وحررياتهم ، فإن . . اللوردات الروحانيين والزمنيين ونواب العموم . . يتررون أن يكون وليم ومارى ، أمير وأميرة أورنج . وأن ينادى بهما ملكاً وملكة على انجلترا وفرنسا وارياندة . « ومنى هذا إن وليم الثالث ومارى الثانية بقبولهما العرش قبلاً ضمننا القيود التى وضعتها أرستقراطية انجلترا المزهوة القوية على ساحة الملك بهذا التصريح . وحين عرض البرلمان فى « قانون تسوية » لاحق (١٧٠١) ، وبشروط معينة : التاج على « الأميرة صوفيا » (الهانوفرية) وورثتها البروتستانت « افترض أنها هى وهؤلاء الورثة وافقوا بقبولهم العرش على « قانون للحقوق » سلبهم كل الحق فى وضع القوانين إلا بموافقة البرلمان . وبينما كانت جميع دول أوربا تقريباً حتى ١٧٨٩ يحكمها ملوك مستبدون يضعون القوانين ويلغونها ، كان لانجلترا حكومة دستورية امتدحها الفلاسفة وحسدتها نصف العالم .

وقد قدر تعداد ١٨٠١^(١) سكان بريطانيا العظمى بتسعة ملايين نسمة ينقسمون إلى الفئات التالية :

١ — فى القمة ٢٨٧ نبيلاً ونبيلة زمنيين (علمانيين) بوصفهم رؤساء أسر مجموعها نحو ٧,١٧٥ شخصاً . وكان داخل هذه الفئة مراتب فى ترتيب تنازلى : أمراء الدم (الملكى) ، وأدواق ، وماركيزات ، وايرلات ، وفيكونتات ، وبارونات . وانحدرت هذه الألقاب إلى الإبن الأكبر جيلاً بعد جيل .

٢ — ستة وعشرون أسقفاً — « لوردات روحيون » وكان من حقهم هم واللوردات الزمنيين الـ ٢٨٧ أن يجلسوا فى مجلس اللوردات . وقد ألف هؤلاء معاً — وجمعتهم ٣١٣ أسرة — طبقة النبلاء الأصليين . ويصبح استعمال لقب « اورد » لهم جمعياً إلا الأدواق والأمراء . وكان من الممكن اكتساب نبالة دون ذلك رسمية ، ودون حق توريتها ، بفضل التعيين فى الوظائف العليا فى الحكومة أو الجيش أو البحرية ، ولكن كان المتبع عادة أن يعين فى هذه الوظائف أشخاص رفعوا إلى مقام النبالة من قبل .

٣ - نحو ٥٤٠ بارونتا ، وزوجاتهم ، يحق لهم أن يضعوا لقب « سير » و« ليدى » فى صدر أسمائهم الأولى ، وأن يورثوا هذين اللقبين .

٤ - نحو ٣٥٠ فارساً وزوجاتهم يحق لهم استعمال اللقبين السابقين ، دون توريثهما .

٥ - نحو ستة آلاف « سكوائر » Squires (e) وهم الـ « gentry » أو الطبقة الكبرى من ملاك الأرض الرئيسيين . وكان البارونيتات ، والفرسان ، وهؤلاء الملاك ، وزوجاتهم ، يؤلفون « الطبقة الدنيا من النبلاء » ويندرجون بوجه عام هم وكبارهم فى الطبقة « الارستقراطية » .

٦ - نحو عشرين ألف « سيد » (جنتلمان « أو سيدة » (ليدى) يعيشون على دخول دون عمل يدوى ، لهم شعارات نبالة ، ومفروض أنهم من أصل كريم « gentle » - أى ولدوا فى مجموعة الأسر العريقة المقبولة « gens » .

٧ - وأسفل هؤلاء جميعاً جاءت بقية السكان ، الأكليروس الأدنى ، وموظفو الدولة ، ورجال الأعمال ، والمزارعون ، وأصحاب المتاجر ، ومهنة الصنائع ، والعمال ، والجنود ، والبحارة ، كذلك نحو ١٠٤,٠٠٠ من المعلمين الذين يتلقون المعونة من الدولة ونحو ٢٢٢,٠٠٠ من « المتشردين ، والعجزة ، والأشرار ، واللصوص ، والمحتالين ، ومزيفى العملة البخسة ، داخل السجون أو خارجها ، وعامة البغايا » (٢) .

وقد هيمنت الطبقة الأرستقراطية على الحكومة ، دون أن تلقى من المقاومة إلا العارضة بفضل ثرائها (وقد أصاب النبلاء ٢٨٧ تسعة وعشرين فى المائة من الدخل القومى فى ١٨٠١) (٣) ، وبروزها فى الوظائف العليا مدنية أو حربية ، وهيبة عراقها ، وهيمنتها على الانتخابات البرلمانية والتشريع وكانت إنجلترا من ناحية النظام الانتخابى مقسمة إلى أربعين اقليماً أو مقاطعات ريفية (Counties) و ٢٠٣ مدينة ذات ممثلين (boroughs) . وكان يستثنى من حق التصويت النساء ، والمعلمون ، والمجرمون المحكوم عليهم ، والكاثوليك الرومان ، والكويكرز ، واليهود ، واللاأدريون ، وغيرهم ممن

لا يستطيعون حلف يمين الولاء لسلطان الكنيسة الانجليزية وعقائدها . ولم يكن حق التصويت للبرلمان محولاً في الأقاليم إلا للملاك البروتستانت الذين يدفعون ضريبة سنوية قدرها أربعون شلناً ، ومجموعهم نحو ١٦٠,٠٠٠ . ولما كان التصويت علنياً ، فإن قليلاً جداً من الناجحين كانوا يجرون على تأييد أى مرشح غير الذى رشحه كبار ملاك الإقليم ، ومن ثم لم يكثر بالتصويت الا نفر قليل نسبياً من الناجحين ، وكان الكثير من الإنتخابات يتقرر بترتيب يتفق عليه الرعماء دون اقتراع على الإطلاق . وكان كبار ملاك الأرض يرون أن من الإنصاف لهم - وهم يراهنون بالكثير فى سياسة الحكومة ومصير الأمة - أن يكون تمثيلهم فى البرلمان متناسباً مع ثروتهم . وقد وافق على هذا الرأى معظم صغار الملاك .

أما المدن فقد تمثل فيها تنوع مربك من الأنماط الانتخابية . ففى مدينة وستمنستر (وسط لندن حالياً) كان هناك نحو تسعة آلاف ناخب ، وفى مدينة لندن كما كانت مكونة آنئذ ستة آلاف ؛ وفى برستل خمسة آلاف ؛ ولم تضم أكثر من ألف ناخب سوى اثنتين وعشرين مدينة^(٤) . وفى اثنتى عشرة مدينة كان التصويت من حق جميع الذكور؛ وفى معظم المدن الباقية اقتصر على ذوى الأملاك ؛ وفى عدة مدن كان المرشحون ينتخبهم « تكتل » بلدى عرف بأنه « أولجركية حضرية من المحامين والتجار والسماسرة وصانعى الجعة ، تحصنت فى تكتل ينتخب ذاته ، وخولت له براءة ملكية الهيمنة وحده على أملاك المدينة »^(٥) . وكان بعض هذه التكتلات يعطى صوته للمرشح (أو المرشحين) الذى يدفع راعيه (أو راعيهم) أغلى ثمن . وفى ١٧٦١ أعلنت مدينة صدىبرى صراحة عن بيع صوته ، وفى الانتخاب التالى عرضت بلدية أكسفورد رسمياً أن تعيد انتخاب أعضائها فى البرلمان إذا دفعوا ديون البلدية^(٦) . وكان امتياز اختيار المرشح فى بعض المدن مملوكه بحكم العادة أفراد أو أسر معينة لاتسكن هناك بالضرورة ، وآية ذلك أن اللورد كاملفورد كان يفاخر بأنه لو شاء لاستطاع أن ينتخب ساقيه الزنجى للبرلمان^(٧) . وكانت « دوائر الجيب » هذه تباع أحياناً كالمسلع . فاشترى اللورد أجرمونت مدهرسد ودفع فيها ٤٠,٠٠٠ جنيه^(٨) وفى بعض « الدوائر

الفاسدة Rotten boroughs كانت حفنة من الناخبين تستطيع أن تبعث إلى البرلمان نائباً أو أكثر في حين لم يكن نصيب مدينة لندن غير أربعة . وحتى حين كان حق التصويت للجميع تقريباً وكان العامل الذي يحسم الانتخاب عادة هو الرشوة أو العنف أو إتمام الناخب العنيد بالخمر إلى درجة تعجزه عن الأدلاء بصوته^(٩) . وقد سيطر ١١١ « راع » على الانتخابات بمختلف الوسائل في ٢٠٥ مدينة^(١٠) . وبلغ عدد الناخبين نحو ٨٥,٠٠٠ في المدن ، و ١٦٠,٠٠٠ في الأقاليم — والجملة ٢٤٥,٠٠٠ .

من هذه الانتخابات المتباينة جاء أعضاء مجلس العموم البالغ عددهم ٥٥٨ عضواً في ١٧٦١ . فأرسلت أسكتلندة خمسة وأربعين ، وأقاليم إنجلترا وويلز أربعة وتسعين ، والمدن ٤١٥ ، والجامعتين نائبين عن كل . وكان مجلس اللوردات يضم آنذ ٢٢٤ من كبار النبلاء ، علمانيين أو رومانيين ، وكان « الامتياز البرلماني » يشمل حق البرلمان في إقرار مشروعات القوانين المقدمة للتشريع ، وفي فرض الضرائب وهذا يملك « قوة المال » ، وفي الحكم على مسوغات الأشخاص الذين يطالبون بقبولهم في عضويته ، وأن يعاقب — بالسجن إن شاء — أي ضرر يلحق بأعضائه أو أي عصيان لقواعده ؛ وأن يتمتع بكامل حرية الكلام ، بما في ذلك الحصانة من العقاب على الألفاظ التي يتفوه بها في البرلمان .

أما انقسام الأعضاء إلى محافظين Tories وأحرار whigs فكان في ١٧٦١ قد فقد تقريباً كل دلالة ، وكان الانقسام الحقيقي بين المؤيدين والمعارضين لـ « الحكومة » الحالية ، أو الوزراء ، أو الملك . وكان المحافظون بوجه عام يحمون مصالح ملاك الأرض ؛ والأحرار على استعداد بن حين وحين للنظر في رغبات طبقة رجال الأعمال ؛ وفيما خلا ذلك كان كلا المحافظين والأحرار محافظين على السواء . ولم يشرع أحد الحزبين قوانين لمصلحة الجماهير .

والمشروع لا يصبح قانوناً إلا إذا وافق عليه مجلسا البرلمان ووقعه الملك . وكان الملك يملك « الحق الملكي الخاص » أي السلطات ، والامتيازات ،

والخصومات الممنوحة له بحكم العرف والقانون الانجليزين . فكان له سلطات
حربية : فهو القائد الأعلى للجيش والبحرية ، يستطيع اعلان الحرب ،
ولكنه يحتاج إلى التخصيصات البرلمانية ليخوضها ؛ ويستطيع المفاوضة لإبرام
المعاهدة وعقد الصلح . وكان له بعض الحقوق التشريعية ، فهو يستطيع
الامتناع عن الموافقة على مشروع أقره البرلمان — ولكن كان في استطاعة
البرلمان أن يحمله على الموافقة بما يملك من قوة المال ، وعلى ذلك لم يمارس
ذلك الحق إطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح
لم يمارس ذلك الحق إطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين
بالتصريح أو بالأوامر الصادرة من مجلسه الخاص ، ولكنه لا يستطيع تغيير
القانون العام ، أو استحداث جريمة جديدة ؛ أما المستعمرات فيستطيع أن
يشرع لها كما يشاء . وكان له سلطات تنفيذية . فله وحده أن يدعو البرلمان
أو يؤجله أو يفضيه ، وكان يعين الوزراء الذين يوجهون السياسة والإدارة ،
وكان بعض الضجة التي اصطخبت في العقود الأولى (١٧٦٠ — ٨٢) من
حكم جورج الثالث الذي امتد ستين عاماً يدور حول مدى حق الملك في
اختيار الوزراء وتقرير السياسة .

وقد ضيق حق الملك في التشريع ولم يكن ممكناً جعل المشاريع التي
يقترحها وزراءه على البرلمان قانوناً إلا بإقناع مجلسي البرلمان كليهما بقبولها .
وكان هذا يتم بالمساومات السياسية ، أو بالوعد بالمناصب أو المعاشات
أو بقبضها ، أو بالرشوة (في ١٧٧٠ كان أكثر من ١٩٠ عضواً في مجلس
العموم يملكون وظائف تعيين في الحكومة) . أما الأموال والمكافآت التي
تتطلبها هذه العمليات فكان أكثرها يأتي من « القائمة المدنية » للملك ، وهي
حساب نفقاته لشخصه ولأسرته (التخصيصات الملكية) ، وليبوته وخدمه ،
وللرواتب التي يدفعها ، وللمعاشات الممنوحة على سبيل المكافأة . وقد خصص
البرلمان لجورج الثالث ٨٠٠,٠٠٠ جنيه في العام لهذه القائمة المدنية ؛ ولكنه
كثيراً ما تجاوز هذا المبلغ في نفقاته ؛ وفي ١٧٦٩ أضاف البرلمان ٥١١,٥١٣
جنيهاً ، وفي ١٧٧٧ أضاف ٦١٨,٣٤٠ جنيهاً ليدفع الديون الملكية . وكان
بعض مال الملك يستخدم في شراء الأصوات في الانتخابات البرلمانية (١) ،

وبعضه لشراء الأصوات في البرلمان نفسه . وفي حالات كثيرة كانت الاعتمادات التي يوافق عليها البرلمان للخدمات السرية ترد إلى البرلمان على هيئة رشاوى . فإذا أضفنا إلى هذه التجارة الملكية المال الذي ينفقه في الانتخابات أو التشريع « النوابون » العائدون إلى إنجلترا بثروة جمعوها في الهند ، أو رجال الأعمال الساعون إلى عقود حكومية أو إلى تفادي تدخل الحكومة ، اكتملت لنا صورة للفساد السياسي منقطعة النظير غربى الأودر ، تكشف عن طبيعة البشر كشفاً لا يشرح الصدور .

وينبغي أن نلاحظ هنا بعض التفاصيل الصغيرة للنظام البريطاني . فقد فرضت الضرائب على جميع ملاك الأرض كباراً أو صغاراً ، وربما كان هذا عاملاً من عوامل الاحترام الذي أبداه عامة الشعب نحو طبقة النبلاء ، ولم يسمح البرلمان بجيش دائم — بل سمح بمليشيا فقط ، وكان هذا عاملاً صغيراً في ثراء إنجلترا المتفوق في وقت كانت فرنسا تنفق فيه على جيش دائم عدته ١٨٠,٠٠٠ مقاتل وبروسيا ١٩٠,٠٠٠ ، وروسيا ٢٢٤,٠٠٠ . على أنه في زمن الحرب كانت القوات المسلحة تجند دون هوادة سواء بالتطوع أو الإكراه ، وكانت انتهاكات الحرية الشخصية نتيجة لهذه العادة ، وألوان القسوة الموحشة في حياة الجيش والبحرية ، أطيافاً قائمة تلوث المسرح الإنجليزي .

وفي رأى بلاكستون (حوالى ١٧٦٥) أن بناء إنجلترا السياسى كان خير ما سمحت به طبيعة الناس وتعليمهم في تلك الحقبة . وقد استشهد بالرأى القديم القائل بأن خير أنواع الحكم ما جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية ، وقد وجد هذه كلها « مجتمعة أجمعاً حسناً وموفقاً » في الدستور البريطانى . يقول :

« فبما أن السلطة التنفيذية للقوانين عندنا مخولة لشخص فرد ، فإن لها كل مزايا القوة والنجاز التي توجد في أكثر الملكيات استبداداً ؛ وبما أن تشريع المملكة موكول إلى سلطات متميزة ثلاث ، مستقلة كل الاستقلال بعضها عن بعض ؛ أولاً الملك ، ثانياً اللوردات الروحيين والزمنيين الذين

يؤلفون مجلساً أرسقراطياً من أشخاص اختيروا لتقواهم أو عراقتهم أو حكمتهم أو بسالتهم أو ثرائهم ؛ ثالثاً مجلس العموم الذى يختاره أفراد الشعب اختياراً حرّاً من بينهم ، مما يجعله نوعاً من الديمقراطية ؛ وبما أن هذه الهيئة الكلية التى تحركها مختلف الدوافع والتى تعنى بمختلف المصالح . . . لها التصرف الأعلى فى كل شىء ، فلا يمكن أن يكون هناك عمل مزعج يحاوله أى فرع من الفروع الثلاثة إلا حال دونه الفرعان الآخريان ؛ لأن كل فرع مسلح بسلطة سلبية تكفى لصده أى بدعة تراها غير لائقة أو خطيرة . هنا إذن تكمن سيادة الدستور البريطانى ، وتكمن على خير ما يمكن للمجتمع (١٢) .

وقد تبسّم لنزعة المحافظة المشوبة بحب الوطن لفقيره قانونى شامخ ينظر إلى الأمر من موقعه العالى المريح ، ولكن أغلب الظن أن حكمه كانت تكرسه تسعون فى المائة من الشعب الانجليزى أيام جورج الثالث .

٢ — أبطال الدراما

كان أشخاص الدراما من أشهر من حوالم التاريخ الانجليزى . فعلى القمة جورج الثالث الذى تربع على العرش طوال الأعوام المنحوسة (١٧٦٠ — ١٨٢٠) التى مرت بانجلترا خلال الثورتين الأمريكية والفرنسية وحروب نابليون . وكان أول الملوك الهانوفرين المولودين فى إنجلترا ، أول من نظر إلى نفسه كرجل انجليزى ، وأول من استغرقه الاهتمام بالشئون الانجليزية . وهو حفيد جورج الثانى ، وابن فردريك لويس أمير ويلز العتيد الذى كان قد مات فى ١٧٥١ . وكان الملك المستقبل جورج الثالث آنذا فى الثانية عشرة من عمره . وخافت عليه أمه ، أوجسة أميرة ساكسى — جوتا من « شباب الطبقة العليا الأراذل سبيء التربية » الذين كانت تلقاهم ، فعزلته عن مثل هذه المعاشرات ، ونشأته — واحداً من ثمانية أطفال — فى عزلة مانعة عن الألعاب والأفراح والضجيج والتفكير فى أترابه وفى جيله . ومن ثم شب هيباباً ، كسولاً ، متديناً ، سبيء التعليم ، تعساً . وقد قال لأمه اللوامه « لو أننى رزقت ولداً لما جعلته تعساً كما تجعلينى (١٤) » . وقد بثت فيه احتقارها لجده لأنه أطاق تسيد البرلمان ، وكانت تردد على مسامعه المرة بعد المرة ، « كن ملكاً يا جورج ! » — وأهابت به أن ينتزع قيادة الحكم النشيطة من جديد .

وهناك رواية متواترة كثيراً ما يشوبها الشك تنسب إلى الفقي شرف
التأثر بكتاب بولنجبروك « مفهوم الملك الوطنى » (١٧٤٩) الذى حث
الحكام على « أن يحكموا ولا يكتفوا بأن يملكوا » وأن يسنوا القوانين لتحسين
الحياة الانجليزية^(١٥) (مع « السماح للبرلمان بأن يحتفظ بالسلطات التى
ملكها » . وقد وصف اللورد وولد جريف جورج فى عام ١٧٥٨ ، وكان
أحد معلميه ، بأنه « أمين غاية الأمانة ، ولكنه يفتقد ذلك السلوك الصريح
المفتوح الذى يجعل الأمانة صفة محبة . . . وهو لا يفتقر إلى العزيمة ، ولكنها
مشوبة بعناد شديد . . . وفى طبعة ضرب من الشعور بالتعاسة . . . مما
سيكون مصدرراً لقلق دائم »^(١٦) . وقد لازمته هذه الصفات إلى نهاية
الحقبة التى كان عقله فيها سليماً .

وبعد أن مات أبو جورج وثقت الأرملة صداقتها بحون ستيوورت ،
ايرل بيوت ، أمين الأرواب فى البيت الأميرى ، وكان بيوت فى الثامنة
والثلاثين فى ١٧٥١ ، متزوجاً منذ خمسة عشر عاماً ماري ورتلى مولتجيو
ابنة الليدى ماري مولتجيو الشهيرة . وفى الأعوام الأخيرة السابقة لارتقاء
جورج العرش اتخذ بيوت كبيراً لأمنائه ومعلميه . وكان معجباً بعلم هذا
الاسكتلندى ونزاهته ، وتقبل مشورته شاكراً ، ولقى منه التشجيع على
اعداد نفسه للقيادة العدوانية فى الحكم . وحين خطر الأمير الشاب أن يعرض الزواج
على حسناء فى الخامسة عشرة تدعى الليدى ساره لينوكس ، أذعن فى حزن ولكن
فى محبة لنصح بيوت بوجوب زواجه من أميرة أجنبية تعيينه على دعم تحالف سياسى
نافع . وكتب إليه يقول « اننى أسلم مستقبلى بين يديك ، وأمنه نفسى من التفكير
حتى فى غرامى الحبيب ، وأجتر حزنى فى صمت ، دون أن أكدرك بعد
اليوم إطلاقاً بهذه القصة التعسة ؛ لأنه لو فرض على الخيار بين فقد صديقى
أو حبيبتى ، لنصحيت بالأخيرة يقيناً ، لأننى أقدر صداقتك فوق أى متعة
أرضية »^(١٧) وقد أخذ جورج بيوت معه حين ارتقى العرش .

وشهد ملكه خطوباً وكوارث من أفجع ما منيت به إنجلترا فى تاريخها ،
وعليه وقع جانب من التبعة . ومع ذلك كان هو ذاته دون ريب رجلاً مسيحياً ،

وانساناً مهذباً عادة ، قبل لاهوت الكنيسة الإنجليكانية ، وتمسك بطقوسها في إخلاص وتواضع ، ووبخ واعظاً للبلاط امتدحه مرة في عظة . وقد حاكى خصومه السياسيين في استعمال الرشوة ، وبز معلميه في هذا المظهر ، ولكنه كان مثالا في الفضيلة في حياته الخاصة . وفي جيله الذي اشتهر بالإباحية الجنسية أعطى انجلترا قدوة في الوفاء الزوجي كانت النقيض لخianات أسلافه وانحرافات أخوته وأبنائه . وكان آية في اللطف والعطف في كل شيء إلا الدين والسياسة ، بسيط العادات والميول وإن كان مسرفاً في العطاء . وقد منع القمار في بلاطه ، وكد وكدح في الحكم بعزيمة صادقة ، فكان يهتم بالتفاصيل الدقيقة ، ويبعث بتعليماته لمساعديه ووزرائه مراراً كل يوم . ولم يكن بيورتانيا متزمتاً مكتئباً ، فقد أحب المسرح والموسيقى والرقص . ولم تعوزه الشجاعة : فقد حارب خصومه السياسيين بعناد طوال نصف قرن ؛ وواجه جمهوراً عنيداً من الرعايا ببسالة في ١٧٨٠ ، واحتفظ برباطة جأشه خلال محاولتين للاعتداء على حياته . وقد أقر في صراحة بعيوب تعليمه ، وظل إلى النهاية بريئاً نسبياً من الأدب والعلم والفلسفة . وإذا كان ضعيف العقل بعض الشيء فلعل ذلك مرده التواء في الجنينات أو إهمال في معلميه ، كما كان مرده مئات الضغوط التي تكتنف الملك .

ومن مأخذه أنه كان يغار من الأكفاء النزاعين إلى الاستقلال برأيهم ويشك فيهم . فلم يستطع قط أن يغتفر لوليم بت الأول ما شعر به من تفوق في الرؤية والفهم السياسيين ، وفي نفوذ الحكم ، وفي قوة الخطابة وبلاغتها . وقد سبق أن رأينا^(١٨) سيرة هذا الرجل الفذ منذ دخوله البرلمان (١٧٣٥) حتى انتصاره في حرب السنين السبع . وكان في استطاعته أن يكون متغطرساً عنيداً — أكثر كثيراً من جورج الثالث ؛ فقد شعر أنه هو الحارس الحقيقي للإمبراطورية التي خلقت تحت قيادته ؛ فلما التقى الملكان — الملك الإسمي والملك الفعلي — تلا اللقاء صراع بينهما على العرش . وكان بت رجلاً نزيهاً لم تلوثه الرشوة التي استشرت من حوله ، ولكنه لم يفكر في السياسة إلا بلغة المنفعة القومية ، ولم يسمح لأي عاطفة رحمة أن تثني عزمه على احراز التفوق الأعظم لانيجلترا . وقد لقب « العاى العظيم » لا لأنه فكر في تحسين ظروف

وأحوال عامة الشعب بل لأنه كان أعظم رجل في مجلس العموم ؛ على أنه انبرى للدفاع عن الأمريكيين وشعب الهند ضد ظلم الانجليز وكان كالملك يكره النقد « غير مبال للنسيان أو الصفح » (١٩) وكان يأبى أن يخدم الملك إلا إذا استطاع أن يسيطر عليه ، وقد استقال من الوزارة (١٧٦١) حين أصر جورج الثالث على انتهاك اتفاق انجلترا مع فردريك وعقد صلح منفرد مع فرنسا . وإذا كان قد قهر في النهاية فإن العدو الذي قهره لم يكن غير النقرس .

ويضارع تأثير بت في السياسة الانجليزية تأثير إدموند برك في الفكر الانجليزي . وقد اختفى بت من المسرح في ١٧٧٨ ، وظهر عليه برك في ١٧٦١ ، وظل يشد انتباه المثقفين من الانجليز في فترات متقطعة حتى عام ١٧٩٤ ، وربما كان مولده في دبلن (١٧٢٩) لأحد المحامين عقبة في طريق كفاحه للمنصب والسلطة السياسيين ، فهو لم يكن انجليزياً إلا بالتبني ، ولا عضواً في أى أرسقراطية إلا أرسقراطية الذهن . ولا بد أن كثلكة أمه وأخته كان لها دخل في عطفه طوال حياته على كاثوليك انجلترا وايرلنده ، وتأكيده الذي لأبني على الدين بوصفه حصناً لا غنى عنه للأخلاق والدولة . وقد تلقى تعليمه المدرسى في مدرسة للكويكر في باليتور ، وفي كلية ترنيتي بدبلن . وتعلم من اللاتينية ما يكفي للإعجاب بخطب شيشرون وجعلها الأساس لأسلوبه البلاغى .

وفي ١٧٥٠ انتقل إلى انجلترا ليدرس القانون في « مدل تيميل » . وقد امتدح القانون فيما بعد لأنه (علم يعين على شحن الفهم وتنشيطه أكثر من جميع ألوان المعرفة مجتمعة) ولكنه ذهب إلى أنه « لا يصلح لفتح مغاليق العقل وتحريره بذات القدر بالضبط ، اللهم إلا في أشخاص محظوظي المولد » (٢٠) وحوالى ١٧٧٥ قبض أبوه عنه الراتب الذى يمد به بحجة أنه يهمل دراسة القانون مؤثراً عليها هوايات أخرى . ويبدو أن ادموند كان قد هوى الأدب ، وكان يختلف إلى مسارح لندن وأنديتها الخطابية ، وسرت أسطورة زعمت أنه هام بالمثلة الشهيرة بيج ووفنجتن . كتب إلى صديق

فى ١٧٥٧ يقول : « لقد كسرت كل قاعدة ، وأهملت كل لياقة » ، ووصف « أسلوب حياته » بأنه تتنوع فيه مختلف الخطط ، فأنا فى لندن ، وأنا فى أنحاء نائية من الريف ، وأنا آخر فى فرنسا ، وعما قريب فى أمريكا أن استجاب لى الله . وفيما خلا هذا لا نعرف عن برك شيئاً فى سنى الاختبار والتجريب تلك ، اللهم إلا أنه فى ١٧٥٦ ، فى تعاقب غير مؤكد ، نشر كتابين رائعين وتزوج .

وأحد الكتابين عنوانه « دفاع عن المجتمع الطبيعى ، أو نظرة إلى ألوان الشقاء والشر التى يجرها على البشر كل نوع من أنواع المجتمع الاصطناعى ، خطاب إلى اللورد — بقلم كاتب نبيل • توفى » . والمقال الذى بلغت صفحاته نحو خمس وأربعين ، هو فى عنوانه ادانة قوية لكل أنواع الحكم . فيه من النزعة الفوضوية أكثر كثيراً مما فى مقال روسو « الأصل فى عدم المساواة » الذى ظهر قبل ذلك بسنة فقط . وقد عرف برك المجتمع الطبيعى بأنه « مجتمع أساسه الرغبات والغرائز الفطرية لا أى نظام وضعى »^(٢١) . « فتطور القوانين كان انحطاطاً »^(٢٢) ، وما التاريخ إلا سجلاً للمجازر والغدر والحرب^(٢٣) ، والمجتمع السياسى متهم بحق بأكبر قسط من هذا الدمار »^(٢٤) . وكل الحكومات تتبع المبادئ المكيافيلية ، وترفض كل الضوابط الأخلاقية ، وتعطى المواطنين مثلاً مفسداً للجنش والخديعة واللصوصية والقتل^(٢٥) . والديمقراطية فى أثينا وروما لم تأت بعلاج لشرور الحكم ، لأنها سرعان ما انقلبت دكتاتورية بفضل قدرة زعماء الدهماء على الظفر بإعجاب الأغليبيات الساذجة . أما القانون فهو الظلم مقنناً ، فهو يحمى الأغنياء المتبطين من الفقراء المستغنين^(٢٦) ، ويضيف إلى ذلك شراً جديداً — هو المحامون^(٢٧) « لقد أحال المجتمع السياسى الكثرة ملكاً للقلة » . فانظر إلى حال عمال المناجم فى إنجلترا ، وفكر ملياً أكان من الممكن أن يوجد شقاء كشقتهم فى مجتمع طبيعى — أى قبل وضع القوانين — أفينبغى رغم ذلك أن نقبل الدولة ، كما نقبل الدين الذى يساندها ، على أنها قد استلزمها طبيعة الإنسان ؟ كلا على الإطلاق .

« ان كانت نيتنا أن نخضع عقلنا وحریتنا للاغتصاب المبدى ، فإنه لا سبيل أمامنا إلا الامتثال بكل ما نستطيع من هلدوء الأفكار والتصورات السوقية (الشعبية) المرتبطة بهذا ، واعتناق لاهوت السوق وسياستهم سواء بسواء أما إذا رأينا هذه الضرورة وهمية لا حقيقية ، فإننا سننبذ أحلامهم عن المجتمع كما ننبذ رؤاهم عن الدين ، ونحرر أنفسنا حربة كاملة » (٢٩) .

وفى هذا رنين شجاع وإخلاص غاضب من راديكالى شاب ، فى متدين روحاً ولكنه يرفض اللاهوت المقرر ، شديد الإحساس بما رأى فى انجلترا من فقر وانحطاط ، وصاحب موهبة واعية بلداتها ولكنها لم تزل بغير مكان ولا مقام فى خضم العالم . وكل فى يقظ يمر بهذا الظور فى طريقه إلى المنصب ، والرأى ثم النزعة المحافظة المرتاعة التى سنجدها فى كتاب بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » . ونلاحظ أن مؤلف « الدفاع » تحق وراء اسم مجهول ، حتى إلى حد ادعاء الموت . وقد فهم كل القراء تقريباً ، بما فهم وليم وريترن وايرل تشستر فيلد الكتيب على أنه هجوم صادق على الرذائل الشائعة (٣٠) ، ونسبه الكثيرون إلى الفيكونت بولنجبروك ، لأن عبارة « كاتب نبيل متوفى » تنطبق عليه إذ كان قد مات عام ١٧٥١ . وبعد نشر المقال بتسع سنوات رشح بيرك نفسه للانتخاب فى البرلمان . وخشى أن تؤخذ فورة أيام الشباب حجة عليه ، فأعاد طبع المقال فى ١٧٦٥ بمقدمة جاء فى قسم منها « أن الغرض من القطعة الصغيرة التالية كان أن تبين أن . . . الأدوات (الأدبية) ذاتها التى استخدمت لتدمير الدين قد تستخدم بنجاح مماثل لقلب الحكومة » (٣١) . وقد قبل معظم كتاب سيرة بيرك هذا التفسير على أنه تفسير صادق مخلص ، ونحن لانستطيع أن نوافقهم على رأيهم ، ولكننا نستطيع أن نفهم جهد المرشح السياسى لحاية نفسه من تحامل الشعب . فمن منا يكون له مستقبل لو عرف ماضيه ؟

ويعدل « الدفاع » بلاغة ويفوقه حذقاً وبراعة مؤلف بيرك الآخر الذى نشره فى ١٧٥٦ وعنوانه « تحقيقى فلسفى فى أصل الجليل والجميل » ، وقد أضاف إليه فى طبعة ثانية « مقال فى الذوق » ولستا نملك إلا الإعجاب

بشجاعة الشاب ذى السبعة والعشرين عاما الذى عالج هذه الموضوعات المحيرة قبل « لاوكون » لسبنج بعقد كامل . ولعله استرشد باستهلال الجزء الثانى من كتاب لوكرتيويس عن « الطبيعة » الذى نصه « يطيب لك حين تلم الرياح الأمواج فى خضم عجاج أن تشهد من البر ما يكابده لإنسان آخر من عنت شديد ، لا لأنه مبعث بهجة أن تشهد شدة أى إنسان ، بل لأنه جميل أن ترى من أى الشرور أنت نفسك قد نجوت » . ومن ثم يكتب برك : « ان النواطف المشبوبة التى تنتمى لحفظ الذات تدور حول الألم والخطر ، فهى ببساطة عواطف مؤلمة حين تؤثر أسبابها فىنا تأثيراً مباشراً ، وهى مبهجة حين يكون لدينا فكرة عن الألم والخطر دون أن نكون فعلاً فى ظروف كهذه . . . وكل ما يثير هذا الابتهاج أسميه جليلاً » ، وبلى ذلك أن « كل الأعمال المتسمة بالعظيم من الجهد والنفقة والبهاء جليلة . . . وكذلك كل الصروح الفائقة الغنى والأبهة . . . لأن العقل وهو يتأملها يطبق أفكار عظم المجهود اللازم لإنتاج مثل هذه الأعمال على الأعمال ذاتها » (٣٢) . والغموض والظلام والخفاء كلها تعين على انبعاث إحساس بالجلال ، ومن هنا حرص معماري العصر الوسيط على ألا يسمحوا إلا للضوء الخافت المصنفي بالتسالى إلى كندرائياتهم . وقد أفاد القصص الرومانتيكى من هذه الأفكار كما نرى فى قصة هوراس ولبول « قلعة أوترانتو » (١٧٦٤) أو قصة آن رادكلف « خفايا أودلفو » (١٧٩٤) .

يقول برك « ان الجمال اسم سأطلقه على كل صفات فى الأشياء تثير فىنا إحساساً بالحب والحنان ، أو أى عاطفة حارة أخرى قريبة الشبه بهما » (٣٣) . وقد رفض رد الكلاسيكيين هذه الصفات إلى الانسجام والوحدة والتناسب والتأثر ؛ فكلنا نتفق على أن البجعة جميلة مع أن عنقها الطويل وذيلها القصير غير متناسبين مع جسمها . والجميل يكون عادة صغيراً (وبهذا يكون نقيضاً للجلال) .

« لست أتذكر الآن شيئاً جميلاً لا يتصف بالنعومة » (٣٤) ، فالسطح المكسر أو الخشن ، والزاوية الحادة أو النتؤ الفجائى ، كلها تضايقنا وتحد من سرورنا حتى فى أشياء تكون جميلة لولا هذا « ومظهر الغلظ والقوة

مؤذ جلدًا للجمال ، أما مظهر الرقة ، لا بل الحشاشة ، فيكاد يكون أساسياً للجمال»^(٣٥) . واللون يزيد من الجمال لا سيما إذا كان متنوعاً مشوقاً ، دون أن يكون وهاجاً أو قوياً . . . ولم يسأل برك هل المرأة جميلة لأنها صغيرة الحجم ناعمة رقيقة مشرقة ، أم أن هذه الصفات تبدو جميلة لأنها تذكرنا بالمرأة ، التي هي جميلة لأنها تشهى .

على أية حال كانت جون نوجنت مشتهاة ، فتزوجها برك في سنة ١٧٥٦ المثمرة هذه . وكانت ابنة طبيب إرلندى . وكانت كاثوليكية ، ولكنها لم تلبث أن ارتضت الإنجليكانية مذهباً . وقد لطف طبعها الدمث الرقيق من مزاج زوجها الغضوب .

وفتحت الأبواب أمام برك بفضل تأثير أسلوب « الدفاع » و « التحقيق » ان لم يكن تأثير حجبهما . فعينه مركز روكنجهام سكرتيراً له ، رغم أن دوق نيوكاسل حذره قائلاً ان برك لإرلندى متوحش ، وستوارتى ، وبابوى ويسوعى مستخف^(٣٦) . وفي أواخر عام ١٧٦٥ أنتخب برك لعضوية البرلمان عن دائرة وندوفر بفضل نفوذ اللورد فيرنى ، « الذى كان يمتلكها »^(٣٧) . وفي مجلس العموم اشتهر العضو الجديد بأنه خطيب مفوه وأن لم يكن مقنعاً . كان صوته أجش ، ولهجته هibernية (أى لإرلندية) ، وإيماءاته تعوزها الرشاقة ، ونكته سوقية أحياناً ، وآهاماته حارة مشبوبة في غير موجب . ولم يدرك الناس - إلا حين قرعوا له - انه انما يخلق أدباً وهو يتكلم - وذلك بفضل تمكنه من اللغة الانجليزية ، وأوصافه الناصعة ، وسعة معرفته وشروحه ، وقد رته على تطبيق الرؤية الفلسفية على قضايا الساعة . ولعل هذه المزايا كانت معوقات في مجلس العموم . ويروى لـ جولد سمث أن بعض سامريه « كانوا يحبون أن يروه يتسلل كاللعبان إلى موضوعه »^(٣٨) ولكن كثيرين غيرهم ضاقوا ذرعاً بأسرافه في التفاصيل ، وباستطراداته النظرية ، وبخطبه المنمقة ، وبجمله المتكررة المضحمة ، وبتحليلاته في أجواء التألق الأدبى ؛ فهم يريدون الاعتبارات العملية

والموضوعية المباشرة ؛ لقد امتدحوا بيانه ، ولكنهم تجاهلوا نصيحته . ومن ثم نرى جونسن يرد على بوزويل الذى شبه بيرك بالصقر فيقول : « أجل يا سيدى ولكنه لا يصيد شيئاً »^(٣٩) وقد ظل إلى نهاية حياته العملية تقريباً يدافع عن سياسات لا يسيغها الشعب ، ولا الوزارة ، ولا الملك . قال : « أنا عليم بأن الطريق الذى أسير فيه ليس طريق الترقى إلى المنصب الرفيع »^(٤٠) .

ويبدو أنه خلال سنوات تسلفه قرأ كثيراً وقرأ بفضانة وتميز . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه موسوعى يفيد كل إنسان من ذخيره العلمية . وقد أثنى عليه فوكس ثناء لا محد له إذ قال : « لو أنه (أى فوكس) وضع فى كفة كل المعلومات السياسية التى تعلمها من الكتب ، وكل ما اكتسبه من العلم ، وكل ما علمته الخبرة بالدنيا وشئونها ، ثم وضع فى الكفة الأخرى الفائدة التى اكتسبها من تعليم صديقه المبعجل وحديثه ، لا حترأ أيهما يفضل »^(٤١) أما جونسن — وهو الضنين بالمدح عادة — فقد اتفق مع فوكس فقال : « لن تستطيع الوقوف خمس دقائق مع ذلك الرجل تحت ظلة أثناء المطر ، ولكنه لا بد مقتنع بأنك كنت تقف مع أعظم رجل رأيته فى حياتك »^(٤٢) .

وقد انضم بيرك إلى ندوة جونسن — رينولدز حوالى عام ١٧٥٨ . ونذر أن التحم فى نقاش مع المناظر الذى لا يقهر ، ربما لأنه كان يخشى من حدة طبعه هو كما يخشى من حدة طبع جونسن ؛ ولكنه حين فعل ، نكص « الخان الأكبر » (جونسن) على عقبيه . وحين مرض جونسن ، وذكر بعضهم بيرك ، صاح الدكتور « ان هذا الفتى يستنفر كل قوى ، ولو رأيت بيرك الآن لكان فى ذلك القضاء على »^(٤٣) . ومع ذلك كان الرجلان متفقين على معظم القضايا الأساسية فى السياسة والأخلاق والدين . فقد قبلأ حكم بريطانيا الأرستقراطى مع أن كليهما كان من العامة ؛ واحتقرا الديمقراطية لأنها تتويج للكفايات الهزيلة ؛ ودافعا عن المسيحية التقليدية والكنيسة الرسمية بوصفهما معقلين للأخلاق والنظام لا بديل لهما . ولم يفرق بين الرجلين غير ثورة المستعمرات الأمريكية . وقد وصف جونسن نفسه بأنه محافظ (تورى) ، ورمى الأحرار (الهوجز) بأنهم مجرمون وحتمى ،

أما بيرك فزعم أنه حرى ، ودافع عن مبادئ المحافظين دفاعاً أقوى وأفضل
تبريراً من أى رجل فى التاريخ الانجليزى .

وبدا أحياناً أنه يؤيد أكثر عناصر النظام القائم عرضة للاعتراض والمساءلة
فقد عارض إحداث تغييرات فى قواعد انتخاب الأعضاء أو سن القوانين ؛
ورأى أن الدوائر الانتخابية « العفنة » أو دوائر « الجيب » (أى
التي يتحكم فيها شخص أو أسرة واحدة) لا غبار عليها ما دامت ترسل
رجالاً أكفاء مثله إلى البرلمان . وبدلاً من توسيع حق التصويت ، رأى أنه
« يخفض العدد سيزداد ثقل ياخينا واستقلالهم »^(٤٤) . ومع ذلك احتضن
عشرات القضايا التحررية . ودافع عن حرية التجارة قبل آدم سميث ، وهاجم
النخاسة قبل ولبرفورس . ثم نصح بإزالة المعوقات السياسية المفروضة على
الكاثوليك ، وأيد التماس المنشقين على الكنيسة الرسمية أو يمنحوا كامل
حقوقهم المدنية . وحاول أن يُلطف من صرامة قانون العقوبات الوحشية
ويخفف من الأعباء التي تنوبها حياة الجندي . ودافع عن حرية المطبوعات
وإن كتوى هو نفسه بنارها . ووقف يندود عن إيرلندة وأمريكا والهند في
وجه أغلبية شوفينية . وناصر البرلمان على الملك بصراحة وجراً أفقدها كل
أمل في المنصب السياسى الرفيع . وقد تختلف معه في آرائه ودوافعه ، ولكن
لن نستطيع الشك في شجاعته .

وقد كلفته آخر حرب شعواء شها في حياته العملية — وهى حرية على
الثورة الفرنسية — صداقة رجل طالما كان موضع حبه وإعجابه . وكان هذا
الرجل وهو تشارلز جيمس فوكس يرد على محبته بمثلها ويقاسمه أخطار
المعركة في كثير من القضايا ، ولكنه كان يختلف عنه في كل صفة من صفات
العقل والخلق تقريباً إلا الإنسانية والشجاعة . فيرك إيرلندى ، فقير ، محافظ ،
متدين ، متمسك بالأخلاق ؛ وفوكس انجليزى ، غنى ، راديكالى ، لا يبق
من الدين إلا على القدر الذى يتفق والقمار والشراب والتحليلات والثورة
الفرنسية . كان ثالث أبناء هنرى فوكس ولكنه أثرهم عنده ، وقد ورث
الأب ثروة ، وبددها ، ثم تزوج ثروة ثانية ، وجمع ثالثة وهو كبير

صياقة القوات المسلحة ، وأعان بيوت على شراء بعض أعضاء مجلس العموم ، وأثيب بلقب البارون هولند ، وشهر به خصومه (مختلساً عاماً للملايين لا تفسير لضياعتها) (٥٥) أما زوجته كارولين لينوكس فكانت حفيدة تشارلز الثاني من لويز دكرواي ، وهكذا جرى في عروق تشارلز جيمس الدم المخفف لملك استيوارتي خليج وامرأة فرنسية ذات مبادئ أخلاقية متساهلة . وكانت أسماؤه ذاتها ذكريات استيوارتية ، ولا بد أنها كانت تخدش مسامع الهانوفرين .

وحاولت الليدي هولند أن تنشئ أبناءها على النزاهة والشعور بالمسئولية ، أما اللورد هولند فقد تسامح مع تشارلز في كل نزواته ، وقلب من أجله الحكم الماثورة رأساً على عقب : « لاتعمل اليوم أبداً ما تستطيع تأجيله إلى الغد ، ولا تقم بنفسك أبداً بعمل تستطيع أن تجعل إنساناً غيرك يقوم به لك » . وما كاد الصبي يناهز الرابعة عشرة حتى أخذه أبوه من كلية إيتن في رحلة أوربية طاف بها على أندية القمار والمنتجعات المعدنية ، ورتب له خمسة جنينيات انجليزية في الليلة للعب القمار . وعاد الفتى إلى إيتن مقامراً راسخ القدمين ، وواصل اللعب في اكسفورد . وقد وجد متسعاً من الوقت لإدمان الاطلاع على الآداب الكلاسيكية والانجليزية على السواء ، ولكنه غادر اكسفورد بعد عامين لينتق عامين في الرحلات وتعلم الفرنسية والاطليانية ، وبدد ١٦,٠٠٠ جنيه في نابلي ، وزار فولتير في فرنيه ، وتلقى منه قائمة بكتب تنيره في اللاهوت المسيحي (٥٧) . وفي ١٧٦٨ اشترى له أبوه دائرة انتخابية ، واتخذ تشارلز مقعداً في البرلمان وهو في التاسعة عشرة ، وكان هذا مخالفاً كل مخالفة للقانون ، ولكن المعجبين من النواب بسحر الشاب الشخصي وتراثه المرتقب كانوا من الكثرة بحيث لم ينجح أى احتجاج على عضويته . وبعد عامين ، وبفضل نفوذ أبيه ، عين وزيراً للبحرية في وزارة اللورد نورث . وفي ١٧٧٤ مات الأب والأثم وابن أكبر منه ، وغدا تشارلز المتصرف الوحيد في ثروة عريضة .

وقد شاب مظهره البدني في سنوات نضجه من التسبب ما شاب أخلاقه . فجواربه مرخاة الأربطة ، وسترته وصدرته مجعدتان ، وقيصه مفتوح عند

العنق ، ووجهه منتفخ محتقن بالإسراف في الطعام والشراب ، وكرشه المتضخم يوشك أن يندلق على ركبتيه وهو جالس . وحين نازل ولیم آدم في مبارزة رفض نصيحة شاهده بأن يتخذ الوقفة الجانبية المعتادة ، إذ قال « اننى غليظ في ناحية غلظي في الأخرى »^(٤٨) ولم يحاول إخفاء عيوبه . وكان من الأقاويل الشائعة عنه أنه أثبت أنه ضحية محبة للنصابين والمحتالين من المقامرین ، وذات مرة (في رواية جبون) قامر اثنتين وعشرين ساعة في جلسة واحدة خسر فيها ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . ومن أقوال فوكس أن أعظم اللذات في الحياة بعد الربح هي الخسارة^(٤٩) . وكان يملك اسطبلًا لخيول السباق ، ويراهن بمبالغ كبيرة عليها ، وقد كسب منها أكثر مما خسر (كما يريدنا أن نصدق)^(٥٠) .

وكان أحياناً متسبباً في مبادئه السياسية تسببه في مبادئه الخلقية وهندامه ؛ فقد سمح غير مرة لمنافعه أو خصومته الشخصية أن تقرر مسلكه ، وكان أميل إلى الكسل ، ولم يكن يعد خطة أو مشروعات قوانينه البرلمانية بالعناية والدرس اللذين تميز بهما برك . وكان يملك في ميدان الخطابة مزايا قليلة ، ولم يلتبس غيرها . وكثيراً ما كانت خطبه عديمة الشكل كثيرة التكرار ، صادمة للنجاة أحياناً . يقول عنه رتشرد بورسن « كان يقذف بنفسه في معمعان جملة ويكل إليه تعالى مهمة اخراجه منها »^(٥١) . ولكنه وهب من سرعة البديهة وقوة الذاكرة ما جعله بالإجماع أقدر مناقش في مجلس العموم . كتب هوراس ولبول « ان تشارلز فوكس أسقط ساتوون (شاتام) العجوز عن عرش الخطابة »^(٥٢) .

وكان معاصرو فوكس متسامحين في أخطائه لأن كثيرين شاركوه فيها ، وقد أجمعوا تقريباً على الشهادة بفضائله . فقد ظل معظم حياته بعد عام ١٧٧٤ أميناً للقضايا المتحررية مضحياً في سبيلها تضحيات تستهين بالترقى في المنصب والشعبية . أما برك الذي كان يحتقر الرذيلة فقد أحب فوكس رغم ذلك لأنه رآه مخلصاً في غير أنانية للعدالة الاجتماعية والحرية الإنسانية . قال برك « أنه رجل خلق ليحب ، ذو طبع غاية في البراعة والبساطة والصرامة وحب الخير ، نزيه في اسراف ، له مزاج لطيف يسمح إلى حد الإفراط ،

ليس في كيانه بأسره ذرة حقد واحدة^(٥٣) وقد اتفق معه جيون فقال
« لعله لم يوجد مخلوق أكثر منه تجرداً من لوثة الحقد أو الغرور أو الكذب »^(٥٤) .
ولم يتمتع على هذه الجاذبية التلقائية والسحر الفطري في الرجل غير جورج
الثالث .

وارتبط ببيرك وفوكس في قيادة عنصر الهوجز التجري لإرلندي ثان
هورتشرد برنزي شريدان . وقد نشر جده توماس شريدان الأول مترجمات
عن اليونانية واللاتينية ، وكتاباً سماه « فن التورية » ، ربما سرت عدواه إلى
حفيده . أما أبوه توماس شريدان الثاني فكان في رأى البعض لا يفوقه غير
جاريك ممثلاً ومديراً للمسرح . وقد تزوج فرانسيس تشيمبرلن ، وكانت
كاتبة مسرحية وروائية ناجحة . ونال الدرجات العلمية من دبلن وأكسفورد
وكمبرج ، وحاضر في كمبرج في التعليم ؛ وكان الواسطة في الحصول على
معاش ملكي لجونسن ، وحصل على معاش لنفسه . وألف كتاباً مسلياً
عن « حياة سويفت » وغامر بنشر « قاموس عام في اللغة الانجليزية » (١٧٨٠)
ولما ينقض على نشر قاموس جونسن غير خمسة وعشرين عاماً . وأعان ابنه
على إدارة مسرح درورى لين ، وشهده يصعد في دنيا الرومانس والأدب
والبرلمان .

وهكذا أتاحت لرتشرد عناصر التفوق الفكرى والدراما في بيئته ان لم
يكن في دمه . وقد ولد في دبان (١٧٥١) ، وحين بلغ الحادية عشرة أوفد
إلى هارو حيث أقام ست سنين واكتسب تعليماً كلاسيكياً جيداً ؛ وحين
بلغ العشرين ردد صدى جده بنشره مترجمات عن اليونانية . وفي عام ١٧٧١
ذاك بينما كان يعيش في باث مع والديه ، هام حباً بوجه إلزابث آن لنلى
الجميلة وصوتها ، وكانت في السابعة عشرة ، تغنى في الحفلات الموسيقية
التي يقدمها أبوها المؤلف توماس لنلى . والذين رأوا لوحة من اللوحات التي
رسمها لها جينزبرو^(٥٥) يدركون أنه لم يكن أمام رتشرد من سبيل إلا الهيام
والانتشاء ، ولا أمامها هى أيضاً إذا صدقنا أخته ، إذ رآته في مليحاً محبباً
على نحو لا يقاوم . « كان خداه يشرقان بهريق العافية ، وعيناه أبدع العيون

فى العالم . . . وله قلب رقيق محب . . . وقد شرح صدر أفراد الأسرة وأهملهم ما اتسمت به كتاباته فىما بعد من خيال عابث وظرف أصيل ودعابة لا تؤذى . لقد أعجبت به ، بل أوشكت أن أعبد . وما كنت لأردد فى أن أضحي بحياتي من أجله » (٥٦) .

وكان لأزابيث آن خطاب كثيرون ، ومنهم تشارلز أنخورتشرد الأكبر ، وقد ضايقها أحدهم واسمه الميجر ماثيوز ، وكان غنياً ولكنه متزوج ، واشتدت مضايقته حتى أفضت بها إلى تعاطي الأفيون بغية قتل نفسها . ثم تماثلت للشفاء ، ولكنها فقدت كل رغبة فى الحياة حتى أعش حب رتشرد روحها المعنوية من جديد . وهدد ماثيوز باغتصابها ، فهربت مع شريدان إلى فرنسا بدافع الخوف والحب معاً ، وتزوجته (١٧٧٢) ، ثم لجأت إلى دير قرب ليل فى حين عاد رتشرد إلى إنجلترا ليسترضى أباه وأبائها . ونازل ماثيوز فى مبارزين ، وقد أبى على حياة ماثيوز فى الأول بعد أن انتصر عليه ، أما فى الثانية فقد أعجز خصمه عن النزال لأنه كان ثملاً بالخمير ، وهبط بالمبارزة إلى درك المصارعة ثم عاد إلى باث ملطخاً بالدم والخمير والوحل . وتبرأ منه أبوه ، ولكن توماس لنلى أعاد الزابث آن من فرنسا وبارك زواجها (١٧٧٣) .

وشرع رتشرد وهو فى الثانية والعشرين فى جمع المال بكتابة التمثيليات إذ أبت عليه كبرياؤه أن يترك زوجته تعوله بالغناء أمام الجمهور . وهكذا أخرجت أولى تمثيلياته « المزاحمون » فى ١٧ يناير ١٧٧٥ فى كوفنت جاردن ، وكان حظها سيئاً تمثيلاً واستقبالاً ، ثم وفق شريدان إلى ممثل أكفأ يلعب الدور الرئيسى ، وكان العرض الثانى (٢٨ يناير) بداية لسلسلة من الانتصارات المسرحية التى حققت الشهرة والثراء لشريدان . وسرعان ما راحت لندن كلها تتحدث عن السير انتونى أبسوليوت ، والسير لوشس أوتريجر ، والآنسة ليديا لانجويش ، وتقلد خلط السيدة مالا يروب بين الألفاظ (٥٨) .

• يستشهد المؤلفان بعبارات خلطت السيدة مالا يروب بين ألفاظها خلطاً مضحكاً ، فقالت illiterate بدلاً من obliterate ، و Allegory بدلاً من alligator . (المترجم)

وكان شريدان يملك معينا لا ينضب من النكت في رأسه ، ينثرها على كل صفحة ، ويخلع الذكاء والظرف على الخدم والاتباع ، ويجعل الحمقى يتكلمون كالفلاسفة . ولامه النقد لأن شخصه لم تكن دائماً متوافقة مع حديثها ، ولأن النكت والدعابات التي تفرقع في كل مشهد وتتدفق في كل فم تقريباً قد أثلمت لدعها بالأفراط ؛ لا ضير ، فقد استطاب النظارة هذا المرح ، وهم يستطيعونه إلى يومنا هذا .

ثم أحرزت مسرحيته « القهرمانه » نجاحاً أعظم حتى من نجاح « المزاحمين » ، وقد قدمت أول مرة في ٢ نوفمبر ١٧٧٥ على مسرح كوفنت جاردن ، واستمر عرضها خمسا وسبعين ليلة في موسمها الأول ، فحطمت بذلك الرقم القياسي الذي حققته « أوبرا الشحاذ » في ١٧٢٨ ، وهو ثلاث وستون ليلة . وهالت هذه المنافسة المثيرة ديفد جارليك الذي كان يمثل على مسرح درورى لين ، ولكنه لم يستطع أن يجردأ سريعاً لاذعاً أفضل من إحياء « الاكتشاف » وهي تمثيلية من تأليف أم شريدان التي ماتت قبيل ذلك . وانتشى شريدان بخمرة النجاح ، فعرض على جارليك أن يشتري نصيب النصف الذي يملكه في درورى لين ؛ وأحس جارليك بأنه يتقدم في العمر ، فوافق نظير ٣٥,٠٠٠ جنيه ؛ وأقنع شريدان حماه وصديقاً له أن يساهم كل منهما بمبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه ؛ أما هو فدفع ١,٣٠٠ جنيه نقداً ، ثم جمع الباقي بقرض (١٧٧٦) . وبعد عامين جمع ٣٥,٠٠٠ جنيه أخرى ، وأصبح مالكاً للمسرح هو وشركاؤه ، ثم تولى إدارته .

وظن الكثيرون أن ثقته بنفسه جاوزت الحد ، ولكن شريدان انتقل إلى نصر آخر حين أخرج (٨ مايو ١٧٧٧) « مدرسة الفضائح » وهي أعظم مسرحيات القرن الثامن عشر نجاحاً . واصطاح أبوه الآن معه بعد أن كان غاضباً عليه منذ فر بحبيته قبل خمس سنوات . وتلا هذه الانتصارات فترة توقف في صعود نجم شريدان . ذلك أن العروض التي قدمت على درورى لين تبين أن الجمهور لا يقبل عليها ، وروع الشركاء شيخ الإفلاس . وأنقذ شريدان الموقف بمهزلة « فارص » سماها « الناقد » وهي هجاء للدرامات

الفاجعة ونقاد الدراما المقنطين ، على أن بطأه المألوف تدخل ، فلم يكن قد كتب المشهد الأخير مع أن الافتتاح المحدد لم يبق عليه غير يومين . واستطاع حموه وآخرون بخدعة أن يستدرجوه إلى حجرة في المسرح ، وأعطوه ورقاً وقلماً وحبراً وخمراً ، وأمره بالفراغ من التمثيلية ، وحبسوه في الحجرة ، فخرج معه النهاية المطلوبة ، فجربها الممثلون ووجدت وافية بالغرض ، وكان العرض الأول (٢٩ أكتوبر ١٧٧٩) ابتسامة أخرى جاد بها الحظ على الإيرلندي المتحمس .

ثم تلفت من حوله باحثاً عن عوالم جديدة يغزوها ، وقرر أن يدخل البرلمان . ودفع لناخي ستافورد خمسة جنيهات انجليزية لكل صوت ، وفي ١٧٨٠ اتخذ مكانه في مجلس العموم لبراليا متحمساً . وشارك فوكس وبيرك في اتهام وارن هيدستنجز ، وفي يوم واحد رائع سطع نوره فحجب نورهما جميعاً . وكان أثناء هذا يعيش مع زوجته المثقفة في هناءة وبذخ ، مشهوراً بحديثه ، وظرفه وحيويته ، وألفه ، وديونه . وقد لخص اللورد بايرون هذه العجيبة فقال « كل ما فعله شريدان ، أو يريد أن يفعله ، رائع ، والأفضل من نوعه دائماً . لقد كتب أفضل كوميديا ، وأفضل دراما . . . وأفضل فارص . . . وأفضل خطاب (مونولوج عن جارليك) ، وتنبأ لهذا كله ، ألقى أفضل خطبة . . . تصورها الناس أو سمعوها في هذا البلد »^(٥٩) ، ثم إنه كان قد ظفر بحب أحب نساء انجلترا إلى القلوب واحتفظ بهذا الحب ،

كان شريدان كله الخيال والشعر ، ومن العسير أن نصوره في عالم ولیم بت الثاني وفي جيله نفسه ، ذلك الرجل الذي لم يعترف إلا بالواقع ، وسما فوق العاطفة وحكم بغير بلاغة . وقد ولد (١٧٥٩) في أوج مجد أبيه ، وكانت أمه أخت جورج جرنفيل ، رئيس الوزراء ١٧٦٣ - ٦٥ ؛ رضع السياسة منذ حدثته ، وترعرع في جو البرلمان . وإذا كان هساً عيليا في طفولته ، فقد أبعد عن ممارسات المدارس « الخاصة » الصارمة واتصالاتها المهيثة لحياة المجتمع ، فربى في البيت بإشراف أبيه الدقيق ، الذي علمه طريقة الإلقاء بأن جعله يتلو شكسبير أو ملتن كل يوم . فما ناهز العاشرة حتى كان دارساً

كلاسيكياً ومؤلفاً للمأساة . ثم أرسل إلى كمبروج حين بلغ الرابعة عشرة ، فلم يلبث أن مرض ، فعاد إلى بيته ، وبعد عام ذهب ثانية ، وإذ كان ابناً لشريف من كبار الأشراف فقد تخرج أستاذاً في الآداب عام ١٧٧٦ دون امتحان . ثم درس القانون في لنكولنزان ، ومارس المحاماة برهة قصيرة ، ثم رشح للبرلمان في الحادية والعشرين عن دائرة جيب يهيمن عليها السير جيمس لوذر . وكان خطابه الافتتاحي في البرلمان مؤيداً تأييداً قوياً لما اقترحه بيرك من اصلاحات اجتماعية حتى أن بيرك وصف بأنه « ليس شطية من الشجرة العجوز (أى سر أبيه) بل هو الشجرة العجوز بعينها » (٦١) .

وإذ كان الابن الثاني لأبيه ، فإنه لم ينل غير ٣٠٠ جنيه راتباً سنوياً ، مع معونة بين الحين والحين من أمه وأخواله ؛ وقد شجعت هذه الظروف البساطة الصارمة في سلوكه وخلقه . فتجنب الزواج لأنه نذر نفسه بجملته للسعى إلى السلطان . ولم يلد قمار ولا مسرح . ومع أنه في مرحلة لاحقة أفرط في الشراب تهدئة لأعصابه بعد صخب السياسة وضحيجها إلا أنه اكتسب شهرة بنقاء الحياة ونزاهة المقصد ؛ وكان في وسعه أن يشتري ، دون أن يكون في وسع أحد أن يشتريه ؛ وما سعى قط إلى الثراء ، ونذر أن بذل تنازلات للصدقة ، ولم تكتشف غير قلة حميمة ، وراء تحفظه البارد وضبطه لمشاعره ، ما يخفى من مرح ودود ، بل من حنان ومحبة في بعض الأحيان .

وفي مطامع عام ١٧٨٢ ، حين أوشكت وزارة اللورد نورث على الاستقالة ضمن « الصبي » — كما لقب بعض النواب بت في تعطف — أحد خطبه اعلناً فيه شيء من الغرابة : « أما عن نفسي ، فلا يمكن أن أتوقع أن أكون عضواً في حكومة جديدة ، ولكن لو كانت هذه العضوية في متناول فإنني أراه لازماً على أن أعلن أنني لن أقبل أبداً منصباً ثانوياً » (٦١) ، أى أنه لن يقبل منصباً أدنى من المقاعد الستة أو السبعة التي ألغت ما أصبح يسمى « مجلس الوزراء » . فلما عرضت الوزارة الجديدة أن تعينه نائباً لوزير خزانة إيرلنده بمرتب ٥٠٠٠ جنيه في العام رفض ، وواصل العيش على إيراده البالغ ٣٠٠ جنيه . وكان واثقاً من التقدم ، وأدرك أن يظفر به بفضل كفايته الشخصية ، فعكف على العمل بهمة ، وأصبح أكثر أعضاء مجلس

العموم اطلاعاً في ميادين السياسة الداخلية ، والصناعة ، والمالية ، وبعد عام من اعلانه الفخور قصده الملك لا ليكون مجرد عضو في الحكومة بل ليرأسها . ولم يحظ رجل قط قبله برئاسة الوزارة وهو في الرابعة والعشرين ، وقل من الوزراء من ترك على التاريخ الانجليزي بصمة أعمق مما ترك .

٣ - الملك ضد البرلمان

اختتم جورج الثاني ملكه الذي استغرق ثلاثة وثلاثين عاماً بشعور من النفور البين من السياسة الإنجليزية « لقد سئمت حتى الموت كل هذا الهراء الأبله ، وأتمنى من كل قلبي أن يأخذ الشيطان كل أساقفتكم ، وأن يأخذ الشيطان وزراءكم ، وأن يأخذ الشيطان برلمانكم ، وأن يأخذ الشيطان الجزيرة كلها ، على أن أخرج منها وأذهب إلى هانوفر » (٦٢) . وقد ألقى راحته في ٢٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، ودفن في كنيسة وستمنستر .

ولقي ارتقاء جورج الثالث العرش يوم وفاة جده الترحيب الحماسي من كل الانجليز تقريباً ما عدا قاة مازالت تواقه إلى أسرة ستيوارت ، كان في الثانية والعشرين ، فتي وسيماً ، مجتهداً ، متواضعاً . (كان أول ملك انجليزي منذ حكم هنري السادس يسقط من لقبه دعوى السيادة على فرنسا) . وفي خطابه الأول للبرلمان أضاف إلى النص الذي أعده له وزراؤه كلمات ما كان أحد سلفه الهانوفرين يستطيع أن يفوه بها : « انني وقد ولدت وريت في هذا البلد لأفخر بأنني بريطاني » . كتب هوراس وليول يقول : ان الملك الشاب يبدو عليه كل مظهر اللطف . ففيه كثير من الكياسة الذي يخفف من الرقار الشديد ، وطيبة فائقة تتفجر في جميع المناسبات » (٦٣) . وقد زاد من حب الشعب له بالإعلان الذي أصدره في ٣١ أكتوبر « لتشجيع التقوى والفضيلة ، ولمنع وعقاب الرذيلة ، والتبذل والا أخلاقية » . وفي ١٧٦١ تزوج شارلوت صوفيا أميرة مكلنبورج - ستريلتس ، وقد ارتضى

نخلوها من الجاذبية ، فأنجب منها خمسة عشر طفلاً ، ولم يجد وقتاً لخيانتها . وكان هذا أمراً لا سابقة له في الملوك الهانوفرين .

ولم يجب حرب السنين السبع ، يوم كان في الرابعة من عمره ، وأحس أن في الإمكان الوصول إلى تسوية ما مع فرنسا . ولكن ولیم بت الأول ، وزير الدولة للإدارة الجنوبية ، والشخصية المسيطرة في وزارة الدوق نيوكاسل ، أصر على مواصلة الحرب حتى توهن فرنسا وهنا أمل لها معه في تحدى الإمبراطورية التي خلقتها الانتصارات البريطانية في كندا والهند ؛ وقد ألح فوق ذلك على ألا يعقد صالح إلا برضى فردريك الأكبر حليف انجلترا . وفي مارس ١٧٦١ عين الأيرل بيوت وزير دولة للإدارة الشمالية ، وشرع في تنفيذ خطة لعقد صلح منفرد . وعبثاً قاوم بت ، فاستقال في ٥ أكتوبر . وطيب جورج خطره بمعاش قدره ٣,٠٠٠ جنيه له ولوريثه ، ولقب الشرف لزوجته التي أصبحت الآن البارونة شاتام . وقد رفض بت (حتى عام ١٧٦٦) النبالة لنفسه لأنه لو حصل عليها لأبعدته عن ساحة عراكه المحبة وهي مجلس العموم . ولما كان قد أبدى احتقاره للمعاشات ، فقد انتقد بشدة على قبوله هذه الرواتب ، ولكنها كانت أقل مما كان يكسب ، وقد نال آخرون أكثر كثيراً منها مع أنهم كانوا يكسبون أقل منه كثيراً .

وفي ٢٦ مايو ١٧٦٢ اعتزل الدوق نيوكاسل منصبه بعد أن شغل مكاناً مرموقاً في السياسة طوال خمسة وأربعين عاماً . وبعد ثلاثة أيام خلفه بيوت وزيراً أول . واتخذت الآن أهداف الملك الشاب شكلاً ودفعاً . فرأى هو وبيوت أن من حق الملك أن يقرر الخطوط الكبرى للسياسة لا سيما في الشؤون الخارجية . أضف إلى ذلك أنه كان تواقاً إلى كسر سلطان بعض الأسر الغنية على الحكومة . وفي ١٧٦١ ، حث عضو قديم في حزب الأحرار يدعى ولیم بلتنى ، لإيرل باث ، في نبذة غفل عن اسم كاتبها ، الملك على ألا يقنع بـ « ظل الملكية ، بل يستعمل امتيازاته القانونية » في كبح جماح « الدعاوى غير القانونية للأولجركية المتحيزة » (٦٤) .

وكانت الأغلبية في مجلس العموم تذهب إلى أن على الملك أن يختار وزراءه من الزعماء المعترف بهم للحزب أو العصابة الفائزة في الانتخابات ، وأصر جورج على حقه الشرعي في اختيار وزرائه دون اعتبار للحزب ، ودون قيود عليه إلا مسئوليته أمام الشعب . وكان الأحرار هم الذين دبروا ارتقاء ناخب هانوفر لعرش إنجلترا ، وكان بعض المحافظين قد تفاوضوا مع الاستيوارتين المنفيين . لذلك لم يكن بد من أن يقتصر جورج الأول والثاني في اختيار وزرائهما على الأحرار ، وكان أكثر المحافظين قد اعتزلوا في ضياعهم . ولكنهم في ١٧٦٠ قبلوا الأسرة المالكة الجديدة ، وأقبلوا في نفر كبير ليقدموا ولاءهم للملك البريطاني المولد .

ورحب بهم جورج ، ولم ير مبرراً لعدم تعيينه المحافظين الأكفاء كما يعين الأحرار الأكفاء في المناصب الوزارية . واحتج الأحرار بأنه لو كان الملك حراً في اختيار الوزراء وتقرير السياسة دون أن يكون مشغولاً أمام البرلمان لكان هذا انتهاكاً لمرسوم الحقوق الصادر في ١٦٨٩ ، ولصعدت سلطة الملك من جديد إلى المستوى الذي ادعاه تشارلز الأول ، ولبطل مفعول ثورتي ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . ان للنظام الحزبي عيوبه ، ولكنه (في رأى الزعماء) لا غنى عنه للحكومة المسئولة ، فهو يوفر لكل وزارة معارضة تراقبها ، وتنتقدها ، وتستطيع (إذا شاء الناخبون) أن تحل محلها رجالاً مهيبين لتغيير اتجاه السياسة دون الإخلال باستقرار الدولة . وهكذا تكونت الخطوط لأول صراع كبير بين القوى في الحكم الجديد .

وتحمل بيوت وطأة المعركة . وكان أكثر النقد يلقى الملك ، ولكنه لم يعنى أمه ، فاتهمها الأهاجى الخفيفة الساخرة بأنها خلية بيوت ، وأثار هذا التشهير الملك فغضب غضبة مضرية ، وعقد بيوت صلحاً منفرداً مع فرنسا ، ثم كفف عن تقديم المعونة المالية لبروسيا ليكره فردريك على الإذعان ، فوصفه فردريك بالوغد الحسيس ، وواصل القتال . أما الشعب الإنجليزي فرغم سروره لأن الحرب وضعت أوزارها إلا أنه ندد بالصلح لأنه أفرط في اللين مع فرنسا المغلوبة ، وخطط بت عليه ، وتنبأ بأن فرنسا

التي خرجت من الحرب ببجريتها سليمة لم يمسيها سوء ستستأنف الحرب على انجلترا عما قليل — وهو ما فعلته في ١٧٧٨ . وصدق مجلس العموم على المعاهدة ، بأغلبية ٣١٩ ضد ٦٥ . واعتببت أم جورج بانتصار الإرادة الملكية وقالت « ان ابني الآن ملك على انجلترا حقاً وفعلاً » (٦٦) .

كان الملك الجديد حتى الآن يشتهر بالانزاهة . ولكنه حين رأى الأحرار يشتركون الأصوات البرلمانية ، ويستأجرون الصحفيين لمهاجمة سياساته ، صمم على أن يزهيم في هذا المضمار . فسخر ماله وقوة رعايته لإغراء المؤلفين من أشباه سمولت بالدفاع عن أهداف الوزارة وتصرفاتها . ولعل بيوت كان يفكر في أمثال هذه الخدمات حين أقنع الملك في يوليو ١٧٦٢ بأن ينفتح صموئيل جونسن بمعاش ، ولم يخب ظنه في الكاتب . ولكن ما من متشيع للوزير استطاع أن يضمارع خطب جون ولكس اللاذعة الذكية ، أو هجائيات تشارلز تشرشل الضارية ، أو قدح « جونيوس » الغفل من التوقيع . « وظهرت الآن كل يوم ، نثراً وشعراً ، طعون في البلاط فاقت في جرأتها وغلها أي طعن نشر لسنوات كثيرة » (٦٧) .

وأخذ البرلمان نقود الملك وأعطاه أصواتاً ، ولكنه كره كبير وزرائه ، لأنه اسكتلندي لم يرق إلى مقام السلطة جزاء على خدمة طويلة لحزب من الأحزاب في مجلس العموم . واشتد شعور الكراهية لاسكتلنده في انجلترا التي لم تنزل تذكر غزو ١٧٤٥ الاسكتلندي . ثم أن بيوت كان قد أغدق الغنائم السياسية على بني جلدته : فعين روبرت آدم معارياً للبلاط ، وآان رمزي مصوراً للبلاط (متجاهلاً رينولدز) ؛ وأجرى معاشاً على جون هيوم الكاتب المسرحي الاسكتلندي ، في حين ضمن على توماس جراي بكرسي الأستاذية . وأعربت جماهير لندن عن شعورها بشنوق جزمة عسكرية ثقيلة jackboot أو احراقها (كناية عن Bute) وبالهجوم على مركبة الوزير ، فكان يضطر إلى إخفاء وجهه حين يختلف إلى المسرح . ونفرت أهل الريف منه ضريبة فرضها على عصير التفاح (السيدير) ، فبات بيوت أبغض وزير وعاه التاريخ الانجليزي . فلما أن عجز عن التصدي لهذا السيل

الجارف ، وتحطم بدنًا وروحاً ، وأدرك أنه لا يصلح لمعارك السياسة ودسائسها ، استقال (٨ ابريل ١٧٦٣) بعد أقل من سنة وهو كبير وزراء الملك :

أما خلفه جورج جرنفل فعانى من خطوب ثلاثة : فقد هاجمه في الصحف جون ولكس الذى لا يقهر (١٧٦٣ وما بعدها) ؛ وحصل على موافقة البرلمان (مارس ١٧٦٥) على قانون الدمغة الذى كان أول ما نفي المستعمرات الأمريكية ؛ وأصيب في عهده جورج الثالث بأول نوبات جنونه . ذلك أن اخفاق بيهوت واستقالته حطما أعصاب الملك وفلا عزيمته ، ولم يسبغ عليه زواجه أى سعادة ، وكان جرنفل معتداً برأيه إلى حد مؤلم ، لا بل يكاد يكون مسيطراً . ثم تماثل جورج للشفاء بعد قليل ، ولكنه لم يعد بعدها يشعر بأن فيه من العافية ما يكفي لمقاومة أوجركية الأحرار التي هيمنت على معظم البرلمان والصحافة . فليجأ إلى حل وسط ، ودعا المركز روكنجهام - وهو من الأحرار - لتأليف وزارة جديدة .

وشرع المركز بموافقة البرلمان خلال سنة عدة قوانين مهدئة ، ربما عملاً باقتراحات أشار بها سكرتيره إدموند بيرك . فألغيت أو عدلت ضريبة الدبس (السيدر) ، وألغيت ضريبة الدمغة ، وأعان التجارة إبرام معاهدة مع روسيا ، وهديء الهياج الذى نشب حول ولكس ؛ ويبدو أن هذا التشريع لم تسخر الرشوة لدفعه قدماً . أما الملك فقد ساءه إلغاء الضريبة ، والتنازلات التي قدمت لولكس ؛ وعليه ففي ١٢ يوليو ١٧٦٦ أقال وزارة روكنجهام ، وعرض النبالة على بت ، وطلب إليه أن يضطلع بالحكم : ووافق بت ،

غير أن « نائب العموم العظيم » كانت صحته قد تضعفعت ، وكذلك عقله . وضحى الآن بما بقى له من شعبيته بقبوله لقب إيرل شانام ، فتخلى بذلك عن مكانته في مجلس العموم ، وكان له في هذا بعض العثر : فقد أحس بأنه أضعف من أن يثبت لتوترات مجلس العموم وصراعاته ، أما مجلس اللوردات فسيحتاج له فيه فراغ أكثر وسيكون التوتر فيه أقل . واتخذ منصباً هادئاً نسبياً هو منصب وزير الخاتم الملكي ، وسمح لصديقه دوق جرافتن

أن يشغل منصب الرئيس الأعلى للخزانة ، وهو أبرز المناصب الوزارية اسماً . على أن زملاءه لا يقررون السياسة دون أن يشاورهم أو رغم معارضتهم ، وقد تنفس كثيرون الصعداء حين ذهب إلى بات ملتصقاً تهديئة آلام النقرس الذي يشكوه . وقد حقق هذا الهدف ولكن بعقاقير شوشة عقله . فلما عاد إلى لندن لم يكن في حال تسمح له بالاهتمام بالسياسة . وفي أكتوبر ١٧٦٨ استقال ، وأصبح جرافتن كبيراً للوزراء .

في فترة الفوضى السياسية هذه (١٧٦٦ - ٦٨) تكتل لفيف عرفوا بـ « أصدقاء الملك » ليدعموا أهداف الملك . فأرشدوا جورج في توزيع الغنائم لقاء تأييد نائليها لسياسته ، واستخدموا كل وسيلة لانتخاب مرشحين وتقديم وزراء مواليين للآراء الملكية . فلما تورط جرافتن في مصاعب وأخطاء فاضحة ضاعفوا من إرتباكهم حتى استقال (٢٧ يناير ١٧٧٠) . وفي ١٠ فبراير أحرزوا أعظم نصر لهم إذ بدأ فردريك نورث سني خدمته الاثنى عشرة وزيراً للخزانة (وهو المعروف لنا باللورد نورث ، وإن لم يرث هذا اللقب إلا في ١٧٩٠) .

كان نورث رجلاً ضعيفاً وإن لم يكن شريراً . وإحساسه بالولاء والرحمة هو الذي أبقاه في منصبه وأكسبه مكاناً غير كريم في التاريخ . وقد ابتسم له الحظ لأنه كان ابن إيرل جلغورد ، فحظى بكل مزايا التعليم والاختلاط بالمجتمع الراقى ، وأصبح نائباً في مجلس العموم ولما تجاوز الثانية والعشرين ، واحتفظ بمقعده فيه قرابة أربعين عاماً . واكتسب صداقة الكثيرين بفضل تواضعه ولطفه ودمايته وظرفه * ولكنه اتبع الجانب المحافظ في ثبات غالى فيه حتى لم يسر أحداً سوى الملك . فقد أيد قانون الدفعة وطرده ولكس ، وواصل الحرب مع أمريكا (إلى مراحلها الأخيرة) ودافع عن سياسات جورج الثالث حتى وهو يشك في حكمها ، وعد نفسه عاملاً للملك ،

* شكّا خطيب من أن نورث ينام أثناء الخطبة ، فأجاب نورث بأن من الظلم أن يعاب عليه تناول دواء قدمه له السيد الموقر بنفسه . وطالب عضو غاضب برأسه فرد بأنه يسره أن يسلمه شريطة الايكراه على أن يقبل بديلاً رأس المعضو (٦٨) .

لا عاملاً للبرلمان فضلاً عن أن يكون عاملاً للشعب ؛ ويبدو أنه كان مخلصاً في اعتقاده أن للملك الحق الشرعى في اختيار وزرائه وتوجيه السياسة . وبفضل نورث ولباقتة في سياسة مجلس العموم — وبفضل استخدام الأموال التي أقرها البرلمان — حكم جورج الثالث انجلترا طوال عقد من ذلك القرن ، وعن طريق عملاء نورث اشترى المقاعد والأصوات ، وباع المعاشات والمناصب ، وأعان الصحفيين بالمال ، وحاول أن يقيد الصحافة بالأغلال . وأنه لحك لشجاعته وعناده أن تتطلب هزيمته تكتل جهود جون ولكس ، ر «جونىوس» ، ويرك ، وفوكس ، وشريدان ، وفرانكلن ، وواشنطن ضدده ليقهروده .

٤ — البرلمان ضد الشعب

نقرأ في يومية جيبون بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٧٦٢ : « تناول الكولونيل ولكس الغداء معنا . . . ونذكر أن التقيت في حياتى برفيق خير منه . فقد أوتى حيوية لا ينضب معينها وذكاء وروح فكاهة لا أحد لهما ، وقدرأ وافرأ من المعرفة ، ولكنه كان ممناً في الخلاعة والمجون مبدأ وممارسة على حد سواء : فخلقه معيب ، وحياته تلوثها كل الموبقات ، وحديثه طافح بالتجديف والبداعة ثم هو فخور معتز بهذه الأخلاق — لأن الحجل ضعف تغلب عليه منذ أمد بعيد . وقد أخبرنا هو نفسه أنه مصمم في فترة الانشقاق العام أن يصبح ثرياً » (٦١) .

هذا رأى محافظ كان يقترح في صف الحكومة طوال الأعوام الثمانية التي كان فيها عضواً في مجلس العموم ، ولم يستطع أن يتعاطف بسهولة مع عدو سافر للبرلمان والملك ، فياض بالحيوية . . . على أن ولكس لوسل لسلم بمعظم هذه التهم . ذلك أنه كان قد نبذ أخلاقيات المسيحية كما نبذ لاهوتها . واستمتع بالجمهور بمذهبه في اللذة أمام نواب يشاركونه أخلاقه ولكنهم يثرون من صراحتة .

كان جون ولكس ابنا لمقطر ملت في كلاركنبول بشمالى لندن . تلقى تعليمًا حسنًا في أكسفورد ولايدن ، كفى لإثارة دهشة جونسن من إلمامه بالآداب الكلاسيكية ومن تأدبه بـ « آداب السادة » (٧٠) فلما بلغ العشرين تزوج « سيده تكبر في مرة ونصفا » ، ولكنها « ذات ثراء عريض » (٧١) وكانت من جماعة المناشقين على الكنيسة الإنجليكانية ، تميل إلى التقوى المكتنبة ؛ فأقبل على الشراب والتحليلات . وحوالى عام ١٧٥٧ انضم إلى السير فرانسيس داشوود ، وبب ودونجت ، وجورج سلوين ، والشاعر تشارلز تشرشل ، وإيرل ساندوتش الرابع في « ناد لنار الجحيم » يلتئم شمله في دير مدمهمام البندكتى على ضفاف التيمز قرب مارلو . هناك راحوا وهم يتحلون صفة « رهبان مدمهمام المجانين » يقلدون في سخرية الطقوس الكاثوليكية بإقامة « قداس أسود » للشيطان ، ويطلقون العنان لميوهم التجديفية الشهوانية (٧٢) .

وأنتخب ولكس نائباً للبرلمان عن دائرة ايلزبرى (١٧٥٧) بفضل نفوذ رفاقه وبإنفاق ٧٠٠٠ جنيه . وانضم أولاً لبث الأوب ، ثم لخصوم بيوت بعد عام ١٧٦٠ . ولما كان بيوت يعين بالمال مجلة سمولت « البريطانى » ، فقد بدأ ولكس ، مستعيناً بتشرشل ، في يونيو ١٧٦٢ اصدار مجلة أسبوعية معارضة سماها « بريطانى الشمال » اكتسبت قراء كثيرين بفضل حيوية أسلوبها وخفته ، وضراوة هجائتها على الوزارة . وفي عدد منها نفي في إسهاب — أى أنه أذاع — الشائعة التى أرجفت بأن بيوت خال أم الملك . وفي العدد ٤٥ (٢٣ أبريل ١٧٦٣) ندد ببيوت لأنه خرق اتفاق انجلترا مع بروسيا بإبرامه صلحاً منفرداً مع فرنسا ، وبإدعائه ، في « خطاب العرش » الذى ألقاه الوزير باسم الملك ، أن هذه المعاهدة باركها فردريك الأكبر .

« أن هذا الأسبوع قد أعطى الجمهور مثالا على وقاحة الوزارة — هو أشد ما حاولته وزارة من قبل تسبياً واستهتاراً . . . على البشرية . ذلك أن « خطاب الوزير » الذى ألقاه الثلاثاء الماضى لا نظير له في سجلات تاريخ هذا البلد . ولست أدرى هل الدجل والخداع أعظم على الملك أم على الأمة . فكل صديق لهذا البلد لابد يحزن لأن ملكاً أوتى هذا العدد الكبير من الخلال

العظيمة المحبة . . . يمكن حمله على التصديق باسمه المقدس على أبغض القرارات ، وعلى أشد التصريحات العامة حيفاً . . . وأنا واثق من أن جميع الأجانب ، لا سيما ملك بروسيا ، سينظرون إلى الوزير نظرة الازدراء والاشمئزاز ، فقد جعل مليكتنا يصرح بالآتي : « لقد تحققت كل توقعاتي متحققةً كاملاً بفضل النتائج الطيبة التي جناها حلفاء تاجي المختلفون من المعاهدة النهائية وقد أقتنعت الدول المشتبكة في حرب مع أخي الفاضل ملك بروسيا بالموافقة على شروط التسوية التي وافق عليها ذلك الملك العظيم » والمغالطة المخزية في هذه العبارة كلها ظاهرة للناس جميعاً ، لأنه من المعروف أن ملك بروسيا . . . قد خذله رئيس وزراء انجلترا الاسكتلندي خذلاً خسيساً . . . أما عن تصديق البرلمان « تصديقاً كلياً » الذي هو موضع فخر ينطوى على غرور شديد ، فإن العالم يعرف كيف تم الحصول عليه . والدين الكبير على « القائمة المدنية » . . . يعان بوضوح تام صفقات الشتاء^(٧٣) .

ومع أن ولكس كان قد فسر « خطاب الملك » على أنه في الحقيقة خطاب بيوت ، إلا أن جورج الثالث فهم المقالة على أنها إهانة شخصية ، وأمر اللورد دين هاليفاكس واجرمونت ، وزيرى الدولة آنئذ — بالقبض على جميع الأشخاص الضالعين في نشر العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . فأصدر أمرأ عاماً بالاعتقال — أى أمرأ لا يسمى الأشخاص الذين يعتقلون ، وبناء على عباراته الغامضة زج في السجن تسعة وأربعون شخصياً منهم ولكس (٣٠ ابريل ١٧٦٣) ، رغم دعوى الحصانة بوصفه نائباً في البرلمان ، ووضع طابع المجلة واسمه وليمز في المشهرة ، ولكن حشداً من الناس هتفوا له شهيداً وجمعوا فئاتي جنيته لإعاقته . وطالب ولكس إلى محكمة الدعاوى العامة أمرأ قضائياً من أوامر « هابياس كوريس » ، وحصل عليه ، وذافع عن قضيته ، ونال من قاضى القضاء تشارلز برات (وكان صديقاً لبت) . أمرأ بإطلاق سراحه تأسيساً على أن اعتقاله فيه انتهاك لحق عضو البرلمان ، ورفع ولكس الدعوى على هاليفاكس وأخربين للقبض غير القانوني والأضرار بماله ، وحصل على تعويض قدره ٥٠٠٠ جنيه وأنهت إدانة برات .

للتفويضات العامة ذلك الاستعمال السيء للسلطة الذى أبغضه البريطانيون بغض الفرنسيين لأوامر القبض المختومة .

وشاء ولكس أن يعاند القدر ، فاشترك مع توماس بوت (ابن رئيس أساقفة كنتربرى) فى تأليف « مقال عن المرأة » وهو معارضة شعرية ساخرة لقصيدة بوب « مقال عن الإنسان (الرجل) » . وكان خايطاً من البداية والتجديف ، مزوداً بحواش تنبئ بعلم الشاعر الواسع وتنسج على المنوال ذاته . ونسب المقال إلى الأسقف ولیم وريترن ، الذى كان قد أضاف هوامش لقصيدة بوب . وطبع المقال الصغير فى مطبعة ولكس فى بيته ، لكنه لم ينشر ، غير أن ثلاثة عشرة نسخة طبعت خصيصاً لبضعة أصدقاء ، وحصل وزراء الملك على تجارب الطبع ، وأقنعوا إيرل ساندوتش بأن يقرأها على مجلس اللوردات ، ففعل الإيرل (١٥ نوفمبر) ، الأمر الذى أضحك الأشراف ، وكانوا عليهم بما اشتهر به ساندوتش من خلاعة وتمتلك . ونخبرنا وليول بأنهم « لم يستطيعوا الاحتفاظ برزانتهم » وساندوتش ماض فى القراءة ، ولكنهم وافقوا على أن القصيدة « قدف فاضح بذى فاسق » . وطلبوا إلى الملك أن يقدم ولكس للمحاكمة بتهمة التجديف . وحين أخبر ساندوتش ولكس بأنه سيموت إما شتقاً أو من مرض سرى ، أجاب « ذلك يامولاى اللورد رهن بمن أعانق — مبادئك أم خيلتلك » (٧٥) .

وفى ذلك اليوم ذاته — يوم ١٥ نوفمبر — قام ولكس فى مجلس العموم ليسجل شكوى من إهدار حقبة البرلمان بالقبض عليه . ولكن المجلس صوت ضده ، وأمر البرلمان الجلاد بأن يحرق علناً العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . وفى اليوم السابع عشر تحدى صموئيل مارتن ولكس للمبارزة ، وكان قد سبه فى ذلك العدد . فالتقى فى هايد بارك ، وجرح ولكس جرحاً خطيراً ، وألزم الفراش شهراً . وأدان أهالى لندن مارتن باعتباره قاتلاً مأجوراً ، وأحدثوا شغباً حين حاول الجلاد أن يحرق العدد ٤٥ ، وأصبح المتنافان « ولكس والحرية » و « العدد الخامس والأربعون » شعارين على تمرد شعبي صاعد ضد الملك والبرلمان (٧٦) . ثم حاول اسكتلندى مسعور قتل ولكس ،

فرحل إلى فرنسا (٢٦ ديسمبر) . وفي ١٩ يناير ١٧٦٤ طرد رسمياً من البرلمان . وفي ٢١ فبراير صدر ضده حكم في محكمة «كنجز بنش» بأنه مذنب بإعادة طبع العدد ٤٥ وبطبع «مقال عن المرأة» ، ودعى للعشول وتلقى الحكم عليه ، فلم يحضر ؛ وفي أول نوفمبر أعلن أنه خارج على القانون .

وظل ولكس أربع سنوات شريداً في فرنسا وإيطاليا مخشى أن يسجن سجيناً مؤبداً إن عاد إلى إنجلترا . وفي روما التقى مراراً بفنكلمان ، وفي نابلي قابل بوزويل الذي وجده رفيقاً مسايماً : «ان مخزياته المرححة الحية في المواضيع الأخلاقية حركت روحى المعنوية حركة ليست غير سارة» (٧٧) . وفي طريقه عودا إلى باريس زار ولكس فولتير في فرنيه ، وسخر أظرف رجل في أوروبا بظرفه وخفة روحه .

ثم فتح رجوع الأحرار إلى السلطة بزعاة وكنجهام وجرافتن لوكس باب الأمل في العفو عنه . وتلقى تأكيدات سرية بأنه لن يمس بسوء إذا لزم الصمت . فعاد إلى إنجلترا (١٧٦٨) وأذاع من لندن ترشيحه للبرلمان . فلما أن خسر تلك المعركة ، التمس انتخابه للبرلمان من مدلسكس ، وحصل على أغلبية كبيرة بعد حملة صاخبة ؛ وكانت تلك المقاطعة التي تحول أكثرها حضراً (وهي تضم الآن شمال غربى لندن) معروفة بميولها الراديكالية وعدائها للرأسمالية الصاعدة . وفي ٢٠ ابريل مثل ولكس أمام المحكمة متوقفاً لإلغاء الحكم بخروجه على القانون ؛ وألغى الحكم ؛ ولكن حكم عليه بغرامة قدرها ألف جنيه وبالسجن اثنين وعشرين شهراً . فأنقذه حشد غاضب من ضباط الشرطة وحملوه في موكب نصر طافوا به شوارع لندن . وبعد أن هرب من المعجبين ، سلم نفسه للسجن في سانت جورجز فيلدرز . وتجمع الغوغاء هناك في ١٠ مايو وأرادوا إطلاق سراحه ثانية . فأطلق الجند النار على مثيرى الشعب ، وقتل منهم خمسة وجرح خمسة عشر .

وفي ٤ فبراير ١٧٦٩ طرده مجلس العموم ثانية ، فانتخبته دائرة مدلسكس لانية (١٦ فبراير) ، وطرده من جديد ، فعادت مدلسكس وانتخبته

١٣ ابريل) ، هذه المرة بأغلبية ١,١٤٣ صوتاً ضد ٢٩٦ لهزى لوتريل ؛ وأعطى البرلمان المقعد للوتريل على أساس أن ولكس بعد أن طرد من البرلمان فقد أهليته شرعاً للنيابة في دورة ذلك البرلمان . وهو جرم لوتريل وهو يغادر مجلس العموم ؛ ولم يجرؤ على الظهور في الشوارع ^(٧٨) . وأرسلت سبع عشرة مقاطعة ومدن كثيرة خطابات موجهة إلى العرش تشكو من أن حقوق الملاك الأحرار في اختيار ممثلهم في مجلس العموم قد انتهكت انتهاكاً صارخاً . أما الملك الذي كان قد أيد الطرد بقوة فقد تجاهل الالتماسات ، وقال عضو يدعى الكولونيل اسحاق باريه في البرلمان أن تجاهل الالتماسات « قد يعلم الشعب التفكير في الاغتيال » ^(٧٩) . وخلع جون هورن توك ، الذي أسلم إيمانه لسخر فولتير ، ثوبه الديني وصرح بعد إقصاء ولكس مراراً بأنه سيصبح رداه (رداء القساوسة) الأسود بالحمرة .

وتزعم توك تنظيم « جماعة المؤيدين للمتمس الحقوق » ، (١٧٦٩) التي كان هدفها العاجل اطلاق سراح ولكس ، وأداء ديونه ، ورده إلى البرلمان ، ونشرت الجماعة الدعوة في محافل عامة لحل البرلمان الراهن لفساده الذي لا يرجح صلاحه ، ولعدم استجابته للإرادة العامة ؛ وطالبت برلمانات سنوية تنتخب بالتصويت العام للذكور البالغين ، وبمستولية الوزارات أمام البرلمان في سياستها ومصرفاتها ^(٨٠) . ونادت بأن على كل مرشح أن يقسم اليمين بالآلا يقبل أى ضرب من ضروب الرشوة ، ولا أى وظيفة أو معاش أو مكافأة أخرى من التاج ، وبأن على كل عضو أن يدافع عن آراء ناحبي دائرته ولو ناقضت آراءه ، وبضرورة رفع المظالم عن ايرلنده ، وبأن يكون للمستعمرات الأمريكية وحدها حق فرض الضرائب على شعبها ^(٨١) .

وفي يوليو ١٧٦٩ ، رفع وليم تكفورد عمدة لندن وكبار موظفيها الرسميين إلى الملك خطاباً يلوم مسلك وزرائه لأنه هادم للدستور الذي أعطى بموجبه بيت هانوفر عرش إنجلترا . وفي ١٤ مايو ١٧٧٠ أرسلوا إلى الملك احتجاجاً استخدم لغة الثورة : « ان أغلبية أعضاء مجلس العموم — الواقفين

• سميت مدينة ولكس — باريه في بنسلفانيا بامم ولكس وباريد اللذين ناصرا قضية المستعمرات في البرلمان بقوة د .

تحت التأثير الخفي والحديث الذى أحبط كل النوايا الحسنة وأوحى بكل النوايا السيئة فى جميع الحكومات المتعاقبة - هؤلاء حرموا شعبكم من أعز حقوقهم . لقد اقترفوا عملاً أفدح تدميراً فى عواقبه من فرض تشارلز الأول ضريبة السفن ، أو سلطة منح المعاشات التى ادعاهها جيمس الثانى لنفسه » (٨٢) .

وقد ناشد الخطاب الملك أن يعيد « الحكومة الدستورية . . . وأن تقضى أولئك الوزراء الأشرار عن مجالسك إلى الأبد » (٨٣) وأن يحل البرلمان الحالى . أما الملك المحقق فقد صاح ويده على سيفه « دون ذلك سيفى هذا » (٨٤) . وبدأت لندن لا باريس قاب قوسين من الثورة فى ١٧٧٠ .

فى هذه الدوامة الملتبته من دوامات السياسة قذف « جونيوس » بأشد الرسائل إثارة للفتنة فى تاريخ إنجلترا . وقد أفلح فى إخفاء هويته حتى عن ناشريه إخفاء تاماً ، حتى أنه إلى يومنا هذا لا يعرف أحد من هو ، وإن حزر معظمهم أنه السر فيليب فرانسيس ، الذى سنلتقى به الخصم للدود لوارن هيرستنجز . وكان المؤلف قد وقع بعض رسائله باسم « لوشس » ، وبعضها باسم « بروتس » ، أما الآن فقد انتحل الاسم الأوسط « لوشس جونيوس بروتس » الذى يقول ليثى انه خلع ملكاً (حوالى ٥١٠ ق.م .) وأسس الجمهورية الرومانية . وتدل فحولة لغة هذه الرسائل على أن « جونيوس » أوتى تعليم السادة وإن لم يؤت حسن أدبهم . والراجح أنه كان غنياً ، لأنه لم يتقاض أجرأ على رسائله التى وسعت قوتها ونقدتها اللاذع من توزيع صحيفة « المعان العام » توسيعاً غل الربح الوفير ، وهى الصحيفة التى ظهرت فيها من ٢١ نوفمبر ١٧٦٨ إلى ٢١ يناير ١٧٧٢ .

وفى مقاله « إهداء للأمة الانجليزية » الذى صدر به المؤلف « رسائل جونيوس » (١٧٧٢) أعلن هدفه وهو « تأكيد حرية الانتخاب ، والدفاع عن حقوقكم أنتم دون غيركم فى اختيار ممثليكم » واتخذ نقطة انطلاقه اقضاء والفس المتكرر ، واعتقال كل من له صلة بالعدد ٤٥ من « بریطانى الشمال » بأمر اعتقال عام . « أن حرية الصحافة هى الحصن المنيع لجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية للرجل الانجليزى ، وحق الخلفين . . . جزء أساسى من

دستورنا » ومن هذه الزاوية انتقد المؤلف أسس الحكومة البريطانية : « ان سلطة الملك ، والوردات ، ونواب العموم ، ليست سلطة تعسفية . فهم ليسوا إلا الأمناء على التركة لا مالكيها . والملكية المطلقة قائمة فينا نحن . . . وأنا موقن بأنكم ان تركوا المشيئة سبعائة شخص . أفسدهم التاج على نحو مفضوح ، الفصل في مستقبل سبعة ملايين من نظرائهم ، أ يكونون أحراراً أم عبيداً » (٨٥) .

ومضى جونيوس يتهم حكومة جرافتن (١٧٦٨ - ٧٠) ببيع المناصب وإفساد البرلمان بالانعامات والرشا . هنا أصبح الهجوم مباشراً وبلغ من الاحتدام حداً يشعر بأنه تصميم على الانتقام لإساءة أو إهانة شخصية .

« تقدم أيها الوزير الفاضل وقل للعالم بأى نفوذ زكى مستر هاين لمثل هذه الإمارة الخارقة على رضى جلالته ، وماذا كان ثمن الامتياز الذى اشتراه ؟ . . . انك تعرض بحسنة الرعاية الملكية للمزاد . . . أو تظن أن فى الإمكان أن تغفل هذه الكبائر دون اتهام ؟ أنها حقاً مصالحةك إلى الدرجة القصوى أن تحتفظ بمجالس العموم الخالى . فهم إذ باعوا الأمة جملة ، سيحبسونك ولا ريب فى التجزئة . لأنهم وهم يناصرون جرائمك يرعون أيضاً جرائمهم هم » (٨٦) .

واستمر الهجوم بعد استقالة جرافتن بزم من طويل ، كما نقرأ فى الرسالة المؤرخة ٢٢ يونيو ١٧٧١ .

لست أستطيع بأى مظهر مهذب من مظاهر اللياقة أن أصفك بأنك أنذل وأخس رجل فى المملكة . لا ياسيدى ، فليست أحسبك كذلك . فسيكون لك منافس خطر فى ذلك الضرب من الشهرة . . . مادام هناك رجل واحد حتى يحسبك جديراً بثقته ، صالحاً لأن يوكل إليك أى قسط فى حكومته . « وبدأ أن هذا وصف لجورج الثالث ذاته بأنه « أخس رجل فى المملكة » وكان جونيوس قد عمد من قبل فى الرسالة الخامسة والثلاثين إلى مهاجمة الملك « بإباء وحزم . ولكن دون احترام » : « سيدى ، ان الخطب الذى

منيت به حياتك . . . أنك لم تكن لتلم قط بلغة الحقيقة حتى سمعتها في شكواى شعبك . على أن الوقت لم يمت لتصحيح خطأ تعليمك » . ونصح جونيوس جورج بأن يميل وزراء المحافظين ، ويسمح لولكس بأن يشغل المقعد الذى أنتخب له . « أن على الملك ان كان يفتخر بسلامة حقه فى الحاج أن يذكر أنه اكتسب بشورة . وأنه قد يضيع بأخرى » (٨٧) .

وقبض على هنرى وودفول الذى نشر هذه الرسالة فى صحيفة « المغان العام » بتهمة القذف المحرض على الفتنة . ورفض المحلفون إدانته وهم يعكسون مشاعر الطبقة الوسطى ، فأخرج عنه بعد دفع المصاريف . وكان جونيوس قد بلغ الآن قمة سوره وقوته . ولكن الملك صمد للهجوم ، ودعم مركزه بتعيينه لرياسة الوزارة اللورد نورث اللطيف الثابت الجأش . وواصل جونيوس رسائله حتى ١٧٧٢ . ثم ترك ساحة القتال . ويلاحظ أنه فى ١٧٧٢ ترك السير فيليب فرانسيس وزارة الحربية (التى كان جونيوس قد أظهر معرفة وثيقة بشئونها) ورحل إلى الهند .

ونتمنى الرسائل إلى التاريخ الأدبى لانجلترا كما نتمنى إلى تاريخها السياسى ، ذلك أنها مثال حى على الأسلوب الذى كان فى قدرة الكثير من رجال السياسة البريطانيين أن يرتفعوا أو يتدنأوا إليه حين يلهبهم الغضب ويحميهم التحفى وراء الأسماء المستعارة . فهنا انجليزية رفيعة اختلطت بالسب . ولكن السب ذاته آية فى الطعن المرهف . أو الإجرام الحاد . ولست تجد هنا شفقة ، ولا سماحة ، ولا تفكيراً فى أن الحزب الذى ينتمى إليه راعى الاتهام يشارك المتهم خطيئته وذنبه . ونحن نتعاطف مع السر وليم دراير الذى كتب يقول رداً على رسالة جونيوس المؤرخة ٢١ يناير ١٧٦٩ « أن المملكة تشفى بعدد غفير من اللصوص المجرمين الذين يسطون على خلق الأفراد وفضيلتهم بحيث لم يعد لإنسان شريف واحد فى مأمن ، لاسيما لأن هؤلاء القتلة المحترء الجبناء يطعنون فى الظلام دون أن تكون لديهم الشجاعة للتوقيع بأسمائهم الحقيقية على كتاباتهم الشريرة المتهودة » (٨٨) .

وقد تميز تحرك الصحافة البريطانية صوب حرية ونفوذ متعاضمين بصراع آخر في هذه السنوات . ذلك أن بعض الجرائد بدأت حوالى ١٧٦٨ فى طبع تقارير عن الخطب الكبرى التى تلقى فى البرلمان . وكان أكثر هذه التقارير متحيزاً وغير دقيق ، وبعضها وهمياً ، وبعضها محشواً بالبذاءات . وفى فبراير ١٧٧١ شككا الكولونيل جورج أونسلو إلى مجلس العموم من أن مجلة أشارت إليه بعبارة « الوغد الخقر » و « ذلك الحشرة التافهة الخسيسة » فأمر المجلس فى ١٢ مارس بالقبض على الطابعين . فقاوموا ، وقبضوا على من أرادوا اعتقالهم وأتواهم إلى عضوين فى البلدية (أحدهما ولكس) وبراس كروبتى عمدة لندن . وأبطل العمدة محاولة اعتقال الطابعين بحجة أن مراسيم المدينة تحظر اعتقال لندنى إلا بناء على أمر اعتقال يصدره أحد قضاة المدينة . فأمر البرلمان بسجن العمدة فى برج لندن ، ولكن جماهير العامة هبوا يؤيدونه ، وهاجموا مركبات النواب ، وهددوا الوزراء ، وصفروا للملك استهزاء ، ثم أغاروا على مجلس النواب . فأطلق سراح العمدة ، وهتف له جمع غفير . واستأنفت الصحف تقاريرها عن المناقشات البرلمانية . وكف البرلمان عن توجيه الاتهام للطابعين . وفى ١٧٧٤ بدأ لوك هانساد بموافقة البرلمان ينشر فوراً وبدقة يوميات مجلس العموم ، وواصل نشرها حتى وفاته فى ١٨٢٨ .

وقد أثر الانتصار التاريخى الذى أحرزته الصحافة البريطانية فى طابع المناقشات البرلمانية ، وأسهم فى جعل النصف الثانى من القرن الثامن عشر العصر الذهبي للبلاغة الإنجليزية . وأصبح الخطباء أشد حذراً ، وربما أكثر رغبة فى الإثارة ، حين شعروا أن الناس يستمعون إليهم فى طول الجزر البريطانية وعرضها . وغدا بعض التقدم صوب الديمقراطية أمراً لا مفر منه بعد أن اتسع انتشار الإعلام والفكر السياسيين ، ووجدت طبقة رجال الأعمال ، والمجتمع المفكر ، والراديكاليون الصاعدون ، فى الصحافة صوتاً ازداد جرأة وفاعلية زيادة مطردة ، حتى قهر الملكية ذاتها . واستطاع الناصبون أن يعرفوا الآن إلى أى حد أحسن نواهم الدفاع عنهم وعن مصالحهم فى وضع القوانين وإلغائها . لقد استمر الفساد ولكنه تقاص ، لأنه كان فى الإمكان فضحه بجهر أكثر . وغدت الصحافة سلطة ثالثة قادرة أحياناً على حفظ التوازن بين الطبقات فى الأمة أو فى الأحزاب فى البرلمان . وأصبح للرجال القادرين على شراء الصحف أو الهيمنة عليها ، قوة تعدل قوة الوزراء .

على أن الحرية الجديدة كمعظم الحريات أسية استعمالها مراراً ، فباتت أحياناً أداة تسخيرها أهداف أشد أنانية وتجزياً ، ومعارضة أشد سوقية وعنفاً ، من أى أهداف أو معارضة ظهرت من قبل في البرلمان ، عندها استحدثت النعت الذى نعتها به شاتام - « الفاجرة المرخصة »^(٨٩) وكان إلزاماً أن يؤدها هى الأخرى صوت رابع هو رأى العام ، الذى كانت الصحافة مع ذلك جزئياً مصدره ، وفي حالات كثيرة مضللة ، وأحياناً صوته . وبدأ الرجال والنساء المجردون من الألقاب يجهرون بأرائهم في السياسة وأساليب الحكم بعد أن تسلحوا بمعرفة أوسع ، وتجمعوا في محافل عامة . وناقشت مناقشاتهم بين الحين والحين مناقشات البرلمان أثراً في التاريخ ، واستطاع الآن المال أن يطالب بحق الحكم كشراف الأصل سواء بسواء ، وبين الفريقين المتصارعين يسمع صوت الشعب بين الحين والحين .

أفرج عن ولكس في ١٧ إبريل ١٧٧٠ ، فأضيفت بيوت كثيرة كأنما تحتفل بعيد ، وعلق العمدة على منزله لافتة تحمل كلمة « الحرية » في حروف ارتفاعها ثلاث أقدام^(٩٠) . ولم يلبث ولكس أن انتخب عضواً في البلدية ثم عمدة ، وفي ١٧٧٤ انتخبته مدلسكس مرة أخرى للبرلمان . ولم يجرؤ النواب الآن على أن يحرموه مقعده ، فاحتفظ به طوال الانتخابات حتى ١٧٩٠ . وتزعم لفيغاً صغيراً من « الراديكاليين » في البرلمان ، طالبوا بالإصلاح البرلماني وبإعطاء « الطبقات الدنيا » حق التصويت .

« ينبغي في رأي أن يتاح لكل عامل حر في هذه المملكة حق تمثيله في البرلمان وينبغي بتر دوائر الخضر الحقيمة التافهة ، التي نصر على وصفها بأنها الجزء العفن في دستورنا ، وأن يسمح للمدن التجارية الغنية الأهلة بالسكان - مثل برمنجهام ومانشستر وشيفيلد ولانز وغيرها - بإرسال نوابها لمجلس الأمة العظيم . . . أريد ياسيدى برلمانياً انجليزياً يعبر عن الإحساس الحر ، غير المتحيز ، لسواد الشعب الانجليزي »^(٩١) .

وقد انتظر البرلمان ستة وخمسين عاماً لتقبل هذه الإصلاحات .

ورفض ولكس أن يرشح نفسه للانتخاب في ١٧٩٠ ، ثم اعتزل الحياة العامة . ومات في ١٧٩٧ وقد بلغ السبعين ، فقيراً كما ولد ، لأنه كان شديد الأمانة في جميع مناصبه^(٩٢) .

٥ - إنجلترا ضد أمريكا

في ١٧٥٠ بلغ سكان المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية قرابة ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، أما سكان إنجلترا وويلز فكانوا نحو ٦,١٤٠,٠٠٠ (٩٣) ولما كان معدل النمو في المستعمرات أعلى بكثير منه في الوطن الأم، فإن المسألة لم تكن إلا مسألة وقت حتى يتمرد الإبن على أبيه . وكان مونتكسكيو قد تنبأ بأن هذا سيحدث في ١٧٣٠ ، بل إنه تنبأ بالضبط بأن الانفصال ستسببه القيسود المفروضة على التجارة الأمريكية . وحوالي ١٧٤٧ تنبأ المركز دارجنسن بأن المستعمرات ستثور على إنجلترا وتكون جمهورية وتصبح إحدى الدول العظمى . وبعد أن انتزعت إنجلترا كندا من فرنسا في حرب السنين السبع بقليل قال فرجين لرجال إنجليزى : « ستندم إنجلترا سريعا على أنها أزلت السكابح الوحيد الذى يستطيع أن يبقى على خوف مستعمراتها . فهى لم تعد فى حاجة لحمايتها ، وستطالب إنجلترا المستعمرات بالمساهمة فى الأعباء التى عمت على إئقالتها ، وسترد المستعمرات بالقضاء على كل تبعية لإنجلترا » (٩٤) .

وكان التاج البريطانى يدعى سلطة نقض القوانين التى توافق عليها مجالس المستعمرات . ولم يلجأ التاج كثيرا لاستعمال تلك السلطة ، ولكن حين وافق مجلس كارولينا الجنوبية على قانون يفرض ضريبة باهظة على استيراد العبيد ، « لشعوره بالخطر الاجتماعى والسياسى العظيم الناجم عن تكاثر العبيد الهائل فى المستعمرة » ألغى التاج القانون لأن « تجارة العبيد من أرباح فروع التجارة الإنجليزية » (٩٥) أما فى الشؤون الاقتصادية فقد ادعى البرلمان حق التشريع للإمبراطورية البريطانية كلها ، وكانت قوانينه عادة تحابى الوطن الأم على حساب المستعمرات . وكان هدفه جعل أمريكا مصدراً للسلع التى لا تنتج بسهولة فى إنجلترا ، وسوقاً للمصنوعات البريطانية (٩٦) . وقد نبط نمو صناعات المستعمرات التى ستنافس صناعات إنجلترا فحظر على سكان المستعمرات صناعة الأقمشة ، والقمبعات ، والبضائع الجلدية ، والمنتجات الحديدية (٩٧) . وهكذا أعلن إيرل شاتام ، الذى كان فيما خلا هذا كبير

الود للمستعمرات ، أنه ان يسمح بأن يضع مسبار واحد في أمريكا دون إذن البرلمان (٩٨) . ومنعت المستعمرات من إنشاء أفران الصلب أو مصانع القاطرات .

وفرضت قيود عديدة على التجار الأمريكيين فهم لا يستطيعون شحن البضائع إلا في السفن الإنجليزية ، ولا بيع التبغ والقطن والحرير والبن والسكر والأرز وكثير غيرها من السلع إلا للممتلكات البريطانية، ولا استيراد البضائع من القارة الأوروبية إلا بعد أن ترسى على ساحل إنجلترا ، وبعد أن تدفع مكس الميناء، ثم تنقل إلى سفن بريطانية . وحماية لتصدير المصنوعات الصوفية الإنجليزية إلى المستعمرات الأمريكية ، حرم على تجار المستعمرات بيع مصنوعات المستعمرات الصوفية خارج المستعمرة التي أنتجتها (٩٩) . وفرض البرلمان ضريبة باهظة (١٧٣٣) على واردات أمريكا من السكر أو الدبس (المولاس) الحلوبة من أى مصدر غير المصادر البريطانية . وتفادى المستعمرون لا سيما في مساتشوستس بعض هذه اللوائح بالتهريب ، وبيع الغلات الأمريكية خفية للأهم الأجنبية ؛ وحتى للفرنسيين أثناء حرب السنين السبع . ولم يمثل لشرط المرور بالثغور الإنجليزية إلا عشرة في المائة أو نحوهم من كميات الشاى التي تستورد سنويا للمستعمرات الأمريكية ؛ وجملتها ١٠٠٠ ١٥٠٠ رطل . وكان قدر كبير من الوسكى الذي تنتجه معامل تقطير مساتشوستس في ١٧٥٠ ، وعددها ثلاثة وستون ، يستعمل السكر والمولاس المهربين إليها من جزر الهند الغربية الفرنسية (١٠١) .

وتبريرا لهذه القيود قال البريطانيون أن الأمم الأوروبية الأخرى فوضت نظيرها على مستعمراتها، حماية لأهلها أو مكافأة لهم، وأن الغلات الأمريكية تتمتع باحتكار فعلى للسوق الإنجليزية بفضل إعفائها من رسوم الاستيراد ، وأن إنجلترا جديرة ببعض العائد الاقتصادي نظير تكاليف الحماية التي وفرتها بحريتها لسفن المستعمرات ، وجيوشها للمستعمرين ضد الفرنسيين والهنود في أمريكا . وكان طرد القوة الفرنسية من كندا والقوة الأسبانية من فلوريدا قد حرر الإنجليز من أخطار طالما هددتهم ، ومن ثم شعرت إنجلترا أن لها

الحق في أن تطلب إلى أمريكا أن تعينها على سداد الدين الباهظ — البالغ ١٤٠٠٠٠٠٠ رطل — الذي استدانته بريطانيا العظمى في حرب السنين السبع . ورد المستعمرون بأنهم قدموا عشرين ألف جندي لتلك الحرب ، وأنهم هم أنفسهم اقترضوا ديناً بالغ ٢٥٠٠٠٠٠ رطل جنيه .

على أية حال قررت إنجلترا أن تفرض الضرائب على المستعمرين . ففي مارس ١٧٦٣ اقترح جرنفل على البرلمان المطالبة بلصق طابع دمعغة على جميع ما يصدر في المستعمرات من وثائق قانونية ، ومستندات ، ودبلوماسية ، وورق لعب ، وكهبيالات ، وعقود ، ورهون ، وبوالص تأمين ، وجرائد ، ويقتضى دفع رسم عن طابع الدمعغة للحكومة البريطانية . وأشار باترك هنري في فرجينيا ، وصموئيل آدمز في ماساتشوستس ، برفض هذه الضريبة بحجة أن الإنجليز يحكمون تقاليدهم الموروثة — المحنكارنا ، والعصيان الكبير لتشارلز الأول ، و«التمس الحقوق» — لا يحق فرض ضريبة عليهم إلا بموافقتهم أو بموافقة ممثليهم الشرعيين . فكيف يتأتى إذن أن تفرض على المستعمرين الإنجليز ضريبة من برلمان ليس لهم فيه ممثلون ؟ ورد البريطانيون بأن صعوبات السفر والمواصلات تجعل تمثيل الأمريكيين في البرلمان أمراً غير ممكن عملياً ، وقالوا أن الملايين من الإنجليز البالغين ظلوا قروناً يقبأون في ولاء أن يفرض البرلمان الضرائب عليهم رغم أنهم لم يكن لهم صوت في انتخابه ، وقد أحسوا بما ينبغى أن يحس به الأمريكيون — وهو أنهم ممثلون فعلاً في البرلمان ، لأن أعضائه يعملون أنفسهم ممثلين للامبراطورية البريطانية كلها .

غير أن المستعمرين لم يقتنعوا . وإذا كان البرلمان قد احتفظ بسلطة فرض الضرائب مرتكزاً للهيمنة على الملك ، فإن المستعمرات دافعت عن حقها دون سواها في فرض الضرائب على ذواتها بديلاً وحيداً للظلم المالي يقع عليهم من رجال لم يروهم قط ولا وطئت أقدامهم قط التراب الأمريكي . وتهرب المحامون من شرط استعمال الوثائق المدةوعة ، ووضعوا بعض الصحف صورة مجمعة هيت في المكان الذي يفترض أن تظهر عليه الدمعغة ، وبدأ الأمريكيون يتقاطعون البضائع البريطانية ، وألغى التجار طلباتهم من المنتجات

البريطانية . ورفض بعضهم سداد ديونهم لـ إنجلترا حتى يلغى قانون الدمغة (١١٢) . وأخذت عذارى المستعمرات العهد على أنفسهن بألا يقبلن خطابا لا ينددون بقانون الدمغة (١١٣) . واشتد سخط الشعب حتى بلغ إثارة الشغب في عدة مدن ؛ ففي نيويورك شنت دمية تمثل الحاكم (وهو معين من قبل الملك) ، وفي بوسطن أحرق بيت مساعد الحاكم ، توماس هتشنسن ، وأكره موزعو الدمغة على الاستقالة من وظائفهم تحت التهديد بشنقهم . وشعر التجار البريطانيون بوقع المقاطعة ، فطالبوا بإلغاء القانون . وأرسلت اللجان إلى الحكومة من لندن وبرسبل وفربول وغيرها من المدن ، مقررّة أن كثيرين من رجال الصناعة الإنجليز سيفلسون إن لم يُلغ القانون ، وكان الآلاف من العمال قد طردوا فعلا للافتقار إلى الطلبات من أمريكا . وربما كان من قبيل الإقرار بهذه اللجان أن يعودت بعد مرض طويل إلى البرلمان عودة درامية ويصرح قائلا (١٤ يناير ١٧٦٦) « رأي أن هذه المملكة لا حق لها في فرض ضريبة على المستعمرات » . وقد سخر من « الفكرة التي تزعم أن المستعمرات ممثلة فعلا في المجلس » فلما قاطعه جورج جرنفل زاعما أنه يلحق بتشجيع الفتنة ردبت في تحد قائلا « إنى مغتبط لأن أمريكا قد قاومت » (١١٤) .

وفي ١٨ مارس أقنع اللورد روكنجهام البرلمان بإلغاء ضريبة الدمغة . ورغبة في استرضاء « أصدقاء الملك » أضاف إلى الإلغاء « قانونا له صفة الإعلان » يؤكد من جديد سلطة الملك في أن يضع بموافقة البرلمان قوانين ملازمة للمستعمرات ، وسلطة البرلمان في فرض الضرائب على المستعمرات البريطانية . وقبل الأمريكيون الإلغاء ، وتجاهلوا قانون الإعلان . وأصبحت المصالحة الآن ممكنة ، ولكن في يوليو سقطت وزارة روكنجهام ، وفي وزارة جرافتن التي تلتها جدد تشارلز تاونسند ، وزير المالية ، محاولة إلزام المستعمرات بدفع نفقات القوات الإدارية والحربية اللازمة لحمايتها من اختلال النظام في داخلها أو الهجوم عليها من الخارج . ففي ١٣ مايو ١٧٦٧ اقترح على البرلمان فرض رسوم جديدة على الزجاج والرصاص والورق والشاي ، الذي تستورده أمريكا ، على أن يستخدم الملك حصيلة هذه الرسوم في دفع رواتب الحكام والقضاة الذين يعينهم لأمريكا ، فإذا كان هناك فائض وجه

للاتفاق على الجنود البريطانيين هناك . ووافق البرلمان . ومات تاونسهند بعدها بشهور .

وقاوم الأمريكيون الرسوم الجديدة باعتبارها ضرائب مقنعة . وكانوا يتحكمون في جنود الملك وحكامه بجعلهم معتمدين إلى حد كبير في إعالتهم على الأموال التي توافق عليها مجالس المستعمرات ، فتسليم قوة المال هذه للملك معناه تسليم إدارة الحكومة الأمريكية للسلطة الملكية ، وأجمعت المجالس على الخوض على مقاطعة البضائع البريطانية من جديد ، واقبرت الجهود المبذولة لجمع الرسوم الجديدة مقاومة عنيفة ، وحاول اللورد نورث حلا وسطا بإلغاء جميع الرسوم التي فرضها تاونسهند فيما عدا رسما على الشاي قدره ثلاثة بنسات على الرطل ، وأرخص المستعمرون مقاطعتهم ، ولكنهم صمموا على ألا يشربوا من الشاي إلا المهرب . فلما حاولت ثلاثة سفن تملكها شركة الهند الشرقية تفريغ ٢٨٩ صندوقا من الشاي في بوسطن ، صعد إلى السفن خمسون مستعمرا حائقا متكررين في زى هنود الموهوك ، وتغلبوا على مقاومة ملاحيا ، وأفرغوا شحناتها في البحر (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) . وعطلت حوادث الشغب في ثغور أمريكية أخرى المزيد من الجهود لتفريغ شاي الشركة .

وبقية القصة أكثر يخص أمريكا ، ولكن الدور الذي لعبه فيها ساسة بريطانيا وخطابوها وكتابها ورأيها العام هو عنصر حيوي في تاريخ إنجلترا . وكما أن أقلية كبيرة نشيطة في أمريكا طالبت بالولاء للوطن الأم والحكومة ، فإن أقلية في إنجلترا يمثلها في البرلمان شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وهوراس ولبول ، وولكس ، ناضلت لإقرار سلام بشروط في مصلحة أمريكا ، بينما كان الجمهور عموما يؤيد الإجراءات الحربية التي اتخذتها وزارة اللورد نورث . ورأى البعض في انقسام الرأي العام الإنجليزي على هذا النحو إحياء للمعارضة التي قامت بين الملكيين والبرلمانيين في ١٦٤٢ . وناصرت الكنيسة الإنجليزية الحرب ضد المستعمرين مناصرة كاملة ، وكذلك المشوديون سيرا وراء زعيمهم ويسلي ، ولكن كثيرا من المنشقين غير هؤلاء أسفوا على هذا الصراع لأنهم

تذكروا أن أغلبية من المستعمرين تحدت من جماعات منشقة . ووافق جيون جونسون على إدانة المستعمرات ، ولكن ديفد هيويم حذر بريطانيا وهو على وشك الموت من أن محاولة إكراه أمريكا ستفضي الى كارثة (١١٥) أما أصحاب المصالح التجارية فقد مالوا إلى تأييد الملك لأن طلبات الحرب تجلب لهم الأرزاق . وقال بيرك في حزن أن الحرب « قد أصبحت بديلا للتجارة حتما ٠٠٠ والطلبات الضخمة على الإمدادات والبضائع من كل نوع ٠٠٠ ترفع معنوية عالم التجارة ، وتغري التجار بالأيروا في الحرب الأمريكية نكبتهم بقدر ما هي مورد ثرائهم » (١١٦) .

وخشى الأحرار أن تقوى الحرب المحافظين على حزبهم ، والملك على البرلمان ، وفكر أحد الأحرار وهو دوق رتشموند في الرحيل إلى فرنسا فرارا من الاستبداد الملكي (١١٧) وكان في مسلك جورج الثالث مايرر مثل هذه المخاوف بعض التبرير . فقد اضطلع بمهمة الحرب كاملة ، حتى بتفاصيلها الحربية ، وأطاع اللورد نورث والوزراء الآخرون قيادة الملك وإن ناقض هذا رأيهم الخاص في حالات كثيرة ، وأحس الملك أنه لو نجح الأمريكيون لواجهت إنجلترا الثورة في مستعمرات أخرى ، ولانحصرت آخر الأمر في جزيرتها ، على أن اللورد شاتام حذر البرلمان من أن تقع أمريكا سيكون انتصارا للمادى تشارلز الأول وجيمس الثاني . وفي ٢٠ نوفمبر ١٧٧٧ ، بعد أن عانت الجيوش البريطانية هزائم كثيرة في أمريكا ، وكانت فرنسا تعين المستعمرات بالمال ، استمع شاتام وهو قادم إلى مجلس اللوردات كأنما من القبر إلى « خطاب العرش » الوزاري بضيق متعاضم ، وقام ليلقى خطابا يعد من أروع ما سجلته البلاغة البريطانية من خطب ، ففيه اجتمع التاريخ والأدب . قال :

« إنني يا سادتي اللوردات أقف لأعرب عن مشاعري عن هذا الموضوع البالغ الجهد والخطر ٠٠ فلست أستطيع الموافقة على خطاب أعنى ذليل يوافق ويحاول أن يكرس الإجراءات الرهيبة التي هالت فوقنا العار والخليلوب - والتي جلبت الخراب إلى أبوابنا ٠٠ هذه أيها السادة لحظة خطيرة هائلة ! (م ٦ - قصة الحضارة ؛ ح ٤٢)

ليس الوقت وقت نزلف ٠٠ فلطف النزلف لا يجدى الآن ٠٠٠ ومن الضروري الآن لإعلام العرش بلغة الصديق ٠٠ هذا أيها السادة واجبنا ، انه الوظيفة الأصلية لهذا الاجتماع النبيل ، المعتمد في انعقاده على سمعتنا بالأمانة والوفاء بالوعود في هذا البرلمان ، وهو المجلس الوراثي للتاج ٠ فمن هو الوزير — وأين هو الوزير — الذى جرؤ على أن يقترح على العرش تلك اللغة العنيدة ، غير الدستورية التى ألقى اليوم منه ؟ إن اللغة التى اعتدناها من العرش هى طلب المشورة من البرلمان ٠٠٠ أما اليوم ، وفي هذا الطارئ البالغ الخطورة ، فإنه لم توضع ثقة في مشورتنا الدستورية ، ولم تطلب نصيحة من عناية البرلمان الرصينة المستنيرة ، ولكن التاج ، من ذاته ووحده ، يعلن تصميماً باتاً على مواصلة إجراءات ٠٠٠ بملاة ومفروضة علينا ٠٠٠ جلبت الخراب والاحتقار على هذه الإمبراطورية التى كانت بالأمس مزدهرة بالأمس فقط ، كان في استطاعة إنجلترا أن تثبت أمام العالم كله ، أما الآن فليس هناك أحد بلغ من المسكنة ما يغريه بتقديم الإحترام لها . . . »

« أيها السادة ، انكم لن تستطيعوا قهر أمريكا . . . قد ازدادون غلوا في بذل النفقة والجهد المفرطين ، وقد تجمعون وتكومون كل ما تستطيعون شراءه أو اقتراضه من معونة ، وقد تتاجرون وتقايضون مع كل ملك الماني حقير ضئيل يبيع رعاياه ويرسلهم إلى الذبح . . . قد نفعلون هذا كله ، ولكن جهودكم تظل إلى الأبد باطلة عاجزة — ويضاعف من بطلانها وعجزها هذا العون المرتزق الذى تعتمدون عليه ، لأنه يهيج عقول أعدائكم إلى حد الكراهية التى لا شفاء منها . ولو كنت أمريكا ، كما أنا انجليزي ، ورأيت جندياً أجنبياً يرسي في أرض وطني ، لما وضعت سلاحي — أبداً = أبداً — أبداً — أبداً ! (١٠٨) .

أما بورك فقد سخر كل ملكات جده له في محاولة ثنى البرلمان والوزارة بحد سياسة القوة ضد أمريكا . وقد مثل من ١٧٧٤ إلى ١٧٨٠ في البرلمان مدينة برستل التى عارض تجارها الحرب مع أمريكا أول الأمر (١٠٩) ، كذلك كان في هذه الفترة وكيلاً براتب لولاية نيويورك (١١٠) . ولم ينكر حق البرلمان في فرض الضرائب على المستعمرات كما أنكره شاتام ، ولم يؤيد

لجوء المستعمرين إلى نظريات تجريدية في « الحق الطبيعي » . ولكنه نزل بالمسألة إلى حيث يستطيع الرجال العمليون أن يفهموه : فهل فرض الضرائب على أمريكا ممكن عملياً ؟ وفي خطابه عن الضرائب الأمريكية (١٩ أبريل ١٧٧٤) لم يكتف بأدانة قوانين تاونسهند بل أدان أيضاً ضريبة البنسات الثلاثة على الشاي ، وحذر من أن إضافة ضرائب على القمود الصناعية والتجارية المفروضة فعلا على أمريكا ستحمل المستعمرين على المضى في ثورة من شأنها أن تمزق الإمبراطورية البريطانية الوليدة وتلوث سمعة البرلمان .

فلما هزم في هذه القضية جدّد في ٢٢ مارس ١٧٧٥ طلب المصالحة . وقال إن التجارة مع أمريكا قد تضاعفت عشر مرات بين عامي ١٧٠٤ و ١٧٧٢ (١١١) ثم تساءل أمن الحكمة تمزيق تلك التجارة وربما التضحية بها بالحرب ؟ وقال أنه يخشى أن الحرب مع المستعمرين ستترك إنجلترا معرضة للهجوم من عدو أجنبي ، وهو ما حدث في ١٧٧٨ . ووافق على أن تمثيل الأمريكيين في البرلمان جعله البحر أمراً غير ممكن عملياً ، ولكنه أكتفى بأن يطالب بالاعتماد إنجلترا على الضرائب بل على المنح الاختياريه من مجالس المستعمرات ، وقد تزيد هذه المنح على حصيلة الضرائب المباشرة بعد خصم نفقات جمعها بالقوة (١١٢) .

على اقتراحه هذا رفض بأغلبية ٢٧٠ ضد ٧٨ ، ولكن كان عزاء له أن يكسب لقضيته بلاغة وحلق تشارلز جيمس فوكس ، وهكذا بدأت صداقة وثقت عراها الثورة الأمريكية وفصمتها الثورة الفرنسية . وقد وصف جيون خطاب فوكس الذي ألقاه في ٣١ أكتوبر ١٧٧٦ بأنه أقدر ما ألقاه في حياته من خطب ، وذهب هوراس ولبول إلى أنه « من أروع خطب فوكس وأشدها حيوية » (١١٣) وقد وقف ولبول في وصف دعاة المصالحة ، ورثى لانهايار الحنكة السياسية البريطانية في ظل حكومة اللورد نورث ، وفي ١١ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى هوراس مان يقول :

« تقرر أن يجتمع البرلمان في العشرين من الشهر القادم ويصوت على إرسال ٢٦,٠٠٠ بحار . فيأله من قرار دموي ! ليت شعري بأي صنوف

العذاب لا بد من صيانة الحرية في أمريكا ! وفي إنجلترا ما الذى يستطيع انقاذ الحرية ؟ إليه إنجلترا المحبونه ، المحبونة ! أى جنون أن تنبذ كنوزها ، وتضيع ثروتها الطائلة ، وتضحى بحريتها ، ليكون ملكها الحاكم المطلق لصحارى لانهاية لها في أمريكا ، وجزيرة في أوربا مفتقره إلى المال ، منزوحة السكان ، ومن ثم فاقدة الأهمية ! » (١١٤) .

على أن الذى أقنـع الشعب الإنجليزى ، ثم حكومته ، بأفكار السلام لم تكن حماسة شاتام ولا بيرك ولا فوكس ، بل انتصارات المستعمرات وتحركاتها الدبلوماسية . وكان استسلام بورجوين في ساراتاجوا (١٧ أكتوبر ١٧٧٧) نقطة التحول ، ولأول مرة قدرت إنجلترا تحذير شاتام « لن تستطيعوا قهر أمريكا » فلما اعترفت فرنسا بـ « ولايات أمريكا المتحدة » وانضمت إلى الحرب ضـد إنجلترا (٦ فبراير ١٧٧٨) أيد رأى الساسة الفرنسيين رأى شاتام ، وأضف ثقل الأسلحة الفرنسية والبحرية الفرنسية الجديدة إلى العبء الملقى على كاهل الأمة البريطانية بل أن اللورد نورث ذاته تخاذل ، ورجا الأذن له بالإستقالة ، ولكن الملك الذى أغرقه بهيئة أمره بالبقاء في منصبه .

وشعر الكثيرون من الإنجليز البارزين أنه لن يستطيع اقناع المستعمرات بالعدول عن تحالفها مع فرنسا إلى الاتحاد مع إنجلترا ثانية إلا حكومة يزعـمها إيرل شاتام . ولكن جورج أبى أن يستمع لهذا رأى . فقد قال لنورث « أنى أصرح تصريحاً قاطعاً بأنه ما من شىء يحملنى على التعامل شخصياً مع اللورد شاتام » (١١٥) وجاء الأيرل إلى مجلس اللوردات لآخر مرة في ٧ أبريل ١٧٧٨ مستنداً إلى عكازين وابنه ولیم ، وقد اكفهر وجهه إيلاناً بدنو منيته ، وضعف صوته حتى لم يكـد يسمع . وعاد ينصح بالمصالحة ، ولكنه عارض « تقطيع أوصال هذه الماكية العريقة النجيله جداً » بمنح الاستقلال لأمريكا (١١٦) ورد اللوق رتشموند بأن هذا المنح وحده هو السبيل إلى رد أمريكا عن عن حالفها مع فرنسا . وحاول شاتام أن ينهض ويتكلم ثانية ، ولكنه سقط مصاباً بنوبة فالج ، ومات في ١١ مايو ١٧٧٨ وقرر البرلمان أن يشيع في

جنازة عامة وأن يقام له قبر ونصب في كنيسة وستمنستر . لقد كان بإجماع الناس أعظم الانجليز في جيله .

وتلاحقت الأحداث لتكمل الكارثة التي تنبأ بها . ففي يونيو ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا في الحرب ضد إنجلترا ؛ وحاصرت جبل طارق وأرسلت أسطولها ليشترك في الهجوم على السفن البريطانية . وفي أغسطس دخل أسطول صغير مشترك قوامه سفن فرنسية وأسبانية القنال الإنجليزي ؛ وأتخذت إنجلترا أهبتها فيما يشبه الحمى لمقاومة الغزو ، غير أن المرض أعجز أسطول العدو وأكرهه على الالتجاء إلى برست . وفي مارس ١٧٨٠ اتحدت روسيا والدنمرك والسويد في اعلان بالحياد المسلح « أقسم على مقاومة ما درجت عليه إنجلترا من اعتلاء ظهور السفن المحايده بحثاً عن بضائع العدو ، ولم تلبث دول محايدة أخرى أن وقعت الإعلان . واستمرت تفتيش الإنجليز للسفن الهولندية ، وقد وجد الدليل على اتفاقات سرية بين مدينة امستردام ومفاوض أمريكي . وطالبت إنجلترا بمعاينة موظفي امستردام ولكن الحكومة الهولندية رفضت ، فأعلنت عليها إنجلترا الحرب (ديسمبر ١٧٨٠) . وأصبحت الآن كل دول البaltic والاطنطى تقريباً متحالفة على إنجلترا التي كانت بالأمس متسلطة على جميع البحار .

وعكس مراج البرلمان تكاثر الكوارث . وتصاعد الاستياء من إحباط الملك لرغبة وزيره في إنهاء الحرب . ففي ٦ أبريل ١٧٨٠ كان جون دننج قد قدم لمجلس العموم اقتراحاً يعلن « أن نفوذ التاج ازداد ، وهو في ازدياد ، وينبغي الحد منه » ، ووافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٢٣٣ صوتاً ضد ٢١٥ . وفي ٢١ يناير ١٧٨١ اتخذت الإبن كرسية في المجلس ، وفي خطابه الثاني ندد بالحرب مع أمريكا فاعتبا أيهاا بأنها « جمد ملعونة ، شريرة ، همجية ، قاسية ، منافية للطبيعة ، ظالمة ، شيطانية » (١١٧) . ورحب فوكس مبتهجاً ببست في صفوف المعارضة . غير متوقع أن هذا الفتى سيكون عملاً قليل أقوى أعدائه .

وفي ١٩ أكتوبر ١٧٨١ استسلم اللورد كورنواليس لواشنطن في يوركتاون.

وصاح اللورد نورث « رياه ، لقد انتهى كل شيء ا » ولكن الملك أصر على مواصلة الحرب . وفي فبراير ومارس ١٧٨٢ جاءت الأنباء بأن الأسبان استولوا على منورقة ، والفرنسيين على عدد من جزر الهند الغربية ، وارتفعت الأصوات الغاضبة في الاجتماعات العامة التي انعقدت في طول إنجلترا وعرضها مطالبة بالسلام . وهبطت أغلبية نورث في مجلس العموم إلى اثنين وعشرين ، ثم إلى تسعة عشر ، ثم إلى واحد — في التصويت على اقتراح « بأن المجلس لا يستطيع بعد الآن وضع ثقته في الوزراء الحاليين » (١٥ مارس ١٧٨٢) ، ووضع هذا سابقة تاريخية لطريقة البرلمان في إلزام بتغيير الوزارة . وفي ١٨ مارس كتب نورث إلى جورج الثالث رسالة أنبأه فيها في الواقع أن السياسة الملكية نحو أمريكا ، ومحاوله توطيد سيادة الملك على البرلمان ، كليهما قد فشل .

« إن جلالتيكم على بينة من أن الملك الجالس على عرش هذا البلد لا يستطيع إن كان حصيفا أن يعارض القرار المدروس الذي يستقر عليه مجلس العموم . . . لقد أعرب أعضاء البرلمان عن مشاعرهم ، ومشاعرهم — صائبة كانت أم مخطئة — لا بد في النهاية أن تكون لها الغلبة . إن جلالتيكم . لن تفقدوا أى كرامة لو سلمتم » (١١٨) .

وفي ٢٠ مارس ١٧٨٢ ، بعد اثنتي عشرة سنة من الخدمة الصابرة والخضوع ، استقال اللورد نورث . وكتب جورج الثالث الذي تحطمت روحه خطاب اعتزال ولكنه لم يرسله . وقبل وزارة من الأحرار المتصيرين : روكنجهام ، وإيرل شلبيرن ، وتشارلز جيمس فوكس ، وبيرك ، وشريدان . ولما مات روكنجهام (أول يوليو) خلفه شلبيرن وزيرا للخزانة . واستقال فوكس وبيرك وشريدان الذين كانوا يكرهون شلبيرن . وشرع شلبيرن في الترتيبات اللازمة لإبرام معاهدة صلح (باريس) ، ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ ، باريس وفرساي ٢٠ يناير و ٣ سبتمبر ١٧٨٣) نزلت إنجلترا بمقتضاها عن منورقة وفلوريدا لأسبانيا ، وعن السنغال لفرنسا ، ولم تقتصر على الاعتراف باستقلال المستعمرات الأمريكية بل بحقها في جميع الأراضي الواقعة بين الألباني وفلوريدا والمسيبي والبحيرات العظمى .

وكان الشعب الإنجليزي نواقا للسلام، ولكن ساءه النزول عن هذه الأقاليم الكثيرة للمستعمرات ، وبلغ النقد الموجه لشلبيرن من لمرارة حدا حملته على تقديم استقالته (٢٤ فبراير ١٧٨٣) ولما كان الشقاق بين شلبيرن وفوكس قد قسم حزب الأحرار إلى شيع لم يكن لإحداها من القوة ما يتيح لها الهيمنة على البرلمان ، فقد وافق فوكس على تشكيل وزارة ائتلاف مع عده القديم اللورد نورث . وأصبح بيرك صيرفيا للقوات المسلحة ثانية . أما شربدان الذى لم يفق من ديونه قط فقد عين وزيرا للخزانة . وكان فوكس وبيرك يفحصان منذ فترة مسلك الإنجليز في الهند، واحتل ذلك البلد الآن محل أمريكا بوصفه أشد المشاكل إلحاحا في السياسة البريطانية .

٦ - إنجلترا والهند

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أعيد تنظيمها في ١٧٠٩ باسم الشركة المتحدة لتجارة إنجلترا المنجرة مع الهند الشرقية . وقد خولها المرسوم الذى حصلت عليه مق الحكومة البريطانية احتكار التجارة البريطانية مع الهند . وكان يدير شؤونها رئيس وأربعة وعشرون مديرا ينتخبهم سنويا « مجلس الملاك » لكل مساهم فيه بخمسمائة جنيه أو أكثر صوت واحد . وقد أصبحت الشركة في الهند منظمة حربية كما كانت منظمة تجارية ، وقاوت الجيوش الهولندية والفرنسية والوطنية للظفر بنصيب من امبراطورية المغول المتهوية ، وفي حرب من هذه الحروب استولى سراج الدولة ، حاكم البنغال ، على كلكتا من الشركة ، وحبس ١٤٦ أوريبيا في « جحر كلكتا الأسود » - وهو حجرة طولها ثمانية عشر وعرضها أربعة عشر قدما ، ليس فيها غير طاقتين صغيرتين ، ومات من السجناء ١٢٣ أثناء الليل (٢٠ - ٢١ يونيو ١٧٥٦) من الحر أو الاختناق .

وقاد روبرت كلايف حاكم قلعة سانت ديفيد قوة صغيرة لاسترداد كلكتا للشركة وشارك في المؤامرة التي دبرها مير جعفر ، وهو نبيل في بلاط سراج الدولة ، للاطاحة بهذا الحاكم ، ثم استطاع بتسعمائة أوربي و ٢٣٠٠ جندي من الوطنيين أن يهزم خمسين ألف مقاتل في بلاسى (٢٣ يونيو ١٧٥٧)

وأعدم سراج الدولة ، وعين مير جعفر مكانه حاكما على البنغال . ودخل كلايف العاصمة مرشداً باب دخول الفاتحين ، وبدأت له مدينة لا تقل عن لندن حجماً وربما أكثر منها ثراء . ورأى في خزانة الحاكم أكداً لا تصدق من الروبيات والجواهر والذهب والفضة وغيرها من الدخائر . فلما طلب إليه أن يحدد مكافأة عن تنصيب جعفر حاكماً ، طلب ١٦٠٠٠٠ جنيه لنفسه ، ٥٠٠٠٠ جنيه لجيشه وبحريته ، ٢٤٠٠٠٠ جنيه لكل عضو من أعضاء مجلس إدارة الشركة ، و ١٠٠٠٠٠٠ جنيه تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بأمالك الشركة في كالكتا . وهذه هي المناسبة التي أشار إليها كلايف حين أنبأ مجلس العموم أنه يعجب من اعتداله^(١١٩) . وقد تلقى من مير جعفر هدايا جملة قيمتها ٢٠٠٠٠٠ جنيه^(١٢٠) واعترف به حاكماً بريطانيا للبنغال . أما الشركة فقد اعترف بها مالكة مطلقة لمساحة حول كالكتا مقدارها ٨٨٢ ميلاً مربعاً نظير دفع إيجار سنوى قدره ٢٧٠٠٠٠ جنيه لمير جعفر . وفي ١٧٥٩ وافق مير جعفر على أن يحول لكلايف كل عام الإيجار المدفوع من الشركة لقاء العون الذي قدمه له في إخماد فتنة .

فلما أمنت الشركة شر المنافسة ، راحت تستغل الرعايا الخاضعين لحكمها في غير شفقة واستعانت بأسلحتها المتفوقة لتكره الحكام الهنود على دفع ثمن باهظ لقاء الحماية البريطانية . وإذا كان كبار موظفيها يمتأى عن إشراف الحكومة البريطانية ، وبما من حصين من الواصا العشر شرق السويس فقد حققوا أرباحاً ضخمة من التجارة ، وعادوا إلى إنجلترا سروراً في وسع الرجل منهم أن يشتري « دائرة جيب » أو عضواً في البرلمان دون أن تضار ثروته ضرراً بالغاً .

وعاد كلايف إلى إنجلترا في ١٧٦٠ وقد بلغ الخامسة والثلاثين متوقفاً أن ينعم فيها بالشهرة والثراء « فاشترى من الدوائر الانتخابية ما يكفي للسيطرة على جهة في مجلس العموم ، وانتخب هو نفسه نائباً عن شروزبرى . غير أن بعض مديري شركة الهند الشرقية الذين شعروا أنه سرق فوق ماتبره سنه ، اتهموه باستخدام وثائق مزورة في تعامله مع سراج الدولة ، ومير جعفر . غير أن نبأ وصل إلى لندن بأن الثورات الوطنية ، وفساد الموظفين

وارتشاءهم ، وعجز الإدارة - كلها تهدد مركز الشركة في الهند ، فأعيد كلايف على عجل إلى كلكتا (١٧٦٥) حاكما للبنغال . وهناك كافح لوقف الفساد بين مساعديه ، واثمرد بين جنده ، وانتفاضات الحكام الوطنيين المتكررة على الشركة . وفي ١٢ أغسطس ١٧٦٥ أقنع شاه علم المغولي بأن يعطى الشركة الإشراف المالى المطلق على ولايات البنغال ، وبهار ، وأوريسا ، التى تضم من السكان ثلاثين مليوناً وتغلى إيرادات سنوياً قدره ٤٠٠٠٠٠٠ ر. جنبيه . وهذا ، بالإضافة إلى انتصار كلايف فى بلاسى ، خلق الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وبعد أن تحطمت صحة كلايف من جراء نضال امتد عامين ، عاد إلى إنجلترا فى يناير ١٧٦٧ . وتجدد هجوم بعض مديرى الشركة عليه ، وأيد الهجوم موظفون كان قد كبح محاولات ابتزازهم للمال . ثم شارك نبأ مجاعة كبرى فى الهند ، وهجمات الوطنيين على معاقل الشركة ، فى إحداث ذعر منى من جرائه نفر من أقطاب الإنجليز بخسائر فادحة . وفى ١٧٧٢ فحصت لجنةان برلمانيتان شئون الهند . فأماطتا اللثام عن ضروب من الابتزاز والقسوة جعلت هراس ولبول يصيح : « لقد فقنا الأسبان فى بربو ! لقد قتلنا ، وخلعنا الحكام ، ونهبنا ، واغتصبنا . . أجل ، فما قولكم فى مجاعة البنغال التى هلك فيها ثلاثة ملايين من الأنفس وسببها احتكار موظفى شركة الهند الشرقية للمؤن ؟ » (١٢١) وفى ١٧٧٣ طالبت إحدى لجنتى الفحص كلايف بأن يفسر لمجلس العموم الطرق التى استخدمها والمكاسب التى حققها فى الهند . فسلم لهم بجميع الوقائع تقريباً ، وكان دفاعه عنها أن العادات المحلية وضرورات الموقف بررتها ، ثم أضاف أن على الأعضاء حين يجيئون ليدينوا شرفه ألا ينسوا شرفهم . وصوت المجلس بأغلبية ١٥٥ ضد ٩٥ بأنه تلقى ٢٣٤٠٠٠ ر. جنبيه خلال إدارته الأولى للبنغال ، ولكنه « فى الوقت نفسه أدى لوطنه فى الواقع خدمات جليلة جليلة بالثناء » (١٢٢) وبعد عام انتحر كلايف غير متجاوز التاسعة والأربعين (٢٢ نوفمبر ١٧٧٤) :

وفى ١٧٧٣ استصدر اللورد نورث من البرلمان قانوناً تنظيمياً أقرض الشركة سلفة مقدارها ١٤٠٠٠٠ ر. جنبيه لينقلها (هى ومساهميها من النواب)

من الإفلاس ، وأخضع جميع الأقاليم التي تحكمها الشركة في الهند لرئاسة البنغال على أن تكون هي بدورها مسئولة أمام الحكومة البريطانية وعين وارن هيستنجز حاكما على البنغال .

وكان قد ارتقى إلى منصبه هذا من أصول متواضعة . فقد ماتت أمه وهي تلده ، وانطلق أبوه إلى حياة المغامرة ثم الموت في جزر الهند الغربية . وأرسل أحد أعمامه الغلام إلى مدرسة وستمنستر ، ولكن العم مات في ١٧٤٩ ، وأبحر وارن وهو في السابعة عشرة طلباً للثراء في الهند . وتطوع في الخدمة العسكرية تحت قيادة كلايف ، وشارك في استرداد كلكتا ، وأبدى اجتهدا وكفاية في الإدارة ، فعين في المجلس الذي يدير شئون الشركة في البنغال . وفي ١٧٦٤ عاد إلى إنجلترا . وبعد أربعة أعوام أقنعه المديرون بالإنضمام إلى مجلس مدراس . وفي طريقه إلى الهند التقى بالبارون إيمهوف وزوجته ماريون التي أصبحت خلية هيستنجز ثم زوجته . وقد أبلى في مدراس ، وفي ١٧٧٤ بدأ حكمه المضطرب واليا على البنغال .

وعكف على عمله بهمة ، ولكن أساليبه كانت دكتاتورية ، وكان في بعض تصرفاته ما أتاح للسرفليب فرانسس مادة لتوجيه الهجمات إليه في مجلس البنغال ، كما وجهها بيرك بعد ذلك في البرلمان . ذلك أنه حين أعادت قبائل المراتا المشاه علم إلى عرش المغول في دلهي فحول إليهم ملكية الأقاليم التي خصصها له كلايف من قبل في كورا والله اباد ، باع هيستنجز هذه الأقاليم إلى حاكم أود ، لقاء خمسين لك من الروبيات (٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار ؟) وكلف جنود الشركة بمساعدة الحاكم في استعادة الإقليم . وسمح له بالاستعانة بجنود الشركة في غزو وتملك إقاي روهلخند ، الذي كان حاكمه مدينا له (على حد قول هذا) ، وتسلمت الشركة مبلغا كبيرا لقاء استخدام هؤلاء الجنود . وكان في تصرف هيستنجز خرق واضح للأوامر الصادرة إليه من مديوى الشركة (١٧٣) ، ولكن هؤلاء المديرين كانوا يقدرون أى حاكم بمقدار المال الذي يبعث به إلى إنجلترا .

وأنهم موظف هندي يدعى نيكومار هيستنجز بقبوله الرشوة ، وصدق

فرانسس وغيره من أعضاء المجلس التهمة ، وادعوا أنه « ما من ضرب من ضروب الاختلاس رأى الحاكم المحترم أن من المعقول الامتناع عنه » (١٢٤) ، وفض على نكومار بتهمة تزوير ، وأدين ، وأعدم (١٧٧٥) . واشتبته في أن هيسنتنجز قد استخدم نفوذه في التأثير على قاضى القضاء السير ايليا ايمبي (وكان زميلا له في الدراسة في ونشستر) ليوقع على المتهم عقوبة صارمة على نحو غير مألوف . وفي ١٧٨٠ رقى هيسنتنجز ايمبي إلى وظيفة إضافية تغل له ٦٥٠٠ جنيه في العام . وقد أفضى تراشق هيسنتنجز وفرانسس بالتم إلى مبارزة جرح فيها فرانسس جرحا خطيرا .

ثم رأى حيدر على ، مهراجا ميسور ، في الخلافات بين هيسنتنجز ومجلسه فرصة لطرد الشركة من الهند . فهاجم حصون الشركة بدعم من الفرنسيين ، وأحرز بعض الانتصارات المندرة بالخطر (١٧٨٠) . فأرسل هيسنتنجز الجند والمال من البنغال لمقاومته ، ومات حيدر على (١٧٨٢) ولكن ابنه تيو صاحب واصل الحرب حتى انهزم نهائيا في ١٧٩٢ . ولعل رغبة هيسنتنجز في تمويل هذه الحملات هي التي ألجأته إلى حيل لجمع المال أفضت إلى اتهامه .

ذلك أنه طالب شايث سنغ ، راجا بنارس ، بإعانة حرب تضاف إلى الدخل الذى كان ذلك الإقليم يدفعه للشركة سنويا . واعتذر الراجا بعجزه عن الاستجابة . فقاد هيسنتنجز قوة صغيرة إلى بنارس (١٧٨١) ، وخلع سنغ واقتضى مثلى الدخل من خلفه . ثم إن حاكم أوده المتراخى في سداد ما فرضته عليه الشركة ، أوضح أن فى استطاعته السداد إذا ساعدته الشركة على إلزام أمه وجدته ، بيجوى (أميرتى) أوده ، بتسليمه بعض التركة التى خلفها لهما أبوه وقدرها ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه . وكانت أمه قد سلمته من قبل مبالغا كبيرا بعد أن تعهد ألا يطلب المزيد ، وبذلت الشركة مثل هذا التعهد رغم اعتراض هيسنتنجز . ونصح هيسنتنجز الحاكم بتجاهل التعهد وأرسل جنود الشركة إلى فيظيار ، وأكره خدام الأميرتين الأغوات بالتعذيب والتجويد على تسليم الثروة (١٧٨١) ، فدفع الحاكم منها ديونه للشركة . (١٢٥)

وعاد السير فيليب فرانسيس أثناء ذلك إلى إنجلترا بعد أن شفى من جراحه (١٧٨١) ، وشرح للمديرين ولأصدقائه في البرلمان ما اعتبره الجرائم التي اقترفها هيستنجز . وفي ١٧٨٢ وجه مجلس العموم اللوم إلى هيستنجز وغيره من وكلاء الشركة لأنهم « في حالات عديدة تصرفوا بطريقة بغیضة مجافية لشرف الأمة وسياستها » ، ثم أمر المديرين باستدعائهم وأصدر المديرين الأمر ، ولكن مجلس المؤسسين أبطله ، ربما لأن ثورة ميسور كانت مستمرة .

وفي نوفمبر ١٧٨٣ قدم تشارلز جيمس فوكس للبرلمان ، بوصفه وزير دولة للشؤون الخارجية في الوزارة الائتلافية ، « مشروع قانون لإصلاح الهند » او ووفق عليه نوضع شركة الهند الشرقية تحت هيمنة مندوبين تعيينهم الوزارة . وعلت شكوى النقاد بان القانون سيمنح الأعضاء الأحرار (الهويجز) أمثال فوكس وبرك معيناً من الغنائم تأتيم بها هذه الرعاية . وصر القانون من مجلس العموم ، ولكن الملك أرسل إلى مجلس اللوردات يقول أنه سيعيد أي رجل يصوت للمشروع عدوا له ، فصوتوا ضده بأغلبية ٩٥ إلى ٧٦ . وأودع نواب العموم احتجاجا رسميا يقرر أن هذا التدخل الملكي في التشريع عدوان صارخ على حق أعضاء البرلمان . وأقال الملك الوزارة الائتلافية (١٨ ديسمبر ١٧٨٣) مدعيا أنها فقدت ثقة البرلمان ، ودعا وليم بت ، الذي كان في الرابعة والعشرين . لتأليف حكومة جديدة . وحل جورج الثالث البرلمان معتقدا أن في استطاعته الفوز في انتخاب قومي (٢٣ مارس ١٧٨٤) وأمر عملاءه ببث الرغبات والعطايا الملكية بين الناخبين ضمانا لعودة أغلبية محافظة . وجاء البرلمان الذي التأم شمله في ١٨ مايو مؤيدا لبث الملك تأييدا ساحقا .

كان بت نابغة في الحكم والإدارة السياسيين وقد حقق له تفانيه البالغ في أداء الواجب ، وإلمامه المفصل بدقائق الأمور ، وما عود نفسه عليه من التأمل الدقيق والحكم الحذر ، تفوقا سرعان ما سلم به كل زملائه الوزراء تقريبا . وأصبح لانجلترا الآن لأول مرة « رئيس » وزراء بعد روبرت

ولبول (الذى كان ابنه قد أطلق عليه هذا اللقب فى ١٧٧٣) (١٢٦) ، لأن زملاءه بت لم يكونوا يتخذون أى إجراء هام دون موافقته . والواقع أنه أنشأ « حكومة مجلس الوزراء » - ومؤداها المداولة الجماعية والمسئولية الموحدة لكبار الوزراء تحت رئاسة واحدة . ومع أن بت تقلد المنصب مؤيدا للسلطة الملكية ، إلا أن جده واجتهاده ، وسعة معلوماته رفعت شيئا فشيئا إلى مكان كان فيه مرشدا للملك أكثر منه تابعا . وبعد نوبة الجنون الثانية التى أصابت الملك (١٧٨٨) كان بت هو الذى حكم إنجلترا فعلا .

وقد مكنته إلمامه غير العادى بالتجارة والمال من إصلاح خزانة أبهائها . خوض حربين ضروسين فى جيل واحد إنهاظا خطرا . وكان بت قد قرأ آدم سميث . ثم استمع إلى التجار ورجال الصناعة ، فخفض الرسوم على الواردات ، وعقد بعد المفاوضة مع فرنسا معاهدة تنص على خفض التعريفات الجمركية (١٧٨٦) ، وشرح صدر أقطاب الصناعة بتصريحه بأن الصناعيين ينبغي أن يكونوا عموما معفين من الضرائب ثم عوض عن هذا بفرض الضرائب على الاستهلاك على الأوشحة والشاش والقفازات والقبعات والشموع والأرائك والملح والنبيد والآجر والقرميد والورق والشبابيك ، وقد لجأت بيوت كثيرة إلى تكسية بعض نوافذها بالخشب خفضا للضريبة (١٧٧٧) . فما وفى عام ١٧٨٨ حتى ووزنت الميزانية ، ونجت إنجلترا من الإفلاس الحكومى الذى كان مفضيا بفرنسا إلى الثورة .

وكان بت قبل الانتخاب قد قدم للبرلمان « مشروع قانون الهند الأول » الذى هزم . فقدم الآن مشروعا ثانيا : خلاصته أن يدير مجلس إشراف يعينه الملك العلاقات السياسية لشركة الهند الشرقية ، أما العلاقات والرعاية التجارية فتترك فى أيدي الشركة خاضعة لحق النقض الملكى . وأقر البرلمان المشروع (٩ أغسطس ١٧٨٤) وظل يهيمن على الشئون البريطانية - الهندية حتى ١٨٥٨ .

أما فوكس وبيرك فقد رأيا فى هذا الترتيب استسلاما محزيا لشركة اشتهرت بالفساد والإجرام . وكان لبيرك أسباب خاصة تدعوه للسخط . ذلك أن راعيه اللورد فرنى ، وأمه رتشارد بيرك ، وقريبه ولیم بيرك ،

كانوا من قبل مستثمرين في شركة الهند الشرقية ، ثم نزلت بهم خسائر فادحة من جراء تقلبات أسهمها^(١٢٨). وحين ذهب وليم بيرك إلى الهند زكاه ادموند لدى السير فيليب فرانسيس قائلا أنه يحبه حبا جما . فعين وليم صرافا للرواتب ، وتبين أنه « لا يقل فسادا عن غيره »^(١٢٩) .

وحين عاد فرانسيس إلى إنجلترا أفضى إلى بيرك وفوكس برأيه في إدارة هيستنجز ، وكان من المصادر الذي استقى منها بيرك معرفته غير العادية بالشئون الهندية . ولعل هجوم الهويجز اللبراليين على هيستنجز كان بعض مادفعهم إليه الرغبة في تشويه سمعة وزارة بت والإطاحة بها^(١٣٠) .

وفي يناير ١٧٨٥ استقال هيستنجز وعاد إلى إنجلترا . وراوده الأمل في أن تشفع له السنون الطويلة التي أنفقها في الإدارة ، وإصلاحه مالية الشركة حتى استطاعت الوفاء بديونها ، وإنقاذه للقوة البريطانية في مدراس وبرمباي ، في معاش يثاب به ، إن لم يكن في لقب نبالة يشرف به . وفي ربيع ١٧٨٦ طلب بيرك إلى مجلس العموم تقديم السجلات الرسمية لحكم هيستنجز في الهند . ورفض تقديم بعض هذه السجلات ، وأعطاه الوزراء بعضها الآخر . وفي إبريل طرح أمام المجلس بيانا بالتهم الموجهة إلى حاكم البنغال السابق ، وقرأ هيستنجز على المجلس ردا مفصلا . وفي يونيو قدم بيرك تهما تتصل بحرب رومانيا ، وطلب توجيه الاتهام إلى هيستنجر ، ولكن مجلس العموم رفض تقديمه للمحاكمة . وفي ١٣ يونيو روى فوكس قصة شايت سنغ ، وطلب تقديم هيستنجز للمحاكمة . وفاجأ بت مجلس وزرائه بالإدلاء بصوته في صف فوكس وبيرك ، وحذا حذوه كثيرون من الوزراء الأعضاء في حزبه ، ولعلة رسم هذه السياسة ليفصل الوزارة عن مصير هيستنجز . ووفق على اقتراح تقديمه للمحاكمة بأغلبية ١١٩ إلى ٧٩ . وقطع سير الدراما تأجيل البرلمان وحفظ القضايا الأخرى ، ولكنها استؤنفت باستحسان عظيم في ٧ فبراير ١٧٨٧ ، يوم ألقى شريدان خطابا قال فوكس وبيرك وبت فيه أنه أفضل خطاب سمع في مجلس العموم طوال تاريخه^(١٣١) ، (عرض على شريدان ألف جنينة نظير نسخة مصصححة من الخطاب ، ولكنه لم يجد قط وقتا للقيام بهذه المهمة ، ولا نعرف الخطاب الا من الخلاصات المخفضة)

وقد روى شريدان قصة سلب أميرتي أوده ونهبهما بكل ما أوتى من فن رجل ولد للمسرح ، وبكل ماتضطرم به نفس رومانسية من غيرة وحماسة . وبعد أن استغرق في خطابه أكثر من خمس ساعات ، طالب بتوجيه الاتهام الى هيستنجز . . . وصوت بت ثانية في صف المحاكمة ، ووفق على الاقتراح بأغلبية ١٧٥ الى ٦٨ . وفي ٨ فبراير عين المجلس لجنة من عشرين - على رأسهم بيرك وفوكس وشريدان - لإعداد بنود الاتهام . وقدمت البنود ، وفي ٩ مايو أمر المجلس « المستر بيرك » باسم مجلس العموم .. أن يذهب إلى محكمة مجلس اللوردات ويوجه الاتهام للسيد وارين هيستنجز . . . بالجرائم والانحرافات الجسيمة » . وقبض على هيستنجز وحجىء به أمام اللوردات ، ولكن أطلق سراحه بكفالة .

ثم بدأت محاكمته ، بعد أن تعطلت طويلاً في ١٣ فبراير ١٧٨٨ في قاعة وستمنستر . وكل عشاق الأدب سيتذكرون وصف ماكولي الرائع (١٣٢) للحشد التاريخي : اللوردات جلوسا وهم في فرائهم وذهبهم بوصفهم المحكمة العليا للمملكة ، وأمامهم هيستنجز شاحب اللون مريضاً ، وقد بلغ عمره الثالثة والخمسين ، وطوله خمسة أقدام وست بوصات ، ووزنه ١٢٢ رطلاً ، والقضاة تتوج هاماتهم بواريك تغطي آذانهم ، والأسرة المالكة ، وأعضاء مجلس العموم ، والشرفات غاصة بالسفراء والأميرات والدوقات ، ومسز سيدونز بجمالها المهيب ، والسر جوشوا رينولدز وسط العديد من وجوه القوم الذين صورهم ، وفي جانب جلست اللجنة التي سميت الآن « المديرين » تتأهب لتقديم حجج الاتهام . ثم قرأ الكنية بيان التهم وجواب هيستنجز ، وراح بيرك في أقوى خطاب ألقاه في حياته ، على مدى أربعة أيام ، يصب فوق رأس المتهم سيلاً متدفقا من الاتهامات . وأخيراً ، في ١٥ فبراير ، دوى في القاعة التاريخية صوته مجلجلاً يطالب في حماسة بالاتهام :

إني أتهم السيد وارين هيستنجز بجرائم وانحرافات جسيمة ،
إني أتهمه باسم نواب بريطانيا العظمى ... الذين خان ثقتهم البرلمانية ..

إلى أتهمه باسم شعب الهند ، الذى هدم قوانينه وحقوقه وحرياته ،
ودمر ثرواته ، وأفقّر وطنه وخربه .

إلى أتهمه باسم قوانين العدل الأزلية التى انتهكها ، وبمقتضى هذه
القوانين . . .

إلى أتهمه باسم الطبيعة البشرية ذاتها ، والتى اعتدى عليها بقسوة ،
وألحق بها الأذى وظلمها فى الجنسين جميعا ، وفى كل عمر للناس ، ومقام ،
ومركز ، وحال من أحوال الحياة (١٣٣) .

ومضت المحكمة تتخللها عشرات المقاطعات ، وبرك ، وفوكس ،
وشريدان ، وغيرهم يروون قصة ولاية هيستنجز . فلما شاع أن شريدان
سيقدم الدليل فى قضية بيجومى أوده ، ظهر ٣ يونيو ، غصت الشوارع
المؤدية إلى قاعة وستمنستر من الثامنة صباحا بالناس ، وفيهم كثير من
علية القوم ، وكلهم تواق للعثور على وسيلة الدخول للقاعة . وباع
البعض ممن حصلوا من قبل على تصريحات بالدخول تصريحاتهم بخمسين
جنيها لإنجلترا (١,٥٠٠ دولار ٩) للتصريح . وفهم شريدان أن القوم
يتوقعون منه أداء دراميا ، فأداه . وخطب فى أربع جاسات ، وفى آخر
يوم (١٣ يونيو ١٧٨٨) ، بعد أن ظل يخطب خمس ساعات . وقع
إعياء بين ذراعى بيرك الذى عانقه . أما جبون الذى كان فى الشرفة فقد
وصف شريدان بأنه « ممثل قدير » ولاحظ أن الخطيب كانت تبدو عايه
امارات العافية حين ألم به المؤرخ صباح الغد (١٣٤) .

وكان ذاك الخطاب قمة المحاكمة . وكانت كل تهمة من قائمة التهم
الطويلة تقتضى البحث والتحقيق ؛ ولم يتعجل اللوردات مهمتهم ، ولعلمهم
تباطأوا ليزيلوا الأثر الذى خلفته البلاغة ، ويدعوا الاهتمام بالقضية
ينصرف إلى أحداث أخرى ، وجاءت الأحداث ، فقد جن الملك جورج
فى أكتوبر ١٧٨٨ ، وجن على نحو خطير تماما ، إذ فدحه ضغط المحاكمة
وسوء سلوك ولده . فقد كان جووج أوغسطس فردريك ، أمير ويلز ،
فى يدينا ، طيب القلب ، سمح النفس ، متلafa ، عاشقا للنساء ، وكان

قد احتفظ بسلسلة متصلة من الخيليات ، وتجمعت عليه ديون أداها أبوه أو الأمة . وفي ١٨٧٥ تزوج سرّاً بالسيدة ماريا آن فنز هربرت ، الكاثوليكية الرومانية التقيّة ، التي ترملت من قبل مرتين ، وكانت تكبر الأمير بست سنين . واقترح الأحرار بزعامة فوكس تأليف مجلس وصاية يرأسه الأمير ، النّدى ظل ساهرا ليلتين في انتظار اعلان بعدم أهلية الملك ، ولكن جورج الثالث شوش الموقف بفترات من سلامة العقل قطعت حالة جنونه ، وكان خلالها يتحدث عن جاريك وجونسن ، ويغنى لقطات من هندل ، ويعزف على الناي . وفي مارس ١٧٨٩ شفى ، ونصا عنه سترّة الضيقة ، وأستأنف مراسم الحكم .

وجاءت الثورة الفرنسية بمنصرف آخر عن المحاكمة . فقد تخلى بيرك عن مطاردة هيستنجز وخف لنجدة ماري أنطوانيت . وأتى تطرف خطبه وغلوها على البقية الباقية من شعبيته ، وراح يشكو من تسلل أعضاء البرلمان إلى خارج القاعة متى بدأ الكلام . وكان أكثر الصحف يناوئه ، وقد اتهمها بأن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه قد استخدمت في شراء الصحفيين ليهاجموه ويدافعوا عن هيستنجز ؛ وما من شك في أن شطرا كبيرا من ثروة هيستنجز قد أنفق في هذا السبيل ^(١٣٥) ولا بد أن بيرك لم يقاها حين برأ مجلس اللوردات ساحة هيستنجز (١٧٩٥) في نهاية المطاف ، بعد مضي سنوات ثمان على الاتهام . وكان شعور الناس العام أن الحكم عادل : صحيح أن المتهم كان من نواحي كثيرة ملذبا ، ولكنه استنقذ الهند لانجارت ، وعوقب بمحاكمة حطمت صحته وآماله : وخلفته ملوث السمعة مفاسا . وعمر هيستنجز بعد موت جميع متهميه . وأنقذته شركة الهند الشرقية من الإفلاس بالموافقة على اعطائه منحة قدرها ٩٠,٠٠٠ جنيه . فاسترد ضيعة أسرته الوراثة في دياز فورد ، وأصلحها ، وعاش في بدخ شرقى . وفي ١٨١٣ طلب إليه الادلاء بشهادته عن شئون الهند أمام مجلس العموم ، فقبول فيه بالتصديق والاحلال ، ونوه بخدماته ، ومجيت أوزاره مع الزمن . وبعد أربع سنوات رحل عن هذه الدنيا ، ولم يبق حيا من جياها الصخاب غير فرد واحد - هو الملك الأعشى المعتموه .

(قم ٧ - قصة الحضارة ، ج ٤٢)

٧ - إنجلترا والثورة الفرنسية

بعد أن أوشك بريك على استنفاد قوته في الحرب ضد شركة الهند الشرقية ، ناصب الثورة الفرنسية العداوة الشخصى ، وخلال هذه الحملة الجديدة شارك بقسط كبير في الفلسفة السياسية .

وكان قد تنبأ بالثورة قبل نشوبها بعشرين عاما ؛ « بهذا الضيق والحيرة البالغين تنوء كل مالية فرنسا ، وتفوق نفقتها مواردها في كل ناحية ، بحيث لم يعد مناص لكل إنسان . . . نظر في شئونها بأقل اهتمام أو علم ، من أن يترقب في كل لحظة حدوث اضطراب هائل في النظام بأجمعه ليس من اليسير التكهن بآثاره على فرنسا بل على أوروبا جميعها » (١٣٦) . وفي ١٧٧٣ زار فرنسا ، وفي فرساي رأى ماري أنطوانيت وكانت آنئذ زوجة لولى العهد ، ولم ينس قط رؤياه تلك للجمال الغض والسعادة النضرة والكبرياء الشابة . وقد خلص إلى رأى طيب في النبالة الفرنسية ، وأطيب منه في الكهنوت الفرنسى . وصدمته دعوة جماعة الفلاسفة المناوئة للكنيسة ، بل المناوئة للدين في حالات كثيرة ، وحين عاد إلى إنجلترا حذر مواطنيه من الاتحاد لأنه « أبشع وأقسى لظمة يمكن أن توجه إلى المجتمع المتحدن » (١٣٧) .

فلما أن اندلعت نيران الثورة أفرعه ذلك الهليل الذى لقيته من صديقه فوكس ، الذى هتف لسقوط الباستيل باعتباره « أعظم حدث وقع في العالم . . . أفضله » (١٣٨) . وكانت الأفكار الراديكالية المنبعثة من الحملات التى شنها ولكس وجمعية مؤيدى ملتمس الحقوق قد انتشرت في إنجلترا ببطء . واقترح كاتب مغمور في ١٧٦١ الشيوعية دواء لكل الأدواء الاجتماعية إلا لتكاثر السكان الذى خشى أن يبطل كل الجهود المبذولة للتخفيف من الفقر. (١٣٩) وتكونت في ١٧٨٨ جمعية لإحياء ذكرى ثورة ١٦٨٨ ، وضممت بين أعضائها نفرا بارزا من رجال الدين والنبلاء . فلما إلتمأ شملها في ٤ نوفمبر ١٧٨٩ ، بلغ انفعالها وتأثيرها بواعظ موحد يدعى رتشرد برايس حدا جعلها تهبث

برسالة تهنته للجمعية الوطنية في باريس ، معربة عن الأمل في أن « المثل العظيم الذى ضربته فرنسا » قد « يشجع أما أخرى على توكيد الحقوق الثابتة لبني الإنسان »^(١٤٠) ووقع الرسالة ايرل ستانهورب الثالث ، رئيس الجمعية ونسيب وليم بت .

وأثارت العظة والرسالة مخاوف بيرك وغضبه. وكان ناهز الستين ووصل إلى حقه في أن يكون محافظ الزعة . وكان رجلا متدينا يملك ضيعة كبيرة . لذلك لم ير في الثورة الفرنسية « أدهش ثورة وقعت في العالم إلى يومنا هذا »^(١٤١) فحسب ، بل أعنى عدوان على الدين والملكية والنظام والقانون. وفي ٩ فبراير ١٧٩٠ أخبر مجلس العموم أنه لو حدث أن أى صديق له وافق على أى إجراءات من شأنها أن تدخل إلى إنجلترا ديمقراطية كذلك التى تتشكل في فرنسا ، لأنكر صداقته مهما طال رسوخها وعزت مكانتها . وهذا فوكس الخطيب بإطرائه المشهور لبيرك كأفضل معلم له . وتأجلت القطيعة بينهما حيناً .

وفي نوفمبر ١٧٩٠ نشر بيرك « تأملات في الثورة في فرنسا » على شكل رسالة (بلغ طولها ٣٦٥ صفحة) إلى « سيد في باريس » وأصبح بيرك الآن بطل إنجلترا المحافظة ، وهو الذى كان قد تزعم الأحرار خلال الثورة الأمريكية ؛ وأعرب جورج الثالث عن ابتهاجه بخصمه القديم . وغدا الكتاب لإنجيل الملوك والأرستقراطيات فبعثت كاترين الكبرى ، التى كانت يوما ما صديقة جماعة الفلاسفة وحببيتهم ، تهنئتها للرجل الذى كان قد نوى خلعهم عن عروشهم .^(١٤٢)

وقد استهل بيرك كتابه بالإشارة إلى الدكتور برايس وجمعية إحياء ذكرى الثورة . ثم أسف أسفا شديدا على دخول رجال الدين حلبة المناقشات السياسية ، وقال إن مهنتهم إرشاد النفوس إلى المحبة المسيحية لا إلى الإصلاح السياسى . وأنه لا يثق بحق تصويت الذكور العام الذى يدافع عنه برايس ، فرأيه أن الأغلبية ستكون أشد طغيانا من الملوك ، وأن الديمقراطية ستتحط إلى حكم الغوغاء ، فالحكمة ليست في السكثرة بل في الخبرة . والطبيعة

لا تعرف شيئاً عن المساواة ، وما المساواة السياسية إلا أكلوبة بشعة لا يسفر
بها الأفكار الكاذبة والتطلعات الباطنة في رجال كتب عليهم السير في المسالك
المجهولة للحياة الشاقة إلا عن تفاهم عدم المساواة الحقيقي ، الذي لن تتوى
إطلاقاً على إزالته » (١٤٣) . والأرستقراطية لا يحصى عنها ، وكلما أعرقت
أجادت أداء وظيفتها ، وهي أن توطد في صمت ذلك النظام الاجتماعي
الذي بدونه يستحيل الاستقرار والأمان والحرية (١٤٤) . والملكية الوراثية
نظام حسن لأنها تهب الحكومة وحدة واستمراراً بدونهما تتردى علاقات
المواطنين القانونية والاجتماعية في سبيل محموم مضطرب . والدين حسن
لأنه يعين على كبح تلك الدوافع غير الاجتماعية التي تستعركأنها النار من تحت
سطح الحضارة ، والتي لا سبيل إلى ضبطها إلا بالتعاون المتواصل بين الدولة
والكنيسة ، وبين القانون والعقيدة ، وبين الخوف والإحترام ، وأولئك
الفلاسفة الفرنسيون الذين قوضوا الإيمان الديني بين صفوف شعبيهم المتعلمة
إنما يخلون بمحاكاة تلك اللجم التي حالت بين الرجال وبين أن يصبحوا وحوشاً .

وقد أسخط بورك انتصار الغوغاء في فرساي على « ملك معتدل شرعى »
وعلى معاملته « بضراوة وعدوان وإهانة فاقت أى شيء » ثار به شعب على
أشد المغتصبين خروجاً على القانون وأكثر الطغاة تعطشاً للدماء (١٤٥) . وهنا
تقع الصفحة الشهيرة التي إنشينا لها في شهابنا :

« لقد مضت الآن ستة أو سبعة عشر عاماً منذ رأيت ملكة فرنسا
في فرساي وكانت يومها زوجة ولى العهد ، والحق أنه ما من منظر أبهج
من هذا حقل على هذا الكوكب الذي بدت وكأنها لا تمسه إلا مساً رقيقاً .
لقد رأيتها فوق الأفق بقليل ، تجمل وتبهج الدائرة الراقية التي همت بالتحرك
فيها — ساطعة كنجمة الصبح ، فياضة بالحياة ، واليهاء ، والفرح . أية ثورة
تلك ! وأى قلب يجب أن تضمه جوائحي حتى أنأمل دون إنفعال ذلك السمو
وذلك السقوط ! (*) لم يخطر ببالي يوم كانت تجمع بين القاب النبيل وألقاب

(*) يعنى إكراه الغوغاء في فرساي لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت عل العودة
معهن إلى باريس والسكنى في قصر التويلرى تحت رقابة الشعب (٥ - ٦ أكتوبر ١٧٨٩) .

الحب المتحمس ، البعيد ، المشرب بالإحترام ، أنها ستضطرب يوماً ما إلى حمل ذلك الترياق القاطع ضد الخزي ، المخفي في ذلك الصدر ، ولا خطر ببالي أنني سأعيش لأرى خطوباً كهذه نصيبها في أمة من الرجال البواسل ، أمة من رجال كلهم شرف وكلهم شهامة . كنت أظن أن عشرة آلاف سيف لابد قافزة من أعماقها لتثار حتى لنظرة واحدة تهددها بالإهانة . ولكن عصر الفروسية ولى ، وخلفه عصر السوفسطائيين والاقتصاديين والحسابين ، وانظماً مجد أوربا إلى الأبد » (١٤٦) .

وضعهك السر فيليب فرانسيس على هذا كله وقال إنه هراء رومانسي ، وأكد ليرك أن ملكة فرنسا امرأة فاجرة لعوب (١٤٧) . وكذلك رآها كثير من الإنجليز الوطنيين ، على أن هرراس ولبول أكد أن برك صور ماري أنطوانيت « بالخطأ كما بدت لي أول مرة رأيها وهي ولية للعهد » (١٤٨) .

فلما واصبات الثورة مسيرها واصل برك هجومه فنشر «رسالة لعضو في الجمعية الوطنية » (يناير ١٧٩١) اقترح فيها أن تتحد حكومات أوروبا لكبح جماح الثورة ورد ملك فرنسا إلى سلطته التقليدية . وروع الاقتراح فوكس ، وفي ٦ مايو ، في مجلس العموم ، انتفى الصديقان اللذان حاوبا كتفا إلى كتف في حملات كثيرة جدا بتفرق طريقيهما تفرقا دراميا . فقد كرر فوكس ثناءه على الثورة . ولكن برك قام محتجا وقال « ليس من الحكمة في أي وقت ، خصوصا في سني هذه ، أن أستفز الأعداء ، أو أعطى فرصة لأصدقائي ليتخلوا عني ، ولكن إذا كان ولائي القوى الثابت للدستور البريطاني يضعني في هذه الورطة فلنني على استئداد لركوب هذه المغامرة . فأكد له فوكس أن الخلافات في الرأي بينهما لا تنطوي على فصم لأواصر المصداقة . وأجاب برك « كلا كلا ، إن فيها فقداء للأصدقاء . إنني أعرف ثمن سلوكي . لقد انتهت صداقتنا . » (١٤٩) ولم يعد بعدها للكلام مع فوكس إلا رسميا فيما أكرها عليه من اتحاد الموقف في محاسبة هيستنجز .

وقد قدم برك في كتاباته عن الثورة الفرنسية تعبيراً كلاسيكياً لفلسفة محافظة . وأول مبادئها عدم الثقة بمنطق فرد أيا كان ذكاؤه إذا تعارض

مع تقاليد النوع الإنساني . فكما أن الطفل لا يستطيع فهم أسباب المخافير والنواهي الأبوية ، فكذلك لا يستطيع الفرد ، وما هو إلا طفل بالقياس إلى النوع ، أن يفهم دائماً أسباب العادات والأعراف والقوانين التي تجسد تجربة أجيال كثيرة . والحضارة تستحيل « إذا ارتكزت ممارسة جميع الواجبات الأخلاقية ، وأسس المجتمع ، على جعل أسبابها ومبرراتها واضحة ثابتة بالبرهان لكل فرد » .^(١٥١) لا بل حتى « الأحكام المسبقة » لها فائدتها ، فهي تحكم سلفاً على المشكلات الحاضرة على أساس الخبرة الماضية .

فالعنصر الثاني من عناصر المحافظة إذن هو « حق التقادم » : فالتقليد أو المؤسسة يجب إحترامها إحتراماً مضاعفاً وعدم تغييرها إلا نادراً إذا كانت مكتوبة فعلاً أو مجسمة في نظام المجتمع أو هيكل الحكومة . والملكية الفردية مثال على حق التقادم وعدم معقولية الحكمة في الظاهر . فإنه ليبذو من غير المعقول أن تملك أسرة واحدة ثروة كبيرة وأخرى ثروة ضئيلة ، وأمن في اللامعقولية أن يسمح للمالك بتوريث ثروته لخلقه الذين لم يحركوا أصبعاً في كسبها ، ومع ذلك تبين بالتجربة أن الناس بوجه عام لن ينهضوا للعمل والدرس ، ولا لتحضير الشاق المكلف ، ما لم يصفوا ثمرات جهودهم بأنها ملكهم الخاص ، لهم أن ينقلوها لغيرهم ، إلى حد كبير ، كما يشاءون . وقد أثبتت التجربة أن تملك الثروة أفضل ضمان يكفل حكمة التشريع واستمرار الدولة .

فليست الدولة مجرد تجمع أشخاص في مكان ما في لحظة ما ، إنما هي تجمع أفراد على مدى الزمن المستطيل « إن المجتمع هو حقاً تعاقد ... شركة لابين الأحياء فحسب ، بل بين الأحياء ، والأموات ، والذين سيولدون »^(١٥٢) ، وذلك الإستمرار هو وطننا . في هذا الكل الثلاثي قد تكون الأغلبية الراهنة أقلية بمضى الزمن ، ويجب على المشرع أن يراعى حقوق الماضي (خلال « حق التقادم ») وحقوق المستقبل ، رعايته لحقوق الحاضر الحي . والسياسة هي ، أو ينبغي أن تكون ، فن الموازنة بين أهداف الأقليات المتصارعة وصالح الجماعة المستمرة . يضاف إلى هذا أنه ليس هناك حقوق مطلقة ، فما هذه إلا تجريدات ميتافيزيقية لا تعرفها الطبيعة ، وليس هناك إلا الرغبات ، والقوى ، والظروف ، و « الظروف تضفي على كل مبدأ سياسى لونه المميز

وأثره الفارق» (١٥٢) والمصلحة أهم أحياناً من الحقوق «ينبغي أن تكيف السياسة لا وفق الحجاج البشرية [المجردة] بل وفق الطبيعة البشرية ، التي ليس العقل فيها إلا جزءاً وليس أكبر جزء على الإطلاق» (١٥٣) . «يجب أن ننتفع بما يوجد من مواد» (١٥٤) .

هذه الإعتبارات كلها يوضحها الدين . قد لا تكون عقائد دينية من الأديان وأساطيره ومراسمه متفقة مع عقلنا الفردى الحاضر ، ولكن هذا ليس بلدى بال إذا إتفقت وحاجات المجتمع الماضية والحاضرة والمستقبلية . والتجربة قاطعة في أن عواطف الناس المشوبة لا يمكن السيطرة عليها إلا بتعاليم الدين وشعائره « إذا نحن كشفنا عريتنا [أطلقنا غرائزنا] نبذل ذلك الدين المسيحى الذى كان ... مصدراً عظيماً للمدنية بيننا .. فلإننا نخشى (ليقيننا بأن الفكر لا يطبق فراغاً) أن تحل محله خرافة خرقاء ، مؤذية ، محطاة» (١٥٥) .

ورفض كثير من الإنجليز نزعة بيرك المحافظة باعتبارها تعجيداً للركود (١٥٦) ، ورد عليه توماس بين بقوة في كتابه « حقوق الإنسان (١٧٩١ - ٩٢) . ولكن لإنجلترا التى عاصرت شبخوخة بيرك رحبت عموماً بعبادته للسلف . فلما مضت الثورة الفرنسية في طريقها قدماً إلى مذابح سبتمبر ، وإعدام الملكة والملك ، وحكم الإرهاب ، شعرت الكثرة العظمى من البريطانيين بأن بيرك أحسن التنبؤ بعواقب التمرد والكفر ، وتشبثت لإنجلترا قرناً كاملاً بدستورها ، دستور الملك ، والأرستقراطية ، والكنيسة الرسمية ، وبرلمان يفكر بلغة السلطات الإمبراطورية للاحقوق الشعبية رغم أنها تخلصت من دوائرها الانتخابية ، العفنة ووسعت حق التصويت . وبعد الثورة عادت فرنسا من روسولى مونتسكيو ، وصاع جوزف ديمستر آراك بيرك لفرنسيين التائبين صياغة جديدة .

وواصل بيرك إلى النهاية حملته من أجل حرب مقدسة . واغتبط حين أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا العظمى (١٧٩٣) . وأراد جورج الثالث أن يثيب عدوه القديم على خدماته الأخيرة فيرفعه إلى مقام النبالة ويخاج

عليه لقب اللورد بكنز فيايد الذى شرفه دزرايلى فيما بعد . فرفض بيرك ، ولكنه قبل معاشاً قدره ٢,٥٠٠ جنيه (١٧٩٤) . فلما بدأ الحديث يتردد عن اجراء مفاوضات مع فرنسا ، أصدر « أربع رسائل عن سلام مع قتلة الملوك » (١٧٩٧ وما بعدها) ، طالب فيها بحرارة أن تستمر الحرب . ولم يطفىء طيب ناره غير الموت (٨ يوليو ١٧٩٧) . واقترح فوكس أن يدفن فى كنيسة وستمنستر ، ولكن بيرك كان قد ترك تعليمات بأن يشيع فى جنازة غير رسمية ويدفن فى كنيسة بكنز فيايد الصغيرة . وقد ذهب ماركولى إلى أنه أعظم انجليزى منذ ماتن - وهو رأى ربما تجاهل شاتام ؛ أما اللورد مورلى فقد وصفه فى حذر أكثر ، بأنه « أعظم أساتذة الحكمة المهذبة فى لغتنا » ، (١٥٧) وهو رأى لعله تجاهل لوك . على أية حال كان بيرك تجسيداً لما تاق إليه المحافظون عبثاً طوال عصر العقل -- رجلاً استطاع الدفاع عن العرف بالبراعة التى دافع بها فولتير من قبل عن العقل .

٨ -- الأبطال يتقاعدون

حين تقدمت الثورة الفرنسية وجد تشارلز جيجس فوكس نفسه واحداً من أقلية متضائلة فى البرلمان وفى الوطن . وانحاز كثيرون من مسلفائه إلى رأى القائل برجوب انضمام انجلترا إلى بروسيا والنمسا فى مقاتلة فرنسا ، وبعد إعدام لويس السادس عشر وجيش فوكس نفسه وقد انقلب على الثورة ، ولكنه ظل على معارضته الدخول فى الحرب . فلما اندلعت الحرب رغم ذلك عزى نفسه بالشراب ، وبقراءة الآداب القديمة ، وبالبزواج (١٧٩٥) من السيدة اليزابث أرمستد . خالته السابقة (وخلياة اللورد كافندش ، واللورد داربى . واللورد كولوندى) ، التى أدت عنه ديونه (١٥٨) . وقد رجب بصلح أميان (١٨٠٢) : وقام برحلة فى فرنسا ، فاستقبل هناك بأسباب التكريم الحكومية والشعبية : واستقبله نابليون موافقاً للحضارة ، وفى ١٨٠٦ تلقى وزارة الخارجية فى « وزارة جميع المواهب » ، وقد جاهد ليحفظ بالسلام مع فرنسا ، وأيد تأييداً قاطعاً حملة وايفورس على تجارة الرقيق . وحين تنهى إليه نبأ مؤامرة دبرت لاغتيال نابليون أرسل إلى

الامبراطور تحذيراً بطريق تاليران ، ولعل فوكس كان واجداً سبيلاً للتوفيق بين طمع بوناپرت وأمن انجلترا لولا انهيار صحته . ولكن في يوليو ١٨٠٦ أعجزه داء الاستسقاء ، وأخذت سلسلة من الجراحات المؤلمة في وقف سير المرض ، فتصالح مع الكنيسة الرسمية ، وفي ١٣ سبتمبر مات مبهكياً عليه من أصدقائه وأعدائه ، وحتى من الملك . لقد كان أوفر رجال جيله حظاً من الخبثين .

وسبقه إلى أقباء كنيسة وستمنستر بيت الإبن الذي شامخ قبل أوانه . فقد وجد هو أيضاً أنه لن يستطيع احتمال خطو الحياة السياسية السريع إلا بنشوة السكر تنسيه همومه من حين إلى حين . وكانت سلامة عقل جورج الثالث القلقة مشكلة دائمة ، فكل صراع خطير في وجهات النظر بين الملك ووزيره قد يخل بائزان الرأس المتوج بأمير ويلز وصياً ، يعزذبت ويستدعى فوكس ليحل محله . وعليه فقد تخلى بت عن خططه في الإصلاح السياسي ، وبحسب معارضته لتجارة الرقيق ، حين وجد أن في هاتين المسألتين ، كما في كثير غيرهما من المسائل ، كان جورج مصمماً بروح المشاكسة على تخليد الماضي . وركز بت عبقريته على التشريع الاقتصادي ، الذي خدم فيه الطبقة الوسطى الصاعدة . ثم قاد انجلترا على كره شديد - في حرب ضد من سماهم « أمة من الملحدين »^(١٥٩) ولم يحسن البلاء وزيراً للحرب . فحين خشي أن يغزو الفرنسيون أيرلنده ، حاول تهئية الأيرلنديين ببرنامج من الوحدة البرلمانية والتحرير الكاثوليكي ، ولكن الملك تصلب ، واستقال بت (١٨٠١) . ثم عاد (١٨٠٤) لرأس وزارته الثانية . ولم يكن كفؤاً للمقارحة نابليون ، فلما جاء نبأ نصر الفرنسيين في أوسترلتز (٢ ديسمبر ١٨٠٥) ذلك النصر الذي جعل نابليون سيداً للقارة ، انهار بت جسداً وروحاً . وحين وقع بصره على خريطة كبيرة لأوروبا قال لصديق له « اطو هذه الخريطة ، فلن يكون هناك حاجة إليها هذه السنين العشر »^(١٦٠) . ومات في ٢٣ يناير ١٨٠٦ ، فقيراً فقراً مشرفاً ، غير متجاوز السادسة والأربعين .

ثم اقتضت الحياة وقتاً أطول لتقضى على شريدان . وكان قد انضم إلى برك وفوكس في الدفاع عن أمريكا وفي نخوض معركة هيسنجنز ، وأيد فوكس في التصفيق للشورة الفرنسية . غير أن الزوجة التي كان يعرها ودانة

طبعها حديثاً محبباً بين أصدقائه . والتي جعلت من جهاها منبر خطابة لتعينه على الظفر بكرسى في البرلمان ، هذه الزوجة ماتت بالسل وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها (١٧٩٢) . فأنهار شريدان . وقال أحد معارفه عنه « رأيت الليلة بعد الليلة يبكي كأنه طفل » (١٦١) وقد وجد بعض العزاء في الفتاة التي أنجبتها له ، ولكنها ماتت في السنة ذاتها . وفي شهور الحزن تلك واجه مهمة إعادة بناء مسرح درورى لين الذى لم يعد مأوياً لتقديمه وتداعى مبانیه . ولكى يمول هذه العملية تحمل نفقات باهظة . وكان قد عود نفسه العيش المترفع الذى عجز دخله عن الإنفاق عليه . لذلك استدان ليواصل أسلوب حياته . وحين كان دائنوه يحضرون إليه ليعالونه بديونهم كان يحتفى بهم كأنهم اللوردات ، ويقدم إليهم الشراب والتحية المهذبة والنكتة الذكية ثم يصرفهم في حال من الرضى يكاد ينسى الدائن دينه . وقد ظل نشيطاً في البرلمان حتى ١٨١٢ حين أخفق في إعادة انتخابه . وكان من قبل يتمتع بالحصانة من الاعتقال بصفته عضواً في مجلس العموم . أما الآن فقد أطبق عليه دائنوه . واستولوا على كتبه . وصوره . ومجوهراته . وأخيراً أوشكوا على حمله إلى السجن لولا أن طبيبه حذرهم من أن شريدان قد يموت في الطريق . ثم قضى نحبه في ٧ يوليو ١٨٠٦ وهو في الخامسة والستين . وقد عاوده الغنى في مآخيه . لأن سبعة لوردات وأسرة شيعوه إلى مقبرة وستمنستر .

أما الملك نصف المجنون فقد عمر بعدهم أجمعين . بل عمر حتى رأى انتصار إنجلترا في واترلو وإن لم يعلم به . وقد أدرك بحلول عام ١٧٨٣ أنه أخفق في محاولته جعل الوزراء مسئولين أمامه لا أمام البرلمان . وأصنفته صراعاته الطويلة التي لم يكن كفؤاً لها مع مجلس العموم . وأمريكا . وفرنسا . وفي ١٨٠١ و ١٨٠٤ و ١٨١٠ انكس إلى جنونه . وظفر في النهاية بملك الشعبية التي حرّمها أيام كفاحه . مشوية بالشفقة على رجل رأى إنجلترا تعصب بالخزائن الكثيرة ولم يتح له أن يشهد انتصارها . وكان في موت ابنه أديليا (١٨١٠) الأثرة لديه ما أكل الطبيعة بينه وبين دنيا الواقع . وفي ١٨١١ كف بصره وبات مجنوناً جنوناً لا شفاؤه منه . وظل معزولاً تفرض عليه الحراسة حتى مات (٢٩ يناير ١٨٢٠) .

الفصل التاسع والعشرون

الشعب الانجليزى

١٧٥٦ - ٨٩

١ - أساليب الحياة الانجليزية

حسبنا هذا القدر عن الحكومة ، فلننظر الآن فى أحوال الشعب .
أولاً تأمل أشكال بنيتهم . فما من شك فى أن رينولدز تسامى بها ، فأظهرنا
غالباً على المخطوطين حملة ألقاب النبالة . وأضفى على أجسادهم البدنية
بهاء من أرواب الشرف وشاراته . ولكن استمع إلى جوته يصف الانجليز
الذين شاهدتهم فى فايمار ! « يا لهم من قوم ملاح الوجوه رائعى السمى ! »
- وأقلقه الخوف من أن يصرف هؤلاء البريطانيون الشبان ، المملوءون
ثقة فى أنفسهم ، الذين تفيض عنهم السلطة عفواً ، الفتيات الألمان عن الافتنان
بالرجال الألمان^(١) . وقد احتفظ كثيرون من هؤلاء الشبان بقوامهم حتى
تقدم بهم العمر ، ولكن الكثيرين انتفخت كروشهم وخذودهم حين خلفوا
ملاعب مدارسهم إلى لذات المائدة ، وتفتحوا كأنهم الورود الحمراء القانية ،
وكافحوا فى هدأة الليل ذلك النقرس الذى غلوه أثناء النهار المرح . وقد
ضاع شىء من الحشونة الالزابية فى القصف الذى رافق عودة الملكية :
أما النساء الانجليزيات فقد أصبحن أجمل مما كن فى أى وقت مضى ،
على لوحات الرسامين على الأقل : قسماً دقيقة ، وشعر تجمله الأزهار
والأشرطة ، وأسرار غامضة يغلفها الحرير ، وقصائد من الشعر كاهها
رشاقة وجلال .

وكانت فوارق الزى الطبقية فى طريقها إلى الزوال بفضل ما جدد من
وفرة فى الثياب القطنية التى تذهبها المصانع المتكاثرة ، ولكنها ظلت على

حالتها في المناسبات الرسمية . وقد ركب اللورد ديرونتووتر إلى موضع إعدامه في سترّة قرمزية وصدريّة موشاة بالذهب^(٢) . أما البواريك فكانت دولتها تدول ، ثم اختفت حين فرضت على الضرائب على المسحوق الذي يزيل رائحتها الكريهة ، ولكنها عصرت على رعوس الأطباء ، والقضاة ، والمحامين ، وعلى رأس صموئيل جونسن ؛ وقنع معظم الرجال الآن بشعرهم الطبيعيّ يلحمه دونه على أقفيتهم في ضفيره معقودة بشريط . وحوالي ١٧٨٥ أطال بعض الرجال سراويلهم من الركبة إلى ربة الساق ؛ وفي ١٧٩٣ تركوها تصل إلى الكاحل تقليداً للهان — كيلوط الفرنسيين الظافرين ، وهكذا ولد الرجل العصري . أما النساء فظلن يغطين صدورهن بالمخرمات حتى يشرفن على الاختناق ، ولكن التنورة المطبوقة أخذت تفقد ذيوها وعرضها ، وبدأت القسائين تتخذ تلك الخطوط الانسيابية التي استهوتنا أيام الشباب .

أما النظافة فلم تكن من الإيمان إلا فيما ندر ، لأن الماء كان ترفاً . فالأنهار جسيمة ولكنها عادة ملوثة ، وكان التيمز أشبه بالمصرف^(٣) . وكان الماء يفرغ في مواسير ببيوت لندن ثلاث مرات في الأسبوع نظير ثلاثة شلنات للكوارتر^(٤) ، وكان لبعض المنازل مراحيض آلية ، وقليل منها كان له حمامات ماء جار . وكان معظم المراحيض (التي درج القوم على تسمية الواحد منها أريحا) خارج الأسوار ، مبنية فوق حفرة مكشوفة ترسل نرها خلال التربة إلى آبار يأقي منها قدر كبير من ماء الشرب^(٥) . على أن العناية بالصحة العامة أخذت تتحسن ، والمستشفيات تكثر ، وهبطت وفيات الأطفال من أربعة وسبعين في كل مائة مولود عام ١٧٤٩ إلى واحد وأربعين عام ١٨٠٩^(٦) .

ولم يكن أحد من الناس يشرب الماء إذا استطاع الحصول على شراب أكثر أمناً . وكانت الجعة تعد طعاماً ، لا غنى عنه لأي عمل شاق ، أما النبيذ فدواء مفضل ، وأما الوسكى فموقد متنقل ، وأما السكر فخطيئة عرضية ، ان لم تكن جزءاً ضرورياً لمسيرة المجتمع . قال الدكتور جونسن : « أذكر الأيام التي كان فيها جميع الأشخاص المهذبين من أهل لتشفيلد

يسكرون كل ليلة ، ولم يسو رأى الناس فيهم لسكرهم هذا^(٧) .
وكان بت الثانى يحضر إلى مجلس العموم مخموراً ، واللورد كورنواليس
يذهب إلى الأوبراء ثملاً^(٨) . وكان بعض سائقى عربات الأجرة يزدبون
دخولهم بطواف الشوارع فى جوف الليل والتقاط السادة « الميسوتين »
وتوصلهم لبيوتهم . ثم تناقص السكر بتقدم القرن ، واضطلع الشاى
ببعض مهمة تدفئة الأوصال وإطلاق الألسنة . وزادت واردات الشاى من
مائة رطل عام ١٦٦٨ إلى أربعة عشر مليون رطل عام ١٧٨٦^(٩) . وكانت
مشارب القهوة الآن تقدم للشاى أكثر من القهوة ،

أما وجبات الطعام فكانت شهية ، دامية ، هائلة الحجم . وكان الغداء
يقدم حوالى الساعة الرابعة عصرأ لعاية القوم ، ثم أآخر شيئاً فشيئاً إلى السادسة
باقتراب القرن من نهايته . وقد يهدى رجل مستعجل جوعه بشطيرة
(ساندوتش) . وقد اتخذت هذه البدعة اسمها من إيرل ساندوتش الرابع
الذى ألف أن يتناول شريحتين من الخبز بينهما لحم متحاشياً قطع القمار بالغداء .
أما الخضروات فتؤكل على مضض . وقد قال جونسن لهوزويل فى ١٧٧٣
« ان التدخين انتهت موضته » ، ولكن القوم كانوا يتناولون التبغ نشوقاً .
وشاع استعمال الأفيون مسكناً أو علاجاً .

وكان فى وسع الرجل الانجليزى وهو على المائدة أن يشرب حتى
ينطلق لسانه ، وعندها قد يضارع الحديث نظيره فى صالونات باريس ظرفاً
ويبهه جوهرأ . وذات يوم (٩ ابريل ١٧٧٨) اجتمع فيه جونسن ، وجبون ،
وبوزويل ، وآلن رمزى ، وغيرهم من الأصدقاء ، فى بيت السر جوشوا
رينولدز ، قال الدكتور (جونسن) ملاحظاً « أشك فى إمكان جمع شمل
لفيف كهذا الذى يجلس حول هذه المائدة فى باريس فى أقل من نصف
سنة »^(١٠) . وكانت المحافل الارستقراطية تؤثر الحديث الظريف على حديث
العلماء ، وتفضل سلوين على جونسن . وكان جورج سلوين أوسكار وايلد
القرن الثامن عشر . وقد طرد من أكسفورد (١٧٤٥) لأنه « زعم فى زندقته
أنه يتقمص شخصية الخالص المبارك ، ولأنه سخر من سر التناول المقدس »^(١١) ،

ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحصول على وظائف شرفية مجزية في الإدارة الحكومية ، أو الجلوس والنوم في مجلس العموم من ١٧٤٧ إلى ١٧٨٠ . وكان له العديد من الأصدقاء ، ولكنه لم يتزوج قط . وكان ولوعاً بمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام ، ولكنه تغيب عن مشهد إعدام رجل كان سمياً لتشارلز جيمس فوكس ، عدوه السياسى الذى كان يتطلع إلى رؤيته يتأرجح على حبل المشنقة - قال « انى حريص على ألا أحضر « البروفات » أبداً » (١٢) . وقد ظل هو وهوارس ولبول صديقين حميمين طوال ثلاثة وستين عاماً دون أن تكسر صفو صداقتهما صحابة أو امرأة .

أما الذين لم يستمتعوا بمناظر الإعدام فكان فى وسعهم أن يتخبروا ما طاب لهم من بين عشرات الملاهى الأخرى ، من لعبة الورق المسماه « هويست » أو مشاهدة قتال الطيور ، إلى سباقات الحفل أو النزال بين خصوم للظفر بجائزة . وكان الكريكت الآن اللعبة القومية . وكان الفقراء يبددون أجورهم فى الخانات ، والأغنياء يقامرون بثرواتهم فى الأندية أو البيوت الخاصة . ويقول ولبول عن جلسة قمار فى بيت اللىدى هرتفورد « إننى خسرت ستة وخمسين جنياً فى لحظات » (١٣) . وقد أطلق جيمس جبارى ، فى رسومه الكاريكاتورية الشهيرة على أمثال هؤلاء المضيفات « بنات فرعون » (١٤) . وكان تقبل الخسائر فى هدوء أول الصفات المطلوبة فى الرجل الانجليزى المهذب . حتى ولو انتهى به الأمر إلى اطلاق الرصاص على رأسه .

ولقد كان ذلك العالم عالم الرجل ، قانونياً واجتماعياً وأخلاقياً . فكان الرجال يستمتعون بمعظم لذاتهم الاجتماعية مع غيرهم من الرجال ، ولم ينظم ناد لعضوية الجنسين حتى عام ١٧٧٠ . وكان الرجال يشبطون الثقافة والفكر فى النساء ، ثم يشكون من عجز النساء عن الحديث المثقف . ومع ذلك وفقت بعض النساء فى تثقيف عقولهن . فتعلمت السيدة اليزابث كارتر التكلم باللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية ، ودرست العبرية والبرتغالية

• هناك تورية فى كلمة Faro التى قد تعنى فرعون Pharaoh أو لعبة من ألعاب الورق (الفوعونية) : المترجم .

والعربية ، وترجمت ابكتيتس بدراية باليونانية ظفرت بثناء جونسن . وقد احتجت على عزوف الرجال عن مناقشة الأفكار مع النساء ، وكانت إحدى السيدات اللاتي جعلن « ذوات الجوارب الزرقاء » (أى النساء المثقفات) حديث المثقفين من أهل لندن .

وقد أطلق هذا اللقب أول مرة على الاجتماعات المخلطة في بيت السيدة اليزابث فزى بشارع هرتفورد بحى مايفير . في هذه اللقاءات المسائية حظرت لعب الورق وشجع النقاش في الأدب . والتقت السيدة فزى ذات يوم بينيامين ستيلنجفليت ، الذى اشتهر فترة قصيرة بأنه شاعر وعالم نباتى وفيلسوف ، فدعته إلى حفل استقبالها القادم ، فاعتذر بأنه لا يملك ملابس تصلح لأن يحضر بها حفلة . وكان يرتدى جورباً أزرق . فقالت له « لا تهتم باللباس ، تعال لابسا جواربك الزرقاء » . وذهب . ويروى بوزويل « ان حديثه كان غاية في الروعة حتى . . . ألف القوم أن يقولوا . . . لا نفعل شيئاً بدون الجوارب الزرقاء » ، وهكذا ثبت اللقب شيئاً فشيئاً^(١٥) ، وأصبح يطلق على جماعة السيدة فزى « جماعة الجوارب الزرقاء » Bas Bleu Society . وكان يختلف إليهم جاريك وولبول ، وذات مساء روع جونسن الحاضرين جميعاً بتحديث من أحاديثه الفخمة الطنانة .

أما « ملكة الزرق » كما لقبها جونسن فهي إليزابث روبنسن مونتاجيو . وكانت زوجة إدورد مونتاجيو ، حفيد إيرل ساندوتش الأول وقريب إدورد ورتلى مونتاجيو ، زوج السيدة مارى الهوائية التى نوهنا بها في صفحات سالفه^(١٦) . وكانت اليزابث مفكرة ، ودارسة ، ومؤلفة ، وقد دافع مقالها « كتابات شيكسبير وعبقريته » (١٧٦٩) في سخط عن الشاعر القومى ضد نقد فولتير القاسى . وكانت غنية في وسعها أن تضيف زوارها على مستوى رفيع . وقد جعلت من الحجرة الصيفية التى في بيتها الواقع في ميدان باركلي الملتقى المحب لمفكرى لندن وحسانها ، فأُم الندوة رينولدز وجونسن وييرك وجولدسمث وجاريك وهوراس ولبول وفانى بيرنى وهانا مور ؛ وهناك التقي الفنون بالحامين ، والأساقفة بالفلاسفة ، والشعراء بالسفراء . وكان « الطاهى البار » الذى استخدمته السيدة مونتاجيو يطهو لهم من الطعام

ما يشرح صدورهم جميعاً ، ولكن لم يكن يقدم للجماعة مسكر ، وكان السكر محظوراً . وكانت تلعب دور الراعية لبراعم المؤلفين ، وتنثر هباتها يمنة ويسرة . وفتح غيرها من سيدات لندن — كالسيدة ثريل ، والسيدة بوسكاوين ، والسيدة مونكتون — بيوتهن للموهبة والجمال . وغدا المجتمع اللندني مزدوج الجنس ، وبدأ ينافس باريس في شهرة صالوناته وعبقريتها .

٢ — الاخلاق الانجليزية

يقول آدم سميث « في كل مجتمع راسخ فيه التمييز بين مراتب الناس يوماً رسوخاً تاماً ، كان هناك على الدوام مخططان أو نظامان للأخلاق ساريان في وقت معاً ، يمكن أن يسمى الواحد الصارم أو المتزمت ، والآخر المتحرر ، أو ان شئت المتحالي . أما الأول فتعجب به وتبجله عامة الشعب بوجه عام ، وأما الثاني . . . فيبقى تقديراً واعتناقاً أكثر ممن نسميهم المجتمع العصري »^(١٧) وقد وصف جون وسلي ، الذي كان ينتمي للطبقة المتزمنة ، الأخلاق الانجليزية في ١٧٥٧ بأنها خليط من التهرب ، والإيمان الكاذبة ، والفساد السياسي ، والسكر ، والتمهار ، والغش في المعاملات ، والخداع والتحليل في المحاكم ، والجنون في رجال الدين ، ومحبة العالم بين الكويكرز ، واختلاس أموال البر سرراً^(١٨) . وتلك شنشنة نعرفها منذ القدم .

وكان التمييز بين الجنسين يومها كما هو اليوم غير كامل إطلاقاً . فحاول بعض النساء أن يكن رجالاً ، وكدن ينجحن في هذه المحاولة ؛ ونسمع عن حالات تنكر فيها النسوة في هيئة الرجال واحتفظن بهذا المظهر الخداع حتى مماتن ؛ والتحق بعضهن بالجيش أو البحرية بوصفهن رجالاً ، وكن يسكرن ويدخن ويشتمن كالرجال ، ويقاتن في المعارك ، ويشتملن الجالدين بشجاعة الرجال^(١٩) . وحوالي ١٧٧٢ انتشر الغنادير Macaronis في شوارع لندن . وكانوا شباناً أرسلوا شعورهم في شخصيات معقوفة طويلة ، يلبسون ثياباً غالية ذات ألوان لافتة للنظر و « يعاشرون البغايا بغير حرارة » ، وقد وصفهم ساوين بأنهم « ضرب من الحيوان لا هو بالذكر ولا بالأنثى ، ولكنه جنس بين بين »^(٢٠) وكان لواط موأخيره ، رغم أن الأفعال الجنسية الشاذة كان عقابها الإعدام ان اكتشفت وثبت ارتكابها .

وقد زكا المعيار الأخلاقي المزدوج . فكانت ميثاق الموخير ترفه عن الرجال المنتفعين ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يسمون انعدام العفة في المرأة جريمة لا يكفر عنها غير الموت . فانظر إلى جولد سمث الرقيق يقول ؛ « إذا قدنت امرأة جميلة إلى اتيان الحاقة ثم اكتشفت بعد الأوان أن الرجال نحوافون - فأى تميمة تستطيع أن تهديء اكتسابها ، وأى حيلة يمكن أن تجمعو ذنبها ؟ لا حيلة تجدى لإخفاء ذنبها ، ولمواراة عارها عن أعين الناظرين ، ولإتاحة الندم لحبيبها وإشعاره بالوجيعه - لا حيلة إلا الموت » (٢١).

وقد نصحووا بالزواج الباكر واقياً من هذه الكوارث وأجاز القانون زواج البنات في الثانية عشرة ، والصبيان في الرابعة عشرة . وتزوج معظم نساء الطبقات المتعلمة صغراً وأجلن انحرافاتهن ، ولكن المعيار المزدوج كان يكبح جماههن . استمع إلى جونسن يقول في الزنا (١٧٦٨) : « ان اختلاط الأنساب لب هذه الجريمة ، فالمرأة التى تخنث بعهود الزواج أشد اجراماً من الرجل الحانث بعهوده . حقاً ان الرجل مجرم أمام الله ، ولكنه لا يؤذى امرأته أذى بالغاً جداً ان لم يهنها ، أى إذا تساللى مثلاً إلى مخدعها لفرط في شهوته . على الزوجة يا سيدى ألا يسوئها هذا كثيراً . ولن أستقبل في بيتى ابنة لى هربت من زوجها لهذا السبب . وينبغى للزوجة أن تحاول اصلاح حال زوجها ببذل المزيد من الاهتمام بإرضائه ، سيدى ، ان الرجل ان يترك زوجته حتى في حالة واحدة من مائة حالة ، ويذهب إلى موهس ، ما لم تهمل زوجته في امتاعه » (٢٢) .

وكانت الفكرة المسلم بأنها شيء عادى تماماً في حلقة بوزويل وأصحابه هي أن يختاف الرجال إلى المومسات بين الحين والحين . وكان الزنا في الطبقة الارستقراطية - وحتى في الأسرة المالكة - واسع الانتشار . فكان الدوق

جرافتن يعاشر نانسى بارسونز علانية وهو كبير الوزراء ، ويصحبها إلى الأوبرا على مرأى من الملكة^(٢٣) . أما الطلاق فنادر ، ولا سبيل للحصول عليه إلا بقانون برلمانى ، ولما كان هذا يكاف « عدة آلاف من الجنهات » فإنه كان ترف الأغنياء . ولم يسجل فى الفترة من ١٦٧٠ إلى ١٨٠٠ غير ١٣٢ إذن بالطلاق^(٢٤) . وكان الظن بوجه عام أن أخلاق العامة خير من أخلاق أشرافهم ، ولكن جونسن ذهب إلى العكس (١٧٧٨) : « لا يقل الزنا والخيانة الزوجية بين الزراع عنهما بين النبلاء » و « على قدر ما لاحظت ، كلما علا مقام السيدات وازددن ثراء ، كن أفضل تهذيباً وأكثر عفة »^(٢٥) . وقد صور أدب ذلك العصر الفلاح ، كما نرى فى فيالدينج وبيرنز ، يشارك كل نهاية أسبوع تقريباً فى الحفلات الصاخبة ويسرف فى الشراب ، وينفق نصف أجره فى الحانات . وبعضه على المومسات . لقد كانت كل طبقة تأثم وفق طرائقها ومواردها .

وكان الفقراء يقتتلون بقبضات أيديهم وبالنبايت ، والأغنياء بالطبنجات والسيوف . وكانت المبارزة مسألة تتصل بالشرف فى طبقة النبلاء . فقد بارز فوكس آدم ، وشليرن فولرتن ، وبث الثانى تيرنى ؛ وكان عسيراً على المرء أن يجوز حياة النبالة دون جرح واحد على الأقل . وتشهد القصص الكثيرة على هدوء السادة البريطانيين ورباطة جأشهم فى هذه اللقاءات . وقد أكد اللورد شليرن لشاهديه اللادين ساورهما القلق حين أصابه جرح فى أصل فخذه « لست أظن أن الليدى شليرن سيزيدها هذا الجرح سوءاً »^(٢٦) .

وشر من تحلل الأخلاق الجنسية ما شاع من ضراوة الاستغلال الصناعى : ذلك الاستهلاك القاسى للحياة الإنسانية فى سبيل التكالب على الأرباح ؛ واستخدام الأطفال فى سن السادسة فى المصانع أو تطهير المداخن ؛ وافتقار الآلاف من الرجال والنساء فقراً مدقعاً يكرههم على بيع أنفسهم إلى عبودية لا أجر لها نظير الرحلة إلى أمريكا ؛ والحماية الحكومية لهجرة الرقيق باعتبارها مصدراً غالباً من مصادر ثروة إنجلترا .

وكان التجار يبحرون إلى أفريقيا من ليفربول وبرستل ولندن -- كما

يبحر غيرهم من هولنده وفرنسا - فيشترون الزواج ويقتنصونهم ، ويشحنونهم إلى جزر الهند الغربية ، ويبيعونهم هناك ، ثم يعودون إلى أوروبا بشحنات رابحة من السكر أو التبغ أو الروم . وبحلول عام ١٧٧٦ كان التجار الانجليز قد حملوا إلى أمريكا ثلاثة ملايين من العبيد ، يضاف إليهم ٢٥٠,٠٠٠ ماتوا في الرحلة وقذف بهم في البحر . وقد منحت الحكومة إعانة سنوية قدرها ١٠,٠٠٠ جنيه للشركة الأفريقية وخليفتها « الشركة المنظمة » لدعم قلاعها ومحطاتها في أفريقيا ، بحجة أنهما « أنفع ما كونه تجارنا من شركات لهذه الجزيرة » (٢٧) . وحظر جورج الثالث (١٧٧٠) على حاكم فرجينيا « أن يوافق على أى قانون يحرم أو يعوق استيراد شحنات العبيد على أى وجه » (٢٨) . وفى ١٧٧١ كان فى انجلترا نحو أربعة عشر ألف زنجى جلهم سادتهم المستعمرون أو أبقوا منهم ، وقد استخدم بعضهم خدماً فى البيوت دون أن يكون لهم حق فى تقاضى الأجور (٢٩) ، وبيع البعض فى مزايدات علنية ، كما حدث فى لربول عام ١٧٦٦ (٣٠) . على أن محكمة انجليزية قضت فى ١٧٧٢ بأن العبد يصبح حراً تلقائياً فى اللحظة التى يطأ فيها أرض انجلترا (٣١) .

ثم تلبه ضمير انجلترا ببطء إلى التناقض بين هذه التجارة وأبسط أوامر الدين أو الأخلاق . فندد بها ألمع العقول فى بريطانيا : جورج فوكس ، ودانيال ديفو ، وجيمس طومسن ، ورتشرد ستيل ، والكسندر بوب ، ووليم بالي ، وجون وسلي ، ووليم كوبر ، وفرنسيس هتشنس ، ووليم روبرتسن ، وآدم سميث ، وجوسيا ودجوود ، وهوراس وليول ، وصموئيل جونسن ، وادموند بيرك ، وتشارلز جيمس فوكس . أما أول معارضة منظمة للرق فقد قامت بها طائفة الكويكرز فى انجلترا وأمريكا ؛ وفى ١٧٦١ حرموا من عضويتهم كل مشغل بهذه التجارة ، وفى ١٧٨٣ كونوا جمعية « لإغاثة وتحرير العبيد الزواج فى جزر الهند الغربية ، ولتنشيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا » (٣٢) . وفى ١٧٨٣ ألف جرانفل شارب لجنة للتعميل بإلغاء تجارة الرقيق ؛ وفى ١٧٨٩ بدأ وليم ولبرفورس حملته الطويلة فى مجلس العموم لإنهاء التجارة الانجليزية فى العبيد . وقد أُنْعِمَ

التجار المجلس المرة بعد المرة بتأجيل مشروعه ، ولم يصدر المجلس القانون الذى حرم على أى سفينة أن تحمل عبيداً من أى ثغر فى الممتلكات البريطانية بعد أول مايو ١٨٠٧ ، أو لأى مستعمرة بريطانية بعد أول مارس ١٨٠٨ ، إلا عام ١٨٠٧ .

أما فى ميدان الأخلاق السياسية فلإن انجلترا كانت الآن فى الحضيض . فقد زكا نظام الدوائر الانتخابية العفنة ، وعرض الدهاقنة من ولاية الهند السابقين لها أثمناً باهظة . وقد أسف فرانكلان أسفاً شديداً على نشوب الحرب الأمريكية لسبب غريب : « لم يتركوا أى أنقى فى طريقى ؟ لو أنهم (أى المستعمرين) أعطونى ربع المال الذى أنفقوه على الحرب ، لحصلنا على استقلالنا دون أن نريق قطرة دم . كنت أشتري البرلمان كله ، ومحكومة بريطانيا بأسرها » (٣٤) . واستشري الفساد فى الكنيسة ، والجامعات ، والقضاء ، والوظائف المدنية ، والجيش والبحرية ، ومجالس الملك . وكان النظام العسكرى أشد صرامة منه فى أى بلد أوروبى آخر (٣٥) ربما باستثناء بروسيا ، فإذا سرح المقاتلون لم يتخذ أى إجراء لتيسير انتقاهم إلى حياة ناعمة ملتزمة بالقانون .

أما الأخلاق الاجتماعية فقد تأرجحت بين الطيبة الأصيلة فى الفرد الانجليزى ووحشية الغوغاء المستهرة . وقد وقعت فى الفترة من ١٧٦٥ إلى ١٧٨٠ تسع فتن كبرى ، وكلها تقريباً فى لندن ، وسرى مثلاً منها بعد قليل . وكانت الحشود تهول للفرجة على مشهد الشق كأنهم فى يوم عيد ، وقد يرشون الجلاذ ليعنف فى جلد سجين (٣٦) . وكان قانون العقوبات أشد القوانين صرامة فى أوربا . أما اللغة فى جميع الطبقات تقريباً فكانت تنحو إلى العنف والسوقية . واشتبكت الصحف فى معارك رهيبية من القبح والافتراء . وكان الكل تقريباً يقامرون ، ولو فى اليانصيب القومى ، والكل تقريباً يشربون حتى يشملوا .

واتحدت عيوب الخلق الانجليزى مع صفته الأساسية - وهى النشاط الشديد والعافية العارمة . وقد أنفقها الفلاح وعامل المصنع فى العمل الشاق ،

وأبدتها الأمة في كل أزمة إلا واحدة . فمن هذه العافية انبثقت الشبهة المفرطة ، وروح المرح ، واللجوء إلى المومسات والمشاجرات في الحانات والمبارزات في الميادين ، وعنف المناقشات البرلمانية ، والقدرة على المعاناة في صمت ، ومفاخرة كل انجليزى بأنه بيته قلعتة التي لايسمح باقتحامها إلا بمقتضى القانون . وحين هزمت انجلترا في هذا العصر ، كان الذى هزمها هم الانجليز الذين أزدرعوا في أمريكا ذلك الولع الانجليزى بالحرية . وقد لاحظت مدام دوغان وضوح الفروق بين الأفراد في الانجليز الذين التقت بهم ، والذين لم تبصر معظمهم قط . قالت « كلهم نسيج وحده ، ولا تجد منهم اثنين على شاكلة واحدة . أما نحن (الفرنسيين) فعلى النقيض منهم تماماً ، فإذا رأيت فرداً من حاشيتنا فكأنك رأيت الكل » (٣٧) . وقد وافق على رأيها هوراس ولبول فقال « من المؤكد أنه ما من بلد آخر ينبج كما تنجب انجلترا هذا العدد الكبير من الشخصيات المنفردة المتميزة » (٣٨) ثم انظر إلى الرجال الذين رسمهم رينولدز : فهم لاينفقون إلا في الاعزاز بوطنهم وطبقتهم ، وفي تورد وجروهم . وفي تصديقهم الجسور للعالم . لقد كانت سلالتهم سلالة قوية حقاً .

٣ — الإيمان والشك

ظلت الجماهير الانجليزية وفية لعقيديتها المسيحية في مختلف صورها . وكان أوسع الكتب قراءة بعد الكتاب المقدس « الأعياد والأصوام » تصنيف نلسن . وهو دليل للسنة الكنسية (٣٩) . وقد طبع كتاب جونسن « صلوات وتأملات » الذى نشر بعد وفاته أربع طبعات في أربع سنين . وكان الدين في الطبقات العليا يحظى بالاحترام بوصفه « وظيفة اجتماعية » ومعاوناً على الاشتلاق ، وذراعاً للحكومة ، ولكنه كان قد فقد تصديق الفرد له في دخيلة نفسه وضاع كل سلطان له على السياسة . وكان الملك يعين الأساقفة ، أما القساوسة فيعينهم كبار ملاك الأرض ويجرون عليهم أرزاقهم . وكان هجوم الربوبيين على الدين قد هدأت فورته إلى حد مكن برك من أن يتساءل في ١٧٩٠ « من ممن ولدوا في السنين الأربعين الأخيرة

قرأ كلمة واحدة مما كتبه كولنز ، وتولاند ، وتندال ، وتشب ، ومورجن ، إلى آخر تلك السلسلة التي سمت نفسها أحرار الفكر؟» (٤١) .

ولكن إذا لم يكن أحد قد انبرى للرد عليه فربما لأن هؤلاء المتمردين كانوا قد كسبوا المعركة ، وأن المتعلمين لم يبالوا الموضوعات القديمة لكونها قد بت فيها وماتت . وقد وصف بوزويل جيله في ١٧٦٥ (ناسياً عامة الشعب) بأنه « عصر اشتد ولع الناس فيه بالشكوكية حتى لكأنهم يفاخرون بتضييق دائرة إيمانهم ما استطاعوا » (٤١) . وقد رأينا سلوين يسخر من الدين في أكسفورد ، وولكس في مدمنام آبي . وقد روت اللیدی هستر ستانوب أن بت الإبن « لم يذهب إلى الكنيسة قط في حياته » (٤٢) . ولن يكن فرضاً على الواعظ أن يكون مؤمناً بما يعظ . كتب بوزويل في ١٧٦٣ يقول « بين رجال الدين كثيرون من غير المؤمنين الذين إذ رأوا الدين مجرد نظام سياسي فهم ينظرون إلى الوظيفة الكهنوتية ذات الدخول نظرهم إلى أى وظيفة مدنية ، ويسهمون بجهودهم للإبقاء على هذا الوهم المفيد » (٤٣) . يقول جبون « ان اقرارات العقيدة القويمة ، وواد الإيمان ، يوقعها رجال الدين العصريون بزفرة أو بابتسامة » (٤٤) .

وقد أتاحت الأندية الخاصة تخفيفاً من الامتثال العلني لعقيدة الكنيسة . فانضم كثيرون من الطبقة الارستقراطية لمحفل أو آخر من محافل الماسون الأحرار . وقد أدانت هذه المحافل الإلحاد لسخفه ، واشترطت في أعضائها إيماناً بالله ، ولكنها غرست فيهم التسامح في الخلافات القائمة على غير ذلك من عقائد الدين (٤٥) . وفي جمعية برمنجهام القمريّة كان رجال الصناعة من أمثال ماثيوبولتن وجيمس وات وجوسيا وجوود يستمعون دون فزع إلى هرطقات جوزف بريستلي وإرازمس داروين (٤٦) . على أن ضجة الربوبية كانت قد ولت ، وقبل جميع أحرار الفكر تقريباً هدنة لا يتدخلون بمقتضاها في الدعوة للإيمان ما دامت الكنيسة تغضى شيئاً ما عن الإثم . وتجنبت الطبقات العليا الإنجليزية — بما فطرت عليه من حس بالنظام والاعتدال — ذلك التطرف المستهتر الذي اندفعت إليه حركة التنوير الفرنسية ، فقد أدركت

ما بين الدين والحكم من وحدة حميمة ، وأوتيت من القصد ما عصبها من إحلال نظام بوليسى لا آخر له محل أخلاقية غيبية ؛

وإذ كان الأساقفة الانجليكان الآن خداماً للدولة كما كان الكرادلة الكاثوليك ، فقد رأوا أن لهم الحق في قسط من متع الدنيا . وقد هجاكوبر في أبيات لاذعة^(٤٧) رجال الدين الذين كانوا يتهافون تهافت رجال السياسة على الوظائف الدينية الأكثر مغنماً أو الملحقة بوظائفهم ؛ ولكن غير هؤلاء كثيرون عاشوا حياة العكوف الهادىء على واجباتهم ، وعديدون كانوا المدافعين الأكفء المتبحرين عن الإيمان . وقد كشف كتاب بالى « مبادئ الفلسفة الأخلاقية والسياسية » (١٧٨٥) عن روح سمحة ذات أفق واسع وتسامح عقيدى ، وعرض كتابه « البراهين على المسيحية » (١٧٩٤) عرضاً مقنعاً البرهان القائم على القصد في الكون . وقد لقي الترحيب في صفوف الأكليروس رجال ذوو ميول للتحرر الفكرى ما داموا يعظون بنجوه الدين ويكونون القدوة الأخلاقية في مجتمعاتهم^(٤٨) .

أما المنشقون على الكنيسة الإنجليكانية — من معمدانيين ومشيخيين ومستقلين (بيورتان) — فقد تمتعوا بالتسامح الدينى ماداموا متمسكين بمسيحية التثليث ؛ ولكن حظر شغل الوظائف السياسية أو الحربية ، أو الالتحاق بجامعة أكسفورد أو كمبردج ، على من لا يعترف بالكنيسة الإنجليكانية وموادها التسع والثلاثين . واستمر انتشار المثودية بين الطبقات الدنيا . وفي ١٧٨٤ فصمت هذه الكنيسة عراها الواهية مع الكنيسة الرسمية . ولكنها كانت أثناء ذلك قد بثت « الحركة الإنجيلية » في قلة من رجال الدين الانجليكان ، الذين أعجبوا بزعيمها وسلى ، ووافقوه على أن الإنجيل ينبغي أن يبشر به بالضبط كما سلم إلينا في العهد الجديد ، دون تنازلات للنقد العقلانى أو النصى .

وظل تذكر إنجلترا لمؤامرة البارود والثورة الكبرى ، وحكم جيمس الثانى . يبقّى في سجلات الدولة على تلك القوانين القديمة التى شرعت ضد اتباع كنيسة روما الكاثوليكية . ولم يعد أكثر هذه القوانين يطبق ، ولكن

معوقات كثيرة ظلت مفروضة على الكاثوليك . فهم مثلاً لا يستطيعون شراء أو وراثة أرض شرعياً إلا بالتحايل القانوني ويدفع ضريبة مضاعفة على أملاكهم . وقد حظر عليهم الخدمة في الجيش والبحرية ، واحتراف المحاماة ، والتصويت أو الترشيح للبرلمان ، وجميع المناصب الحكومية . ومع ذلك كان عددهم في ازدياد . وفي ١٧٨٦ كان منهم سبعة من كبار النبلاء ، واثنان وعشرون بارونيتاً و ١٥٠ « جنتلماناً » . وكان يحتفل بترتيل القداس في البيوت الخاصة ، ولم يسجل غير حالتين أو ثلاث من حالات الاعتقال عقاباً على هذه الجريمة طوال الستين عاماً التي حكمها جورج الثالث .

وفي ١٧٧٨ قدم السر جورج سافيل للبرلمان مشروع قانون هدفه « التخفيف عن الكاثوليك » فهو يبيح شراء الكاثوليك للأرض ووراثتهم لها ، والتطوع في القوات المسلحة دون التخلي عن مذهبهم . وأجيز المشروع ، ولم يلق معارضة تذكر من الأساقفة الإنجليكان في مجلس اللوردات . ولم يكن ينطبق إلا على إنجلترا ، ولكن في ١٧٧٩ — اقترح اللورد نورث تطبيقه على اسكتلنده . فلما باغ نبأ هذا الاقتراح إقليم السهول الاسكتلندية ، اندلعت الفتن في إدنبره وجلاسجو (يناير ١٧٧٩) ، وأحرقت عدة بيوت يسكنها الكاثوليك وسويت بالأرض ، ونهبت وحطمت حوانيت التجار الكاثوليك ، كذلك هوجمت بيوت البروتستنت الذين أعربوا عن عطفهم على الكاثوليك — مثل المؤرخ روبرتسن — ولم يخمد أوار الفتنة إلا حين أذاع قضاة إدنبره أن قانون التخفيف عن الكاثوليك لن يطبق على اسكتلنده .

ثم تبني عضو اسكتلندي في البرلمان يدعى اللورد جورج جوردن قضية « لا بابوية في إنجلترا » ففي ٢٩ مايو ١٧٨٠ رأس اجتماعاً له « جمعية البروتستنت » التي خططت لمسيرة جماهيرية لتقديم ملتمس بإلغاء قانون التخفيف الصادر في ١٧٧٨ . وفي ٢ يونيو أحاط ستون ألف رجُل برلمان ، أثر طرقة زرقاء معقودة بقبعاتهم بمبنى البرلمان واعتدى على كثير من الأعضاء وهم في طريقهم إلى المبنى ، وحطمت مركبات اللوردات ما نسبيلد وثرلور ، وستورمونت ، ووصل بعض اللوردات النبلاء إلى كراسيهم بغير باروكاتهم

شعناً يرتعدون خوفاً^(٤٩). ودخل جوردن وثمانية من أتباعه مجلس العموم ، وقدموا ملتمساً ، قيل إنه يحمل ١٢٠,٠٠٠ توقيع ، يدعو لإلغاء القانون ، ويطالب بإجراء عاجل هو البديل الوحيد لغزو الغوغاء للمجلس . فقاوم الأعضاء ، وأرسلوا في طلب الجند لكبح جماح الغوغاء ، وغلقوا جميع الأبواب ، وأعلن قريب لجوردن أنه قاتله في اللحظة التي يقتحم فيها القاعة دخيل ، ثم وافق المجلس على رفع الجلسة حتى ٦ يونيو . ووصل الجند وأفسحوا طريقاً للأعضاء ليعودوا إلى بيوتهم . وأتلقت محتويات كنيسة كاثوليكيين تحضان قساوسة سردينين وبقارين ، وكوم أثامها في نار أشعلت في الشوارع . ثم تفرق الجمع ، ولكن في ٥ يونيو نهب القائمون بالشغب كنائس أجنبية أخرى وأحرقوا عدة بيوت خاصة .

وفي ٦ يونيو عاد الغوغاء إلى التجمع ، واقتحموا سجن نيوجيت ، وأطلقوا سراح السجناء ، واستولوا على ترسانة سلاح ، وساروا وهم مساحون محترقون شوارع العاصمة . وتحصن النبلاء بمتاريس في بيوتهم . وهنا هوراس ولبول نفسه على حمايته دوق في « قلعته » بميدان باركلي^(٥٠) . وفي ٧ يونيو نهب وأحرق المزيد من البيوت ، واقتحم الرعاع معامل تقطير الخمر ، وأطفأوا ظمأهم بغير قيود ، واحترق نفر منهم وهم رقود سكارى في الأبنية المحترقة . ورفض قضاة لندن الخول لهم وحدهم السلطة القانونية على الحرس البلدي أن يأمرهم بإطلاق النار على الجمع . واستنفر جورج الثالث الميليشيا المواطنين ، وأمرهم بإطلاق النار كلما استعمل الرعاع العنف أو هددوا باستعماله . وظفر عضو البلدية جون ولكس بالعفو من الملك ، وفقد شعبيته لدى الجماهير ، إذ امتطى جواداً وانضم إلى الميليشيا في محاولة تفريق الجمع . فاجم المشاغبون الميليشيا أطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم اثنين وعشرين ، ولاذ الباقون بالفرار .

وفي ٩ يونيو اندلعت الفتنة من جديد ونهبت البيوت وأحترقت - سواء الكاثوليكية أو البروتستنتية ، ومنع جنود الإطفاء من إخماد النيران^(٥١) ، وأخذ الجند الفتنة بعد أن قتل فيها ٢٨٥ رجلاً وجرح ١٧٣ ، وقبض على

١٣٥ من المشايخين ، وشئق واحد وعشرون . وقبض على جوردن وهو يفر إلى اسكتلنده . وأثبت أنه لم يكن له ضلع في حوادث الشغب ، فأفرج عنه ، وحصل برك على موافقة مجلس العموم على إعادة تأكيد قانون التخفيف عن الكاثوليك في انجلترا . ووسع قانون صدر في ١٧٩١ التسامح الشرعى في شئون العبادة والتعليم الكاثوليكين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية حظر عليها أن يكون لها برج أو جرس (٥٢) .

٤ - بلاكستون وبننام والقانون

زعم فقيه ضليع أن « نشر كتاب بلاكستون « التعليقات » يعد من بعض الوجوه أبرز حدث في تاريخ القانون » (٥٣) وهذا رأى فيه تحيز للوطن ، ولكنه يعيننا على بيان مبلغ الرهبة والإجلال اللذين كان الطلاب المتحدثون بالإنجليزية ، حتى عصرنا هذا ، يتناولونهما كتاب « تعليقات على قوانين انجلترا » الذى نشره وليم بلاكستون في أربعة مجلدات وألفى صفحة في ١٧٦٥ - ٦٩ . وقد اثنى عليه القراء رغم حجمه هذا أو بسببه ، أثراً جليلاً من آثار العلم والحكمة ، فكان كل لورد يقتنيه في مكتبته ، وأحبه جورج الثالث حباً جماً بوصفه تمجيداً للملوك .

أما بلاكستون هذا فكان ابن تاجر لندنى أتاح له ثراؤه أن يعلم ابنه في اكسفورد ثم يرسله إلى « المدل تمبل » ليمارس المحاماه - وقد ردت محاضراته في اكسفورد (١٧٥٣ - ٦٣) تناقضات القوانين وسخاقتها إلى شيء من النظام والمنطق ، ثم بسطت النتيجة بوضوح وتشويق . وفي ١٧٦١ أنتخب عضواً في البرلمان ، وفي ١٧٦٣ عين محامياً عاماً للملكة شارلوت ، وفي ١٧٧٠ بدأ خدمته قاضياً في محكمة الدعاوى العامة . وإذ كان مدمناً للدرس كارهاً للحركة ، فقد أصابه تحلل هادىء تدريجى ولكنه سابق لأوانه ، ومات في ١٧٨٠ بالغا السابعة والخمسين .

وكان لرائعته الكبرى فضائل محاضراته : الترتيب المنطقي ، والعرض الناصع ، والأسلوب الرشيق . وقد امتدحه خصمه اللدود جرمى بننام ،

لأنه الرجل الذى « علم القضاء أن يتكلم لغة المدارس والجنتمان ، وهذب ذلك العلم العصبى ، ونفض عنه غبار المنصب ونسيج العناكب »^(٥٤) . وقد عرف بلاكستون القانون بأنه « قاعدة للعمل يملها كائن أعلى »^(٥٥) ، وكان يدين بتصور مثالى مستقر للقانون ، يراه مؤدياً فى مجتمع ما الوظيفة التى تؤديها قوانين الطبيعة فى العالم ؛ وكان ميالاً إلى التفكير فى قوانين إنجلترا على أنها تضارع قوانين الجاذبية فى جلالها وخلودها .

وقد أحب إنجلترا والمسيحية على الصورة التى وجدها عليها ، وما كان ليسلم بأى عيب فى واحدة منهما . وكان أكثر سنية من الأسقف واربرتن ، وأكثر ملكية من جورج الثالث . « ليس ملك إنجلترا أكبر قاض للأمة فمحسب ، بل هو بالضبط القاضى الوحيد لها . الذى له أن يرفض أى مشروعات قوانين ، ويبرم أى معاهدات ، . . . ويعفو عن أى جرائم شاء ، إلا إذا كان الدستور قد نص بصراحة أو بحكم النتيجة المنطقية الواضحة على استثناء أو قيد ما »^(٥٦) . ووضع بلاكستون الملك فوق البرلمان وفوق القانون . فلبس الملك « غير قادر على ارتكاب الخطأ فمحسب . بل حتى على التفكير الخطأ » - وهى عبارة عنى بها بلاكستون أنه ليس هناك قانون فوق الملك يمكن أن يبدان به الملك . ولكنه أبهج كبرياء إنجلترا بأسرها حين عرف « الحقوق المطلقة لكل الإنجليزي : حق الأمن الشخصى ، وحق الحرية الشخصية ، وحق الملكية الشخصية »^(٥٧) .

وقد سر جيل بلاكستون سروراً عظيماً بتصوره القانون الإنجليزي نظاماً صالحاً على الدوام لأنه فى النهاية مبنى على الكتاب المقدس بوصفه كلمة الله . ولكن هذا التصور ثبط تطوير القضاء الإنجليزي وإصلاح قانون العقوبات والسجون ؛ غير أن من مفاخره أنه امتدح جهود هوارد التى بذلها لتحسين الأحوال فى السجون البريطانية^(٥٨) .

وقد فهم هوارد المسيحية لا على أنها نظام قانونى بل نداء للقلب . ذلك أن الأحوال فى السجن المحلى أفرغته حين عين مأموراً فى بدفورد (١٧٧٣) فالأمور ومساعدوه لا رواتب لهم ، ورزقهم على ما يقتضون من السجناء

من رسوم ؛ فكان السجن إذا قضى مدة عقوبته لا يفرج عنه إلا بعد أن يدفع جميع الرسوم المطلوبة منه ، وكان الكثيرون يظلون رهن السجن شهوراً بعد أن تدبّن للمحكمة براءتهم . وقد وجد هوارد في رحلاته من مقاطعة إلى مقاطعة مظالم مماثلة أو أسوأ . فكان المدينون الذين يقصرون في الوفاء بدينهم ، والمذنبون لأول مرة ، يلقون معاً في مكان واحد مع مدمنى الجريمة . وكان أكثر السجناء يوثقون بالأغلال التي تثقل أو تخفف حسب الرسم الذي يدفعونه . وكانت جناية السجن في اليوم خبزاً ثمنه بنس أو بنسان ، فإذا أراد مزيداً من الطعام فعليه أن يدفع ثمنه أو يعتمد فيه على الأقرباء أو الأصدقاء . أما الماء فجرايته للسجين ثلاثة بنسات في اليوم للشرب والاعتسال . ولا يزود السجناء بوسائل للتدفئة في الشتاء ، أما في الصيف فتهوة لا تذكر . وكان النتن الذي يفوح من هذه الزنانات من الشدة بحيث ظل لاصقاً بشباب هوارد بعد خروجه منها بزمان . وكانت « حمى السجن » وغيرها من الأمراض تفتك بالكثير من السجناء ، وكان البعض يموت بالجوع البطيء (٥٩) . وفي سجن نيويورك بلندن كان خمسة عشر إلى عشرين سجيناً ينزلون حجرة طولها ثلاثة عشر وعرضها خمسة وعشرون قدماً .

وفي ١٧٧٤ قدم هوارد للبرلمان تقريره عن خمسين سجناً زارها ، ووافق مجلس العموم على قانون يشترط الإصلاحات الصحية في السجن ، وتوفير الرواتب للسجانين ، والإفراج عن جميع السجناء الذين لم يجد هيئة المحلفين الكبرى شكوى مقدمة للمحكمة ضدهم . وفي ١٧٧٥ - ٧٦ زار هوارد سجون القارة ، فوجد سجون هولنده خيرها تجهيزاً وترفقاً نسبياً بالسجناء ، ومن أسوأها سجون هانوفر التي يحكمها جورج الثالث . وقد أيقظ ضمير الأمة من سبائه نشر كتاب هوارد « حالة السجن في إنجلترا وويلز . . . ووصف لبعض السجناء الأجنبية » (١٧٧٧) . فوافق البرلمان على تخصيص صندوق لـ « مؤسستين إصلاحيتين » تبدل فيهما محاولة لإصلاح السجناء بالمعاملة الفردية والعمل الخاضع للملاحظة ، والتعليم الديني . واستأنف هوارد رحلاته ، وروى نتائجها في طبعات جديدة من كتابه . وفي ١٧٨٩ جاب أنحاء روسيا ، وفي خرسون أصيب بحمى المعسكرات

ومات (١٧٩٠) . ولم تثمر جهوده للإصلاح إلا نتائج متواضعة . فقانون ١٧٧٤ أهمله معظم السجاني والقضاة . ولم تظهر أوصاف سجون لندن في ١٨٠٤ و ١٨١٧ أى تحسين منذ عصر هوارد ، « لعل الأحوال أصبحت أسوأ لا أحسن »^(٦٠) ، وكان على الإصلاح أن ينتظر . ووصف دكنز لسجن نيو مارشالسيا في قصته « دوريت الصغيرة » (١٨٥٥) .

أما جرمي بنتام فلان جهوده المتنوعة لإصلاح القانون والحكومة والتعليم بذل أكثرها بعد هذه الفترة ، ولكن كتيبه « مقال صغير عن الحكومة » (١٧٧٦) مكانه هنا ، لأنه في المقام الأول نقد لبلاكستون . فقد احتقر عبادة الفقيه للتقاليد الموروثة ، وذكر أن « مارسخ الآن كأي يوماً بدعة »^(٦١) ، ونزعة المحافظة الحاضرة إنما هي تبجيل لاراديكالية الماضية ؛ إذن فالذين يدعون إلى الإصلاحات لا يقبلون وطنية عن أولئك الذين يرتعدون فرقا لفكرة التغيير . « في ظل حكومة القوانين ما هو شعار المواطن الصالح ؟ أن يطيع في دقة وأن ينفذ في حرية »^(٦٢) . وقد رفض بنتام رأى بلاكستون في السيادة الملكية ؛ فالحكومة الصالحة توزع السلطات ، وتشجع كلا منها على كبح شطط غيرها ، وتسمح بحرية الصحافة ، والتجمع والمعارضة السلميتين . والثورة في نهاية المطاف قد تحدث للدولة ضرراً أقل مما يحدثه الخنوع المبلد للظلم (٦٣) . وقد نشر هذا الكتيب سنة الإعلان الأمريكي للاستقلال .

وقد شرح بنتام في هذا المقال ذاته « مبدأ السعادة الأعظم » الذي أطلق عليه جون ستيوارت مل في ١٨٦٣ اسم « مذهب المنفعة » . « أن أعظم سعادة لأكبر عدد هو مقياس الحق والباطل »^(٦٤) ، وينبغي الحكم على جميع المقترحات والممارسات الأخلاقية والسياسية بمقتضى « مبدأ المنفعة » هذا ، لأن « وظيفة الحكومة أن تزيد من سعادة المجتمع »^(٦٥) . وقد اقتبس بنتام « مبدأ السعادة » هذا من هلفتيوس ، وهيوم ، وبريستلي ، وبكاريا ،^(٦٦) وتكونت وجهة نظره العامة من قراءته لجامعة الفلاسفة^(٦٧) .

وفي ١٧٨٠ ألف كتاب « مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع » الذي نشره في ١٧٨٩ ، وضمه عرضاً للفكر أكثر تفصيلاً وفلسفة . وقد رد

كل فعل واع إلى الرغبة في اللذة أو الخوف من الألم ، وعرف السعادة بأنها « الاستمتاع باللذة ، والأمان من الألم »^(٦٨). ولاح أن هذا يبرر الأنانية المطلقة ، غير أن بنتام طبق مبدأ السعادة على الأفراد كما طبقه على الدول . فهل أفضى فعل الفرد إلى أعظم قدر من السعادة له ؟ في رأيه أن الفرد في المدى البعيد ينال أعظم لذة أو أقل ألم بتوخيهِ الإنصاف مع اخوانه البشر .

وقد مارس بنتام ما بشر به ، لأنه كرس حياته لسلسلة طويلة من مقترحات الإصلاح : التصويت العام للذكور البالغين المتعلمين ، والاقتراع السرى ، والبرلمانات السنوية ، وحرية التجارة ، والنظافة الصحية العامة ، وتحسين أحوال السجون ، وتطهير القضاء ، وإلغاء مجلس اللوردات ، وتحديث القانون وجمعه وتنسيقه في لغة مفهومة لغير القانونيين ، وتوسيع القانون الدولى (وبنتام هو مخترع هذا المصطلح)^(٦٩) . وقد خرج إلى النور الكثير من هذه الإصلاحات في القرن التاسع عشر ، وأكثر الفضل في ذلك لمجهود « اتباع مذهب المنفعة » و « الراديكاليين الفلاسفة » من أمثال جيمس وجون ستيوارت مل ، وديفيد ريكاردو ، وجورج جروت .

كان بنتام آخر صوت من أصوات حركة التنوير ، والمعبر بين فكر القرن الثامن عشر المحرر وإصلاحات القرن التاسع عشر . ولقد وثق بالعقل ثقة أكثر حتى من ثقة جماعة الفلاسفة به ، وظل عزباً لآخر حياته مع أنه كان أحب الرجال وأطفهم . وحين مات (٦ يونيو ١٨٣٢) وهو في الرابع والثمانين أوصى بأن تشرح جثته في حضرة أصدقائه . فشرحت ، ومازال هيكله محفوظاً في الكلية الجامعية بلندن ، مرتدياً ثياب بنتام المألوفة^(٧٠). وغداة موته وقع الملك « قانون الإصلاح » التاريخى الذى جسد الكثير من مقترحاته .

٥ — المسرح

(١) التمثيل

كان هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر غنياً فى المسرح فقيراً فى الدراما . فقد شهد لفيفاً من أروع الممثلين فى التاريخ ، ولكنه لم ينجب غير

كاتبين مسرحيين اثنين أفلتت أعمالهما من منجل الحاصد : شريدان الذى ودعناه منذ هنيهة ، وجولد سميث الذى سيخصص بركن تحت سماء الأدب . وربما كان هذا القمحط فى التمثيليات الجادة سبباً ونتيجة للإحياء الشكسبيرى الذى استمر حتى نهاية القرن .

وقد عانى الكتاب المسرحيون من أذواق النظارة . فقد كان هناك نقاش كثير للتقنية والفن التمثيليين ، ونقاش قليل للتقنية والفن التأليفيين . وكان أجرة المؤلف ، وهو فى الغالب مكافأته المادية الروحية ، حصيلة الحفلة الثالثة ، وإن كان هناك حفلة ثالثة . على أن بعض الممثلين والممثلات أثروا ثراء رؤساء الوزارة . وكان فى استطاعة الهتافين المأجورين أن يقضوا على أى مسرحية جيدة بافتعالهم الضوضاء المعادية ، أو أن يجعلوا المسرحية الحقيرة تنجح نجاحاً مثيراً . ولم يظفر بعروض تمتد عشرين ليلة فى موسم واحد إلا أكثر المسرحيات حظاً . وكانت الحفلات تبدأ فى السادسة أو السادسة والنصف . وتحتوى عادة على مسرحية من ثلاث ساعات ، وتمثيلية هزلية ساخرة « فارص » أو إيمائية « بانتومايم » . أما المقاعد فتكلف من شلن إلى خمسة ، ولا حجز إلا بإرسال خادم يشتري التذكرة ويشغل المقعد حتى يحضر السيد أو السيدة . وكانت كل المقاعد بنوكا بغير ظهور^(٧١) ، وكان بعض النظارة المقربين يجلسون على خشبة المسرح حتى أنهى جارليك هذا العبث المنكر (١٧٦٤) . أما الإضاءة فكلها بالشموع فى ثريات « تظل مضاعة طوال البرنامج . وكانت الملابس قبل عام ١٧٨٢ هى ملابس القرن الثامن عشر الإنجليزية دون اعتبار لزمان المسرحية أو مكانها . فكان كاتو ، وقيصر ، ولير ، يبدون فى سراويل للركبة وشعور مستعارة .

وازدهر المسرح ، سواء فى لندن أو فى « الأقاليم » ، رغم معارضة رجال الدين ومنافسة الأوبرا والسرك . وكانت بات وبرستل ولغربول وتنتجهام وما نشستر وبرمنجهام ويورك وإدنبره ودبلن تملك مسارح جيدة ؛ وكان لبعضها فرقها الخاصة ، ولإذ كانت الفرق الكبرى تجوب البلاد ، فإن كل مدينة تقريباً شهدت التمثيل الجيد . وقد أثارت لندن المنافسة الحادة بين مسرحين رئيسيين . فى ١٧٥٠ مثل : كلاهما « روميو وجوليت » كل

ليلة في ذات الأسبوعين ، وأدى الأدوار الرئيسية سبرانجو بارى وسوزانا كبر في مسرح كوفنت جاردن ، وجاريك ومس بيلامي في مسرح دوررى لين . ثم كان لصموئيل فوت مسرحه الصغير في هاماركت ، حيث تخصص في التقليد الهجاء ، وكانت تقليداته لجاريك شقاء طال أمده في حياة ديفد ،

ولم تشهد خشبة المسرح الانجائزى قط من قبل هذا العدد الغفير من الممثلين الأفاضل . وقد استهل تشارلز ماكلين هذا العصر المجيد في ١٧٤١ بإخراجه تمثيلات شيكسبير ؛ وكان أول ممثل قدم شيلوك شخصية جادة وإن ظل وغداً لا يرحم (ولم يمثل شيلوك بشيء من العطف حتى جاء هنرى لارفنج) . ثم اختتم جون فليب كبل هذا الإحياء الشكسبيرى الذى استغرق قرناً كاملاً . وكانت أعظم ساعات تجليه حين مثل هو وأخته ساره مسرحية مكبث على مسرح دوررى اين في ١٧٨٥ .

وازدانت خشبة المسرح الآن بنفر من الممثلات الجديرات بالذكر . منهن بيج وفنن التى وهبت الجمال المثير في قوامها وطلعتها ، ولكنها عاشت عيشة منحلة ، وأصابها النقطة في منتصف التمثيلية (١٧٥٧) روتت قبل أوانها غير متجاوزة السادسة والأربعين (١٧٦٠) . ثم كنى كلايف التى ظلت تمثل مع فرقة جاريك اثنتين وعشرين سنة ، وقد أدهشت لندن بأخلاقها التى كانت مضرب المثل ، وبعد أن هجرت خشبة المسرح (١٧٦٩) عاشت ست عشرة سنة في بيت أعطاها إياه هوراس ولبول في تويكنام . أما مسز هانا برتشارد فكانت تحتل مكان الصدارة بين الممثلات التراجيديات قبل أن تنزها مسز سيلونز في أداء دور الليدى مكبث ؛ وقد أفنت عمرها في التمثيل ، ولم تقرأ كتاباً قط (فيما روى) ، وقد وصفها جونسن بأنها « باهاء ملهمة » (٧٢) ، ولكنها عمرت بعد الكثرات من الحسان ، وظلت تمثل حتى قبل موتها ببضعة شهور . وتألفت مسز فرانسس آبنجتين في أدوار بياتريس وبورشيا ، وأوفيليا ، وديمونه ، ولكن أشهر أدوارها كان دور الليدى تزل في مسرحية « مدرسة الفضائح » ، وقد اكتسبت مارى روبنسن اسمها الشعبي « برديتا » بفضل اجادتها تمثيل ذلك الدور في « قصة الشتاء » ؛

وكانت خليلة لأمبر ويلز وغيره من العشاق الأقل شأنًا ، وصورها رينولدز وجينزبرو ورومى .

أما ربة المسرح الواعية بقدرها فكانت ساره كمبل سيدونز . ولدت لممثل جوال فى خان بويلز (١٧٥٥) ، وتزوجت فى الثامنة عشرة بالممثل وليم سيدونز ، ثم لمعت وهى فى التاسعة عشرة فى مسرحية أوتواى « فينيسيا المصونة » . ثم استخدمها جارليك بعد سنة ، ولكن النقد حكموا بأن « قدراتها لاترقى إلى مستوى المسرح اللندنى » . ونصحها هنرى وودوارد الذى كان يمثل الأدوار الهزلية لجارليك بأن تعود إلى مسارح الريف فترة . ففعلت ، وظلت ست سنوات تمثّل فى البنادر . فلما أن دعيت ثانية إلى درورى لين عام ١٧٨٢ ، أدهشت كل إنسان بتطورها ممثلة . وكانت البادئة بارتداء زى العهد الذى تمثله فى أدوارها . ولم يلبث جارليك أن فضلها فى تمثيل الأدوار الشكسبيرية ، وذهبت لندن من الجلال والأسى اللذين سميت بهما بدور الليدى مكبث . وقد اكتسبت حياتها الخاصة احترام وصدّاقة كبار معاصريها ، وكتب جونسن اسمه على هدىب ثوبها فى اللوحة التى صورها فيها رينولدز ربة للمأساة ، وقد وقع من نفسه « بالغ تواضعها وكياستها » حين زارته (٧٣) . وواصل اخوان وأخت لها واثنتان من بنات اخوتها مشاركة أسرة كمبل فى المسرح حتى ١٨٩٣ . وبفضلها وبفضل جارليك ارتفع مقام الممثلين الاجتماعى ، حتى فى بلد كانجلترا جعل من الفوارق الطبقيّة روح الحكومة وأداتها .

(ب) جارليك

كل الذين عرفوا أخبار جونسن يذكرون أن ديفد جارليك ولد فى لتشفيلد (١٧١٧) ، والتحق بمدرسة جونسن فى ايدىال (١٧٣٦) ، ورافقه فى هجرتهما التاريخية إلى لندن (١٧٣٧) . وإذ كان بصغر جونسن بسبع سنين ، فإنه لم يكسب قط صداقة جونسن الكاملة ، لأن أكبر الرجلين سنًا لم يستطع أن يغفر لديفد كونه ممثلاً وغنيًا .

(م ٩ - قصة الحضارة ، ج ٤٢)

فلما بلغ جاريك لندن انضم إلى أخيه في استيراد النيدز وبيعته . واقتضاه هذا زيارات متكررة للمحانات ، وهناك التقى بالمثلين ، فاستهواه حديثهم ؛ وتبع بعضهم إلى ابسويتش حيث سمحوا له بلعب أدوار صغيرة . وتعلم فن التمثيل بسرعة فائقة حتى اضطلع بعد قليل بتمثيل الدور الرئيسي في « رتشرد الثالث » في مسرح غير مرخص بجودمانز فيلدز بالطرف الشرقي للندن . وقد استطاب ذلك الدور لأنه كان ضئيل الحجم مثل الملك الأحدب ، ولأنه استمتع بالموت على خشبة المسرح وقد لقي أداؤه من حسن الاستقبال ما جعله يهجر تجارة الخمر ، الأمر الذي أخزى أقاربه في لتشفيلد وأحزنهم . ولكن ولیم بت الأب ذهب وراء الكواليس لينهته . أما الكسندر بوب ، الذي كان صاحب عاهة مثل رتشرد ، فقد قال لمشاهد آخر ، « إن هذا الفتي لم يكن له نظير قط ، وإن يكون له منافس أبدا »^(٧٤) . فهنا مثل سكب كل جسمه وروحه في الدور الذي يؤديه ؛ ممثل تقمص رتشرد الثالث بوجهه وصوته ويديه وهيكله المحطم وعقله الماكر وأهدافه الشريرة ؛ ممثل لايكف عن لعب دوره حين يتكلم الآخرون ، وينساه بمشقة إذا ترك خشبة المسرح . وسرعان ما غدا حديث رواد مسارح لندن ، فذهب عليه القوم لمشاهدته ، وتعشى معه اللوردات ، وكتب توماس جراى يقول « في جودمانز كفيلدز اثنا عشر دوقاً كل ليلة »^(٧٥) وأعلن آل جاريك يلتشفيلد في زهو قرابة ديفد لهم .

ثم جرب بعد هذا دور لير (١١ مارس ١٧٤٢) ، ففشل ؛ فلقد كان فيه من نشاط الحركة ما منعه من تمثيل دور شيخ في الثمانين ، ولم يكن قد اكتسب وقار الملوك . على أن الفشل هذبه وتبين أنه عظيم النفع له . فأقلع عن لعب الدور حيناً ، ودرس المسرحية ، وحرب نفسه على تعبيرات سخنة لير التعس ، ومشيته الهزيلة ، وبصره المضطرب . ونبراته الحادة الباكية . وفي أبريل عاود التجربة . ورأى النظارة أنه تغير تماماً ، فبكوا وهتفوا ، ذلك أن جاريك خلق دوراً آخر من الأدوار التي ستذكر الناس باسمه قرابة قرن من الزمان . وصفق الناس جميعاً إلا جونسن الذي انتقد التمثيل زاعماً أنه مجرد بانثومايم ، وهوراس ولبول الذي زعم أن في تعبيرية جاريك غلوا ،

وجراى الذى أسف على الهبوط من الانضباط الكلاسيكى إلى الانفعالية والعاطفية الرومانتيكيين . وشكا الدارسون من أن جاريك لم يمثل نصاً شكسبيرياً خالصاً بل طبعة مراجعة منقحة ، أحياناً بقلم جاريك نفسه ؛ فنصف أبيات ريتشارد الثالث كما مثلها كتبه كولى كبر (٧٦) ، وآخر فصل فى « هاملت » كما مثله قد غير فيه وبدل ليقدّم خاتمة رقيقة للمأساة .

فى ذلك الموسم (١٧٤١ - ٤٢) لعب جاريك ثمانية عشر دوراً - وهو عمل جبار يدل على ملكات خارقة فى التذكر والتركيز . وكان إذا مثل امتلاء المسرح برواده ؛ فإذا لم يكن له دور خلا نصفه . وعانت المسارح المرخصة من تناقص روادها . وأكره مسرح جودمانز فياندز بتدابير من وراء الستار على أن يغلق أبوابه . فوقع جاريك لموسم ١٧٤٢ - ٤٣ عقداً مع مسرح درورى لين حين أسقط فى يده بدون خشبة المسرح ؛ نظير ٥٠٠ جنيه - وكان راتباً قياسياً للممثل . ثم رحل إلى دبلن أثناء ذلك لموسم الربيع . وكان هندل قد استهوى أهل المدينة لتوه بأوراتوريو « المسيا » (١٣ ابريل ١٧٤٢) ؛ فغزاها الآن جاريك وبيع وافنجن بشكسبير . فلما عاد إلى لندن أقام فى معيشة واحدة ، واشترى جاريك خاتم الخطبة . ولكن غاظها منه شحه . وغازه منها إنسرافها . فبدأ يسائل نفسه أى زوجة تراها منبعثة من ماضى بيج الخلط . واحتفظ بالخاتم ، ثم افترقا (١٧٤٤) .

ولقد كان تمثيله فى درورى لين استهلالاً لعهد جديد فى الفن . كان يبذل لكل دور يؤديه قصارى طاقته وحرصه المتواصل على أن تتوافق كل حركة من حركات جسمه وكل نبرة من نبرات صوته مع شخصية الدور ، ولقد بث الحيوية كلها فى رعب مكبث وفزعه ، حتى ظل هذا الدور ، أكثر من أى من أدواره الأخرى ، باقياً فى ذاكرة الشعب . وأحل محل الأسلوب الخطأى الذى جرى عليه قدامى التراجيدين كلاماً أكثر طبيعية . وقد أحرز حساسية فى تعبير الشخصية كانت تغير مع أسير تغيير فى التفكير أو المزاج فى النص . قال جونسن ملاحظاً بعد سنوات ، « إن ديفد يبدو أكثر سداً مما هو بكثير . لأن وجهه كانت تهتبه ضعف مهمة أى رجل آخر ، فهو

لا يستقر أبداً» (٧٧) . ثم هناك تعدد قدراته ، فقد لعب الأدوار الكوميديّة تقريباً بكل العناية والكمال اللذين بذلتهما في لعب دور مكبث أو هملت أو لير ،

وبعد أن قضى جاريك خمسة مواسم ممثلاً وقع (٩ ابريل ١٧٤٧) عقداً يقسم إدارة درورى لين بينه وبين جيمس ليسى : فيضطلع ليسى بالأعمال الإدارية ، ويختار جاريك التمثيليات والممثلين ويدير البروفات . وخلال فترة إدارته التي امتدت تسعة وعشرين عاماً أخرج خمساً وسبعين مسرحية مختلفة ، وكتب هو نفسه مسرحية (بمشاركة جورج كولمان) ، وراجع أربعاً وعشرين تمثيلية لشكسبير ، وألف عدداً كبيراً من المقدمات ، والحوائيم ، والفارصات ، وكتب للصحف مقالات غفلا من الإمضاء تدعم عمله وتشيد به . وكان يقدر المال . وكيف اختياريه للمسرحيات وفق أعظم قدر من السعادة لأعظم عدد من رواد المسرح . وقد أحب التصفيق كما لا بد أن يحبه الممثلون والكتاب ورتب الأدوار ليحظى بأكثره . وكان رأى ممثليه أنه مستبد بخيل ، وشكوا من أنه يغمطهم أجورهم بينما هو يثرى . ولقد أقر النظام والانضباط بين أفراد فيهم غيرة وإفراط في الحساسية ويشرف كل منهم على العبقرية أو يطيل التفكير فيها . وكانوا يندمرون ، ولكن أبهجهم أن يبقوا معه ، لأنه ما من فرقة أخرى أبلت هذا البلاء الحسن في التصدى لرياح الحظ وتقلبات اللوق .

وفى ١٧٤٩ تزوج جاريك إيفا ماريافايجل ، وهي راقصة من فيينا قدمت إلى إنجلترا باسم « الآنسة فيوليت » وظفرت بالتصفيق والاستحسان الحار على أدائها في باليهات الأوبرا . وكانت كاثوليكية تقيّة ، وظلت كذلك ، وقد ابتسم جاريك لاعتقادها بقصة القديسة أورسولا والأحد عشر ألف عذراء (٧٨) . ولكنه احترم إيمانها لأنها عاشت أمينة لناموسه الأخلاقى . ولقد فعلت الكثير بحبها ووفائها لتخفيف التوتر الذى تنطوى عليه حياة الممثل المدير . فأغدق ثراه عليها ، واصطحبها في سياحات بالقاهرة ، وابتاع لها بيتاً غالياً في قرية هامتن . وهناك ، وفى بيته اللندنى على أدلنى تراس ، كان يستضيف زائريه فى بدخ ، وأسعد الكثير من اللوردات وكبار

الأجانب أن ينزلوا ضيوفاً عليه . وهناك كان يقصف ويمرح مع فاني بربنى .
وآوى هانا مور .

وفي ١٧٦٣ اعتزل التمثيل إلا فى المناسبات الخاصة . قال « الآن سأقعد وأقرأ شكسبير »^(٧٩) . وفى ١٧٦٨ اقترح وخطط وأشرف على أول مهرجان لشكسبير فى ستراتفورد - أن - ايفن . وواصل إدارته لدرورى لين ، ولكنه وجد غضبات الممثلين وهشاجرتهم تزداد ضغطاً على أعصابه الشائخة . وعليه فى مطلع عام ١٧٧٦ باع نصيبه فى الشركة لرتشرد برنسلى شريدان ، وفى ٧ مارس أعلن أنه سيتقاعد بعد قليل . وظل ثلاثة أشهر بعد هذا الإعلان يقوم بتمثيل الوداع لأدواره الحبيبة ويحظى بسلسلة من الانتصارات لعل ممثلاً آخر لم يعرفها قط على امتداد التاريخ . وقد أثار رحيله عن خشبة المسرح من الحديث فى لندن قدر ما أثارته الحرب مع أمريكا . وفى ١٠ يونيو ١٧٧٦ اختتم «باته المسرحية بإعانة مالية وهبها لصندوق الممثلين العجزة .

ومد له فى الأجل ثلاث سنين أخر . ثم مات فى ٢٠ يناير ١٧٧٩ بالغا الثانية والستين . وفى أول فبراير حمل جثمانه إلى كنيسة وستمنستر على أكتاف أفراد من أرفع نبلاء بريطانيا ، وهورى ركن الشعراء عند قدمى تمثال شكسبير .

٦ - لندن

بدأت لندن أول مرة لجونسن (١٧٣٧) فى صورة ملؤها الازدهار الشديد والغيور على الفضيلة .

« الحقد هنا يأتمر مع السلب وسوء الحظ ، ويشور رعاى أحياناً ، ويشب حريق أحياناً ، وطغام أوباش يختبئون هنا .

ويجوس محام يلتمس فريسة ، وبيوت هاوية ترعد من فوقك ، وامرأة كافرة تغرقك حديثاً يزهى روحك^(٨٠) .

(*) الليدى مارى ورتلى مونتهجيو ؟

هذه بالطبع كانت بعض جوانب لندن اختيرت وقوداً لغضب الشباب الذى لم يجد له مكاناً بعد .

ولكن جونسن وصف لندن بعد ذلك بثلاث سنوات بأنها « مدينة اشتهرت بالثراء والتجارة ووفرة الخيرات وبكل لون من ألوان الكياسة والأدب ، ولكنها تعج بأكوام القذارة التى لو رآها إنسان متوحش لأخذته الدهشة » (٨١) . ذلك أن السلطات البلدية فى ذلك الحين كانت تترك مهمة تنظيف الشوارع للمواطن ، الذى أوصى بأن يحتفظ بالمظهر الأنيق للرصيف— أو التراب — أمام منزله . وفى ١٧٦٢ رتبّت قوانين وستمنستر للرصف تنظيف البلدية للشوارع ، وجمع القمامة ، ورصف الطرق الرئيسية وترميمها ، وإنشاء نظام للمجارى تحت الأرض . وسرعان ما نهجت أقسام أخرى من لندن هذا النهج . فكانت الطرقات المرتفعة تحمى المشاة ، والبالوعات تصرف مياه الشوارع . وشقت الشوارع الحديدية فى خطوط مستقيمة ، وبُنيت البيوت بناء أصاب وأمن ، وأطلقت العاصمة الوقور رائحة الطف .

ونخلت المدينة من مصالحة عامة للحريق ، ولكن شركات التأمين احتفظت بفرق خاصة للإطفاء بالخراطيم ، للحد من خسائرها . وكان تراب الفحم والضبب أحياناً يتضافران ليلبدا المدينة بغطاء قاتم صفيق يستحيل على المرء معه أن يميز صديقه من عدوه . فإذا انجالت السماء أشرقت بعض الشوارع الحوانيت الزاهية . وفى حى الستراند كانت أكبر وأعنى المتاجر فى أوربا تعرض وراء نوافذها منتجات نصف العالم . وغير بعيد منها قامت مئات الحوانيت التى تشغى بعشرات الحرف ، ثم انبثت هنا وهناك الفواخير ومصانع الزجاج ودكاكين الحدادين ومعامل الجعة . وأسهمت ضوضاء الصناعات والتجار ، والعربات والجياذ ، والباعة الجائلين والمغنين فى الطرقات ، فى ضجيج الحياة وفى الإحساس بها . فإذا أراد المرء مكاناً أهدأ وهواء أنقى فى وسعه أن يمشى الهويناً فى حديقة سانت جيمس ، أو يتطلع إلى السيدات الفاتنات يطوحن تنانيرهن الفضفاضة ذات اليمين وذات الشمال ويعرضن أحذيتهن الحريرية فى البلبل . وفى الصباح يستطيع المرء شراء الحليب الطازج من فتيات يحابن الأبقار على عشب الحديقة . وفى المساء قد

يجوس كبوزويل بحثاً عن فتاة من بنات الهوى أو ينتظر هبوط الليل الذى يستر كثرة من الأوزار . وأكثر بعداً ناحية الغرب يستطيع أن يركب جواداً أو عربة فى هايد بارك . ثم هناك منتجات اللهو الكبرى . فوكسهول بحشودها الزاهية ، وأفدنة حدائقها ومماشيا المشجرة ، ورائلاج بقاعها الفسيحة المدرجة ، حيث عزف موسارت وهو طفل فى الثامنة .

وكان للفقراء مشارب للجنة . للطبقتين الوسطى والعايا أندية ، وللجميع حانات . فكان هناك حانة « البورز هد » و « الماير » حيث كان يتعشى الخان الأكبر (جونسن) . وحانة الجلوب الحبيبة إلى قلب جولدسمث . وحانة الشيطان التى رفعت عن نفر من مشاهير الرجال من (بن) جونسن إلى (صموئيل) جونسن . وكان هناك مكانان باسم « تيركس هد » (رأس التركى) أحدهما حانوت قهوة فى الستراىند ، والآخر حانة فى شارع جرارد . أصبحت مقراً لـ « النادى » . وكانت النساء يحتلفن إلى الحانات كالرجال ، وبعضهن معروضات للبيع . وفى أندية كنادى هوايت أو نادى المالك (الذى أصبح نادى بروكس) كان سراة القوم يستطيعون الشراب ولعب القمار فى خلوة مع نفر مختار . ثم هناك المسارح بكل ما تتيحه منافساتها من إثارة ويبعثه نجومها من تأتى وبهاء .

وقامت المواخير على مقربة من المسارح . فشكا الوعاظ من أنه « إلى التمثيلات والفواصل الموسيقية المذكورة تختاف عادة أعداد غفيرة من سفلة القوم وعاطليهم وشذاذهم ، وبعد أن ينتهى التمثيل ينطلقون إلى بيوت الدعارة » (٨٢) . وكانت أكثر الطبقات التى فى طاقتها الاختلاف إلى المومسات تتعامل معهن تعامل الزبائن الدائمين ، وتجمع على الأغضاء عن هذه العادة باعتبارها لا محيص عنها فى الحالة الراهنة لتطور الذكور . وكان هناك بعض الغوانى الملونات اللاتى اجتذبن الزبائن حتى من طبقة النبلاء . ويصف بوزويل اللورد بيمبروك وقد أنهكت قواه بعد ليلة قضائها فى ماخور للسود (٨٣) .

واستمر وجود الأحياء الفقيرة المزدهمة ، ولم يكن أمراً غير عادى أن تعيش أسرة من أسير الطبقات الدنيا فى حجرة واحدة من حجرات المبنى .

وكان أفقر القوم يسكنون أقباء رطبة غير مدفأة ، أو عليات يتسرب الماء من أسطحها ؛ والبعض ينامون على أسرة في الجدران وفي مداخل البيوت أو تحت السقائف . قال جونسن للآنسة رينولدز إنه « وهو عائد إلى مسكنه نحو الساعة الأولى أو الثانية صباحاً كثيراً ما رأى أطفالاً فقراء ينامون على العتبات والأكشاك وأنه ألف أن يضع بنفسات في أيديهم ليشتروا بها فطورهم »^(٨٤) . وأخير قاض جونسن أن أكثر من عشرين لندنياً في الأسبوع يموتون جوعاً^(٨٥) . وكانت الأوبئة تنفث في المدينة بين آن وآن . ومع ذلك ازداد سكانها من ٦٧٤,٠٠٠ عام ١٧٠٠ إلى ٩٠٠,٠٠٠ في ١٨٠٠^(٨٦) . ربما بسبب هجرة الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ، وبسبب نمو التجارة والصناعة .

وغص التيمز وأرصفتها بالسفن التجارية وشحناتها . كتب معاصر يقول « إن سطح التيمز بأكمله يغص بصغار السفن ، والصنادل ، والزوارق ، والمراكب الخفيفة ، العادية الرائحة ، وتحت الكبارى الثلاثة غابة من الصواري تمتد أميالاً بطولها حتى ليخيل إليك أن سفن العالم كله قد احتشدت هنا »^(٨٧) . وقد أضيف كبريان جديدان في هذه الفترة : بلاكفرايرز وباترسى . وقد رسم المصور كناناليتو الذي قدم إلى لندن من البندقية (١٧٤٧ و ١٧٥١) مناظر بهية للمدينة وللنهر ؛ وأتاحت النسخ المطبوعة من هذه المناظر للأوربيين المتعلمين التعرف على نمو لندن التي أصبحت أهم ثغر في العالم المسيحي .

ولم يعرف التاريخ منذ أيام روما القديمة مدينة بلغت هذه المبلغ من الاتساع والثراء والتعقد (باستثناء القسطنطينية) . ففي قصر سانت جيمس الملك والملكة وحاشيتهما . والبلاط ومراسمه ؛ وفي الكنائس الأساقفة السمان يتمتمون بعبارات منومة . والمصلون المتضعون يستريحون من عناء الواقع ويطلبون العون الإلهي . وفي البرلمان اللوردات وأعضاء مجلس العموم يمارسون لعبة السياسة ويبادقهم أرواح البشر ؛ وفي قصر العمدة يضع العمدة ومعاونوه ذو البزة الرسمية اللوائح الخاصة بالكنائس والمواخير ، ويتساءلون عن السبيل إلى السيطرة على الوباء القادم أو شغب الغوغاء التالي ؛ وفي الشكنات الجنود يقامرون ويفسقون وينجسون الهواء ؛ وفي الحوانيت.

الخياطون يقوسون ظهورهم ، والسباكون يستنشقون الرصاص ، والصاغة والسماعاتيون والأساكفة والحلاقون والخمارون يهرولون لتلبية مطالب السيدات والسادة ؛ وفي جراب سترت أو فليت سترت الكتاب المأجورون يتملقون زبائنهم ، ويسقطون الوزارات ، ويتحدون الملك ؛ وفي السجون رجال ونساء يموتون بالعدوى أو يرقون إلى جرائم أشد نكرا ؛ وفي المباني الحقيرة والأقباء قوم جيعاء عاثرو الخط مهزومون يستكثرون من أشباههم في شرق وبغير توقف .

ورغم هذا كله أحب جونسن وكاتب سيرته لندن . فقد أعجب بوزويل بـ « الحرية والنزوات . . . والشخصيات العجيبة ، وبما في دنيا التجارة واللهو من شدة الزحام والعجلة والصخب ، وبالعدد الغفير من الملاحى العامة ، والكنايس الرفيعة والأبنية الباذخة ، ورضى المرء وهو ينفذ ما يحلو له من خطط دون أن يعرفه أو يلحظه أحد » (٨٨) — هذا الانغمار في الزحام انغماراً حامياً حاناً للشخصية المجهولة . أما جونسن الذى استطاب وعمى « التدفق الشديد لحديث لندن » فقد حسم الأمر بسطر واحد كان حجة في يابه « إذا مل إنسان لندن فقد مل الحياة » (٨٩) .

الفصل الثالثون

عصر رينولدز

١٧٥٦ - ٩٠

١ - الموسيقيون

أولعت إنجلترا بالموسيقى الرائعة ، ولكنها عجزت عن إنتاجها .
لقد تكاثرت تذوقها . ففي اللوحة التي رسمها زوفاني « أسرتا كوبر وجور »
نرى الدور الذي لعبته الموسيقى في البيوت الراقية . ونسمع عن مئات المغنين
والعازفين الذين جمعوا معاً لحفلة تخليد ذكرى هندل في ١٧٨٤ . وقد
أعلنت « المورننج كرونكل » في عدد ٣٠ ديسمبر ١٧٩٠ إعلاناً للشهيرة
التالية عن سلسلة من « حفلات موسيقية يؤديها المحترفون » ، وسلسلة أخرى
من « حفلات للموسيقى القديمة » ، و « حفلات موسيقية للسيدات المتبرعات »
في أمسيات الآحاد ، وعن أوراتوريوات مرتين في الأسبوع . وست حفلات
حفلات للموسيقى السمفونية يقودها المؤلف بشخصه - جوزف هايدن^(١) .
وهذا ينافس ثروة لندن الموسيقية اليوم . وكما أن البندقية ألقت من اليتامى
فرقاً للإشاد ، فكذلك كان « أطفال المبرة » في كنيسة القديس بولس
يحيون حفلات موسيقية سنوية كتب هايدن عنها يقول :

« لم تؤثر في أى موسيقى أخرى في حياتي هذا التأثير الشديد »^(٢) ،
وكانت الحفلات الموسيقية والأوبرات الخفيفة تقدم في قاعة رانيلاج وفي
حدائق ماريلبون . وقدمت اثنتا عشرة جمعية من هواة الموسيقيين حفلات
عامة . وذاع حب الانجائز للموسيقى ذيوماً اجتذب الكثير من العازفين

والمؤلفين إلى الجزيرة — جيمينياني . وموتسارت . وهايدن . ويوهان كرسطيان باخ ؛ ومكث فيها باخ ولم يرحل عنها .

وفتر الميل إلى الأوبرا الجادة في إنجلترا بعد أن أنخمها هندل . ثم عاد شيء من التحمس لها حين استهل جوفاني مانتزولي موسم ١٧٦٤ بأوبرا « اتسيو » ، وقد وصف بيرني صوته بأنه « أقوى وأضخم سوبرانو سمع على مسرحنا منذ فارينيللي »^(٣) وكان هذا على ما يبدو آخر انتصار للأوبرا الإيطالية في إنجلترا في ذلك القرن . فلما احترقت دار الأوبرا الإيطالية في لندن (١٧٨٩) اغتبط هوراس ولبول وتمنى ألا يعاد بناؤها أبداً^(٤) .

وإذا كان العهد قد خلا من المؤلفين الموسيقيين الجديرين بالذكر فإنه أنجب مؤرخين موسيقيين بارزين صدرت أعمالهما في ذات السنة (١٧٧٦) « سنة العجائب » التي ظهر فيها كتاب « اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » و « ثروة الأمم » . فضلا عن الإعلان الأمريكي للاستقلال . فكتاب السرجون هوكنز ذو الأجزاء الخمسة « التاريخ العام لعلم الموسيقى وممارسته » عمل ينيء عن دراسة مدققة . ومع أنه هو نفسه لم يكن موسيقياً (إذ كان محامياً عاماً ثم قاضياً) فإن معاييرهِ ثبتت وسط تقلبات الرأي الناقد . أما المؤرخ الثاني « تشارلز بيرني » فكان عازف أرغن في كاتدرائية القديس بولس وأكثر معلمي الموسيقى زبائن في إنجلترا . وقد أكسبته طلعته الوسمية وشخصيته المحبوبة فضلاً عن ثقافته المتعددة صداقة جونسن وجاريك وبيرك وشريدان وجيمون ورينولدز — الذي رسم له لوحة جذابة دون أن يتقاضى عنها أجراً^(٥) . وقد جاب أرجاء فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع المواد لكتابه « التاريخ العام للموسيقى » . وتكلم كلام خبير على المؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يومها على قيد الحياة . وحوالي ١٧٨٠ قال إن « شيوخ الموسيقيين يشكون من غلو شبابهم ، وشبابهم يشكو من جناف الشيوخ وخشونتهم »^(٦) .

٢ ... المعمار يون

اشتبك البنائون الانجليز الآن في منافسة ساخنة بين الإحياء القوطي والإحياء

الكلاسيكي . ذلك أن بهاء الكندياثيات القديمة ، وفخامة الزجاج الملون الأتارية ، والأطلال المكسوة باللبلاب والمتخلفة من أديرة العصر الوسيط في بريطانيا ، كل أولئك حفز الخيال ليصور العصور الوسطى في صورة الكمال . وتوافق مع الانتقال الرومانتيكي المتزايد على طراز الثنائيات الكلاسيكية ، والأعمدة الجامدة ، والقواصر الثقيلة . فاستخدم هوراس ولبول سلسلة من معاري المرتبة الثانية ليعيدوا بناء بيته « ستروبري هل » في توبكنام بطراز وحلية قوطيين (١٧٤٨ — ٧٣) ، وأنفق أعواماً من الاهتمام البالغ ليجعل من بيته الحفيظ على الطراز المضاد للطراز البلاديوى . وكان يضيف إليه الحجرات عاماً بعد عام حتى اكتمل له منها اثنتان وعشرون وبلغ طول إحداها — وهى « قاعة الفنون » التى ضمت مجموعات تحفه — خمساً وستين قدماً . وغلب عليه استعمال الشرائع الخشبية المكسوة بالحص بدلا من الحجر . ويتضح لنا — حتى من أول نظرة — ما هذا الطراز من هشاشة قد تغتفر فى الحاية الداخلية ولكنها لا تغتفر فى البناء الخارجى . وقد وصف سلوين قصر ستروبري هل هذا بأنه « قوطى هش مثل كعكة الزنجبيل » (٧) ، وقدر ظريف آخر أن ولبول عمر بعد تهم ثلاثة مجموعات من الأسوار المفرجة التى (٨) اقتضى الأمر ترميمها المرة بعد المرة .

على أن بلاديو وفروفيوس ظلا رغم هذه التجارب الرين الحارسين للعمارة الانجليزية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كما كانا فى نصفه الأول . وقد تدعت الروح الكلاسيكية بفضل الحفائر التى أجريت فى هر كولايوم وبومبي ، وذاعت بفضل الأوصاف المنشورة عن الأطلال الكلاسيكية التى عثر عليها فى أثينا وتدمر وبعليك . ودافع السروليم تشيمبرز عن رأى البلاديوى فى كتابه « بحث فى العمارة المدنية » (١٧٥٩) وعزز النظرية بالتطبيق حين أعاد تشييد « سومرست هاوس » (١٧٧٦ — ٨٦) بواجهة عريضة فيها النوافذ بطراز النهضة والأروقة الكورنثية المعمدة .

ثم وفدت من اسكتلنده أسرة لامعة من اخوة أربعة هم جاك وروبرت وجيمس ووليم آدم ليهيمنوا على العمارة الانجليزية فى نصف القرن الذى نحن بصددده . وقد ترك روبرت أقوى البصمات على جيله . فقد أنهى دراسته

في جامعة إدنبره ، ثم أنفق ثلاث سنين في إيطاليا حيث التقى بـبرانيزي وفنكلمان . وقد لاحظ أن القصور الخاصة التي امتدحها فتروفوس قد اختفت من روما ، وانتهى إليه أن واحداً منها مازال سليماً نسبياً ، وهو قصر دقلديانوس في سبالاتو (وهي الآن سبليت في يوغوسلافيا) فأتخذ سمته إلى تلك العاصمة الدماشية العتيقة ، وأنفق خمسة أسابيع يقيس ويرسم ، ثم ألقت السلطات القبض عليه ظناً منها أنه جاسوس ، ثم أفرج عنه ، وألف كتاباً عن أبحاثه ، وقفل إلى إنجلترا وقد عقد العزم على استعمال الطراز الرومانية في العمارة البريطانية . ففي ١٧٦٨ استأجر هو وأخوته مساحة من الأرض المنحدرة بين الستراوند والتمز لتسعة وتسعين عاماً ، وشيدوا فوقها « أدلني تراس » الشهير — وهو حي من شوارع بدعة وبيوت جميلة فوق جسر تدعّمه البواكي والعقود الرومانية الضخمة ؛ هنا عاش بعض الدراميين الكبار ، من جاريك إلى برنارد شو . كذلك صمم روبرت بعض القصور المشهورة ، مثل قصر « بيوت » المسمى لوتن هو (أى بيت لوتن ، على ثلاثين ميلاً شمالاً لـندن) . قال جونسن « هذا أحد الأماكن التي لا أندم على أنني جئت لأشدها »^(٩) ، ومعروف أنه كان رجلاً عسير الإرضاء .

وقد انتصرت الطراز الكلاسيكية بوجه عام على الأحياء القوطي ، وشيد كثير من قصور هذا العهد الكبرى ، مثل كارلتن هاوس بلندن ، وهيرود هاوس بيوركشير ، بالطراز الكلاسيكي الحديث . ولم يعمر ولبول ليش عودة الطراز القوطي مكللاً بالنصر والبهاء في داري البرلمان (١٨٤٠ — ٦٠) .

٣ — ودجود

لم يقنع الأخوة آدم بتصميم المباني وما احتوته في داخلها ، بل صنعوا بعضاً من أجمل أثاث العصر . غير أن ألبع الأسماء في هذا المضمار هو اسم توماس تشينديل ، الذي نشر في ١٧٥٤ وهو في السادسة والثلاثين كتاب « مرشد الجنتلمان ونجار الأثاث » ، الذي كان لفن صناعة الأثاث ماكانه

كتاب رينولدز «أحاديث» لفن التصوير . وكانت المنتجات التي تفرد بها هي المقاعد ذات «الظهور الشريطية» الرقيقة والقوائم الجلدية . ولكنه أبهج النبلاء والنبيلات في عهد جورج الثالث كذلك بالخزائن ، والمكاتب ، والمناضد ، وحواليب الكتب ، والمرايا ، والموائد ، والأسرة ذات الأعمدة الأربعة - وكلها أنيق ، وأكثرها مبتكر ، هش رقيق عموماً .

وظلت هذه الرقة طابع فن منافسه جورج هبلوايت ، وخلفهما توماس شيراتون . وبدأ أنهم اعتنقوا نظرية بيرك التي زعمت أن الجمال يجب أن يكون هشاً رقيقاً ، في الفن كما هو في الحياة . أما شيراتون فقد دفع الخفة والرشاقة إلى الذروة ، وتخصص في الخشب الملون وغيره من المنتجات البديعة التعرج . وكان يصقلها في أناة ، ويلونها في رقة ، ويكفنها أحياناً بزخارف معدنية . وقد أورد في «قاموس الأثاث» (١٨٠٢) قائمة حوت ٢٥٢ من «كبار صناع الأثاث» يشتغلون في لندن أو قربها . ونافست الطبقات العليا في انجلترا الآن نظائرها الفرنسية في صقل أثاثها وتجهيزاتها الداخلية .

وكانوا أسبق من الفرنسيين في تصميم الحدائق والبساتين . وقد لقب لانسلوت براون « Capability » (أي القدرة) لأنه كان يفتن بسرعة كبيرة للقدرات التي تتيحها أرض زبونه للتصميمات الغريبة - والغالية ؛ وهذه الروح صمم الحدائق في بلنهم وكيو . واتجهت موضوعة الحدائق الآن إلى الطراز الدخيل ، أو غير المتوقع ، أو الهبي المنظر . واستعملت نماذج مصغرة من الهياكل القوطية والباجودات الصينية زخارف خارجية ؛ وأدخل السروليم تشيمبرز في زخرفة حدائق كيو (١٧٥٧ - ٦٢) الهياكل القوطية ، والجوامع المغربية ، والباجودات الصينية (المتعددة الأدوار) . وكانت الجرار الجنائزية حلقات محبة للحدائق ، تضم أحياناً رفات أصدقاء رحلوا عن هذه الدنيا .

أما فنون الخزف فقد تطورت تطوراً كاد يكون ثورياً . فكانت انجلترا تنتج زجاجاً لا يقل جمالا عن أي زجاج مصنوع في أوروبا^(١) . وكانت مصانع الخزف في تشلسي وداربي تصنع الأشكال المبهجة بالبرسلان ، بطراز سيفر عادة . ولكن أنشطة مراكز الخزف كانت «المدن الخمس»

فى ستافورد شير - لاسيما بير سليم وستوك - أن - ترنت . وقبل مجىء جوسيا ودجود كانت هذه البضاعة فقيرة فى طرائفها ومكاسيها ؛ وكان الخزافون اجلافاً جهلة ، قذفوا وسلى بالوحل حين وعظهم أول مرة ، وكانت بيوتهم عششاً وسوقهم تسدها طرقا لا سبيل إلى اختراقها . وفى ١٧٥٥ اكتشفت فى كورنول رواسب غنية من الكاولين --- وهو طفل أبيض قاس كالذى يستعمله الصينيون ؛ ولكن الموقع كان يبعد مائتى ميل عن المدن الخمس .

وقد بدأ ودجود وهو فى التاسعة من عمره (١٧٣٩) العمل على دولاب الخزاف . ولم يتلق من التعليم إلا القليل ، ولكنه قرأ كثيراً . وأهمته دراسته لكتاب « كايوس » « مختارات من الآثار المصرية والآثورية واليونانية والرومانية والغالية » (١٧٥٢ - ٦٧) الطموح إلى تقليد الأشكال الخزفية الكلاسيكية ومنافستها . وفى ١٧٥٣ بدأ العمل بمصنعه الخاص فى « أبنى هاوس » ، وبني حوله قرب بير سليم مدينة أطلق عليها اسم إتروريا . وبهمة المحارب وبصيرة رجل الدولة شن حرباً على الظروف التى عوقت هذه الصناعة . ورتب وسيلة أفضل لنقل الكاولين من كورنول إلى مصانعه ، وشن حملة لإصلاح الطرق وشق القنوات ، وأسهم فى دفع نفقاتها ، وصحت نيته على أن يفتح مسالك من المدن الخمس إلى العالم . وكانت سوق الخزف الجميل الانجليزية حتى ذلك العهد يسيطر عليها خزف مايسن وديلفت وسيفر ، فاستولى ودجود على السوق المحلية ، ثم على جانب كبير من السوق الأجنبية ، وما وافى عام ١٧٦٣ حتى كانت مصانع خزفه تصدر كل عام ٥٥٠,٠٠٠ قطعة لأوروبا وأمريكا الشمالية . وأوصت كاترين الكبرى على طقم للمائدة من ألف قطعة .

وبحلول عام ١٧٨٥ كانت مصانع خزف ستافورد شير تشغل ١٥,٠٠٠ عامل . وأدخل ودجود تخصص العمل ، وأرسمى الانضباط فى المصنع ، ودفع أجوراً حسنة ، وبني المدارس والمكتبات . وكان يصر على جودة الصناعة ، وقد وصفه كاتب ترجم له قديماً بأنه كان يدب فى أرجاء ورشته عه ساقه الخشبية ، ويحطم بيده كل إناء يظهر به أى عيب صغير ؛ وفى مثل هذه الحالات كان يكتب بالطباشير عادة على مقعد الصانع المهمل هذا

التحذير « هذا لا يرضى جوسيا ودجود »^(١١) وابتكر العدد الدقيقة ، وجلب الآلات البخارية لتحريك مكثاته . ونتيجة لإنتاجه الواسع للخزف التجارى ، بطل الاستعمال العام لمعدن البيوتر فى انجلترا . وتفاوت إنتاجه بين مواسير الفخار لمجارى لندن ، وأبدع وأدق الأوانى للمملكة شارلوت ، وكان يقسم أوانيه المعروضة للبيع إلى « النافع » و « الزخرفى » ولصنع الخزف الزخرفى كان يقلد النماذج الكلاسيكية فى غير موارد ، كما يرى فى فازاته العتيقة الفاخرة ، ولكنه طور أيضاً أشكالاً من بنات أفكاره ، خصوصاً خزف الشبب الشهير ذا الأشكال الإغريقية المنقوشة نقشاً رقيقاً باللون الأبيض على أرضية زرقاء .

وقد جاوز اهتمامه وحاسته الخزف بكثير . فهدته تجاربه التى أجراها للعثور على أخلاط من التراب والكيماويات أكثر إرضاء له ، وعلى طرائق أفضل للحرق ، إلى اختراع « البيرومتر » لقياس درجات الحرارة المرتفعة . وإتاح له هذا الاختراع وغيره من البحوث عضوية الجمعية الملكية (١٧٨٣) وكان عضواً سابقاً فى جمعية إلغاء الرق ، وقد صمم ختمها وصنعه . وقام بحملة لتعميم حق التصويت للذكور والإصلاح البرلماني ، وناصر المستعمرات الأمريكية من بداية ثورتها إلى نهايتها . ورحب بالثورة الفرنسية بشيراً بفرنسا أسعد حالاً وأعظم رخاء .

وقد هدته فطنته إلى تكليف جون فلاكسمان بعمل الرسوم الجديدة المهذبة لخزفه ومن هذه المهمة انتقل فلاكسمان إلى توضيح أعمال هومر وأنيبلوس ودانتى برسوم قائمة على أساس من فن رسامى الفازات اليونان . وهى رائعة فى خطوطها ، ولكنها لافتقارها إلى الجسم واللون لاتزيد فى جاذبيتها عن جاذبية المرأة مجردة من اللحم . وانتقل بعض هذا البرود إلى تماثيل فلاكسمان ، كما نرى فى تمثاله للنلسن فى كتبتراثية القديس بولس ، ولكنه فى تمثال « كيويبيد وما ريبسا »^(١٢) الرخامى حقق أشكالاً فابضة بالحياة فى عمل من أفضل تقليدات التماثيل الكلاسيكية . ثم أصبحت التماثيل الجنازية

بجال تخصصه ، فأقامها لتشارترن في برستل ، ولرينولدز في كنتدراثة القديس بولس ، ولباولي في كنيسة وستمنستر . وقام في انجلترا بالدور الذى قام به كانوفا في إيطاليا — وهو المحاولة الكلاسيكية الحديثة للتقاط رشاقة براكستيليس الناعمة الشهوانية من جديد .

وهناك جمال أقل ، وحياة أكثر ، في التماثيل النصفية التى نحتها جوزف نولكنز لأعلام الإنجليز . وقد ولد في لندن لأبوين فلمنكيين ، ودرس فيها حتى بلغ الثالثة والعشرين ، ثم قصد روما ، حيث عاش واشتغل عشر سنين يبيع العاديات الأصلية والمزيفة^(١٣) . فلما عاد إلى انجلترا ، نحت تماثلاً نصفياً لجورج الثالث وفق فيه توفيقاً لم يلبث أن كثر الطلب عليه . فجلس إليه ستيرن وجاريك وفوكس وبنت الثانى ، كذلك جلس إليه جونسن ، وكان في ذلك ما أسفوا عليه أحياناً ، لأن نولكنز لم يجامل أحداً في نحت تماثله . وقد سخط جونسن قائلاً ان المثال أظهره وكأنه تعاطى مسهلاً^(١٤) .

كان العصر عصر حفارين شعبيين ، وكان الجمهور شديد الاهتمام بالشخصيات القوية التى وطئت مسرح السياسة وغيره من المسارح ، وقد نثرت في طول انجلترا وعرضها نسخ مطبوعة من صور أشكالهم ووجوههم وكادت رسوم جيمس جلرى الكاريكاتورية تبلغ في أذاها مبلغ رسائل جونيوس ؛ وقد اعترف فوكس بأن هذه الرسوم أنزلت به « أذى أكثر من المناقشات في البرلمان »^(١٥) . وصور توماس رولاند سن الرجال وحوشاً ، ولكنه رسم أيضاً مناظر طبيعية مبهجة ، وأضحك أجيالا عديدة بكتابه « سياحات الدكتور سنتاكس » . أما بول ساند باى وإدموند داير فقد طورا الرسم بالألوان المائية حتى كاد يبلغ القمة في الصقل .

وكان البريطانيون العائدون من سياحتهم الكبرى (في أوروبا) يجلبون معهم نسخ الرسوم المطبوعة والمحفورات والصور الزيتية وغيرها وغيرها من التحف ، وانتشر تذوق الفن ، وتكاثر الفنانون ، ورفعوا هاماتهم ، وأجورهم ، ومكانتهم في المجتمع ، وأنعم على بعضهم بلقب الفروسية . ومنحت جمعية تشجيع الفن والصناعة والتجارة (١٧٥٤) المبالغ الطيبة

جائزة للفنانين الوطنيين ، ونظمت المعارض . وعرض المتحف البريطاني مجموعاته في ١٧٥٩ . وفي ١٧٦١ أفتتحت جمعية قائمة بذاتها للفنون معارض سنوية . وما لبثت أن انقسمت إلى محافظين ومجددين . فألف المحافظون أكاديمية لندن الملكية بمرسوم و ٥,٠٠٠ جنيه من جورج الثالث . وجعلوا جوشوا رينولدز رئيساً لها ثلاثة وعشرين عاماً . وهكذا بدأ العصر العظيم للتصوير الانجليزي .

٤ — جوشوا رينولدز

وكان قائد المسيرة هور تشردولسن ، الذي ولد لقسيس ويازي ؛ وقدم إلى لندن في الخامسة عشرة من عمره ، وكسب قوته برسم الأشخاص . وفي ١٧٤٩ قصد إيطاليا ، وفيها وفي فرنسا استوعب تراث نيقولا بوسان وكلود لوران ، وتعلم أن يؤثر تصوير الأحداث التاريخية والمناظر الطبيعية على تصوير الأشخاص . فلما عاد إلى انجلترا رسم مناظر طبيعية مشرقة الجو ولكنها مكدسة بالأرباب والربات وغيرها من الأطلال الكلاسيكية . وتميزت بالجمال صورة « نهر التمز في تويكنام » (١٦) التي تلتقط روح نهار صيف انجليزي — المستحمون يسترخون ، والأشجار والزوارق الشراعية لا يكاد يحركها النسيم المترقق . غير أن الانجليز لم يقبلوا على شراء صور المناظر الطبيعية ؛ فقد أرادوا لوحات تخلد وجوههم في عنفوانهم . ولكن ولسن أصر على رأيه ، وعاش فقيراً في حجرة نصف مؤثثة في توتنام كورت رود ، وخفف مرارته بالشراب . وفي ١٧٧٦ أنقذته الأكاديمية الملكية إذ عينته أميناً لمكتبتها . وخلف له موت أخ له ثروة صغيرة في وياز ، فأنفق سنيه الأخيرة هناك مغموراً حتى لقد أغفلت الصحف كلها نبأ موته (١٧٨٢).

وعلى النقيض من هذا كانت حياة رينولدز في فنه مهرجانات موصولة من أسباب التشريف والثراء . فقد أسعده الحظ بمولده (١٧٢٣) لقسيس ديفونشيري يدير مدرسة لاتينية ويعشق الكتب التي عثر بينها على « مقال في فن فنون التصوير » (١٧١٩) من تأليف جونانان رتشردسن ، وقد ألهمه الكتاب رغبة في أن يكون مصوراً ووافقه أبواه العطفان على اختياره ارضاء

له ، فأوفداه إلى لندن ليتعلم على توماس هدسن ، وهو رجل ديفونى تزوج بابنة رتشر دسن وكان يومها أروج مصور للأشخاص فى إنجلترا . وفى ١٧٤٦ مات أبوه ، وأقام الفنان الشاب مع أخته فى بلدة هى اليوم بليست . فى ذلك الثغر الشهير التتى بالملاحين وضباط البحرية وصورهم وكون صداقات غالية . فلما كلف الكبتن أوجستس كيبيل بحمل الهدايا إلى داي الجزائر ، عرض على جوشوا أن ينقله مجانياً إلى مينورقة . لأنه علم أن الشاب يتوق للدرس فى إيطاليا . ومن مينورقة شق رينولدز طريقه إلى روما (١٧٥٠) .

وأقام بإيطاليا ثلاث سنين يرسم وينسخ الصور . وجهد ليكتشف الطرق التى استعملها ميكلائجو ورفائيل فى حذقهما للخط واللون والضوء والظل والنسيج والعمق والتعبير والمزاج . وقد دفع الثمن . فبينما كان ينسخ رفائيل فى بعض حجرات الفاتيكان غير المدفأة أصيب ببرد وأنه أضر بأذنه الداخلية . ثم انتقل إلى البندقية . حيث درس تيسيانو ، وتنتوريتو ، وفرونيزى ، وتعلم كيف يضفى وقار الأزواج البنادقة على أى إنسان يصوره . وفى طريق عودته إلى وطنه توقف شهراً فى باريس . ولكنه وجد فى فن التصوير الفرنسى المعاصر من الأنوثة ما لا يسيغه ذوقه . وبعد أن قضى شهراً فى ديفون استقر به المقام مع أخته فرانسيس فى لندن (١٧٥٣) ، وهناك أقام ما بقى من عمره .

ولتو تقريباً استرعى الأنظار بصورة أخرى للكبتن كيبيل (١٧) -- وسيماً متحمساً . أمراً ناهياً ، هنا أعيد التقليد الفانديكى حتى تصبح اللوحات صوراً متألفة للارسقراطية . ولم يمضى عامان حتى بلغ عدد زبائنه ١٢٠ زبوناً . واعترف به القوم أبرع مصور فى إنجلترا . وكان عيبه التيسير . فقد أصبح شديد الاستغراق والخبرة بتصوير الأشخاص حتى افتقد الوقت والمهارة لرسم الصور التاريخية أو الأسطورية أو الدينية . وقد أجاد رسم بعضها . مثل « الأسرة المقدسة » و « رباب الحسن الثلاث » (١٨) ولكن الهامة لم يكن فيها . كذلك لم يكن بزائنه حاجة إلى هذه الصور ، فقد كانوا كاهنهم تقريباً بروتستانتا يستنكرون الصور الدينية لأنها تشجع عبادة الأوثان فيما يزعمون ؛ وقد أحبوا الطبيعة . ولكنهم أحبوا ذيلًا تلاحق به أشخاصهم

أو رحلات صيدهم ، وكانوا يتمنون أن يروا أنفسهم دائمى الشباب على جدرانهم ، مخلفين انطباعاً قوياً على ذرائعهم . ومن ثم أقبلوا على رينولدز ، ألفان منهم عدداً ، وأرسلوا إليه أزواجهم وأبناءهم ، وأحياناً كلابهم . ولم ينصرف أحد من هؤلاء حزيناً ، لأن خيال رينولدز اللطيف استطاع دائماً أن يعوضهم عما حرمتهم الطبيعة .

ولم يحدث على مدى التاريخ أن حفظ جيل أو طبقة حفظاً كاملاً كذلك الذى تراه فى لوحات رينولدز الباقية وعددها ٦٣٠ « فهنا رجال الدولة الذين عاشوا فى ذلك العصر المفعم حيوية : هنا بيوت فى مهرجان من اللون (١٩) ، وبيرك فى اكتئاب عاجله وهو بعد فى الثامنة والثلاثين . وفوكسن مستكراً ، حزيناً ، هماماً فى الرابعة والأربعين . . . وهنا الكتاب : ولبول ، وستيرن ، وجولد سمث (٢٠) وهو يبدو حقيقة مثل « بل المسكين » ، وجبون بوجنتيه الممثلتين اللتين حسبتهما المركيزة دودفان — التى لم تبصر إلا بيديها — مقعدة طفل « (٢١) وبوزويل (٢٢) فخوراً كأنه خلق جونسن ، ثم جونسن نفسه ، مصوراً فى حب خمس مرات ، وجالساً فى ١٧٧٢ إلى رينولدز يرسم له أشهر ما رسم من صور الرجال (٢٣) . وهنا أعلام المسرح : جاريك « نهباً بين ربى التراجيديات والكوميديات المتنافستين » ، ومارى روبنسن فى دور برديتا ، والسيدة آبتن فى دور ربة الكوميديا ، وساره سيدونز فى دور ربة التراجيديات (٢٤) ، وقد نقد أحد المتحمسين رينولدز سبعة جنيه (١٨،٢٠٠ دولار ؟) ثمناً لهذه الرائعة الفاخرة .

ويغلب على هذا المتحف الذى لا ضريب له كثرة عدد النبلاء — أولئك الذين أعطوا نظاماً اجتماعياً لشعب نزاع إلى الفردية ، واستراتيجية ظافرة للسياسة الخارجية ، ودستوراً مقيداً للملك فانظر إليهم أول الأمر فى صباهم الحلو . كصورة توماس استر ذى الاثنى عشر ربيعاً — هذه الصورة التى رسمها رينولدز واسمها « الصبي الأسمر » تتحدى صورة « الصبي الأزرق » التى رسمها جينيزبرو . ثم ورمت خصوص الكثيرين منهم بعد أن ولت أيام انشباب الخطرة ، مثل أوجسطس كيبيل ذاته الذى كان رائع السمى وهو كبىن فى ١٧٥٣ ، ولكنه انتفخ كثيراً وهو أميرال فى ١٧٨٠ . وقد وفق

وينولدز برغم هذه البدانات ، وبرغم الحرير والمخرمات التي اكتسبها ، في تحويل الشجاعة والكبرياء غير الملموستين إلى لون وخط . نخذ مثلاً جسم اللورد هينفيلد المتن وشخصيته القوية ، يبدو جسوراً في اللون الأحمر البريطاني ، ممسكاً بالمفتاح إلى جبل طارق الذي دافع عنه دفاعاً مستميتاً ضد حصار الأسبان والفرنسيين الذي امتد أربعة أعوام .

وهكذا تنتهى بنا المسيرة إلى أولئك الرباب بين النساء « الدياي جينايكون » اللأئي وجدهن رينولدز في زوجات النبلاء البريطانيين وبناتهم . وإذا كان عزباً فقد كان حراً في أن يجهن جميعاً بعينه وفرشاته ، ويقوم اعوجاج أنوفهن ، ويهذب قسماهن ، ويرتب شعورهن الهاثشة ، ويخلع عليهن بهاء وجلالا بلباس فضفاض رقيق في خفة الزغب ، خليق بأن يجعل فينوس نواقة إلى كساء عريها . فانظر إلى الليدى اليزابث كليل ، مركيزة تافيستوك ، وقد ارتدت ثياب القصور التي لبستها قبل سنين يوم كانت لإشبينه للعروس الملكة شارلوت ، ترى ماذا تكون بغير تلك الطيات من الحرير الملون تطوق ساقين لا يمكن على أية حال أن تختلفا كثيراً عن ساق زانتيب (زوجة سقراط) ؛ وكان رينولدز أحياناً يجرب ما تستطيع فرشاته أن تصنع بالمرأة وهى في ثياب بسيطة ؛ فصور مارى بروس دوقة رتشموند في عباءة عادية تخطيط رسماً في وسادة (٢٥) ؛ هذا وجه يمكن أن يلم بأحلام فيلسوف . وفي ما يقرب من هذه البساطة في الملابس والصورة الجانبية الملائكية نرى السيدة بوفرى نصغى إلى السيدة كريوى (٢٦) . وكان هناك جمال أعمق حتى من هذا في وجه إيماجلبرت ، كونتيسة مونت ادجكوم ، الهادى الرقيق (٢٧) ، وقد دمرت هذه اللوحة الجميلة بفعل غارات العدو في الحرب العالمية الثانية .

وكان لكل هؤلاء النسوة تقريباً أطفال ؛ لأنه كان جزءاً من التزام الارستقراطية الاحتفاظ بالأسرة والملكية في استمرار لا تنفصم عراه . وهكذا صور رينولدز الليدى اليزابث سبنسر ، كونتيسة مبروك ، مع ابنها ذى السنين الست ، وهو الذى سيصبح فيما بعد اللورد هيربرت (٢٨) ؛ وصور السيدة إدورد بوفرى مع ابنتها جورجيانا ذات السنين الثلاث (٢٩) ؛ وصور هذه الأئنه ، بعد أن أصبحت دوقة ديفونشير (الحسنة المرحطة التي اشترت

بالقبلات أصوات الناخبين لفوكس في حملته لانتخابات البرلمان) مع ابنتها ذات السنين الثلاث ، وهى جورجيانا أخرى أصبحت فيما بعد كونتيسة كارليل (٣٠) .

وأخيراً ، وربما أكثرهن جميعاً جاذبية ، الأطفال أنفسهم ، متحف كامل منهم ، وكلهم تقريباً رسمة متفرداً كروح لانتكرار لها ، وفهمه بتعاطف في تساؤل الصبى وعدم اطمئنانه . ويعرف العالم رائعة رينولدز في هذا القطع ، وهى « عصر البراءة » (٣١) ، التى رسمها في ١٧٨٨ ، فى آخر سننى لبصاره ؛ بيد أن السرعة التى بلغ بها تفهمه للطفولة حدساً يكاد يكون صوفياً يمكن رؤيتها فى لوحه بجمل جمالها عن الوصف رسمها فى ١٧٥٨ للورد روبرت سبنسر وهو فى الحادية عشرة (٣٢) . وبعدها راح يرسم الأطفال فى كل عمر : فى سننها الأولى الأميرة صوفيا ما تيلده ؛ وفى سنته الثانية الغلام وين مع حملة ؛ وفى الثالثة الآنسة باولز مع كلبها ؛ وفى الرابعة الغلام كريوى فى تقليد كامل لهنرى الثامن ؛ وفى نحو هذه السن « الفتاة بائعة الفراولة » (٣٣) ؛ وفى الخامسة ولدا بروميل ، ولیم وجورج (الذى أصبح فيما بعد يلعب « بوبروميل ») ؛ وفى السادسة الأمير ولیم فردريك ؛ وفى السابعة اللورد جورج كونواى ؛ وفى الثامنة الليدى كارولين هوارد ؛ وفى التاسعة فردريك ، إيرل كارليل ؛ وهكذا قدما إلى الشباب والزواج والإنجاب .

وقد اعترف رينولدز بإيثاره زبائنه من ذوى الألقاب ، « ان التدرج البطيء للأشياء بالطبع يجعل الأناقة والتهديب آخر آثار الغنى والساطة » (٣٤) ولا قبل إلا للأغنياء بدفع الجنيهات الثلاثمائة التى يطلبها أجراً عن « لوحة كاملة الطول مع طفلين » (٣٥) . أيا كان الأمر ، فإنه كان قد وقع على منجم ذهب ، وما لبث دخله أن ارتفع إلى ١٦,٠٠٠ جنيه فى العام . وفى ١٧٦٠ اشترى بيتاً فى رقم ١٧ بميدان لسر ، وكان يومها أرقى أحياء لندن ، فأثثه تأثيثاً فاخراً ، وجمع له الصور من صنع قدامى الفنانين ، واتخذ مرسماً له قاعة فى سعة صالة الرقص . وكان للى مركبته الخاصة ، تجملها اللوحات المرسومة والعجلات المذهبة ، وطلب إلى أخته أن تركبها طائفة بالمدينة ، لأنه كان يعتقد أن مثل هذا الإعلان عن الثراء كفيل بأن يأتى بالمزيد (٣٦) .

وفي ١٧٦١ منح لقب الفروسية . وكان يلتقى الترحيب في كل مكان يحل به ضيفاً ، واستضاف هو نفسه أصحاب العبقرية والجمال والنبيل ؛ وكان يلتقى على مائدته من رجال الأدب عدد يفوق ضيوف أى رجل آخر في إنجلنره (٣٧) . وقد أهده جولد سميث قصيدته « القرية المهجرة » وأهداه بوزويل « حياة صموئيل جونسن » . ورينولدز هو الذى أسس في ١٧٦٤ « النادى » ليتيح لجونسن منبراً من نظرائه .

ولا بد أنه أحب جونسن ، فقد رسم له صوراً كثيرة جداً . ورسم لنفسه أكثر . غير أنه لم يوهب وسامة الطلعة ، فقد كان وجهه شديد الحمرة به ندوب من جدري أصابه في طفولته ؛ وكانت ملامحه جافية ، وشفته العليا شوهتها كبوة في مينورقة . وفي الثلاثين رسم نفسه وهو يظلل عينية ويحاول اختراق تيه من الضوء والظل ليلتقط الروح الكامنة وراء وجهه (٣٨) . ثم صور نفسه في الخمسين وهو في رداء الدكتوراه ، لأن جامعة أكسفورد كانت قد منحتة لتوها الدكتوراه في القانون المدني . وأبدع هذه السلسلة صورته المحفوظة في قاعة الصور القومية ، والتي رسمها حوالى ١٧٧٥ ، وفيها يبدو وقد غدا وجهه أكثر تهديباً ، ولكن شعره خطه الشيب ، ويده مضمومة إلى أذنه ، لأنه كان في طريقه إلى الصمم .

وحين أسست أكاديمية الفنون الملكية في ١٧٦٨ أُنخب رينولدز رئيساً لها بالإجماع ، وظل خمسة عشر عاماً يفتتح موسمها بحديث إلى الطلاب . وكان بوزويل من الأصدقاء الذين جلسوا في الصف الأمامي في حديثه الأول (٢ يناير ١٧٦٩) . وقد أدهشت الكثيرين ممن استمعوا إلى هذه الأحاديث بلاغتها الأدبية ، وظن بعضهم أن بيرك أو جونسن كتبها له ، ولكن السر جوشوا كان قد تعلم الكثير من اتصالاته ، وأنشأ له أسلوباً وتفكيراً خاصين . وبالطبع شدد على أهمية الدرس بوصفه أكاديمياً ، واستنكر الفكرة التي تزعم أن العبقرية قد تغنى صاحبها عن التعلم وبذل الجهد الشاق ، وازدري « شبح الإلهام هذا » ، وأصر على أن « الجهد هو الثمن الوحيد للشهرة الراسخة » (٤٠) . ثم انه « ينبغي اغتنام كل فرصة لاستنكار ذلك الرأى السوقي الباطل — وهو

أن القواعد اغلال تقيد العبقرية»^(٤١) ويجب أن يمر التطور الطبيعي للفنان
بمراحل ثلاث :

أولاً : مرحلة الوصاية — تعلم القواعد ، والرسم ، والتلوين ، والتشكيل ؛
ثانياً : دراسة كبار الفنانين الذين نالوا الاستحسان على طول الزمن ،
وبطريق هذه الدراسات « تلتئم الآن أسباب الكمال المتناثرة بين مختلف
الفنانين في فكرة عامة واحدة تقضى إلى تعديل ذوق الطالب وتوسيع خياله ،
والمرحلة الثالثة والأخيرة تحرر الطالب من الخضوع لآى سلطان إلا ما يرى
بنفسه أن العقل يؤيده »^(٤٢) . وعندها فقط ينبغى له أن يجدد ويبدع ،
« فإذا أحسن لإرساء حكمه وإثراء ذاكرته ، استطاع أن يجرب قوة خياله
دون أن يعروه خوف . والعقل الذى درب على هذا النحو يمكنه أن يشبع
رغبته في الحاسة المفرطة ويغامر باللعب على حدود الإغراب الشديد »^(٤٣) .

وكان هوجارث قد رفض « قدامى الأساتذة » ولقبهم « الأساتذة السود » ،
وأشار بتصوير الطبيعة تصويراً واقعياً . أما رينولدز فذهب إلى أن هذه
الخطوة ينبغى أن تكون مجود لإعداد لفن أكثر مثالية . « ان الطبيعة نفسها
يجب عدم الغلو في نقلها . . ومطمح المصور الأصيل لا بد أن يكون أوسع
من هذا . فبدلاً من محاولته الترويح عن البشر بالأحكام الدقيق لتقليداته ،
عليه أن يحاول تحسينها بسمو أفكاره . . . وعليه أن يكافح لبلوغ الشهرة
بأسره للخيال »^(٤٤) . ان كل شئ في الطبيعة ناقص قاصر عن ادراك
الجمال ، وفي صحيحه عيب أو نقص ما ، والفنان يتعلم أن يحذف هذه العيوب
من ابداعاته ، وهو يجمع في مثل أعلى واحد مزايا الكثير من الأشكال
الناقصة ؛ « انه يصصح الطبيعة بذاتها ، وحالتها الناقصة بمحالتها الأكثر كمالاً . .
وهذه الفكرة ، فكرة الحالة الكاملة للطبيعة ، التى يسميها الفنان « الجمال
المثالى » هى المبدأ الرئيسى العظيم الذى تؤدى الأعمال العبقرية طبقاً له . ولكى
يميز الفنان الناقص من الكامل ، والرفيع من الخسيس ، ولكى يدرب الخيال
ويهبه ويرفعه ، يجب أن يثرى نفسه بالأدب والفلسفة ، وبـ « حديث
الرجال المثقفين والمبدعين »^(٤٥) . وكذلك فعل رينولدز .

وفي ١٧٨٢ أصيب بالنقطة ، ثم شفى شفاء جزئياً من إصابته . وواصل التصوير سبع سنين أخرى . ثم غامت عينه اليسرى ، وسرعان ما فقدت البصر . وفي ١٧٨٩ بدأت اليمنى في الضعف ، فوضع فرشاته ، وقد ملأه جزعاً وقنوطاً أن يضاف العمى الكامل تقريباً إلى نصف الصمم الذي ألحاه منذ سنته السابعة والعشرين إلى استعمال بوق للأذن . وفي ١٠ ديسمبر ١٧٩٠ ألقى آخر أحاديثه . وقد أعاد تأكيد إيمانه بالمبادئ الأكاديمية والمحافظة التي نادى بها في أحاديثه الأقدم عهداً ، وجدد نصيحته بدرس الخط قبل اللون ، والمصورين القدامى قبل محاولة التجديد . ثم اختتم بالثناء الحار على ميكلائنجلو :

« لو أتيج لي الآن أن أبدأ الحياة من جديد ، لاقتفيت خطى ذلك الفنان العظيم ، فلنم هذب ثوبه ، والتقاط الطفيف من مواطن كماله ، فيه فخر وامتنياز كافيان لرجل طموح . . . وتخيل لي ، في شعور لا يخلو من الغرور ، أن هذه الأحاديث تشهد بإعجابي بهذا الرجل الملهم حقاً ، وأود أن تكون آخر كلمة أفوه بها في هذه الأكاديمية ومن هذا المكان ، هي اسم ميكلائنجلو » (٤٦) .

وتوفي المصور الأسف في ٢٣ فبراير ١٧٩٢ ، وشرف تسعة نبلاء بحمل رفاته إلى كاتدرائية القديس بولس .

٥ - توماس جينزبرو

كان رينولدز رجل دنيا ، لا يتردد في تقديم فروض الاحترام التي يقتضيها قبوله في المجتمع ، أما جينزبرو فكان ذا نزعة فردية حارة ، تسخطه التوضيحات التي تطالب بها شخصيته وفنه ثمناً للنجاح . وكان أبواه من المنشقين على الكنيسة الرسمية ، وورث توماس عنهما استقلال الروح دون أن يرث التقوى . وتروى القصص عن هرويه من المدرسة في مسقط رأسه صديري ليجوب أرجاء الريف راسماً رسوماً تخطيطية للأشجار والسماء ، وللماشية ترعى في الحقول أو تشرب عند بركة . فلما فرغ من رسم جميع الأشجار في منطقته وهو بعد في الرابعة عشرة ، حصل على إذن من أبيه

ليذهب إلى لندن ويدرس الفن . وهناك درس نساء المدينة ، كما نستنتج من نصيحته التي بذلها في تاريخ لاحق لمثل شاب : « لا تسرح في شوارع لندن ، متوهماً أنك تلتقط لحظات من « الطبيعة » على حساب بدنك . تلك كانت أول مدرسة لي . وأنا عميق الخبرة بالنساء ، فاسمح لي إذن أن أحذرك » (٤٧) .

وفجأة ، وهو ما يزال في التاسعة عشرة ، ألقي نفسه زوجاً لفتاة اسكتلندية في السادسة عشرة تدعى مارجريت بور . وتجمع أكثر الروايات على أنها كانت ابنة غير شرعية لأحد الأدواق ، ولكنها كانت تملك دخلاً قدره مائتا جنيه في السنة (٤٨) . وفي ١٧٤٨ استقر بهما المقام في ابسوتش . وهناك التحق بناد موسيقى لأنه كان مولعاً بالموسيقى ، وكان يعزف على عدة آلات ... « انني أرسم لوحات للأشخاص لأكسب قوتي ، ولمشاهد الطبيعة لأنني أحبها ، وأعزف الموسيقى لأنني لا أملك منع نفسي من العزف » (٤٩) وقد وجد في مصوري « اللاند سكيب » (المنظر الطبيعية) الهولنديين دعماً لولعه بالطبيعة . وكافه فليب تكنيس ، حاكم قاعة لاند جارد القريبة منه ، بأن يصور القلعة ، والتلال المجاورة لها ، وهاروتش ، ثم نصحه بأن يلتبس بعملاء أغنى وأكثر في مدينة بات .

فلما أن باغها جينزبرو (١٧٥٩) بحث عن الموسيقيين لا المصورين ، وسرعان ما أدخل يوهان سبستيان باخ في عداد أصدقائه . ذلك أنه كان يملك روح الموسيقى وحساسيته ، وتراء في لوحاته يحول الموسيقى إلى دفء للون ورشاقة الخط . وكان في باث بعض مجموعات الصور جيدة ، فاستطاع الآن أن يدرس لوحات الطبيعة التي رسمها كلود لوران وجسبار بوسان ، ولوحات الأشخاص التي رسمها فاندريك ، وأصبح الوريث وأسلوب فاندريك الانجليزي — لوحات أشخاص تضيف رهافة باللغة في الفن إلى تفرد الشخصية وأناقة الملابس .

وفي باث أنتج بعضاً من أفضل فنه . وكان آل شريدان يسكنونها ، فرسم جينزبرو زوجة رتشرد الشابة الفاتنة (٥٠) ثم أفاض كل صناعته الآخذة في النضج على لوحه « النبيلة مسز جراهام » (٥١) التي أتاح له رداؤها الأحرار

بشاياه وطيانه أن يبرز أرق تدريجات اللون والظل . وحين عرضت هذه اللوحة في الأكاديمية الملكية بلندن (١٧٧٧) خيل لكثير من المشاهدين أنها تبز أى لوحة رسمها رينولدز . وحوالى عام ١٧٧٠ أضفى جينزبرو البهاء على صورة غلام يدعى جوناثان بتال ، وهو ابن تاجر حديد ، فغيره إلى « الصبى الأزرق » - وهى لوجه دفع فيها متحف صور هنتنجتن ٥٠٠,٠٠٠ دولار . وكان رينولدز قد أعرب عن اقتناعه بأنه لا يمكن رسم لوحة شخصية مقبولة باللون الأزرق ، وقبل غريمه الصاعد التحدى وانتصر ؛ وأصبح اللون الأزرق بعدها لوناً مفضلاً فى التصوير الانجليزى .

ورغب كل وجوه باث الآن فى أن يصورهم جينزبرو . ولكنه . كما قال لصديق . « لقد مللت تصوير الأشخاص . وبى رغبة شديدة فى أن آخذ كمانى وأنطلق إلى قرية جميلة : حيث أستطيع رسم مشاهد الطبيعة وأستمتع بالبقية الباقية من عمرى فى هدوء ودعة » (٥٢) . ولكنه عوضاً عن هذا نرح إلى لندن (١٧٧٤) واستأجر مسكناً فاخراً فى شومبيرج هاوس . بشارع بل مل . ودفع فيه ٣٠٠ جنيه فى السنة . فهو لا يرضى بأن يتمنق عليه رينولدز فى مظهره . وتشاجر مع الأكاديمية على عرض صوره . وظل أربع سنين (١٧٧٣ - ٧٧) رافضاً عرض لوحاته فيها ؛ وبعد عام ١٧٨٣ لم يتيسر مشاهدة لوحاته الجديدة إلا فى الافتتاح السنوى لم رسمه . وبدأ نقاد الفن حرباً غير كريمة من المقارنات بين رينولدز وجينزبرو . وكان رينولدز عموماً يفضل عليه . ولكن الأسرة المالكة أثرت جينزبرو ، فصور أفرادها جميعاً . ولم يلبث نصف الانجليز الذين يجرى فى عروقهم الدم الأزرق أن تقاطروا على شومبيرج هاوس طلباً للخلود القلق فى الصور . ورسم جينزبرو الآن شريدان ، وبرك . وجونسن . وفرانكلن ، وبلاكستون ، وبث الثانى ، وكلايف . . . ولكى يوطد مكانته . ويدفع لإيجاره ، راض نفسه على الانقطاع لرسم الأشخاص .

وقد وجدته زبائنه رجلاً صعب الإرضاء . من ذلك أن أحد اللوردات غالى فى خيالاته بينما كان جالساً إلى جينزبرو ، فصرفه دون أن يرسمه ، وكانت ملامح جاريك كثيرة الحركة والتغير (فهذا كان نصف سر تفوقه ممثلاً)

بحيث لم يستطع المصور أن يجد تعبيراً يطول فترة تكفى للكشف عن الرجل ، ولقى هذا العنت في تصوير صموئيل فوت ، منافس جاريك . وصاح جينزبرو تباً لهما من وغدين ! إن لهما وجه كل إنسان إلا وجههما ^(٥٣) ثم وجد صعوبة مختلفة في تصوير السيدة سيدونز « لعن أنفك ياسيدتي ! أنه بلا نهاية » ^(٥٤) وكان يصفو مزاجه مع النساء ، فهو شديد الإحساس بجاذبيتها الجنسية ، ولكنه تسامى بها إلى شعر من الألوان الناعمة والعيون الحاملة .

فلما أن فاض لديه المال بعد نفقات مسكنه الغالية رسم المناظر الطبيعية التي كان الطلب على لوحاتها قليلاً . وكثيراً ما كان يضع زبائنه الجلوس . — أو الوقوف — ومن خلفهم منظر ريفي ، كما نرى في لوحته « روبرت أندروز وزوجته » (التي بيعت بمبلغ ٣٦٤,٠٠٠ دولار في مزاد عام ١٩٦٠) . وإذ منعه زحمة العمل من الذهاب إلى الريف والرسم في مواجهة الطبيعة الحية . فقد جلب إلى مرسمه أصول الشجرة والحشائش البرية والأغصان والأزهار والحيوانات ، ثم نظمها في لوحه ^(٥٥) — مع دمي ألبسها ثياباً لتبدو كأنها ناس ، ومن هذه الأشياء ؛ ومن ذكرياته ، ومن خياله ، رسم المناظر الطبيعية . وكان فيها نوع من الافتعال ، وشكلية وانتظام ندر أن يوجد في الطبيعة ، ومع ذلك فالنتيجة أوحى بها من شذى الريف وسكينته ، وفي أخريات عمره رسم بعض « الصور الغريبة » التي لم يدع أنه توخى فيها الواقعية ، ولكنه أطلق العنان لمزاجه الرومانتيكي ؛ وفي إحداها ، وهي « فتاة الكوخ ومعها كلب وابريق » كل العاطفة التي تجيش بها لوحة جروز « الإبريق المكسور » وكلتا الصورتين رسمت في ١٧٨٥ ^(٥٦) .

ولا يستطيع أن يقدر جينزبرو حتى قدره غير فنان . كان في أيامه يعد أقل قدرأ من رينولدز ، ويعاب على رسمه أنه مهمل ، وعلى تكويناته أنها تفتقد الوحدة ، وعلى أشكاله أنها غير صحيحة الأوضاع ؛ ولكن رينولدز نفسه أثنى على التألق الخفيف الذي اتسم به تلوين مزاجه . وكان يصاحب فن جينزبرو شعر وموسيقى لم يستطع مصور الأشخاص العظيم فهمه في حرارة ، لقد كان لرينولدز عقل أكثر ذكورة ، وتفوق على منافسه في رسم الرجال ؛ أما جينزبرو فكان روحاً أكثر رومانسية ، أثر تصوير النساء

والصبيان . لقد فاته التدريب الكلاسيكى الذى تلقاه رينولدز فى إيطاليا ، وافتقد الاتصالات المنبهة التى أثرت عقل رينولدز وفنه . وكان جينزبرو مقلاً فى قراءته ، قليل الاهتمامات الفكرية ، يتجنب جماعة الأدباء والظرفاء الذين التفوا حول جونسن . وكان سمح النفس ولكنه متهور نزاع إلى الانتقاد ، وما كان يمكن قط أن يستمع فى صبر لمحاضرات رينولدز أو أحكام جونسن . ومع ذلك احتفظ بصداقة شريدان إلى النهاية .

فلما تقدم به العمر ران عليه الغم والاكتئاب ، فالنفس الرومانسية تقف عاجزة أمام الموت ما لم تكن متدنية . وفى كثير من لوحات الطبيعة التى رسمها جينزبرو تتعمم شجرة ميتة نفسها « تذكرة موت » وسط الورق الغض والعشب الوافر . ولعله ظن أن السرطان يحترمه ، وأحسن بمرارة متزايدة لفكرة عذاب يستطيل إلى هذا الحد . وقبل أن يموت بأيام كتب رسالة مصالحة إلى رينولدز وطلب إلى أكبر الرجلين أن يزوره . وجاء رينولدز ، وتبادل الرجلان الحديث الودى وهما اللذان لم يتشاجرا بشخصيهما بقدر ما كانا موضوع نزاعات بين رجال أقل منهم شأنًا . وحين افترقا قال جينزبرو « وداعاً حتى نلتقى فى الآخرة ، وفى صحبتنا فاندليك » (٥٧) ومات فى ٢ أغسطس ١٧٨٨ بالغا الحادية والستين .

وشارك رينولدز شريدان فى حمل جثمانه إلى فناء كنيسة كيو . وبعد أربعة أشهر أثنى عليه رينولدز فى حديثه الرابع عشر ثناء منصفاً . وقد ذكر بصراحة العيوب كما ذكر الحسنات فى فن جينزبرو ، ولكنه أضاف « لو أتيج لهذه الأمة أن تنجب من العباقرة عدداً يكفى لإكسابنا الامتياز الرفيع ، امتياز « مدرسة انجليزية » ، فإن اسم جينزبرو سينحدر إلى الأجيال القادمة ، فى تاريخ الفن ، فناناً من الرعيل الأول فى تلك المدرسة الصاعدة » (٥٨)

أما جورج رومنى فقد كافح ليبلغ شعبية رينولدز وجينزبرو ، ولكن عيوب تعليمه وصحته وخلقه ألزمتة مكاناً أكثر تواضعاً . وقد افتقد التعليم المدرسى بعد الثانية عشرة ، فاشتغل فى ورشة نجارة أبيه بلانكاشر حتى بلغ التاسعة عشرة . وقد أكسبته رسومه المال الذى تلقى به دروساً فى التصوير

من فنان متبطل في بلدته . فلما بلغ الثانية والعشرين مرض مرضاً خطيراً ، فلما شفى تزوج ممرضته ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها ، فهجرها بحثاً عن رزقه ، ولم يرها سوى مرتين في الأعوام السبعة والثلاثين التالية ، ولكنه كان يرسل إليها بعض مكاسبه . وقد كسب ما يكفي لزبارة باريس وروما ، حيث تأثر بالنزعة الكلاسيكية الحديثة . فلما عاد إلى لندن اجتذب رعاية ورعاة الفن بقدرته على لباس زبائنه في رشاقة أو وقار . وكان منهم إيمانليون ، التي أصبحت فيما بعد الليدى هامبتن ، وقد بلغ من افتتان رومنى بحماها انه صورها في صورة إلهة ، وكاساندر ، وسورسى ، والمجدلية ، وجان دارك ، والقديسة . وفي ١٧٨٢ رسم صورة لليدى سذرلاند ، نقد عنها ١٨ جنيهًا ، وقد بيعت مؤخرًا بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار . وفي ١٧٩٩ عاد إلى زوجته محطم الجسد والعقل ، فعاودت تمريره كما فعلت قبل أربع وأربعين سنة . وطال به الأجل ثلاثة أعوام من الشال ، ثم مات في ١٨٠٢ . وبفضله وبفضل رينولدز وجينزبرو انطلقت المنجزة الآن ، في نصف القرن الذي نحن بصددده ، في التصوير كما انطلقت في السياسة والأدب ، في تيار الحضارة الأوربية المتدفق .



الفصل الحادى الثمانون

جيران إنجلترا

١٧٥٦ - ٨٩

١ - - - - - لإرلنده جراتان

شرح رحالة انجليزى زار لإرلنده فى ١٧٦٤ أسباب جنوح الفقراء إلى الإجرام فقال : « أى خرف من العدالة أو العقاب يمكن توقعه من فلاح إرلندى يتردى فى حال من التعماسة والفقر المدقع ، حال لو أن أول رجل صادفه ضربه على أم رأسه وأراحه إلى الأبد من حياته البائسة الضنكة لحق له أن يحسبه عملاً ودياً جديراً بالثناء ؛ ... واحتمال الكثيرين منهم ... لحالتهم المزرية بصبر دليل كاف لدى على ما فى طبعهم من لطف فطرى »^(١).

ولم يكن ملاك الأرض - ومعظمهم من البروتستنت - هم الظلمة المباشرين للفلاحين - ومعظمهم كاثوليك - ولا أشدهم ضراوة ، فالملاك كانوا يعيشون عادة فى إنجلترا لا يرون الدم الذى لطنخ الإيجارات التى يبنزها الوسطاء الذين يؤجرون لهم أرضهم ؛ والوسطاء هم الذين استنزفوا كل درهم استطاعوا ابتزازه من الفلاحين ، حتى اضطروا هؤلاء إلى أن يكتفوا فى غلاتهم بالبطاطس وفى لباسهم بالأسمال .

وفى ١٧٥٨ ، سمح لإرلنده خمس سنين بتصدير الماشية إلى بريطانيا لأن المرض كان يفتك بالماشية فى إنجلترا . فتحولت أفدنة كثيرة فى إرلنده - بما فيها الأرض المشاع التى كان المزارعون المقيمون يستعملونها من قبل - من الزراعة إلى رعى الأغنام أو الماشية ، فازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً . ثم أضافوا إلى مشكلاتهم بالزواج المبكر - « عند أول ميسرة » كما (م ١١ - قصة الحضارة ، ج ٤١)

قال السير وليم بتي^(٢) ، ولعل الأمل راودهم في أن أطفالهم لن يلبثوا أن يغطوا نفقاتهم ثم يعينوهم على دفع الإيجار . وهكذا ، ورغم ارتفاع نسبة الوفيات ، زاد سكان أيرلنده من ٣,١٩١,٠٠٠ عام ١٧٥٤ إل ٤,٧٥٣,٠٠٠ عام ١٧٩١^(٣) .

أما صورة الصناعة فأخذت في الإشراف . ذلك أن الكثير من البروتستانت وبعض الكاثوليك قد أخذوا يحترفون إنتاج الأتيل أو الأصواف أو البضائع القطنية أو الحرير أو الزجاج . وفي الربع الأخير من القرن ، بعد أن حصل جراتان على تخفيف للقيود البريطانية المفروضة على رجال الصناعة الأيرلنديين وعلى التجارة الأيرلندية ، نشأت طبقة وسطى وفرت الركيزة الاقتصادية للسياسة التحريرية والنمو الثقافي . وغدت دبلن من أمهات المراكز في التعليم والموسيقى والدراما والعمارة في الجزر البريطانية . وكانت كلية ترنتي بسبيلها إلى أن تصبح جامعة ، تملك فعلاً قائمة طويلة من الخريجين الممتازين . ولو أن أيرلنده احتفظت بنجومها الساطعة في أرض الوطن — بيرك ، وجولد سميث ، وشريدان ، وسويفت ، وباركلي — لسطعت جنباً إلى جنب مع ألمع الأمم في ذلك العهد . وبعد عام ١٧٦١ جعل نائب الملك دبلن مقره الدائم بدلاً من الاكتفاء بزيارات قصيرة مرة كل عام . وقامت الآن الصروح العامة الشائخة والقصور الأنيقة ، ونافست مسارح دبلن مسارح لندن في تفوق إخراجها ، وهنا رتل « مسيا » هندل أول مرة ولقيت أول ترحيب (١٧٤٢) ، وأخرج شريدان التمثيلات الناجحة الكثيرة التي ألقت زوجته بعضها .

وكان الدين بالطبع هو القضية الطاغية في أيرلنده ، وقد حرم المنشقون -- أعني المشيخيين ، والمستقلين (البيورتان) ، والمعمدان -- من تقلد الوظائف الحكومية ومن عضوية البرلمان بمقتضى قانون الاختبار ، الذي اشترط في الموظف أو عضو البرلمان قبول سر التناول طبقاً للطقس الأنجليكاني . أما قانون التسامح الصادر في ١٦٨٩ فلم يطبق على أيرلنده . وعبئاً احتج مشيخيو ألتر على هذه القيود ، وهاجر الألوف منهم إلى أمريكا ، حيث قاتل كثيرون منهم بإخلاص في صفوف جيوش الثوار .

وكان ثمانون في المائة من سكان أيرلنده كاثوليكاً ، ولكن لم يكن جائزاً انتخاب أى كاثوليكي لعضوية البرلمان . ولم يملك أرضاً من الكاثوليك إلا أقلية . وكان المستأجرون البروتستانت يعطون لإيجارات مبدى الحياة ، أما إيجارات الكاثوليك فلا تمتد أكثر من إحدى وثلاثين سنة ؛ وكان عليهم أن يدفعوا ثلثي أرباحهم لإيجار^(٤) . ولم يسمح بالمدراس الكاثوليكية ، ولكن المسؤولين لم يطبقوا القانون الذى حرم على الإيرلنديين الخامس التعليم خارج وطنهم . وقبل بعض الطلاب الكاثوليك في كلية ترنتي ، ولكنهم لم يستطيعوا نيل درجة علمية . وسمح بالعبادة الكاثوليكية ، ولكن لم يكن هناك وسائل شرعية لإعداد القساوسة الكاثوليك ؛ على أنه جاز للطلاب أن يلتحقوا بالكلليات اللاهوتية في القارة . وقد اكتسب بعض هؤلاء الطلاب ما تحلى به الكهنوت في فرنسا وإيطاليا من دماء طبع وتحرر آراء ، فلما عادوا إلى أيرلنده قسموا لقوا الترحيب على موافد البروتستانت المتعلمين ، وأعانوا على التخفيف من حدة التعصب على الجانبين . فلما أن دخل هنرى جراثان البرلمان الإيرلندى (١٧٧٥) كانت حركة التحرير الكاثوليكي قد اكتسبت تأييد الألوف من البروتستانت سواء في إنجلترا أو في أيرلنده .

وفي ١٧٦٠ كان يحكم أيرلنده نائب عن الملك يعينه ملك إنجلترا وهو مسئول أمامه . وبرلمان يسوده الأساقفة الانجليكان في مجلس اللوردات ويسوده في مجلس العموم ملاك الأرض وأرباب الرواتب الحكومية من الانجليكان . وكانت الانتخابات البرلمانية خاضعة لنظام الدوائر « العفنة » أو دوائر « الجيب » ذاته المتبع في إنجلترا . وكانت قلة من كبار الأسر تعرف باسم « المتعهدين » تملك أصوات دوائرها كما تملك بيوتها^(٥) .

وكانت المقاومة الكاثوليكية للحكم الانجليزى متفرقة عديمة الفاعلية . ففي ١٧٦٣ راحت عصابات من الكاثوليك سموا « الصبيان البيض » - نسبة للقمصان البيضاء التي كانوا يرتدونها فوق ملابسهم - تجوب أنحاء الريف وتهدم سياجات الأراضي المسورة ، وتعجز الماشية ، وتهاجم جبال الضرائب أو العشور ؛ ولكن قبض على زعمائهم وشنقوا ، وفشل التمرد . وكانت حركة التحرير « القومى » أحسن حظاً . ففي ١٧٧٦ أخذ أكثر الجنود

البريطانيين من ارلنده ليحاربوا في أمريكا ، وفي الوقت ذاته اعترى الاقتصاد الإيرلندي الكساد لانقطاع التجارة مع أمريكا . واتقاء للثورة من الداخل أو الغزو من الخارج جند بروتستنت ارلنده جيشاً سموه « المتطوعين » . وازداد هؤلاء عدداً وسطورة حتى باتوا في ١٧١٠ قوة رهيبة . ويفضل تأييد هؤلاء المساعين الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً ظفر هنرى فلود وهنرى جراتان بانتصاراتهما التشريعية .

وكان كلاهما ضابطاً في جيش المتطوعين ، وخطيباً مفوهاً من أعظم الخطباء في بلد استطاع أن يبعث ببيرك ورتشرد شريدان إلى إنجلترا ويبقى فيه رغم ذلك معين لا يئضب من البلاغة ، ودخل فلود البرلمان الإيرلندي في ١٧٥٩ . وقد تزعم حملة للتخفيف عن الفساد في مجلس كان نصف أعضائه مدنيين بالفضل للحكومة . ولكن الرشوة الشاملة هزمت ، فاستسلم (١٧٧٥) بقبول وظيفة نائب المخازن نظير راتب قدره ٣,٥٠٠ جنيه .

في ذلك العام أنتخبت دائرة في دبلن هنرى جراتان لعضوية البرلمان . وسرعان ما تبوأ مكان فلود زعيماً للمعارضة . وقد أذاع برنامجاً طموحاً ، قوامه التخفيف عن الكاثوليك الإيرلنديين وتحرير « المنشقين » من ربة قانون الاختيار ، وإنهاء القيود الانجليزية على التجارة الإيرلندية ، وتوطيد استقلال البرلمان الإيرلندي . وقد سعى إلى هذه الأهداف بهمة وإخلاص ونجاح . مما جعله معبود الأمة سواء الكاثوليك والبروتستنت . وفي ١٧٧٨ حصل على الموافقة على قانون يمكن الكاثوليك من الحصول على إيجارات مدتها تسع وتسعون سنة ، ومن وراثة الأرض بالشروط التي يرثها البروتستنت . وبعد عام ، وبناء على إلحاحه ، ألغى قانون الاختيار ، وأمن للمنشقين كامل الحقوق المدنية . وقد أقنع هو وفلود البرلمان الإيرلندي ونائب الملك بأن استدراج المعوقات البريطانية للتجارة الإيرلندية من شأنه أن يؤدي إلى العنف الثوري . وكان اللورد نورث ، رئيس الحكومة البريطانية آنئذ ، يجهد لإلغاء هذه القيود ، ولكن رجال الصناعة الانجليز انهبوا عليه بوابل من الاتهامات ضد الإلغاء ، فأذعن لهم . وبدأ الإيرلنديون يقاطعون البضائع البريطانية ، وتجمع « المتطوعون » أمام مبنى البرلمان الإيرلندي وفي أيديهم

السلاح ، وعلى مدافعهم عبارة تقول « حرية التجارة أو هذا » . وسحب رجال الصناعة الانجليز . عارضتهم بعد أن أضرت بهم المقاطعة ، وأصدر قانون حرية التجارة (١٧٧٩) .

ثم ألح جراتان بعد هذا في طلب الاستقلال للبرلمان الإيرلندى . ففي مطلع عام ١٧٨٠ اقترح أن يكون الملك انجلترا وحده ، بموافقة برلمان ارلنده ، الحق في التشريع لإرلنده ، وأن بريطانيا العظمى وإرلنده لا يوجد بينهما سوى رباط ماليهما المشترك ، ولكن اقتراحه هزم . فأعان المتطوعون الذين اجتمع منهم في دبلن ٢٥,٠٠٠ مقاتل (فبراير ١٧٨٢) انه لا ولاء لانجلترا إلا إذا منحت إرلنده الاستقلال التشريعى . وفي مارس سقطت وزارة اللورد نورث التي شاخت وخلفه في الوزارة روكنجهام وفوكس . وكان المركيز كورنو اليس قد استسلم أثناء ذلك في يوركينون (١٧٨١) ، وانضمت فرنسا وأسبانيا إلى أمريكا في الحرب ضد انجلترا . ولم يكن في وسع بريطانيا أن تواجه ثورة ارلندية في هذا الوقت . وعليه ففي ٦ ابريل ١٧٨٢ أعلن البرلمان الإيرلندى بزعامه جراتان استقلاله التشريعى ، وبعد شهر وافقت انجلترا على هذا التنازل . وقرر البرلمان الإيرلندى منحة لجراتان قدرها ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وكان رجلاً فقيراً نسبياً ، فقبل نصفها .

كان هذا بالطبع انتصاراً لبروتستنت إرلنده لا لكاثوليكها . فلما شرع جراتان - بتأييد قوى من الأسقف الانجليكانى فردريك هرفى - في حملة لإحراز قسط من التحرير للكاثوليك كان قصارى ما استطاعه (فيما يسميه المؤرخون « برلمان جراتان ») هو الحصول على حق التصويت للملاك الكاثوليك (١٧٩٢) ، فحصلت هذه القلة على حق الانتخاب دون حق انتخابهم لعضوية البرلمان أو تعيينهم في الوظائف البلدية أو القضائية . وذهب جراتان إلى انجلترا ، وحصل على انتخابه عضواً في البرلمان البريطانى ، وهناك واصل عمله . ومات عام ١٨٢٠ ، قبل أن يجيز البرلمان قانون التخفيف عن الكاثوليك بتسعة أعوام ، وهو القانون الذى سمح للكاثوليك بعضوية البرلمان الإيرلندى ، حقاً أن العدالة ليست عمياء فقط ، إنها أيضاً عرجاء .

٢ - الخلفية الاسكتلندية

عندما أدمج اتحاد عام ١٧٠٧ اسكتلنده مع إنجلترا بواسطة برلمان مشترك، رددت لندن على سبيل النكتة أن الخوت قد ابتلع يونان (يونس) ؛ وعندما أدخل بيوت (١٧٦٢ وما بعدها) عشرين من الأسكتلنديين في الحكومة البريطانية تدمر الظرفاء لأن يونان أخذ في ابتلاع الخوت^(٦) . أما من الناحية السياسية فإن الخوت انتصر . فقد ضاع النبلاء الاسكتلنديون الستة عشر ونواب العموم الخمسة والأربعون وسط ١٠٨ نبيلا و ٥١٣ نائباً انجليزياً . وأسلمت اسكتلنده سياستها الخارجية ، وإلى حد كبير اقتصادها ، إلى تشريع يسوده المال الانجليزى والعقول الانجليزية . ولم ينس البلدان عدائهما السابق . فالاسكتلنديون يشكون من أسباب التفرقة التجارية بين يونان والخوت ، وصموئيل جونسن ينوب عن الخوت في عضبة يونان بإصرار شوفيني .

وكانت اسكتلنده تضم في عام ١٧٦٠ من السكان نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ نسمة . وكانت نسبة المواليد عالية ، ولكن نسبة الوفيات لحقت بها . وقد كتب آدم سمث حوالى ١٧٧٠ يقول : « قيل لى إنه ليس من غير المؤلف فى إقليم المرتفعات الاسكتلندية لأم ولدت عشرين طفلاً ألا يبقى اثنان منهم أحياء »^(٧) . وكان رعوساء القبائل فى الإقليم يملكون الأرض كلها تقريباً خارج المدن ، ويتكون الزراع فقراء فقراً بدأئياً على تربة صخرية تبلى بوابل من المطر ينهمر صيفاً وبتلوج الشتاء تهطل من سبتمبر إلى مايو . وقد زيدت الإيجارات مراراً - فرفعت فى إحدى المزارع من خمسة جنيهات إلى عشرين خلال خمسة وعشرين عاماً^(٨) . وهاجر كثير من الفلاحين إلى أمريكا بعد أن رأوا أن لا مهرب من الفقر فى وطنهم ، وهكذا « يستعطيع زعيم القبيلة الجشع أن يحيل صنيعة بركة فقراء » على حد قول جونسن :^(٩) « وكان الملاك يحتجون بهبوط قيمة العملة ذريعة لرفع الإيجار . وكانت الأحوال أسوأ حتى من هذا فى مناجم الفحم والملح ، حيث كان العمال حتى عام ١٧٧٥ يربطون بأعمالهم حتى يموتوا »^(١٠) .

أما في مدن إقليم المنخفضات فإن الثورة الصناعية جلبت الرخاء لطبقة وسطى متسعة ومغامرة . وانتشرت في جنوب غربي اسكتلنده مصانع النسيج الكثيرة . وبفضل الصناعات والتجارة الخارجية زاد سكان جلاسجو من ١٢,٥٠٠ في عام ١٧٠٧ إلى ثمانين ألفاً في عام ١٨٠٠ ؛ وكانت تضم ضواحي غنية ، ومباني ذات شقق في أحياء فقيرة مزدحمة ، وجامعة ؛ وفي ١٧٦٨ - ٩٠ شقت قناة ربطت نهري كلايد وفورث ، فأنشأت بذلك طريقاً تجارياً مائياً من أوله لآخره بين الجنوب الغربي الصناعي والجنوب الشرقي السياسي . وكانت ادنبره - التي ناهز سكانها خمسين ألفاً في ١٧٤٠ - قلب حكومة اسكتلنده وثقافتها ومؤسساتها . وكانت تكل أسرة اسكتلندية ميسورة الحال تتطاع إلى قضاء جزء من السنة على الأقل فيها ؛ وإليها أتى بوزويل وبرنز ، وفيها عاش هيوم وروبرتسن وريبورن ، وهنا ظهر محامون ذائعو الصيت مثل ايرسكينز ، وقامت جامعة ذات مكانة مرموقة ، وجمعية ادنبره المالكية . وهنا كان المقر الرئيسي للمسيحية الاسكتلندية .

وكان الكاثوليك الرومان قلة ، ولكن عددهم كان كما رأينا كافياً لإحداث الزعر في بلد مازال يتجاوب بإصدااء دعوة يوحنا فوكس . وكان للكنيسة الأسقفية أتباع كثيرون بين سراة القوم الذين أعجبهم الأساقفة الإنجليكان وطقوس التناول الانجليكانية . غير أن ولاء السواد الأعظم كان للكنيسة اسكتلندية ، « الكيرك البرزبتيري » (المسيحية) التي رفضت نظام الأساقفة ، واختزلت الطقوس إلى أدنى حد ، ولم تقبل في الدين والأخلاق حكماً غير حكم مجالس أبرشياتها ، وشيوخ أقسامها ، ومجامع أقاليمها ، وجمعيتها العامة . ولعله لم يوجد بلد آخر في أوروبا - باستثناء أسبانيا - تشرب شعبه اللاهوت بمثل هذا العمق . وكان في استطاعة مجلس الكنيسة المؤلف من شيوخها وقسيسها أن يفرض الغرامات ويوقع العقوبات على المنحرفين المهرطقين ، وأن يحكم على الزناة بالوقوف واحتمال التوبيخ العلني أثناء الخدمة الدينية ، وقد حاق بروبرت بيرنز وجين آرمر مثل هذا العقاب في جلسة للكنيسة في ٦ أغسطس ١٧٨٦ . وسيطرت الإيمان بالاخرويات الكاثوليكية على عقول الجماهير فجعلت حرية الفكر خطراً على الحياة والأجساد ؛ غير

أن لفيفاً من القساوسة « المعتدلين » يزعمهم روبرت ولسن وآدم فرجسون ووليم روبرتسن خففوا من تعصب الشعب تخفيفاً كفى لترك ديفد هيوم يموت موتة طبيعية .

وربما كان الدين الصارم لازماً للتصدي لعريضة شعب تدفعه قسوة البرد إلى الشرب حتى يشمل ، ويعانى من قسوة الفقر ما يجعل ذاته الوحيدة فى الجرى وراء الجنس . وسيرة بيرنز دليل على أن الرجال كانوا يسكرون ويفسقون رغم الشيطان والقساوسة ، وأن الفتيات الراغبات لم يكن نادرات . وقد طرأ على القوم فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر اضمحلال ملحوظ فى الإيمان وفى التمسك بالفضائل التقليدية . ولاحظ وليم كريتش وهو مصور إدنبرى ، أن يوم الأحد فى سنة ١٧٦٣ كان يوم تعبد دينى ، ولكن فى ١٧٨٣ « لقي الحضور إلى الكنيسة إهمالاً شديداً ، خصوصاً من الرجال » ، وكانت الشوارع فى الليل تضج بالشباب المنحل المشاغب « فى سنة ١٧٦٣ هناك خمسة مواخير أو ستة . . . وفى ١٧٨٣ ازداد عدد المواخير عشرين ضعفاً ، وازداد عدد نسوة المدينة أكثر من مائة ضعف . وابتلى كل حتى فى المدينة وضواحيها بأعداد غفيرة من الإناث اللاتى استسلمن للزيلة » (١١) . وكانت لعبة الجوائف تصرف الرجال عن الكنيسة إلى اللقائات أيام الأحاد ، أما فى باقى أيام الأسبوع فالرجال والنساء يرقصون (وكان الرقص من قبل يعد خطيئة) ، ويلهبون إلى المسارح (وكان الذهاب إليها لا يزال يعد خطيئة) ، ويختلفون إلى سباقات الخيل ، ويقامرون فى الحانات والأندية .

وكانت الكنيسة أهم مصدر للديمقراطية والتعليم . فكان شعبها يختار شيوخها ، وكان ينتظر من القسيس (الذى يختاره عادة راع أو نصير) أن يدير مدرسة فى كل أبرشيته . وكان الجوع للتعليم شديداً . وكانت جامعة سانت أندروز ، من بين الجامعات الأربع ، قد اضمحلت ، ولكنها تزعم أنها تملك خير مكتبة فى بريطانيا . وقد وجد جونسن جامعة أبردين مزدهرة فى ١٧٧٣ . أما جامعة جلاسجو فضمت بين أساتذتها جوزف بلاك الفيزيائى ، وتوماس ريد الفيلسوف ، وآدم سميث الاقتصادى ، فضلاً عن أيواها لجيمس وات . وأحدث الجامعات الأربع هى جامعة إدنبره ، ولكنها كانت تفضرب بما أتت به حركة التنوير الاسكتلندى من إثارة .

٣ - التنوير الاسكتلندى

لا يمكن أن يعلل تفجر العبقريّة الذي أضواء اسكتلنده بين مبحث هيوم
« فى الطليعة البشريّة » (١٧٣٩) وكتاب بوزويل « حياة جونسن » (١٧٩١)
ألا بنمو تجارتها مع انجازه والعالم وتقدم الصناعة فى إقليم السهول . وفى
الفلسفة نبع فرانسيّس هتشيّسن ، وديفيد هيوم ، وآدم فيرجسن ؛ وفى
الاقتصاد آدم سميث ؛ وفى الأدب جون هيوم (١٢) ، وهنرى هيوم (اللورد
كيمس) ، ووليم روبرتسن ، وجيمس مكفرسن ، وروبرت بيرنز ،
وجيمس بوزويل ؛ وفى العلوم جوزف بلاك ، وجيمس وات ، ونيفيل
ماسكين ، وجيمس هاتن ، واللورد مونبودو (١٣) ؛ وفى الطب جون وليم
هنتر : (١٤) هؤلاء كوكبة تضارع النجوم التى سطعت فى انجازه حول
« الدب الأكبر » (جونسن) ! وقد ألف هيوم وروبرتسن وغيرهما فى
إدنبره « جمعية من الصفوة » للمناقشات الأسبوعية فى الأفكار . واتصل
هؤلاء الرجال وأشباههم بالفكر الفرنسى لا الإنجليزى ، من جهة لأن
فرنسا كانت منذ قرون مرتبطة باسكتلنده ، ومن جهة أخرى لأن الحصانة
المستطيلة بين الانجليز والاسكتلنديين عاقت اندماج الثقافتين . وكان هيوم
مسيء الظن بالفكر الانجليزى فى جيله ، إلى أن صدر كتاب « اضمحلال
الامبراطورية الرومانية وسقوطها » فى عام موته فرحب بصدوره شاكرأ .

ولقد وفيينا من قبل ديننا لهتشن وهيوم (١٥) . فلنلق الآن نظرة على
عدو هيوم الكريم النفس ، توماس ريد ، الذى كافح ليرد الفلسفة من
الميتافيزيقا المثالية إلى قبول واقع موضوعى . وقد ألف وهو يدرس فى
أبردين وجلاسجو كتابه « بحث فى العقل البشرى حول مبادئ الفطرة
السليمة » (١٧٦٤) ، وقبل أن ينشره أرسل المخطوطة إلى هيوم مشنوعة
بخطاب مذهب يحمل تحياته ، ويشرح أسفه على اضطرابه لمعارضة شكرية
صاحبه الأكبر سنأ . ورد عليه هيوم بلطفه المعهود ، وطلب إليه أن ينشر
الكتاب دون خوف من الامة (١٦) .

وكان ريد قد سلم من قبل برأى باركلي القائل بأننا نعرف الأفكار فقط ،

ولا نعرف الأشياء أبداً . إذ لما أكد هيوم بمثل هذا الاستدلال أننا نعرف الحالات العقلية فقط ، دون أن نعرف مطلقاً « حقلاً » ملحقاً بها ، أحس ريد أن مثل هذا التحليل المثلث بالتفاصيل غير الهامة يقوض كل تفرقة بين الصدق والكذب ، وبين الحق والباطل ، وكل إيمان بالله أو الخلود . وذهب إلى أنه اضطر لتنفيذ آراء هيوم اتقاء هذه الكارثة ، ولكي يفند آراء هيوم كان عليه أن يرفض باركلي .

وعليه فقد سخر من الفكرة القائلة بأننا لا نعرف غير أحاسيسنا وأفكارنا ، فنحن على العكس من هذا نعرف الأشياء مباشرة وللتو ، و « من الإسراف في الرهافة » فقط أن نخلل تجربتنا مع وردة مثلاً ، فنردها إلى حزمة من الأحاسيس والأفكار ، والحزمة حقيقية ، ولكن الوردة أيضاً حقيقية ، وهي تحتفظ ببقاء ثابت بعد أن تتوقف إحساساتنا بها . والصفات الأولية — كال الحجم والشكل والصلابة والنسيج والثقل والحركة والعدد — تنتمي بالتابع إلى العالم الموضوعي ، ولا تتغير ذاتياً إلا بفعل الأوهام الذاتية ، وحتى الصفات الثانوية لها مصدر موضوعي بقدر ما تنشأ الأحاسيس الذاتية عن الأصول الطبيعية أو الكيميائية في الشيء أو البيئة — الرائحة ، أو الطعم أو الدفء ، أو اللمعان ، أو اللون ، أو الصوت (١٧) .

والإدراك الفطري السليم ينبئنا بهذا ، غير أن « مبادئ الإدراك الفطري السليم ليست أهواء الجاهل الجاهلة ، إنما هي المبادئ الغريزية » التي يرشدنا تكوين طبيعتنا (أي الإدراك الذي نشرك فيه كلنا) إلى الإيمان بها ، والتي يتحتم علينا بالضرورة التسليم بها في الشؤون المشتركة للحياة (١٨) ، وبالقياص إلى هذا الإحساس العام الذي يختبر كل يوم ويؤكد ألف مرة ، تكون استدلالات الميتافيزيقا الخيالية مجرد لعبة يلعبها المرء في وحدته التي يهرب فيها من العالم ، بل إن هيوم نفسه ، باعترافه ، كان يلقي عنه هذه اللعبة العقلية إذا غادر حجرة مكتبه (١٩) . ولكن هذا الرجوع إلى الحس المشترك برد الواقع إلى العقل : فليست الأفكار وحدها هي الموجودة ، فهناك كائن حي ، وعقل ، وذات ، لها الأفكار . واللغة نفسها شاهد على هذا الاعتقاد العام : فلكل لغة ضمير مفرد للمتكلم : ف « أنا » هو الذي يشعر ، ويتذكر ،

ويفكر ، ويجب : « لقد بدا أن من الطبيعي جداً التفكير في أن « البحث في الطبيعة البشرية » احتاج إلى مؤلف يكتبه ، ومؤلف في غاية الذكاء والبراعة ، ولكن يقال لنا الآن أنه ليس إلا مجموعة من الأفكار اجتمعت معاً ورتبت نفسها بارتباطات وانجذابات معينة » (٢٠) .

وقرأ هيوم هذا كله بابتهاج وود ، ولم يستطع أن يقبل نتائج ريد اللاهوتية ، ولكنه احترام مزاجه المسيحي ، ولعله أحس بالراحة في دخيلة نفسه حين عرف أن العالم الخارجي موجود على كل حال ، برغم باركلي ، وأن هيوم موجود برغم هيوم . كذلك استشعر الجمهور القارئ أيضاً الراحة ، واشترى ثلاث طبعات من كتاب ريد « البحث » قبل موته . وكان بوزويل من بين سرى عنهم ، فهو ينبئنا بأن كتاب ريد « هدأ عقلي الذي انتابه القلق الشديد من طول التفكير العويص بالأسلوب التجريدي الشكوكي » (٢١) .

وأضاف الفن اللون إلى عصر النور الاسكتلندي . فالأخوة « آدم » الأربعة الذين تركوا بصمتهم على العمارة الانجليزية ، كانوا اسكتلنديين . وقد هاجر ألن رمزي (بن الشاعر ألن رمزي) إلى لندن (١٧٥٢) بعد أن أنفق في نيل التقدير في وطنه أدنبره ، وبعد سنوات من الكدح عبر « مصوراً عادياً » للملك ، مما أثار حفيظة الفنانين الانجليز . وقد رسم صورة حسنة لجورج الثالث (٢٢) ، وأحسن منها لزوجته هو (٢٣) . غير أن انخلاع ذراعه اليمنى أنهى احترافه للصوير .

أما السر هنري ريبورن فكان رينولدز اسكتلندي . وكان ابناً لرجل صناعة في أدنبره ، علم نفسه التصوير بالزيت ، ورسم أرملة وارثة بلغ من رضائها عن صورتها أنها تزوجته ومهرته بثروتها . وبعد أن درس عامين في إيطاليا عاد إلى أدنبره (١٧٨٧) ، وسرعان ما تكاثرت زبائنه فضاقت وقته عن رسمهم ؛ رسم روبرتسن ، وجون هيوم ، ودوجالد ستيفارت ، وولتر سكوت ، وأفضل صوره صورة اللورد نيوتن — جسد هائل ، ورأس ضخم ، وشخصية من حديد امتزج بالباسان . وعلى النقيض لاحظ الجمال المتواضع الذي وجده ريبورن في زوجته (٢٤) . وكان أحياناً ينافس رينولدز

فى تصوير الأطفال ، كما نرى فى لوحته « أطفال دراموند » المحفوظة بمتحف
المثروبوليتان للفنون . وقد أنعم على ريبورن بقلب الفروسية فى ١٨٢٢ ،
ولكنه مات بعد عام بالغاً السابعة والستين .

ثم تفوق التنوير الاسكتلندى فى مؤرخيه . فقد شارك آدم فيرجسن فى
تأسيس دراسة علم الاجتماع والسيكولوجية الاجتماعية بكتابيه « مقال فى
تاريخ المجتمع المدنى » (١٧٦٧) الذى طبع سبع مرات فى حياته . والتاريخ—
فى رأيه — لا يعرف الإنسان إلا عائشاً فى جماعات ، فإن شئنا فهم هذا الإنسان
وجب أن نراه مخلوقاً اجتماعياً ولكنه متنافس — مركب من عادات اجتماعية
ورغبات فردانية . وتطور الخلق والتنظيم الاجتماعى كلاهما يحدده تفاعل
هاتين الزعتين المتعارضتين ، ونادر أن تتأثر بأفكار الفلاسفة . والمنافسة
الاقتصادية ، والخصومات السياسية ، وألوان التفرقة الاجتماعية ، والحرب
ذاتها — كل أولئك مركب فى طبيعة البشر ، وسيظل كذلك أبداً ، وهو
يعمل بوجه عام على تقدم النوع الإنسانى .

وكان فيرجسن فى زمانه لا يقل شهرة عن آدم سميث ، ولكن صديقهما
وليم روبرتسن فاقهما شهرة . ونحن يذكر أمنية فيلاند التى تمنها لشيلر
مؤرخاً ، بأن « يرقى إلى مستوى هيوم ، وروبرتسن ، وجبون » (٢٥) .
وقد تساءل هوراس ولبول فى ١٧٥٦ : « أيمكن أن نخطر لنا أننا نفتقد
مؤلفين فى التاريخ مادام مستر هيوم ومستر روبرتسن أحياء ؟ . ان كتابة
روبرتسن تمتاز بأصنى ما قرأت أسلوباً وأعظمه نزاهة » (٢٦) . وكتب جبون
فى « مذكراته » يقول : « ان إنشاء الدكتور روبرتسن الذى بلغ الكمال ،
ولغته المشبوبة ، ووقفاته المحكمة ، أثرت فى إلى حد التطوع الطموح إلى تأثر
خطواته يوماً ما » (٢٧) ، وقال « ان الطرب يهزنى كلما وجدت نفسى
معدوداً ضمن ثلاث المؤرخين البريطانيين » مع هيوم وروبرتسن (٢٨) .
وقد عد هذين المؤرخين مع جويكاردينى ومكيا فى أعظم المؤرخين
المحدثين ، ثم وصف روبرتسن فى تاريخ لاحق بأنه « أول مؤرخى العصر
الحاضر » (٢٩) .

كان روبرتسن ، مثل ريد ، قسيساً وابن قسيس . عين راعياً لكنيسة جلادزموير وهو في الثانية والعشرين (١٧٤٣) ثم أنتخب بعد عامين لعضوية الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية . وأصبح فيها قائد المعتدلين ، وقد حمى المهرطقين أمثال هيوم . وبعد ست سنوات من الجهد الشاق والدرس الدؤوب للوثائق والمراجع ، أصدر عام ١٧٥٩ « تاريخاً لاسكتلنده في عهد الملكة ماري وجيمس السادس حتى ارتقائه عرش انجلترا » ، واختتم في تواضع حيث بدأ هيوم كتابه « تاريخ انجلترا » . وقد أهدى الكتاب اسكتلنده لتجنبه عبادة ماري ملكة الاسكتلنديين ، وأهدى الانجليز بأسلوبه — رغم أن جونسن أضحكه أن يجد فيه بعض الألفاظ الثقيلة الجونسونية الطابع . وقد طبع الكتاب تسع طبعات في ثلاثة وخمسين عاماً .

على أن رائعة روبرتسن الكبرى كانت كتابه « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » (١٧٦٩) ذا المجلدات الثلاثة . وفي وسعنا الحكم على مدى السمعة التي حظي بها من الثمن الذي نقله عليه الناشران وهو ٤.٥٠٠ جنيه بالقياس إلى ٦٠٠ جنيه تلقاها عن تأليف تاريخ اسكتلنده . وقد أثنت أوروبا على الكتاب الجديد في ترجماته المختلفة . وكانت كاترين الكبرى تحمله معها في رحلاتها الطويلة ، وقد قالت « إنني لا أكف عن قراءته أبداً ، خصوصاً المجلد الأول منه » (٣٠) ، وقد أهدىها كما يهيجنا كلنا ذلك التهيد الطويل الذي استعرض التطورات الوسيطة التي انتهت بمجيء شارل الخامس . والكتاب تقدم نتيجة الأبحاث اللاحقة ، ولكن ما من عرض لاحق للموضوع يمكن أن يباريه بوصفه أثراً أدبياً . ومن دواعي السرور أن نلاحظ أن الشئ الذي ظفر به الكتاب ، والذي كان أعظم كثيراً من التفريط الذي ناله « تاريخ » هيوم ، لم يوهن ما كان بين القسيس والزنديق من صداقة وود .

وأشهر من الإثنين جيمس مكفرسن ، الذي سوى جوته بينه وبين هومر ، ورفع نابليون فرق هومر (٣١) في ١٧٦٠ أعلن مكفرسن الذي كان آنئذ في عامه الرابع والعشرين أن ماحمة على شيء من الغلبل والروعة تحويها مخطوطات غيلية متفرقة سيضطلع بجمعها وترجمتها إن أتيح له مدد من المال . وجمع المال فيرجسن وهوبلير (وهو قسيس مشيخي مفوه

من اذنبه) . وجاب مكفرسن واثنان من الدارسين الغيليين أرجاء المرتفعات الاسكتلندية وجزر الهيريد ، وجمعوا المخطوطات القديمة ، وفي ١٧٦٢ نشر مكفرسن كتابه « فنجال » ، ماحمة قديمة في ستة أجزاء . . . ألفها أوسيان ، بن فنجال ، وترجمت عن اللغة الغيلية « . وبعد عام نشر ماحمة أخرى ، اسمها « تيمورا » زعم أنها من تأليف أوسيان ، وفي ١٧٦٥ نشر الملحميين بعنوان « أعمال أوسيان » .

أما أوسيان هذا فهو كما تزعم الأسطورة (الإيرلندية والاسكتلندية) الإبن الشاعر للمحارب فن ماكومهيل^(٣٢) ، ويروون أنه عمر ثلاثمائة سنة ، وامتد به الأجل حتى أعرب عن معارضته الوثنية لللاهوت الجديد المجلوب إلى إيرلنده على يد القديس باتريك . وبعض القصائد المنسوبة له احتفظ بها في ثلاثة مخطوطات من القرن الخامس عشر ، خصوصاً في « كتاب لزمور » الذي جمعه جيمس ماكريجور في ١٥١٢ ، وكان مكفرسن يملك هذه المخطوطات^(٣٣) . وقد روى فنجال كيف دعا المقاتل الشاب ، بعد أن هزم غزاة ارلنده الاسكتلنديين ، هؤلاء الغزاه إلى مأدبة ونشيد سلام ، والقصبة مروية رواية تذبذب بالحياة ، يدفئها تغزل الاسكتلنديين في الفتيات الإيرلنديات . يقول أحد المقاتلين لمورنا ابنة الملك كورماك أشبهك بالثلج فوق المرج . ان شعرك كضباب كروملا حين يتجمد فوق الربى ، حين يتألق إشعاع الغرب ! ونهادك صخرتان ناعمتان تريان من « برانو » ذى الجداول ، وذراعاك كعمودين ناصعي البياض في أبهاء فنجال العظيم^(٣٤) . ثم نلتقى بنهود أخرى ، أقل تحجراً : « نهدي أبيض » و « نهدي نافر » و « نهدي ممتلي »^(٣٥) ، وهي تلهي القارئ قليلاً ، ولكن القصبة لا تلبث أن تنصرف عن الحب إلى أحقاد الحرب .

وأثار « أوسيان » مكفرسن ضجة في اسكتلنده ، وانجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا . فرحب به الاسكتلنديون صفحة من ماضيهم الوسيط البطولي ، وكانت انجلترا مهياً لتقبل رومانس الأسطورة الغيلية وهي التي كانت في ١٧٦٥ ترحب بكتاب يرسى « مخلفات من الشعر الانجلازي القديم » . أما جوته فتدأرانا في ختام « آلام فرتر » (١٧٧٤) بطالمة يقرأ للوثى ست

صفحات من أوسيان . وكانت تحوى قصة دورا العذراء الرقيقة يروها أبوها أومين : كيف أغرتها « الأرض » الشريرة واقتادتها إلى صخرة فى البحر بوعدا بأن حبيبها أرمار سيلقاها هناك ، وكيف تركتها الأرض على الصخرة ، وما من حبيب أتى . « فرفعت صوتها ، ونادت على أخيها وأبيها : ارندال ! أرمين ! » وجدف ارندال لينقلها ، ولكن سهما أطلقه عدو مختبئ فتاك به ، وجاء حبيبها أرمار إلى الشاطئ ، وحاول أن يسبح إلى دورا ، « ولكن ريحاً عاصفة من الثل طغت فجأة على الأمواج ، فغاص فى اليم » ولم يطف بعدها . أما الأب الذى كان أعجز وأضعف من أن يخف لنجدتها فأخذ يصرخ مرتعباً يائساً :

« على الصخرة التى يطمها اليم سمعنا ابنى تستغيث وهى وحيدة . وكانت صرخاتها مترددة عالية فما الذى فى وسع أبيها أن يفعله ؟ لقد وقفت على الشاطئ الليل كله وأبصرتها على ضوء القمر الكليل . . . وكان للريح ضجيج والمطر ينهمر وابلا على الثل . وقبل أن ينباح الصبح كان صوتها قد خفت ، ثم تلاشى كأنه نسيم المساء بين عشب الصخور . لقد قضت كمداً وحزناً .

« لقد ضاعت قوتى فى الحرب ، وسقطت كبرياتى بين النساء ، وحين تهب العواصف العاتية ، وحين ترفع ريح الشمال الموج عالياً أجلس إلى الشاطئ الصاخب وأنظر إلى الصخرة القاتلة . وكثيراً ما أرى أشباح أطفالى على ضوء القمر الغارب . . . أما نتكلم أحدكم رحمة بى ! » (٣٦) .

ولم يلبث أن ثار جدل حول الملحمة : فهل « أوسيان » حقاً ترجمة عن الملاحم الغيلية العتيقة ، أم أنه سلسلة من القصائد نظمها مكفرسن ودسها على شاعر ربما لم يعيش قط ؟ لقد صدق دعوى مكفرسن هررد وجوته فى ألمانيا ، وديدور فى فرنسا ، وهيوبلر ولورد كيمز فى اسكتلنده . ولكن فى ١٧٧٥ أعلن صموئيل جونسن فى كتابه « رحلة إلى جزائر اسكتلنده الغربية » بعد تحقيقات فى الهيريد (١٧٧٣) رأيه فى القصائد الأوسيانية : « أعتقد أنها لم توجد قط فى أى صورة إلا الصورة التى رأيناها عليها . فلم

يستطيع المحرر ، أو المؤلف ، إبراز الأصل قط ، وإن يستطيع ذلك غيره كائناً من كان » (٣٧) . وكتب مفكرسن لجونسن يقول إن شيخوخة الرجل الانجليزي وحدها هي التي تحميه من تحديه للمبارزة أو من ضربه « علقه » ، ورد جونسن « أرجو ألا توقى أبداً سفالة وشب عن كشف ما أعتقد أنه غش وزيف . . . لقد كان رأيي في كتابك أنه منقول ، وما زال رأيي فيه كذلك . . . أما غضبك فإني أتخذه » (٣٨) . وشارك هيوم وهوراس ولبول وغيرهما جونسن شكوكه . ولما طالب إلى مكفرسن أن يبرز الأصول التي زعم أنه ترجمها تباطأ ، ولكنه ترك عند موته مخطوطات ملاحم غيلية ، استعمل بعضها في وضع حبكة قصائده وتقرير طابعها . وقد أخذ عن هذه النصوص الكثير من العبارات والأسماء ، ولكن الملحمين كانتا من إنشائه .

على أن الغش لم يكن بالشدّة أو الشناعة اللتين زعمهما جونسن : فلنسمه جوازاً شعرياً على نطاق واسع جداً . والمحمّتان الشعريتان النريتان ، إذا أخذناهما في ذاتهما ، تبرران بعض ما حظيتا به من إعجاب ، فقد أعربتا عن جمال الطبيعة وأهوالها ، وعن ضراوة الحقد ، وعن لذة الحرب . وكان فيهما نزعة عاطفية مسرفة في الرقة ، ولكنهما جمعتا إليها بعض السمو الذي أوحى به السر توماس ما لورى قبل ذلك في قصيدته « موت آرثر » (١٤٧٠) . وقد صعدتا إلى قمة الشهرة على الموجة الرومانتيكية التي غمرت حركة التنوير .

٥ - آدم سميث

كان آدم سميث بدم هيوم أعظم شخصية في التنوير الاسكتلندي . وقد مات أبوه قبل مولده (١٧٢٣) بشهور ، وكان مراقباً للعجارك في كركلدي . وكانت المغامرة الوحيدة تقريباً في حياة رجل الاقتصاد يوم خطفه الغجر وهو طفل في الثالثة ثم تركوه على جانب الطريق بعد أن طوردوا . وبعد أن تلقى آدم بعض التعليم المدرسي في كركلدي ، واختلف إلى محاضرات هتشسن في جلاسجو ، ذهب إلى أكسفورد (١٧٤٠) حيث وجد المدرسين كسالى تافهين كما سيصفهم جبون في ١٧٥٢ . وعلم سميث نفسه بالاطلاع ، ولكن سلطات الكلية صادرت النسخة التي اقتناها من مبحث هيوم في الطبيعة

البشرية بحجة أن الكتاب لا يصلح إطلاقاً لشباب مسيحي . وكفته سنة واحدة مع أساتذة الكاية ؛ وكان أكثر حباً لأمه ، فعاد إلى كركلدى ، وواصل استغراقه في القراءة . وفي ١٧٤٨ انتقل إلى أدنبره ، حيث حاضر مستقلاً في الأدب والبيان . وقد أعجبت محاضراته بعض ذوى النفوذ ، فعين في كرسي المنطق بجامعة جلاسجو (١٧٥١) ، وأصبح بعد عام أستاذ الفلسفة الأخلاقية — التي شملت الأخلاق ، والقانون ، والاقتصاد السياسي . وفي ١٧٥٩ نشر استنتاجاته الأخلاقية في كتابه « نظرية العواطف الأخلاقية » ، الذي حكم الكل بأنه « أهم كتاب كتب في هذا الموضوع . الشائق » ^(٤١) متجاهلاً في هذا الحكم أرسطو وسبينوزا .

وقد استخلص سمث أحكامنا الأخلاقية من ميلنا التلقائي لتخيل أنفسنا في موقف الغير ؛ فنحن بهذا نردد أصداء عواطفهم ، وبهذا التعاطف ، أو المشاركة الوجدانية ، نحمل على الاستحسان أو الاستهجان ^(٤١) . والحس الأخلاقي متأصل في غرائزنا الاجتماعية ، أو في العادات العقلية التي نتخذها بوصفنا أفراداً في مجتمع ، ولكنه لا يتعارض مع محبة الذات . وقمة التطور الأخلاقي للإنسان يبلغها حين يتعلم أن يحكم على نفسه كما يحكم على الآخرين ، « وأن يسوس نفسه طبقاً للمبادئ الموضوعية — مبادئ الإنصاف ، والقانون الطبيعي ، والحكمة ، والعدالة » ^(٤٢) . والدين ليس المصدر ولا الركيزة لعواطفنا الأخلاقية ، ولكن هذه العواطف تتأثر تأثراً قوياً بالإيمان بانبعاث الناموس الأخلاقي من إله في يده الثواب والعقاب ^(٤٣) .

وفي ١٧٦٤ عين سمث — الذي بلغ الآن الحادية والأربعين — معلماً خاصاً ومرشداً يرافق الدوق بكليوتشمس البالغ ثمانية عشر ربيعاً في سياحة في أوروبا ، وقد أتاح له الأجر الذي كان يتقاضاه في هذه المهمة — وهو ٣٠٠ جنيه في العام — الاطمئنان والفراغ اللذان أعاناه على تأليف رائعته التي بدأ كتابتها خلال إقامته في تولوز ثمانية عشر شهراً . وقد زار فولتير في فرنيه ، والتقى في باريس بهلفيتيوس ودالامبير وكرتيه وطورجو . فلما عاد إلى اسكتلنده عام ١٧٦٦ عاش السنوات العشر التالية قانعاً مع أمه في كركلدى عاكفاً

على تأليف كتابه . وظهر الكتاب واسمه « بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها » عام ١٧٧٦ ، وقد رحب به هيوم في رسالة بعث بها إلى سميث ومات بعدها بقليل .

وكان هيوم نفسه في مقالاته قد أعان على تشكيل آراء آدم سميث الاقتصادية والأخلاقية جميعاً . فقد سخر من « المذهب المركنتلى » الذى حبل التعريفات الجمركية الحامية ، والاحتكارات التجارية ، وغيرها من الإجراءات الحكومية التى يراد بها ضمان زيادة الصادرات على الواردات ، والاستثمار من المعادن النفيسة باعتبارها الثروة الأساسية الأمة . وقال هيوم ان هذه السياسة أشبه بالجهد لمنع الماء من بلوغ مستواه الطبيعى ، ثم عاد لتحرير الاقتصاد من « المعوقات التى لا تحصى عددها . . . والرسوم التى فرضها على التجارة جميع أمم أوروبا وفاقها كلها انجلترا فى هذا المضمار » (٤٤) . وكان سميث بالطبع على بينة من الحملة التى شنها كرتيه وغيره من الفزيوقراطيين الفرنسيين على اللوائح والأنظمة المعوقة للصناعة والتجارة والتى فرضتها نقابات الطوائف الحرفية والحكومات ، ومطالبتهم بسياسة من عدم التدخل تترك الطبيعة تجرى مجراها ، وتجذف فيها جميع الأسعار والأجور مستواها فى منافسة حرة . وكانت الثورة الوليدة آنئذ فى أمريكا على القيود التى فرضتها بريطانيا على تجارة المستعمرات جزءاً من خلفية تفكير سميث . ولو استرشدت الحكومة البريطانية بحرية التجارة التى أشار بها لكان من الجائز ألا يشهد عام صدور كتابه « إعلان الاستقلال » الأمريكى .

وكان لسميث آراء فى النزاع بين بريطانيا وأمريكا . فعنده أن الاحتكار الانجليزى لتجارة المستعمرات « من الذرائع الخبيثة التى يستخدمها النظام المركنتلى » (٤٥) . وقد اقترح إعطاء أمريكا استقلالها دون مزيد من النزاع مادام المستعمرون يرفضون أن تجبى منهم الضرائب لدعم نفقات الامبراطورية البريطانية « وبهذا الفراق ، فراق الأصدقاء المتفاهين ، لن تلبث المودة الطبيعية التى بين المستعمرين ووطنهم الأم . أن تنتعش بسرعة ، وقد تحملهم على إثارتنا فى الحرب كما يؤثروننا فى التجارة ، وبدلاً من أن يكونوا رعايا مزعجين مشاغبين يصبحون أوفى . . . وأكرم حلفاء لنا » (٤٦) . ثم أضاف

« لقد بلغ التقدم السريع الذى أحرزه ذلك البلد هذا المبلغ الكبير من الثروة والسكان والتحسين ، بحيث قد لا ينقضى أكثر من قرن لإقليلا حتى يزيد ما تغله أمريكنا من مال على حصيلة الضرائب البريطانية ، وعندها ينقل مقر الامبراطورية — بالطبع نفسه إلى ذلك الجزء من الامبراطورية الذى ساهم بأكبر نصيب فى الدفاع عن الكل وفى دعمه » (٤٧) .

وقد عرف سمث ثروة أمة من الأمم لا بأنها مقدار الذهب أو الفضة الذى تمتلكه ، بل الأرض وتحسيناتها وغلاتها ، والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه . وكانت نظريته أن أكبر الثروات المادية تكون نتيجة لأكبر الحريات الاقتصادية ، وهذا مع بعض الاستثناءات ، وحب المنفعة الشخصية أمر عام بين جميع الناس ، ولكننا لو سمعنا لهذا الدافع القوى بالعمل بأقصى حرية اقتصادية لحفز من النشاط والجرأة والمنافسة ما يثمر من الثروات أكثر من أى نظام آخر عرفه التاريخ ، (وهذه الفكرة هى فحوى قصة مندبيل الخرافية على النحل ^(٤٨) . فى شرح تفصيلي) وقد آمن سمث بأن قوانين السوق — خصوصاً قانون العرض والطلب — ستنسق بين حرية المنتج ومصاحبة المستهلك ؛ ذلك أنه لو حقق المنتج أرباحاً باهظة لدخل غيره الميدان نفسه ، ولأبقى التنافس المتبادل بينهما الأسعار والأرباح فى نطاق حدود معقولة . ثم ان المستهلك سيتمتع بضرب من الديمقراطية الاقتصادية . ذلك أنه بالشراء أو برفض الشراء سيقرر إلى حد كبير أى السلع تزداد ، وأى الخدمات تقدم وبأى مقدار وثمان ، بدلا من أن تملى الحكومة كل هذه الأمور .

واتباعاً للفيزيوقراطيين (ولكن مع الحكم بأن نواتج العمل وخدمات التجارة ثروة حقيقية كنواتج الأرض) دعا سمث لإنهاء الرسوم الإقطاعية ، والقيود النقابية ، واللوائح الاقتصادية الحكومية ، والاحتكارات الصناعية أو التجارية ، لأنها جميعاً تحد من تلك الحرية التى تتيح التحرك بحملات الإنتاج والتوزيع ، بسماحتها للفرد بأن يعمل ، وينفق ، ويوفر ، ويشترى ، ويبيع كما يشاء . وعلى الحكومة أن تطلق حرية العمل دون تدخل منها ، وأن تترك الطبيعة — أى نوازع الناس الفطرية — تعمل طليقة ، وأن تسمح

للفرد بأن يدبر أمره بنفسه ، وأن يجد عن طريق التجربة . والخطأ العمل الذى يستطيع أدائه ، والمكان الذى يستطيع شغله ، فى الحياة الاقتصادية ، وأن تدعه يغرق أو يعوم .

«لنا لو اتبعنا نظام الحرية الطبيعية هذا ، لكان على الملك (أو الدولة) ثلاثة واجبات تتطلب الاهتمام بها» . . . أولها واجب حماية المجتمع من عنف وغزو جماعات مستقلة أخرى ؛ وثانيها واجب حماية أى عضو فى المجتمع ، جهد الاستطاعة ، من ظلم وقهر كل عضو آخر فيه ، أى واجب لإرساء إدارة صارمة للعدالة ؛ وثالثها واجب الإنفاق على الأشغال العامة والمؤسسات العامة التى لا يمكن إطلاقاً أن يكون من مصلحة أى فرد ، أو أى نفر قليل من الأفراد ، القيام بها أو الإنفاق عليها^(٩) .

هنا نجد صيغة الحكومة الجفرسونية ، والهيكىل العام لدولة تتيح للرأسمالية الجديدة أن تنمو وتزعرع جداً .

على أن الصيغة كانت تنطوى على ثغرة . فما رأى إذا كان منع الظلم يتضمن الالتزام بمنع استخدام الماكربين أو الأقوياء للسدج أو الضعفاء استخداماً غير إنسانى ؟ وقد أجاب سمث : أن ظلماً كهذا لا ينجم إلا عن الاحتكارات المقيّدة للمنافسة أو التجارة ، وقد عدت مبادئه لإلغاء الاحتكارات . ويجب أن نعتمد فى تنظيم الأجور على تنافس أرباب العمل على العمال ، وتنافس العمال على الأعمال ؛ وكل المحاولات التى تبذلها الحكومات لتنظيمها تحبطها قوانين السوق إن عاجلاً أو آجلاً . ومع أن العمل (لا الأرض كما أعتقد الفريوقراطيون) هو المصدر الوحيد للثروة^(١٠) ، إلا أنه سلعة ، شأنه شأن رأس المال ، وهو خاضع لقوانين العرض والطلب . «كلما حاول القانون تنظيم أجور العمال ، كان التنظيم دائماً يخفض هذه الأجور لرفعها»^(١١) ، وذلك لأنه «كما حاولت الهيئة التشريعية تنظيم الفوارق بين السادة وعمالهم ، كان مستشاروها دائماً هم السادة»^(١٢) . وهذا الكلام كتب فى وقت كان فيه القانون الانجليزى يميز لأرباب العمل ، ويحرم على العمال ، تنظيم أنفسهم حماية لمصالحهم الاقتصادية . وقد ندد سمث بهذا التمييز من جانب القانون ،

وتوقع حصول العمال على أجور أفضل لا بالتنظيم الحكومي بل بالتنظيم
العمالي^(٥٣).

وكان رائد الرأسمالية المزعوم هذا دائم الإنحياز إلى العمال ضد أصحاب
الأعمال . فمحلر من مغبة ترك التجارة ورجال الصناعة يقررون سياسة
الحكومة :

« ان مصلحة التجار . . . في أى فرع من فروع التجارة أو الصناعات
هو دائماً مختلف من بعض الوجوه بل متعارض مع مصلحة الجمهور . . .
واقترح أى قانون جديد ، أو أى تنظيم للتجارة ، يصدر عن هذه الطبقة
ينبغي دائماً الاستماع إليه بغاية الحذر . . . فهو صادر عن طبقة من الناس . . .
لهم بوجه عام مصلحة في أن يحدعوا الجمهور بل أن يبغوا عليه ، وهم . . .
في مناسبات كثيرة خدعوه وبغوا عليه أيضاً »^(٥٤).

أهذا آدم سمث أم كارل ماركس ؟ غير أن سمث دافع عن الملكية
الخاصة لأنها حافظ لا غنى عنه للجرأة والمغامرة ، وآمن بأن عدد الأعمال
المتاحة ، والأجور المدفوعة ، سيتوقف أولاً وقبل كل شيء على تجميع
رأس المال واستخدامه^(٥٥) . ومع ذلك فقد دعا لرفع الأجور باعتبار هذا
الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء^(٥٦) ، وألح على إلغاء
الرق على أساس أن « العمل الذى يؤديه الأحرار هو فى النهاية أرخص من
ذلك الذى يؤديه العبيد »^(٥٧).

وحين ننظر إلى سمث ذاته ، فى مظهره ، وعاداته ، وخلقه ، نعجب
كيف كتب رجل معزول على هذا النحو عن عمليات الزراعة والصناعة
والتجارة فى هذه الموضوعات المعقدة المتخصصة بمثل هذه الواقعية والبصيرة
والجرأة . لقد كان شارل الذهن كنيوتن ، قليل الاعتماد بالعرف والتقاليد ،
ومع أنه كان عادة مهذباً لطيفاً ، فقد كان فى وسعه أن يقابل جلافة صموئيل
جونسن برد سريع من كلمات أربع تتشكك فى شرعية نسب « الخان الأكبر » .
وبعد نشر كتابه « ثروة الأمم » قضى عامين فى لندن حيث استمتع بالتعرف
إلى جيبون ورينولدز وبرك^(٥٨) وفى ١٧٧٨ عين — رسول حرية التجارة هذا —

رئيساً للجارك المتحصلة من استكلنده . وبعدها عاش في ادنبره مع أمه ، وظل عزباً إلى النهاية . وقد ماتت أمه في ١٧٨٤ ، ولحق بها في ١٧٩٠ بالغاً السابعة والستين .

وسر لإنجازه الكبير ليس في أصالة تفكيره بقدر ما هو في التمكن من بياناته والتنسيق بينها ، وفي غنى مبادئه التوضيحية ، وفي التطبيق المنير للنظرية على الأحوال الجارية ، وفي أسلوبه البسيط الواضح المقنع ، وفي نظريته العريضة التي رفعت الاقتصاد من مرتبة « العلم الكتيب » إلى مستوى الفلسفة . وكان كتابه علامة عصر لأنه محص ومفسر — ولم ينتج بالطبع — الحقائق والقوى التي أخذت تحول الاقطاعية والتجارية إلى الرأسمالية والمشروعات الحرة . وحين خفضت الثاني الضريبة المفروضة على الشاي من ١١٩٪ إلى ١٢ ١/٢٪ وحاول عموماً أن يحقق للتجارة حرية أكبر ، اعترف بدينه لكتاب « ثروة الأمم » . ونخبرنا اللورد روزبري في حديثه عن حفلة عشاء حضرها بت ، كيف أن الحاضرين على بكرة أبيهم قاموا وقفاً حين دخل سمث وقال بت « سنظل واقفين حتى تجلس ، لأننا جميعاً تلامذتك » (٥٨) . وقد تنبأ السر جيمس مري — بلتني بأن كتاب سمث « سيقنع الجيل الحاضر وبحكم الجيل القادم » (٥٩) .

٥ — روبرت بيرنز

يقول أشعر شعراء اسكتلنده « إن دمي القديم الحسيس قد اندس إلى من أوغاد عاشوا منذ الطوفان » (٦٠) ولكننا لن نتقصى نسبه لأبعد من وليم بيرنز ، الذي لم يكن وغداً بل مزارعاً مستأجراً سريع الغضب شديد الاجتهاد . وفي ١٧٥٧ تزوج آجنس براون ، التي أهده روبرت في ١٧٥٩ . وبعد ست سنوات استأجر وليم مزرعة مساحتها سبعون فدناً في ماونت أوليفانت ، وهناك عاشت الأسرة المتكاثرة عيشة التقتر في بيت منغل . وتلقى روبرت تعليمه في البيت واختلاف إلى مدرسة الأبرشية ، ولكنه اشتغل في المزرعة منذ بلوغه الثالثة عشرة . فلما ناهز الرابعة عشرة « أدخاتني صبية جميلة ، لطيفة مريحة ، في عاطفة حارة لذينة أراها برغم خيبة الأمل المرة ، والحكمة

الثقيلة ، والفلسفة الغارقة في الدرس ، أروع المباهج البشرية» (٦١) . وفي الخامسة عشرة التقى بـ «ملاك» ثان وسهر الليالي المحمومة مفكراً فيها . . وقد استحضّر أخوه إلى الذهن أن «تعلقى روبرت بالنساء اشدت كثيراً ، وكان دائماً ضحية حسناء تسترقه» (٦٢) .

وفي ١٧٧٧ وفي نوبة من الشجاعة المستهترة ، استأجر وليم بيرنز مزرعة لوخلى ، ومساحتها ١٣٠ فداناً ، في تاربولتن ، التي تعاقد على أن يدفع فيها ١٣٠ جنيتها في العام . وأصبح روبرت الذى بلغ الآن الثامنة عشرة ، والذى كان أكبر أبناء سبعة ، العامل الأول في المزرعة لأن وليم شاخ قبل الأوان بعد أن حطمه الكد الذى لا غناء فيه . وقد باعد بين الوالد والولد غلو الأول في البيورتانية ، وانفتاح الآخر على ناموس أرحب . وتردد روبرت على مدرسة للرقص رغم منع أبيه له . قال الشاعر ذاكراً تلك الحقبة « ومن مثل التمرد ذاك شعر بضرب من الكراهية لى ، وكان هذا في اعتقادي من أسباب ذلك الفسق الذى اتسمت به سنوات المستقبل » (٦٣) : وحين بلغ روبرت الرابعة والعشرين انضم إلى محفل ماسونى . وفي ١٧٨٣ صودرت المزرعة للتعاضد في دفع الإيجار . وكتل روبرت وأخوه جلبرت مواردتهما الضئيلة ليستأجرا مزرعة مساحتها ١١٨ فداناً نظير تسعين جنيتها في العام ، وراحا يكسداً فوقها أربع سنين ولا يصيبان منها غير سبعة جنيهات لكل منهما في العام لنفقاتهما الشخصية ؛ وهناك عالا أبويهما وشقيقتاهما وأشقاهما . ثم مات الأب بالسل في ١٧٨٤ .

وقرأ روبرت في ليالى الشتاء الطويلة الكثير من الكتب ، ومنها توارينج روبرتسن ، وفلسفة هيوم ، والفردوس المفقود . « اعطنى روحاً كروح بطلى المفضل ، شيطان ملتن » (٦٤) . فلما غاظته رقابة الكنيسة الاسكتلندية على الأخلاق لم يعز عليه أن ينبذ لاهوتها ويكتفى بليمان غامض بالله والخلود . وقد سخر من أولئك « السنين ، الذين يؤمنون بيوحنا فوكس ، « ونامره الثان بأن هؤلاء القساوسة كانوا فيما بين أيام الآحاد يأثمون خفية كما يأثم » (٦٥) . وقد وصف في قصيدة « المهرجان المقدس » (التي تدور حول اجتماع للإنعاش الدينى) سلسلة من الوعاظ يذمون الخطيئة ويهددون

بالجحيم ، بينما تنتظر المومسات في ثقة خارج الاجتماع زبائن من جمهور المصابين .

واشتد بغض بيرنز لرجال الدين حين أوفد أحدهم مندوباً عنه ليوبخه ويفرغه عقاباً على معاشرته لبتى باتن دون أن يكون زوجاً لها . ثم استحال البغض غضباً حين وبخ مجاس كنيسة موكاين (١٧٨٥) مالك أرضه اللطيف ، جافن هاماتن ، على تخلفه المتكرر عن صلوات الكنيسة . وكتب الشاعر الآن أقذع أهاجيه « صلاة القديس ولى » التى سخرت من فضيلة وليم فشر المراثية ، وكان من شيوخ كنيسة موكاين . فصوره بيرنز يخاطب الله قائلاً :

إنى أبارك وأحمد قدرتك التى لا ضرب لها ،

إذ تركت الألوف فى الليل ،

لتأتى إلى هنا وأنا أمام ناظريك

طالباً عطايك وأفضالك ناراً ونوراً ساطعاً

لهذا البيت كله . . .

رباه إنك عليم بأننى كنت البارحة مع مج . . .

لذلك أطلب عفوك مخلصاً . . .

أواه ! لا تكن هذه الفعلة لطخة دائمة

تلوث شرفى ،

ولن أرفع ساقاً خاطئة

فوقها مرة أخرى .

ثم لابد أن أعترف

بأننى كنت مع ابنة ليزى ثلاث مرات ،

ولكننى كنت ياربى مخموراً فى يوم الجمعة ذاك

حين دنوت منها ،

ولإفما كان عبدك
ليجرؤ على اغوائها قط . . .
ثم أذكر رباه أن جافن هاملتن يهجر الكنيسة ،
ويسكر ويحلف ويلعب الورق
ومع ذلك فقد كثرت حيله المحببة
للناس كبيرهم وصغيرهم ،
وهو يسرق قلوب الناس
من القس الذي اصطفاه الله . . .
رب أدنه في يوم انتقامك ،
رب ابتل من استخذه
ولا تغض عنهم في مراحمك
ولا تستمتع إلى صلاتهم !
ولكن لأجل شعبك أهلكهم
ولا تبق منهم أحداً .
ولكن إذكرني يارب وكل ما أملك
بمراحم أرضية وسماوية ،
حتى أضىء بالنعمة والثراء
ولا يبنى في ذلك أحد ،
وليكن لك كل المجد
آمين ، آمين !

ولم يجرؤ بيرنز على نشر هذه القصيدة فلم تصل إلى المطبعة إلا بعد
موته بثلاث سنين .

وكان في غضون هذا يتيح للكنيسة الكثير من المبررات لتقريعه ، فقد

لقب نفسه « زانياً محترفاً » (٦٦) . وكانت كل عذراء جديدة تثير عاطفته : « كلو الفاتنة تطفو فوق الموجة اللؤلؤية » ، وجين آرمر ، ومارى كامبل الهايلاندية ، وبجي تشالمرز ، و« كلارندا » ، وجنى كروكشانك ، وجنى الدالريه « مقبلة خلال الجاودار » و« الصغيرة الحلوه » دبورا ديفز ، وآجنس فلمنج ، وجنى جافرى ، وبجي كندى الساكنة « نهيير دون الجميل » ، وجسى ليوارز ، وجين لوريمر (كلوريس) ، ومارى موريسن ، وأنا بارك ، وأناوبلى ستيوارت ، وبجي طومسن — وغيرهن (٦٧) . ولم يعوضه عن مشاق الحياة وخطوبها غير عيونهن المشرقة الضاحكة ، وأيديهن الناعمة وصدورهن الناصعة مثل « الثلج المتساقط » . وقد اعتذر عن ثقليه الجسى بأن كل الأشياء فى الطبيعة تتغير ، فلم يكون الإنسان استثناء للقاعدة ؟ (٦٨) ولكنه حذر النساء من الثقة بوعود الرجل (٦٩) . ونحن نعلم أنه أجب خمسة أطفال من زواجه ، وتسعة بغير زواج . قال « إن لى عبقرية فى الأبوة » وخيل إليه أنه لاشفاء له إلا أن يخصى (٧٠) . أما عن توبيخات القساوسة وقوانين اسكتلنده :

فلتضافر الكنيسة والدولة لتنهياى
عن فعل ما لاينبغى أن أفعل .
فلتذهب الكنيسة والدولة إلى الجحيم
أما أنا فلذهب إلى حبيبتي أنا (٧١) .

فلما ولدت له بتى باتن طفلاً (٢٢ مايو ١٧٨٥) عرض أن يتزوجها ، ولكن أبويها رفضا العرض . فانصرف عنها إلى جين آرمر وأعطاهما تعهداً كتابياً بالزواج ، ولم تلبث أن حملت . وفى ٢٥ يونيو مثل أمام مجلس الكنيسة وأعترف بمسئوليته . وقال إنه كان يعد نفسه متزوجاً من جين ، وأنه موف بعهده ، ولكن أباه رفض أن يزوجها لفلاح فى السابعة عشرة مثقل بطفل غير شرعى . وفى ٩ يوليو تلقى بيرنز من مقعده فى الكنيسة التوبيخ العلنى فى اتضاع . وفى ٣ أغسطس ولدت جين توأمين . وفى ٦ أغسطس قبل هو وجين التوبيخ أمام شعب الكنيسة و « أحلاً من الفضيحة » وأقسم الأب ليستصدرن أمراً بالقبض على بيرنز ، فاخبتاً الشاعر وخطط أن يركب البحر

إلى جميعها ، ولم ينفذ أمر القبض ، وعاد روبرت إلى مزرعته. في ذلك الصيف ذاته وعد بأن يتزوج ماري كامبل وأن يصطحبها إلى أمريكا ؛ ولكنها ماتت قبل أن يستطيعا تنفيذ الخطة ؛ وقد أحيا بيرنز ذكرها في قصيدته « ماري الهابلاندية » و « إلى ماري التي في السماء » (٧٢) .

في ذلك العام الحافل بالإنتاج (١٧٨٦) نشر في كلمارنوك أول دواوين شعره بالإكتتاب . وحذف من الديوان القصائد التي قد تسيء إلى الكنيسة أو أخلاقيات الشعب ، وأهيج قراءه بلهجته الاسكتلندية وأوصافه لمشاهد الطبيعة المألوفة ؛ وسرّ الفلاحين برفع دقائق حياتهم إلى مستوى الشعر المفهوم . ولعل شاعراً من الشعراء لم يعبر قط كما عبر عن هذا التعاطف مع الحيوانات التي تشارك في أعباء يوم الفلاح ، أو « الحروف الأبله » الحائر وسط الثلج المنهمر ، أو الفأر الذي أزاحه عن جمحرة المحراث القادم .

ولكنك يا جرذى لست الوحيد

الذي يثبت أن بعد النظر قد يكون باطلا ،

فكثيراً ما تخطيء أشد خطط الفيران والناس احكاماً .

ويكاد يبالغ مبالغ هذه الأبيات في جريها على الألسن مجرى الأمثال تلك التي تختم قصيدته المسماة « إلى قملة عند رؤيتها أخرى على قبة سيدة في الكنيسة » :

ألا ليت قوة من القوى تهبنا أن

نرى أنفسنا كما يرانا اليبير (٧٣) .

ولكى يضمن بيرنز الترحيب بديوانة الصغير توجهه بقصيدة سماها « ليلة سبت الفلاح » : قصور الفلاح يستريح بعد أسبوع من الكد الشديد ؛ وزوجته وأطفاله ياتفنون به كل يحكي قصة من قصص نهاره ؛ وكبرى بناته تقدم لأبيها الخطيب الحجول في تردد واحجام ؛ ثم المشاركة السعيدة في الطعام البسيط ؛ والأب يقرأ الكتاب المقدس على أسرته ؛ ثم الصلاة الجماعية ، وإلى هذه الصورة السارة أضاف بيرنز مناجاة وطنية له « اسكتلنده ، أرضي ووطني الحبيب ا » وبيع كل المطبوع من النسخ إلا ثلاثاً وعددها ٦١٢ في

أربعة أسابيع ، وبلغ صافي حصيلة بيرنز منها عشرين جنيا .
وكان قد فكر في أن يستخدم هذه الحصيلة في دفع أجر الرحلة إلى أمريكا ولكنه عدل وخصصها لفترة يقيمها في أدنبره . فلما بلغها على جواد استعاره في نوفمبر ١٧٨٦ اقتسم حجرة وسريرا مع فتى رينى آخر . وكان يشغل الطابق الذى يعلموهما بعض المومسات الصاخبات . وفتح له الأبواب نقاد أدنبره الأدبيون ، فكان محمود المجتمع المهذب طوال موسم . ووصفه السر ولتر سكوت بهذه العبارات :

« كنت صبيا في الخامسة عشرة عام ١٧٨٦ - ٨٧ حين وفد بيرنز أول مرة على أدنبره . . . ورأيتة يوما في بيت الأستاذ فيرجسون المحترم ، حيث التقي نفر من السادة ذوى الشهرة الأدبية . . . وكان شخصه قويا عفيا ، فيه جهامة ريفية بغير جلافة ، عليه سياء البساطة والصراحة الوقورين . وجهه ضخم والعين واسعة سوداء اللون ، تتألق . . . إذا تكلم . . . وكان في مجلسه من هؤلاء الرجال ، وهم صفوة المثقفين في جيلهم ووطنهم ، يعبر عن رأيه في قوة بالغة ولكن دون أدنى صلف » (٧٥) .

وقد وجد التشجيع على إصدار طبعة مزيدة من قصائده . ولكنى يضيف إلى ديوانه الجديد مزيدا من المادة اعزم أن يضمه قصيدة من بطولاته اسمها «الشحاذون المرحون» لم يجرؤ من قبل على طبعها في ديوان كليمارنوك وقد وصفت القصيدة تجمعاً للمتشردين ، والصعاليك ، والمجرمين ، والشعراء ، والعابثين ، والبغايا ، والعجزة ، والجنود المنبوذين ، في خمارة نانسي جبسن بمدينة موكلين . ثم وضع بيرنز في أفواههم أصرح السير الذاتية وأمعنها في الخطيئة ، واختتم هذا الخليط بكورس مخمور :

« ما أتفه الذين يحميمهم القانون !

إن الحرية مأدبة فاخرة !

وقصور الملوك لم تبني إلا للجناء .

وما شيدت الكنائس إلا مسرة لرعاتها » (٧٦)

وهالت الدارس والواعظ هيو بليز فكرة نشر هذا الازدراء للفضائل

فأذعن بيرنز ، وسى بعد ذلك به نظم هذه القصيدة ، (٧٧) وقد احتفظ بها أحد أصدقائه ثم رأت النور في ١٧٩٩ .

وباع المشرف الأدبرى على النشر نحو ثلاثة آلاف نسخة ، خلص منها لبيرنز ٤٥٠ جنهما . فاشترى فرسا ركها في رحلة إلى إقليم المرتفعات (٥ مايو ١٧٨٧) ثم عبر نهر تويد ليرى طرفا من إنجلترا . وفي ٩ يونيو زار أقاربه في موسجبل ، وألم بجن آرمر ، فرحبت بمقدمه ، وحبلت مرة أخرى . فلما عاد إلى أدنبره التقى بمسز أجنييس مليهوز . وكانت قد تزوجت جراحا من جلاسجو وهى فى السابعة عشرة ، ثم تركته فى الحادية والعشرين (١٧٨١) مصطحبة أطفالها واستقرت فى العاصمة فى عيشة كريمة مدبرة . فدعت بيرنز إلى بيتها ، ووقع فى غرامها دون إبطاء ، ويبدو أنها لم تسلمه نفسها ، لأنه ظل مقبيا على حبها ، وتبادلا الرسائل وقصائد الشعر ؛ وكان توقيعها عليها باسم « سيافاندر » وتوقيعها « كلاريندا » . وفى ١٧٩١ قررت أن ترحل وتلتحق بزوجها فى جميكا . وبعث إليها بيرنز أبياتا رقيقة على سبيل الوداع .

قبلة حارة واحدة ثم نفترق ،
وداع واحد ، ثم لا لقاء بعده !
لو لم نحب هذا الحب الرقيق ،
ولو لم نحب هذا الحب الأعمى ،
ولو لم نلتق ولو لم نفترق ،
لما تحطم قلبانا قط (٧٨) .

ولكنها وجدت زوجها يعيش مع ساقية زنجية ، فعادت إلى أدنبره . أما وقد عجز بيرنز عن إشباع عشقه لها ، فتد التمس الصحبة والقصف فى ناد محلى يسمى « المدافعين عن كروكلان » - رجال تعاهلوا على الدفاع عن مدينتهم . هناك كان الخمر والنساء هما الآلهة الحارسة » ، والفسق السيد المتسلط . وقد جمع بيرنز لأجابه الأغانى الأسكتلندية القديمة وأضاف إليها من عنده ؛ ووجد بعضها طريقه إلى النشر سرا وغفلا عن اسم الشاعر عام ١٨٠٠ بعنوان « عرائس شعر كلدونيا المرحات » . وقد قضى على ترحيب

مجتمع أدنبره الراقى ببيرنز سريعا انتمأوه إلى هذا النادى ، وازدراؤه السافر للفوارق الطبقيية ^(٧٩) ، وإعرايه الصريح عن الآراء المتطرفة فى الدين والسياسة .

ثم حاول الحصول على وظيفة جاب للضرائب . فلما صد عنها غير مرة ، راض نفسه على مغامرة جديدة فى الفلاحة . وفى فبراير سنة ١٧٨٨ استأجر مزرعة لإيسلاند ، الواقعة على خمسة أميال من دمفريز ، واثنى عشر من كريجنيتوك مدينة كارليل . وأقرض مالك المزرعة الشاعر ٣٠٠ جنيه ليبنى بيتا فى المزرعة ويسيج الحقل بعد أن وصف التربة فى غير مواربة بأنها « فى أسوأ حالات الإنهاك » ^(٨١) . واتفق على أن يدفع له بيرنز خمسين جنيه كل عام على امتداد ثلاث سنين ، ثم سبعين . وولدت جين آرمر أثناء ذلك توأمين (٣ مارس سنة ١٧٨٨) لم يلبثا أن ماتا . وتزوجها بيرنز قبل ٢٨ ابريل بقليل ، وأقبلت بطفنها الوحيد الذى بقى لها من أطفالها الأربعة الذين ولدتهم له لثخدمه زوجة ومديرة لبيته فى الإيسلاند . وأنجبت له طفلا آخر سماه بيرنز « رائعى فى ذلك النوع من الصناعة ، لأنى أرجو أن يكون » فام أو شانتر « لإنجازى القياسى فى الميدان السياسى » ^(٨١) وفى سنة ١٧٩٠ توثقت علاقته بآنا بارك ، الساقية فى حانة دمفريز ، وفى مارس سنة ١٧٩١ ولدت له طفلا أخذته جين وربته مع أطفالها ، ^(٨٢)

وكانت الحياة شاقة فى إيسلاند ، ولكنه واصل قرض الشعر الرائع . وهناك أضاف مقطعين شهيرين لأغنية سكارى قديمة سماها « الأيام الخوالى » وظل بيرنز يكدح حتى انهارت قواه كما انهارت قوى أبيه من قبل . واغتبط حين عين (١٤ يوليو سنة ١٧٨٨) مفتش لإنتاج ، يحجوب البلاد ليعاير البراميل ، ويفتش على أصحاب المطاعم ، والشامعين ، ويقدم تقاريره لمجلس لإنتاج أدنبره . ويبدو أنه أَرْضَى المجلس رغم كثرة شعجاره مع جون بارليكورن . وفى نوفمبر سنة ١٧٩١ باع مزرعته بريح ، وانتقل مع جين والأطفال الثلاثة إلى بيت فى دمفريز .

وقد آذى شعور أهل المدينة الوقورين بررده على الخانات ، وعودته مرارا إلى جين الصابرة وهو ثمل بالخمير . ^(٨٣) على أنه ظل شاعرا فحلا ،

ففي تلك السنوات الخمس نظم هذه القصائد: يا ضفاف نهر دون الجميل ومروجه
و « إلى الأسكتلنديين الذين أريقتم دماؤهم مع ولاس » و « حبيبتى أشبه
بوردة حمراء حمراء » . وقد تبادل الرسائل مع السيدة فرانسس دنلوب ،
التي كان يزورها أحيانا وكان في عروقتها أثارة من دم ولاس ، لأنه اختتمد
في زوجته الرفيق الفكري . وقد جاهدت هذه السيدة لترويض أخلاق بيرنز
ولغته ، ولم يكن ذلك دائما لفائدة شعره . وكان أكثر نقديرا لأوراق
البنكنوت من فئة الجنيهات الخمسة ، التي كانت توافيه بها بين الحين
والحين . (٨٤)

وقد عرض وظيفته في تفتيش الإنتاج للخطر بآرائه التطرفة . فأشار على
جورج الثالث في خمسة عشر مقطعا رائعا أن يتخلص من وزرائه الفاسدين ،
ونصبح أمير ويلز (ولي العهد) بأن يكف عن فجوره ، وعن إسرافه في
لعب القمار مع تشارلي (فوكس) « إن شاء أن يرث العرش » (٨٥) . وفي خطاب
أرسله لصحيفة أدنبره « كورانت » صفق لإعلان الاستقلال الأمريكي .
وفي سنة ١٧٨٩ كان « نصيرا متحمسا » للثورة الفرنسية . وفي سنة ١٧٩٥
فجّر لغما على فوارق المراتب .

أبسبب الفقر الشريف
ينكس الفقير رأسه ويخزي ؟
لنا لمر بالعبد الجبان فلا نعبأ به ،
ولنا نجوؤ على أن نكون فقراء رغم هذا كله ! .
ورغم أن كونا وكلدحنا مجهولان مغموران .
أن المرات ليست سوى خاتم الجنيه ،
أما الإنسان فهو الذنب رغم هذا كله .

• • •

إن الرجل الشريف ، وإن اشتد فقره
أمير القوم رغم هذا كله .

• • •

أثرى ذلك الرجل الذى يلقبونه لوردا
والذى يمثّال فى مشيته ويحدق فى الناس ،
إنه ليس إلا غبيا أحمر رغم هذا
وإن انحنى المئات لأمره ونهيه

* * *

إذن لنصل لىأتى ذاك اليوم ،
وهو آت لاريب فيه رغم هذا كله ،
يوم يحقق العقل والكفاءة الانتصار فى كل الأرض قاطبة
إنه آت رغم هذا كله ،
يوم يقف الرجل أمام الرجل
إنخوانا فى بقاع الأرض .

وتوالت الشكاوى على مجلس الانتاح تقول أن رجلا متطرفا كهذا
ليس بالرجل الذى يصلح للتفتيش على الشماعين ومعاوية براميل الخمر ،
ولكن أعضاء المجلس صفحوا عنه لجهه لاسكتلنده واشادته بها . وكانت
الجنهات التسعون التى أنته بها وظيفته لا تكاد تتيح له الخبز والكأس ،
وواصل تشرده الجنسى ، وفى ١٧٩٣ ولد له طفل من السيدة ماريا ريدل
التي اعترفت بـ « قوة جاذبيتى التى لا تقاوم » وأضعف إدمانه الخمر عقله وكبرياه
آخر الأمر . فراح يرسل إلى أصدقائه خطابات الاستجداء على نحو ما كان يفعل
موتسارت فى هذا العقد ذاته .^(٨٦) ورددت الشائعات أنه مصاب بالزهرى ،
وأنه عثر عليه ذات صباح قارس البرد فى يناير ١٧٩٦ ملقى وسط الثلوج وهو
سكران .^(٨٧) وقد انتقدت هذه الشائعات باعتبارها هرطقة لاسند لها ،
ويشخص الأطباء الاسكتلنديون مرض بيرنز الأخير بأنه حمى روماتزمية
أذت قلبه .^(٨٨) وقبل أن يموت بثلاثة أيام كتب إلى حميه يقول « أرجوك
بالله أن ترسل السيدة آرمارالينا فوراً ، فزوجتى تتوقع كل ساعة أن تلزم
الفراش . رباها ! أى موقف يمكن أن تفقه المرأة المسكينة وهى بغير
صديق ! .^(٩٨) ثم لزم فراشه ومات فى ٢١ يوليو ١٧٩٦ . وبينما كانوا

يوارونه التراب ولدت زوجته إينا . وجمع أصدقائه بعض المال للعناية بها ، وقد عمرت إلى عام ١٨٣٤ لأنها كانت صلبة العود قوية القلب .

٦ - جيمس بوزويل (٥)

١ - الشبل

كان يجرى في عروقه الدم الملكي . فأبوه الكسند بوزويل ، سيد ضيعة أوخنك في إيرشير والقاضي بحكمة اسكتلنده المدنية العليا ، سليل لأيرل أران ، وهو جد بعيد لجيمس الثاني ملك اسكتلنده . أما أمه فتحدت من إيرل افوكس الثالث ، وكان جد اللورد دارنلي ، الذي كان أباً لجيمس السادس . وقد ولد جيمس بوزويل بأدنبره في ٢٩ أكتوبر ١٧٤٠ . وكان بوصفه أكبر أبناء ثلاثة الوريث لضيعة أوخنك المتواضعة (وكان ينطقها أفليك) ، ولكن بما أن أباه عمر حتى ١٧٨٢ ، فقد كان عليه أن يظل غير قانع بما يجربه عليه اللورد من دخل . وأصيب أخوه جون في ١٧٦٢ بأولى نوبات الجنون العديدة وكان بوزويل نفسه فريسة لنوبات من الوهم التمس الشفاء منها في غيبوبة الشراب ودفء أجساد النساء . وقد علمته أمة العبيدة

(٥) كان اكتشاف يوميات بوزويل من أشد الأحداث إثارة في تاريخ عصرنا الأدبي . وكان قد أوصى بأوراقه لورثته الذين رأوا فيها من الفضائح ما لا يسبغ نشرها . وقد عثر على رزمه منها تحتوى « يومية لندن » في فركيرن هاوس ، قرب أبردين ، عام ١٩٣٠ . واستكشف كنز أكبر من صناديق وخزانات قلعة مالاهايد قرب ديلن ، في ١٩٢٥-٤٠ . واشترى الكولونل رلف ايشام معظم الأوراق ، ثم اشترتها منه جامعة ييل . وقد حققها الأستاذ فردريك أ . بوتل لشركة ماكجرو- هيل للنشر ، وهي صاحبة الحق الوحيدة في نشرها . . ونحن شاكرون للمحقق وللناشر الاذن لنا بنقل بعض الفقرات من اليومية . وقد ظهر كتاب الأستاذ بوتل « جيمس بوزويل : السنوات الأولى » بعد كتابة هذا الفصل . .

(م ١٣ - قصة الحضارة ، ج ٤٢)

الكلفنية المشيخية التي كانت تنبض بدفء تفردت به . كتب في تاريخ لاحق يقول « لن أنسى ما حييت ساعات الخوف التعسة التي تحملتها في صباى نتيجة الأفكار الضيقة عن الدين ، بينما كان عقلى يمزقه رعب جهنمى »^(٩٠) ، وكان طوال حياته كلها يتذبذب بين الإيمان والشك ، وبين التقوى والإنغماس في لذة الجنس . ولم يحقق قط أكثر من تكامل وقى أو اطمئنان عابر .

وبعد أن تلقى الدروس في البيت فترة أرسل إلى جامعة إدنبره ، ثم إلى جلاسجو ، حيث اختلف إلى محاضرات آدم سميث ودرس القانون . وفي جلاسجو التقى بالممثلين والممثلات وكان بعضهم كاثوليكاً . وبدأ له أن مذهبهم أكثر من الكلفنية توافقاً مع الحياة المرحية ، وأعجبته بوجه خاص عقيدة المطهر التي تسمح للمخطيء بالخلاص بعد بضع دهور من الحريق . فركب جيمس فجأة واندلق إلى لندن (مارس ١٧٦٠) وانضم إلى كنيسة روما .

وأرسل الأب المفزع إلى إيرل أجلتن يناشده أن يرعى جيمس ، وكان الرجل جاراً من جيرانه في إيرشير يسكن لندن . وقال الايرل للشاب أنه ظل كاثوليكياً فلن يستطيع أبداً أن يمارس المحاماة ، أو يدخل البرلمان ، أو يرث أو يخلع . فنقل جيمس إلى اسكتلنده وكنيستها ، وعاش تحت سقف أبيه وبصره ، ولكن لما كان القاضي مشغولاً ، فقد أفلح ابنه في أن يلتقط عدوى مرض سرى «^(٩١) وكانت أولى إصاباته الكثيرة بالمرض السرى . وخاف الأب أن يبدد الفتى الطائش ميراث أوخنك على اللهسو والعريضة حين يرثها ، فأقنعه لقاء راتب سنوى قدره مائة جنيه بأن يوقع وثيقة يكل بمقتضاها إدارة التركة مستقبلاً لأوصياء يعينهم بوزويل الأب .

وفي ٢٩ أكتوبر ١٧٦١ بلغ جيمس سن الرشد ، فضعف راتبه السنوى . وفي مارس التالى حبلت منه جى دويج ، وفي يوليو جاز امتحان المحاماه . وفي أول نوفمبر ١٧٦٢ انطلق إلى لندن بعد أن ترك لبعجى عشرة جنينيات (وقد ولدت طفلها بعد بضعة أيام ، ولكن بوزويل لم يره قط) .

ولم يتخذ له في لندن غرفة مريحة في داوونج ستريت . ولم يأت الخامس والعشرون من نوفمبر حتى شعر أنه « نعس حقاً لافتقاره إلى النساء » (٩٢) ، ولكنه تذكر مرضه المعدى ، ثم إن « أعاب الجراحين في هذه المدينة باهظة » (٩٣) . وعلى ذلك تجلّد حياة العفة « حتى أعر على فتاة مأمونة ، وأنجبنى امرأة من نساء المجتمع العصري » (٩٤) . وكان انطباعه عن لندن أنها تقدم كل لون من ألوان الغواني ، « من السيدة الفخمة التي تنقضى خمسين جنيه - سا في الليلة إلى الحورية اللطيفة التي تسلم شخصها الجذاب لشرفك لقاء كوب من النبيذ وشلن واحد » (٩٥) . واتصل بـ « ممثلة مليحة » تدعى لويّزة ، بدا له أن تمنعها الطويل يشهد بنظافتها الصحية . وأخيراً أغراها ، وحقق نشوة مخمسة ، « وقد صرحت بأنني أعجوبة » (٩٦) . وبعد ثمانية أيام اكتشف أنه أصيب بالسليلان . وفي ٢٧ فبراير شعر أنه شفى ، وفي ٢٥ مارس التقط مومساً من عرض الطريق و « باشرها وهو مدرع » (بكيس واق) . وفي ٢٧ مارس « سمعت صلاة في كنيسة سانت ونستن » وفي ٣١ مارس « تمشيت في هايدبارك وأخذت أول بغى لقبها » (٩٧) وتسجل « يومية لندن » التي خلفها بوزويل أمثال هذه المغامرات خلال الشهور الأربعة التالية - في جسر وستمنستر ، وفي حانة « هد تافرن » التي كان يرتادها شكسبير ، وفي هايد بارك ، وفي حانة على الستراوند ، وفي محاكم التمثيل ، وفي بيت الفتاة .

وهذا بالطبع ليس إلا جانباً واحداً في صورة رجل ، وحشد هذه الأحداث المتفرقة في فقرة واحدة يعطى انطباعاً خاطئاً عن حياة بوزويل وخلقه . أما الجانب الآخر فهو « حبه الحار لعظماء الرجال » (٩٨) . وأول صيد له في هذا كان جاريك ، الذي استطاع مدائح بوزويل وأحبه لتوه ، ولكن جيمس كان يتطلع إلى الدرّ الشاحنة . وكان قد سمع في إدنبره توماس شريدان يصف لودعية صموئيل جونسن وحديثه الدسم . فقال لنفسه إن لقاء هذا القمة في حياة لندن الأدبية سيكون « ضرباً من الجلد » .

وأعانتة الصدفة على ما ينشد . ففي ١٦ مايو ١٧٦٣ كان بوزويل يشرب

الشأى فى مكتبة الكتبى توماس ديفز بشارع رسل ، وإذا « رجل ذو مظهر رهيب جداً » يدخل المكتبة . وتبين بوزويل شخصه ان لوحة كان قد رسمها رينولدز لجونسن . فرجا ديفز ألا يروح بأن وطنه اسكتلنده ، ولكن ديفز باح بالسر « فى خبث » للفور . ولم يفت جونسن أن يلاحظ أن اسكتلنده بلد طيب يقدم منه الإنسان . وجفل بوزويل . ثم شككا جونسن من أن جارنيك ضمن عليه بتذكرة مجانية للأكسة ولبمز لتحضّر تمثيلية معروضة ، وتجاسر بوزويل على أن يقول « سيدى ، لست أستطيع الاعتقاد بأن مستر جارنيك يضمن عليك بمثل هذا الشئ التافه . » وهنا انقضّ جونسن عليه بقوله « سيدى ، لقد عرفت ديفد جارنيك زمناً أطول مما عرفته ، ولست أرى لك حقاً فى أن تكلمنى فى هذا الأمر » . ولم يكن فى هذا الجواب ما يبشر بصحبة مديدة . و « صبق » بوزويل و « أحس بالحزى » ، ولكن بعد مزيد من الحديث « اقتنعت بانه وإن كان فى مساحكه خشونة ، إلا أنه ليس فى طبعه لؤم » (٩٩) .

وبعد ثمانية أيام ، وبتشجيع من ديفز وبدعم من جراته الصفيقة ، قدم بوزويل نفسه لجونسن فى شقته بالأنر تميّل ، فاستقبله فى تالطف أن لم يكن فى ظرف كثير . وفى ٢٥ يونيو تعشى الدب والشبل معاً بحانة الميتر فى فليت ستريت « كنت فخوراً جداً بفكرة وجودى معه » وفى ٢٢ يوليو « خصصت لنا - أنا ومستر جونسن - غرفة فى مشرب نيركس هد » ثم كتب بوزويل فى يوميته « بعد هذا سأكتفى بتسجيل الذكريات الخاصة بمستر جونسن ، والجلديرة بالتسجيل ، كلما طفت فى ذاكرتى » (١٠٠) وهكذا بدأت هذه السيرة الرائعة .

ولما رحل بوزويل إلى هولنده (٦ أغسطس ١٧٦٣) ليدرس القانون استجابة لألحاح أبيه ، كان لإنسجام الأستاذ وتلميذه عظيماً حتى لقد رافق جونسن ذو الثلاثة والخمسين بوزويل ذا الإثنين والعشرين إلى هاروبتش ليودعه عند رحيله .

ب - بوزويل خارج بريطانيا

واستقر به المقام في أترخت ، حيث درس القانون ، وتعلم الهولندية والفرنسية ، وقرأ كل كتاب فولتير « في الأعراف » (كما يقول) . وقد عانى أول الأمر من نوبة اكتئاب قاسية ، ووبخ نفسه على كونه زير نساء حقيراً ، وفكر في الإنتحار . وألقى اللوم في فجوره الأخير على فقدته لإيمانه الديني . « كنت مرة كافراً » ، وسألت مسلك الكافرين ؛ أما الآن فأنا جنتلمان مسيحي ^(١١١) . ووضع لنفسه « خطة محكمة » لأصلاح ذاته : فهو عازم على إعداد نفسه للقيام بواجبات اللورد الإسكتلندي « وعلى أن يكون وفياً لكنيسة إنجلترا » ، وأن يلتزم بالقانون الأخلاق المسيحي « حذار من أن تتحدث عن نفسك » بل « إحترم نفسك . . . وستكون على العموم شخصية ممتازة » ^(١١٢) .

ثم استعاد إهتمامه بالحياة حين وجد قبولاً في بيوت سراة الهولنديين . فكان في زيه الآن « القرمز والذهب ، . . . والجوارب الحريرية البيضاء ، والخفان الجميلان . . . ومنديل برشلوني ، وعلبة أنيقة لخلعة الأسنان » ^(١١٣) . وعلق قلبه بليزابيلا فان تويل ، التي كان المعجبون بها يلقبونها « حسناء زويان » و« زليدة » أيضاً ، وقد نودنا من قبل عنها واحدة من نساء كثيرات لامعات في هولنده ذلك الجيل . ولكنها عزفت عن الزواج ، وأقنع بوزويل نفسه بأنه قد رفضها . ثم جرب حظه مع مدام جيلفنك ، الأرملة الحسنة ، ولكنه الفأها « المذيبة حصناء » ^(١١٤) . وأخيراً « صممت على القيام برحلة إلى أمستردام واصطياد فتاة » . فلما أن بلغها « ذهبت إلى مأخور . . . وأذى شعوري أن أجدني في مهاوى الفجور الوضيع » وفي الغد « ذهبت إلى كنيسة اوستممت إلى عظة حسنة . . . ثم تحولت مخترقاً المواخير الحقيمة في أزقة قدرة » ^(١١٥) . واستعاد « كرامة الطبيعة الإنسانية » حين تسلم من صديق خطاب تقديم إلى فولتير .

وكان قد وفي بوعده لأبيه بأنه سيدرس بجد في أوترخت ؛ لذلك تلقى منه الإذن والمال للرحلة الكبرى المألوفة التي يتوج بها الجنتلمان الانجليزي

لشباب تعليمه . فودع زليدة ، وبالطبع كان في عينها دموع الحب ، وفي ١٨ يونيو ١٧٦٤ عبر الحدود إلى ألمانيا . ظل قرابة عامين بعدها يرأسها ويبادلها الثناء والنقد . وكتب من براين في ٩ يوليو يقول :

« بما أننا قد رفعنا الكلفة فيما بيننا تماماً يا زليده ، فيجب على أن أقول لك ان في قدر آمن الغرور يمكن لتخيلي أنك كنت حقاً تجيبني وان في من الأرجح ما يسمح لي بتجنب خديعتك فلست أود الزواج منك لأكون ماكاً فلا بد لزوجتي من أن تكون شخصية مناقضة تماماً لعزيتي زليده ، إلا في الحب ، والأمانة ، والطف الطبع » (١٠٦) .

ولم تجب . فعاد الكتابة في ١ أكتوبر ، مؤكداً لها أنها تحبه ، ولم تجب ، فعاد الكتابة مرة أخرى في ٢٥ ديسمبر .

« أيها الأنسة ، إنني رجل متكبر ، وسأظل كذلك أبداً . وينبغي أن تفخرى بتعلق بك . ولست أعلم إن كان ينبغي أن أكون فخوراً بالمثل بتعلقك بي . ان الرجال الذين يملكون قلوباً وعقولا مثل نادرون ، أما المرأة الكثيرة المواهب فليست بهذه الندرة وقد تستطعين أن توافيني بتفسير لمسلكتك معي » (١٠٧) .

أما ردها فيستحق أن يفرد له مكان في تاريخ المرأة . قالت :

« تلقيت رسالتك بفرح وقرأتها بشعور العرفان وكل تعبيرات الصداقة تلك ، وكل تلك الوعود بالود الأبدي وبالذكرى الرقيقة أبداً ، والتي خلصت إليها (من كلامها السابق له) ، يعترف بها قلبي ويجدها في هذه اللحظة وقد واصلت تكرار القول بأنني كنت عاشقة لك وأنت تصر على أن أعترف بهذا . وقد صحت على أن اسمعي أقوله وأردده . وأني لأجد هذا نزوة في غاية الغرابة من رجل لانيحي ويراه لزاماً عليه (بدافع اللياقة) أن يقول لي هذا بأصرح العبارات وأقواها وقد صدمني وأحزنني أن أجد ، في صديق كنت أتصوره رجلاً صغير السن موفور التمييز ، الغرور المراهق الذي يتصف به أحق مأفون .

« يا عزيزى بوزويل ، لست مسئولة إطلاقاً عن أنه لم يحدث فى أى لحظة أن اضطرم فى صدرك حديثى أو لهجتى أو نظرتى . فإذا كان هذا قد حدث ، فأنسه . . . ولكن لا تنسى ذكرى الأحاديث الكثيرة التى تبادلناها حين كان كلانا خلى البال كصاحبه : فكنت أنا مغتبطة جداً بتوهى فى غرور أنك متعلق بى ، وكنت أنت سعيداً بالمثل بأن تعدنى صديقة — وكأن المرأة الكثيرة المواهب شيء نادر . . أقول احتفظ بهذه الذكرى ، وثق بأن لك حنانى ، وتقديرى . بل أقول واحترامى . على الدوام » (١١٨) .

وقد أدبت بوزويل هذه الرسالة تأديباً عابراً : فلزم الصمت عاماً . ثم كتب (١٦ يناير ١٧٦٦) من مارس إلى والد زليدة يطلب يدها « ألا يكون مؤسفاً ألا يتحقق ارتباط سعيد كهذا ؟ » (١١٩) . ورد الوالد بأن زليدة تنظر فى عرض آخر . وبعد عام أرسل إليها بوزويل عرضاً مباشراً . فأجابت ، قرأت عبارات إعزازك المتأخرة بسرور ، وبابتسامة . حسناً ، إذن فقد أحببتنى مرة » (١١٠) — ثم رفضت عرضه .

وبينما كانت لعبة المراسلة هذه دائرة كان بوزويل قد جرب الكثير من الأقطار والنساء . فى برلين شهد فردريك على ساحة العرض ، ولكنه لم يره أقرب من ذلك . وصحب إلى فراشه بائعة شوكلاته حبلى بدت له « رفاً سليماً . وفى لميزج التى بجياهرت وجوشيد ، وفى درسدن زار « قاعة الصبور الفخمة التى قيل لى إنها ارفع مثيلاتها فى أوروبا » (١١١) . ثم هبط إلى سويسره بطريق فرانكفورت وماينز وكارلسروهى وستراسبورج . وقد رافقناه من قبل فى زيارته اروسو وفولتير . فى تلك الأيام المجيدة أخذت هالة العبقرية وحمى الشهرة شهوة الشباب .

وفى أول يناير ١٧٦٥ غادر جنيف ليعبر الألب . وأنفق تسعة شهور مبهجة فى إيطاليا ، ورأى كل مدينة كبيرة ، وذاق طعم الأنثى فى كل وقفه ، وفى روما سعى للقاء فنكلمان ، ولثم قدم البابا فى فخفا ، وصلى فى كسدرائية القديس بطرس ، والتقط عدوى مرضه المعضل من جديد . وارتقى فيزوف مع جون ولكس . وفى البندقية قاسم اللورد موتستوارت (بن ابرل بيوت)

محظيته ، ووجدد إصابته بمرضه القديم . وخلال شهر قضاه في سيبينا تودد إلى يورتسيا سانسدونى ، خلية صديقه مونتسيورات ، وحثها على ألا تسمح لأى عاطفة وفاء بأن تعترض كرمها ، لأن « سيدى اللورد في فطرته مالا يجعل الوفاء نخلة يقدر على التحلى بها أو يتوقعها منك » (١١٢) .

على أن جانبه الأنبل تجلى في مآثره التالية . فقد استقل مركباً من ليفورنو إلى كورسيكا (١١ أكتوبر ١٧٦٥) . وكان باولى قد حرر الجزيرة من سلطان جنوه في ١٧٥٧ وله ثمانى سنوات في حكم الدولة الجديدة . والتقى به بوزويل في سوللاكارو ، وقدم إليه رسالة تعريف من روسو . وقد ظن به التجسس أول الأمر « ولكن سمحت لنفسى بأن أطلعها على مذكرة كتبها في المزايا التي تحقها بريطانيا العظمى من تحالف تبرمه مع كورسيكا » ، وبعدها كان يتغذى بانتظام مع الجنرال (١١٣) . وقد دون الكثير من الملاحظات التي أفادته بعد ذلك في كتابه « وصف كورسيكا » (١٧٦٨) . وغادر الجزيرة في ٢٠ نوفمبر ، وسافر في محاذاة الرفيرا إلى مارسيليا ، وهناك وافاه « قواد طويل القامة مهذب » بفتاة « أمينة . مأمونة ، نزيهة » (١١٤) .

وفي اكس — أن — بروفانس بدأ يوانى « اللندن كرونكل » بفقرات أنباء تثير في طبقات متلاحقة ابتداء من ٧ يناير ١٧٦٦ ، أعلمت الجمهور البريطانى بأن جيمس بوزويل يمد انجلترا بمعلومات مباشرة عن كورسيكا فلما وصل إلى باريس (١٢ يناير) أتاه نبأ من أبيه بأن أمه ماتت . وقد تكفل بمصاحبة صديقه روسو ، تريز لفاسير ، إلى لندن ، وقد أسلمت نفسها له في الطريق ان كان لنا أن نصدق روايته . وتابث في لندن ثلاثة أسابيع . ورأى جونسن في مناسبات عدة ، وأخيراً مثل أمام أبيه في ادنبره (٧ مارس ١٧٦٦) . وكانت فترة السنوات الثلاث والشهور الأربعة التي قضاه في الاستقلال والرحلة قد أعانت على إنضاجه . صحيح أنها لم تضعف من شهوته أو من غروره . ولكنها وسعت معارفه وأفقه . وأعطته اتزاناً وثقة بالنفس جديدين ، وأصبح الآن يلقب « بوزويل الكورسيكى » ، رجلاً تغدى مع باولى ، عاكفاً على تأليف كتاب قد يدفع بانجلترا إلى مد يد العون إلى ذلك المحرر وجعل الجزيرة حصناً بريطانياً في بحر استراتيجى .

ح - بوزويل في وطنه

في ٢٩ يوليو ١٧٦٦ رخص له بالاستغفال بالحماماة في اسكتلنده ، وتركزت إقامته طوال السنين العشرين التالية في ادنبره ، وتخال ذلك غزوات كثيرة للنن ، وواسطة الدبان . وربما أعانه منسوب أبيه قاضياً ، ولكن اعانته أيضاً سرعة بديته في النقاش ، فكثير زبائنه ، و « ربح خمسة وتسعين جنياً » في أول شتاء ترافع فيه أمام المحاكم (١١٥) . وخالط السخاء المفرط تقديره لنفسه ، فكان يدفع عن أفقر المجرمين ، ويبدد بلاغته المنمقة على أشخاص لاجراءهم واضح ، ويخسر معظم قضاياه ، وينفق كل أتعابه على الشراب ، ذلك بأنه بعد تلك الشهور المشمسة التي قضاه في إيطاليا أحس بشتاء اسكتلنده يفرى عظمه ، ولم يبد أن هناك دواء لهذا البرد إلا الكحول .

ثم إنه واصل تشرده الجنسي . فاتخذ له خلية تدعى المسز دورز ، واستكمالاتها « كنت أنام الليل كله مع . . . فتاة من عرض الطريق » وسرعان ما « اكتشفت أنني ابتليت بعدوى المرض » (١١٦) وبعد ثلاثة أشهر ، وفي دوار الخمر ، « ذهبت إلى ماخور ، وأنفقت ليلة كذالة بين ذراعي بغي . . . وكانت فتاة رائعة ، قوية ، مرحة ، بغياً جذبرة ببوزويل ، ان كان لابد لبوزويل من بغي » (١١٧) وأصابته عدوى أخرى ، وكان واضحاً أن الزواج هو السبيل الأوحى لإنقاذه من التدهور البدني والأخلاقي . فتودد إلى كاترين بلير ، ولكنها رفضته . ثم وقع في غرام ماري آن بريد ، وكانت صبية إرلندية لها جسم لغريق وأب غني . وتبعها إلى دبلن (مارس ١٧٦٩) ، وفقد غرامه في الطريق ، وسكر ، وألم ببغي إرلندية ، وأصيب مرة أخرى بمرض سري (١١٨) .

وفي فبراير ١٧٦٨ دفع إلى المطبعة بمخطوط « تاريخ لكورسيكا ، يوميات رحلته إلى تلك الجزيرة ، ومذكرات باسكال باولي » ، وأثارت خيال إنجلترا مناشدته بريطانيا لمديدة المعونة لباولي ، وأعدت الرأي العام للتوافق على الإجراء الذي اتخذته الحكومة البريطانية بعد ذلك لإرسال السائح والمؤن سراً إلى الكورسيكيين . وبيع من الكتاب نشرة آلاف نسخة في انجلترا ، وترجم

إلى أربع لغات ، وأكسب بوزويل من الصيت الذائع في القارة ما لم يظفر به جونسن . وفي ٧ سبتمبر ١٧٦٩ ظهر المؤلف في مهرجان شكسبير بستراتفورد مرتدياً زى زعيم قبيلة كورسيكي ، وعلى قبعته كتبت عبارة « بوزويل الكورسيكي » ، وكان هذا الحفلة رقص تنكرية ، لذلك لم يكن يستحق تماماً ما لقي من هزء وسخرية .

وكانت ابنة خاله مرجريت مونجومري قد صحبتته إلى أيرلنده ، واحتملت في وداعة مغازلاته وعربدته الأيرلندية . وكانت تكبره بسنتين ، ولم يكن في مهرها البالغ ١٠٠٠ جنيه ما يجعلها زوجة كفؤاً لوريث أو خنك (كما أكد بوزويل الأب) ، ولكن حين تأمل محبتها الصابرة لاح له أنها امرأة صالحة ستكون زوجة صالحة ، ثم ان اشتهاه بالفسق والسكر حد مجال اختياره . وكان القاضي نفسه يفكر في الزواج ، مما يضع زوجة أب بين الوالد والولد ، وقد يبدد شطراً من التركة . واتمس بوزويل من أبيه ألا يتزوج ، ولكن الأب أصر ، فتشاجرا ، وفكر بوزويل في الذهاب إلى أمريكا ، وفي ٢٠ يوليو ١٧٦٩ كتب إلى « بجي » مونجومري يعرض عليها الزواج والذهاب معه إلى أمريكا والعيش على جنيهاته المائة في العام وعلى فائدة جنيهاتها الألف . وألنرها بأنه عرضة لنوبات من الاكتئاب . وردّها (٢٢ يوليو) جدير بالتنويه :

« أنعمت التفكير ، كما أردت ، وأنا ... أقبل شروطك ... أن ج. ب. بجنياته المائة في العام هو في نظري غالى القيمة تماماً كما لو كنت أملك ضيعة أو خنك ... ولما كنت خلواً من الطمع ، فإنني أؤثر السعادة الحقة على مظهرها الفخم ... فثق يا عزيزي جيمي أن لك صديقة على استعداد لبذل كل شيء في سبيلك ، صديقة لم تشته قط الثروة إلا لتمنحها للرجل الذي ملك قلبها » (١١٩) .

وفي ١٩ نوفمبر تزوج الأب ، وفي ٢٥ نوفمبر تزوج الابن . وأقام الزوجان الشابان بيتاً خاصاً بهما ، وفي ١٧٧١ استأجرا شقة من ديفد هيوم . وكافح جيمس للإقلاع عن السكر ، وجد في عمله محامياً ، وسعد بالأطفال

الذين ولدتهم له زوجته . ويبدو أنها صدت تودده الزوجي خلال الشهور الأخيرة من حملها المتكرر ، ففي ٢٧ أكتوبر ١٧٧٢ ذهب إلى مومسي بعد أن « أفرط في شرب النبيذ » (١٢٠) . وقد التمس لنفسه العذر بحجة أن التسرى أجازته التوراة . ثم عاد إلى الشراب ، وأضاف إليه القمار . جاء في يومياته بتاريخ ٥ أكتوبر ١٧٧٤ « شربت حتى ثملت » وفي ٣ نوفمبر « شرب كثيرون منا من الغداء حتى العاشرة ليلاً » وفي ٤ نوفمبر « ثملت جداً . . . وقعت على الأرض بعد عنف كثير » وفي ٨ نوفمبر « سكران مرة أخرى » وفي ٩ نوفمبر « كنت مريضاً جداً ، ولم أستطع مغادرة الفراش حتى الساعة الثانية تقريباً » وفي ٢٤ ديسمبر : « كنت سكران جداً . . . مكثت أكثر من ساعة مع مومسين في مسكنها على سلم قلندر ضيق في حى البو . ووجدت طريقى إلى بيتى حوالى الثانية عشرة . لقد سقطت » (١٢١) . وغفرت له زوجته ، وبذلت له العناية في أمراضه .

وكان لشربه الخمر أسباب كثيرة : كثرة قضاياه الخاسرة في الخماسة ، والعنت الذى لقيه في علاقته بأبيه ، وخزيه من خيائنه الزوجية وشعوره بأنه لم يحقق أحلام عزوره ، واشتمزازه من الحياة في اسكتلنده . وألف أن يهرب إلى لندن كل سنة تقريباً ، من جهة ليرافع في قضاياء له هناك ، ومن جهة أخرى ليستمتع بحديث جونسن ، ورينولدز ، وجاريك ، وبيرك . وفي ١٧٧٣ سمح له بالانضمام إلى « النادى » . وفي خريف ذلك العام جاب شوارع إدنبره في فخر وإلى جواره الدكتور جونسن ، توطئة لرحلتهما إلى جزر الهبريد .

ظل في رحلاته اللندنية هذه أول الأمر وفيماً لزوجته ، وكان يكتب إليها في شغف ، ولكن ما وافى عام ١٧٧٥ حتى كان قد استأنف إيثاره للعبدة الجنسية . وقد اشتد انشغاله بها حوالى نهاية مارس ١٧٧٦ يقول « فلما نزلت إلى الشارع ركبتنى شهوة الفسق ، ففكرت في أن أخصص لها ليلة » . ولكن التخصيص انتهى بعدة ليال . « فكرت في زوجتى الغالية بأعظم احترام وأحر محبة ، ولكن ساورتنى فكرة مشوشة بأن اتصالى الجسدى بالعاهرات لايمس حبنى طابسوء » (١٢٢) . ورده إلى رشده مرض سرى جديد ،

وقد جرت عليه هذه المغامرات ، وتبعيته لجونسن ، تعليقات ملؤها
الازدراء من رجال كهوراس ولبول ، ونقداً لاذعاً (بعد موته) من
ماكولى (١٢٣) ، ولكنها لم تتركه بغير صديق . « ان اتصافى بالكفاءة
وكثرة المعارف يجعل الناس مغرمين بكسب مودتى » (١٢٤) وكان أكثر
اللندنيين يوافقون بوزويل على أنه ليس لامرأة الحق فى رجل بأكمله . وإذا
كان رجال كجونسن ورينولدز قد أحبووه ، وإذا كانت بيوت لندنية
كثيرة قد فتحت له أبوابها ، فلا بد أنه كان يملك الكثير من السجايا المحببة .
وقد عرف هؤلاء الرجال ذوو البصيرة الثاقبة أنه كان يتنقل من امرأة
لأخرى ، ومن فكرة لفكرة ، تنقل المسافر المستعجل ، يחדش سطوحاً
كثيرة دون أن ينفذ إلى لباب الأشياء ، ودون أن يشعر قط بالروح المرضوضة
وراء لحم الضحية . وقد عرف هو أيضاً هذه الحقيقة فقال « ان لى فى الحق
عقلاً صغيراً مع كل كبريائى ، وما أشبه المعنى بالوشى على الشاش » (١٢٥) .
« ان فى أفكارى كلها نقصاً ، وسطحية . ولست أفهم شيئاً بوضوح ، وللى
القاع . فأنا ألتقط الشظايا ، ولكنى لست أملك فى ذاكرتى كتلة كاملة
ذات كبر أيا كان » (١٢٦) .

ولكن تلك الشظايا وتلك الذاكرة ، هى التى كفرت عنه ، فقد عرض
عن عيوبه بعبادته لذلك التفوق ، الذى لم يستطع تحقيقه لنفسه ، فى الآخرين ؛
بملازمتهم فى تواضع ، يتذكر كلماتهم وأفعالهم ، وأخيراً ، وبراعة
عظيمة ، بوصفها فى ترتيب وفى ضوء ألفا صورة لاتبارى لرجل ولعصر .
« ليت القناع لا يمزق عنا إبداً — عن أجسادنا وعقولنا ، عن شهواتنا الدفينة
وغرورنا الذى لاينى — مثل ما أمعن هذا الرجل ، نصف التابع الخانع
نصف العبرى ، فى الكشف عن نفسه للأجيال القادمة .



الفصل الثاني والثلثون

المسرح الأدبي

١٧٥٦ - ٨٩

١ - الصحافة

كان في الخلفية جرائد ، ومجلات ، وناشرون ، ومكتبات منتقاة ، ومسارح ، كلها تتكاثر في اندفاع ، وتنقل صراعات الأحزاب والمواهب إلى جمهور لا يفناً يتعاضم ، وقد ولدت الآن عدة مجلات : « المجلة الأدبية » ، و « مجلة النقد » في ١٧٥٦ ، و « الدفتر العام » في ١٧٦٠ . وبدأت صحيفة جونسن « الرامبلر » (الجوال) في ١٧٥٠ ، وكانت « مجلة الجنتلمان » التي أطعمت جونسن في سنوات كفاحه قد بدأت في ١٧٣١ ، وقدر لها أن تعمر حتى ١٩٢٢ . وضاعت جرائد لندن عددها ومجموع توزيعها في هذه الفترة . وبدأت « المونيتور (المرشد) في ١٧٥٥ ، و « النورث برين » في ١٧٦١ ، والمورننج كرونكل في ١٧٦٩ ، والمورننج هرلد في ١٧٨٠ ، والديلي يونفبرسل رجستر في ١٧٨٥ ، التي أصبحت التيمز في ١٧٨٨ . ووقعت صحيفة « الببلِك أدفرتايزر » على منجم ذهب بنشرها رسائل جونيوس « فارتفع توزيعها من ٤٧,٥٠٠ إلى ٨٤,٠٠٠ . وكانت معظم الصحف اليومية الأخرى تعيش على عدد ضئيل من القراء ؛ من ذلك أن توزيع التيمز في ١٧٩٥ لم يزد على ٤,٨٠٠ ، وكانت أكثر تواضعاً في الحجم منها في الكلام . فهي تصدر عادة في أربع صفحات ، تفرد لإحداها للإعلانات . وقد ظن جونسن في ١٧٥٩ أن الإعلان في الصحف قد بلغ حده النهائي .

« لقد زادت الإعلانات الآن زيادة جعلتها تقرأ باهمال شديد ، فأصبح من الضروري لفت النظر بالوعود البراقة ، وبالبلaglia التي تكون أحياناً رائعة وأحياناً مئيرة للشفقة . فتاجر سائل التجميل مثلاً يبيع غسولاً يزعم أنه يمنع البثور ، ويزيل الخمش ، ويطري الجلد ، ويربل اللحم . . . وقد بلغت حرفة الإعلان الآن من الكمال ما لا يسهل معه اقتراح أى تحسين عليها ، ولكن بما أن كل فن ينبغي أن يمارس بالخضوع الواجب للصالح العام ، فلست أملك إلا أن أطرح الأمر على هؤلاء المتهكمين في سماع الشعب بوصفه سؤالاً أخلاقياً ، وهو : ألا يتلاعبون أحياناً بعواطفنا تلاعباً فيه الكثير من العبث والاستهتار ؟ (١) » .

وظل الطباعون والكتيبون والناشرون محتلمطين اختلاطاً كبيراً في حرفة واحدة ، من ذلك أن روبرت ددسلي كان قد نشر أعمال بوب وتشستر فيلد ، فطبع الآن لولبول وجولدسميث . وكان لتوماس ديفنز مكتبة يقبل المشترون عليها ، ويسمح فيها لهم بالتنقيب على « هيل » ، وقد ألف جونسن وغيره الاختلاف إليها لتصفح الكتب و « البصيصة » لزوجة الرجل الجميلة « وظفر ولهم سترهان بالشهرة بنشره قاموس جونسن ، وكتاب آدم سميث « ثروة الأمم » ، وكتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ، وقد نشر الكتابان الأخيران في « سنة العجائب » ١٧٧٦ . وأسست أكسفورد مطبعة كلارندن في ١٧٨٠ . وكان الكتيبون ينقلون المؤلفين أجوراً طيبة عن الكتب الجيدة ، ولكن كان في استطاعتهم استخدام الكتاب المأجورين لإعداد المقالات والمصنفات لقاء أجر حتمرة . يقول كتيبي في قصة هنري بروك « الأحقق الوجيه » (١٧٦٦) « في استطاعتى تكليف أحد هؤلاء السادة . . . الذين أنفق على تعلم الواحد منهم من المال أكثر . . . مما يعزل أسرة كريمة إلى آخر الدهر . . . استعاج تكليف أحدهم بالكد كأنه حصان جر من الصباح إلى المساء لقاء أجر أقل مما استأجر به . . . حسداً أو بأسح أحذية ثلاث ساعات » (٢) . وتكاثر المؤلفون حتى تشعبت بهم السوق ، واقتتلوا باسماته في سبيل أجر ضئيل هزيل ، وتهاجوا بأقلام تنفث السم الزعاف . وأضافت النساء إلى المنافسة : المسز آنا باربولد ، وساره

فيلدنج ، والمسنز أميليا أو باى ، والمسنز اليزابث انتشبولد ، والمسنز اليزابث .
مونتيجيو ، وفانى بيرنى ، وهانا مور . ودخل قسيس ريفى فى المباراه وخرج
منها بقصب السبق .

٢ - لورنس ستيرن

ولم يكن بالقسيس المطبوع ، فأبوه جندى ، وقد ظل عشر سنين يجر
من وظيفة إلى أخرى ، وخلال هذه الفترة وبعدها التقط من العلم بالشئون
العسكرية ما يمكنه من أن يجعل « العم طوبى » يتكلم على الحصارات والحصون
كلام قائد محنك . أما أمه فقد وصفها بعد ذلك بأنها « ابنة بدال فقير يتبع
المعسكر فى فالدنر »^(٣) . على أن جده الأعلى كان رئيس أساقفة يورك ،
وقد وفقت أسرة ستيرن فى الحصول على منحة دراسية للورنس ألقبته
بكبردج . وهناك نال درجته الجامعية فى ١٧٣٧ ، ولكن نزيفاً رئوياً أصابه
فى ١٧٣٦ أنذر بكفاح يخوضه مدى الحياة مع داء السل . ورسم قسيساً
انجليكانياً (١٧٣٨) ، وعين فى أبرشية متواضعة فى ساثون - ان - ذ
فورست ، قرب يورك . وفى ١٧٤١ تزوج اليزابث لملى ، وأخذها لتعيش
معه فى بيته الحرب . وقد عهدت إليه بإيرادها السنوى البالغ أربعين جنيهاً .
فاستثمر بعضه فى أرض ، ونما الإيراد .

وكانا فيما عدا هذا بائسين . فكلاهما مصاب بالسل ، وكلاهما خلق من
أعصاب . وسرعان ما خلصت المسنز ستيرن إلى أن « أوسع بيت فى انجلترا
لا يمكن أن يضمهما معاً لكثرة هياجهما ونزاعهما »^(٤) . وقد وصفها
ابنة عمها المثقفة اليزابث مونتيجيو بأنها قنفذ نكد شكس « لا يستطيع المرء
أن يتفادى الشجار معها إلا بالابتعاد عنها »^(٥) ثم رزقا طفلين ، مات أحدهما ،
أما الطفلة الثانية وهى ليديا فقد تعلقت بأُمها تعلقاً واضحاً . وزادت تعاسيهما
حين جاءت إلى يورك أم ستيرن وأختها . وكانتا تعيشان فى فقر فى ارلنده ،
والتستا منه أن يعينهما بثمانية جنيهات فى العام من دخل زوجته . ولم تثر الفكرة
أى حساسة . وأعطى ستيرن أمه بعض المال ورجاها أن تعود إلى ارلنده ،
ولكنها ظلت فى يورك ، فلما قبض عليها بتهمة التشرّد رفض ستيرن أن يدفع
كفالة للإفراج عنها .

وبعد ثمانية عشر عاماً من الزواج المضنى أحس القسيس أن أى إنسان مسيحى حقاً سيسمح له بشىء من الزنا . وقد وقع في غرام كاترين فورمانتيل ، وأقسم لها قائلاً « أحبك حب الجنون ، وسأظل أحبك إلى الأبد »^(٦) . وأتهمته زوجته بالخيانة ، فأنكر التهمة ، وأشرفت هى على الجنون حتى عهد بها وبإيديا إلى رعاية « طبيب للمجانين » ، وواصل علاقته الغرامية .

وفي غمرة هذه الضجة كتب واحداً من أشهر الكتب في الأدب الانجلىزى . وقد رجاء أصدقاءه الذين قرعوا طرفاً من مخطوطة الكتاب أن يحدف منه « التوريات النابية التى قد تكون مؤذية بحق ، خصوصاً لصندورها من قسيس » فحدف نحو ١٥٠ صفحة وهو أسف . ثم أرسل الباقي إلى المطبعة غفلاً من اسمه ، ونشر الكتاب في يناير ١٧٦٠ بهذا العنوان ، « حياة السيد ترسترام شاندى وآراؤه » . وقد بقى في المجلدين من الفضائح والفكاهة الغريبة الطريفة ما جعلها الحدث الأدبى الهام لذلك العام في لندن . وتردد صدى هذه الضجة في فرنیه النائية ، فقال فولتير « كتاب مستهتر جداً ، وكتاب أصيل ، إنهم مجنونون به في انجلترا »^(٧) . وقال فيه هيوم « أنه خير ما كتب بقلم أى انجلىزى في هذه السنين الثلاثين رغم ما فيه من سوء »^(٨) . وبيع مائتا نسخة من الكتاب في بحر يومين في يورك ، حيث كان اسم المؤلف الحقيقي سرّاً مذاعاً وحيث تبين القراء الكثير من الأشخاص المحليين في شخوص القصة الكبار .

ومن العسير أن نصف الكتاب ، إذ ليس له شكل أو موضوع ، ولا رأس ولا ذيل . وعنوانه خدعة ، لأن « السيد » الذى يروى القصة ، والذى أزمعت أن تعرض « حياته وآراؤه » لا يولد إلا في صفحة ٢٠٩ من المجلد الرابع (من الطبعة الأصلية ذات المجلدات التسعة) . ومادة القصة هى ما حدث ، أو ما قيل ، بينما كان يحبل به ، وبينما كان ينمو على مهل في بطن أمه . والصفحة الأولى هى خير الصفحات .

« وددت لو أن أبى أو أمى ، أو كليهما حقاً ، إذ أنهما كانا معاً ملزمين بالأمر الواجب على السواء ، أقول وددت لو أنهما فكرا فيما هما فاعلان حين أنجباني ، فهل نظرا كما ينبغي أن ينظراكم من الأمور يتوقف على

ما هما صانعان ، وأن المسألة لا تتصل بإنجاب كائن عاقل فحسب ، بل ربما اتخذ التكوين السليم لبدنه ، وهزاج هذا البدن ، ونهوغه وطبيعة ذهنه ذاتها ، ربما اتخذت هذه كلها طابعها من الأمزجة والميول الغالية عليهما آنذاك ، .. ولو أنهما وزنا هذا كاه وفكرا فيه كما ينبغي ، ثم تصرفا طبقاً لهذا ، لكنت يقيناً قد انبعثت إلى العالم شخصاً مختلفاً كل الاختلاف . قالت أمي « من فضلك يا عزيزي ، ألم تنس أن تملأ المنبه ؟ » — وصاح أبي . . . « رباه ! هناك امرأة منذ خلق الله الدنيا تقاطع رجلاً بسؤال غبي كهذا ؟ » .

ومن ذلك الحادث فصاعداً يتألف الكتاب من الاستطرادات . ذاك أن ستيرن لم يكن لديه حكاية يروها ، ومن باب أولى حكاية الغرام التي هي مدار أكثر القصص ، إنما كانت رغبته أن يسلي نفسه وقراءه بالحديث الهوائي عن كل شيء ، ولكن دون نظام ، فكان يشب حول مشكلات الحياة جلياًها وحقيها وثب جواد مرح لعوب في حقل . وبعد أن كتب أربعة وستين فصلاً خطر له أنه لم يكتب لكتابه مقدمة ، فأدخل المقدمة عند تلك النقطة ، وأتاح له هذا أن يسخر من نقاده . ووصف منهجه بأنه « أكثر المناهج تقوى ، لأنني أبدأ بكتابة الجملة الأولى ، ثم أتكلم في مجيء الثانية على الإله القدير »^(٩) وعلى التداعي الطليق في الباقي . ومن قبله صنع رابليه ما يشبه هذا ، وترك سرفانتس روزناتى يقوده من حادث إلى حادث ، وجاب روبرث بيرتن العالم قبل تشريحه للاكتئاب ، أما ستيرن فقد رفع توافه الأمور إلى مقام المنهج ، وحرر جميع الروائيين من الحاجة إلى موضوع أو خطة .

ولقد أبعج طبقات بريطانيا ذات الفراغ أن ترى مقدار الفسجة التي يمكن إثارتها حول لاشيء ، وكيف أن في الإمكان تأليف كتاب بالإنجليزية الأنجلوا — سكسونية في عصر جونسن . أما البريطانيون الأشداء فشدوا بحراً بالطرافة المرحية التي وجدوها في قسيس يتحدث عن الجنس والتمزج البشري ، والشق الذي في سروال العم طوبى . وفي مارس ١٧٦٠ ذهب ستيرن إلى لندن ليرشف رحيق نجاحه ، وأسعده أن يجد أن المجاهدين قد نذروا ، أخذ

٦٣٠ جنباً نظيرهما ونظير مجلدين آخرين قادمين . لا بل ان « مواعظ مستريوريك » التى نشرت بعد « تراسترام » بأربعة أشهر حظيت ببيع سريع حين عرف أن يوريك هو ستيرن ، وأقبلت الدعوات على المؤلف من تشستر فيلد ، ورينولدز ، وروكنجهام ، لا بل من الأسقف واربرتن ، الذى فاجأه بخمسين جنباً انجليزياً ، ربما تفادياً من أن يزين الأسقف صفحة لاذعة الهجاء فى مجلدات قادمة . واشترى ستيرن عربة وروجين من الخيل ، وركبها فى انتصار مرح عائداً إلى يورك ، حيث وعظ فى كنيسة الكبرى ، ثم رقى إلى قسوسية أكثر ثراء فى كوكسولد ، على خمسة عشر ميلاً من يورك ، فأخذ زوجته وابنته لتعيشا معه هناك ، وهناك كتب المجلدين الثالث والرابع من « تراسترام » فى يسر غير معقول .

وفى ديسمبر من ذلك العام ١٧٦٠ ذهب إلى لندن ليتابع طبع المجلدين . ووصل ترسترام الآن إلى رحلة الولادة بالجفت ، الأمر الذى شوه أنفه ، وعليه انطلق المؤلف فى حديث مستفيض عن فلسفة الأنوف بأسلوب أكثر العلماء تفقهاً . فقال أحد الثقات إن أنف الطفل تحدده نعومة الثدي الذى يرضعه أو صلابته : « فالأنف حين يغوص فيه . . . كما يغوص فى قطعة زبد كبيرة يرتاح ويتغذى ويسمن وينتعش ويحيا » (١٠) .

وبعد قضاء نصف عام فى لندن عاد ستيرن إلى زوجته التى أخبرته أنها كانت أسعد حالاً بدونه . فانطوى على مخطوطته ، وكتب المجلدين الخامس والسادس ، وفى هذين كاد ترسترام ينسى ، وشغل المسرح العم طوبى والجلاويش تريم بذنرياتها عن الحرب وقلاعهما اللعب ، وفى نوفمبر ١٧٦١ انطلق القسيس مرة أخرى إلى لندن ، فى آخر يوم من العام شهد صدور المجلدين الخامس والسادس . وقد حظيا باستقبال حسن . وراح يغازل المسز الزابث فيزى ، إحدى النساء المثقفات ، وأقسم ليضحى بآخر مزقة من قسوسيته لقاء لمسة من يدها الملائكية ! (١١) ثم أصيب بنزف رئوى ، وهرب إلى جنوبي فرنسا . وتلبث فى باريس زمناً كفى لحضوره بعض حفلات العشاء فى « مجمع الملحنين » الذى تزعمه دولباخ ، حيث استهوى ديدرو استهواء لم يفارقه . ولما سمع ستيرن أن زوجته مريضة ، وأن ليديا مصابة

بالربو ، دعاها للحاق به في فرنسا . واستقر ثلاثهما قرب تولوز (يوليو ١٧٦٢) .

وفي مارس ١٧٦٤ ترك زوجته وابنته بموافقتهم وعاد إلى باريس ولندن وكوكسولد . وكتب الجزئين السابع والثامن من « ترسترام » ، وتسلم مقدمات أعمالهما ، وأرسل جزءاً من الحصيلة لمسن سترن . وصدر الجزءان الجديدان في يوليو ١٧٦٥ ، فلم يظفرا إلا ببناء متضائل ، ذلك أن النخمة الشانديه - الطارئة أخذت تضعف . وفي أكتوبر بدأ سترن رحلة في إيطاليا وفرنسا استغرقت ثمانية أشهر . وفي عودته للشمال انضم إلى أسرته في برجنديه ، وطلبت الأسرة البقاء في فرنسا ، فدفع نفقاتها وقفل إلى كوكسولد (يوليو ١٧٦٦) . وكتب الجزء التاسع فيما بين نوبات نزيهه ، وذهب إلى لندن ليشهد مولده (يناير ١٧٦٧) ، واستمتع بالضجة التي أثارها طوافه حول حافة الجندس في وصفه تودد العم طوبى لمسن ودمن . وكتب القراء المروعون إلى الصحف وإلى رئيس أساقفة يورك يطالبون بشلح هذا القسيس الفاجر وطرده ، ولكنه رفض أن يفعل . وجمع سترن خلال ذلك اكتتابات بلغت جملتها ١,٠٥٠ جنيهاً في كتاب موعود سماه « رحلة عاطفية » وأرسل مزيداً من المال لزوجته وتودد إلى الزباث دراير .

وكانت زوجة موظف في شركة الهند الشرقية آنشد (مارس ١٧٦٧) معين في الهند . تزوجته وهي في الرابعة عشرة ، وهو في الرابعة والثلاثين ، وأرسل إليها سترن كتبه ، واعتزم أن يتبعها بيده وقلبه . وظلا فترة يلتقيان كل يوم ، ويتبادلان الرسائل الرقيقة . والرسائل العشر المسماه « رسائل إلى إليز » تفضح عن الغرام الحزين الأخير يضطرب في جوانح رجل يموت بالسل . « صحيح أنني في الخامسة والتسعين بنية » ، وأنت لا تتجاوزين الخامسة والعشرين ، . . . ولكن ما أفنقده صبي سأعوضه فكاهة ومرحاً ، فما أحب سوفيت حبيبته ستيلا ، ولا سكارون حبيبته مانتون ، ولا وولر حبيبته ساكاريسا ، كما سأحبك وأغنى بك ، يا زوجتي المخمارة ! - ذلك أن « زوجتي لا يمكن أن تعيش طويلاً »^(١٢) . وبعد عشر دقائق من إرسال هذا الخطاب أصابه نرف شديد ، وظل ينزف الدم حتى الرابعة صباحاً .

وفي ابريل ١٧٦٧ أبحرت المسز دراير إلى الهند استجابة لدعوة زوجها . وظل ستيرن من ١٣ ابريل إلى ٤ أغسطس يدون « يومية لاليزا » وهي « مذكرات يومية بالمشاعر التعسة التي يحس بها شخص افترق عن سيدة يدوب شوقاً إلى لقاءها » . « لاني أقبلك على أى شروط تعرضينها يا اليزا ! سوف أكون . . . منصفاً جداً ، وعطوفاً جداً نحوك ، ولن أكون بعد اليوم مستأهلاً للتعاسة »^(١٣) . وفي يومية ٢١ ابريل : « نزلت اثنتى عشرة أوقية من الدم » . وأخبره طبيب أنه مصاب بالزهرى ، فاعترض قائلاً ان هذا « محال . . . » ، لأننى لم أباشر الجنس أبداً كان اطلاقه - حتى مع زوجتى ، . . . طوال هذه السنين الخمس عشرة » . « وقال الطبيب : لن نتجادل فى الأمر ، ولكن لا بد لك من أخذ علاج بالزئبق »^(١٤) . وأيد أطباء آخرون هذا التشخيص ، وأكد له أحدهم أن « لوثاث الدم تظل كامنة عشرين عاماً » . فأذعن مؤكداً عفقه .

وما وانى شهر يونيو حتى تماثل للشفاء وعاد إلى كوكسولد . وبينما كان يكتب « الرحلة العاطفية » أصيب بمزيد من نوبات النزف ، وأدرك أنه لن يمهل فى الأجل طويلاً . فذهب إلى لندن ، وشهد صدور كتيبه (فبراير ١٧٦٨) ، واستمتع لآخر مرة بمحبة أصدقائه التي لم تفتر . وكما أن « ترسترام » ذكر القراء برأيه ، فكذلك عكس الكتاب الجديد التأثير المتصاعد لرتشر دسن وروسو . غير أن فضيلة ستيرن كانت أقل مناعة من فضيلة رتشر دسن ، ودموعه أقل حرارة وإخلاصاً من دموع روسو . ولعل هذا الكتاب ، وكتاب مكنزى « رجل الوجدان » (١٧٧١) ، هما اللذان أذاعا كلمتى « عاطفة Sentiment » و « عاطفى Sentimental » فى المجتمع الانجليزى . وقال بايرون ان ستيرن « يؤثر البكاء على حمار ميت على التخفيف عن أم حية »^(١٥) .

وبينما كان ستيرن يستمتع بانتصاره الأخير فى لندن أصيب بنزلة برد تفاقمت حتى أصبحت التهاباً بليورياً . فكتب إلى سيدة تدعى المسز جيمس رسالة عزنة يطلب إليها أن ترعى ليديا ان توفيت زوجته . ووافته المنية فى ١٨ مارس ١٧٦٨ ، فى فندق بأولد بوند ستريت دون أن يكون إلى جواره صديق ، غير متجاوز الثانية والأربعين . وكان فيه إثارة من المشعوز ، وقد

جعل من نفسه «مهرجاً للناظرين» ، ولكن في استطاعتنا أن نفهم حساسيته للنساء ، والتوتر الذى فرضه زواج تعمس على رجل أوتى هذه الأحاسيس المرهقة والصنعة الرقيقة . لقد قاسى كثيراً ، وأعطى كثيراً ، وكتب كتاباً من أغرب الكتب في تاريخ الأدب قاطبة .

٣ - فاني بيرنى

وقد نافست امرأة النجاح الذى أحرزه في ميدان القصص منافسة قصيرة الأمد . ولدت في ١٧٥٢ لأب يدعى تشارلز بيرنى أصبح فيما بعد مؤرخاً للموسيقى . وقد رببت على الموسيقى أكثر من الأدب ، فكانت لا تعرف القراءة حتى بلغت الثامنة^(١٦) ، وما كان لأحد أن يحلم بأنها ستصبح كاتبة . وماتت أم فرانسس وهى في التاسعة . ولما كان أغلب الموسيقيين الذين يعزفون في لندن يخلطون إلى بيت أبيها ويختبئون إليه شطراً كبيراً من صفوف المثقفين ، فإن فاني اكتسبت تعليمها بالاستماع إلى الكلام والموسيقى . واكتمل نضجها ببطء ، وكانت خجولاً يعوزها الجمال ، واستغرقت أربعين سنة لتعثر على زوج ؛ وحين نشرت روايتها الشهيرة (يناير ١٧٧٨) كانت في الخامسة والعشرين ، وبلغ من خشيتها أن تغضب الرواية أباهاً أنها أخفت نسبها لها . وأحدثت الرواية ضجة ، واسمها «إفلينا» ، أو دخول شابة إلى العالم» وأثار اغفال اسم المؤلف فضول الناس ، وأذاعت الشائعات أن كاتبها فتاة في السابعة عشرة . أما جونسن الذى أثنت عليه المقدمة فقد امتدح الرواية وزكاها للدكتور بيرنى . وشكت المسز تريل من فرط قصر الرواية . فلما علمت بالسر ذاع في طول لندن وعرضها ، وأصبحت فاني شخصية بارزة في المجتمع ، وقرأ الجميع كتابها ، وكان «أبي العطوف هبصادق الحبة سعيداً جداً بسعادتي»^(١٧) .

وسر فيها هذا الوصف - الذى أعانته ذاكرة متلبثة وخيال حى - للصورة التى تراعى بها المجتمع اللندنى لفتاة يتيمة في السابعة عشرة رباهها قسيس ريفى لا يمت بشبه قريب ولا بعيد للورنس ستيرن . وما من شك في أن فاني هى أيضاً قد إنتشت بتمثيل جاربك ، وشعرت كما كتبت إفلينا للوصى

عليها « يا له من أداء طبيعي ! وما أشد حيوية أسلوبه ! وأرشق حركاته ! وما أعجب ما تضطرم به عيناه من نار ومعنى ! ... وحين رقص ، أواه لكم حسدت كلارندا ! كدت أتمنى أن أثب إلى خشبة المسرح وأشاركهما الرقص (١٨) . أما لندن التي سمعت رذائلها فأحست أنها تتمظهر بتلك الريح القوية التي تهب عليها من هذه الصفحات الشابة .

وقد ماتت تلك القصة التي حظيت بصيت ذائع يوماً ما ، ولكن اليهودية التي دونتها فاني مازالت جزءاً حياً من الأدب والتاريخ الانجليزين ، لأنها تتيح لنا نظرة عن كذب لمشاهير القوم من جونسون وجورج الثالث إلى هيرشل ونابليون . وقد عينت المالكة شارلوت الأنسة بيرنى أمانة على ملابسها (١٧٨٦) ، وكانت فاني تلبس جلاتها وتخلع عنها ملابسها طوال السنوات الخمس التالية . ولكن الحياة المتكلفة الضيقة التي عاشتها المؤلفة كادت تخنقها ، وأخيراً أنقذها أصدقائها ، ففي ١٧٩٣ . بعد أن ذوى شبابها ، تزوجت مهاجراً فرنسياً مفلساً هو الجنرال داربليه . وقد عالت بمؤلفاتها ودخلها ، وظلت عشر سنين تعيش معه في فرنسا بعيدة عن الأضواء يعز لها عن المجتمع عنف حروب الثورة وحروب نابليون . وفي ١٨١٤ سمح لها بأن تعود إلى إنجلترا وتنال بركة أبيها لآخر مرة قبل موته في الثامنة والثلاثين . وقد عمرت هي نفسها لهذه السن ، حتى أدركت عالماً مختلفاً كل الاختلاف ، عالماً لم يدرك أن جين أوستن الدائعة الصيت (التي ماتت ١٨١٧) إنما استلهمت الروايات المنسية التي ألقتها سيادة منسية ظلت حية ترزق حتى سنة ١٨٤٠ .

٤ — هوراس ولبول

قال « هذه الدنيا ملهاة لمن ينكرون ، ومأساة لمن يشعرون » (١٩) لذلك تعلم أن يبتسم للحياة ، بل أن يداعب نقرسه . وقد أرخ لجياه ، ولكنه غسل يديه منه : كان ابناً لرئيس وزارة ، ولكن السياسة لم تلبه . وكان يعشق النساء ، من فاني بيرنى إلى أرقى الغرائدوقات ، ولكنه أبى أن يكون له زوجة منه ، ولا خلية (على قدر عامنا) . درس الفلسفة ولكن كان رأيه

في الفلاسفة أنهم لعنة القرن ومصدر ازعاجه . كاتبة وحيدة فقط أعجب بها إعجاباً بغير تحفظ لسلوكها المذهب وفيها الذي لا تكلف فيه — وتلك هي مدام دسفينيه ، وهي وحدها التي حاول محاكاتها ؛ وإذ كانت رسائلها لم تظهر بفتنتها ورشاقها ومرحها ، فإنها غدت أكثر كثيراً من رسائلها تاريخاً يومياً حياً للعصر الذي كتبت فيه ؛ ومع أنه سماها حوليات مستثنى المجاذيب^(٢٠) ، فإنه كتبها بعناية ، أملاً في أن يمنحه بعضها ركناً في ذاكرة الناس ؛ ولا غرو ، فتحق الفيلسوف الذي راض نفسه على الفناء يشق عليه الرضى بالنسيان .

وكان هوراشيو (وهو اسمه الذي عمد به في ١٧١٧) أضغر أبناء خمسة ولدوا للسر روبرت ولبول ، رئيس الوزارة الشجاع الذي ضحى بسمعته لأنه أثار السلام على الحرب ، ولكنه لم يكذب يوماً بإيثاره الزنا على الاكتفاء بزوجة واحدة^(٢١) . وأهل المتقولين نسبوا هوراس حيناً لأب آخر انتقاماً لأزواجه الأولى ، وهو كار ، لورد هرفي ، أخو الرجل المخنث جون ، لور هرفي الإكورتى — الذي اتهم السر روبرت بمحاولة اغواء الليدى هرفي^(٢٢) . وفي هذه المسائل من التعقيد مالا يسمح بإصدار الحكم عليها في الحاضر ، وحسبنا أن نقول ان هوراس نشىء دون أن يرميه أقاربه بنسب منحرف ، وقد عامله رئيس الوزراء بما يعامل به الرجل المشغول ولده من عدم المبالاه ، أما أمه فقد « دلته » (كما يروى) ؛ « ولع شديد »^(٢٣) وكان صديقاً رائع الحسن ، يلبس لباس الأمراء ، ولكنه كان هشاً خجولاً ، حساساً كأنه بنت . وحين ماتت أمه (١٧٣٧) خشي كثيرون أن يموت الفتى ذو العشرين ربيعاً حزناً عليها . وسرى عنه السر روبرت بوظائف حكومية شرفية تفي بنفقات ولده على الثياب الفاخرة ، والعيش الأنيق ، ومجموعة التحف الغالية وأضمر هوراس الحصومة لأبيه إلى آخر حياته ، ولكنه كان يدافع عن سياسته دائماً .

وحين بلغ العاشرة أرسل إلى إيتين حيث تعلم اللاتينية والفرنسية وصادق الشاعر جراى ، وفي السابعة عشرة التحق بكننجز كولدج بكمبرج ، وهناك تعلم الإيلاية وتشرب الروبوية من كونيرز مدلتن . وفي الثانية والعشرين

الطلاق مع جرای في رحلة بحويان فيها إيطاليا وفرنسا دون أن ينال درجة جامعية. وبعد أن طوفا قليلا استقرا خمسة عشر شهراً في فيلا بفلورنسه ضيفين على القائم بالأعمال البريطاني السر هوراس مان . ولم يلتق ولبول ومان بعدها قط ، ولكنهما ظلّا يتراسلان طوال الخمس والأربعين السنة التالية (١٧٤١ - ٨٥) . وفي ريدينجو اميليا تشاجر جرای وولبول ، لأن هوراس كان قد دفع كل نفقات إقامتهما ، ولم يستطع الشاعر أن يغفر مظاهر الاحترام الشديد التي كان يختص بها ابن الرجل الذي يحكم انجلترا . ولام هوراس نفسه على هذا الوضع وهو يستحضر تلك الفترة « كنت صغيراً جداً ، شديد والاع ملامهي . . . شديد الانتشاء بالتدليل ، والغرور ، وغطرسة منصبي . . بحيث تعلم على الاهتمام والإحساس بمشاعر شخص حسبه أدنى مني مقاماً ، شخص يخجلني أن أقول إنني كنت أعرف أنه مدين لي بالفضل » (٢٤) . وافتراقاً ، وكاد ولبول يموت من الندم أو من التهاب اللوزتين المتقيح ، ورتب رحلة العودة لجرای . ثم تصالحا في ١٧٤٥ ، وطبعت معظم قصائد جرای في مطبعة ولبول بستروزي هل . وجلس ولبول في هذه الفترة إلى الرسامة روزالبا كاريرا لتصوره في لوحة جميلة بالباستل .

وقبل أن يصل ولبول إلى انجلترا (١٢ سبتمبر ١٧٤١) كان قد أنتخب عضواً في البرلمان ، وهناك ألقى خطاباً متواضعاً لم يجد فتيلاً ضد المعارضة التي كانت جادة في إنهاء عهد وزارة أبيه الطويل الرنجي . وظل يعاد لانتخابه بانتظام حتى ١٧٦٧ حين انسحب مختاراً من ميدان السياسة النشيطة . وكان بوجه عام يؤيد برنامج الهوجز التحرري : يقاوم توسيع السطة الملكية ، ويوصي بحل وسط مع ولكس ، ويندد بالرق (١٧٥٠) قبل أن يوالد ولبرفورس بتسع سنين . وقد عارض في تحرير الكاثولييك الانجليز سياسياً بحجة أن « البابويين والحرية نقيضان » (٢٥) . ورفض حجة الأمريكين ضد قانون الدفعة (٢٦) ، ولكنه دافع عن مطالبة المستعمرات الأمريكية بالحربة ، وتنبأ بأن أوج الحضارة القادم سيكون في أمريكا (٢٧) . وكتب (١٧٨٦) يقول « من غير ميكيفالي يستطيع الزعم بأن لنا ظل حق في شبر من الأرض في الهند ؟ » (٢٨) وقد أبغض الحرب ، فلما أفلح الإخوان مونجولفييه في

الطيران بالبللون لأول مرة (١٧٨٣) تنبأ في فزع بانتشار الحرب إلى الجو وكتب يقول « أرجو ألا تكون هذه الشهب الميكانيكية غير لعب للعلماء أو العاطلين ، وألا تحول إلى آلات تدمير للنوع الإنساني ، كما هي الحال في كثير من الأحيان في تحسينات العلم أو كشفه » (٢٩) .

ثم قرر أن ينفق أكثر وقته في الريف حين وجد نفسه في الأغلب الأعم يقف مع الجانب الخاسر ، وعليه ففي ١٧٤٧ استأجر خمسة أذنة وبيتاً صغيراً قرب تويكنام . وبعد عامين اشترى هذا الملك ، وحول البناء إلى الطراز القوطي الحديث - كما رأينا . في هذه القلعة التي طبعها بطابع القصر الوسيط جمع شتى التحف المتفردة فناً أو تاريخاً ، وما لبث أن استحال بيته متحفاً يحتاج إلى قائمة بمحتوياته . ووضع في حجرة مطبوعة ، طبع فيها أربعة وثلاثين كتاباً بما فيها كتبه طباعة أنيقة . وقد طلع على القراء - من ستروبري في أكثر الأحيان - بخطاباته الباقية إلى اليوم وعددها ٣,٦٠١ وكان له مائة صديق ، تشاجر معهم كلهم تقريباً ، ثم تصالح ، وكان لطيفاً بقدر ما سمح به مزاجه العصبي المرهف . وكان يخرج الخبز واللبن كل يوم للسناجيب التي تتودد إليه . وكان يرعى وظائفه الشرفية ويسعى للمزيد منها ، ولكن حين فصل ابن خاله هنري كونواي من وظيفته اقترح ولبول أن يقتسم دخله معه .

وكان فيه ألف عيب ، حشدها ما كولي بتفصيل كثير في مقال ذكي جائر: لقد كان ولبول مغروراً ، نيقاً ، كتوماً ، هوائياً ، فخوراً بأجداده ، مشمئزاً من أقاربه . وكانت فكاهته تنحو إلى الهجاء المقذع . وقد حمل إلى قبره ، وفي التواريخ التي كتبها ، احتقاره لكل الذين شاركوا في نخلع أبيه . وكثيراً ما عنف في تحامله ، كما نرى في أوصافه لليدي بومفريت (٣٠) أو الليدي ماري ورتلي منتجيو (٣١) . وقد نحا به جسده الهش إلى طبيعة تشبه طبيعة الهاوي السطحي . وإذا كان ديدرو ، في عبارة سانت بوف المنيرة ، أكثر الفرنسيين جميعاً ألمانية ، فإن ولبول كان أكثر الانجليز جميعاً فرنسية .

وكان صريحاً شجاعاً في الإعراب عن ميوله وآرائه غير المألوفة ، ففرجل في رأيه مضجر ، ومن باب أولى رتشردسن وستيرن . وقال عن

دانتى انه « مثودى فى مستشفى المجاذيب » (٣٢) وتظاهر بأنه يحتقر كل المؤلفين ، وأصر كما أصر كنجريف على أنه يكتب كما يكتب جنتلمان لمزاجه ، لا كأديب أجبر يعتمد على تسويق كلامه . ومن ثم نراه يكتب لهيوم قائلًا : « أنت تعلم أننا فى انجلترا نقرأ كتب المؤلفين ولكن ندر أن نعبأ بهم أو لعلنا لا نعبأ بهم إطلاقاً . ونحن نراهم قد نالوا جزاء كافياً إذا راجت كتبهم ، ثم نتركهم بالطبع لكلياتهم وانغارهم ، وهذه الطريقة لا يزعجنا غرورهم وسلطانهم . . . وإننى ، وأنا أحد المؤلفين ، يجب أن أعترف بأن هذا المسلك معقول جداً ، لأننا فى الحق قبيل لا نفع فيه إطلاقاً » (٣٣) .

ولكنه هو أيضاً . باعترافه - كان مؤلفاً ، مغروراً مفرط الإنتاج . ولذا أحس الضجر فى قلعه ، فقد راح ينقب فى الماضى كأنه يبغي الغوص بحذور عقله فى أغنى طبقات تربيته . فوضع « كتابالوجأ بمؤلفى انجلترا الملكيين والنبلاء » (١٧٥٨) - فنبلهم يغتفر لهم اشتغالهم بالتأليف ، ورجال من الطراز الأول مثل بيكن وكلارندن يمكن أن يكونوا أهلاً لأن يسلكوا فى هذه الطائفة . وطبع ثلاثمائة نسخة وزع معظمها هدايا ، وغامر درسل ببطعة من ألنى نسخة ، فبيعت بسرعة ، وجاءت اولبول بشهرة لا بد أنها جعلته ينكس رأسه خجلاً . ثم ضاعف خزيه بخمسة مجلدات عن « نوادر عن التصوير فى انجلترا » (١٧٦٢ - ٧١) وهى تصنيف شائق ظفر بتقريظ من جبون .

ثم ألف رواية غرامية تحت للعصر الوسيط كأنه يتخفف من هذه التأليف العلمية المجهدة ، واسم الرواية « قلعة أوترانتو » (١٧٦٤) ، وقد أصبحت أما لألف قصة تروى عجائب وأحوالا خارقة . وقد جمع بين الأسرار الغامضة والتاريخ فى « الشكوك التاريخية حول حياة الملك رتشرد الثالث وملكه » فذهب كما ذهب آخرون بعده إلى أن رتشرد قد اخترت عليه الرواية المتواتره وشيكسبير ، وقد وصف هيوم وجبون حججه بأنها غير منقعة ، ولكن ولبول راح يرددتها حتى مماته . ثم تحول إلى أحداث عرفها

معرفة خبير ، فكتب مذكرات عن حكمى جورج الثانى وجورج الثالث ، وهى مذكرات منيرة ولكنها متحيزة ، نظر فيها إلى جيله بمنظار أسود لأنه كان حبيس تغرضاته : « وزراء غادرون ، وأدعياء للوطنية ، وبرلمانات مسايرة ، وملوك غير معصومين »^(٣٤) . « أننى أرى وطنى يسير إلى الخراب ، وما من إنسان فيه من العقل ما يحمله على إنقاذه »^(٣٥) وقد كتب هذا الكلام عام ١٧٦٨ ، حين كان شاتام قد خلق لتوه الامبراطورية البريطانية . وبعد أربعة عشر عاماً ، حين بدا أن الملك والورد نورث سيد مرانها ، خلص ولبول إلى هذه النتيجة « أننا منحطون انحطاطاً تاماً فى كل ناحية ، وهذا فى ظنى حال كل الدول المتأهوية »^(٣٦) وبعد جيل هزمت الجزيرة الصغيرة نابليون . وقد بدا النوع الإنسانى كله لولبول معرض وحوش « فيه حيوانات قبيحة ، قصيرة الأجل . . . مضحكة »^(٣٧) ولم يجد فى الدين أى عزاء . وقد أيد الكنيسة الرسمية لأنها تساند الحكومة التى تدفع له رواتبه الشرفية . ولكنه لم يخف أنه ملحد^(٣٨) « بدأت أرى أن الحماقة مادة ، ولا يمكن تدميرها . فإذا قضيت على شكايها ، اتخذت شكلاً آخر »^(٣٩) .

وظن حيناً أن فى استماتته العثور على شىء يحفره فى فرنسا (سبتمبر ١٧٦٥) . وفتحت له كل الأبواب ، فرحبت به مدام دودفان بديلا عن دالامير . وكانت فى الثامنة والستين ، ولولبول فى الثامنة والأربعين ، ولكن فارق السن اختفى حين التقت روحاهما المتقاربتان فى تبادل رقيق لليأس ، وسرها أن تجد ولبول موافقاً على معظم ما قاله فولتير ، ولكنه يود لو أحرق حياً لينعه من قوله ، لأنه كان يرتعد فرقاً حين يفكر فيما يحق بحكومات أوروبا إذا انهارت المسيحية . وقد انتقص من قدر فولتير ، ولكنه سخر من روسو . وهذه الرحلة إلى باريس هى التى كتب فيها الخطاب الذى زعم أن كاتبه هو فردريك الأكبر ، يدعو روسو للذهاب إلى برلين والاستمتاع بالمزيد من الاضطهادات . « لقد انتشرت النسخ كأنها الحريق ، وهأنذا أصبحت موضة سرت فى المجتمع »^(٤٠) وقد خلف هيوم شخصية تهافت عليها الصالونات . وتعلم أن يحب إثارة باريس المرححة القاسية ، ولكن كان عزاء له أن يجد « الفرنسيين أحقر منا نحن (الإنجليز) عشر مرات »^(٤١) .

وبعد أن عاد إلى وطنه (في ابريل ١٧٦٦) بدأ ترأسه الطويل مع مدام دودفان . وسنرى فيما بعد كيف أثقله الخوف من أن يجعله محبتها له هزواً ، ومع ذلك فأغلب الظن أن رغبته في أن يراها من جديد هي التي حملته على العودة إلى باريس في ١٧٦٧ و ١٧٦٩ و ١٧٧١ و ١٧٧٥ . وقد أنساه حبها عمره ، غير أن موت جرائ (٣٠ يوليو ١٧٧١) ذكره بفنائه هو . ولكنه أدهش نفسه بأن عمر حتى ١٧٩٧ . ولم تكن له هموم مالية ، فدخله في ١٧٨٤ كان ٨,٠٠٠ جنيه (٢٠٠,٠٠٠ دولار ٢) في السنة (٤٢) ، وفي ١٧٩٦ ورث لقب اللورد أكسفورد . ولكن النقرس الذي ابتلى به منذ كان في الخامسة والعشرين ظل ينغص عليه عيشه إلى النهاية . ونقرأ أن كتلا متجمعة من « الطباشير » كانت أحياناً تتفجر من أصابعه (٤٣) . وبات هزيلا معوق الحركة في سنواته الأخيرة ، وأقتضت حالته أن يحمله الخدم أحياناً من حجرة إلى حجرة ، ولكنه واصل العمل والكتابة ، وكان الزوار إذا ألموا به يعجبون لبريق الاهتمام في عينيه ، وليقظة مجاملاته ، ومرح حديثه ، ونشاط ذهنه وصفائه . وكان كبار القوم يلمون به كل يوم تقريباً ليروا بيته المشهور ومجموعة تحفه المتنوعة ، ومنهم هانا مور في ١٧٨٦ ، والملكة شارلوت في ١٧٩٥ .

ولكن رجيله عن هذه الدنيا لم يكن في ستروبري هل . بل في بيته اللندني بميدان باركلي ، وكان ذلك في ٢ مارس ١٧٩٧ في عامه الثمانين . ويبدو أنه كان نادياً على احتواء مذكراته ورسائله الكثير من الفقرات اللادعة ، لذلك أمر بأن تحبس مخطوطاته في صندوق لا يفتح « حتى يطالب يفتحه إيرل والدجريف الأول عند بلوغه الخامسة والثلاثين » (٤٤) وعليه لا تنشر المذكرات إلا في عام ١٨٢٢ أو بعده ، حين يكون كل الذين قد يتأذون منها قد فارقوا هذه الحياة . وقد نشرت بعض الرسائل في ١٧٧٨ ، ومزيد منها في ١٨١٨ و ١٨٢٠ و ١٨٤٠ و ١٨٥٧ . . . وفي العالم القاريء للانجليزية طولا وعرضاً رجال ونساء قرأوا كل كلمة وردت في تلك الرسائل ، وهم يقدرونها فيما يقادرون من أبهج ما خلفه القرن المنير من تراث .

٥ - إدورد جبون

كتب ولبول لأحد كبار المؤرخين ، وهو روبرتسن ، يقول « ان المؤرخين المجيدين أنذر الكتاب أجمعين ، ولا غرابة في هذا ! فالأسلوب الجيد ليس بالأمر الشائع جداً ، وأنذر منه الإحاطة الدقيقة الشاملة بالحقائق ، فإذا اجتمع هذان ، فيها لها من صدقة ان أضيفت إليهما الزاهة والحياد ! » (٤٥) ولم يتوفر في جبون الشرط الأخير تماماً ، ولكن هذا يقال أيضاً عن تاسيتوس ، وهو وحده الذي يمكن أن يقف معه على قدم المساواة بين أساطين المؤرخين .

أ - اعدادة

كتب جبون ، أو بدأ كتابه ، ست سير ذاتيه ، أدجها منفذ وصيته الأدبي ، وهو ايرل شفيلد الأول ، في « مذكرات . (١٧٩٦) جيدة الحبك ، منقاة دون موجب ، وتعرف أحياناً باسم « السيرة الذاتية » . كذلك كان جبون يدون يومية ، بدأها في ١٧٦١ وواصل تدوينها تحت عناوين مختلفة حتى ١٨ يناير ١٧٦٣ . وقد حكم العارفون على هذه المصادر الأولى للنشأته بأنها صحيحة إلى حد معقول ، إلا فيما يتصل بنسبه .

وقد أنفق ثمانى صفحات يفصل القول في كرم مجتده ، وقد أخذه عنه النسابون القساة (٤٦) . فجدد إدورد جبون الأول كان أحد مديرى شركة البحار الجنوبية الذين قبض عليهم بتهمة الانحراف بعد أن تفجرت تلك « الفقاعة » (١٧٢١) . وصودرت كل ثروته التى قدرها بمبلغ ١٠٦,٥٤٣ جنيه ، فيما عدا ١٠,٠٠٠ جنيه . ويروى لنا المؤرخ أن على هذه البقية الباقية « بنى صرح ثروة جديدة . . . لا نقل كثيراً عن الأولى » (٤٧) ولم يكن موافقاً على زواج ابنه ادورد الثانى ، ومن ثم أوصى بمعظم ثروته لبنيه كاترين وهستر وتزوجت بنت كاترين بإدورد اليوت ، الذى اشترى فيما بعد كرسياً فى البرلمان لإدورد جبون الثالث ، أما هستر فأصبحت تابعة غنية من أتباع وليم لو (٤٨) ، وعاظت ابن أخيها ردياً طويلاً بموتها البطيء . وقد تعلم ادور الثانى على يد لور ، وأكمل تعليمه فى مدرسة ونشستر وفى كبريدج ، وتزوج

جوديت يورتن ، ورزق منها سبعة أطفال ، لم يجز سن الطفولة منهم غير إدورد الثالث .

وقد ولد في بن إقليم صرى في ٨ مايو ١٧٣٧ . وماتت أمه في ١٧٤٧ بسبب حملها السابع ، فانتقل الأب إلى ضيعة في الريف بديتورين في هامشير ، على ثمانية وخمسين ميلا من لندن ، تاركاً الصبي في رعاية خاله بيت جده في بنى . هناك أكثر دارس المستقبل الانتفاع بالمكتبة الحافلة بالكتب . وقد قطعت أمراضه المتكررة تقدمه في مدرسة ونشستر ، ولكنه كان يشغل أيام نقاهته بالقراءة المهمة وأكثرها في التاريخ ، خصوصاً تاريخ الشرق الأدنى « ولم يلبث محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون أن استرعوا انتباهي ، وأسلمني كتاب إلى كتاب حتى طفت بكل تاريخ المشرق . وقبل أن أبلغ السادسة عشرة كنت قد أتيت على كل ما كتب بالإنجليزية عن للعرب والفرس ، والتتار والترك » (٤٩) . ومن هنا هذه النصول الرائعة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين ، والاستيلاء على القسطنطينية .

يروى أنه حين أرسل إلى كلية مجدلين بأكسفورد وهو في الخامسة عشرة « وصلت إليها بلذخيرة من المعرفة الواسعة قد تحير فقيهاً ، وبدرجة من الجهل يندى لها جبين تلميذ » وكان فيه من الهزال ما يمنعه من الانخراط في الألعاب الرياضية ، ومن الحياء ما يصده عن الاختلاط الطبيعي بغيره من الطلاب . وكان من الجائز أن يكون تلميذاً نابعة لوقيض له معلم كفء : ولكنه على ما كان به من شغف بالتعليم افتقد الأستاذ الشغوف بالتعليم ، وكان أكثر المعلمين يسمعون لتلاميذهم بحضور المحاضرات أو التخلّف عنها ، وبإنفاق نصيب وقتهم في « اغراءات البطالة » (٥٠) ومن ثم أغضبوا عن « انحرافات السلوكية ، والمعاشرات الرديئة ، والسر ، والإنفاق الطائش » ، وحتى الرحلات الترفيهية إلى باث أولندن . على أنه « كان في من الخدالة والحياء ما يمنعي من الاستمتاع بحافات كوفنت جاردن ومواخيرها كما يستمتع بها الكثير من طلاب أكسفورد حين يلعبون بلندن » (٥١) .

وكان أساتذة الكلية كلهم من رجال الدين ، يعلمون ويسلمون بمواد

الكنيسة الانجليكانية التسع والثلاثين . وكان جبون ذا نزعة قتالية ، كثير السؤال لمعلميه . ولاح له أن الكتاب المقدس والتاريخ يبرران الكنيسة الكاثوليكية في دعواها بالأصل الإلهي . وحصل له أحد معارفه على بعض الكتب المقاتلة ، وأهمها كتاب بوسويه « عرض للعقيدة الكاثوليكية وتاريخ المذاهب البروتستنتية » ، هذه « حققت هدايتي ، ولا شك أنني وقعت في يد نبيلة » (٥٢) . وباندفاع الشباب اعترف على كاهن كاثوليكي ، وقبل عضواً في كنيسة روما (٨ يونيو ١٧٥٣) .

وأحاط أباه علماً بالأمر ، ولم يدهشه أنه دعى للعودة إلى وطنه ، لأن أكسفورد لم تكن تقبل الطلاب الكاثوليك ، وكان دخول بروتستنتي في المذهب الكاثوليكي الروماني — طبقاً لما يقول بلاكستون بعد « خيانة عظمى » . وما أسرع ما نبى الأب المروع الفتى إلى لوزان ، ورتب أن يقيم مع راع كلفني . هناك عاش إدورد أولاً في حالة من العناد المتجههم . ولكن المسيوبافيار كان رجلاً عطوفاً وأن أعوزه التسامح الديني ، فاستشعر الصبي المحبة له في بطاء . ثم ان الراعي كان دارساً كلاسيكياً قديراً . وتعلم جبون أن يقرأ الفرنسية ويكتبها بطلاقة كالإنجليزية ، واكتسب معرفة طيبة باللاتينية . ولم يلبث أن استقبلته الأسرة المثقفة التي كانت طباعها وحديثها تعليماً يفضل ما لقنته أكسفورد من قبل .

فلما تحسنت فرنسيته أحسن نسائم العقلانية الفرنسية تهب على لوزان . واختلف باهتمام إلى التمثيليات التي قدمها فولتير في مونريون القريبة . وهو بعد في العشرين (١٧٥٧) . « وكنت أحياناً أتعشى مع الممثلين » (٥٣) . والتقى بفولتير ، وبدأ يقرأ فولتير ، وقرأ كتاب فولتير الحديث « مقال في التاريخ العام » (مقال في الأعراف) . وأكب على كتاب « وونتسكيو » « روح القوانين » (١٧٤٨) وأصبح كتاب « تأملات في أسباب عظيمة الرومان وتدهورهم » (١٧٣٤) نقطة الانطلاق لكتاب جبون « اضطهاد الدولة الرومانية وسقوطها » . أيا كان الأمر ، فإن تأثير الفلاسفة الفرنسيين ، فضلاً عن قراءته لهيوم والروبيين الانجليز ، قوياً مسيحية جبون وكاثوليكية

على السواء ، وأبطل قبول جبون للتبوير سرّاً الإلتصار الذى أحرزه باقيار للإصلاح البروتستنتى .

ولابد أن روحه انتشت حين التقى فى العام نفسه (١٧٥٧) بكل من فولتير وسوزان كورشو ، وكانت فى العشرين ، شقراء ، حسناء ، مريحة ، تعيش مع أبويها البروتستنتين فى كراسى ، على أربعة أميال من لوزان ، وكانت الروح القائدة فى « جماعة الربيع » — وهى لفيف من خمس عشرة شابة أو عشرين يلتقن فى بيوت بعضهن البعض ، ويغنين ، ويرقصن ، ويمثلن الكوميديات ، ويغازلن الشباب فى حكمة وتعقل . ويؤكد لنا جبون أن « عفتن لم تلوثها قط همسة فضيحة أو شبهة » . ولندعه يروى القصة : « فى زياراتها القصيرة لبعض أقربائها فى لوزان كان ظرف الآنسة كورشو ، وسجلها ، وسعة علمها ، محل إعجاب الجميع . وقد أثار فضولى نبالاً هذه العجيبة . فرأيت ، وأحببت . وجدتها مثقفة دون تنطع ، مريحة فى حديثها ، نقية فى عاطفتها ، ومثقة فى طباعها . . . وكانت ثروتها متواضعة ، ولكن أسرتها محترمة . . . وقد أذنت لى بأن أزورها مرتين أو ثلاثاً فى بيت أبيها . وأنفقت أياماً سعيدة هناك . . . وقد شجع والدها هذه الصلة تشجيعاً كريماً فأشبعت حلمى بالسعادة للعظمى » (٥٤) .

ويبدو أن خطبتهما عقدت رسمياً فى نوفمبر ١٧٥٧ (٥٥) ، ولكن موافقة سوزان كانت مشروطة بوعد جبون بالعيش فى سويسره (٥٦) . وفى غضون هذا أمره أبوه — الائق بأن ابنته قد غذا الآن بروتستنتياً صالحاً — بأن يعود إلى وطنه ويستمع إلى الخطط التى وضعت له . ولم يكن جبون حربياً على العودة ، لأن أباه كان قد اتخذ زوجة ثانية ، ولكنه أطاع ، ووصل لندن فى ٥ مايو ١٧٥٨ . « وسرعان ما تبينت أن أبى يرفض هذا الزواج الغريب ، وأنى سأكون مملقاً عاجزاً إذا أبى الموافقة . وبعد كفاح أليم أذعنت لإرادة أبى : نهدت كعاشق وأطعت كإبن » (٥٧) . ثم نقل تهذه إلى سوزان برسالة كتبها فى ٢٤ أغسطس . ورتب له أبوه راتباً سنوياً قدره ٣٠٠ جنيه . وكسبت زوج أمه عرفانه بصنيعها لأنها لم تنجب ، ولم يلبث أن نمت فى

قلبه محبتها . وأنفق شطراً كبيراً من دخله على الكتب ، و « كونت بالتدريج مكتبة كبيرة منتقاة ، هي ركيزة مؤلفاتي ، وخير عزاء لي في الحياة » (٥٨) .

وكان قد بدأ مقالاً في لوزان وأتمه في بوريتون (حيث كان ينفق الصيف) وعنوان المقال « في دراسة الأدب » : ، وقد نشر بلندن في ١٧٦٦ وبجنيف في ١٧٦٢ . ولما كان مكتوباً بالفرنسية ، يتناول أول ما يتناول الأدب والفلسفة الفرنسية ، فإنه لم يثر ضجة في إنجلترا ، ولكنه استقبل في القارة استقبالاً إنجازاً ممتازاً لفتى في الثانية والعشرين . وقد احتوى بعض الأفكار ذات الدلالة في كتابة التاريخ . « ان تاريخ الامبراطوريات هو تاريخ شقاء الإنسان ، وتاريخ المعرفة هو تاريخ عظمته وسعاده . . . والاعتبارات الكثيرة تجعل هذا النوع الثاني من الدراسة غالباً في عيني الفيلسوف » (٥٩) . ومن ثم « إذا لم يكن الفلاسفة دائماً مؤرخين ، فمن المرغوب فيه على الأقل أن يكون المؤرخون فلاسفة » (٦٠) ؛ وقد أضاف جبون في « مذكراته » هذه العبارة « منذ شبابي الباكر تأقت نفسي إلى أن أكون مؤرخاً » (٦١) . وراح يفتش عن موضوع يلائم الفلسفة والأدب كما يلائم التاريخ . أما التاريخ في القرن الثامن عشر فلم يدع أنه علم من العلوم ، لا بل انه تاق إلى أن يكون فناً . أما جبون فأحسن بأنه يريد أن يكتب التاريخ بوصه فياسوفاً وفناناً : يعالج موضوعات واسعة في منظور واسع ، ويسبغ على فوضى المواد دلالة فلسفية وشكلاً فنياً .

غير أنه دعى فجأة من الدراسة إلى العمل . ذلك أن إنجلترا تعرضت غير مرة خلال حرب السنين السبع لخطر الغزو من فرنسا . واستعداداً لهذا الطارئ كون أعيان الانجليز مليشياً تلود عن البلاد خطر الغزو أو الترد . ولم يسمح إلا لدوى الأملاك بأن يكونوا ضباطاً . وعين جبون الأب ضابطاً كبيراً والإبن ضابطاً صغيراً في يونيو ١٧٥٩ . والتحق ادورد الثالث بفرقة في يونيو ١٧٦٠ ، وبقي معها حتى ديسمبر ١٧٦٢ فترات متقطعة ، ينتقل من معسكر إلى معسكر . ولم يكن بالرجل الصالح للحياة العسكرية ، وأصابه « الممل من رفاق لم يؤتوا معرفة الدارسين ولا طباع السادة المهذبن » (٦٢) .

وفي حياته العسكرية وجد صفته يتمدد بما فيه من سائل . « اضطرت اليوم (٦ سبتمبر ١٧٦٢) لاستشارة الجراح المستر أندروز في أمر علة أهملتها بعض الوقت ، وهي ورم في خصيتي اليسرى يخشى أن تكون خطيرة » (٦٣) . ففحص وأعطى مسهلاً ، ولم يسفر هذا العلاج إلا عن تخفيف مؤقت . وقد قدر لهذه « العلة » أن تعذبه حتى كانت القاضية عليه .

وفي ٢٥ يناير ١٧٦٣ انطلق في رحلة إلى القارة . وتوقف برهة في باريس حيث التقى بدلامبير ، وديدرو ، ورينال ، وغيرهم من نجوم حركة التنوير . « كان لي مكان خلال أربعة أيام في الأسبوع . . . على الموائد المضيفة للسيدتين جوفران وبوكاج ، وهلفتوس الذائع الصيت ، والبارون دولباخ . . . ومرقت أربعة عشر أسبوعاً دون أن أحس بها ، ولكن لو كنت غنياً غير معتمد على أبي لأظلت المكث في باريس وربما جعلتها مستقراً » (٦٤) .

وفي مايو ١٧٦٣ وصل إلى لوزان حيث أقام قرابة عام . ورأى الآنسة كورشو ، ولكن حين وجدها موفقة في خطبتها ، لم يحاول أن يجدد صداقته بها . ويعترف في هذه الزورة الثانية لسويسره قائلاً « ان عادات المليشيا وتمثلي بمواطني أفضيا بي إلى شيء من الإفراط الصاخب في الشراب ، وقبل أن أرحل كنت قد فقدت عن جدارة رأى الناس الطيب في ، وهو الرأى الذى ظفرت به في أيام سلوكي الأفضل » (٦٥) . وقد خسر مبالغ كبيرة في القمار ، ولكنه واصل دراساته اعداداً لإيطاليا ، مكباً على القديم من المدايات ، والعملات ، وأدلة السياح ، والخرائط .

وفي ابريل ١٧٦٤ عبر جبال الألب . وأنفق ثلاثة أشهر في فلورنسة ، ثم مضى إلى روما . وأرشدته مغترب استكلندي بين أطلال العصر الكلاسيكي القديم « في جهد يومي امتد ثمانية عشر أسبوعاً » . يقول « في روما ، وفي الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ ، بينما أنا جالس مستغرقاً في تأملاتي وسط خرائب الكابيتول ، وبينما الرهبان الحفاة يرتلون صلوات العشاء في معبد جوبتر ، خطرت لي لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة لا الامبراطورية » (٦٦) . وانتهى به التفكير إلى أن يرى في ذلك التفسخ المدمر

« أعظم بل ربما أرهب مشهد في تاريخ الإنسان »^(٦٧) . وبعد أن ألم بنابلي ، وباحوا ، والبندقية ، وفشتستسا ، وفيرونا ، عاد إلى لندن بطريق تورين وليون وباريس (« أسبوعان سعيدان آخران ») (٢٥ يوليو ١٧٦٥) ،

وكان يقضى معظم وقته الآن في بوريغتون ، لذلك سمح لنفسه بأن يتلهى بالبدم في كتابة تاريخ لسويسره بالفرنسية : فاما رأى هيوم المخطوطة في لندن ، كتب إلى جبون (٢٤ أكتوبر ١٧٦٧) يرجوه أن يستعمل الانجليزية ويتنبأ بأن الانجليزية ستبز عما قريب الفرنسية انتشاراً ونفوذاً ، ثم نبه جبون إلى أن استعماله للفرنسية أسلمه « إلى أسلوب فيه من الشاعرية والمجاز والإسراف في التلوين أكثر مما تسمح به لغتنا في المؤلفات التاريخية »^(٦٨) . وقد اعترف جبون بعد ذلك قائلًا « ان عاداتي القديمة . . . شجعتني على أن أكتب بالفرنسية لقارة أوروبا ، ولكنني أنا نفسي كنت شاعراً بأن أسلوبى ، الذى كان يعلو على النثر ويدنو عن الشعر ، قد انحدر إلى أسلوب خطائى طنان شديد الاطناب »^(٦٩) .

وخلف له موت أبيه (١٠ نوفمبر ١٧٧٠) ثروة وفيرة . وفى أكتوبر ١٧٧٢ اتخذ مقامه الدائم في لندن . « وما ان استقر في المقام في بيتى ومكتبى حتى اضطلعت بتأليف المجلد الأول من تاريخى »^(٧٠) .

وقد سمح لنفسه بألوان كثيرة من الترفيه — أمسيات في بيت هوايت ، واختلاف إلى « نادى » جونسن ، ورحلات إلى برايتن ، وباث ، وباريس . وفى ١٧٧٤ أنتخب عضواً في البرلمان عن « دائرة جيب » يتحكم فيها قريب له ، وقد لزم الصمت وسط المناقشات التي دارت في مجلس العموم . وكتب (٢٥ فبراير ١٧٧٥) يقول « مازلت صامتاً . أن الأمر أرهب مما تصورت ، وفحول الخطابة يملأوننى يأساً ، وضعافهم يملأوننى رعباً »^(٧١) . غير أن « الدورات الست التي قضيتها في البرلمان كانت لى مدرسة عامتني الحكمة المهلدة ، وهى أولى فضائل المؤرخ وألزمها »^(٧٢) وحين اكتنفه الجدل حول أمريكا ، صوت بانتظام في جانب سياسة الحكومة ، ووجه للأمة الفرنسية « مذكرة تبريرية » (١٧٧٩) بسط فيها حجج انجلترا ضدهم مستعمراها

الثائرة . وقد أجزى بمقعد في مجلس التجارة والمزارع ، أثناء بسبعائة وخمسين جنياً في السنة . واتهمه فوكس بالتكسب من ذلك الفساد السياسى الذى أوضح أنه من أسباب اضمحلال روما^(٧٣) . وقال الظرفاء ان جورج الثالث اشترى جبون مخافة أن يسجل اضمحلال وسقوط الامبراطورية البريطانية^(٧٤) .

ب — الكتاب

كان شغل جبون الشاغل بعد عام ١٧٧٢ كتابه في التاريخ ، وقد وجد من العسير عليه أن يفكر جدياً في أى شىء سواه . « لقد بذلت محاولات كثيرة قبل أن أستقر على أسلوب وسط بين سجل الأخبار الممل والعرض الخطائى البليغ . وكتبت الفصل الأول ثلاث مرات ، والثاني والثالث مرتين ، قبل أن أَرْضَى رضاء معقولا عن وقعها »^(٧٥) . لقد عقد العزم على أن يجعل كتابه التاريخى أثراً أدبياً .

وفى ١٧٧٥ عرض جبون مخطوطة الفصول الستة عشر الأول على ناشر . رفضها لأنها تكلفه ثمناً غالياً يحول دون النشر . واشترك كتيبان آخران هما توماس كولدويل ووليم ستراهان في مغامرة طبع المجلد الأول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧ فبراير ١٧٧٦) . وبيعت النسخ الألف بحلول ٢٦ مارس رغم أن الكتاب سعره بخمسة انجلىزى (٢٦ دولاراً) . ونفدت طبعة ثانية من ألف وخمسمائة نسخة صدرت في ٣ يونيو بعد صدورها بثلاثة أيام . « كان كتابى على كل خوان ، وعلى كل تسريحة تقريباً »^(٧٦) . وأجمعت دنيا الأدب على الثناء عليه وهى على ما عهد فيها من تحاسد وتناؤد بمزقها . وبعث ولیم روبرتسن إلى المؤلف بعبارات التحية السخية ، أما هيوم فقد كتب في هذا العام الذى مات فيه إلى المؤلف رسالة يقول جبون إنها (أجزلت له المكافأة على جهد سنين عشر^(٧٧)) . وصرح هوراس ولبول غداة نشر الكتاب لوليم ميسن : « ها قد صدر للتو والساعة أثر من عيون الأدب حقاً » .

وقد استهل الكتاب استهلالاً منطقياً وجريئاً بثلاثة فصول عميقة فصلت

الامتداد الجغرافى والتنظيم العسكرى والبناء الاجتماعى والتكوين القانونى للإمبراطورية الرومانية عند موت مرقص أوريلوس (١٨٠ م). وفى رأى جبون أن السنين الأربع والثمانين السابقة لهذا التاريخ قد شهدت الإمبراطورية فى أوج كفاية موظفيها ورضى شعوبها .

« لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فترة فى تاريخ العالم كانت فيها حال النوع الإنسانى غاية فى السعادة والرخاء ، لاختار دون تردد الفترة التى امتدت من وفاة دوميشيان (٩٦) إلى تولى كومودس (١٨٠) . فقد كان ملك الإمبراطورية الرومانية الشاسع محكوماً بسلطة مطلقة ، وبهدى من الفضيلة والحكمة . وكانت الجيوش تضبطها يد أربعة أباطرة متعاقبين ، جمعت بين الحزم والرفق ، وهم حكام فرضت شخصياتهم وسلطتهم الاحترام التلقائى . وصان أشكال الإدارة المدنية فى عناية ودقة الأباطرة نيرفا ، وتراجان ، وهادريان ، والانعلونيان ، هؤلاء الذين كانت صورة الحرية مبعث ابتهاج لهم ، وسرهم أن يروا أنفسهم خدام القوانين والمستوئين . . . ولقيت جهود هؤلاء الملوك خير جزاء فى فخر الفضيلة الحق ، والبهجة العميقة ، يستشعرونها حين يرون السعادة العميقة التى كانوا صناعها » (٧٨) .

غير أن جبون أدرك « تزعزع السعادة التى تعتمد بالضرورة على خلق رجل واحد . ولعل اللحظة القاضية كانت وشيكة ، حين يسىء فتى اباحى أو طاغية حسود . . استعمال الساطة المطلقة » (٧٩) . لقد كان « الأباطرة الضالكون » تذخبتهم ملكية متبذرة - فكل حاكم يورث سلطانه لعضو مختار ومدرب من حاشيته . وقد سمح مرقص أوريلوس بأن يرث الساطة الإمبراطورية ابنه الحقيقى كومودس ، وأرخ جبون اضمحلال الإمبراطورية منذ توليه العرش .

ثم ذهب جبون إلى أن ظهور المسيحية أعان على ذلك اضمحلال . وهنا تخلى عن اتباع رأى مونتسكيو الذى لم يقل شيئاً كهذا فى كتابه « عظمة الرومان والمحاططهم » ، إنما اتبع فواتير ، وكان موقفه عقلانياً خالصاً ، فقد تجرد من أى ميل للنشوة الصوفية أو الإيمان المملوء بالرجاء ،

وأعرب عن رأيه في فقرة تشتم فيها نكهة فولتيرية . قال : « ان شتى أساليب العبادة السائدة في العالم الروماني كانت كلها في نظر الشعب سواء في الصديق وفي نظر الفيلسوف سواء في الكذب ، وفي نظر الحاكم سواء في النفع . وهكذا أثمر التسامح انسجاماً دينياً » (٨١) ، وكان جبون يتجنب عادة أى تعبير مباشر بعدائه للمسيحية ، فقد كانت لا تزال هناك قوانين في سجلات إنجلترا التشريعية تعد هذا التعبير جريمة خطيرة . مثال ذلك « إذا أنكر شخص نشيء على الديانة المسيحية ، كتابة » ، . . . صديق المسيحية ، كان عقابه إذا عاد . . . السجن ثلاث سنوات دون قبول كفالة عنه » (٨٢) . ودرءاً لهذا العناء اتخذ جبون الأملح الخفي والتهكم الشفاف عنصرين من عناصر أسلوبه ، ونوه في حرص إلى أنه لن يناقش مصادر المسيحية الأولية وفوق الطبيعية ، بل سيكتفى بمناقشة العوامل الثانوية والطبيعية في أصل المسيحية ونموها ، وأخرج في هذه العوامل الثانوية « أخلاقيات المسيحيين الطاهرة الصارمة » في القرن المسيحي الأول ، ولكنه أضاف عاملاً آخر « غيرة المسيحيين غير لا مرونة فيها (ولا تسامح ان جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير) » (٨٣) ومع أنه امتدح « وحدة الجمهورية المسيحية وانضباطها » ، فإنه لاحظ أنها « شيئاً فشيئاً كونت دولة مستقلة متعاطمة في قلب الإمبراطورية الرومانية » (٨٤) ، وقد رد بوجه عام تقدم المسيحية في أول عهدا إلى العملية الطبيعية لا إلى المعجزة ، ونقل الظاهرة من اللاهوت إلى التاريخ .

ولكن كيف أعانت المسيحية على اضمحلال روما ؟ أولاً بإضعاف إيمان الشعب بالدين الرسمي . وبذلك قوضت أساس الدولة التي سندها ذلك الدين وقدسها . (وهذا بالطبع كان بالضبط حجة اللاهوتيين على جماعة الفلاسفة) . وارتأبت الحكومة الرومانية في المسيحيين بحجة أنهم يؤلفون جماعة سرية معادية للخدمة العسكرية ، ويصرفون الناس عن الأعمال النافعة إلى التركيز على الخلاص السماوى . (فالرهبان في رأى جبون كانوا رجالاً متبطلين استسلموا التسول والصلاة عن العمل) . أما الملل الأخرى فكان في الاستطاعة التسامح معها لأنها كانت متسامحة ولأنها لم تعرض وحدة الأمة للخطر ، وكان المسيحيون هم الملة الجديدة الوحيدة التي نددت بسواها

من الملل وحكمت عليها بأنها شريرة هالكة ، وتنبأت صراحة بسقوط « بابل » -
 أى روما^(٨٤) . وقد عزا جبون قدراً كبيراً من هذا التعصب لأصل
 المسيحية اليهودية ، وذهب مذهب تاسيتوس فى التشديد باليهود فى نقاط
 شتى فى روايته . وسحاول أن يفسر اضطهاد نيرون للمسيحيين على أنه فى
 حقيقته اضطهاد لليهود^(٨٥) ، وليس لهذه النظرية اليوم مؤيد . وكان أكثر
 توفيقاً فى اتباع رأى فولتير فى انقاص عدد المسيحيين الذين استشهدوا على
 يد الحكومة الرومانية ، فلم يزيّدوا فى تقديره على الألفين على الأكثر ،
 ووافق فولتير على أن « المسيحيين » على مدى خلافاتهم الداخلية
 (منذ قسطنطين) أوقعوا بعضهم ببعض من أعمال القسوة ما هو أفذح
 بكثير مما لا قوة من تعصب الكفار » ، وأن « كنيسة روما دافعت بالعنف
 عن الإمبراطورية التى اكتسبتها بالحيلة »^(٨٦) .

وقد أثار هذان الفصلان الختاميان (١٥ - ١٦) ردوداً كثيرة اهتمت
 جبون بعدم الدقة ، أو التحريف ، أو عدم الإخلاص . أما جبون فى تجاهل
 مؤقت لنقاده سمح لنفسه بالاستمتاع بأجازه طويلة فى باريس (مايو إلى
 نوفمبر ١٧٧٧) . ودعته سوزان كورشو التى أصبحت زوجة جاك نكير
 المصرفى ووزير المالية إلى بينهم . وكانت الآن فى وضع مريح جداً بحيث
 لم يسؤها ما سبق من أنه « تنهد تنهد العاشق » ، وأطاع طاعة الابن » . أما
 المسيو نكير ، الذى لم تخلجه الغيرة قط ، فكثيراً ما كان يترك العاشقين
 السابقين وحيدين ويمضى إلى عمله أو فراشه . وشكا جبون قائلاً « أيمكن
 أن يهينانى إهانة أقسى من هذه ؟ يا لها من طمأنينة وقحة ! » أما جرّمين ،
 ابنة سوزان . (وهى التى أصبحت فيما بعد مدام دستال (فقد طابت لها
 صحبته حتى لقد جربت ألاعيبها المفتحة عليه (وهى بعد فى الحادية عشرة)
 وعرضت أن تزوجه حتى تحتفظ به فى الأسرة^(٨٧) . وفى بيت نكير التى
 بالإمبراطور يوزف الثانى ، وفى فرساي قدم إلى لويس السادس عشر ،
 الذى قيل إنه شارك فى ترجمة المجلد الأول إلى الفرنسية . واحتفى به القوم
 فى الصالونات لاسيما صالون المركيزة دودفان ، التى وجدته « لطيفاً
 مؤدباً . . . أرقى من جميع الأشخاص الذين أعيش معهم تقريباً » ، ولكنها

حكمت على أسلوبه بأنه « منمق ؛ خطابي » ، وأنه « يجرى على طريقة أدبائنا المعترف بهم »^(٨٨) . وقد رفض دعوة من بنيامين فرانكلان ، ببطاقة ذكر فيها أنه مع احترامه للمبعوث الأمريكي رجلاً وفياً ، إلا أنه لا يستطيع أن يراه أمراً ينسجم مع واجبه قبل ملكه أن يدخل في أى حديث مع رجل من الرعايا الثائرين . ورد فرانكلين بأنه يكن من الاحترام الشديد للمؤرخ ما يجعله سعيداً — أن خطر لجون يوماً أن يتخذ من اضمحلال الإمبراطورية البريطانية ومقوتها موضوعاً للتأليف — بأن يزوده ببعض المواد المتصلة بالموضوع^(٨٩) .

فلما عاد جيون إلى لندن ، أعد رداً على نفاذه — « دفاع عن بعض فقرات وردت في الفصلين الخامس عشر والسادس عشر من تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٩) وقد تناول خصومه اللاهوتيين في إنجاز ورفق ، ولكنه احتد قليلاً في رده على هنرى ديفز ، وهو فقي في الحادية والعشرين كان قد اتهم جيون في كتاب من ٢٨٤ صفحة بأخطاء سببها عدم الدقة . وقد اعترف المؤرخ ببعض الأخطاء ولكنه أنكر « تعمد التحريف ، والأخطاء الجسيمة ، والانتحالات الذليلة »^(٩٠) . واستقبل هذا « الدفاع » عموماً على أنه رد موفق . وبعدها لم يرد جيون على النقد إلا عرضاً في « المذكرات » ، ولكنه وجد مكاناً لبعض المديح الذى أسبغه على المسيحية على سبيل المصالحة في أجزاء الكتاب التالية .

وقد ازداد تأليفه سرعة بفقده كرسيه في البرلمان (أول سبتمبر ١٧٨٠) ، فصدر المجلدان الثانى والثالث من « التاريخ » في أول مارس ١٧٨١ وقد استقبلا استقبالاً هادئاً . ذلك أن غزوات القبائل الممجية كانت قصة قديمة ، أما المناقشات الطويلة المتخصصة للهرطقات التى أثارت الكنيسة المسيحية في القرنين الرابع والخامس فلم يكن فيها ما يشوق جيلاً من الشكاك الديويين . وكان جيون قد أرسل سلفاً نسخة من المجلد الثانى إلى هوراس ولبول ، فزار الآن ولبول في ميدان باركلى ، وأحزنه أن يقال له « إن فى الكتاب إسهاباً كثيراً عن الأريوسيين والأونوميين وأشباه البلاحيين . . . بحيث أنى أخشى

أن القليلين سيصبرون على قراءة القصة رغم أنك كتبها كأفضل ما يمكن كتابتها ». وكتب ولبول يقول « من تلك الساعة إلى الآن لم أره قط ، مع أنه اعتاد أن يزورنى مرة أو مرتين كل أسبوع »^(٩١) . وقد وافق جبون فيما بعد على رأى ولبول^(٩٢) .

واستعاد المجلد الثانى الحياة حين تصدره قسطنطين . وقد فسر جبون دخوله الشهير فى المسيحية على أنه عمل من أعمال الخنكة فى فن الحكم . ذلك أن الامبراطور كان قد أدرك أن تنفيذ أحكام القوانين أمر قاصر وغير مأمون ، وأنها قلما تلهم بالفضيلة ، وليس فى قدرتها دائماً أن تكبح جماح الرذيلة . وفى وسط فوضى الأخلاق والاقتصاد والحكم فى الإمبراطورية الممزقة ، « قد يلحظ حاكم حصيف فى سرور تقدم دين يبت بين الناس نسقاً من المبادئ الخلقية نقياً خيراً شاملاً للجميع ، مكيفاً لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، مزكى باعتباره لإرادة الإله الأعلى وفكره ، منفذاً بتكريس من الثواب أو العقاب الأبديين »^(٩٣) . أى أن قسطنطين أدرك أن العون المستمد من دين فوقطبيعى هو عون عظيم القيمة للأخلاق والنظام الاجتماعى والحكومة . ثم جرى قلم جبون بمائة وخمسين صفحة بليغة محايدة عن يوليان المرتد .

وقد ختم الفصل الثامن والثلاثين والمجلد الثالث بهامش امتدح ماتحلى به جورج الثالث من « حب خالص كريم للعلم وللشعر » . وفى يونيو ١٧٨١ ، وبمساعدة اللورد نورث ، أعيد انتخاب جبون للبرلمان ، حيث استأنف تأييده للوزارة . على أن سقوط اللورد نورث (١٧٨٢) أنهى حياة مجلس التجارة وأطاح بوظيفة جبون فيه ؛ « لقد جردت من راتب مريح مقداره ٧٥٠ جنيهاً فى العام »^(٩٤) . فلما شغل نورث مكاناً فى وزارة ائتلاف (١٧٨٣) ، تقدم جبون بطلب وظيفة شرفية أخرى . ولكنه لم ينالها « ما كنت لأستطيع بغير دخل إضافى أن أحتفظ طويلاً أو بحكمة وتدبر بأسلوب الإنفاق الذى ألفته »^(٩٥) . وقدر أن فى استطاعته الاحتفاظ بذلك الأسلوب فى اوزان ، حيث كان بلجيته الاسترلينية ضعف قوتها الشرائية فى لندن . وعليه فقد

استقال من البرلمان ، وباع كل ممتلكاته المنقولة غير الشخصية ، فيما خلا مكتبته ، وفي ١٥ سبتمبر ١٧٨٣ رحل عن لندن « بدخانها وراثتها وضوضائها » قاصداً لوزان . وهناك قاسم صديقه القديم جورج ديفردان قصراً مريحاً . وأنا أشرف على منظر مترام يجمع بين الوادى والجبل والماء ، بدلاً من الإطلال على حوش مبلط مساحته اثنا عشر قدماً مربعاً ^(٩٦) . ووصلته كتبه الألفان بعد أن تأخرت قليلا ، فشرع فى تأليف المجلد الرابع .

وكان قد خطط أول الأمر أن ينهى « الاضمحلال والسقوط » بفتح روما عام ٤٧٦ . ولكنه بعد أن نشر المجلد الثالث « بدأت أتوق إلى الواجب اليومى ، إلى البحث النشط الذى يسبغ على كل كتاب قيمة ، وعلى كل تحقيق هدفاً » ^(٩٧) . ومن ثم استقر رأيه على أن يفسر عبارة « الإمبراطورية الرومانية » على أنها تنتظم الإمبراطورية الشرقية كما تنتظم الغربية ، وأن يواصل قصته حتى يبلغ بها تدمير الحكم البيزنطى بفتح الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣ . وهكذا أضاف ألف سنة إلى مجال دراسته ، واضطلع بمئات المواضيع الجديدة التى تتطلب البحث الشاق المضنى .

وقد احتوى المجلد الرابع على فصول رائعة عن جستنيان وبلساريوس ، وفصل عن القانون الرومانى ظفر بمديح عظيم من فقهاء القانون ، وفصل ممل عن مزيد من الحروب التى استعرت بين اللاهوتيين المسيحيين . كتب ولبول يقول : « ليت المسترجبون لم يسمع قط بالمونوفيزيين (القائلين بطبيعة المسيح الواحدة) أو النساطرة أو أى من هؤلاء الحقى ! » ^(٩٨) . وقد تحول جبون فى المجلد الخامس فى تخفيف واضح إلى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وفتح العرب للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وأغدق على الننى والخلفاء الحرييين كل التفهم المحايد الذى خانة فى حديثه عن المسيحية . وأعطته الحروب الصليبية موضوعاً مثيراً آخر فى المجلد السادس ، وكان استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية الدرورة لمؤلفه والتاج الذى تكلل عمله .

وقد لخص جهوده فى الفصل الأخير فى جملة مشهورة : « لقد وصفته

انتصار الهمجية والدين»^(٩٩). ولم يرق في العصور الوسطى غير الفجاجة والخرافة وهو ما رآه فيها فولتير ، أستاذة الذي لم يقر بفضاه . وقد صور حالة الخراب التي آلت إليها روما في ١٤٣٠ واستشهد برثاء بودجو لها إذ قال « ليت شعري أى خطب دهمى بهاء الدنيا هذا ! لشد ما أنهار ، وتغير ، وشاه منظرا ! » — رأى خراب الآثار والفن الكلاسيكيين أوتدهيهما ، وساحة روما وقد حجبها نمو الحشائش واحتلتها الماشية والخنازير . واختتم جبون في حزن بهذه العبارة « وسط خرائب الكابيتول خطو لي لأول مرة خاطر القيام بهذا العمل الذى أبهج ودرب عشرين سنة من حياتي تقريبا ، عمل أسلمه في النهاية إلى فضول جمهور القراء وصراحتهم أيا كان قصوره عن أن يدرك مرأى » ، وقد استعصر في « مذكراته » تلك الساعة ، ساعة الخلاص المفجعة بالمشاعر المتناقضة :

« في عشية السابع والعشرين من يونيو ١٧٨٧ ، بين الحادية والثانية عشرة ، كتبت آخر السطور في آخر صفحة ، في ظلة صيفية في حديقة ، وبعد أن وضعت قلمي تجولت مرات . . . في ممشي مغطى من أشجار السنط ، يشرف على مشهد يجمع بين الريف ، والبحيرة ، والجبال . . . ولست أريد إخفاء مشاعر الفرح التي غمرتني لاستعادتي حريق ، وربما لتوطيد شهرتي . ولكن سرعان ما أذلت كبريائي وأشاعت في عقلي اكتئاباً هائلاً ، فكرة فراقى فراق الأبد لرفيق قديم أنيس ، وأنه أبا كان مصير كثنائي مستقبلاً ، فإن حياة المؤرخ لا محالة قصيرة مزعزعة»^(١٠٠).

ج — الرجل

وصف المسيو بافيار جبون وهو في السادسة عشرة بأنه « جسد قصير نحيل يعلوه رأس كبير»^(١٠١). ولذا كان يكره الرياضة ويحب الطعام^(١٠٢) ، فإنه سرعان ما اكتسب استدارة في الجسم والوجه ، وأصبح له كرش محترم يعتمد على ساقين نحيلتين ، أضف إلى ذلك شعراً أحمر جعله من الجانب وعقبه من الخلف ، وقسمات ملائكية لطيفة ، وأنفاً دقيقاً ، وخدين منتفخين ، وذقناً ملغداً ، وأهم من ذلك كله جبين عريض عال يعد « أنجزات

عظيمة القدر والخطار» والجلال واتساع المرمى . وكان قريباً لجونسن في شهيته ولولبول في نقرسه . وقد تضخم صفته بشكل مؤلم عاماً بعد عام حتى أبرزته سراويله الضيقة بروزاً مزعجاً . ولكنه رغم معايبه كان مغروراً بمظهره ولباسه ، وصدر المجلد الثاني من كتابه بصورته التي رسمها له رينولدز . وكان يحمل علية نشوق في خاصرته ، وينقر عليها نقرأ خفيفاً إذا احتد أو أراد أن يصغى إليه سامعه . وكان أنانياً شأن أى رجل له هدف يستغرقه . ولكنه كان صادقاً « لقد وهبت مزاجاً بشوشاً ، وحساسية معتدلة (ولكن دون اسراف في العاطفة) وميلاً فطرياً للاسترخاء » (١٠٣).

وفي ١٧٧٥ أُنْتُخِبَ عضواً في « النادي » . وكان كثير التردد عليه نادر الكلام فيه ، يبغض فكرة جونسن عن الحديث . وكان جونسن يعاقب على « دمامة » جبون على نحو مسموع أكثر مما ينبغي (١٠٤) ، أما جبون فكان يصف هذا « الدب الأكبر » بأنه « علام حكيم » وأنه « عدولا يغفر » ، و « عقل متعصب تعصباً أعمى وإن كان قوياً ، يتلف أى عذر ليغض من يخالفون عقيدته ويضطهدهم » (١٠٥) . وأما بوزويل ، الذى لم يكن يشعر بشفقة على غير المؤمنين ، فقد وصف المؤرخ بأنه « إنسان دميم مغرور مقزز » ينغص على « متدانا الأدبى » . ومع ذلك فلا بد أن جبون كان له أصدقاء كثيرون ، لأنه وهو فى لندن كان يتناول العشاء خارج بيته كل ليلة تقريباً .

وقد قدم من لوزان إلى لندن فى أغسطس ١٧٨٧ ليشرّف على طبع المجلدات الرابع والخامس والسادس ، والتي صدرت فى عيد ميلاده الحادى والخمسين فى ٨ مايو ١٧٨٨ ، وأنته بأربعة آلاف من الجنيهات ، ويعد هذا من أعلى الأتعاب المدفوعة لمؤلف فى القرن الثامن عشر . يقول « ان خاتمة مؤلفي عمت قراءتها واختلف الحكم عليها . . . ومع ذلك يبدو على الجملة أن « تاريخ الاضمحلال والسقوط قد أصل جذوره سواء فى أرض الوطن أو خارجه ، ولعل ذمه سيستمر ربما بعد مائة عام » (١٠٦) . وكان آدم سميث قد وضعه فعلاً « على رأس معشر الأدباء قاطية ، الموجودين الآن فى

أوروبا»^(١٠٧). وفي ١٣ يونيو ١٧٨٨ ، خلال محاكمة هيدنجنز في وستمنستر هول ، طاب لجبون أن يسمع من شرفة الزوار شريدان يشير في خطاب من أروع خطبه إلى «صفحات جبون الوضاعة» (Luminous)^(١٠٨) . وفي رواية غير محتملة التصديق أن شريدان زعم فيما بعد أنه قال (Voluminous) أى الغزيرة الإنتاج^(١٠٩) ، ولكنها صفة لا يمكن أن تنعت بها الصفحات ، والصفة الأولى هى ولا ريب اللفظ المطابق لمقتضى الحال .

وفي يوليد ١٧٨٨ قفل جبون إلى لوزان . وبعد عام مات ديفردان مخلفاً بيته لجبون ما بقى من عمر المؤرخ . هنالك عاش جبون في رغد ، يقوم على خدمته عدة خدام ويأتيه دخل قدره ١,٢٠٠ جنيه في العام ، وشرب النبيذ الكثير ، وزاد نفقرسه ومحيط خصره ، « من ٩ فبراير إلى أول يوليو ١٧٩٠ عجزت عن التحرك من بيتى أو مقعدى »^(١١٠) . وإلى هذه الحقبة تنتمى الأسطورة التى زعمت أنه جثا عند قدمى مدام كروزاز يبوخ لها بحبه ، وأنها طلبت إليه أن ينهض ، وأنه لم يستطع لثقل جسمه^(١١١) . والمصدر الوحيد للقصة هو مدام جفليس التى وصفها سانت - بوف بأنها « امرأة خبيثة اللسان »^(١١٢) ؛ وقد رفضت ابنها القصة وقالت أن سببها هو الخلط بين الأشخاص^(١١٣) .

ثم قطعت الثورة الفرنسية على جبون هدوءه . وترددت المشاعر الثورية فى الأقاليم السويسرية ، وجاءت الأنباء بهياج مماثل فى إنجلترا . وكان لجبون كل العذر فى خوفه من أن تسقط الملكية الفرنسية ، لأنه كان يستثمر ١,٣٠٠ جنيه فى قرض للحكومة الفرنسية^(١١٤) . وكان قد كتب عام ١٧٨٨ ، فى نبوءة لم يوفق فيها ، أن الملكية الفرنسية « تقف ، كما يبدو ، على أساس من صخر الزمن ، والقوة ، والرأى ، تساندها أرستقراطية ثلاثية من الكنيسة والنبلاء والبرلمانات »^(١١٥) ، وقد اغتبط حين أصدر بيرك كتابه « تأملات فى الثورة فى فرنسا » (١٧٩٠) ، وكتب إلى اللورد شفياد محذراً من أى اصلاح فى النظام السياسى البريطانى ، « لو سمحتم بأدنى تغيير وأكثره تمويهاً فى نظامنا البرلمانى لقضى عليكم »^(١١٦) . وراح الآن

يتحسر على نجاح جماعة الفلاسفة في محرمهم التي شنوها على الدين ، « لقد خطر لى أحياناً أن أكتب حواراً بين الموقى ، يتبادل فيه لوسيان وارزم وفولتير الاعتراف بخاطر تعريض خرافة قديمة لاحتقار الجماهير العمياء المتعصبة » (١١٧) . وحث بعض زعماء البرتغاليين على ألا يتخلوا عن ديوان التفهيش خلال هذه الأزمة التي هددت كل العروش (١١٨) .

ورحل جبون عن لوزان (٩ مايو ١٧٩٣) وأسرع بالعودة إلى إنجلترا ، من جهة هرباً من جيش الثورة الفرنسى المقرب من لوزان ، ومن جهة أخرى التماساً للجراحة الانجليزية ، ولسبب قريب هو تعزية اللورد شفيلد فى وفاة زوجته ، فوجد شفيلد فى شغل بالسياسة عجل بسلواه . كتب جبون يقول « شفى المريض قبل وصول الطبيب » (١١٩) . وأذعن المؤرخ نفسه الآن لأوامر الأطباء ، لأن قيلته كانت قد بلغت من التضخم « حجم طفل صغير تقريباً . . . لأننى أزحف زحفاً بشىء من الجهد وكثير من عدم اللياقة » (١٢٠) وقد صرفت إحدى الجراحات جالوناً من « السائل المائى الشفاف » من الخصية المريضة . ولكن السائل تجمع ثانية ، وأخرج بزل ثان ثلاثة أرباع الجالون ، واستشعر جبون الراحة مؤقتاً ، واستأنف الخروج للعشاء . ولكن القيلة تكونت من جديد ، وباتت الآن عفنه . وفى ١٣ يناير بزلت للمرة الثالثة . وبدأ أن جبون يتماثل للشفاء سريعاً ، وسمح له الطبيب بأكل اللحم ، وأكل جبون بعض الدجاج وشرب ثلاث أكواب من النبيذ . فأصابته آلام معوية شديدة حاول كما حاول فولتير تخفيفها بتعاطى الأفيون . ولكن فى ١٦ يناير مات بالغا السادسة والخمسين .

د - المؤرخ

لم يكن جبون ملهماً فى مرآه ولا فى خلقه ولا فى سرته ، فعظمته كلها انسكبت فى كتابه ، فى فخامة فكرته وشجاعته ، فى الصبر على تأليفه والتفنن فيه ، وفى الجلال الوضاء الذى كلله كله .

أجل ، لقد صدق شريدان فيما قال . فأساوب جبون وهماء والقدر الذى يسمح به اللهكم ، وقد ألقى الضوء أبنا اتجه ، اللهم إلا حين يحجب الهوى

المهوى رؤيته . وقد شككت أسلوبه دراساته اللاتينية والفرنسية ، فرأى الألفاظ الأنجلو — سكسونية البسيطة لاتناسب وقار مذهبه في الكتابة . ، وكثيراً ما كتب كأنه خطيب مخطب ، وما أشبهه في هذا بليني يشجده هجاء تاسيتوس ، وبيرك تجلوه فكاهة بسكال الذكية . كان يوازن بين جملة بمهارة المشعوذ وجدله ، ولكنه أسرف في تكرار لعبته هذه حتى قاربت الرتبة المملة أحياناً . وإذا كان أسلوبه يبدو فخماً طناناً ، فإنه الأسلوب اللائق بترامى موضوعه وهائه — وهو تفتت أعظم امبراطورية شهدها العالم على مدى ألف عام . وتأخذ أسلوبه العرضية تنوّه وسط زحف الرواية وقوة الأحداث ، والصور والأوصاف الكاشفة ، والتلخيصات الباتة التي تجعل قرناً بأسره في فقره ، وتزاوج بين الفلسفة والتاريخ .

ولقد شعر جبون بعد أن اضطلع بهذا المبحث المترامى أن له الحق في تضييق حدوده ويقول « إن الحروب ، وإدارة الأمور العامة . هما موضوعا التاريخ الرئيسيان » (١٢٠) ، ومن ثم أغفل تاريخ الفن والعلم والأدب ، فلم يكن لديه ما يقوله عن الكنديريات القوطية أو المساجد الإسلامية ، ولا عن العلم أو الفلسفة العربيين ، وقد توج بترارك ، ولكنه مر بدانتى مرور الكرام . ولم يكذب بلقي بالا إلى حال الطبقات الدنيا ، أو قيام الصناعة في القسطنطينية أو فلورنسه في العصر الوسيط . وفقد اهتمامه بالتاريخ البيزنطي التالي لموت هرقل (٦٤١) . وفي رأى بيورى « أن جبون أخفق في إبراز حقيقة خطيرة ، هي أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت حتى القرن الثاني عشر حصن أوروبا الحصين في وجه الشرق ، كذلك لم يقدر أهميتها في الحفاظ على تراث المدينة الإغريقية » (١٢٢) ، غير أن جبون في نطاق الحدود التي رسمها لنفسه بلغ العظمة بربطه النتائج بالأسباب الطبيعية ، وبتمويله ضخامة مواده إلى ترتيب مفهوم ورؤية هادية للصورة بأكملها .

لقد كان علمه واسعاً كثير التفاصيل . فحواشيه ذخيرة من المعرفة تلتفها الفكاهة الذكية ، وقد درس أعوص جوانب العالم القديم ، بما فيه من طرق وعملات وموازن ومقاييس وقوانين ، ووقع في أخطاء صحيحها

المختصصون ، ولكن بيورى هذا الذى بين مآخذه أضاف : « لو أخذنا فى الاعتبار المدى الشاسع لمؤلفه لأدهشتنا دقته » (١٢٣) ولم يستطع أن ينقب فى المصادر الأصلية غير المنشورة (كما يفعل محترفو المؤرخين ممن يقتصرون على رقعة صغيرة من الموضوع والزمان والمكان) ، ولكنى يتم عماء اقتصر على المادة المطبوعة ، واعتمد بصراحة على مراجع ثانوية مثل كتاب أوكل « تاريخ المسلمين » أو كتابى تلمون « تاريخ الأباطرة » و « التاريخ الكنسى » ؛ وبعض المراجع التى اعتمد عليها مرفوضة الآن لأنها غير موثوق بها (١٢٤) ، وقد أفصح عن مصادره فى تفصيل أمين وشكر مؤلفيها ؛ من ذلك أنه قال فى هامش حين جاوز الفترة التى تناولها تلمون : « هنا على أن أستأذن إلى الأبد من ذلك المرشد الذى لا يبارى » (١٢٥) .

ترى ما النتائج التى خلص إليها جبون من دراسته للتاريخ؟ إننا نراه أحياناً يتبع جماعة الفلاسفة الفرنسيين فى قبول حقيقة التقدم : « يجوز لنا أن نرتضى النتيجة السارة التى تذهب إلى أن كل عصر فى العالم زاد وما زال يزيد من ثروة النوع الإنسانى الحقيقية ، وسعاده ، ومعارفه ، وربما فضائله » (١٢٦) ، ولكنه فى لحظات أقل إشراقاً - وربما لأنه قد اتخذ الحرب والسياسة (واللاهوت) مادة للتاريخ - حكم على التاريخ بأنه « فى الحق لا يعدو كثيراً أن يكون سجلاً لجرائم الإنسان وحماقاته ونكباته » (١٢٧) ولم ير فى التاريخ قصداً مرسوماً ؛ فالأحداث ثمرة أسباب لا موجه لها ، فهى متوازى أضلاع من قوى ذات أصل مختلف ونتيجة مركبة . وفى كل هذه المشاكل من الأحداث يبدو أن الطبيعة البشرية تظل دون تغيير . ولقد ابتلى النوع الإنسانى دائماً وسيظل دائماً مبتلى ، بالسوء والمعاناة والظلم ، لأنها هذه كلها مركبة فى طبيعة البشر ، ان الإنسان خائق بأن يخشى من ثورات إخوانه من البشر أكثر كثيراً مما يخشى اضطرابات الطبيعة العنيفة (١٢٩) .

(٥) تشارن فولير « كل التاريخ ، باختصار ؛ ليس إلا . . . مجموعة جرائم وحماقات ونكبات . . . » (١٢٨) .

لقد تآقت نفس جبون وهو ريبب التنوير إلى أن يكون فيلسوفاً ، أو على الأقل أن يفلسف التاريخ ، « ان العصر المستنير يطالب المؤرخ بمسحة من الفلسفة والنقد »^(١٣١) . وكان يجب أن يقطع روايته بتعليقات فلسفية . ولكنه لم يزعم أنه يرد التاريخ إلى قوانين أو يصيغ « فلسفة للتاريخ » ، على أنه اتخذ له موقفاً في بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى اتخذ له موقفاً في بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى من المدنية ، ورفض أن يكون العرق عاملاً حاسماً^(١٣٢) ، وأقر ، في حدود بتأثير الأفعاذ من الرجال . « أن أهم المشاهد في الحياة البشرية تتوقف على أخلاق ممثل فرد . فقد يحدد عرق في رجل واحد فيغير مصير الأمم »^(١٣٣) . وحين كان في استطاعة قريش أن تغتال محمداً (صلى الله عليه وسلم) « كان من الجائز أن يغير رمح عربي تاريخ العالم »^(١٣٤) . ولو لم يهزم شارل مارتل المغاربة في تور (٧٣٢) لاكتسح المسلمون أوروبا بأسرها ، « ولكان تفسير القرآن يدرس الآن في مدارس أكسفورد ، ولكان تلاميذها يفسرون لشعب من المختونين قلدسية الوحي الذي نزل على النبي وصدقه »^(١٣٥) . على أنه لا بد للفرد الفذ من أن يتركز على سند واسع إن أراد أن يحرز أقصى نفوذ على عصره . « إن النتائج التي يحققها الإقدام الشخصي ضئيلة جداً ، إلا في الشعر أو الرومانس ، بحيث يجب أن . . . يعتمد النصر على درجة المهارة التي يستعان بها لتجميع عواطف الجماهير المشوبة وتوجيهها لخدمة رجل فرد »^(١٣٥) .

صفوة القول أن « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » يمكن على الجملة أن يعد الكتاب الأعظم للقرن الثامن عشر ، وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » أقرب منافس له . صحيح أنه لم يكن أكثر الكتب تأثيراً ، ولم يكن يكن في تأثيره على التاريخ قريباً لكتاب روسو « العقد الاجتماعي » أو لكتاب آدم سميث « ثروة الأمم » ، أو لكتاب كانط « نقد العقل الخالص » . ولكننا إذا نظرنا إليه بوصفه أثراً أدبياً وجدناه لا يبارى في جميله أو نوعه . فإذا سألنا كيف أتيج لجبون أن ينتج هذه الرائعة أدركنا أن السر كان في

ذلك الارتباط الذى تصادف أن ربط بين الطموح والمال والفراغ والكفاية ؛ ولا ندرى متى يمكن أن نتوقع تكرار هذا الارتباط ثانية . لقد قال مؤرخ آخر لروما هو بارتولد نيبور « أن كتاب جبون لن يزه كتاب أبدا » (١٣٦) .

— ٦ — تشاترتن وكوبر

من يظن الآن أن أحب الشعراء الانجليز الأحياء إلى قلوب الناس فى عام ١٧٦٠ هو تشارلز تشرشل ؟ كان ابنا لقسيس ، وقد رسم هو نفسه قسيساً أنجليكانياً ، غير أنه هوى مباحج لندن ، وصرف زوجته ، وغرق فى الديون ، ونظم قصيدة حظيت بالشهرة يوماً ما ، هى « الروسكياده » (١٧٦١) وأتاحت له الوفاء بديونه ، وتقرير معاش لزوجته ، و « أن يطلع على الناس فى زى لادىنى على نحو صارخ كفتى من فتيان لندن العصريين » (١٣٧) . وقد اتخذ قصيدته اسمها من كوينتس روسكيوس الذى سيطر على المسرح الرومانى أيام يوليوس قيصر ، وهجت القصيدة كبار ممثلى لندن ، وجعلت جاريك يحفل ؛ وذكر عن أحد ضحاياها أنه « كان يجرى فى شوارع المدينة كأنه ظبي جريح » (١٣٨) . وقد انضم تشرشل إلى ولكس فى شعائر « مدمنهام آبى » الفاجرة ، وأعانه على تحرير صحيفة « النورث بريتون » ، وذهب إلى فرنسا ليقاسم ولكس منفاه ، ولكنه مات فى بولون (١٧٦٤) إثر سكرة فاجرة ، وب « لامبالاة أبيقورية » (١٣٩) .

وهناك قسيس آخر يدعى توماس بيرسى عاش حياة تليق بردائه الكهنوتى ، وأصبح أسقفاً على درومور فى ايرلنده ، وترك بصمته على الأدب الأوروبى حى استنمذ مخطوطاً قديماً من يد خادم كانت على وشك احراقه ، وقد أمده المخطوط بأحد المصادر لكتابه « آثار من الشعر القديم » (١٧٦٥) وراقت هذه القصائد القصصية الشعبية التى تنتمى لبريطانيا فى العصر الوسيط المخضرمين من القراء ، وشجعت الروح الرومانتيكية — التى طالما كبتها النزعة العقلية والمزاج الكلاسيكى — على الأعراب عن نفسها شعراً وقصصاً وفناً . وقد أرخ ورد زورث من هذه الآثار ظهور الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى . وكانت أشعار مكفرسن « أوسيان » ،

وقصائد تشاترتن ، وقصائد ولبول « قلعة أوترنتو » و « ستروبرى هل » ، وقصيدتا بكفور « فاذك » و « فونتل آي » — هذه كلها كانت أصواتاً شتى فى صيحة تدعو للوجدان والغموض والرومانس ، وتملكت العصور الوسطى الروح العصرية برهة .

وقد بدأ توماس تشاترتن محاولته لتشرب العصر الوسيط بإطالة النظر فى رفاق عتيقة عثر عليها عمه فى كنيسة بيرستل . وقد شب هذا الغلام الحساس الخصب الخيال — الذى ولد بيرستل (١٧٥٢) عقب موت أبيه — فى عالم من صنع خيالاته التاريخية . وقد درس قاموساً للألفاظ الأنجلو — سكسونية ، ونظم فى لغة خلها لغة القرن الخامس عشر قصائد ادعى أنه عثر عليها فى كنيسة سانت مارى راد كليف ، ونسبها إلى توماس راولى ، وهو راهب وهى من رهبان القرن الخامس عشر . وفى ١٧٦٩ ، حين بدأ السابعة عشرة ، أرسل بعض « قصائد راولى » هذه إلى هوراس ولبول — الذى كان هو ذاته قد نشر « أوترانتو » زاعماً أنها من شعر العصر الوسيط الأصيل قبل ذلك بخمس سنوات . وأطرى ولبول القصائد ودعا لإرسال المزيد منها ، فأرسل تشاترتن المزيد ، وطلب العون على إيجاد ناشر ينشرها ، ووظيفة مجزية فى لندن . وعرض ولبول القصائد على توماس جراى ، ووليم ميسن ، فحكى كلاهما عليها بأنها مزيفة . وكتب ولبول إلى تشاترتن أن هذين الأدبيين « غير مقتنعين إطلاقاً بصحة مخطوطه المزعوم » ونصحه بأن يطرح الشعر جانباً حتى يستطيع كسب قوته . ثم رحل ولبول إلى باريس ونسى أى يرد القصائد لصاحبها . وكتب تشاترتن فى طلبها ثلاث مرات ، وانقضت ثلاثة أشهر قبل أن تصالها (١٤٠) .

وذهب الشاعر إلى لندن (إبريل ١٧٧٠) وسكن عليه فى شارع بروك هوبورن . وأرسل إلى دوريات شتى مقالات « نحاظة لوكس » ، وبعض قصائد راولى ، ولكن حصيلة الأجر الذى تلقاه عنها (ثمانية عشر بنساً للقصيدة) كانت أقل من أن تقيم أوده ، فحاول الحصول على وظيفة مساعد جراح على باخرة تجارية أفريقية ولكنه أخفق — وفى ٢٧ أغسطس نظم وداعاً مرّاً للعالم :

وداعاً يا أكوام الآجر القذرة في برستوليا ،
يا عشاق المال ، وعباد الحديعة والختل !
لقد ازدريتم الفتي الذي أعطاكم الأغاني القديمة ،
وأثبتتم المعرفة بالمديح الفارغ .
وداعاً أيها الحمقى من الرؤساء السكارى ،
الذين هيأتكم الطبيعة معطية للفساد !
وداعاً أي ! وكفى أنت يا روجي المضناة ،
ولا ندعى أمواج الحيرة والذهول تغطي على !
رحماك أيها السماء إن أنا كففت عن العيش هنا ،
واغفري لى هذه الفعلة الأخيرة من أفعال الشقاء .

ثم انتحر بشرب الزرنيخ بالغاً من العمر سبعة عشر عاماً وتسعة أشهر .
ودفن في قبر من قبور الفقراء المعدمين .

وقصائده تملأ اليوم مجلدين . ولو كان قد وصفها بأنها تقليد لا أصل
فلربما اعترف له بأنه شاعر أصيل ، لأن بعض قصائد راوى لا تقل جودة
عن معظم القصائد الأصيلة من هذا النوع ذاته . وكان حين يكتب شعراً
باسمه يستطيع نظم شعر هجائي يكاد يضارع شعر بوب ، كما نرى في
قصيدته « المشودى » (١٤١) ، أو في سبعة عشر بيتاً — هي أهجى شعره كله —
يسوط فيها ولبول متملقاً ذليلاً غليظ القلب (١٤٢) . فاما أن نشرت مخطوطاته
المتخلفة (١٧٧٧) آثم المشرف على نشرها ولبول بأن عليه تقع بعض
التبعة في موت الشاعر ، ودافع ولبول عن نفسه بأنه لم يشعر بأى التزام
بمساعدة مزيف مصر على التزييف (١٤٣) . وأصر بعض ذوى القلوب
الرحيمة كجولد سميث على أن القصائد أصيلة لا مزيفة ، وضحك جونسن
من صديقه ، ولكنه قال : « هذا أعجب شاب عرفته . غريب كيف كتب
الجزء كلاماً كهذا » (١٤٤) . أما شلى فقد خلد ذكرى الفتي تخليداً موجزاً
في قصيدته « أدونيس » (١٤٥) ، وأما كيتس فقد نظم قصيدته « انديميون »
في ذكره .

لقد هرب تشاترتن من واقع برستل ولندن والكثيب عن طريق أساطير العصر الوسيط والزرنيخ . أما وليم كوبر فقد هرب من لندن التي عشقها جونسن إلى البساطة الريفية ، والإيمان الديني ، والجنون الدوري . وقد رى جده من تهمة القتل وأصبح قاضياً ، وكان أبوه قسيساً انجليكانياً . وأمه تنسب إلى الأسرة التي أنجبت جون دن . وقد مات وهو في السادسة ، مخالفة له ذكريات حزينة لجد بها وحبها ، وحين أرسل له ابن عم له بعد ثلاثة وخمسين عاماً صورة قدمة لأمه استعداد في قصيدة رقيقة^(١٤٦) تلك الجهود التي كثيراً ما بذلتها لتهديء المخاوف التي أظلمت ليالي طفولته .

وقد انتقل من هاتين اليتيميتين في عامه السابع إلى مدرسة داخلية أصبح فيها المسخر الجبان لطالب متمرد أرهقه بكل ثقل مدل من الواجبات . وأصيب بالتهاب في عينيه ، فاضطر أن يظل أعواماً تحت رعاية رمدى . وفي ١٧٤١ ، حين بلغ العاشرة ، بعث إلى مدرسة وستمنستر في لندن . وبدأ في السابعة عشرة الاشتغال ثلاثة أعوام كاتباً في مكتب محام هوبورن . واكمل الان نصحه للرومانس ، وكانت ابنة عمه تيودورا كوبر تعيش بقربه ، فغدت محبوبدة أحلام يقظته . وحين بلغ الحادية والعشرين اتخذ له مسكناً في « المدل تمبل » ، وفي الثالثة والعشرين سمح له بالاشتغال بالمحاماة . وإذا كان كارهاً للقانون ، شديد الاحجام أمام المحاكم ، فقد ابتلى بحالة من الوهم المرضي ، ازدادت عمقاً حين نهى تيودورا أبوها عن أى اتصال بابن عمها . ولم يرها كوبر بعدها قط ، ولم ينسها قط ، ولم يتزوج قط .

وفي ١٧٦٣ ، حين واجه ضرورة المثل أمام مجلس العموم ، انهارت أعصابه ، واختلط عقله ، وحاول الانتحار . وأرسله بعض أصحابه إلى مستشفى للأمراض العقلية في سانت أولبنز . وأفرج عنه بعد ثمانية عشر شهراً ، وإثر العيش في هنتنجدن قرب كمبرج معتزلاً الناس تقريباً . وقال إنه الان « لا يرغب في أى صحبة إلا صحبة الله والمسيح »^(١٤٧) . وقد قبل العقيدة الكلفينية بخداها ، وأطال التفكير في الخلاص والهلاك الأبدي . وألقت به الصدف السعيدة بين يدي أسرة محلية كان إيمانها مجلبة للسلام والرحمة لا للخوف ، وأفرادها هم القس مورلي أنوين ، وزوجته ماري ،

وابنه وليم ، وابنته سوزانا : وقد شبه كوبر أب هذه الأسرة بالقس آدمز في قصة فيلدنج « جوزف أندروز » ، ووجد أما ثانية له في السيدة أنوين التي كانت تكبره بسبع سنين ، وقد عاملته هي وابنتها معاملة الابن والأخ ، وأمبغت عليه من عطف المرأة الرقيق ما كاد يجيب إليه الحياة من جديد . ودعته الأسرة للعيش معها ، ففعل (١٧٦٥) ووجد الشفاء في حياتها البسيطة .

ولكن هذا النعيم زال فجأة حين قتل الأب إثر سقوطه من فوق جواده . وانتقلت الأرملة والإبنة إلى أولنى في بكنجهامشير واصططحبتا معهما كوبر ، ليكونوا كلهم قرييين من الواعظ الإنجيلي الشهير جون نيوتن . وقد أقنع كوبر أن ينضم إليه في افتقاد المرضى وتأليف الترانيم . واحتوت إحدى « ترانيم أولنى » هذه أبياتاً مشهورة :

إن الله يتحرك بطريقة خفية

ليصنع عجائبه ،

انه يزرع خطاه في البحر

ويركب فوق العاصفة (١٤٨) .

على أن مواظب نيوتن المنذرة بنار الجحيم ، والتي « هزت توازن الكثيرين من أعضاء كنيسة » لم تهديء من مخاوف الشاعر اللاهوتية بل زادت حدة (١٤٩) . يقول كوبر « إن الله يبدو لي دائماً رهيباً إلا حين أراه تعالى وقد تجرد من شوكته لأنه أغمدها في جسد المسيح » (١٥٠) وعرض الزواج على السيدة أنوين ، ولكن نوبة ثانية من نوبات الجنون (١٧٧٣) حالت دون زواجهما ، ثم تماثل للشفاء بعد ثلاث سنين من العناية المشددة بالحب . وفي ١٧٧٩ رحل نيوتن عن أولنى ، واتخذت تقوى كوبر مظهراً أكثر اعتدالاً .

وأعانت نساء أخريات ماري أنوين على إبقاء الشاعر على صابة بالأرضيات . فتركت الليدى أوستن ، الأرملة المرحمة ، بيتها اللندنى وقصدت أولنى ، واتصلت بآل أنوين ، وجلبت المرح والحبور إلى بيت طال تركيزه على الملامسى العارضة للحياة . وهذه السيدة هي التي روت لكوبر القصة التي

أحاطها إلى « تاريخ جون جيلين المسلى »^(١٥١) ، ورحلته الوعرة التي أسكره عليها ، وأرسل صديق الأسرة هذه القصة الشعرية المرححة لأحدى الصحف ، وألقاها ممثل كان قد خاف جاريك على مسرح درورى لين هناك ؛ فغدت حديث لندن السائر ، وذاق كوبر طعم الشهرة لأول مرة . ولم يكن قد أخذ شاعريته من قبل مأخذ الجذ ، ولكن الليدى أوستن حثته الآن على أن ينظم شعراً ذا قيمة . ولكن فى أى موضوع ينظمه ؟ أجابت فى أى شىء ، وأشارت إلى أريكة ، ثم فرضت عليه واجب إذاعة شهرتها فى شعره . وقد سره أن تأمره امرأة فاتنة ، فنظم قصيدة « الواجب » . وحين نشرت القصيدة عام ١٧٨٥ استقبلها الناس بالترحيب بعد أن ملوا الحرب والسياسة وصراع المدينة .

وكتابة أو قراءة ستة « كتب » عن أريكه واجب ثقيل حقاً ما لم يؤت المرء خلق « كريبيون » الإبن^(١٥٢) ؛ ولكن كوبر كان لديه من الفطنة ما يكفى لاستخدامها نقطة انطلاق لا أكثر . فبعد أن جعل منها القمة فى قصة فكهة عن المقاعد ، تسال إلى موضوعه المفضل الذى يمكن اجاله فى بيت القصيد الذى يقول « لقد صنع الله الريف ، أما الإنسان فصنع المدينة »^(١٥٣) . وقد اعترف الشاعر بأن الفن والبلاغة مزدهران فى لندن ، وأثنى على رينولدز وشاتام ، وتعجب من العلم الذى « يقيس الذرة ويطوق العالم الآن »^(١٥٤) . ولكنه وبخ « ملكة المدائن على عقابها بالموث بعض السرقات التافهة ، على حين تغدق أسباب التشريف على « مختلسى المال العام » . يقول :

من لى بكوخ فى برية شاسعة
يكتنفه ظل مترام لا حدود له ،
حيث لا تفرع سمى بعدها
أنباء الظلم والخذاع ،
ولا أشجار الحرب الخاسرة أو الظافرة ،
إن أذن لتأذى ، ونفسى لتشمز ،
بما يأتى به كل يوم من أنباء

العدوان والمظالم التي تمتلئ بها الأرض (١٥٥) .
وقد روعه الاتجار بالرقيق ، وكان صوته أحد الأصوات الانجليزية
الأولى التي نددت بالرجل الذي :
يرى أخاه مذنباً بجريرة جلد
لونه غير لون جلده ؛ وإذ كان له
من القوة ما يمكنه من إنقاذ الباطل . .
فهو يدينه ويتملكه فريسة حلالا . . .
فما الإنسان إذن ؟ وأى إنسان له مشاعر البشر
يرى هذا ولا يحمر وجهه خجلاً ،
ولا ينكس رأسه خزيّاً من مجرد الفكرة بأنه إنسان ؟ (١٥٦)
ومع ذلك يختم بهذه العبارة « اننى مازلت أحبك رغم كل أخطائك
يا انجلتره » (١٥٧) .

وقد أحس أن هذه الاخطاء تخف ان ثابت انجلتره إلى الدين وحياة
الريف . « كنت ظلياً جريحاً ترك القطيع » أى أنه ترك لندن حيث « تدفعنا
للعاهرات بالمرافق » ، ووجد شفاءه في الأمان والطبيعة . تعال إلى الريف !
وتأمل نهر أوز « يحتوى مختزقاً سهلاً مستوياً » ، ثم هاتيك الماشية المطمئنة
وكوخ الفلاح وساكينة الأشداء ، وبرج القرية يرمز للحزن والرجاء !
واستمع إلى رشاش مساقط المياه ، وزقزة الطيور في الصباح . إن لكل فصل
أفراحه في الريف ، فأمطار الربيع بركة ، وثلوج الشتاء نقية . وما أبهج
السير الثقيل وسط الثلوج ثم التجمع حول نار المدفأة في المساء ! » .

ولم يكتب كوبر شيئاً ذا بال بعد « الواجب » . وفي ١٧٨٦ انتقل ثانية إلى
وستن أندروود القريبة ، وهناك كابد نصف عام آخر من الجنون . وفي
١٧٩٢ أصيبت السيدة أنوين بالفالج ، وظلت ثلاث سنين عليلّة عاجزة ؛
ففرسها كوبر كما مرضته من قبل ، وفي آخر شهر في حياتها كتب أبياتة
التي عنوانها « إلى ماري أنوين » :

ان خصلك الفضية التي كانت يوماً ما حمراء مشرقة
ما زالت في ناظري أحب إلى

من أشعة الصبح الذهبية

يا عزيزي ماري! (١٥٨)

وفي ١٧٩٤ ، حين أثقلته الهموم ، وأرهقه جهده في ترجمة غير موفقة لهومر ، الثالث عقله مرة أخرى ، فحاول الانتحار : ثم شفى ، وأعفاه من عيشة الضنك معاش حكومي قدره ٣٠٠ جنيه . ولكن ماري أنوين ماتت في ١٧ ديسمبر ١٧٩٦ ، وشعر كوبر أنه ضائع مهجور رغم أنه وجد صديقة جديدة في أخت تيودورا ، وهي الليدي هاريت كوبر هسكث . ولازمته المخاوف الدينية في أيامه الأخيرة ، ثم قضى نحبه في ٢٥ أبريل ١٨٠٠ بالغائمة والستين .

وكان في عالم الأدب ينتمي إلى الحركة الرومانتيكية وفي عالم الدين إلى الحركة الإنجيلية . وقد اختتم عصر سيادة بوب على الشعر ومهد لوردزورث ، وأدخل في الشعر طبيعية في الشكل وصدقاً في المشاعر أوقف سيل الثنائيات المفتعلة الذي أطلقه « العصر الأوغسطيني » على إنجلترا . وكان دينه لعنة عليه لأنه صور له الهاك متيقماً وجميعاً لاغفران فيه ، ومع ذلك فلعل الدين هو الذي دفع أولئك النسوة الرحيمات ، كما دفعتهن غرائر . الأمومة ، إلى الحلب على هذا « الظبي الجريح » في كل أحزانه وأفكاره السوداء .

٧ - أولفر جولدسميث

وكان لـ « بل المسكين » هو أيضاً مأساه ، غير أنها لم تعمقها عقيدة سادية ، وخففت منها انتصارات في الشعر والشعر وعلى خشبة المسرح . كان أبوه خوريا إنجليكانياً متواضعاً في قرية لإرلندية ، يكسب أربعين جنيهاً في العام بإضافة الفلاحة إلى اللاهوت . فلما أن بلغ أولفر الثانية من عمره (١٧٣٠) رقي الخوري قسيساً لكيكليني وست ، وانتقلت الأسرة إلى بيت يقع على طريق رئيسي قرب ليسوى ، التي غبرت في تاريخ لاحق اسمها في ضمير الشاعر إلى « أوبرن » حين نظم قصيدته « القرية المهجورة » . والتحق جولدسميث بالمدرسة الأولية تلو المدرسة ، وكان أنصع ذكريات أيامه المدرسية تلك ذكرى أمين إمدادات سابق في الجيش تحول معلماً ، ولم يستطع قط أن ينسى حروبه ، ولكنه كان إلى ذلك يروى لتلاميذه القصص الساحرة عن الجان وأرواح المنذرات بالموت والعفاريت . وحين بلغ

الصبي التاسعة أشرف على الموت من الجدرى ، وزاد هذا المرض على ذلك تشويهاً ابتلى به وجهه من أقل الوجوه حظاً من الوسامة وهب لروح لطيفة محبة . وفي الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتي في دبان طالباً . معانا ، يريدى ثوباً يميزه ، ويؤدى خدمات حقيرة ، ويلاحقه معلم مستبد بمضايقاته . فهرب إلى كورك ، مزعماً أن يحاول الرحلة إلى أمريكا ، غير أن أخاه الأكبر منه « هنرى » أدركه ولاطفه فاقتنع بالعودة إلى الكلية . وتفوق أولفر في الدراسات الكلاسيكية ، غير أن دراسة العلوم استعصت عليه ، ولكنه على أى حال أفلح في نيل درجة البكالوريوس .

ثم تقدم بطلب لوظيفة كنسية صغيرة ، ولكنه أدهش الأسقف بما ارتداه من سراويل قرمزية واشتغل معلماً خاصاً بعد أن رفض طلبه ، وتشاجر مع تلميذه ، وبمم ثائية شعر كورك وأمريكا . فتدخل في الأمر عم له أقرضه خمسين جنياً ليذهب إلى لندن ، وخمس أولفر المبلغ كله في بيت للقمار . وقد أفزع أقرباءه لما لحظوا فيه من عجز وقلة حيلة ، ولكن صهرهم مرحة ونايه وأغانيه . وجمع له بعض المال للإنفاق على دراسته الطب في إدنبره ثم في لندن . وقد حقق بعض التقدم ، ويقص علينا أنه كان في باريس يختلف إلى محاضرات روييل في الكيمياء . ثم انطلق على مهل (١٧٥٥) يتجول في أنحاء فرنسا ، وألمانيا ، وسويسره ، وشمالى إيطاليا ، يعزف على نايه في المراقص الريفية ، ويظفر بوجبات طعام كيفما اتفق له ، ويتلقى الصدقات على أبواب الأديرة (١٥٩) . ثم عاد إلى إنجلترا في يناير ١٧٥٦ ومارس الطب في لندن ، وصحح تجارب الطبع لصموئيل ريتشر دسن ، واشتغل معلماً بمدرسة في صرى ، ثم استقر في لندن كاتباً مأجوراً يقوم بأشتات من الأعمال الأدبية غير المنتظمة ويكتب المقالات للمجلات . وقد كتب في أربعة أسابيع « حياة فولتير » . وفي ١٧٥٩ أقنع ددسلى بأن ينشر كتاباً سطرهياً اسمه « تحقيق في أحوال الثقافة الراقية في أوربا » . وقد أساءت تعليقات التحقيق حول مديرى المسارح إلى جارياك لإساءة لم ينسها قط . وزعم هذا التحقيق أن عصور الأدب الخلائق تنحو إلى أن تتلوها عصور نقد ، وتستلبط قواعد من أعمال المبدعين ، وتنزع إلى تقييد أسلوب الشعراء الجدد وتعويق خيالهم . وقد رأى جولدميث أن أوربا كانت تمر بهذه الحال في ١٧٥٩ .

وبعد عام كتب لصحيفة نيويورك « بيلك لدجر » بعض « الرسائل الصينية » التي أعيد نشرها في ١٧٦٢ بعنوان « مواطن العالم » . أما خطتها فقديمية : فهي تصور رحالة شرقياً يروى أساليب عيش الأوربيين في ضحك واشمزاز شديد ، فزى « لاين تشي ألتانجي » يصف في رسائله إلى صديق له في وطنه ، أوربا مسرحاً فوضوياً للجشع والطمع والدسائس . وقد نشر جولدسميث الكتاب غفلاً من اسمه ، غير أن أهل فليت ستريت (شارع الصحافة) تبينوا أسلوبه في اللغة البسيطة ، والأوصاف النابضة بالحياة ، والذرة اللطيفة المحببة ، فلما أحس بشهرته انتقل إلى مسكن أفضل في رقم ٦ بشارع واين أوفس كورت . وكان قد أطرى جونسن في « الرسائل الصينية » فجرؤ الآن على دعوة واضع المعجم إلى العشاء (وكان يسكن على جانب الطريق المقابل) . وحضر جونسن ، وبدأت من يومها صداقتهما المديدة (٣١ مايو ١٧٦١) .

وحدث في يوم من أيام أكتوبر ١٧٦٢ أن تلقى جونسن رسالة عاجلة من جولدسميث يطلب فيها العون . فأرسل إليه جنياً ، وحضر بعد قليل ، فوجد أن جولدسميث يوشك أن يقبض عليه لعدم دفعه أجرة مسكنه : وسأل جونسن صديقه إن كان لديه شيء ذو قيمة يرهنه أو يبيعه . فأعطاه جولدسميث مخطوطاً عنوانه « قسيس ويكفيلد » . ويقول جونسن (١٦١) . إنه طلب إلى صاحبة الدار أن تنتظر ، وقدم القصة إلى الكنتي جون نيوبري ، وباعها له بستين جنياً . ثم دفع بالنقود إلى جولدسميث ، فسد هذا الإيجار واحتفل بهذه المناسبة بزجاجة من النبيذ . واحتفظ الكنتي بالمخطوط أربع سنين دون أن ينشره .

وفي ديسمبر ١٧٦٤ طلع جولدسميث بأول قصائده الكبرى « الرحالة أو إطلالة على المجتمع » وقد استعاد فيها جولاته في القارة ، ووصف ما في كل قطر من نقائص وفضائل ، ولاحظ أن كل بلد يحب نفسه خير بلاد الله . وفاخر بقوة إنجلترا (التي كانت لتوها قد انتصرت في حرب السنين السبع) . ووصف أعضاء البرلمان هذين البيتين :

اني أشهد سادة المجلس البشرى يمرون
وفي مشيتهم شموخ ، وفي عيونهم نحد ؛

ولكنه أنذر بأن الجشع يلوث الحكم البريطاني ، وأن الحظائر المسيحية ، المنبثة بأنانية الأغنياء ، تفقر طبقة الفلاحين وتدفع أبناء انجلترا الشداد للهجرة إلى أمريكا ، وكان قد أطلع جونسن على المخطوط ، فأضاف أبياتاً ستة معظمها قرب الخاتمة ، استخف فيها بتأثير السياسة على سعادة الفرد ، وأطرى المباهج البيتية البسيطة .

وقد أدهش نجاح القصيدة جميع الناس عدا جونسن الذى أعانها بتقريظ أذاعه وقال فيه « انه لم ننشر قط قصيدة بهذا الجمال منذ أيام بوب » (١٦١) وهو قول تجاهل الشاعر جراى . وجنى الناشر ربحاً طيباً من الطبقات المعادة ، ولكنه لم ينقد الشاعر غير عشرين جنياً . وانتقل جولدسميث إلى مسكن أفضل فى « القبل » ، واشترى ثياباً جديدة ظهر فيها بسر اويل أرجوانية ، ومعطف قرمزى ، وشعر مستعار ، وعصا ، ثم استأنف فى مظهره الوقور هذا مهنة التطبيب . غير أن التجربة لم يحالفها التوفيق ، ثم رده نجاح « قسيس وكفيلد » إلى حظيرة الأدب ثانية .

ذلك أن الكتبي الذى كان قد اشترى المخطوط من جونسن أحس أن شهرة جولدسميث الجديدة ستكون معاوناً على تقبل القراء لهذه القصة الغريبة . وقد صدرت فى طبعة صغيرة فى ٢٧ مارس ١٧٦٦ ، فبيعت الطبعة فى شهرين ، وبيعت طبعة ثانية فى ثلاثة أشهر أخرى ، ولكن المبيع من القصة لم يغط نفقات الناشر إلا عام ١٧٧٤ . وفى تاريخ مبكر (١٧٧٠) زكاها هردرجوته ، الذى رأى فيها « قصة من أفضل ما كتبت من قصص إلى الآن » (١٦٢) . وأمن ولتر سكوت على هذا الرأى (١٦٣) . أما واشنطن إيرفنج فقد تعجب من أن عزبا حرم الحياة الأسرية منذ طفولته استطاع أن يرسم « ألطف وأحب صورة للفضيلة الأسرية وكل ما يحب الناس فى الحياة الزوجية » (١٦٤) . ولعل حرمان جولدسميث من الحياة الأسرية هو الذى حداه إلى أن يصفى على البيت هذه الصفات المثالية ، ولعل حياة العزوبة التى كان يحياها على مضض هى التى جعلته يتساهى بصفات الشباب من النساء ، ولعل غرامياته المجهولة هى التى دفعته إلى الإعلاء من قدر عفة المرأة لأنها أئمن من الحياة . وقد أمدته ذكرياته الحبيبة عن أبيه وأخيه

بصورة الدكتور برمرز ، الذى كان بوصفه « قسيساً ، ومزارعاً ، ورب أسرة . . . يجمع في ذاته أعظم ثلاث شخصيات على هذه الأرض » (١٦٥) . وقد عادت جولاته هو تظهر في شخص الإبن جورج ، الذى ختم رحلاته كما ختم جولدسميث نفسه كاتباً مأجوراً في لندن . ان القصة بعيدة التصديق ، ولكنها ساحرة .

وسرعان ما نفذت حصيلة « الرحالة » و « قسيس ويكفيلد » ، ولاغرو فقد كان جولدسميث متلافاً لا يستقر المال في يده لحظة ، يعيش دائماً في المستقبل . وقد تطالع بعين الحسد إلى الشهرة والمال اللذين قد تأتى بهما مسرحية ناجحة فرصد قلعه لاقتحام هذا الميدان العسير من ميادين الأدب ، وسمى ثمرة جهده « الرجل الطيب » وعرضه على جارليك . وحاول جارليك أن ينسى التعليقات المهينة التى كتبها جولدسميث عنه من قبل ، ووافق على أن يخرج المسرحية . ولكنها كانت تسخر من الكوميديات العاطفية ، وهذه الكوميديات هى التى درت على جارليك الربح الوفير . فاقترح إدخال بعض التغييرات على المسرحية ، ولكن جولدسميث رفضها . ونقد جارليك المؤلف مقدماً أربعين جنيهاً ، ولكنه تباطأ تباطؤاً شديداً حمل المؤلف المتهور على عرض المخطوط على منافس لجارليك هو جورج كولمان الذى كان يدير مسرح الكوفنت جاردن . وانتقص ممثلو كولمان من قدر المسرحية ، ولكن جونسن أيدھا تأييداً قوياً ، وحضر بروقاتها ، وكتب المقدمة التى تلقى قبيل العرض . وعرضت أول مرة في ٢٩ يناير ١٧٦٨ ، واستمر عرضها عشر ليال ، ثم سمحت باعتبارها ناجحة نجاحاً متوسطاً ، ومع ذلك بلغ صافي ما حصله المؤلف منها ٥٠٠ جنيه .

فلما أن جرى المال في يد جولدسميث عاماً انتقل إلى شقة جميلة في بريك كورت مخالفاً نصيحة جونسن ، وأثبها تأثيثاً ممتازاً اضطره إلى العودة للكتابة المأجورة ليفضى نفقاته . وأخرج الآن كتباً شعبية في التاريخ — تاريخ روما ، واليونان ، وإنجلترا . و « تاريخاً للطبيعة الحية » — وكلها فقير في الدرس أثره النثر الرقيق . وحين سأله بعضهم لم كتب كتباً كهذه أجاب

بأنها أعانتته على قوته ، بينما أفضى به الشعور إلى التضور جوعاً . ومع ذلك
ففي ٢٦ مايو ١٧٧٠ طلع على القراء برأئته « القرية المهجورة » التي نقد
عنها مائة جنيه — وهو ثمن طيب في ذلك العهد لقصيدة لا تتجاوز سبع عشرة
صفحة طولاً . وقد نفذت منها أربع طبعات في ثلاثة أشهر .

أما موضوعها فهجر الزراع للريف بعد أن أفقدتهم الحظائر المسيجة
أرضهم . وقد رسمت صورة لقريته :

أى أوبرن الحلوه ! يا أجمل قرى السهل ،
حيث يقر الفلاح الكادح عيناً بالعافية والخير الوفير

ونخلت القصيدة كل الألوان الوردية التي حلم بها خيال جولدميث
الحضري على رخاء الفلاح الذي زعم أنه سبق هذه الحظائر المسيجة .
وصف المناظر الريفية ، والأزهار المختلفة ، « والكوخ الظليل ، والمزرعة
المحرثة » ورياضات القرية ومراقصها ، و « العذراء الخجول » والصبي
المغمز ، والأسر السعيدة التي تسودها التقوى والفضيلة . ثم عاد يرى أباه
يعظ كنيسة كيلكيني وست :

كان رجلاً عزيزاً على الناحية كلها
يعيش في رغد بأربعين جنياً في العام —
وهو مبلغ كفاه لأن يطعم الشريد ،
وينقل المتلاف ، ويؤوى الجندي المحطم ،
ويفتقد المرضى ، وبواسي المحتضرين .
كانت نظراته في الكنيسة تجمل المكان الوقور
وهو يلقيها في لطف ورقة دون افتعال ؛
ويخرج الحق من شفثيه قوياً جباراً ،
فيمكث الجهال ليصلوا بعد أن جاعوا ليستهزئوا ! .

أما معلم المدرسة الذي أدب الشاعر في طفولته فقد تحول في ذكرياته إلى
مدرس « صارم الطلعة » .

ومع ذلك كان رحيماً ، فإذا عنف في شيء

فلأن المحبة التي يكنها للعلم كانت خاطئة
ثم كان بارعاً في الجدل باعتراف القسيس ،
فهو يواصله ولو كان مغلوباً
وكان بالفاظه الطويلة البليغة المرعدة
يهر الريفيين الملتفين حوله محققين
وتحديقهم يطول ، وعجبهم يشتد ،
لأن رأساً واحداً صغيراً حوى كل علمه .

وخيل لجولدسميث أن هذا الفردوس دمرته الحظائر المسيحية ، فاستحالت
مزرعة الفلاح إلى أرض للرعى ، وفرت أسر الفلاحين إلى المدن أو المستعمرات ،
وأخذ يحف ذلك النبع الريفي الذي تنبثق منه الفضيلة الصادقة .
الويل لبلد يتكدر فيه المال ويفسد الرجال ،
فهو فريسة لشروور وآفات لن تمهله طويلاً

أما وقد كتب جولدسميث خير قصيدة جاد بها جيله ، فقد عاد الآن
إلى الدراما . وفي ١٧٧١ عرض كولمان كوميديا جديدة سماها « تمسكنت
فتمسكنت » وتباطأ كولمان كما تباطأ جاريك من قبل ، حتى تدخل جونسن
في الأمر وأمر المدير تقريباً بإخراج التمثيلية . وكتب جاريك مقدمتها بعد
أن تصالح مع جولدسميث . وبعد شذائد وضيقات كادت تحطم روح
المؤلف ، أخرجت المسرحية في ١٥ مارس ١٧٧٣ . وحضر جونسن ورينولدز
وغيرهما من الأصدقاء حفلة الافتتاح وكانوا أول المصنفين . أما جولدسميث
نفسه فكان أثناء ذلك يتجول في حديقة سانت جيمس على غير هدى ،
إلى أن عثر عليه بعضهم وأكد له أن مسرحيته لقيت نجاحاً عظيماً . وقد طال
عرضها ، وجاءته الحفلات التي خصصت حصيلتها له بعام من الرخاء .

وكان قد ارتقى الآن بنفسه إلى مكانة لا يعلو عليه فيها سوى جونسن
بين كتاب العصر الانجليزي ، بل لقد حقق الشهرة خارج وطنه . وكان
شخصية قائده في « النادى » ، وجرؤ على مخالفة جونسن مراراً ، وذات
مرة والحديث يدور حول قصص الحيوان الخرافية ، لاحظ أن من العسير

جداً أن تجعل السمك يتكلم كالسماك ، ثم قال لجونسن « وليس هذا بالأمر اليسير كما تحسبه ، لأنك لو شئت أن تجري الكلام على السنة السمك الصغير لتكلم كله كما تتكلم الحيتان »^(١٦٦) . وكان « الدب الأكبر » يحمشه ببرائته أحياناً في قسوة ، ولكنه أحبه رغم ذلك ، وقد رد جولدسميث المحبة بمثلهما رغم حسده جونسن على تفوقه في فنون الحديث . ولم يكن جولدسميث قد نظم معارفه وربتها قط ، ولم يكن في استطاعته الرجوع إليها بسرعة أو ذكاء ، قال جاريك « كان يكتب كما يكتب الملاك ، ويتحدث كما يتحدث بل المسكين »^(١٦٧) . أما بوزويل فكان ينزع إلى الغضب من قدر جولدسميث ، ولكن كثيراً من معاصريه — كرينولدز ، وبيرك ، وولكس ، وبرسي — احتجوا على هذا الغضب لما فيه من ظلم^(١٦٨) . وقد لوحظ أن جولدسميث كثيراً ما كان يحسن الحديث في الاجتماعات التي يغيب عنها جونسن^(١٦٩) .

وكانت لهجته في الحديث ، وعاداته ، ومظهره — كلها تعاكسه . فهو لم ينس قط لهجته الأيرلندية . وكان شديد الأهمال لهندامه ، يلهو أحياناً يلبس الملابس الزاهية المتعددة الألوان المتناقضة المظهر . وكان مغروراً مزهواً بما حصل من ألوان الثقافة ، ولم يعترف بتفوق جونسن عليه كاتباً ، وكان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات ، وقد غاظه طول جونسن وضخامته ، وكانت طبيعته الطيبة تشرق من خلال وجهه القبيح . والصورة التي رسمها له رينولدز لم تخلع عليه جمالا ، فهنا شفتان غليظتان ، وجبين مترجع ، وأنف ناقى ، وعينان قلقتان . وقد زاد الرسامون الكاريكاتوريون أمثال هنرى بنرى فم أولفر اتساعاً وأنفه طولاً ، ووصفته صحيفة « اللندن باكت » بأنه أورأنجوتان^(١٧٠) ، وسرت في المدينة عشرات القصص عن أخطائه الفاضحة في حديثه وسلوكه ، وعن حبه المستور للحسناء ماري هورنك .

أما أصدقائه فكانوا عليهم بأن عيوبه سطحية ، تخفى روحاً من الود ، والمحبة ، والكرم الذي كاد يدمر صاحبه ، وحتى بوزويل وصفه بأنه « أعظم من وجد من الرجال سماحة قلب ، أما وقد أتيح له الآن قدر كبير من الذهب مما غلته مسرحياته الفكاهية ، فإن جميع المعوزين يعتمدون عليه »^(١٧١) . فإذا لم يعد لديه من المال ما يعطيه اقترض ليسد مطالب الفقراء

الدين التمسوا العون منه^(١٧٢) . وقد رجا جاريك (الذى لم يكن قد استرد منه جنيتها الأربعين) أن يقرضه ستين جنيهاً على ذمة مسرحية أخرى ، فوافاه بالمبلغ . وبلغت ديون جولدسميث عند موته ٢٠٠٠ جنيه . وتساءل جونسن « هل وجد قط فقير أولاه الناس هذه الثقة من قبل ؟ »^(١٧٣) .

وفي ١٧٧٤ ، بينما كان على وشك الذهاب إلى أحد الأندية العديدة التي انتمى إليها ، أصابته الحمى . فأصر على أن يصف لنفسه الدواء . ناسياً نصيحة بوكليرك بأنه ينبغي ألا يصف الدواء إلا لأعدائه ، وتناول عقاراً مسجلاً ، فساءت حاله . ودعى طبيب لعيادته ، ولكن وقت إنقاذه كان قد فات . وقضى نحبه في ٤ أبريل غير متجاوز الخامسة والأربعين . والتف حول جثمانه حشد من الباكين ، وكانوا رجالاً ونساء بسطاء يكادون يعتمدون في قوتهم على صدقاته . ودفن في فناء كنيسة « القبل » ولكن أصحابه أصروا على أن يقام له نصب تذكارى في وستمنستر آبي . ونحت نواكز التذكار وكتب جونسن القبرية . وكان خيراً منها السطور التي كتبها الشاعر في مسرحية « الرجل الطيب » إذ يقول « ما أشبه الحياة في أعظم حالاتها وأفضلها بطفل شقى لا بد من ملاطفته ومسايرته قليلاً حتى ينام . ثم ينتهى كل الهم والقلق »^(١٧٦)



الفصل الثالث والثلاثون

صموئيل جونسون

١٧٠٩ - ٨٤

١ - النشأة المشوهة

١٧٠٩ - ٤٦

لقد كان نسيج وحده ، ومع ذلك كان نموذجياً ، فهو يختلف عن أى إنجليزى فى زمانه ، ومع ذلك فهو خلاصة لجون بول جسداً وروحاً ، يبهه معاصروه فى جميع الميادين الأدبية (خلا تصنيف المعاجم) ومع ذلك فهو يسود عليهم جيلاً بأسره ، ويملك عليهم دون أن يرفع شيئاً إلا صوته .

ولنلم الآن للمهمة سريعة بالضربات التى طرقته لتشكيل طابعه الفريد . فلقد كان أول طفل ولد لمايكل جونسون . الكتبى . والطباع ، وتاجر الأدوات الكتابية فى لتشفيلد ، على ١١٨ ميلاً من لندن . أما أمه فترقى أرومتها إلى قوم بهم أثارة من نبالة . وكانت تباع السابعة والثلاثين حين تزوجت فى ١٧٠٦ ما يكمل البالغ من العمر خمسين عاماً .

وكان صموئيل غلاماً عليلاً ، بلغ من ضعفه حين ولد أنه عمد للتو مخافة أن يكون مأواه الأبدى - ان مات بغير عماد - فى الاعراف ، مدخل الجحيم الكئيب . وسرعان ما بدت عليه إمارات « داء الملك » (الخنازيرى) . فلما أن بلغ ثلاثين شهراً أخذته أمه رغم أنها حامل فى ولدها الثانى فى الرحلة الطويلة إلى لندن لكى « تلمسه الملكة لبراً من الخنازيرى » وصنعت الملكة قصارها ولكن المرض كلف جونسون الاكتفاء بعين واحدة وأذن واحدة ، وشارك غيره من البلايا فى تشويه وجهه^(١) . على أنه اشتد رغم ذلك عضلاً

وهيكلا ، ودعمت قوته كما دعمت ضخامته تلك النزعة الاستبدادية التي أحالت جمهورية الأدب إلى ملكية كما شكوا جولدميث . وقد ذهب صموئيل إلى أنه ورث عن أبيه « ذلك المزاج السوداوى الكريه الذى جعلنى مجنوناً طوال حياتى ، أو على الأقل غير مزن »^(٢) . ولعل لوهمه المرضى أساساً دينياً لا بدنياً فقط ، كما كان الشأن مع كوبر ، فلقد كانت أم جونسن كلفنية راسخة تؤمن بأن الهلاك الأبدي قاب قوسين منها . وقد قاسى صموئيل من رهبة الجحيم إلى يوم مماته .

وعن أبيه أخذ مبادئ المحافظين ، والميول الاستيوارتية ، والشغف بالكتب . فكان يقرأ بعضهم فى مكتبة أبيه ، وقد قال لبوزويل فيما بعد ، « كنت فى الثامنة عشرة أعرف تقريباً قدر ما أعرفه الآن »^(٣) . وبعد أن نال حظاً من التعليم الأولى انتقل إلى مدرسة لتشفيلد الثانوية ، وكان فى ناظرها « من الضراوة ما جعل الآباء الذين تعلموا على يديه يأبون إرسال أبنائهم إلى مدرسته »^(٤) . على أنه حين سئل فى كبره كيف أتيج له أن يتمكن من اللاتينية على هذا النحو أجاب « كان معلمى يحسن ضربى بالسوط . ولولا ذلك ياسيدى لما أفلحت فى شئ »^(٥) . وقد أعرب فى شيخوخته عن أسفه لإهمال العصا . « فى مدارسنا الكبرى اليوم يجلدون التلاميذ أقل مما كانوا يجلدونهم فى الماضى ، ولكن ما يتعلمونه فيها أقل ، فهم يخسرون فى طرف ما حصلوه فى الطرف الآخر »^(٦) .

وفى ١٧٢٨ أتيح لأبويه من الموارد ما يسر لهما إرساله إلى أكسفورد ، وهناك راح يلهم الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ويزعج معلميه بعصيانته وتمرده . وفى ديسمبر ١٧٢٩ عجل بالعودة إلى لتشفيلد ، ربما لنفاد مال أبويه ، أو لأن وهمه المرضى قد قارب الجنون قرباً أحوجه إلى العلاج الطبى . وعولج فى برمنجهام ، ثم ساعد أباه فى متجره بدلاً من العودة إلى أكسفورد . فلما أن مات الأب (ديسمبر ١٧٣١) اشتغل صموئيل مدرساً مساعداً فى مدرسة بماركيت بوزوورث . وسرعان ما مل هذا العمل بعد قليل ، فانتقل إلى برمنجهام . وسكن مع كتي . وكسب خمسة جنيهات بترجمة كتاب

عن الحبشة ، وكان هذا مرجعاً بعيداً لقصته « راسيلاس » . وفي ١٧٣٤ فقل إلى لتشفيلد حيث كانت أمه وأخوه يواصلان العمل في المتجر . وفي ٩ يوليو ١٧٣٥ ، قبل أن يتم السادسة والعشرين بشهرين ، تزوج إلزابث بورتر ، وكانت أرملة في الثامنة والأربعين لها ثلاثة أطفال وتملك ٧٠٠ جنيه . وبما لها هذا افتتح مدرسة داخلية في إديبال القريبة منه . وكان من تلاميذه ديفد جارليك ، أحد صبية لتشفيلد . ولكن لم يكن هناك ما يكفي لاستمالته إلى مهنة التعليم ، وكان التأليف يختصر في باطنه . فكتب مسرحية سماها « أيريني » ، وبعث بكلمة لأدورد كيف محرر « مجلة الجنتلمان » يشرح كيف يمكن تحسين تلك المجلة . وفي ٢ مارس ١٧٣٧ انطلق إلى لندن مع ديفد جارليك وجواد واحد . لبيع مأساته ويشق لنفسه طريقاً في العالم القاسي .

على أن يظهره كان يعاكسه . كان نحيلاً طويلاً ، ولكن كان له هيكل ناعم العظام جعله كتلة من الزوايا . وكان وجهه مبقعاً بندوب الداء الحنازيرى تهيجه مراراً انقباضة تشنجية . وكان جسمه عرضة لانتفاضات مزعجة . وحديثه تؤكد حركات وإيماءات غريبة . وقد نصحه كتي طلب عنده عملاً بأن « يحصل على أنشطة حمال ويحمل الحقائق »^(٧) . والظاهر أنه تلقى بعض التشجيع من كيف ، لأنه في يوليو عاد إلى لتشفيلد وأتى بزوجته إلى لندن .

ولم يكن خلواً من المكر . فحين هوجم كيف في الصحف نظم جونسن قصيدة في الدفاع عنه وأرسلها إليه ، فنشرها كيف ، وكلفه بمهام أدبية ، وانضم إلى ددسلي في نشر قصيدة جونسن « لندن » (مايو ١٧٣٨) التي نقداه عشرة جنيهات ثمناً لها . وقد قلدت القصيدة في غير مواريه « الهجائية الثالثة » لجوفنال . ومن ثم أكدت الجوانب المؤسفة لمدينة لندن التي سرعان ما تعلم الكاتب أن يحبها . كذلك كانت هجوماً على حكومة روبرت ولبول ، الذي وصفه جونسن فيما بعد بأنه « خير وزير عرفته البلاد »^(٨) . وكانت القصيدة من بعض نواحيها هجوماً غاضباً لشاب ظل غير واثق من قوت غده بعد أن قضى عاماً في لندن . ومن هنا بيته المشهور « ان الكفاية تصعد ببطء لأن الفقر يوهنها »^(٩) .

في أيام الكفاح تلك جرب جونسن قلمه في كل لون من ألوان الأدب. كتب « سير العظماء » (١٧٤٠) ، ودبج مقالات شتى لمجلة الجنتلمان ، منها تقارير وهمية عن المناقشات البرلمانية . وكان نشر المناقشات البرلمانية محظوراً - حتى ذلك التاريخ ، فوقع كيف على حيلة ادعى بها أن مجلته إنما تسجل المناقشات في « مجلس شيوخ مجنا لليبوتيا » . وفي ١٧٤١ اضطلع جونسن بهذه المهمة . ومن المعلومات العامة التي اجتمعت له عن سير النقاش في البرلمان ألف خطباً نسبها إلى شخصيات كانت أسماؤهم تصحيفاً لأسماء كبار المجادلين في مجلس العموم^(١١) . وكان في هذه التقارير من مظهر الصديق ما أوقع في روع الكثير من القراء أنها تقارير حرفية ، واضطر جونسن إلى أن ينفه سموليت (الذي كان يكتب تاريخاً لانجلترا) إلى عدم الاعتماد عليها كتقارير حقيقية . وذات مرة علق جونسن عن اطراء سمعه لخطبة نسبها إلى شاتام بقوله « هذه الخطبة كتبها في عليه بأكستر ستريت »^(١٢) . فلما أننى بعضهم على حياد تقاريره اعترف قائلاً « لقد أحسنت إنقاذ المظاهر إلى حد معقول ، ولكن حرصت على ألا يكون كلاب الهويجز هم الفائزين »^(١٣) .

ترى كم كان أجره على عمله هذا ؟ لقد وصف كيف مرة بأنه « صراف بخيل » ، ولكنه صرح غير مرة بحبه لذكراه . وقد دفع له كيف تسعة وأربعين جنيهاً بين ٢ أغسطس ١٧٣٨ و ٢١ أبريل ١٧٣٩ ، وفي ١٧٤٤ قدر جونسن أن مبلغ خمسين جنيهاً في العام « يفيض ولا ريب عن حاجات الحياة »^(١٤) . غير أن الناس جروا على القول بأن جونسن كان يعيش في تلك السنين في فقر مدقع في لندن . وقد اعتقد بوزويل أن « جونسن وسفدج بلغ بهما الأملاق أحياناً مبلغاً أعجزهما عن دفع إيجار مسكن . فكانا يجوبان الشوارع ليالى باكملها »^(١٥) . وزعم ماكولى أن شهور الضنك تلك عودت جونسن قدراً الهندام و « شدة الشره »^(١٦) .

وقد ادعى رتشرد سفيدج أنه ابن لأحد الأيرلات ، دون أن تنفع دعواه الناس ولكنه كان قد بات متبطلا لا يصلح لشيء حين لقيه جونسن في ١٧٣٧ . وقد جابا الشوارع لأنهما أحبا الخانات أكثر مما أحبا مسكنيهما . ويذكر بوزويل « بكل ما يمكن من احترام ولياقة » .

أن سلوك جونسن بعد مجيئه إلى لندن ، ومعاشرته لسفدج وغيره ، لم يكن فيهما شديد الالتزام بالفضيلة ، في إحدى النواحي ، كما كان وهو أصغر مناً . وقد عرف عنه أن ميوله الغرامية كانت قوية عاتية إلى حد غير عادي . واعترف لكثير من أصدقائه أنه اعتاد أن يأخذ نساء المدينة إلى الحانات ، ويستمتع إليهن وهن يروين سيرتهن . وباختصار يجب ألا نخفي أن جونسن ، كغيره من الرجال الطيبين الأتقياء الكثيرين (أكان بوزويل ذاكرة بنفسه وهو يقول هذا ؟) . . . لم يكن خلواً من النوازع التي كانت على الدوام « تشن حرباً على ناموس عقله » - وأنه في معاركه معها كان يهزم أحياناً ^(١٦) .

وقد رحل سفدج عن لندن في يوليو ١٧٣٩ ومات في سجن للمدنيين عام ١٧٤٣ . وبعد ذلك بعام أصدر جونسن « سيرة رتشرد سفدج » ، وهو كتاب وصفه هنري فيلدنج بأنه « قطعة من الأدب لا تقل أنصافاً وإجادة عن أى قطعة قرأتها من نوعها » ^(١٧) . وكانت هذه السيرة لإرهاصاً بكتاب جونسن « سير الشعراء » (وقد ضمنت فيه) . ونشرت السيرة غفلاً من اسم الكاتب ، ولكن سرعان ما اكتشف أدباء لندن أن جونسن كاتبها . وبدأ الكتبيون يرون فيه الرجل المؤهل لتصنيف قاموس اللغة الانجليزية .

٢ - القاموس : ١٧٤٦ - ٥٥

كتب هيوم قبل ذلك في ١٧٤١ يقول « إننا لملك قاموساً للغتنا ، ولا نكاد نملك أجرومية متوسطة الجودة » ^(١٨) . وكان في هذا مخطئاً ، لأن نثانائيل بيلي كان قد أصدر في ١٧٢١ « قاموساً انجليزياً ايتمولوجياً جامعاً » ، وكان لهذا القاموس أسلاف قريبة الشبه بالمعاجم . ويبدو أن اقتراح تصنيف قاموس جديد جاء من روبرت ددسلي في حضور جونسن ، الذي قال أعتمد أنني لن أضطلع به ^(١٩) . ولكن حين انضم كتبيون آخرون إلى ددسلي وعرضوا ١٠٥٧٥ جنيهًا على جونسن ان التزم بالمهمة ، وقع العقد في ١٨ يونيو ١٧٤٦ .

وبعد إطالة الفكر وضع في أربع وثلاثين صحيفة « خطة لقاموس اللغة

الانجليزية» وطبعها . ثم أرسلها إلى عدة أشخاص منهم اللورد تشستر فيلد ، الذي كان يومها وزيراً للدولة ، ومعها ثناء مشرب بالأمل على نبوغ هذا الأيرل في الانجليزية وغيره من ضروب المعرفة . ودعاه تشستر فيلد للحضور ، فذهب جونسن ، ونفحه الأيرل بعشرة جنيهات وكلمة تشجيع . ثم قصده جونسن ثانية بعد حين ، فأبقاه منتظراً ساعة ، غادر بعدها المكان غاضباً ، وطلق فكرة إهداء قاموسه إلى تشستر فيلد .

وشرع في مهمته على هون ، ثم ازداد همة ونشاطاً ، لأنه كان ينقد أجره منجماً . وحين وصل إلى كلمة Lexicographer (المعجمي) عرفها بهذه العبارة « كاتب للقواميس . كادح لا يؤذى أحداً » وكان الرجاء يحذوه بإنجاز العمل في ثلاث سنوات . فاستغرق منه تسعا . وفي ١٧٤٩ انتقل إلى جف سكوير ، المقابل لفليت ستريت ، واستأجر خمسة سكرتيرين أو ستة دفع من جيبه أجرهم ، وأقامهم بالعمل في غرفة بالطابق الثالث . وقرأ أعلام كتاب القرن الواقع بين عامي ١٥٥٨ و ١٦٦٠ — ابتداء من ارتقاء إليزابث الأولى العرش إلى ارتقاء تشارلز الثاني ، فقد كان يعتقد أن اللغة الانجليزية بلغت في تلك الحقبة أبعاد شأولها ، وقصد أن يتخذ لغة الحديث الأليزابيثي — الاستيوارتي معياراً يرسى عليه قواعد الاستعمال الجيد للغة . وكان يضع خطاً تحت كل جملة يريد اقتباسها لإيضاح استعمال كلمة ما ، ودون في الهامش الحرف الأول من الكلمة المراد تعريفها . وأصدر تعليماته لمعاونيه بأن ينسخوا كل جملة مخططة على جزازة منفصلة . ويدخلوا هذه في مكانها الأبجدي من قاموس بيلى : الذي استعان به منطلقاً ومرشداً .

وخلال هذه السنين التسع اقتنص أجازات كثيرة من تعاريف قاموسه ، وكان أحياناً يستسهل نظم قصيدة عن تعريف لفظ . ففي ٩ يناير ١٧٤٩ نشر قصيدة من اثنتي عشرة صفحة عنوانها « بطلان الرغبات البشرية » ، وكانت كسابقتها « لندن » التي نظمها قبل عشر سنين تقليداً لجوفينال من حيث الشكل ، ولكنها عبرت بقوة هي قوته هو دون غيره . وقد ظل ساخطاً على فقره وعلى إهمال تشستر فيلد له :

فانظر أي شرور تعدو على حياة الأديب

الكدح ، والحسد ، والفقر ، والراعى المتفضل ، والسجن .
ثم ما أشد بطلان انتصارات المحارب !
تأمل تشارلز الثانى عشر ملك السويد :
ترك الاسم ، الذى كان يصغر لذكره وجهه الدنيا ،
ليدل الناس على عبرة أو ليجمعل قصة (٢٠) .

إذن فما أغبى الأمل فى طول العمر بينما نرى بطلان الشيخوخة وخديعتها
وآلامها : كالعقل يشرد فى حكايات مكررة ، والحظ يهتز مع أحداث
كل يوم ، والأبناء يتآمرون على الميراث ويتحسرون على تباطؤ الموت ،
بينما « تغير أوصاب لا حصر لها على المفصل ، وتضرب نطاقاً على الحياة ،
وتضيق الخناق على هذا الحصار الرهيب » (٢١) . وما من سبيل للفرار من
الآمال الباطلة والفناء المحقق إلا سبيل واحدة : هى الصلاة ، والإيمان بإله
عنده الخلاص والثواب .

ومع ذلك كان لهذا المنشأ لحظات استمتع فيها بالسعادة . ففى ٦ فبراير
١٧٤٩ أخرج جارريك مسرحيته « أيرينى » . وكان حدثاً خطيراً فى نظر
جونسن ، فاعتسل ، وشد على كرشه بصدرية قرمزية موشاة بمخرمات
ذهبية ، وأزدهى بقبعة لها ذات الحلبة ، وراح يرقب صديقه وهو يلعب
دور محمد الثانى أمام السيدة كبير التى لعبت دور أيرينى ، واستمر عرفض
المأساة تسع ليال ، وأنت لجونسن بحصيلة قدرها مائتا جنيه ، ولم تبعث
بعدها قط ، ولكن ددسلى نقده مائة أخرى لقاء حق التأليف . وحقق الآن
(١٧٤٩) من الشهرة والثراء ما أتاح له تأسيس ناد ، ليس هو « النادى »
(Club) « الذى جاء بعد خمسة عشر عاماً ، بل « نادى آينى لين » ، وهو
اسم منقول عن الشارع الذى اعتاد فيه جونسن أن يلتقى فى حانة كنجز هد
يهوكنز وسبعة أصحاب آخرين كل مساء ثلاثاء يأكلون البفتيك ويتبادلون
الآراء المتحيزة . يقول جونسن « إلى هناك كنت أختلف دائماً » (٢٢) .

وكان فى كل ثلاثاء وجمعة ، من ٢١ مارس ١٧٥٠ إلى ١٤ مارس
١٧٥٢ ، يكتب مقالا صغيراً ينشره كيف تحت عنوان « الجوال » (رامبلر) ،

ويتقاضى على ذلك أربعة جنيهات في الأسبوع . وكان المبيع من المقالات يقل عن خمسمائة نسخة ، وخسر كيف في هذه المغامرة ، ولكنها حين جمعت في كتاب طبع منه اثنا عشرة طبعة قبل وفاة جونسن . فهل نعتف بأننا لم نجد طرافة إلا في عددین هما ١٧٠ و ١٧١^(١٢) ، وفيهما جعل جونسن مومساً تدل الناس على عبدة وتجمل قصة ؟ وقد شكوا النقاد من إسراف الأسلوب والألفاظ في الطول على الطريقة اللاتينية ، ولكن بوزويل . فيما بين أوزاره ، وجد عزاء وراحة في حض جونسن قراءه على التقوى^(١٤) .

وكان جونسن يعاني توتراً غير عادي في تلك السنوات ، لأن ذهنه أرهاقه التعاريف ، ومعنويته هبط بها تدهور حال زوجته . ذلك أن «تتى» راحت تهدى آلام الشيخوخة والوحدة بالخمر والأفيون . وكثيراً ما كانت تقصى جونسن عن فراشها^(١٥) . ونادراً ما كان يصطحبها حين يتناول طعامه خارج الدار . يقول الدكتور تيلر ، وكان يعرفهما معرفة وثيقة . إنها «كانت البلاء الذي نكبت به حياة جونسن ، وكانت ثملة إلى درجة بشعة . حقيرة من جميع الوجوه ، وكان جونسن يشكو مراراً . . . من وضعه مع زوجة كهذه»^(١٦) ، غير أن موته (٢٨ مارس ١٧٥٢) أنساه عيوبها ، فبات مفتوناً بها بعد موتها فتنه أضحكت أصحابه . وأطرى فضائلها . ورثى لوحده . ورجا أن تتشفع له عند المسيح^(١٧) . يقول بوزويل وهو يستحضر تلك الحقبة «لقد أخبرني أنه كان عادة يخرج من داره في الرابعة مساءً . وقل أن يعود إلا في الثانية صباحاً . . . وكان منتجعاً هو حانة ميتر بفليت ستريت ، حيث كان يحب أن يطيل السهر»^(١٨) .

على أن جونسن كان يرهب الوحدة . ومن ثم فقد أتى بآنا ولينز إلى بيته في جف سكובר (١٧٥٢) . وكانت شاعرة ولزية تكاد تفقد بصرها . ثم فشلت جراحة أجريت لعلاجها ، فكف بصرها تماماً . وقد مكثت مع جونسن حتى وفاتها (١٧٨٣) باستثناء فترات قصيرة تخللت هذه الفترة ، تشرف على إدارة البيت والمطبخ . وتقطع شرائح الشواء — وتحكم على امتلاء الأقداح دون مرشد غير أصابعها . أما احتياجات جونسن الأنخص فقد اتخذ لقضائها (١٧٥٣) خادماً زنجياً يدعى فرانك باربر ، ظل يلزمه

تسعة وعشرين عاماً . وقد أدخله جونسن المدرسة ، وجهد ليجعله يتعلم اللاتينية واليونانية ، وخلف له تركة لا يستهان بها . واستكمالاً لمقومات هذه المنشأة دعا جونسن طبيباً مهجوراً منيوذاً يدعى روبرت لفيت ليسكن معه (١٧٦٠) . وقد ألف ثلاثتهم بيتاً كثير الشجار ، ولكن جونسن كان شاكراً لصحبته .

وفي يناير ١٧٥٥ دفع بآخر فروخ « القاموس » إلى الطابع ، الذى حمد الله على قرب خلاصه من هذا العمل وهذا الرجل . ونمى إلى تشستر فيلد نبأ القاموس الرشيك الظهور ، وكان يأمل أن يصدره صاحبه بعبارة إهداء له . وحاول أن يكفر عن قصر نظره فى الماضى بمقالين كتبهما لإحدى المجلات يرحب فيهما بالآثر الأدبى المرتقب ، ويطرى جونسن أدبياً يسره أن يرتضيه حكماً لا يرد فى استعمال الإنجليزية الفصحى . غير أن المؤلف المعتر بكرامته أرسل إلى الأبريل (٧ فبراير ١٧٥٥) رسالة وصفها كارليل بأنها « نفخة بوق الحشر الدائعة الصيت التى أعلنت أن نظام رعاية الأدب يجب ألا تقوم له قائمة » :

سيدى اللورد :

أبلغنى صاحب مجلة « وولد » مؤخراً أن فخامتكم كاتب المقالين اللذين زكيا قاموسى لجمهور القراء . . . وإن تنويهكم بفضلى لشرف لا أدرى كيف أستقبله أو بأى عبارات أعرب عن اعترافى به لقلة تعودى على أفضال العظماء .

سيدى اللورد ، لقد انقضت اليوم سبع سنوات منذ انتظرت فى حجر تلك الخارجية أو رددت عن بابك ، ورحت خلال هذه الحقبة أدفع عملى خلال مصاعب من العبث أن أشكو منها ، حتى بلغت به آخر الأمر حافة النشر ، دون أن تسدى إلى يد واحدة ، أو كلمة تشجيع واحدة ، أو ابتساماة عطف واحدة . ومثل هذه المعاملة لم أتوقعها ، لأنه لم يكن لى راع بتاتاً قبل ذلك .

أليس راعى الأدب يا سيدى اللورد ذلك الذى ينظر فى غير اكتراث إلى رجل يصارع من أجل الحياة فى الماء ، حتى إذا بلغ اليابسة أثقله بمساعدته ؟

إن الاهتمام الذى طاب لك أن تبديه نحو جهودى كان كريماً لو أنه جاء مبكراً ، ولكنه تأخر حتى أمسيت عديم الاكتراث له ، عاجزاً عن الاستمتاع به ، وحتى بت وحيداً لا أستطيع اشراك غيرى فيه ، معروفاً لا حاجة بي إليه . وأرجو ألا يعد من القسوة البالغة السخرية ألا أعترف بأفضال لم أتلق منها نفعاً ، أو أن أكره أن يعدنى الجمهور مديناً لراع بما مكنتنى العناية الإلهية من أن أؤديه لنفسى .

ولئننى إذ مضيت بعملى هذا الشوط بقدر ضئيل جداً من الدين لأمر راع للأدب ، فإن يفت فى عضدى أن أنهى العمل بقدر أضال إن كان هذا القدر متاحاً ، ذلك أننى أفقت منذ أمد بعيد من حلم الأمل الذى كنت يوماً ما أعتر به فى اغتباط شديد .

ولئننى ياسيدى اللورد

نخادمكم المتواضع المطيع

صموئيل جونسن (٢٩) .

أما تعليق تشستر فيلد الوحيد على الرسالة فهو أنها « كتبت كتابه جيدة جداً » ، وهى فى الحق آية من آيات نثر القرن الثامن عشر ، بريئة تماماً من المشتقات اللاتينية التى كانت أحياناً تعوق أسلوب جونسن وثقله . ولا بد أن كاتبها كان عميق الإحساس بها والتفكير فيها ، لأنه تلاها على مسامع بوزويل من الذاكرة بعد ست وعشرين سنة (٣٠) ، ولم تنشر الرسالة إلا بعد موت جونسن . ولعل غيظه شوه حكمه على « رسائل تشستر فيلد لولده » بأنها — « تعلم أخلاقيات بغى . وعادات معلم رقص » (٣١) .

وذهب جونسن إلى أكسفورد فى مطالع ١٧٥٥ ، من جهة ليرجع إلى المكتبات ، ومن جهة أخرى ليقترح على صديقه توماس وارتن أنه مما يعين على رواج القاموس أن يستطيع مؤلفه إضافة درجة جامعية إلى اسمه . ودبر وارتن الأمر ، وفى مارس خلعت على جونسن درجة أستاذ آداب فخريه . وهكذا صدر القاموس آخر الأمر ، فى مجلدين من القطع الكبيرة بلغا قرابة ٢,٣٠٠ صفحة ، وحدد له ثمناً أربعة جنيهات وعشرة بنسات . وفى ختام المقدمة أعلن جونسن أن .

« القاموس الانجليزي ألف بمساعدة ضئيلة من المثقفين ، ودون أى رعاية من العظماء ، ولم يؤلف في هدوء العزلة الناعم ، ولا تحت الظلال الجامعية الوارفة ، بل في غمار العناء والحيرة ، وفي جو المرض والحزن ، ولعله مما يكبح انتصار أصحاب النقد الخبيث أن يلاحظوا أنه إذا كانت لغتنا الانجليزية لم تحظ هنا بعرض كامل ، فعلى أننى إنما فشلت في محاولة لم تنجزها كمدبرات البشر إلى الآن . . . لقد أطلت عملى حتى طوى القبر أكثر من كنت أبغى لإدخال السرور إلى أفئدتهم ، وبات النجاش والإخفاق أصواتاً فارغة ، ومن ثم فإني أطلقه في هدوء لا يبالي ، إذ ليس هناك ما أخشاه أو أرجوه من اللوم أو المديح » .

وما كان في الإمكان أن يتوقع من النقاد أن يدركوا أن قاموس جونسن عين قبة ، وخطأً فاصلاً في أدب القرن الثامن عشر الإنجليزي ، كما عينت موسوعة ديدروود الأمبر (١٧٥١ — ٧٢) قبة ونقطة تحول في أدب فرنسا . ولقد كان هناك ضحكك كثير على عيوب عارضة في عمل جونسن . فبين المواد التي بلغت أربعين ألفاً ألفاظ غريبة مثل *sygillates* و *gentilitious* (وهما لفظان يحتفظ بهما قاموس وبستر باحترام) . وحوى القاموس تعريفات غاضبة كتعريف كلمة « معاش » *pension* « مكافأة تمنح لإنسان بدون مقابل . والكلمة في انجلترا تفهم عموماً على أنها تعنى راتباً يدفع لأجير للدولة نظير خيانتة لوطنه » . أو كلمة *excise* (ضريبة الإنتاج) « ضريبة بغريضة على السلع » . ثم هناك نكت شخصية كما في تعريف كلمة *oats* (الشوفان) « غلة تطعم بها الخيل في انجلترا عادة ، ولكنها في اسكتلنده يقتات بها الآدميون » — وكان هذا صحيحاً لا غبار عليه . وسأل بوزويل جونسن ان كانت المدنية *civilization* كلمة : فقال لا ، ولكن *civility* (الكياسة) (٣٢) . كلمة . . . وكثير من « اتمولوجيات » جونسن (تتبع أصول الكلمات وتاريخها) يرفض اليوم ، فقد كان يعرف الكثير من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، ولكنه كان ضئيل العلم باللغات الحديثة ، وقد اعترف صراحة أن « اتمولوجيا » نقطة الضعف فيه (٣٣) . وقد عرف كلمة *Pastern* بأنها « ركبة الحصان » (وصحتها جزء من قدم الحصان) . وحين سألته سيادة كيف

حدث أنه وقع في خطأ كهذا ؟ أجاب « الجهل يا سيدى ، الجهل المطبق »^(٣٤) ، ولم يكن في استطاعته تجنب العثرات في قاموس بهذه الضخامة كل صفحة فيه تفتح أبواباً كثيرة للزلل .

ولقد لقي لإنجاز جونسن العظيم التقدير خارج وطنه . فأهدته الأكاديمية الفرنسية نسخة من قاموسها ، وأهدته أكاديمية ديلاكروسكا الفلورنسية قاموسها^(٣٥) . وراج القاموس رواجاً أرضى الكتبيين ، فنقدوا جونسن أجر تجهيز طبعة مختصرة . وظل القاموس المطول قياسياً حتى حل محله « نوح ويستر » في ١٨٢٨ . وقد وضع القاموس جونسن في قبة المؤلفين الإنجليز في عصره ؛ والواقع أن جونسن اكتسب سلطان الحكم الذى لا يرد له حكم في الأدب الإنجليزى ، إذا استثنينا أدباء أرستقراطيين مثل هوراس ولبول . وهكذا بدأ حكم « خان الأدب الأكبر » .

٣ — الحلقة المسحورة

على أنه لم يكن فوق الاعتقال بسبب الدين . ذلك أنه أنفق أجره الذى تقاضاه عن القاموس بالسرعة التى أتاه بها . ففي ١٦ مارس ١٧٥٦ كتب إلى صموئيل رتشرد سن يقول : « سيدى ، اننى مضطر إلى طلب معونتك ، فأنا الآن مقبوض على لأننى مدين بخمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً . . . فإذا تفضلت موافقنى بهذا المبلغ رددته لك شاكراً ، مضيفاً إياه إلى كل أفضالك السابقة »^(٣٦) . وأرسل إليه رتشرد سن ستة جنيهات . وكان يكسب قوته في تلك الحقبة بتحرير المقالات للمجلات ، وبتأليف المواعظ بجنين للعظة لرجال الدين الذين لم يوهبوا القدرة الكبيرة على البيان ، وبجمع الاكتتابات مقدماً عن طبعة من مؤلفات شكسبير وعد بتحقيقها ، وبكتابه مقال أسبوعى لليونفرسل كرونكل (١٥ ابريل ١٧٥٨ إلى ٥ ابريل ١٧٦٠) باسم « العاقل » وكانت هذه المقالات أخف روحاً من « الرمبلر » ، واكتفى مع ذلك أشد جدّاً وثقلاً مما يحتمله القراء الذين يتحرون الجرى في القراءة . وقد ندد مقال

(٥) Cham, The Great Cham معناها خان ويبدو أن العبارة استعملها سمولت أولاً ، في رسالة إلى ويلكس مؤرخة ١٦ مارس ١٧٥٩ .

منها بتشريح الحيوان الحلى ، وشهر آخر بسجون المدنين . ورثى المقال رقم ٥ لانفصال الجند عن زوجاتهم : واقترح تأليف فرق من « الفارسات الخفاف » يقمن بأعمال التموين والتربيض ، ويرحن أزواجهن فيما عدا هذا ، وفى يناير ١٧٥٩ بلغه أن أمه ذات التسعين ، التى لم يرها منذ اثنين وعشرين عاما ، مشرفة على الموت . فاقترض نقوداً من طابع ، وبعث إليها بستة جنهيات فى رسالة رقيقة . ووافاه الأجل فى ٢٣ يناير . ولكى يغطى نفقات جنازتها وديونها كتب فى أمسيات أسبوع واحد (فى رواية رينولدز) « تاريخ راسيلاس أمير الحبشة » وأرسله إلى الطابع جزءاً فجزءاً ، ونقد عنه مائة جنيه . فلما نشر فى ابريل رحب به النقاد أثرأ من عيون الأدب ، وقارنوا بينه وبين قصة فولتير « كانديد » التى صدرت فى الوقت نفسه تقريباً وعالجت المشكلة ذاتها : أيمكن أن تأتى الحياة بالسعادة ؟ أما جونسن فلم يؤخر الجواب ، « يا من تستمعون وأحلام الأمل تراودكم ، وتوقعون أن تحقق الشيخوخة وعود الشباب ، وأن الغد سيعوض عن نقائص اليوم . انتموهوا لتاريخ راسيلاس » (٣٧) .

يقول جونسن أنه كان من عادة الملوك الأحباش أن يلزموا وريث العرش وادياً طيباً خصباً حتى يأتى الوقت لاعتلائه العرش . وكان يزود بكل شيء : بقصر ، وطعام طيب ، وحيوانات مدله ، ورفاق أذكىاء . ولكن راسيلاس يزهد فى هذه المباهج حين يبلغ السادسة والعشرين . فهو لايفتقد الحرية فحسب بل الكفاح أيضاً . « سأكون سعيداً لو كان أسمى هدف أسعى نحوه » . فيطيل الفكر فى كيفية الهروب من هذا الوادى المظلم ليرى كيف يسعى غيره من الرجال إلى السعادة وكيف يجادلونها . ويقترح ميكانيكى حاذق أن يبنى آلة طائرة تحلق بهما فوق الجبال المحيطة إلى الحرية . ويشرح فكرته هكذا :

« ان الذى يستطيع السباحة يجب ألا يئأس من إمكان الطيران ، فالسباحة طيران فى سائل أكثف ، والطيران سباحة فى عنصر أخف . وما علينا إلا أن نحقق التناسب بين قوة مقاومتنا وكثافة المادة المختلفة التى نحترقها . فسيحملك الهواء بالضرورة إذا استطعت تحديد أى دفع يدفعه بأسرع مما

يستطيع الهواء أن يتراجع من الضغط . . وسيكون جهد الارتفاع عن الأرض شديداً . . ولكننا كلما ارتفعنا قلت جاذبية الأرض وثقل الجسم تدريجياً حتى نبلغ منطقة يطفو فيها الإنسان في الهواء دون أى ميل للسقوط .

ويشجع راسيلاس الميكانيكى ، فيوافق على صنع طائرة ، « ولكن بشرط ، وهو ألا يفشى سر هذه الصنعة ، وألا تلزمنى بأن أصنع أجنحة لسوانا » . ويسأله الأمير « ولم تضمن على غيرك بمثل هذه الفائدة الكبرى ؟ » ويجب الميكانيكى « لو كان الناس كلهم فضلاء لعلمتهم بغاية الخفة أن يطيروا . ولكن أى ضمان للأختيار إذا كان فى استطاعة الأشرار أن يشاءوا أن يغزوهم من الجو ؟ » ثم يصنع طائرة ، ويحاول الطيران ، فيسقط فى بحيرة ينقذه منها الأمير^(٣٨) .

ويؤثر راسيلاس التحدث إلى الفيلسوف إيملاك ، الذى شهد كثيراً من الأقطار والناس . ويجدان كهفاً يفضى إلى ممر يؤدى إلى العالم الخارجى ، ويهربان من فردوسهما مع أخت الأمير نكاياه وخادمتها . ثم يزورون القاهرة وقد تزودوا بالحلى عملة عالمية ، ويشاركون فى ملاهيها ثم يملونها ، ويستمعون إلى فيلسوف رواقى يتحدث عن قهر الشهوات ، وبعد أيام يعثرون عليه وقد برح به الحزن على موت ابنته . ولما كانوا قد قرءوا الشعر الرعوى فقد افترضوا أن رعاة الغنم لابد سعداء ، ولكنهم اكتشفوا أن هؤلاء الرجال « تفرحت سخطاً » و « حقدأ وضغينة على من هم أعلى منهم مكانة »^(٣٩) . ثم يقعون على ناسك ، فيتبينون أنه يتوق سراً إلى «بهاج المدينة . ويستفسرون عن سعادة الحياة البيتية ، فيجدون كل بيت قد خيم عليه ظلام الشقاق و «الصدام القاسى بين الرغبات المتعارضة»^(٤٠) . ويرتادون الأهرام ويحكمون عليها بأنها قمة الحماقة . ويسمعون عن الحياة السعيدة التى يحياها الدارسون والعلماء ، فيلتقون بفلكى مشهور ، يخبرهم أن « الأمانة بغير المعرفة ضعيفة عديمة الجدوى ، والمعرفة بغير الأمانة خطارة رهيبة »^(٤١) ، ولكن الفلكى يحزن . وينتهون إلى أنه ما من طريق من طرق الحياة على الأرض يقضى إلى السعادة ، ثم يعزيهم إيملاك بحديث عن خلود النفس ، ويعتزمون

العودة إلى الحبشة والرضى بتقلبات الحياة في هدوء تحذوهم الثقة في قيامة
معيدة .

وهي قصة قديمة تجسدت في صورة من أبدع صورها . ويدهشنا
ذلك التدفق الجميل والوضوح الذى يتميز به الأسلوب ، الذى بعد كل
البعد عن الألفاظ الثقيلة التى نجدها في مقالات جونسن بل حتى في حديثه .
وبدا مستحيلا أن يكون المعجمى المتفقه هو كاتب هذه القصة البسيطة ،
وأنه مما لا يصدق أن يكون قد كتب هذه الصفحات التى بلغت ١٤١ في
سبعة أيام .

وكان أثناء ذلك قد انتقل من جف سكوير إلى ستيل إن (٢٣ مارس
١٧٥٩) ؛ وستراه بعد قليل وقد انتقل إلى جريز إن ، ثم إلى الأنر تمل
لين . والراجع أن هذه التنقلات كان دافعها الاقتصاد في النفقة . ولكن
في يوليو ١٧٦٢ رفع جونسن فجأة إلى حالة من الثراء النسبى بفضل معاش
سنوى قدره ٣٠٠ جنيه نفحه به جورج الثالث بناء على نصيحة اللورد
بيوت . أما السبب في أن هذه المنحة كانت من نصيب رجل كان قد
عارض الأسرة الهانوفرية في إصرر ، وسخر من الإسكتلنديين في كل مناسبة ،
ووصف المعاش بأنه « أجر يدفع لأجير للدولة نظير خيائته لوطنه » ، -
هذا السبب دار حوله الكثير من قصص الأسرار . فاتهمه أعداؤه بأنه يؤثر
المال على المبدأ ، وزعموا أن بيوت كان يبحث عن قلم جبار يرد على ولكس ،
وتشرشل ، وغيرهما ممن كانوا يشوهون سمعته بكتاباتهم . وزعم جونسن
أنه قبل المعاش على أساس صريح أكدته بيوت مرتين ، هو ألا يطلب إليه
أن يؤيد الحكومة بقلمه^(٤٢) . وقد أسر إلى بوزويل بأن « لذة لعن بيت
هانوفر ، وشرب نخب الملك جيمس ، ترجعها المئات الثلاث من الجنهات
في العام رجحاناً كبيراً »^(٤٣) . على أى حال فقد استحق المعاش أضعافاً
مضاعفة ، لا عن الكراسيات السياسية التى كتبها في السنين اللاحقة ، بقدر
استحقاقه إياه عن إثرائه الأدب الانجليزى بالقلم والحديث وبالحكمة والنكتة
المطهرة .

وكان له من الأصدقاء عدد يكتفى لتشيتيت الأعداء . يقول « ان الصداقة هي الشراب المنعش الذى يعين المرء على ابتلاع جرعة الحياة المقرزة » (٤٤) . وكان فى كل محفل تقريباً من المحافل التى يختلف إليها يصبح محور الحديث ، لأنه شق طريقه بالقوة إليه ، بل لسبب أهم هو أنه كان أعظم شخصية منفردة فى حلقات لندن الأدبية ، وكان فى استطاعة سامعيه أن يثقوا بأنه سيقول شيئاً كلما تكلم . ورينولدز هو الذى اقترح تأليف « النادى » الذى سماه بوزويل فيما بعد « النادى الأدبى » ، وأيد جونسن الاقتراح ، وفى ١٦ أبريل ١٧٦٤ بدأت الجماعة الجديدة لقاءاتها فى أمسيات الإثنين بحانة « تيركس هد » فى شارع جرارد بجى سوهو ، أما الأعضاء الأصليون فهم رينولدز ، وجونسن ، وبرك ، وجولدسميث ، وكريستوفر نجت ، وتوبهام بوكلرك ، وبليت لانجت ، وأنتونى كامين ، والسرجون هوكنز . وأضيف إلى هؤلاء فيما بعد آخرون بتصويت الأعضاء : جبون ، وجاريك ، وشريدان ، وفوكس ، وآدم سميث ، ودكتور بيرنى . . .

ولم يظفر بوزويل بالعضوية إلا فى ١٧٧٣ ، وقد يكون بعض السبب أنه لم يكن يفد على لندن إلا لماما . ولم ينفق خلال السنين الإحدى والعشرين ، بين التفاته لجونسن ووفاة جونسن ، أكثر من عامين وبضعة أسابيع على قرب من معبوده . وكان فى حرارة إعجابه التى لم يخفها ، وفى علم جونسن بأن بوزويل يخطط لكتابة سيرته ، ما جعل أكبر الرجلين يغفر ما أبداه الاسكتلندى من مسلك يقرب من العبادة المتملقة . والمتكلم المجيد للكلام ، والمستمع المجيد للاستماع ، يؤلفان صاحبين سعيدين . ولم يكن جونسن شديد الاحترام لعقلية بوزويل . فحين قال « بوزى » ، كما كان يلقبه ، أن النبيذ الذى شربه أثناء «نديثهما أصابه بصداع » ، قال جونسن مصححاً : لا يا سيدى ، ليس النبيذ هو الذى صدع رأسك ، بل المعنى الذى وضعته أنا فيه . وقال بوزويل متعجباً « ماذا يا سيدى ! وهل يصدع المعنى الرأس ؟ » « نعم يا سيدى ، إذا لم يكن معتاداً عليه » (٤٥) . (وفى « السيرة » فقرات يبدو فيها بوزويل يتكلم كلاماً معقولاً عن كلام جونسن) . وفى معرض الثناء على ملحمة بوب عن المغفلين (الدنسياده) لاحظ جونسن أنها خلعت على بعض المغفلين ذكراً خالداً ، ثم واصل نكته : « لقد كانت

الغفلة يومها أمراً جديراً بالاهتمام . . آه ، ياسيدي ، لو إنك عشت في تلك الأيام ! » (٤٦) . ولكن الدب الشائخ لم يلبث أن تعلم أن يجب شبله ، فقال له في ١٧٦٣ (٤٧) « قليل من الناس من آنس إليه أنسى إليك » ، وقال « ان بوزويل لم يغادر قط بيتاً دون أن يترك فيه رغبة في عودته » (٤٨) . وفي ١٧٧٥ أعطى بوزويل حجرة في مسكن جونسن لينام فيها حين يمتد بهما الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل (٤٩) .

وفي ٣١ مارس ١٧٧٢ كتب في يوميته : « إنى مصمم على كتابة سيرة المستر جونسن . وأنا لم أخبره بنيتي بعد ، ولا أدري إن كان من وأجبي أن أفعل » . ولكن جونسن علم بالأمر في ابريل ١٧٧٣ إن لم يكن قبله (٥٠) . وعلم غيره به . وعاظهم طريقة بوزويل في إثارة مسائل جدلية بقصد واضح هو جر رجل الأديب العجوز والظفر بكرة جديدة للسيرة ، وافتخر الاسكتلندي الفضولى بأن « النبع كان أحياناً يسد حتى أفتح صنبوره » (٥١) ولعل جونسن الذى نعرفه ونستطيعه ما كان ليتجلى قط لولا أن حفزته إثارة بوزويل المفرطة ومطاردته التى لايعترها الكلل . وشتان بين جونسن هذا وجونسن الذى نجده في « السيرة » التى ألفها هوكنز ، أو حتى في « النوادر » الرشيقة التى كتبها مسز ثريل ! .

وبيناير ١٧٦٥ هو تاريخ بداية صلة جونسن بأسرة ثريل ، وهى صلة لعبت في حياته دوراً أكبر من صداقته لبوزويل . وكان هنرى ثريل صانع جعة ، وإبناً لصانع جعة ، أصاب حظاً طيباً من التعليم وجاب الأقطار ، ولم يكن يؤمن أن يشرف وضعه الاجتماعى بانتخابه عضواً فى البرلمان . وفي ١٧٦٣ تزوج هستر لنسن سولزبرى ، وكانت فتاة ولزيرة لا يتجاوز طولها خمسة أقدام ولكنها مريحة ذكية . واستغرق هنرى فى عمله وهو يكبرها بإثنى عشر عاماً ، ولكنه بذل لها من الاهتمام ما كفى لجعلها تحبل كل سنة بين ١٧٦٤ و ١٧٧٨ ، ولتقل عدوى مرضه السرى إليها (٥٢) . وولدت له اثني عشر طفلاً مات منهم ثمانية فى طفولتهم وراحت تسرى عن نفسها . بالأدب ، فلما جاء زوجها إلى البيت بصموئيل جونسن الدائع الصميت ، صغرت كل فنون الأثني وملاطفاتها لتربطه بالأسرة . وسرعان ما اعتاد أن

بتعشئ مع آل ثريل كل خميس في منزلها بسوثوارك ، وكان منذ ١٧٦٦ ينفق معها الصيف عادة في فلتهم الريفية في ستريتهام بمقاطعة صرى . وجعلت السيدة ثريل من بيتها صالوناً كان قطبه جونسن ، ورواده رينولدز وجولدسميث وجاريك وبيرك ، وآل بيرنى ، وأخيراً — بوزويل — مدفوعاً بالغيرة لأنه علم أن السيدة ثريل تجمع البيلانات عن نظرات بطلها وعاداته وألفاظه . وهكذا قدر لـ « السيرة » أن يكرن لها منافس .

٤ — الدب الأكبر

كيف كان « الدب الأكبر » يبدو؟ كتب بوزويل عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) يقول : « ان مستر جونسن رجل رهيب المنظر للغاية . . . رجل كبير الحجم جداً ، يشكو التهاب العينين ، والشلل الارتجافى (تقلص عصبي لا إرادى) والداء الخنازيرى وهو رث الهندام جداً ، ويتحدث بصوت غاية فى الخشونة » (٥٣) . ووصفته السيدة ثريل حين تقدم به العمر فقالت : « كانت قامته فارعة إلى حد ملحوظ ، وأطرافه غاية فى الكبر . . أما قسماته فمحددة تحديداً قوياً ، ووجهه مضرس جداً . . وكان فى إبطه قصر ، وفيه غير ذلك قصور ، ومع ذلك كانت عيناه شديدتى الجموح ، والنفوذ ، والضراوة أحياناً ، حتى أن الخوف منه كان فى اعتقادى أول انفعال يبدو فى عيون ناظره » (٥٤) .

وكان جونسن يأسف على الساعات التى يجلس فيها إلى مصوره يصوره باعتبارها « وقتاً مضيعاً » ، ومع ذلك فعل هذا عشر مرات حين رسمه رينولدز ، ومرة حين صنع نولكنز له تمثالا نصفياً . وفى ١٧٥٦ أبرزه السير جوشوا بديناً ثقيلاً الحركة (٥٥) ، وفى ١٧٧٠ رسم له صورة جانبية وجعله يبدو شبيهاً بجولدسميث (٥٦) . وفى ١٧٧٢ أسلمته أشهر صوره للأجيال اللاحقة رجلاً ضحماً صعب المراس ، له شعر مستعار هائل ، ووجه مثلى كبير . وحاجبان هابطان فوق عينين حاثرتين ، وأنف ضخم وشفتان غليظتان ، وذقن ماعد . . وكان شعره المستعار تزيج غير مرة الحركات التشنجية التى تنمد عن رأسه وكتفيه ويديه (٥٧) . وكان مهمل الهندام .

وقد قال لبوزويل « إن الملابس الجميلة لا قيمة لها إلا من حيث سدها النقص في غيرها من وسائل جلب الاحترام للابسةا »^(٥٨) . ولم يكن يعبأ كثيراً بالنظافة الشخصية إلى أن نزل ضيفاً على آل ثريل . وكان يأكل بشراهة يملأ فراغ جوفه الكبير . وربما لأنه لم ينس سنوات الجوع . قال بوزويل :

« لم أعرف قط رجلاً أكثر منه تلمذاً بالأكل الطيب . كان إذا جلس إلى المائدة استغرقته مهمة اللحظة استغراقاً تاماً ، فبدت نظراته وكأنها سمرت على طبقه . وما كان ليفوه بكلمة واحدة ، ولا ليبدى أقل انتباه لما يقوله غيره — إلا أن يكون في صحة قوم رفيعي المقام جداً — حتى يشبع شهيته التي كانت شديدة الضراوة حتى . . . لتنتفخ لها عروق جبينه عادة ويفصد عرقاً غزيراً ملحوظاً للناظرين »^(٥٩) .

وكان يأكل السمك بأصابعة . « لأننى أشكو قصر النظر ، وأخشى شوك السمك »^(٦٠) . ولم يكن يطبق منظر الخضر . وكان في الأيام التي تنعظم فيها شهيته للطعام « يحب أن يعمش نفسه بالخمر ، ولكنه لم يسكر قط غير مرة واحدة »^(٦١) . وحين نددت المسز وليز بالسكر قائلة « إنى لأعجب أى لذة يمكن أن يحس بها الرجال في أن يجعلوا من أنفسهم حيوانات ؟ » أجاب على الفور « إنى لأعجب يا سيادى أنك لاتملكين من نفاذ البصيرة ما ترين به الإغراء القوي لهذا الإفراط في الشراب ، لأن من يجعل نفسه حيواناً يتخلص من الألم الذي يصيبه من كونه 'إنساناً' »^(٦٢) . ولكن السكر في رأيه « لا يعين على الارتقاء بالحديث مع الناس ، فهو يغير العقل حتى ليسر الخمور بأى حديث »^(٦٣) . ثم تجنب كل ألوان المسكر في أخربات حياته ، وقنع بالكاكاو ، وعصير الليمون ، وأقداح الشاي التي لا حصر لها . ولم يدخن قط ، « إنه لأمر رهيب أن تنفث الدخان من أفواهنا في أفواه غيرنا من الناس وفي عيونهم وأنوفهم ، وأن يفعل الناس بنا هذا الشيء ذاته » . وعلل عادة التدخين بأنها « تحفظ العقل من الخواء التام »^(٦٤) .

وكانت عاداته الفظة من جهة أثراً خافته الأيام واليالى التي قضها في قاع المجتمع . ومن جهة نتيجة المثيرات البدنية والمخاوف العقلية . لقد كان

قويًا ، فخوراً بقوته ، استطاع أن يصرع كتيباً دون أن يخشى رده للأثر لنفسه ، وأن ينزع من مكانه رجلاً جرؤ على احتلال كرسي أخلاه جونسن مؤقتاً ويطرحه جانباً ؛ وقد امتطى جواداً وصاحب ثريل في رحلة صيد للشعالب عبر الريف امتدت خمسين ميلاً . ولكنه وجد مشقة في حمل بدنه الثقيل . « حين كان يسير في الشوارع ، كان يبدو الدوران رأسه المتصل وما رافقه من حركة بدنه كأنه يشق طريقه بتلك الحركة مستقلاً عن قدميه » (٦٥) .
فلذا ركب « لم يملك زمام جواده ولا توجيهه حيث يشاء ، بل كان يحمل وكأنه في بطلون » (٦٦) .

وبعد ١٧٧٦ كان يعاني من الربو والنقرس والاستسقاء . ولا بد أن هذه الأمراض وغيرها من أوصاب البدن زادت مزاجه السوداوى حدة ، وكان أحياناً يصيبه بغم شديد حتى « أننى لأرضى بأن يبتز منى عضواً استرد بعدها مرعى » (٦٧) ولم يكن ليؤمن بأن بين الناس إنساناً سعيداً ، ومرة قال عن وجل زعم أنه سعيد « هذا كله هراء ، ان الكلب يعرف أنه تعس طوال الوقت » (٦٨) .

وبعد أن أخبره طبيب بأن الوهم المرضى يفضى أحياناً إلى الجنون ، خاف أن يلتاث عقله يوماً ما (٦٩) . وقد أجرى هذه العبارة على لسان إيملاك في قصة « راسيلاس » ، « أن أبشع الشكوك وأكثرها إزعاجاً في حالتنا الراهنة هو الشك في احتفاظنا بسلامة عقولنا » (٧٠) .

ولذا كان يشكو قصراً في بصره فإنه لم يجد المدة تذكر في تأمل جمال النساء أو الطبيعة أو الفن (٧١) . وكان رأييه في النحت أن الناس غالوا في تقديره ، « ان قيمة النحت ترجع إلى صعوبته . فأنت لا تقدر أبدع رأس نحت فوق جزره » (٧٢) . وقد حاول أن يتعلم العزف « ولكننى لم أفلح قط في اخراج نغمة » . وسأل مرة « قل لى بربك ياسيدى من يكون باخ هذا ؟ أزمارة هو ؟ » (٧٣) — مشيراً إلى يوهان كريستيان باخ ، وكان يومها (١٧٧١) أشهر عازف على البيان في إنجلترا . وأحس أن الموسيقى تفسدها الحركات البهلوانية على الأصابع . ومرة سمع بأن عازف كمان نال ثناء الناس لأن

القطع التي عزفها عسيرة جداً ، فقال مندهشاً « عسيرة — ليتها كانت متحيلة » (٧٤) .

ولابد أن رجلاً أوتي هذه القوة والعافية لقي عنتاً في التعامل مع أحلام الجنس التي تهيج حتى العقل السوى . وحين حضر حفلة الافتتاح لتمثيلية « أيريني » وقاده جاريك إلى « الحجرة الخضراء » التي ينتظر فيها الممثلون بين المشهد والمشهد ، رفض اقتراحاً بأن يكرر هذه الزيارة . « لا يا ديفد ، لن أعود للمكان أبداً . لأن ثياب مثل تلك البيضاء وجوارب من الحريرية تثير أعضائي التناسلية » (٧٥) . وقد أدهش بوزويل أن يسمعه يقول يوماً وهو في جزائر الهبريد « كثيراً ما خطر لي أنه لو كنت أقتنى حريمياً . . . » (٧٦) .

ويمكن القول عمومًا أن نقائصه كانت أظهر من فضائله ، التي كانت لا تقل عن النقائص وجوداً حقيقياً . وفي وسعنا أن نعكس ملاحظة هوراس ولبول الذي قال « مع أنه كان طيب الطبع في أعماقه فإنه كان سيء الطبع جداً في قفئه » (٧٧) . وقد أعرب جولد سميث عن هذا المعنى ذاته بعبارات ألطف : « إن في سلوك جونسن خشونة ، ولكن ليس هناك إنسان حتى له قلب أرق . فليس فيه من الدب إلا جلده » (٧٨) . فهذا الرجل الذي كان رث الهندام ، بايذاً ، مؤمناً بالخرافة ، فظاً ، مستبد الرأي ، متكبراً ، كان أيضاً رحيماً ، عطوفاً ، كريماً ، يبادر بطلب الصفح وبالنسيان . وقد قدرت مسز ثريل أن جونسن كان يبذل ٢٠٠ جنيه من معاشه البالغ ٣٠٠ جنيه (٧٩) ، وأضاف : « كان يرعى مجاميع بأسرها من الناس في بيته . . . وكان وهو ينفق نصف الأسبوع في بيتنا عادة ، يحتفظ بأسرته الكبيرة العدد في فليت ستريت مخصصاً لأفرادها نفقة ثابتة . ولكنه يعود إليهم كل سبت ليقدم لهم ثلاث وجبات طيبة بالإضافة إلى صحبته ، قبل أن يعود إلينا في ليلة الإثنين — باذلاً لهم ذات الحفاوة والمجاملة التي كان يبذلها لمشاهير من أفراد المجتمع الراقى أو ربما أكثر منها » (٨٠) .

وكان يكتب للغير المقدمات والإهداءات والعظات وحتى الآراء القانونية . مجاناً في حالات كثيرة . وقد جاهد بلسانه وقلمه لينقذ الدكتور وليم دد من حبل المشنقة . وحين رأى مومساً راقدة في الطريق (وكان في

عامه الخامس والسبعين) وضعها على ظهره ، وحملها إلى مسكنه ، واعتنى بها حتى استعادت صحتها ، ثم « حاول أن يعينها على كسب رزق حلال »^(٨١). وقد قال جورج ستيفنز الذى تعاون معه فى التعليق على مسرحيات شكسبير « لو أن الحسنات الكثيرة التى أخفاها عمداً ، والأفعال الإنسانية التى أسداها سراً ، أعلن عنها بذات التفصيل الدقيق (كزلاته) ، لتاهت عيوبه فى وهج فضائله فلم يبق أمام الناس غير الفضائل »^(٨٢).

ولم يؤلف خلال الأعوام التسعة عشر الباقية من عمره سوى كتاب هام واحد هو « سيرة الشعراء » ، وفيما عدا ذلك أحل لسانه محل قلمه . وقد وصف نفسه بأنه « رجل يحب أن يلف ساقيه ويطلق حديثه »^(٨٣) . ولو غضضنا النظر عن تلذذه بالطعام ، لوجدناه أسعد ما يكون حياة حين يتحدث إلى جماعة ذكية . وكان قد اجتمع له بالملاحظة والقراءة ذخيرة خارقة وتنوع مدهش من المعرفة بشئون البشر ، وقد حمل الكثير من هذه المعرفة فى مخزن ذاكرته وكان يرحب بفرصة التخفيف منها . ومع ذلك فقلما كان البادئ بأى نقاش جاد ، وما كان يفصح عن رأيه إلا حين يثير بعضهم موضوعاً أو تحدياً . وكان يجد دائماً إغراء بأن يعارض رأى غيره ، وكان على استعداد للدفاع عن أى قضية أو عكسها ، يلتد الجدل لعلمه بأنه لا يقهر ، ويصمم على أن تكون حجته هى الغالبة حتى ولو ماتت الحقيقة تحت ضرباته . وكان على علم بأن هذا لم يكن أرقى ضروب الحديث ، ولكنه كان واثقاً أنه ألدها . وكان إذا حمى وطيس المعركة واشتد استمتاعه بها لا يعرف المجاملة . يقول بوزويل « لم يكن يرحم أحداً منا . مرة قال لأحد مجاديه : لقد عثرت لك على حجة ، ولكنى لست ملزماً بالعثور لك على فهم »^(٨٥) . يقول جولدسميث « لاسبيل للجدل مع جونسن ، فهو ان أخطأك رصاص طبنجته صرعلك بمقبضها »^(٨٦) ويروى بوزويل هذه القصة عنه ، « حين أملت بالدكتور جونسن صبيحة الغد وجدته راضياً كل الرضى عن قدراته الكلامية فى البارحة . فقد قال : حسناً ، لقد استمتعنا بحديث طيب » . بوزويل « أجل ياسيدي ، لقد قذفت بالكثيرين وانخنتهم بالجراح »^(٨٧) . وقد وصفه توماس شريدان بأنه « بلطجى »^(٨٨) . وجبون بأنه متعصب تعصباً

أسمى^(٨٩) . وقال عنه اللورد مونبودو أنه «أشر وأخبث رجل عرفته في حياتي ، لا يثنى على كاتب أو كتاب أثنى عليه غيره (ولكنه أثنى على قصة فاني بيرنى «أفلينا») . . . ولا طاقة له على سماع أى شخص غيره يشد انتباه الجماعة ، ولو لوقت قصير جداً»^(٩٠) أما هوراس ولبول ، الآمن في وظائفه الشرفية ، فكان يرتعد حين يخطر جونسن بباليه ، وقد أجمل وصفه على النحو الذى يراه ابن رئيس وزراء من حزب الأحرار .

«كان جونسن بما ملك من سقط الثقافة وبعض الجوانب القوية شخصية كريمة حسية . فهو من حيث المبدأ استيواري ، مزهو ، مكثف بذاته ، متعاطس . . . ولقد ابتدأ قامه وسخره للحزبية حتى في معجمه ، ثم ناقض تعريفاته بعد ذلك لقاء معاش يتلقاه . وكانت عاداته قدرة متعالية وحشية ، وأسلوبه خبيثاً طناناً إلى حد مضحك ، وباختصار كان فيه رغم كل حذلقته وتعلجه تلك التفاهة الهائلة التى تجدها في المعلم الربى . . فليت شعري ماذا يصيبنا الخلف حين يقرعون أى صنم عبدنا ؟»^(٩١) .

وخير الحديث من الوجهة المثالية بالطبع هو ذلك الذى يجرى في جماعة صغيرة مستأنية كل أفرادها مثقفون مهذبون ، أو كما أعرب جونسن في فاصل لعليف : «أن خير الحديث ما خلا من المنافاة أو الغرور ، وكان تبادل هادئاً معلمئناً للعواطف»^(٩٢) ، ولكن متى كانت له هذه التجربة ؟ لقد قال لبوزويل وعيناه على الأرجح تومضان : «إن معاملة خصمك بالاحترام معناها إعطاؤه ميزة لا حق له فيها»^(٩٣) ، ونحن الذين لم نحس قط ضرباته نغتفر له كل تلك اللطومات والإهانات والأحكام المتحيزة لأن ذكاه وفكاهته ونظرة الثاقب ، وإيثاره الحقائق الواقعية على الادعاءات الكاذبة ، والصراحة على الرياء ، وقد رته على حشد الحكمة في عبارة . — كل هذا يجاه شخصية من أشد الشخصيات سيطرة في التاريخ الانجليزي .

ه -- الفكر المحافظ

أترانا نستمتع إليه يتكلم ؟ لقد كان لديه الطريف الذى يقوله في كل شيء تقريباً تحت الشمس . لقد رأى الحياة خطباً لا رغبة لإنسان في تكراره ،

أكثر الناس « يطبقونه بصبر نافذ ويرحلون عنه كارمين »^(٩٤) . وسجين
سألته الليدى مكليود « أليس هناك إنسان صالح بطبعه ؟ » أجاب « بلى يا سيدتى ،
ليس أكثر صلاحاً من الذئب »^(٩٥) . « واضح أن الناس . . . فاسدون
فساداً لا تكفى معه كل قوانين السماء والأرض لكفهم عن الجرائم . . . »^(٩٦)
والناس يكرهون بأقوى مما يحبون ، وإذا كنت قد قلت شيئاً لأوجع إنساناً
مرة ، فلن أفسد هذا بقول أشياء كثيرة لأسرة »^(٩٧) .

وقلما كان يناقش الاقتصاد . وقد ندد باستغلال شعوب المستعمرات^(٩٨) ،
وأدان الرق بشدة ؛ ومرة أذهل بعض الأساتذة باقتراحه شرب نخب في
صحبة « ثورة الزنوج في جزر الهند الغربية »^(٩٩) . ولكنه ذهب إلى أن « زيادة
أجور العمال اليوميين خطأ ، لأنها لاتعينهم على عيش أفضل . إنما (في رأى
« المتبطل ») تجعلهم أكثر كسلاً ، والكسل مفسدة للطبيعة البشرية »^(١٠٠) .
وكان كبلا كستون يؤمن بقداسة حقوق الملكية ، وكنتقيضه فولتير يدافع
عن الترف لأنه يتيح عملاً للفقراء بدلاً من إفسادهم بالصدقات^(١٠١) . وقد
سبق آدم سميث في الدعوة للمشروعات الحرة^(١٠٢) ، ولكن تكاثر التجار
كان يثيره . « أخشى ألا تتيح زيادة التجارة ، والصراع المتصل على الثروة
الذى تثيره التجارة ، أى أمل في نهاية نتوقعها سريعاً للخداع والغش . . .
إن العنف ينحلي مكانه للمكر »^(١٠٣) . ولم يتظاهر قط باحتقار المال بعد أن
عانى من الفاقة ، وقال « إن أحداً من الناس لم يكتب قط إلا طلباً للمال ،
اللهم إلا إذا كان أحرق »^(١٠٤) . - وفي هذا الرأى يحس لغرور الإنسان .

وقد أحس أننا نغالى في أهمية السياسة (ولندكر الأبيات التى أضافها
لقصيدة جولدسميث « الرحالة ») لست أبالى بمقال ذرة أن أعيش في ظل
شكل دون آخر من أشكال الحكومة »^(١٠٥) ، وإذن « فمعظم خطط الإصلاح
السياسى أشياء مضحكة جداً »^(١٠٦) ، ومع ذلك سخط على « كلاب الهويجز » ،
واقترضى رضاه عن الهانوفرين منحه معاشاً . ووصف الوطنية بأنها « آخر
ملاذ يحتسب به الأوغاد »^(١٠٧) . ولكنه دافع بحجارة الوطنيين الغيورين عن
حق بريطانيا في جزر فوكلند (١٧٧١) . وكان يحس باحتقار للاسكتلنديين
والفرنسيين يكاد يكون شوفينياً .

وكان السباق ، في ١٧٦٣ ، في الدفاع عن النزعة المحافظة قبل بيرك « أن التجربة البشرية ، التي تناقض النظرية باستمرار ، هي المحك الأعظم للحقيقة . وإن نظاماً قام على كشف عدد كبير من العقول هو دائماً أقوى مما يتمحض عنه تفكير عقل واحد »^(١١٨) . وبعد عام ١٧٦٢ كان قانعاً تماماً بالوضع الراهن ، وأثنى على الحكومة البريطانية لأنها « أدنى إلى الكمال من أى شيء عرفناه بالتجربة أو وعاء التاريخ »^(١١٩) . وأعجب بالاستقرار والوفار والامتيازات الطبقية باعتبارها ضرورية للنظام الاجتماعى والتشريع الحنيف^(١٢٠) . « إننى صديق للطاعة ، فهى جد مفضية إلى سعادة المجتمع . . . والخضوع واجب الجهاد . والقناعة فضيلة الفقراء »^(١٢١) . وأحزنه كما يحزن كل جيل :

« ان الطاعة لإنهارت بشكل مؤسف في هذا العصر . فما من رجل له اليوم السلطة التى كانت لأبيه — إلا السعجان . وما من سيد يملكها على خدمه ، وقد تقلصت في كليتنا . أجل ، بل في مدارسنا الثانوية . ولهذا أسباب كثيرة ، أهمها في رأى تكاثر المال تكاثراً شديداً . فالذهب والفضة يدمران الطاعة الإقطاعية . ولكن هناك إلى هذا تراخ عام في الإحترام . فلم يعد ابن يعتمد على أبيه الآن كما كانت الحال فيما مضى . . . وأملئ أن يتمحض هذا التراخي الشديد عن إحكام الزمام كما تتمحض الفوضى عن الطغيان »^(١٢٢) .

وحكم جونسن من واقع تأمله للجماهير لندن بأن الديمقراطية ستكون وبالا . ونخر من الحرية والمساواة باعتبارهما شعارات غير عملية^(١٢٣) . « ليس صحيحاً على الإطلاق أن الناس متساوون بالطبيعة ، فما من شخصين يجتمعان معاً نصف ساعة إلا اكتسب أحدهما تفوقاً واضحاً على الآخر »^(١٢٤) . وفى ١٧٧٠ كتب كراسة عنوانها « الإنذار الكاذب » ، أدان فيها الراديكالية وبرر إقصاء ولكس عن البرلمان .

وفى كراسة أخرى عنوانها « الوطنى » (١٧٧٤) جدد جونسن هجومه على ولكس ، وانتقل إلى ما وصفه بوزويل بأنه « محاولة لفرض التسليم غير المشروط على إخواننا الرعايا في أمريكا »^(١٢٥) . وكان جونسن قد

تحدث في كتابات سابقة عن المستعمرات الأمريكية بخياد عرضي ، فرأى أنها « اختطفت دون استناد إلى مبادئ سياسية عادة جداً » ، وذلك إلى حد كبير راجع إلى أن دولاً أوروبية أخرى كانت تختطف المستعمرات بأفراط^(١١٦) ، ولأن إنجلترا أرادت حماية نفسها من بلدين — فرنسا وأسبانيا — أصبحتا قوتين إلى حد يهدد بالخطر بسبب التماهيما لأمريكا . وكان قد امتدح المستعمرين الفرنسيين على معاملتهم المنوود معاملة رحيمة وعلى الزواج منهم ، وأدان المستعمرين البريطانيين اغشهم للهنود وظلمهم للزواج^(١١٧) . ولكن حين راج المستعمرون يتحدثون عن الحرية ، والعدالة ، والحقوق الطبيعية ، احتقر جونسن دعاواهم لأنها رياء خداع ، وتساءل « اما بالناس نسمع أعلى نباح عن الحرية بين جلالي العبيد الزواج ؟ »^(١١٨) . ثم بسط الرأي المعارض لتحرير المستعمرات في كراسة قوية عنوانها « فرض الضرائب ليس طغياناً »^(١١٧٥) ، والظاهر أنها كتبت بناء على طلب الوزارة ، لأن جونسن اشتكى (فيما يروى بوزويل) من أن معاشه منح له « بوصفه شخصية أدبية » ، وها هو الآن « تطلب إليه الحكومة أن يكتب كراسات سياسية »^(١١٩) .

وكانت حجة جونسن أن المستعمرين بقبولهم حماية بريطانيا العظمى قد أقروا ضمناً بحق الحكومة البريطانية في فرض الضرائب عليهم . وفرض الضرائب ، إذا توخينا الإنصاف ، لا يقتضي تمثيل الأشخاص المفروضة عليهم الضرائب تمثيلاً مباشراً في الحكومة ، ونصف سكان إنجلترا لا ممثلون لهم في البرلمان ، ومع ذلك قبلوا فرض الضرائب عليهم مقابل اعدلا لما توفره الحكومة من نظام اجتماعي وحماية قانونية . وقد ذهب هوكنز — وهو الذي أمد جونسن بحججه^(١٢٠) — إلى أن هذه الكراسة « فرض الضرائب ليس طغياناً » « لم تتلق رداً قط »^(١٢١) ، أما بوزويل ، الذي تذكر كورسيكا ، فقد انحاز إلى صف الأمريكيين ، وأسف على ما في قلم جونسن من « عنف بالغ » ، وقال « لست أشك في أن هذه الكراسة كتبت بناء على رغبة أولئك الذين كانوا يومها يتقلدون زمام الحكم ، والحق أنه اعترف لي بأن بعض هؤلاء راجعها واختصرها »^(١٢٢) . وقد تنبأت فقرة حذفها الوزارة بأن

الأمريكان « سوف يكونون بعد قرن وربع أكثر من أنداد لسكان أوروبا الغربية » (١٢٣) .

وكان في فلسفته السياسية بعض العناصر اللبرالية . وقد أثر فوكس على بت الثانى ، وأقنعه بعضهم بتناول العشاء مع ولكس ، الذى تغلب على مبادئ جونسن السياسية بإعطائه قدرأ من لحم العجل اللذيذ (١٢٤) . وداعب المحافظ العجوز الثورة في إحدى فقراته فقال :

« إذا تأمنا بالنظرة المجردة التوزيع غير المتكافئ لمباهج الحياة . . . وإذا وضح لنا أن الكثيرين تعوزهم ضروريات الطبيعة ، وأكثر منهم ما تتيحه الحياة من أسباب الراحة والدعة ، ورأينا الكسالى يعيشون في رغد على متاعب الكادحين ، والمترفين ينعمون بأطاييب لا يدوقها من يوفرونها ، وإذا كان السواد الأعظم لابد مفتقر دائماً إلى ما تستمتع به القلة وتبدده دون نفع ، بدا لنا من المستحيل أن نتصور أن سلام المجتمع يمكن أن يطول أمده ، وأدنى إلى الطبيعة أن نتوقع ألا يترك إنسان طويلاً وفي جوارته مباهج فائضة عن حاجته بينما يفتقر هؤلاء الكثيرون إلى الضروريات الحقيقية » (١٢٥) .

على أن نزعتة المحافظة كانت ترتد بكل عنفوانها حين يتكلم على الدين . فبعد أن أنفق سنة من التشكك في شبابه (١٢٦) ، راح يؤيد عقائد الكنيسة الرسمية وامتيازاتها تأييداً متزايد الحرارة ، وكان أحياناً يميل نحو الكاثوليكية : فقد أعجبته فكرة المطهر ، وحين سمع أن قسيساً إنجليكياً تحول إلى كنيسة روما قال « ليباركه الله » (١٢٧) . ويقول بوزويل إنه « دافع عن ديوان التفتيش ، وذهب إلى أن العقيدة الزائفة يجب أن توقف بمجرد ظهورها ، وأن على السلطة المدنية أن تتحد مع الكنيسة في عقاب من يجرمون على مهاجمة الدين المقرر ، وأن أمثال هؤلاء دون غيرهم هم الذين كان ديوان التفتيش يعاقبهم » (١٢٨) . وكان يكره المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ورحب بطرد المشودين من أكسفورد (١٢٩) . وقد رفض أن يتحدث إلى سيدة هجرت الكنيسة الرسمية للتنضم إلى طائفة الكويكر (١٣٠) . ووبخ بوزويل على صداقته المعتدلة لطبوم « المالمح » . وحين أخبره آدم سميث أن هيوم يحيا حياة يضرب بها المثل ، صاح به جونسن « أنت تكذب : » ورد

عليه سمح فوراً « أنت ابن قحبة » (١٣٢). وقد أحس جونسن أن الدين أمر لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والأخلاق ، وأن الرجاء المنتقد على خلود سعيد هو وحده الذى يستطيع حمل الإنسان على تقبل شدايد الحياة الدنيوية . وقد آمن بالملائكة والشياطين ، وذهب إلى « أننا جميعاً كتب لنا أن نساكن فى الآخرة اما فى مواطن الهول أو السعادة » (١٣٢). ثم قبل الوجود الحقيقى للساحرات والعفاريت ، وأعتقد أن زوجته المتوفاه قد ظهرت له فى المنام (١٣٣).

ولم يكن يهتم بالعلم ، وقد امتدح سقراط على محاولته نقل البحث من النجوم إلى الإنسان (١٣٤). وكان يستفزع تشريح الحيوان الحى . ولم يثر الارتياح الجغرافى اهتمامه ، فاكتشف الأراضى المجهولة لن يفضى إلا إلى الغزو والصوصية (١٣٥). وذهب إلى أن الفلسفة متأهة عقلية تؤدى إما إلى الشك الدينى أو إلى الهراء الميتافيزيقى . ومن ثم فند مثالية باركلى برفض حجر ، ودافع عن حرية الإرادة بقوله لبوزويل « نحن عليمون بأن إرادتنا حرة ، وهذا يكفى لإنهاء المسألة . . . ان النظرية كلها ضد حرية الإرادة ، وللتجربة كلها معها » (١٣٦).

وقد رفض باشمئزاز فلسفته التنوير الفرنسى بأسرها . وأنكر حق العقل المفرد مهما عظم ذكاؤه فى أن ينصب نفسه حكماً على أنظمتها شيئاً فشيئاً تجربة المحاولة والخطأ التى خاضها النوع الإنسانى لحماية للنظام الاجتماعى من دوافع البشر غير الاجتماعية . وأحس أن الكنيسة الكاثوليكية مع كل ماأخذها تؤدى وظيفة حيوية فى صيانة الحضارة الفرنسية ، وحكم بالغفلة والضمحل على جماعة الفلاسفة الفرنسيين الذين يوهنون الركائز الدينية للناموس الأخلاقى . وقد بدا له فولتير وروسو نوعين من البلهاء : ففولتير مغفل عقلى ، وروسو مغفل عاطفى ، غير أن الفرق بينهما من الضلالة بحيث « يعسر تقرير نسبة الإثم فيما بينهما » (١٣٧). وقد وبخ بوزويل على تودده لروسو فى سويسره ، وأسف لكرم الضيافة الذى بذلته انجلترا

« لإميل » (١٧٦٦) . « إن روسو يأسىدى رجل شرير جداً . ولأنى أن أتردد فى أن أوقع على حكم بنفيه بأسرع مما أوقعه على أى جان أدانته

محكمة الجنايات على مدى هذه السنين الكثيرة . أجل يا سيدى ، أود لو أكره على الشغل فى المزارع الكبيرة » (١٣٨) .

على أن جونسن لم يكن محافظاً فى حياته بقدر ما كان فى آرائه . فكان يخرج فى مرح على عشرات التقاليد فى السلوك . والحديث ، واللباس . ولم يكن متمزماً ؛ ضحك على البيورتان ، وحيد الرقص ، ولعب الورق ، والمسرح . ولكنه أدان قصة فيلدنج « توم جونسن » ، وصدمه أن يسمع أن حنه مور المحتشمة قرأتها (١٣٩) . وكان يخشى النزعة الحسية فى الأدب لأنه وجد مشقة فى كبت خياله ودوافعه الحسية . وربما كان يخيّل للناس من واقع عقائده أنه لم يستمتع بالحياة . ولكن فى استطاعتنا أن نرى فى بوزويل أنه استمتع بـ « ملء الوجود البشرى » . لقد حكم على الحياة بأنها مؤلمة حقيرة ، ولكنه كمعظمنا طاوولها ما استطاع . وواجه سنيه الأخيرة فى كره غاضب .

٦ — الحريف

فى عام ١٧٦٥ انتقل من الأثر تمبل إلى بيت دى طوابق ثلاثة فى رقم ٧ بجونسز كورت بفليت سريت ، وكان قد أطلق عليه اسم ساكن قبله . هناك وجدته بوزويل بعد أن عاد من أوروبا . وفى يوليو منحه جامعة دبلن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون ، فأصبح الآن لأول مرة « الدكتور جونسن » ، ولكنه لم يلحق هذا اللقب باسمه قط (١٤٠) .

وفى أكتوبر ١٧٦٥ أصدر ، فى مجلدات ثمانية ، مسرحيات شكسبير التى تحمل تحقیقاته وتعليقاته ، بعد أن أنقضت ثمانية أعوام على الموعد الذى وعد به المکتبین فيها . وقد جرؤ على بیان ما فى مسرحيات الشاعر من أخطاء وصحافات وآراء طنانة صبيانية ، ولامه لافتقاره إلى الهدف الأخلاقى ، وذهب إلى أن شكسبير « ربما لم يخلف مسرحية واحدة لو عرضت الآن على أنها من تأليف كاتب معاصر لما استمع إليها جمهور النظارة إلى نهايتها » (١٤١) . ولكنه امتدح الشاعر على تحكمه فى عنصر الحب المشوق فى الدرامات الكبرى ، وعلى جعله كبار شخصه ناساً لا أبطالا ، ودافع فى قوة عن إهمال شكسبير لوحدتى الزمان والمكان ، ذلك الإهمال الذى أخذه

فولتير على شكسبير^(١٤٢) . وقد تحدى النقاد الكثير من تعليقاته وتصويباته ، وحل محل هذه الطبعة طبعة أصدرها إدموند مالون في ١٧٩٠ ، ولكن مالون اعترف بأن طبعته مبنية على طبعة جونسن ، وغالى في تقدير مقدمة جونسن فقال إنها « ربما كانت أروع التأليف في لغتنا »^(١٤٣) .

وفي ١٧٦٧ ، بينما كان جونسن يزور قصر بكنجهام ، التقى بمصادفة بجورج الثالث ، فتبادل الرجلان عبارات المجاملة . ثم أصبحت صداقته ببوزويل أثناء ذلك حميمة ، فقبل جونسن في ١٧٧٣ دعوة الرجل المعجب ليصحبه في رحلة إلى جزر الهبريد . وكانت مغامرة شجاعة لرجل في الرابعة والستين . وبدأت بسفرة طويلة شاقة في مركبة بريد من لندن إلى إدنبره . وهناك التقى بروبرتسن ، ولكنه أبى أن يقابل هيوم . . وفي ١٨ أغسطس بدأ هو وبوزويل وخادم لهما الرحلة شمالاً في مركبة أجرة على الداحل الشرقي إلى أبردين ، ومن هناك شقوا طريقهم عبر إقليم المرتفعات الوعر مخترقين بأنف إلى انفرنس ، ثم على ظهور الخيل أكثر الرحلة مروراً بآنوخ إلى جيلينيلج على الساحل الغربي . وهناك استقلاً قارباً إلى جزيرة سكاى ، التي جابا أرجاءها كلها تقريباً من ٢ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر . وقد كابدا مشاق كثيرة تقبلها جونسن في شجاعة صارمة ، فنام فوق الدريس في الأجران ، ودب عنه الهوام ، وتسلق فوق الصخور ، وركب في وقار قلق أفراساً لا تكاد تفوقه حجماً . وفي إحدى وقفاتهما جلست سيدة من قبيلة مكدونلد على ركبته وقبلته فقال لها « أعيدي ، ولنرى من منا يتعب قبل الآخر »^(١٤٤) . وفي ٣ أكتوبر ركب كلاهما قارباً مكشوفاً مسافة أربعين ميلاً إلى جزيرة كول ، ومنها إلى جزيرة مل . ثم عبرا رجوعاً إلى البر الأم في ٢٢ أكتوبر ، ثم سافرا مخترقين أرجلشير بطريق دمبارتن وجلاسجو إلى أوخنلك (٢ نوفمبر) . هناك التقى جونسن بوالد بوزويل ، الذي احتفى به احتفاء كبيراً ، وإن أسف لنحماه على الاسكتلنديين ، وخاضاً في جدل بلغ من العنف حداً رفض معه بوزويل أن يسجله . وبعدها لقب بوزويل الأبب جونسن « الدب الأكبر » وهو لقب فسرّه الابن في لياقه بأنه لايعنى

الذبح الأكبر بل « برجاً للعبقريّة والعلم » (١٤٥) . ووصل المسافران إلى إدنبره في ٩ نوفمبر ، بعد أن رحلا عنها بثلاثة وثمانين يوماً . فلما انداكرا المشاق التي لقيهاها ، « ضحكنا من قلبهما على هذين أولئك الحالمين السخفاء الذين حاولوا اقناعنا بما تتيحه الحالة الطبيعيّة من منافع خداعة » . « وغادر جونسن إدنبره في ٢٢ نوفمبر ، فبلغ لندن في السادس والعشرين . وفي ١٧٧٥ نشر كتاب « رحلة إلى جزر اسكتلنده الغربيّة » ، ولم يكن بالكتاب النابض بالحياة ، حتى إذا قورن بالوصف المذهب ، الذي أصدره بوزويل في ١٧٨٥ بعنوان « يوميات جولة في الهيريد مع صموئيل جونسن » ، وذلك لأن الفلسفة أقل إمتاعاً من الترجمة ، ولكن في بعض الفقرات (١٤٦) جالا هادئاً يبدى لنا جونسن مرة أخرى ربا للذئب الانجائزي .

وفي ابريل ١٧٧٥ اقتنعت أكسفورد أخيراً بمنح جونسن درجة الدكتوراه الفخرية في القانون المدني . وفي مارس ١٧٧٦ غير مسكنه لآخر مرة ، فانتقل إلى المنزل رقم ٨ بيوات كورت ، مصطحباً معه أسرته المختلطة . ثم كتب إلى كبير أمناء الملك (١١ ابريل ١٧٧٦) في حالة نفسية غريبة من المرح يطلب شقة في قصر هامتن كورت فقال « أرجو ألا يكون الاعتكاف في أحد بيوت جلالته تجاوزاً في غير موضعه أو دون استحقاق لرجل شرف بالدفاع عن حكومة جلالته » (١٤٧) . ورد كبير الأمناء أسفاً لكثرة عدد الطلاب .

وبقى لإنجاز أخير للأديب . ذلك أن أربعين كتبياً لندنياً اشتركوا في اعداد طبعة متعددة الأجزاء موضوعها الشعراء الانجليز ، وطلبوا إلى جونسن أن يقدم لكل شاعر بترجمة له . وتركوا له تحديد شروطه ، فطلب مائتي جنيه . قال مالون « لو أنه طلب ألفاً أو حتى ألفاً وخمسمائة من الجنيهات ، لما تردد الكتيبيون في العطاء وهم العليحون بقيمة اسمه » (١٤٨) . وكان جونسن قد فكر في كتابه « سير قصيرة » ، وفاته أن من أصول الكتيبة أن القلم الجارى ، كالمادة في قانون نيوتن الأول ، يواصل جريانه ما لم تكرمه على تغيير تلك الحالة قوى مفروضة عليه من الخارج . ولقد كتب عن صغار الشعراء بإنجاز

محمود ، أما عن ملتن ، وأديسن ، وبوب ، فقد أطلق لقلمه العنان ، وأنشأ مقالات — من ستين صفحة واثنين وأربعين ومائة واثنين — تعد من أروع نماذج النقد الأدبي في الانجليزية .

وقد تلون حكمه على ملتن بكراهيته لليورتان وسياستهم وقتلهم للملك . وقرأ نثر ملتن كما قرأ شعره ، ووصفه بأنه « جمهورى قاس فظ » (١٤٩) . أما مقاله عن بوب (الذى بلغ فى الطبعة الأصلية ٣٧٣ صفحة) فكان آخر ، ضربة فى الدفاع عن الأسلوب الكلاسيكى فى الشعر الانجليزى يضربها أعظم وريث لذلك الأسلوب فى النثر الانجليزى . لقد رأى ، وهو المالك لخاصية اليونانية أن ترجمة بوب للألياذة تفضل هومر . وامتدح مرثية جراى ، ولكنه رفض قصائده الغنائية لاكتظاظها فى غير نظام بالأرباب الأسطوريين . وحين نشرت المجلدات العشر من « حياة الشعراء » (١٧٧٩ - ٨١) ، صدمت بعض القراء أحكام جونسن التى كانت غير تقليدية ولكنها متعالية قاطعة ، وعدم إحساسه بطائف الشعر الرهيفة ، وميله لتقدير الشعراء أو الخط من أقدارهم تبعاً للاتجاه الأخلاقى الذى تنحى إليه قصائدهم وحياتهم . وقد صرح ولبول بأن « الدكتور جونسن لا يملك ولا ريب من الذوق ولا السمع ولا معيار النقد إلا ميوله المغرضة العجائزية » (١٥٠) . ويخبر من « هذا الهيكل الثقيل القائم على طولتين » ، والذى يبدو أنه قرأ القدامى دون هدف إلا سرقة الألفاظ المتعدد المقاطع (١٥١) . فلم إذن فاقت هذه « السير » فى ذبوعها وشغف القراء بها أى ثمرة أخرى من ثمرات قلم جونسن ؟ ربما بسبب تلك الميول المغرضة والصراحة فى الإعراب عنها . فلقد جعل النقد الأدبى قوة نابضة بالحياة ، وأوشك أن يبعث الموتى من قبورهم بضرباته القاسية .

٧ - الإفراج : ١٧٨١ - ٨٤

نحن نحس بالفخر بيننا وبين أنفسنا حين يمتد بنا العمر بعد موت معاصرينا ، ولكننا نعاقب بشعور الوحدة ، وهكذا كان موت هنرى ثريل (٤ ابريل ١٧٨١) البداية لنهاية جونسن . وقد قام بمهمته بصفته أحد أربعة كانوا منفذين لوصية صانع الجعة . ولكن زيارته لأسرة ثريل قامت بعد ذلك .

وكانت السيدة ثريل قد بدأت قبل موت زوجها بأمد طويل تضيق بالضغط التي تفرضها عليها حاجة جونسن لرعاية والآذان الصاغية . وكان ثريل قد أفلح في جعل دبه الأسير يسلك سلوكاً مهذباً إلى حد معقول ، ولكن (وهذه شكوى الأرملة) « إذا لم يوجد من يردعه (أى جونسن) عن التحدى في إبداء مكارهه أصبح عسيراً جداً أن تجد إنساناً يستطيع التحدث إليه دون العيش دائماً على شفا الشجار . . . وقد وقعت أمثال هذه الحوادث مراراً وتكراراً ، فاضطررت . . . إلى الاعتكاف في بات ، حيث كنت أعلم أن المستر جونسن لن يتبعني » (١٥٢) .

وزادت صحيفة المورنيج بوست العن بلة بإعلانها أن معاهدة زواج بين جونسن والمستر ثريل « جاهزة » (١٥٣) . وكتب بوزويل نشيداً هزلياً (براسك) عنوانه « نشيد بقلم جونسن إلى مسز ثريل بمناسبة زفافهما القريب المزعوم » (١٥٤) . ولكن في ١٧٨٢ كان جونسن في الثالثة والسبعين والمستر ثريل في الحادية والأربعين . ولم تكن قد تزوجت ثريل بإرادتها هي ، وكثيراً ما كان يهملها ، ولم تتعلم قط أن تحبه . ومن ثم فقد طالبت الآن بحقها في أن تحب وأن تحب ، وفي أن تجد زوجاً في نصف عمرها الأخير . وكانت في تلك السن التي يشتد فيها شوق المرأة لنوع من الصحبة البدنية المتفهمة . وكانت حتى قبل موت زوجها قد تعلقت بجابريل بيوتزى الذى كان يعطى بذاتها دروساً في الموسيقى ، وكان وهو الإيطالى مولداً قد اتخذ انجلترا له مقاماً في ١٧٧٦ ، وناهر الآن الثانية والأربعين . ويوم لقيته أول مرة في حفلة أقامها الدكتور بيرنى . راحت تقلد لآزماته تقليداً ساخراً وهو يعزف على البيان . بيد أن سلوكه الأنيق . وطبعه اللطيف ، ودهارته الموسيقية . جعلت منه نقيضاً مريحاً للدكتور جونسن . وأرخت الآن العنان لغرامها بعد أن تحررت . واعترفت لبناتها الأربع الباقيات على قيد الحياة برغبتها في الزواج . فهاهن النبأ ، ذلك أن هذا الزواج الثانى سيؤثر في مستقبلهم المالى . والزواج من موسيقى — وأسوأ من ذلك كاثوليكي رومانى — سينال من مكانتهن في المجتمع . لذلك توسلن إلى أمهن أن تروى في الأمر . فحاولت وكننا فشلت . وسلط بيوتزى مسلك الرجل المهذب ، فحل إلى إيطاليا

(ابريل ١٧٨٣) وغاب قرابة عام . فلما عاد (مارس ١٧٨٤) ووجد أن المسز ثريل مازالت تواقه للزواج منه استسلم للأمر . ورفض البنات الموافقة ، وانتقلن إلى برايتن .

وفي ٣٠ يونيو أرسلت مسز ثريل إلى جونسن إعلاناً ينبئه بأنها وبيوتري قررا الزواج . فأرسل إليها هذا الرد (٢ يوليو ١٧٨٤) .

سيدتي :

لو أننى أصبت في تفسير رسالتك لقلت إنك تزوجين زواجا شائنا ، فإذا كان لم يعقد بعد ، فدعينا نقلب الأمر معاً مرة أخرى . ولو كنت قد تخلت عن بناتك وعن دينك ، فليغفر الله لك شرك ، ولو كنت قد خسرت سمعتك ووطنك ، فأرجو ألا تأتى حماقتك مزيداً من الشر . وإذا كنت لم تتخذى بعد آخر خطوة ، فإننى — أنا الذى أحبيتك ، وقدرتك ، واحترمتك ، وخدمتك ، أنا الذى طالما رأيتك الأولى بين جنس النساء — أتوسل إليك أن أراك مرة أخرى قبل أن يصبح مصيرك لا رجعة فيه .

لقد كنت ، ذات مرة يا سيدتى ، المخلص لك جداً

صموئيل جونسن (١٥٥)

وساعت المسز ثريل كلمة « شائن » لأنها رأته وصمة لخطيها ، فردت على جونسن فى ٤ يوليو تقول : « لنكف عن التحدث حتى تغير رأيك فى مسز بيوتري » ثم تزوجت بيوتري فى ٢٣ يوليو ، ووافقت لندن كلها جونسن على إدانتها . وفى ١١ نوفمبر قال جونسن لفانى بيرنى ، « إننى لا أتحدث عنها أبدا ، ولا رغبة لى مطلقاً فى سماع المزيد عنها » (١٥٦) .

ولا بد أن هذه الأحداث هدت من حيوية جونسن المتهافته . فاشتد أرقه ، ولجأ إلى الأفيون ليخفف آلامه ويهدئ أعصابه . وفى ١٦ يناير ١٧٨٢ مات طبيبه روبرت ليفت . وتساءل جونسن : على من يكون الدور بعده ؟ لقد كان يرهب الموت دائماً ، ومن ثم أحال هذا الخوف وإيمانه بالبحيم سنيه الأخيرة خليعاً من وجبات العشاء الثقيلة والمخاوف اللاهوتية . وقال للدكتور ولیم آدمز عميد كلية بمبروك « أخاف أن أكون واحداً من

الهاالكين» . فلما سأله آدمز ماذا يعنى بكلمة «الهاالكين» صاح «الذين ماتهم إلى النار والعقاب الأبدى يا سيدى» (١٥٧). ولم يملك بوزويل إلا المقارنة بين هذه الحال وبين السكينة التى كان هيوم الماحد قد دنا بها من منيته (١٥٨) .

وفى ١٧ يونيو ١٧٨٣ أصيب جونسن بنقطة خفيفة «تشوش وخلط» فى رأسى أظنه دام نصف دقيقة . . وقد احتبس لسانى . ولم أشعر بألم» (١٥٩). وبعد أسبوع تماثل للشفاء تماثلاً أتاح له تناول العشاء فى النادى ، وفى يوليو أذهل أخصاءه بالقيام برحلات إلى روتشستر وسليزبرى . قال هوكنز «أى رجل أنا ، رجل قهر ثلاثة أمراض - الشلل ، والنقرس ، والربو - ويستطيع الآن الاستمتاع بحديث الأصدقاء !» (١٦٠) ولكن فى ٦ سبتمبر ماتت مسز وليمز ، وبأنت وحدته لا تطاق . فلما وجد «النادى» غير كاف - لأن العديد من أعضائه القدامى (جولدسميث ، وجاريك ، وبوكلارك) ماتوا ، ولأن بعض أعضائه الجدد كانوا كريهين فى نظره ، أنشأ (ديسمبر ١٧٨٣) ، «نادى المساء» الذى كان يعقد اجتماعاته فى مشرب للجمعة بشارع اسكس . هناك كان فى وسع أى شخص مهذب ، إذا دفع ثلاثة بنسات ، أن يدخل ويستمع إليه يتحدث ثلاث ليال كل أسبوع . ودعا رينولدز للانضمام ، ولكن السر جوشوا رفض . ورأى هوكنز وغيره فى النادى الجديد «تدهوراً فى تلك القدرات التى كانت تبهج «أشخاصاً أكثر مهابة» (١٦١) .

وفى ٣ يونيو ١٧٨٤ كان فى عافية أتاح له الرحلة مع بوزويل إلى لتشفيلد وأكسفورد . فلما عاد بوزويل إلى لندن أقنع رينولدز وأصدقاء آخرين بأن يطلبوا إلى وزير الخزانة توفير مبلغ من المال يمكن جونسن من القيام برحلة إلى إيطاليا ليسترد صحته . وقال جونسن إنه يفضل مضاعفة معاشه . ولكن وزير الخزانة رفض . وفى ٢ يوليو رحل بوزويل إلى اسكتلنده . ولم ير جونسن بعد ها قط .

ذلك أن الربو الذى كان قد تغلب عليه عاوده وزاد عليه الاستسقاء ، كتب إلى بوزويل فى نوفمبر ١٧٨٤ «إن نفسى قصير جداً ، والماء يتزايد

الآن على» (١٦٢). وتوافد عليه رينولدز ، وبريك ، ولا نجتن . وفانى بيرنى وغيرهم ليلقوا عليه تحية وداع أخيرة . ثم كتب وصيته ، وقد خلف ٢,٠٠٠ جنيه . أوصى منها بمبلغ ١,٥٠٠ لحاديه الزنجي (١٦٣) . وعالجه عدة أطباء ، ورفضوا تقاضى أى أجر . وتوسل إليهم أن يشقوا ساقيه شقاً أعمق ، فأبوا ، فلما انصرفوا دفع مريضاً أو مقصداً فى عمق ربلتيه أملاً فى فراغ مزيد من الماء والتخفيف من الورم المؤلم ، وانطلق بعض الماء ، ولكن انطلقت معه أيضاً عشر أوقيات من الدم . فى تلك الليلة ، ليلة ١٣ ديسمبر ١٧٨٤ ، قضى نحبه . وبعد أسبوع دفن فى كنيسة وستمنستر .

لقد كان أغرب شخصية فى تاريخ الأدب ، أغرب حتى من سكارون أو بوب . ومن العسير أن نحبه لأول وهلة ، فقد ستر رفته خلف ستار من الوحشية ، ونافست خشونة عاداته لياقة كتبه . ولم ينل أحد قط مثل هذا الإعجاب الكثير ولا بذل مثل هذا الثناء الضنين . ولكنه كلما تقدم به العمر ازدادت الحكمة فى كلامه . وقد أحاط بحكمته بالتهافتات ، ولكنه رفع هذه التهافتات إلى مستوى جوامع الكلم بقوة حديثه أو تلوينه . ولنا أن نشبهه بسقراط ، الذى كان يتكلم أيضاً لأقل إثارة أو استفزاز ، والذى يذكره الناس بكلامه المنطوق . وكان كلاهما أشبه بلذباب الخيل المنبه ، ولكن سقراط كان يلقى أسئلة ولا يعطى جواباً . أما جونسن فلم يلقى سؤالاً وقد أجاب عن كل الأسئلة . ولم يكن سقراط على يقين من شىء ، أما جونسن فكان على يقين من كل شىء . وقد ناشد كلاهما العلم أن يدع النجوم وشأنها ويدرس الإنسان . وواجه سقراط الموت وواجهه فياسوف وباتسامته ، أما جونسن فواجهه بارتجافات دينية تنافس أوجاعه الموهنة .

وان تجد اليوم إنساناً يراه فى صورة الكمال . وفى وسعنا أن نعرف لم تجنبت الطبقه الاستقرائية الانجليزية وتجاهلت إمارته — خلا لانتجن وبوكلارك. ونحن ندرك أى «جون بول» كان يمكن أن يكون لو جال فى «محف خرف» النبلاء ، أو وسط تحف قصر «ستروبرى هيل» النفسية ، إنه لم يخلق للجمال ، ولكنه أدى مهمة ، هى تخويف البعض ليكفوا عن الرياء والكذب والنفاق والمباغة فى إظهار العاطفة ، وليجعلنا ننظر إلى أنفسنا بأوهام أقل

عن طبيعة البشر أو نشوات الحرية . ولا بد إن كان هناك شيء محبب في رجل استطاع رينولدز ويرك وجولدسميث الاستماع إليه ألف ليلة وليلة ، شيء ساحر في إنسان استطاع أن يوحى بكتابة سيرة عظيمة ، ويملا صفحاتها الآلاف والمائتين بحياة لا يبلها الزمن .

٨ - بوزويل في أيامه الأخيرة

لما مات الدب الأكبر حام حوله قطيع الأدباء ليلتفتوا من جهنمه بعض قوتهم . أما بوزويل نفسه فلم يتعجل ، فقد عكف على « السيرة » سبعة أعوام ، ولكنه أصدر في ١٧٨٥ « يومية جولة في جزر الهبريد مع صموئيل جونسون » ، وقد طبعت ثلاث طبعات في سنة واحدة . وكانت هستر ثريل بيوتري قد جمعت مادة عن أحاديث جونسون وعاداته ، فصنفت الآن من هذه « التريليات » « نواذر عن المرحوم الدكتور صموئيل جونسون ، خلال سنيه العشرين الأخيرة (١٧٨٦) . وقد عرض الكتيب صورة لضيفها أقل اشراقاً مما سجلته من قبل في يوميتها يوماً بيوم ، ولأريب في أن رسائل جونسون الأخيرة لها قد خلقت فيها جرحاً لا يندمل .

ويلي ذلك في الحلقة - إذا خطبنا أكثر من عشرة أسماء طواها النسيان الآن - « سيرة صموئيل جونسون » التي نشرها في خمسة مجلدات فاخرة السرجون هوكنز عام ١٧٨٧ . وكان هوكنز قد لقي من التوفيق في عمله محامياً عاماً ما برز منحه لقب الفروسية (١٧٧٢) وحصل من الثقافة ما أتاح له تأليف كتاب جيد في « تاريخ الموسيقى » (١٧٧٦) . وقد شارك جونسون في تنظيم نادى « آبنى لين » (١٧٤٩) ، وكان أحد الأعضاء الأصليين في « النادى » . ولكنه تركه عقب جدال مع بيرك فلقبه جونسون بـ « الرجل الذى لا يصلح للأندية » . ولكن جونسون ظل صديقه ، وكثيراً ما التمس مشورته ، وقد عينه واحداً من « مفلى وصيته » . وبعد وفاة جونسون بقليل طلب جماعة من الكتبة إلى هوكنز أن يعلق على طبعة تضم آثار الدكتور ويقدم لها بترجمة الأديب . وقد أخذ على هذه الترجمة أنها كشفت عن عيوب جونسون في غير رحمة ، وتشكك بوزويل في دقتها فيما بعد . ولكن

« التهم الموجهة للترجمة لا يمكن إثباتها في تحقيق منصف » (١٦٤). ومعظم العيوب التي أخذها هوكنز على جونسن لاحظها غيره من معاصريه .

ثم عادت المسز بيونزى إلى المأدبة بكتاب عنوانه « رسائل متبادلة مع المغفور له صموئيل جونسن » (١٧٨٨) ، وكلها ساحر ، لأن رسائل جونسن (فيما خلا الأخيرة التي كتبها لسيدته الضالة) كانت تفوق حديثه كثيراً في إنسانيتها . وكان بوزويل خلال ذلك عاكفاً بصير فيما بين قضاياه ومجالس خمره على تأليف سيرة عقد العزم على أن يجعلها نسيج وحدها . وكان قد بدد في تسجيل مذكرات بأحاديث جونسن عقب لقاءهما الأول (١٧٦٣) ، ثم خطط لاسيرة في تاريخ مبكر (١٧٧٢) . غير أن الحبل بهذا الجنين كان غاية في الطول والمشقة . ذلك أنه قلما كان يدون الملاحظات من فوره ، ولم يكن يعرف الاختزال ، ولكنه اتخذ مبدءاً هو أن يدون على عجل وباختصار بمجرد عودته إلى حجرة ما يذكره عما حدث أو قيل . وبدأ كتابة « سيرة صموئيل جونسن » بلندن في ٩ يوليو ١٧٨٦ وتنقل بين أرجاء المدينة باحثاً عن المعلومات يستقيها ممن بقى على قيد الحياة من أصحاب جونسن . وأعانه إدموند مالون ، الأديب المتخصص في شكسبير ، على فرز وتصنيف ذلك الحشد الضخم المضطرب من المذكرات ، وشد أزره ودعم شجاعته حين بدا أنه يوشك أن يستسلم للنساء والشراب بعد أن هذه الفجور والحزن وموت زوجته . كتب بوزويل في ١٧٨٩ - « لن تستطيع أن تتصور أى عناء ، وأى حيرة ، وأى غيظ تحملته في ترتيب عدد هائل من المواد ، وفي ملء الفراغات ، وفي البحث عن أوراق مدفونة بين أشنات من الأكداس ، وكل هذا بالإضافة إلى عناء التأليف والتهذيب . وكثيراً ما فكرت في التخلي عن هذه المهمة » (١٦٥) . وقد اقتبس من كتاب ولیم ميسن « سيرة جرای ورسائله » (١٧٧٤) فكرة بث رسائل بطله في ثنايا القصة . وقد كدس التفاصيل عمداً . لشعوره بأنها تضيف إلى الصورة الكاملة الحية . ثم نسجت من هذه الأشنات رواية مسلسل التواريخ وكل متكامل .

فهل كان دقيقاً ؟ هذا ما زعمه . « لقد توخيت الدقة البالغة في التسجيل

بحيث لا بد أن تكون كل صغيرة أو تافهة صادقة» (١٦٦) . وأنها استطعتنا مقارنة روايته عن كلام جونسن بغيره من الروايات بدأ أنها صحيحة من حيث الوقائع ، وإن لم تكن كذلك من حيث حرفيتها . والمقارنة بين كُتبي بوزويل « المذكرات » و « السيرة » تدل على أنه حول تلخيصه لأحداث جونسن إلى اقتباسات مباشرة ، قد يطاها أحياناً ، أو يقصرها ، أو يحسنها (١٦٧) ، أو ينقيها ، مع تمديد الألفاظ الصغيرة (الرباعية الحروف) إلى أطوال محترمة ، وكان أحياناً يمحذف الوقائع التي لاتخدم مصلحته (١٦٨) . ولم يدع أنه قال كل الحقيقة عن جونسن (١٦٩) ، ولكن حين توسلت إليه حنه مور « ان يالحظ من بعض خشونة جونسن وغلظته » ، رد بأنه « ان يقلم أظافر جونسن ، أو يحيل البرقطة ليسر أى إنسان » (١٧٠) . والواقع أنه كشف عن عيوب أستاذه كشفاً كاملاً كما فعل غيره ، ولكن في منظور أوسع خفف من بروزها . وقد حاول أن يظهر من الرجل في صورته الكاملة ذلك القدر الذى تسمح به المحبة واللياقة . قال « إننى على يقين تام أن المنهج الذى انتهجته فى كتابة السيرة ، والذى لا يكتفى بسرد تاريخ «سيرة» جونسن فى الحياة ، ولمؤلفاته ، بل يضيف نظرة إلى فكره المتمثل فى رسائله وأحاديثه ، هذا المنهج هو أكل منهج يمكن تصوره ، وسيكون أقرب إلى تصوير « حياة » جونسن من أى كتاب ظهر إلى الآن » (١٧١) .

وأخيراً خرجت السيرة من المطبعة إلى النور فى مجلدين كبيرين فى مايو ١٧٩١ ولم يقدره القراء لتوهم كنزاً فريداً فى بابه . وساء كثيرين أن يقص بوزويل أحاديثهم الخاصة ، ولم تكن دائماً مما يستحق الإعجاب ، فقد كان فى وسع الليدى ديانا بوكلاك مثلاً أن تقرأ كيف نعتها جونسن بأنها عاهر ، ورأى رينولدز أين وبخه جونسن على الإفراط فى الشراب ، وعرف برك أن جونسن يتشكك فى نزاهته السياسية ويرى أنه لا يتورع عن التقاط مومس من عرض الطريق ، وجفلت المسز بيوتزى والمسز اليزابث مونتهجو مما قرأتا . وكتب هوراس ولبول يقول « ان الدكتور بلا جدن يقول بحق إن هذا ضرب جديد من القذف ، تستطيع به أن تسب أى إنسان

بقولك ان ميتاً ما قال كذا وكذا عن شخص حى » (١٧٢) . ووجد آخرون أن التفاصيل مسرفة ، وأن كثيراً من الرسائل تافهة ، وأن بعض الصفحات مملة . ولم تدرك إنجلترا إلا شيئاً فشيئاً أن بوزويل قد أبدع رائعة من الروائع ، وأنه أسبغ على حياته شيئاً من النبل والسمو .

وكان أبوه قد مات في ١٧٨٢ مخلفاً إياه سيدهاً على أوخنلثك بدخل بلغ ١,٦٠٠ جنيه في العام وقد أثبت أنه سيد عطوف رقيق الفؤاد ، ولكنه كان قد ألف حياة الحضر ألفاً حال إطلاله المكث في أوخنلثك . وفي ١٧٨٦ صرح له باحتراف الحمامة في إنجلترا ، وبعدها أنفق معظم وقته في لندن . وقد صورته رينولدز في ذلك العام — رجلاً واثقاً من نفسه ، متغطرساً ، له أنف كفيل بأن يستل أي سر من صاحبه . وكانت زوجته تصحبه أحياناً إلى لندن ، ولكنها كانت تقيم في أوخنلثك عادة . وفيها ماتت عام ١٧٨٩ بالغة الحادية والخمسين ، بعد أن أضنتها العناية التي بذلتها لبوزويل وأبنائه . وقد عمر بعدها ست سنين — كانت سنى انحلال متعظم . فلقد حاول مراراً وتكراراً أن يقهر حاجته إلى الشراب ولكنه أخفق . ومات بلندن في ١٩ مايو ١٧٩٥ . بالغا السادسة والخمسين ، ونقل جثمانه إلى أوخنلثك ليدفن فيها . وأوزاره ماثلة اليوم في أذهان جماهير الناس . ولكننا سننساها حين نقرأ مرة أخرى السيرة التي هي أعظم السير طرا .

هذا ولو رجعنا البصر إلى هذا القرن الثامن عشر في الأدب الإنجليزي ، لأدركنا أنه كان قبل كل شيء قرن النثر ، من أديسن ، وسويفت ، وديفو ، إلى ستيرن ، وجيون ، وجونسن ، تماماً كما كان القرن السابع عشر قرن الشعر . من « هاملت » ودن إلى درايدن والفردوس المفقود . وكان صعود العلم والفلسفة ، وهبوط الدين والغيبيات ، وإحياء الوحدات والقيود الكلاسيكية ، كل هذا يرد من حرارة الخيال والآمال ، وعطل من تدفقهما ، وكان انتصار العقل هزيمة للشعر ، في فرنسا وفي إنجلترا على حد سواء . بيد أن ما اتسم به أدب إنجلترا النثري في القرن الثامن عشر من حيوية وتنوع عوض تعويضاً وافياً عن الشكلية الجامدة التي سادت شعره . وبفضل

رتشر دسن وفيلدينج أصبحت الرواية ، التي كانت قبلهما سلسلة إيزودية من مغامرات المتشردين والشطار ، وصفاً للحياة ونقداً لها . ودراية للعادات ، والأخلاق ، والشخصيات . هي أكثر إثارة من سجلات المؤرخين . الذين تاه منهم الناس وسط الدولة . ثم أى تأثير أدبي يمكن أن يضارع في ذلك العصر تأثير رتشر دسن على بريفو ، وروسو ، وديندرو ، وجوته ؟

وإذا كان أدب إنجلترا في القرن الثامن عشر لم يستطع مطاولة أدب القرن السابع عشر ، أو منافسة الخيال الأليزابيثي المخلق ، فإن حياة إنجلترا بحملتها استعادت حركتها صعوداً بعد إخفاق الشجاعة والسياسة القوميتين في عهد عودة الملكية . فلم تشعر إنجلترا منذ هزيمة الأرمادا بمثل هذا التدفق في المغامرة والسياسة ، وقد شهدت الأعوام الواقعة بين صعود شاتام وموت ابنه الثورة الصناعية تحل إنجلترا مكاناً أسبق كثيراً من منافسيها في روح الابتكار والقوة الاقتصادية . وشهدت البرلمان الانجليزي يغزو القارات وهو يكبح أثناء ذلك جراح ملوكه . فالآن بذت الامبراطورية البريطانية المتراصة ، والآن تجاوزت قاعات مجلس العموم بالخطب البليغة التي لم تسمعها أوروبا منذ أيام شيشرون . وبينها كانت فرنسا تنزع خزائنها لتحرر أمريكا ، وتضرب عنقها لتحقيق أحلامها ، شحذت إنجلترا كل مواردها من فكر وإرادة لتتطور دون ثورة ، ولتلق أبواب القرن التاسع عشر في الاقتصاد والحكم مكللة بالنصر متبوءة أسمي مكان .

الكتاب السابع

انهار فرنسا الإقطاعية

١٧٧٤ - ٨٩

الفصل الرابع والثلاثون

البهاء الأخير

١٧٧٤ - ٨٣

١ - ورثة العرش : ١٧٥٤ - ٧٤

كان لويس السادس عشر الابن الثالث للدوفن لوى دفرانس . الذى كان الابن الشرعى الوحيد للويس الخامس عشر . وقد لقب الدوفن بلويس البدين لأنه كان أكلولا . وقد حاول التغلب على سمته بالصيد، والسباحة ، وقطع الأشجار ، ونشر الخشب ، واشتغال بالحرف اليدوية^(١) . واحتفظ طول حياته باحترامه للكنيسة ، وكان أعز أصدقائه هم القساوسة ، وكان شديد الخجل من فسق أبيه . وقد أدمن القراءة ، وقرأ فيما قرأ مونتسكيو وروسو ، وآمن بالرأى القائل « إن الملك ليس إلا الوكيل على موارد الدولة »^(٢) . وضمن على نفسه برحلة خلال فرنسا ، لأن « شخص بجملته لايساوى ما تكلفه الرحلة للشعب الفقير »^(٣) . ومما يجدر بالملاحظة أن الكثير من خلقه وعاداته وأفكاره تجدر إلى ولده لويس السادس عشر .

أما زوجته ، مارى - جوزيف السكسونية ، المرأة الفاضلة الخلق ، القوية البدن ، فقد ولدت له ثمانية أطفال ، ومنهم لوى - جوزيف ، دوق برجنديه ، الذى قتل فى حادث عام ١٧٦١ ، ولوى - أوجست ، دوق بيرى ، المولود فى ٢٣ أغسطس ١٧٥٤ ، والذى سيصبح لويس السادس عشر ، ولوى - ستانسلاس ، كونت بروفانس ، المولود فى ١٧٥٥ ، والذى سيصبح لويس الثامن عشر ، ثم شارل - فليب ، كونت دارتوا ، المولود فى ١٧٥٧ ، والذى سيصبح شارل العاشر . فلما مات أبوهم عام ١٧٦٥ أصبح لوى - أوجست ، البالغ أحد عشر عاماً ، وارثاً للعرش .

وكان غلاماً عليلاً ، جباناً خجولاً ، ولكنه اكتسب الصحة والعافية بفضل سنوات الحياة الريفية والطعام البسيط . وكان كأبيه فيه من الطيبة أكثر مما فيه من الذكاء . وكان يحسد أخوته على ذكائهم المتفوق ، وكانوا يتجاهلون تماماً كبر سنه . وإذا كان فيه من الحياء ما يمنعه من الرد على الهجوم فقد أغرق نفسه في الرياضة والحرف ، فتعلم الرماية بمنتهى الدقة ، ومنافسة الصنّاع في استعمال يديه وأدواته ، وقد أعجب بمهارات الصنّاع الذين يخدمون القصر ، وأحب التحدث إليهم والعمل معهم ، واتخذ شيئاً من طباعتهم وحديثهم . ولكنه أحب الكتب أيضاً ، واستهواه فنيلون بنوع خاص ، وحين بلغ الثانية عشرة ركب مطبعة في قصر فرساي ، وبمساعدة أخويه (وكانا في التاسعة والحادية عشرة) جمع حروف مجلد صغير نشره في ١٧٦٦ بعنوان « حكم أخلاقية وسياسية مستقاة من تلميذك » ولم يحب جده لويس الخامس عشر هذه الحكم وقال « انظر إلى ذلك الولد الكبير ، سوف يكون القاضي على فرنسا وعلى نفسه ، ولكن على أية حال إن أعيش حتى أرى ذلك » (٤) .

فكيف السبيل إلى تحويل هذا الأمير الصانع ملكاً ؟ أمكن العثور على زوجة منبهة له تبهب الشجاعة والآباء ، وتلد له ملوكاً من البوربون للمستقبل ؟ وأما الحاكم الحالي فكان في شغل عن هذا بدمام دوباري ، ولكن شوازيل وزير الخارجية تذكر أيامه التي قضاه في بلاط فيينا ، وتذكر أرشيدوقة مريحة تدعى ماريّا أنطونيا يوزيفا ، كانت آنئذ (١٧٥٨) في الثالثة من عمرها ، فلعل زواجهما من لوى — أوجست ينفع روحاً جديدة في ذلك الحلف النمساوي الذي أضعبه الصالح المفرد المبرم بين فرنسا وإنجلترا (١٧٦٢) ، وكان الأمير فون كاونتز قد أسر بمثل هذه الأفكار لاكونت فلوريمند مرسي دارجنتو ، وهو نبيل من ليميج ذو ثراء عريض وقلب طيب ، وكان سفيراً للنمسا في فرساي . واستمع لويس الخامس عشر للنصيحة التي أجمعها عليها ، وأرسل (١٧٦٩) رسمياً إلى ماريّا تريزا يطلب يد ماريّا أنطونيا لوى — أوجست وأسعد الإمبراطورة أن تبارك اتحاداً كانت هي نفسها قد خططت له منذ عهد بعيد . وأما الدوفن الذي لم يؤخذ رأيه في الأمر ، فقد

قبل طائعاً هذا الاختيار الذى رتب له . وحين أنبىء بأن خطيبته أميرة حسناء ، قال فى هدوء « ليّتها حسنة الخلال » (٥) .

ولدت بفيينا فى ٢ نوفمبر ١٧٥٥ . ولم تكن بالطفلة الوسيمة . فجبينها مفرط الارتفاع ، وأنفها مسرف فى الطول والتدب ، وأسنانها غير منتظمة ، وشفها السفلى غليظة . ولكن سرعان ما عرفت أن دمها أزرق ، فتعملت أن تمشى مشية من ولدت لكى تكون مملكة ، وأعادت الطبيعة بأكسير الشباب العجيب حين أدركت سن البلوغ لف جسمها لفاً ساحراً ، حتى غدت بشعرها الأشقر الحريرى ، وبشرتها الزنبقية الوردية ، وعينها الزرقاوين العابتين المتألفتين ، و « عنقها الإغريقى » على الأقل لقمة لذيدة لولى عهد ، ان لم تكن طبقاً شهياً للملك . وكان ثلاث من شقيقاتها الخمس اللاتى يكبرنها قد هيأت لهن الامبراطورة بدهاشها زيجات لينة : فماريا كرسستينا تزوجت الأمير ألبرت السكسونى ، الذى أصبح دوق ساكسى - تيشن ، وتزوجت ماريا أماليا فرديناند دوق بارما ، ودأصبحت ماريا كارولينا ملكة على نابلى . أما أخوهن يوزف فكان شريكاً فى حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أخوهن ليوبولد غراندوقا لبسكانيا . فلم يبق لماريا أنطونيا غير أن تصبح ملكة على فرنسا .

ولقد أهملت بعض الشىء بوصفها أصغر أطفال ماريا تريزا الأحياء ، فلما بلغت الثالثة عشرة تعلمت بعض الإيطالية ، ولكنها لم تكن تمسك كتابتها الألمانية ولا الفرنسية . أما التاريخ فلم تعرف منه شيئاً تقريباً ، ولم تحرز فى الموسيقى غير تقدم متواضع مع أن جلوك كان معلمها . وحين قرر لويس الخامس عشر قبولها زوجة لحفيده أصر على أن تطعم ضد الجدرى ، وبعث بالأب فرمون ليحجل بتعليمها . وكان تقرير فرمون عنها أن « خلقها وقلوبها ممتازان » وأنها « أذكى مما كان يظن عموماً » ولكنها « على شىء من الكسل ، طائشة للغاية ، عسيرة التعليم . . . فهى لا ترغب فى التعليم إلا إذا سليت » (٦) ولكنها أحبت الرقص ، والعدو مع كلابها فى الغابات .

وكانت الإمبراطورة التي أضنتها الهموم عليمّة بأنها تكلل مصير الحالف لأيد أوهن من أن تضطلع بتبعة كهذه . وظلت طوال شهرين قبل إبرام الزواج المرتقب تأثى بماريا أنطونيا لتنام معها في حجرتها . حتى تبث في ابنتها في جو أمسياتهما الحميم شيئاً من حكمة الحياة وفن الملك . وقد وضعت لها قائمة قواعد لتهدى سلوكها في الأخلاق والسياسة . وكتبت للويس الخامس عشر ترجوه أن يغضى عن مآخذ العروس العريضة التي ستبعث بها لحفيده ، أما ولى العهد فقد وجهت إليه رسالة تفيض باهتمام الأم المفرط ومخاوفها :

« انى لآمل أن تكون مبعث سعادة لك كما كانت مبعث بهجة لى . لقد نشأتها لهذا . لأننى توقعت منذ أمد بعيد أنها ستشاركك حظك في الحياة . لقد بثت فيها حباً لواجباتها نحوك . . . ومودة رقيقة . وقادرة على أن تعرف وتمارس وسائل لإدخال السرور على قلبك . إن ابنتى ستحبك . وأنا واثقة من هذا . لأننى أعرفها . . . وداعاً يا دوفينى العزيز . كن سعيداً . وأسعدها . . . أن الدموع تفيض منى . . . أملك الحنون »^(٨) .

وفى ١٩ ابريل ١٧٧٠ . فى كنيسة الأوغسطينين بفيينا . عقد بالوكالة قران الفتاة المتألقة الحسن . الخلية البال ، البالغة أربعة عشر عاماً ، على لوى — أوجست ولى عهد فرنسا . واتخذ أخوها فرديناند مكان الدوفن .

وبعد يومين قادت قافلة من سبع وخمسين مركبة و ٣٦٦ جواداً ولاية العهد مروراً بقصر شونبرون ، وودعتها الإمبراطورة الوداع الأخير . هامة لها أن « تكونى كريمة جداً مع الفرنسيين حتى يستطيعوا القول بأننى أرسلت لهم ملاكاً »^(٩) . وضم الموكب ١٣٢ شخصاً — مصيفات ومصيفات للشجر ، ونحياطات . وأتباعاً ، وكهنة للقصر ، وجراحين ، وصيادلة ، وطباخين ، وخداماً . وخمسة وثلاثين رجلاً ليغنوا بالخليل التي كانت تبديل أربع مرات أو خمساً في اليوم خلال الرحلة الطويلة إلى فرنسا . وبعد ستة عشر يوماً وصل الموكب إلى كييل على الرين قبالة ستراسبورج . وعلى جزيرة في النهر استبدلت ماريا بثياها النمساوية ثياباً فرنسية ، وتركها أتباعها النمسيون قافلين إلى فيينا ، وحل محلهم حاشية من السيدات والخدم الفرنسيين ، وأصبحت ماريا

أنطونيا منذ الآن .أرى أنطونانيت . وبعد الكثير من المراسم أدخلت
ختراسبورج بين قصف المدافع ورنين أجراس الكنائس وهتاف الشعب
وبكت وابتسمت واحتملت المراسم الطويلة في صبر ، فلما بدأ العمدة خطاباً
بالألمانية قاطعته قائلة : « لا تتكلموا بالألمانية أيها السادة ، فلهذا الآن لا أفهم
لغة غير الفرنسية » وبعد أن سمح لها الموكب بالراحة يوماً بدأ رحلته عبر
فرنسا .

وكان الترتيب أن يذهب الملك وولى العهد مع كثير من الحاشية إلى
كومبيين على اثنين وخمسين ميلاً شمال شرقى باريس ليقابلوا موكب ولية
العهد . ووصل الموكب في ١٤ مايو . وقفزت العروس من مركبتها ،
وجرت نحو لويس الخامس عشر ، وانحنى إلى الأرض ، وظلت كذلك
حتى أقامها الملك وهدأها وطمأنها بعبارة كريمة « لقد أصبحت عضواً في
الأسرة ياسيدتى ، لأن لوالدتك روح لويس الرابع عشر »^(١٠) . وبعد
أن قبّلها على وجنتيها قدمها إلى ولى العهد ، الذى قبّلها بالمثل ولكن ربما
بلذة أقل . وفي ١٥ مايو بدأ الموكبان المجتمعان الرحلة إلى فرساي . وهناك ،
في ١٦ مايو ، أكد زفاف رسمى ذلك الزفاف بالوكالة الذى عقد قبل شهر .
في تلك الليلة أقيمت مأدبة عظيمة في دار الأوبرا الجديدة ، ونبه الملك ولى
العهد إلى أنه يفرط في الأكل . فأجاب « إننى دائماً يحسن نوى بعد عشاء
طيب » . وهذا ما حدث إذ أنه استغرق في النوم بمجرد دخوله فراش الزوجية ،

وقد نام بهذه السرعة في ليال متعاقبة ، وفي أصبح متعاقبة كان يستيقظ
مبكراً لينطلق إلى صيده . وألمع مرسى دارجنتو إلى النمو السريع الحديث
الذى طرأ على لوى — أوجست قد أخرج تطوره الجنسى ، وأنه لا حيلة في
الأمر إلا ألانتظار . وكتبت ماريا تريزا إلى ابنتها بعد أن أنبتت بالموقف
تقول « كلاهما صغير جداً ! أما أثر هذا على صحتكما فكأنه يعمل للخير .
وسيكسبكما مزيداً من القوة »^(١١) . وزاد بعض أطباء ولى العهد الطين
بلّة بأنبائه بأن الرياضة والطعام الغليظ سيحفزان نموه الجنسى ، ولكن حدث
العكس ، فقد جعلاه أكثر بدانة وميلاً للنعاس . وأخيراً ، وفي أواخر عام

١٧٧٠ ، حاول ولي العهد أن يحقق اكتمال الزواج بالدخول على زوجته ، ولكنه فشل ، وكانت النتيجة الوحيدة للمحاولة ألماً غريباً للآمال . وأبلغ كزنت أراندا ، السفير الإسباني ، ماكنه بالآتي « يقولون إن عائقاً تحت القلفة يجعل محاولة الجماع مؤلمة جداً » أو « أن القلفة سميكة جداً بحيث لا يستطيع التمدد بالمرونة اللازمة للانتصاب »^(١٢) . واقترح الجراحون إزالة العائق بمجراحة شبيهة بالختان ، ولكن ولي العهد رفض^(١٣) وكرر محاولاته ، دون أن يبلغ من ورائها إلا الإثارة والإذلال له ولزوجته . وظل الموقف على الحال . وعمق إحساس ولي العهد بقصوره الزوجي شعوره بالنقص ، ولعل هذا الشعور شارك في جعله ملكاً كثير التردد عديم الثقة بنفسه .

وأغلب الظن أن سنى الإحباط الزوجي السبع هذه أثرت في خلق ماري أنطوانيت وسلوكها . وذلك أنها كانت عليمة بأن رجال البلاط ونساءه يسخرون من سوء طالعها ، وأن أكثر فرنسا ترميها بالعقم وهي تجهل السبب . ومن ثم فقد آست نفسها بزيارات للأوبرا أو المسرح في باريس ، وأسرفت في لبس الثياب الفاخرة الغالية ، وتمردت على الاختلاط الكثير بالبلاط بكل مراسمه وبروتوكوله ، وآثرت الصداقات الحميمة مع نفوس متعاطفة مثل الأميرة لامبال . وظلت طويلاً تأبى الحديث إلى مدام دباري ، إما لاشتمزازها من أخلاقها وإما بدافع الحسد لأن امرأة أخرى تظفر بالحلب هذا الظفر الكبير ويكون لها هذا النفوذ القوي على الملك .

وفي ١٠ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر . واندفعت الحاشية إلى مسكن ولي العهد . فوجدوه هو وولية العهد راكعين وهما يبكيان ويصليان . وقال الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً وهو يبكي « اللهم احمنا ! فنحن أضغر من أن نحكم ! » وقال لصديق ، « يا له من عبء ! إنني لم أعلم شيئاً ، ولإني لأشعر كأن الكون سيسقط فوق »^(١٤) . وفي جميع أرجاء فرنسا وباريس ، ثم إلى أبعد ماسرى النبأ في فرنسا ، هتف الرجال والنساء « مات الملك ، يحيي الملك ! » وكتب باريسى متفائل على تمثال لهنرى الرابع هذه الكلمة « قام »^(١٥) ، لقد قام الملك العظيم من بين الأموات لينقذ فرنسا مرة أخرى من الفوضى والفساد والإفلاس والهزيمة .

٢ - الحكومة

ترى ماذا كان خطب الحكومة ؟ إنها لم تبلغ في إستبدادها مابلغته حكومة بروسيا ، ولا في فسادها مابلغته حكومة إنجلترا ، وكان جهازها البيروقراطي وإدارتها الإقليمية يضمنان نفراً من الرجال الأفاضل وكثيراً من الرجال الأكفاء . ومع ذلك أخفقت ملكية البوربون في أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادي والفكري . ونشبت الثورة في فرنسا بأسرع مما نشبت في غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأواً من الذكاء أبعد مما بلغت في أى أمة معاصرة أخرى ، وفرض فكر مواطنها اليقظ المنتبه مطالب على الدولة أكثر حدة مما كان على أى حكومة في ذلك العصر أن تلبيه .

وكان فردريك الثانى ويوزف الثانى ، وكلاهما نصير متحمس للفلسفة والملكية المطلقة ، قد أدخلوا فى الإدارة السياسية لبروسيا وفرنسا قدراً من النظام والكفاية لم يكن وقتها متوافراً في بلد كفرنسا يحب الاسترخاء واليسر اللاتيين . « واستشرى الاضطراب والفوضى في كل مكان » (١٦) ، ففي فرنسا تنازع مجاس الملك في اختصاصه مع الوزراء ، الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت ولأنهم تنافسوا على الأموال العامة ذاتها ، ولأنه لم تفرض عليهم من فوق سلطة توفق بين سياساتهم . وانقسمت الأمة في ناحية إلى دوائر Baillages أو Senechausses في مجال القضاء ، وفي أخرى إلى أقسام مالية (géneralités) في المالية ، وفي ناحية ثالثة إلى إدارات (gouvernements) في الجيش ، وفي رابعة إلى أبرشيات paroisses وأقاليم provinces في الكنيسة . وفي كل قسم مالى كان الناظر الملكي يصطدم بالحاكم و « البرلمان » الإقليمى . وفي جميع أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع مصالح الفقراء ، والنبل مع البورجوازيين ، والبرلمانات مع الملك ، ومست الحاجة إلى قضية موحدة للصفوف وإرادة آمرة ، ولم تتوفر القضية إلا في ١٧٩٢ ، ولا الإرادة إلا في ١٧٩٩ .

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ، ومع ذلك كان القضاء من أفضلها . واتبع جنوب فرنسا القانون الرومانى ، وشمالها القانون العام والإقطاعى . يقول دتوكفيل « إن العدالة كانت معقدة ، مكلفة ، بعليئة »^(١٨) — رغم أن هذه شكوى عامة فى جميع البلاد . وكانت السجون قذرة ، والعقوبات وحشية ، والتعذيب القضائى ظل مسموحاً به فى ١٧٧٤ . وكان القضاء غير قابلين للعزل ، منصفين غير قابلين للرشوة عادة . وقد ذهب السر هنرى مين إلى أن رجال القضاء فى فرنسا « من حيث جميع الصفات المطلوبة فى المحامى ، والقاضى ، والمشرع ، يبرزون كثيراً نظراً لهم فى طول أوريا وعرضها »^(١٩) . وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة ، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء . ووجد أكفأهم طريقه إلى البرلمانات الإقليمية ، واختبر أغناهم وأعظمهم نفوذاً أعضاء فى برلمان باريس . وما وافى عام ١٧٧٤ حتى كانت طبقة « نبلاء الرداء القضائى » — أى القضاة الوراثيون قد انتهت إلى اعتبار نفسها مساوية إلا أقل قليلاً لطبقة « نبلاء السيف » فى الكرامة والاستحقاق . ولم تسمح بعضوية البرلمانات إلا لمن ولدوا فى إحدى الطبقتين الاستقرائيتين .

كان من رأى مونتسكيو أن « الهيئات الوسيطة » بين الملك والشعب هى كوابح مفيدة على السلطة الأوتقراطية ، ومحدد قوتين من هذه الهيئات هما النبلاء ملاك الأراضي والقضاة ولكى تقوم البرلمانات بهذه الوظيفة الكابحة طالبت بسلطة التصديق (أو التسجيل) على أى مرسوم ملكى ، أو رفضه حسبما يتفق فى رأيها أو يتعارض مع القوانين والحقوق الراسخة . وأعربت عدة برلمانات إقليمية ، خصوصاً برلمانات جرينوبل ، وروان ، ورين ، عن مبادئ شبه ديمقراطية ، أحياناً بعبارات مقتبسة من روسو عن « الإرادة العامة » و « الموافقة الحرة للأمة » ، من ذلك أن برلمان رين أعلن فى ١٧٨٨ « أن الإنسان ولد حراً ، وأن الناس فى الأصل متساوون » و « أن هذه الحقائق ليست فى حاجة إلى إثبات »^(٢٠) ، على أن البرلمانات كانت بوجه عام المدافع القوي عن فوارق الطبقات وامتيازاتها . وقد شاركت نزاعاتها مع السلطة الملكية فى الإعداد للثورة ، ولكن حين اقتربت الثورة انحازت إلى النظام القديم ، وسقطت بسقوطه .

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة . فالملك وفقاً للتقليد الهوربوني هو المشرع الأوحـد ، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية ، وهو المحكمة العليا ، في استطاعته أن يأمر بالقبض على أن شخص في فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته ، وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المحتومة هذه . وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة ، تعد نفسها هيئة لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيئتها . ففي ١٧٧٤ كان بلاط فرساي يضم الأسرة المالكة و ٨٨٦ نبيل ، هم ونسائهم وأبنائهم ، يضاف إليهم ٢٩٥ طاهياً ، و ٥٦ صياداً ، و ٤٧ موسيقياً وثمانية معماريين ، وأشتات من السكرتيرين ، وكهنة القصر ، والأطباء والسعاة والحراس . . . ، يباغون في مجموعهم ستة آلاف شخص ، مع عشرة آلاف جندي يرابعلون عن كـثب . وكان لكل عضو في الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص ، وكذلك كان لبعض النبلاء الممتازين ، أمثال أمير كوندية وأمير كونتى ودوق أورليان ودوق بوربون . واحتفظ الملك بعدة قصور — في فرساي ، ومارلى ، ولا مويـت ، ومودون ، وشوازي ، وسان — أوبير ، وسان — جرمان ، وفونتينبلو ، وكومبيين ، ورامبوييه . وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر ، بعض الخاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام ، وفي ١٧٨٠ بلغت نفقات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ جنيهاً (٢١) .

وكانت رواتب موظفي البلاط معتدلة ، ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطة ، من ذلك أن الميسيو أوجار — وكان سكرتيراً في إحدى الوزارات — لم يجاوز راتبه تشعائة جنيه في العام ، ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة . وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الخاشية بينما كان العمل يؤديه مرعوسوهم ، مثال ذلك أن ميسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع بإسمه مرتين في العام (٢٢) . وأجريت عشرات المعاشات التي بلغت جملتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوى النفوذ أو محاسبيهم (٢٣) . وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذى سيظفر بكرم الملك وبخائنه الطائش . وكان يتوقع منه

أن يعين الأسر النبيلة القديمة التي أعسرت ، وأن يقدم المهو لبنات النبلاء عند زواجهن . وكان كل من أبناء لويس الخامس عشر الأحياء يتلقى ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام . وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام ، إذ كان المفروض فيه أن يفتح باب الضيافة على مصراعيه . كل هذا السقف في الإنفاق ، وكل هذه المعاشات ، والهبات ، والرواتب ، والمناصب الشرفية ، كانت تدفع من إيرادات تؤخذ من حياة الأمة الاقتصادية . وقد كلف البلاط فرنسا مبلغاً جملة خمسة مليون جنيه في العام — وهو عشر مجموع إيراد الحكومة (٢٤) .

٣ — الملكة العذراء

وكانت ماري انطوانيت أكثر أعضاء البلاط إسرافاً . ذلك أنها وقد ارتبطت بزوج عنين ، وحرمت الرومانس ، ولم تشغلها علاقات غرامية ، راحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالى من الثياب ، والجواهر ، والقصور ، والأوبرات ، والمسرحيات ، والمراقص . وكانت تنحسر الثروات في القمار ، وتهب الثروات للمحاسيب في كرم متهور . وقد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠ جنيه على ثيابها في عام واحد (١٧٨٣) (٢٥) ، وأتتها مصممو الأزياء بالغريب الطريف من الأثواب المسماة « المباهج العائشة » أو « العلامات المكبوتة » أو « الرغبات المقنعة » (٢٦) . وكان مصنفات الشعر يعكفن الساعات فوق رأسها يصعدن شعرها حتى يبلغ ارتفاعات يبدو ذقنها فيها وقد توسط قامتها ، وقد قررت هذه « التسيحة العالية » ، كما قررت معظم الأشياء التي ابتدعتها ، زى نبيلات البلاط ، فزي باريس ، فزي عواصم الأقاليم .

أما شغفها بالحلى والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوساً . ففي ١٧٧٤ ابتاعت من بومر ، وهو الجواهري الرسمي للتاج ، أحجاراً كريمة قيمتها ٣٦٠,٠٠٠ جنيه (٢٧) . وأهداها لويس السادس عشر طقمًا من العقيق ، والماس والأساور ، ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ جنيه (٢٨) . وفي ١٧٧٦ كتب مرسى دارجنتو إلى ماريان تريزا يقول : « مع أن الملك أعطى الملكة في شتى المناسبات ما يساوى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ « ايكو » من الماس ، ومع أن جلالته تملك

الآن مجموعة هائلة ، إلا أنها مصممة على شراء حلق على شكل الثريا من يومر . ولم أخف عن جلالها أنه كان أحكم في الظروف الاقتصادية الراهنة لو تجنبت هذا الإنفاق الباهظ ، ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها - وإن أجرت الصفقة في حذر مخفية أمرها عن الملك » (٢٩) .

وبعث ماريا تريزا إلى ابنتها بتوبيخ صارم ، واكتفت المالكة بالتزين محلها في المناسبات الرسمية فقط ، ولكن الشعب لم يغتفر لها قط هذا التبذير المفرط في ضرائبه ، وبعد حين سيصدق أنها وافقت على شراء القلادة الماسية الشهيرة .

أما الملك فقد أغضى عن مواطن الضعف في زوجته لأنه كان يعجب بها ويحبها ، ولأنه كان شاكراً لها صبرها على عجزه الجنسي . فدفعت لها ديون القمار التي استدانها من جيبه الخاص وشجع زياراتها لأوبرا باريس ، وإن علم أن مريحها المعلن على الملأ يزعم شعباً ألف في ملوكة الوقار والحشمة ، ودفعت الحكومة نفقات ثلاث حفلات مسرحية ، وحفلات رقص ، وعشائين رسميين في البلاط مرتين كل أسبوع تقريباً ، يضاف إلى هذا أن الملكة كانت تحضر المراقص المتقنة في باريس أو في البيوت الخاصة ، لقد كانت هذه السنوات ١٧٧٤-٧٧ فترة تهديد وإسراف على حد قول أومها بصراحة . وإذا كانت الملكة لا تجنى من وراء مغازلات زوجها في الليل سوى الرغبة توقف دون إشباع ، فقد شجعت على النوم مبكراً (مقدمة ساعة الحائط أحياناً لتعجل ذهابه للفراش) حتى تستطيع مشاركة الأصحاب ألعاباً قد تمتد الليل بطوله . وكانت زاهدة في الأدب ، واهتمامها بالفن قليل ، وأكثر منه اهتمامها بالدراما والموسيقى ، وكانت تجيد الغناء والتثيل وتعزف على الهارب ، وتؤدي بعض صونات موتسارت على الكلافيكورد (٣٠) .

وبين هذه العيوب جميعها كان واحد فقط عيباً جوهرياً - ذلك هو التبذير العائش نتيجة للأساء والإحباط ، ولطفولة وصبي ألفا الترف وجهلا الفقر . وقد زعم الأمير لين (الذي ربما كان فيه من صفات الجنتلمان أكثر

مما فيه من صفات المؤرخ) أنها ما لبثت أن تخلصت من شغفها بالثياب الغالية ، وأن خسائرها في القمار بولغ فيها ، وأن ديونها ترجع إلى سخائها غير الحكيم بقدر ما ترجع إلى إنفاقها الطائش^(٣١). وناصبها البلاط والصالونات العداء لأنها تمساوية ، ولم يكن الحلف مع النفسا من قبل محبوباً على الإطلاق . وكانت مارى أنطوانيت ، التي لقبته بـ « التماسوية » تجسيدا لذلك الحلف ، وقد اشتهت الفرنسيون ، ولهم بعض الحق ، في أنها تخدم المصالح التماسوية ، على حساب فرنسا أحياناً . ولكن حتى مع هذا . فإن حيويتها الشابة ، ومرحها ورقة قلبها . كلها كسبت قلوباً كثيرة . حدث مرة أن جاءت مدام فيجييه -- لبرون . الحبل منذ شهور كثيرة ، لتصورها (١٧٧٩) ، وبينما كانت المصورة كاكفة على رسمها أسقطت بعض أنابيب الألوان ، وللتو قالت لها الملكة ألا تنحني . « لأنك بعيدة جداً عنها » ثم التفتت بنفسها الأنابيب^(٣٢). وكانت أنطوانيت ترعى مشاعر غيرها عادة . ولكنها أحياناً ، في مرحها الطائش كانت تضحك من لزامات غيرها أو عيوبهم . وكانت تستعجب بغاية السرعة لكل رجاء . « أنها لم تعرف بعد خطر الاستسلام اكمل دافع كريم »^(٣٣) .

مثل هذه المخلوقة المفعمة حيوية ، والتي كانت الحياة والحركة عندها مرادفين ، لم تخلق لخطر مراسم البلاط . ذلك الخطر البطيء الخدر . وسرعان ما تمردت عليه . والتمست البساطة واليسر في البتي تريانون وحوله ، وكان على ميل من قصر فرساي . وفي ١٧٧٨ أهدى لويس السادس عشر الملكة هذا الملتقى ملكاً خالصاً لها . تستطيع أن تخلو فيه مع أخصائها ، ووعد لويس أنه لن يتدخل عليهم إلا إذا دعى . ولما لم يكن في المبنى غير غرف ثمان ، فقد أمرت الملكة ببناء بعض الأكواخ بقربه لأصحابها وخطاطت لها الحدائق المحيطة به على النمط « الطبيعي » — بممرات ملتفة . وأشجار متنوعة ، ومخاض . وجدول حمل إليه الماء في أنابيب من مارلى بتكافة غالية . ولاستكمال حلم روسو في العودة إلى الطبيعة أمرت بإقامة ثمانى مزارع صغيرة في الحديقة الملاصقة ، لكل منها كوخها الريفي . وأسرتها الفلاحة ، وكوم سباخها . وأبقارها . هناك كانت تقلد راعيات الغنم فتلبس عباءة بيضاء ،

ومنديلا إن الشاش ، وقبعة من الخوص ، وكانت تحب أن ترى اللين يحلب بالملاطفة من خير الضروع في آنية من برسلان سيفر . وكانت هي وأصدقائها يعزفون أو يلعبون ألعاباً داخل البيت تريانون ، وعلى الخيائل يولمون الولائم للملك أو لكبار الزوار . وهناك وفي القصر الملكي أيضاً . كانت الملكة تخرج المسرحيات التي تلعب أدواراً هامة في بعضها - كدور سوزان في « زواج فيجارو » - ودور كوليت في « عراف القرية » فتبهج الملك بتنوع مواهبها وجاذبيتها .

فلما خشيت نقول المتقولين إن هي أسرفت في حرية الاختلاط بالرجال ، كونت مع بعض النساء صداقات حميمة بلغت من الرثافة ما وجه النجاسة وجهة أخرى . فجاءت أولا ماري - تريز وسافوا - كارنيان ، أميرة لامبال . الرقيقة ، الحزينة ، الهشة . وكان قد انقضى عليها سنتان في ترمها مع أنها لم تتجاوز الحادية والعشرين . وكان زوجها - وهو ابن دوق بنثيمير حفيد لويس الرابع عشر - يعاشر الخليلات ويختلف إلى المؤامسات بعد زواجه بقليل . فأصيب بالزهرى ومات به بعد أن اعترف بآثامه لزوجته في تفصيل مقزز . ولم تفق قط من الحنة الطويالة التي ابتلاها بها ذلك الزواج ، وظلت تعاني من التناقصات العصبية ونوبات الإغماء حتى مزقها ارباً جمهور من غرغاء الثورة في ١٧٩٢ - وانعطفت ماري أنطوانيت نحوها بدافع الشفقة أول الأمر . ثم تعلمت أن تحبها حباً حاراً ، فتلقاها كل يوم ، وتكتب لها رسائل الإعزاز مرتين في اليوم أحياناً . وفي أكتوبر ١٧٧٥ عينت الأميرة . ثم رفة على بيت الملكة ، وأقنعت الملك رغم اعتراضات طورجو بأن يقرر لها راتباً سنوياً قدره ١٥٠,٠٠٠ جنيه . ثم كان للأميرة أقرباء وأصدقاء ، التمسوا منها أن تستخدم نفوذها لدى الملكة . وعن طريقها لدى الملك ، لنيل المناصب أو الهبات . وبعد عام تركت أنطوانيت محبتها لها لتدبل واتخذت صديقة أخرى .

وكانت هذه الصديقة الجديدة . واسمها يولاند ديبولا سنرون زوجة الكونت جول دبوليناك ، عريقة المنبت رقيقة الحال ، كانت حلوة ، صغيرة الجسم . طبعية . وما كان أحد ليخاومه الظن إذا رآها بأن فيها هذا الشره

للمال الذى أياس طورجو من موازنة الميزانية ما دامت الملكة تجد متعة في صحبتها الظريفة . فلما قاربت الكونتيسة موعد الوضع أقنعتها الملكة بأن تنتقل إلى لا موييت ، وهى فيلا ملكية بقرب قصر فرساي ، وهناك كانت تزورها كل يوم حاملة إليها الهدايا دائماً تقريباً . فلما أصبحت الكونتيسة أما لم تضمن عليها الملكة بشيء ، : ٤٠٠,٠٠٠ جنيه لتسوية ديونها ، ومهر لابنتها قدره ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، وسفارة لأبيها ، ومال ، وحلى ، وفراء ، وتحف فنية لشخصها ، وأخيراً (١٧٨٠) دوقية وضيعة بيتش ، لأن الكونت كان تواقاً لأن يصبح دوقاً . وقال مرسى دارجنتو للملكة آخر الأمر أنها تستغل ، وأن الدوقة الجديدة لا تبادلها محبتها ، واقترح على الملكة ، التى وافقت على اقتراحه ، أن تطلب إلى مدام دبولنيك على سبيل الامتحان أن تطرد من بطانتها الكونت دفودروى الذى كانت انطوانيت تمقته ، فأبت . المدام ، وانصرفت أنطوانيت عنها إلى صداقات أخرى . وهكذا انضم آل بولنيك إلى صفوف أعدائها ، وأصبحوا مصدرراً للافتراءات التى لوثت بها الحاشية وكتاب الكراريس اسم الملكة .

وكان كل شيء تقريباً تأتية يخلق لها الأعداء . فأفراد الحاشية يتحسرون على الهبات التى تغدقها على محاسبيها ، لأن هذا معناه أن يقل عطاؤهم ، وشكوا من أنها أكثر الغياب عن مهامها فى البلاط حتى فقدت هذه المهام بهاها وقل الإقبال على حضورها . ولماها الآن كثيرون ممن عابوا من قبل غرامها القديم بالثياب الغالية ، لأنها قررت زياً جديداً تميز ببساطة الملابس . وقالوا أن هذا نذير بإفلاس تجار الحرير فى ليون وخياطى باريس^(٣٤) . وكانت قد أقنعت الملك بإقالة الدوق ديجيون (١٧٧٥) الذى تزعم أنصار مدام دوبارى ، وكان للدوق متعاطفون كثيرون ، كونوا نواة أخرى من الأعداء . وبعد عام ١٧٧٦ شن كتاب الكراريس الباريسيون على الملكة حملة قدح قاس لا هوادة فيه^(٣٥) - وكان كثير منهم يتلقون المعلومات والمال من بعض الحاشية^(٣٦) ، فوصفها بعض الكتاب بأنها الخلية ، فى وقت أو آخر ، لكل ذكر موجود فى فرساي^(٣٧) . وقد تساءلت كراسة عنوانها « تأنيب للملكة » . كم مرة تركت فراش الزوجية وقبالات زوجها لتسلمى نفسك للباحوسيات أو السواطير ولتندمجى معهم فى متعهم الوحشية ؟^(٣٨) .

وصورت كراسة أخرى تبذيرها بوصف حائط في البقي تريانون زعمته مكسوا بالماس^(٣٩) . واتهمتها الشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشعب التي وقعت بسبب شح الخبز عام ١٧٨٨ « إذا لم يكن لديهم خبز فأياكلوا كعكاً » ، ويجمع المؤرخون على أنها لم تندب قط بقول تلك الملاحظة القاسية^(٤٠) ، فهي على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص في التخفيف عن الشعب . وأشد وأنكى حتى من هذا كله ما شاع وذاع بين الجماهير من أنها عاقر . تقول مدام كميان الوصيصة الأولى لخدع الملكة :

« حين ولد ابن للكونت دارتوا عام ١٧٧٧ ، تبع نساء السوق وبائعات السمك الملكة حتى باب مسكنها ذاته ، مؤكدات حقهن في الدخول إلى القصر الملكي في مناسبات الولادات الملكية ، وطفقن يصحن بأشد العبارات غلظة وسوقية قائلات أن من واجبها هي ، لاسلفتها ، أن تأتي بورثة للناج الفرنسي . وعجلت الملكة بإغلاق بابها دون هؤلاء العجائز الشكسات الوقحات . واعتكفت في حجرتها معي تندب حظها التعس^(٤١) » .

فأني لها أن تشرح للشعب أن الملك عني ؟

وانتظرت فرنسا امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ليأتي ويزيل هذه العقدة . وفي ابريل ١٧٧٧ وصل يوزف الثاني فرساي متخفياً تحت اسم الكونت فون فالكنشتين . ووقع في غرام الملكة ، وقال لها « لو لم تكوني أختي لما ترددت في أن أتزوج ثانية ليكون لي رفيق ساحر مثلك »^(٤٢) ، ثم كتب لشقيقتهما ليوبولد يقول :

« لقد أنفقت معها الساعة تلو الساعة ، دون أن ألاحظ مرور الزمن . . . ، أنها امرأة ساحرة نبيلة ، مازالت صغيرة بعض الشيء ، طائشة قليلا ، ولكنها في صميمها كيسة فاضلة . . كذلك فيها جرأة ورهافة أدهشتاني ، واستجابتها الأولى صائبة دائماً ، ولو أنها أطاعتها . . . واهتمت اهتماماً أقل بالقليل والقال . . . لبلغت مرتبة الكمال . ولها رغبة قوية في متع الحياة ، ولما كانت ميولها معروفة ، فإن ضعفها يستغل . . .

« ولكنها لا تفكر إلا في متعتها ، ولا تحب الملك ، وقد ثملت بإسراف

هذا البلد . . . وهى تسوق الملك بالقوة لأشياء لا يريد فعلها . . . فهى باختصار لاتؤذى واجبات الزوجة أو الملكة» (٤٣) .

وقد أوضحت السبب فى أنها والملك ينامان فى حجرتين منفصلتين ، فهو يحب النوم مبكراً ، وقد وجد كلاهما من الحكمة تجنب الإثارة الجنسية . وزار يوزف الملك وأحبه كثيراً . وكتب لليوبولد يقول « هذا الرجل فيه ضعف ولكنه ليس أبله . فله أفكار وحكم سديد ، ولكن عقله وجسمه فاتران . وهو يتحدث بشكل معقول ، ولكن ليس به رغبة فى التعلم ولا حب للاستطلاع . والواقع أن لحظة « انطلاق النور » لم تأت بعد ، والأمر لا زال مفتقراً إلى الشكل » (٤٤) . وتحدث الإمبراطور إلى لويس حديثاً لم يجرؤ أحد من قبل على مصارحته به ، فأشار إلى أن العائق فى قلفة الملك يمكن إزالته بجراحة بسيطة وإن كانت مؤلمة ، وأن على الملك لوطنه ديناً هو أن ينجب أبناء . ووعد لويس بأن يستسلم لمبضع الجراح .

وقبل أن يغادر يوزف فرساي كتب ورقة « تعليمات » للملكة . وهى وثيقة جديرة بالتنويه .

« إنك تكبرين ، ولم يعد لك عذر من صغر السن . فما مصيرك إذا أخرجت (صلاح أمرك) أكثر من هذا ؟ . فحين يعانقك الملك ، وحين يتحدث إليك ، ألا تبددين الضيق ، بل حتى النفور ؟ هل خطر ببالك يوماً أى أثر لا بد أن تخلفه فى الشعب . . . علاقاتك الحميمة وصادقاتك ؟ . . . هل وزنت النتائج الرهيبة لألعاب الحظ . وما تجمع من أصحاب وما يضربونه من مثل ؟ . . . » .

وقال عن ولعها بالمراقص التنكرية فى باريس :

لم الاختلاط بحشد من الفاسقين ، والمومسات ، والأغراب ، تسمعني إلى ملاحظاتهم ، وربما تبددين مثلاً ؟ يا له من تبدل ؟ . . . إنك تترسني الملك وحيداً الليل كله فى فرساي بينما تندمجين فى المجتمع وتخالطين أوشاب الباريسيين ؟ لأننى فى الحق أرتعد خوفاً على سعادتك ، لأن هذا لا يمكن أن

يؤول إلى خسران في المدى الطويل ، وستنشب ثورة قاسية ما لم تتخذى الخطوات لتجنبها» (٤٥) .

وتأثرت الملكة من لومها . فكتبت إلى أمها بعد رحيله : « لقد ترك رجيل الإمبراطور فراغاً لا أستطيع ملأه ، ولقد كنت سعيدة جداً خلال تلك الفترة القصيرة حتى ليبدو الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام . ولكن الشيء الذى لن يكون حلماً عندي هو كل النصيحة الحكيمة . . . التى بذلتها ، والتى نقشت على صفحة قلبى إلى الأبد » (٤٦) . على أن الذى أصلحها حقاً لم تكن النصيحة بل الأمومة . ذلك أن لويس استسلم فى ذلك الصيف من عام ١٧٧٧ ، ودون مخدر من أى نوع فيها يبدو ، لجراحة نجحت نجاحاً تاماً . واحتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين (٢٣ أغسطس ١٧٧٧) باستكمال علاقته الزوجية فى النهاية . وكان فخوراً سعيداً . وأسر لعمة عذراء قائلاً « أننى أستمع كثيراً بهذه اللذة ويوسفى حرمانى منها هذا الزمن الطويل » (٤٧) . على أن الملكة لم تحبل إلا فى إبريل ١٧٧٨ . وأنهت النبأ إلى الملك بطريقها المرححة : « مولاي ، لقد جئت أشكو إليك أحد رعاياك الذى بلغت به الجراءة أن يرفسنى فى بطنى » (٤٨) . فلما أدرك لويس المعنى الذى ترمى إليه ضمها بين ذراعيه . وراح الآن أكثر من أى وقت مضى يستجيب لنزواتها ويمنعها كل سؤال لها . وكان يزور مسكنها عشر مرات فى اليوم ليطلع على آخر بلاغ عن سير الوريث المرتقب . وقالت ماري أنطوانيت للملك وقد طرأ عليها تحول جسدى ونفسى غامض « منذ الآن أريد أن أعيش حياة غير التى عشتها من قبل . أريد أن أحيا حياة أم ، وأرضع طفلى ، وأكرس نفسى لتربيته » (٤٩) .

وبعد معاناة شديدة ، زادت شدة قابلية تفتقر إلى المهارة ، وضعت الملكة فى ١٩ ديسمبر ١٧٧٨ وأسف الوالدان على أن الوليد بنت ، ولكن أسعد الملك أن مغالقة الحياة فتحت ، وكان على ثقة من أن الإبن قادم فى الوقت المناسب . أما الأم الشابة فقد اغتبطت لأنها حققت ذاتها فى نهاية المطاف . وكتبت لماريا تريزا فى ١٧٧٩ (وكانت الأم فى بداية عامها الأخير) تقول : « لماما العزيزة أن ترضى كل الرضى عن سلوكى . وإذا

كنت ملومة في الماضي ، فالسبب أنني كنت غرة طائشة . أما الآن فإنني أكثر تعقلاً ، وأنا شديدة الوعي بواجبي»^(٥١). ولم يصدق البلاط ولا الشعب ، ولكن — كما كتب الكونت سيجور « من الحقائق المسلم بها أنها بعد مولد طفلها الأول بدأت شيئاً فشيئاً تعيش حياة أكثر انتظاماً ، وتشغل نفسها على نحو جاد . وهي أشد حرصاً على تجنب أى شيء من شأنه أن يثير القيل والقال . . . وحفلاتها المرححة أقل عدداً ، وأقل ضجئاً . . . والإسراف يخلى مكانه للبساطة ، والأرواب الفاخرة تحمل محلها الفساتين التبيلية الصغيرة»^(٥٢) ، ولقد كان جزءاً من العقاب الطويل الذي عوقبت به ماري أنطوانيت أن شعب فرنسا أبى أن يدرك أن الفتاة المدللة المستهتر قد غدت أما حنوناً حية الضمير . فلا شيء يضيع هباء ، ولكن كل شيء لابد أن يدفع ثمنه .

وكانت عليمة بأن القانون الفرنسي يحرم النساء من العرش . لذلك رحبت بالحمل الثاني ، وتمنت على الله ولداً . ولكنها عانت من سقط بلغ من شدته أنه أفقدها معظم شعرها^(٥٣) . ولكنها كررت المحاولة ، وفي ٢٢ أكتوبر ١٧٨١ ولدت غلاماً سمي لوى — جوزف — زافير . وتشكك السائحون في نسب الطفل ، ولكن الملك السعيد ضرب عنهم صفحاً وصاح « ولدى الدوفن ! ولدى ! » .

٤ — الملك الطبيب (٥٤)

كان لويس النقيض لزوجته في كل شيء إلا السن . كانت رشيقة ، سريعة الخاطر ، خفيفة الحركة ، لعوبا ، مندفعه ، جياشه ، طائشة ، مسرقة ، مؤكدة لذاتها ، متكبرة ، ملكة دائماً ؛ وكان بطيء الحركة ، بليداً ، متردداً ، رزيناً ، هادئاً ، كادحاً ، مقتصداً ، متواضعاً ، عديم الثقة بنفسه ، كل ما فيه ينطق بأنه ليس ملكاً . كان يحب النهار ، وعمله ، وصيده ، وكانت تهوى الليل ، ومائدة القمار ، والمرقص . ومع ذلك لم يكن زواجهما بالزواج التعس بعد سنوات التجربة الأولى تلك ، فقد كانت الملكة وفية لزوجها ، والملك شغوفاً بزوجته ، وحين جاء الحزن أحكم الجمع بينهما في شخص واحد .

كانت قسماته سوية ، ولعاه كان يكتسب الوسامة لو حد من وزنه . وكان طويل القامة ، خليقاً بأن يكون له سميت الملوك لولا أن شاب مشيته ككتفان متأرجحتان وخطورة ثقيلة . وكان يشكو ضعفاً في بصره زاده ارتباطاً وثقل حركة ، ونذر أن كان شعره منتظماً . ذكرت مدام كمبان أن « شخصه كان مهملاً جداً » (٥٤) وكان مفتول العضل قوى البدن ، وقد رفع مرة أحد أتباعه بذراع واحدة . وكان نهما ، معتدلاً في شرابه ، ولكنه كان أحياناً يشمل بالاعلام ، فيقتضى الأمر إعانته على الذهاب إلى فراشه (٥٥) . وكان له هرايات قليلة ، ونشوات طرب قليلة ، وساعات ألم مفترقة قليلة .

ولم يكن شعوره شعور الراحة واليسر مع الفرنسيين المحيطين به ، الذين دربوا على يقظة الذهن وسرعة البديهة في الحديث ؛ على أنه في أحاديثه الخاصة وقع موقعاً طيباً من رجال كيوزف الثاني بفضل سعة معرفته وسداد حكمه ، استمع إلى الأمير هنرى البروسى . شقيق فرديريك الأكبر يقول :

« إن الملك أدهشنى . . . فلقد أثبتت أن تعليمه قد أهمل ، وأنه لا يعرف شيئاً ، وأنه قليل الذكاء . ولكنى ذهلت أن أرى وأنا أتحدث معه أنه يعرف الجغرافيا معرفة جيدة جداً ، وإن له أفكاراً صائبة في السياسة ، وأن سعادة شعبه كانت دائماً ماثلة في فكره . وأنه يفيض بالإدراك السليم الذى هو في الملك أعظم قيمة من الذكاء اللامع . ولكنه كان مسرفاً في عدم الثقة بنفسه » (٥٦) .

وكان لويس يقتنى مكتبة حسنة أفاد منها ، فقرأ وترجم جزءاً من كتاب جبون « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » (٥٧) . ولكنه نحاه عنه حين تبين نزعه المعارضة للمسيحية . وقرأ وأعاد قراءة كتاب كلارندون « تاريخ التمدد » كأنه يحس في دخيلة نفسه بأنه سيكرر مصير تشارلز الأول ، قال « لو كنت في مكانه لما امتنعت الحسام قط في وجه شعبي » (٥٨) . ولكي يرشد رحلة بيروز الباسفنيكية (١٧٨٥) كتب تعليمات مفصلة نسبها وزراؤه إلى علماء أكاديمية العلوم (٥٩) . وكان على صلة وثيقة بمخالف وزرائه

لا سيما في الشؤون الخارجية . وأعجب واشنطن وفرانكلن بسداد حكمه^(٦٠) . وكانت نواحي ضعفه في الإرادة في الفكر ، ولعلها ارتبطت بشغل غذائه ووزنه . ومن أهم صفاته عجزه عن مقاومة الإلحاح أو الخلوص من التفكير إلى التنفيذ . وكان هو نفسه يمارس الاقتصاد ، ولكن كان فيه من اللطف ما منعه من فرضه على الآخرين ، وكان يوقع بالموافقة على صرف مئات الألوف من الفرنكات استجابة لأمر زوجته .

على أن الفضائل لم تعوزه . فهو لم يتخذ خلية ، وكان فيه وفاء لأصدقائه ربما باستثناء طورجو « أغلب الظن أنه لم يفقه غير طورجو من رجال جيله في حب الشعب أعظم الحب »^(٦١) . ففي يوم اعتلائه العرش أمر المراقب العام للمالية بتوزيع ٢٠٠,٠٠٠ فرنك على الفقراء ، وأضاف « ان وجدت هذا أكثر مما تسمح به حاجات الدولة فخذ من راتبي »^(٦٢) . وقد منع جمع « ضريبة التتويج » التي كانت تجعل من استئصال حكم الملك عبثاً جديداً على الأمة . وفي ١٧٨٤ حين كانت باريس تعاني من الفيضانات والأوبئة ، خصص ثلاثة ملايين من الفرنكات لإعانة الشعب . وخلال شتاء قارس البرد سمح للفقراء يوماً بعد يوم بأن يغيروا على مطبخه ويصيدوا منه طعاماً . وكان مسيحياً لقباً ، وواقعاً ، والتزاماً بالشعائر ، فكان يتبع كل طقوس الكنيسة وقواعدها بحذافيرها ، ويصوم الصيام الكبير كله رغم ولعه بالطعام . وكان متديناً دون تعصب أو إعلان عن النفس ، فهو الذي منح الحقوق المدنية لبروتستانت فرنسا رغم سنيته وتدينه . وقد حاول التوفيق بين المسيحية والحكم . وذلك أمر ليس في الدنيا أصعب منه .

وكان عليه أن يعيش عيشة الملك مظهرًا رغم حبه للبساطة ، فيجوز مراسم استيقاظ الملك levée ويدع الاتباع والحاشية يلبسونه ثيابه . ويتلو صلوات الصباح في حضرتهم ، ويستقبل الناس . ويرأس المجلس الملكي ، ويصدر المراسيم ، ويحضر حفلات الغداء أو العشاء ، والاستقبال ، والرقص . مع أنه لم يكن يرقص . ولكنه عاش كأي مواطن صالح على قدر ما سمح به منصبه وشعبته . وقد وافق روسو على أن من واجب كل إنسان أن يتعلم حرفة يدوية . فتعلم عدة حرف . من صناعة الأقفال إلى البناء . وتجنرنا

مدام كعبان أنه « سمح لصانع أقفال من عامة الشعب بدخول مسكنه الخاص ، وكان يصنع معه المفاتيح والأقفال ، وكثيراً ما كانت يداه اللتان اسودتا من هذا الضرب من العمل مثار لوم بل توبيخ حاد من الملكة في حضرتي » (٦٣) ، وكان يستهويه كل شيء يتصل بالبناء ، فيعين عمال القصر على نقل المواد ، والعوارض ، وبلاط الرصف . وكان يحب أن يقوم بترميم ما يحتاج إلى ترميم في مسكنه بيديه هو ، وكان زوجاً صالحاً كأزواج أوساط الناس . وقد احتوت إحدى حجراته على أدوات الجغرافيا ، والكرات الأرضية ، والخرائط الجغرافية - التي رسم بعضها بنفسه ، واحتوت حجرة أخرى أدوات للشغل في الخشب . وجهاز ثلاثة بكير وسنبلان . وأشتات كثيرة من الأدوات الحديدية . وقد عكف شهوراً على صنع ساعة حائط ضخمة تسجل الشهور وأوجه القمر والفصول والسنين . وشغلت مكتبته عادة حجرات .

وقد أحبته فرنسا . حتى إلى موته وبعد موته : لأن النذى أهدمه بالجليوتين في ١٧٩٣ لم تكن فرنسا بل باريس . في تلك السنين الأولى كان الترحيب به عاماً تقريباً . كتب فردريك الأكبر للدالمير « أن لديكم ملكاً دليلاً جداً ، وأنا أهنئكم عليه من كل قاي . فالملك الحكيم الفاضل خليف بأن يحشاه منافسوه أكثر من ملك لا يملك من الفضائل غير الشجاعة » . وأجاب الدالمير « انه يحب طيبة القلب ، والإنصاف ، والاقتصاد ، والسلام . . . انه بالضبط ما كان ينبغي أن نصبو إليه في ملكنا لو لم يمنحنا إياه قدير كريم » (٦٤) . ووافق فولتير على هذا الرأي : « كل ما صنعه لويس منذ توليه العرش حبيبه لفرنسا » (٦٥) . وقد استعاد جوته في شيخوخته ذكر هذا الاستهلال الميمون : « في فرنسا أبدى ملك جديد خيراً أحسن النوايا . لتكريس نفسه للقضاء على مفساد كثيرة ، ولتحقيق أنبل الأهداف ، وهي إدخال أسلوب في الاقتصاد السياسي منتظم وكفء ، والاستغناء عن كل سلطة تعسفية ، والحكم بالقانون والعدالة وحدهما . وقد عمت الدنيا أبهج الآمال ، ووعد الشباب الوائق نفسه والنوع الإنساني كله بمستقبل زاهر مشرق » (٦٦) .

٥ — وزارة طورجو : ١٧٧٤ — ٧٦

كان أول هم للويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التي استشرت في الإدارة والمالية . وكان الشعب يطالب في إلحاح بعودة « البرلمانات » التي أقصبت ، فأعادها ، وأقال مويو الذي حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى ، ورد إلى فرساي لرئاسة وزارته جان — فردريك قلوب . كونت موريبا ، الذي كان وزيراً للدولة من ١٧٣٨ إلى ١٧٤٩ ، وأقيل لأنه عرض في أهجرة ساخرة بمدام دبو، بادور ، فعاد الآن إلى السلطة بعد أن بلغ الثالثة والسبعين . وكان اختياراً كريماً ولكنه غير موفق ، لأن موريبا بعد أن عاش عقداً على ضيعته الريفية ، كان قد فقد صلته بتطور فرنسا في اقتصادها وفكرها ، وكان فيه من الظرف أكثر مما فيه من الحكمة . أما للشئون الخارجية فقد اختار الملك ذو العشرين شارل جرافيه ، كونت دفيرجين . ولوزارة الحربية الكونت كلود — لوى دسان — جرمان ، ولوزارة البحرية آن — روبير — جاك طورجو ، بارون دلوان .

وقد رأينا في صفحات سابقة لاهوتياً ، ومحاضراً في المسيحية والتقدم ، وصديقاً للفزيوقراطيين وجعاعة الفلاسفة الفرنسيين ، وناظراً ملكياً مقداماً خيراً في ليموج . وقد حذر أتقياء القصر لويس من استخدام طورجو لأنه كافر سبق أن شارك في « الموسوعة » بمقالاته (٦٧) . ومع ذلك ففي ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ رفعه الملك إلى أدق مناصب الحكومة — وهو منصب المراقب العام للمالية وحل محل طورجو في البحرية جابرييل دسارتين ، الذي أنفق في خفة على بناء أساطيل ستساعد على تحرير أمريكا ، والذي أعتمد على طورجو في تدبير المال اللازم لبنائها .

وكان طورجو رجلاً فرنسياً من معدن شبيه بالذى وجده لويس الرابع عشر في كولبير . كرس نفسه لخدمة وطنه . واتسم ببعد النظر ، والعكوف على العمل بغير ملل ، ونقاء اليد وطهارتها . وكان فارغ الطاول حسن الصورة . ولكن أعوزته رقة آداب الرجال الذين صقلتهم الصالونات — وإن رحبت

به الآتسة لسبيناس ترحيباً حاراً . وكان قد ضحى بصحته في سبيل عمله ، وفي كثير من الوقت الذي كان عاكفاً فيه على إعادة صنع اقتصاد فرنسا كان يلزم مسكنه بسبب النقرس . وقد حاول أن يضغط ربع قرن من الإصلاحات في وزارة واحدة قصيرة الأجل لأنه أحس بأن استنزاه قلق مزعزع . وكان في السابعة والأربعين حين تقلد وزارته ، وفي التاسعة والأربعين حين فقدها . وفي الرابعة والخمسين حين ودع الحياة .

وقد آمن مع الفزيوقراطيين بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومي أو النقابي ، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هي أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيرادات الدولة ، وبأنه ينبغي إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة . ثم أنه أخذ عن جماعة الفلاسفة تشككهم الديني وتسامحهم ، وثقتهم في العقل والتقدم ، وأملهم في إصلاح الأمور عن طريق ملك متنور . فإذا كان الملك صاحب ذكاء وإرادة صالحة ، يقبل الفلسفة مرشداً وهادياً له ، كان هذا ثورة سلمية . تفضل كثيراً الثورة العنيفة الفوضوية التي لا تكتفي بالقضاء على المفساد بل تطيح بالنظام الاجتماعي ذاته . فالآن إذن حان وقت وضع نظرية فولتير ، « النظرية الملكية » هذه موضع الاختبار . ومن ثم نرى جماعة الفلاسفة يشاركون الفزيوقراطيين ابتهاجهم بتقلد طورجو زمام الأمر .

وذهب طورجو إلى كومبيين في ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ ليشكر لويس السادس عشر على تعيينه وزيراً للمالية . وقال له « إنني لا أبذل نفسي للملك بل للرجل الأمين » . وأجاب لويس وهو يأخذ يدي طورجو في يديه « إن يخب ظنك »^(٦٨) . في مساء ذلك اليوم بعث الوزير إلى الملك رسالة بينت النقاط الأساسية في برنامجه قال :

« لا إفلاس ، معلناً كان أو موقنناً .

لا زيادة في الضرائب ، والسبب حالة شعبك . . .

لاقروض ، . . . لأن كل قرض يقتضى فى نهاية أجل مسمى إما الإفلاس وإما زيادة الضرائب . . . »

ولتلبية هذه النقاط الثلاث لا يوجد غير سبيل واحد وهو خفض الإنفاق عن الإيراد ، وخفضه بقدر يكفى ضمان وفر فى كل عام مقداره عشرون مليوناً تخصص لاستهلاك الديون القديمة . وبغير هذا ستدفع أول طلقة نار بالدولة إلى هاوية الإفلاس (٦٩) .

(وقد التجأ نكير فيما بعد إلى القروض ، وأفضت حرب ١٧٧٨ بفرنسا إلى الإفلاس) .

وبعد أن تبين طورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ، ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، أمر بشتى ضروب الوفر ، وأصدر تعليمات بالألا يصرف مبلغ من الخزانة لأى غرض دون علمه أو موافقته ، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات ، والإنتاج ، والتجارة ، خطوات خطيرة . وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة . وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فى الغلال تجنباً لتدمير أهل المدن ، فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة ، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة ، وحددت سعر الخبز . ولكن انخفاض الأسعار التى دفعت للفلاح ثبطلت همته عن زرع المزيد من الغلال ، وثبتت غيره عن الاشتغال بالزراعة ، فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة للزراعة دون زرع ، وعطلت ثروة الأمة الممكنة عند متبعها . وبدأ إصلاح الزراعة فى نظر طورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا . ذلك أن إطلاق يد المزارع فى بيع غلته بأى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعى ، ويزيد قوته الشرائية ، وينفض به من الحياة البدائية الوحشية التى وصفها من قبل لابروير فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى (٧٠) .

ومن ثم فى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر طورجو من المجلس الملكى مرسوماً أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل أهل المدينة سيكون محرجاً . وكان ديون ديمور قد قدم للمرسم بدىباجة

تشرح الهدف منه ، وهو « تنشيط وتوسيع زراعة الأرض ، التي تعد غلتها أكثر ثروات الدولة حقيقة وضماناً ، والاحتفاظ بوفرة في الغلال عن طريق مخازنها واستيراد الغلال من الخارج . . . والقضاء على الاحتكار . . . وإثارة للمنافسة الحرة » وهذه المقدمة التفسيرية كانت هي ذاتها تجديداً يعكس ظهور الرأي العام كقوة سياسية . ورحب فولتير بالمرسوم فائحة لعصر اقتصادى جديد ، وتنبأ بأنه سيزيد بعد قليل من رخاء الأمة (٧١) . ثم أرسل مذكرة إلى طورجو قال فيها : « ان عليل فرنيه العجوز يشكر الطبيعة لأنها مدت في أجله حتى يرى مرسوم ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ . وهو يقدم احترامه لواضعه ، ويرجو له التوفيق » (٧٢) .

على أن هذا الترحيب خرج عليه رأى معارض ينذر بالسوء . ففي ربيع ١٧٧٥ جاء مصر في سويسرى يعيش في باريس ويدعى جاك نكير إلى طورجو يحمل مخطوطاً « عن قانون الغلال وتجارها » ، وسأل ان كان من الممكن نشره دون اضرار بالحكومة . وقد زعم نكير في كرامته أن قدراً من الإشراف الحكومى على الاقتصاد لابد منه أن أريد ألا يفضى محذوق القلة الفائق إلى تركيز الثروة في طرف وتكثيف الفقر في الطرف الآخر ، واقترح أن تستأنف الحكومة الإشراف والتنظيم إذا رفعت حرية التجارة من سعر الخبز فوق رقم معان . أما طورجو ، الوثائق من نظرياته ، والمجلة لحرية النشر ، فقد أخبر نكير بأن ينشر المخطوط ويدع الشعب يحكم (٧٣) . فنشره نكير .

ولم تقرأه جماهير المدن ولكنها اتفقت معه في الرأى . فحين ارتفع سعر الخبز في ربيع ١٧٧٥ اندلعت حوادث الشعب في عدة مدن . ففي الأقاليم المحيطة بباريس : والى تتحكم في انسياب الغلال إلى العاصمة ، راح بعض الرجال يتنقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد . وأحرقت العصابات المسلحة مزارع المزارعين والتجار وقذفت بالخبز من الغلال في سائر السنين ، ثم حاولت منع الغلال المستوردة من إكمال طريقها من الهافر إلى باريس . وفي ٢ مايو قادت جمعاً محتشداً إلى أبواب القصر في فرساي .

وأعتقد طورجو أن هذه العصابات يستخدمها الموظفون الباديون أو الإقليميون الذين فقدوا وظائفهم بانتهاء الإشراف الحكومي والذين كان هدفهم أن يخلقوا في باريس أزمة غلال ترفع سعر الخبز وتكره الحكومة على العودة إلى التجارة الخاضعة لحيثياتها^(٧٤) . وظهر الملك على شرفة من شرفات القصر وحاول الكلام ، ولكن ضجة الجمع طغت على كلامه . على أنه منع جنوده من إطلاق النار على الشعب ، وأمر بخفض سعر الخبز .

ولكن طورجو أكد أن هذا التدخل في قوانين العرض والطلب سيفسد محاولة اختبارها ؛ وكان واثقاً من أنه إذا تركت لها حرية العمل فإن المنافسة بين التجار وأصحاب المخازن ستبهط بأسعار الخبز عما قليل . وألغى الملك أمره بخفض السعر . وفي ٣ مايو تجمعت حشود غاضبة في باريس وبدأت تنهب المخازن . وأمر طورجو ملبشياً بباريس بحماية المخازن ومخازن الغلال ، وبإطلاق النار على أي شخص يحاول القيام بأعمال عنف . ثم حرص في الوقت نفسه على وصول الغلال الأجنبية إلى باريس والأسواق . وأكرهت هذه المنافسة المستوردة المحتكرين الذين حبسوا غلالهم توقعاً لارتفاع الأسعار على الإفراج عن مخزونهم . فأنخفض سعر الخبز . وهذا التمر . وقبض على نفر من زعمائه ، وشنق اثنان منهم بأمر البوليس . وخرج طورجو ظافراً من « حرب الدقيق » هذه . ولكن إيمان الملك بمبدأ عدم التدخل اهتز ، وأحزنه شنق هذين الشخصين في ميدان جريف .

ولكن سرته الإصلاحات التي يجريها طورجو في مالية الحكومة . فلم يمتص يوم على رسوم الغلال حتى بدأ الوزير العجول إصدار الأوامر لأوفر في مصروفات الدولة . ولتحصيل الضرائب تحصيلاً أكثر كفاءة ، ولإشراف إشرافاً أدق على الملتزمين العموميين . ثم بنقل الاحتكارات الأهلية في المركبات العامة . ومركبات البريد . وصنع البارود ، إلى الدولة . واقترح . ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء « بنك للخصم » وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية . وتلقى الودائع . وإعطاء القروض ، وإصدار البنكنوت الذي تدفع قيمته عند إبرازه . وقد اتخذ هذا البنك نموذجاً لبنك فرنسا الذي نظمه نابليون في ١٨٠٠ . فلم تحل نهاية عام ١٧٧٥

حتى كان طورجو قد خفض المصروفات ٦٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأنقص الفائدة على الدين الأهلي من ٨,٧٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . واستعبدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من المالين الهولنديين بفائدة أربعة في المائة ، ويسدد بهذه الطريقة ديوناً كانت الخزنة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى اثنتي عشرة في المائة . وأوشك أن يوازن الميزانية ، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد ، والإسراف ، وعدم الكفاءة ، وكثرة الفاقد .

في هذه الإصلاحات وغيرها لم يلق طورجو كبير عون من موريبا ، ولكنه لقي العون الكثير من كرتيان وماليرب ، الذي التقينا به من قبل حامياً للموسوعة ولروسو . فقد أرسل ، بوصفه الآن رئيساً لمحكمة المعونات (التي تختص بالضرائب غير المباشرة) ، إلى لويس السادس عشر (٦ مايو ١٧٧٥) ، مذكرة تشرح المظالم التي ينطوي عليها جميع الضرائب بواسطة الملتزمين العموميين ، وتحذر الملك من الكراهية التي يولدها استخدامهم . وأشار بتبسيط القوانين وتوضيحها ، وقال « ليس هناك قوانين حسنة غير القوانين البسيطة » وتعلق قلب الملك بماليرب ، فعينه وزيراً لبنت الملك (يوليو ١٧٧٥) وحث هذا اللبرالي المسن أويس على تأييد طورجو ، ولكنه نصح طورجو ألا يحاول الإسراف في إصلاحاته في وقت واحد ، لأن كل إصلاح سيخلق له أعداء جدد . وأجاب مراقب المالية العام . وماذا تريدني أن أفعل ؟ أن حاجات الشعب هائلة . ونحن في أسرى نموت بالنقرس في الخمسين » (٧٥) .

وفي يناير ١٧٧٦ فاجأ طورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك ، قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة في الغلال باريس ، وألغى العدو الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة ، وانضم الموظفون المتارودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه . وألغى مرسومان أو عدلا الضرائب المفروضة على المشايبة والشحوم ، فاغتبط الفلاحون . وألغى الرابع السخرة --- وهي أيام اثنا عشر أو خمسة عشر يفرض فيها الشغل المجاني على الفلاحين كل عام

لصيانة الكبارى ، والقنوات ، والطرق ؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجراً عن هذا العمل من حصيلة ضريبة تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية ؛ واعتبط الفلاحون ، وشكا النبلاء ، وأثار طورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التي وضعها في فم الملك .

«إننا لو استثنينا عدداً قليلاً من الأقاليم . . . لوجدنا أن كل طرق المملكة تقريباً شقت بتسخير أفقر شعائر من رعايانا ، فالعبء كله وقع إذن على أولئك الذين لا يملكون غير أيديهم ولا تهمهم هذه الطرق إلا بدرجة ثانوية جداً . أما الذين تهمون بها حقاً فهم ملاك الأرض . وكاهم تقريباً أشخاص يتمتعون بامتيازات ، ولما لا كهم تزداد قيمتها بشق الطرق . فلماذا أكره الفقير دون سواه على صيانة هذه الطرق ، ولماذا أكره على بذل وقته وجهده دون أجر ، كان ذلك معناه أن عدته الوحيدة ضد الفقر والجوع انتزعت منه لإلزامه بالعمل لمنفعة الأغنياء» (٧٦) .

فلما أوضح برلمان باريس أنه سيرفض تسجيل هذا المرسوم ، كاد طورجو يعلن الحرب الطبقة .

«إننى رغم عدائى للاستبدادية الآن كما كنت دائماً ، فأنى لن أنى عن أن أقول للملك ، وللبرلمان ، وللأمة بأسرها إن لزم الأمر ، أن هذا أمر من تلك الأمور التي يجب أن تقررها إرادة الملك المطلقة ، ولهذا السبب : وهو ان هذه القضية هي في صميمها قضية بين الأغنياء والفقراء . والآن ممن يتألف البرلمان ؟ من رجال أغنياء إذا قورنوا بالسواد الأعظم من الشعب ، وكلهم نبلاء لأن مناصبهم تحمل النبالة . ثم البلاط ، الذى يشتد في احتجاجه — ممن يتألف ؟ من كبار النبلاء ، الذين يملك أغلبهم ضياعاً ستخضع للضريبة . . . ونتيجة لذلك فلا اعتراض البرلمان . . . ولا حتى تدمير الحاشية يجب أن ينال من القضية على أى وجه . . . ومادام الشعب لا صوت له في البرلمان ، فإنه لا بد أن يرى الملك في القضية رأيه هو بعد الاستماع إلى هذه البرلمان ، ولا بد أن يحكم لصالح الشعب ، لأن هذه الطبقة أتعس طبقاته» (٧٧) .

أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية . وكانت قد أصبحت

أرستقراطية عمالة ، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريباً ، وحدث من الدخول في عضويتها باشرطائها رسوم التحاق عالية ، ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معامى الحرف . وقد عطلت الاختراع ، وعرقلت التجارة بالمكوس أو محظر المنتجات المتنافسة التي تدخل في نطاقها . وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاوين الصاعدة - وهم رجال يوفرون المبادأة ، ورأس المال ، والتنظيم ، ولكنهم يعلالبون بحرية استئجار أى عامل ، سواء من المتتمين للعوائف الحرفية أو غيرهم ، وبيع سلعهم في أى سوق في متناولهم - هذه الطبقة نددت بالعوائف الحرفية لأنها احتكارات تقيد التجارة . أما طورجو ، التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع ، والمشروعات ، والتجارة ، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء العوائف الحرفية . وقد جاء في ديباجة هذا المرسوم :

« كانت ممارسة الحرف والصنائع في جميع المدن تقريباً مركزة في أيدي عدد قليل من المعامدين المتحدين في نقابات ، والذين كان لهم وحدهم حرية صنع وبيع سلع الصناعة الخاصة التي ينفردون دون غيرهم بامتيازها . فالذى كرس نفسه لأى صناعة أو حرفة لم يكن في استطاعته ممارستها بحرية إلا بعد وصوله إلى مرتبة معلم الحرفة ، التي لا سبيل له إليها إلا بعد الخضوع لواجبات طويلة مملّة لا حاجة إليها ، وبعد أداء ابتزازات متكررة تجرّه من جزء من رأس المال الضرورى لإنشاء تجارة أو تجهيز ورشة . أما العاجزون عن توفير هذه النفقات فصيرهم العيش القاق تحت سلطان المعامدين ، ولا خيار أمامهم إلا الحياة في ضناك . . ، أو نقل صناعة قد تكون ذات نفع لوطنهم إلى بلد لاجنبى » (٧٨) .

وكان لهذه التهم الموجهة إلى النقابات الحرفية ما يبررها على قدر عايننا . ولكن طورجو استرسل في إجراءاته فحظر على جميع معامى الحرف وعمال المياومة والتلاميذ الصناعيين تكوين أى اتحاد أو جمعية (٧٩) . لقد آمن إيماناً مطلقاً بحرية المشروعات والتجارة ، ولم يتوقع أن يكون حق التنظيم هو الوسيلة الوحيدة التي يستتبع بها الصناع أن يجمعوا ضعفهم كأفراد في قوة جماعية للمساومة مع أصحاب العمل المنظمين . وقد أحس أن كل الغلطات

ستفيد في المدى الطويل بتحرير رجال الأعمال من القيود الإقطاعية والنقابية والحكومية المفروضة على المشروعات . وأعلن أن جميع الأشخاص في فرنسا — حتى الأجانب — أحرار في الاشتغال بأي صناعة أو تجارة .

وفي ٩ فبراير ١٧٧٦ رفعت المراسيم الستة إلى برلمان باريس . فلم يوافق إلا على واحد منها ألغى المناصب الصغيرة ، ورفض الموافقة على تسجيل الباقي . وخص بمعارضته إنهاء السخرة باعتباره افتئاتاً على الحقوق الإقطاعية^(٨١) . وبهذا القرار الذي اتخذ بالتصويت جهر البرلمان بأنه حارب طبقة النبلاء والصوت المعبر عنهم . وهو الذي زعم من قبل أنه حامى الشعب من الملك . ودخل فولتير المعركة بمراسلة هاجمت السخرة والبرلمان وأيدت تورجو ، فأمر البرلمان بمصادرة الكراسي . ودافع بعض وزراء الملك عن البرلمان ، فوجههم لويس في لحظة ثبات وجاد قائلاً « أرى جيداً أنه ليس هنا من يحب الشعب غيري وغير ميسيو تورجو »^(٨٢) . وفي ١٢ مارس دعا البرلمان إلى « سرير عدالة » (وهو المجلس القضائي العالي) في فرنسا ، وأمره بتسجيل المراسيم . واحتفلات مواكب من العمال بانتصار تورجو .

وأبطأ المراقب العام خطو ثورته بعد أن أزهقته الأزمات المتكررة . فلما طبق حرية التجارة الداخلية على صناعة النسيج (إبريل ١٧٧٦) لم يشك غير المحتكرين . ثم حث الملك على إرساء دعائم الحرية الدينية . وأصدر تعليماته إلى ديون دنيبور بأن يضع خطة لتكوين مجالس انتخابية في كل أبرشية ، يختارها كل من ملك أرضاً قيمتها ستائة جنيه أو يزيد ، وهذه المجالس المحلية تنتخب ممثلين في مجلس كنتوني ، تنتخب ممثلين في مجالس إقليمية . ينتخب نواباً في مجلس الأمة ، وكان تورجو مؤمناً بأن فرنسا ليست على استعداد للديمقراطية ، فاقترح ألا تعطى هذه المجالس إلا وظائف استشارية وإدارية ، أما السلطة التشريعية فتظل في يد الملك وحده ، ولكن عن طريق هذه المجالس يحاط الملك علماً بحال المملكة وحاجاتها . كذلك قدم تورجو للملك تخطيطاً للتعليم العام بصفته المدخل الذي لا بد منه للمواطنة المستنيرة . وقال : « مولاي ، لأنني أجزؤ على التأكيد بأنه إن تمضى سنتان حتى تبدل أمثلك فلا تتعرف عليها الأمم ، وبفضل التنوير والأخلاق الطيبة ...

ستسمو فوق جميع الدول الأخرى» (٨٢) ولكن الوزير أعوزة الوقت ،
والملك أعوزة المال ، لإخراج هذه الأفكار إلى حيز الوجود .

وكانت «راسيم طورجو - وديباجاتما - قد ألحقت غضب جميع
الطبقات ذات النفوذ عليه خلا التجار ورجال الصناعة ، الذين زكوا في
ظل الحرية الجديدة . والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريقة سلمية
تحرير رجل الأعمال ، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التي أسفرت عنها
الثورة الفرنسية . ومع ذلك عارضه بعض التجار سرّاً لأنه تدخل في
احتكاراتهم . وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على
الأرض ، ولأنه يستعدي الفقراء على الأغنياء . وأبغضه البرلمان لأنه أقنع
الملك بإبطال قرارات نقضه . ولم يثق به رجال الدين زاعمينه كافراً ينذر أن
يختلف إلى القداس ، ويدافع عن الحرية الدينية . وحاربه المائزموون العموميون
لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين في جمع الضرائب غير المباشرة .
وساء المالئين حصواه على القروض من الخارج بفائدة ٤٪ . وكرهته بطانة
الملك لأنه يخطط على إسرافهم ، ومعاشاتهم ، ووظائفهم الفخرية . أما
موريا ، وهو الأعلى منه منصباً في الوزارة ، فلم يغتبط بسلطان المراقب
 العام للمالية واستقلاله المتزايدين . وكتب السفير السويدي يقول «إن
طورجو يجد نفسه الهدف لحاف رهيب جداً» (٨٣) .

أما ماري أنطوانيت فقد رضيت عن طورجو أول الأمر ، وحاولت
أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته . ولكن سرعان ما استأنفت (حتى ١٧٧٧)
اسرافها في الثياب والعطايا . ولم يخف طورجو فزعه من مطالبتها من الخزانة ،
وكانت الملكة إرضاء لآن بولنيك قد حصلت على تعيين صديقهم الكونت
دجين سفيراً لفرنسا في لندن ؛ وهناك دخل في معاملات مالية مشبوهة .
وانضم طورجو إلى فرجين في الإشارة على الملك باستدعائه ؛ وأقسمت
الملكة لتنتقم منه .

وكان اللويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة في الوزير الثوري .
ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة ، وطبقة النبلاء ، وحتى البرلمان ،

وكانت هذه المؤسسات قد رسخت في التقاليد وتقدست بمرور الزمن ،
فإقلاقتها معناه خلخلة ركائز الدولة ؛ ولكن طورجو كان قد أقصاها كلها .
فهل تراه على حق وكل هؤلاء على ضلال ؟ وشكا لويس سرّاً من وزيره :
« إن أصدقائه فقط هم الأكفاء ، وأفكاره فقط هي الصائبة »^(٨٤) . وفي
كل يوم تقريباً كانت الملكة أو أحد أفراد الحاشية يحاول إثارتها على المراقب
العام . فلما رجاه طورجو أن يقاوم هذه الضغوط ولم يجب لويس ، عاد
إلى منزله وكتب إلى الملك (٣٠ ابريل ١٧٧٦) رسالة كانت الفاصلة في
مصيره :

« مولاي : ان أخفى عنكم أن قلبي مجروح جرحاً عميقاً بسبب صمت
جلالتيكم يوم الأحد الماضي . . . ذلك أنني ماكنت لاستصعب أمراً من
الأمر مادمت أوّل الاحتفاظ بتهديد جلالتيكم لصواب ما أفعل . واليوم
أى جزاء ألقى ؟ أن جلالتيكم ترون كم يستحيل على الماضي في طريق قد ما
ضد من يؤذونني بالشر الذي يصنعونه بي ، وبالحيز الذي يمنعونني من فعله
بتعذيل جميع إجراءاتي ، ومع ذلك فإن جلالتيكم لاتمنحونني عوناً ولا عزاء ،
وأنا أجروء يا مولاي على القول بأنني لا أستحق هذا الجزاء . . .

« إن جلالتيكم . . . قد دفعتم بافتقاركم إلى الخبرة . وأنا عايم بأنكم
وأنتم في الثانية والعشرين ، وفي منصبكم هذا ، لا تملكون المراتة على الحكم
على الرجال ، وهي مرانة يحصل عليها الأفراد العاديون بفضل الاختلاط
المعتاد مع نظرائهم ؛ ولكن هل سيتاح لكم مزيد من الخبرة بعد أسبوع ،
بعد شهر ؟ ألا يمكن أن تتخذوا القرار الحاسم حتى تتوافر لكم دانه الخبرة
البعيدة ؟ .

« مولاي ، إنني ملين لمسيو موريبا بالمنصب الذي قلدتموني إياه ، وان
أنسى له هذه اليد ، بحيث ، ولن أقصر أبداً في الاحترام الواجب له .
ولكن أتعلمون يا مولاي مبلغ ضعف شخصية المسيو دوريبا ؟ - وكم
تسيطر عليه أفكار من يلتفون حوله . إن الناس كلهم يعرفون أن مدام
دموريبا ، بتفكيرها الأضعف كثيراً من شخصيتها ، توحى إليه دائماً

برادتها . . . وهذا الضعف هو الذى يدفعه إلى الموافقة دون تردد على
سخط الخاشية على ، والذى يجردنى من كل ساطعة تقريباً فى إدارتى . . .

«مولاي ، لاتنس أن الضعف هو الذى أطاح برأس تشارلز الأول
على المقصلة . . . والذى جعل من لويس الثالث عشر عبداً متوجاً ، . . .
والذى جر على الحكم السالف كل ويلاته . . مولاي ، إنهم يعدونك
ضعيفاً ، وقد أتى وقت خشيت فيه أن يكون فى خلقك هذا العيب ، ومع
ذلك رأيتك فى مناسبات أكثر من هذه عسراً تبدى شجاعة أصيلة . . . ان
جلالتكم ان تستطيع الاستسلام لإرضاء مسيو دموريا دون أن تكون غير
صادق مع نفسك . . . » (٨٥) .

ولم يرد الملك على هذه الرسالة . فقد أحس أن عليه الآن أن يختار بين
موريا وطورجو ، وأن طورجو يطلب خضوع الحكومة التام تقريباً
لإرادته . وعليه فى ١٢ مايو ١٧٧٦ أرسل إلى طورجو أمراً بأن يستقيل .
وفى اليوم ذاته ، وخضوعاً لإرادة الملكة وآل بولنيك ، رفع الكونت دجين
إلى مرتبة الدوقية . فلما سمع مالرب بإقالة طورجو قدم استقالته . وقال
له لويس « إنك رجل محظوظ . ليتنى أنا أيضاً أستطيع ترك منصبى » (٨٦) .
وما لبث معظم من عينهم طورجو أن طردوا من مناصبهم . وصعقت ماريا
تريزا لهذه التطورات ، ووافقت فردريك وفولتير على أن سقوط طورجو
نذير بانهاى فرنسا (٨٧) ، وقد أحزنها الدور الذى لعبته ابنتها فى الأمر ،
وأبت أن تصدق تنصل الملكة من التبعة ، وكتب فولتير إلى لاهارب يقول :
« لم يبق لى إلا أن أموت بعد أن ذهب مسيو طورجو » (٨٨) .

أما طورجو فقد عاش بعد إقالته عيشة هادئة فى باريس ، يدرس
الرياضة ، والفزياء ، والكيمياء ، والتشريح . وكان يلتقى كثيراً بفرانكلن ،
وقد كتب له « مذكرة فى الرسوم » ثم اشتدت عليه وطأة القرس حتى
أكرهه بعد ١٧٧٨ على الاستعانة بعكازين فى مشيه . ومات فى ١٨ مارس
١٧٨١ بعد سنوات حفلت بالألم وخيبة الأمل . ولم يدر بخلده أن القرن
التاسع عشر سيقبل معظم أفكاره ويعلمها . وقد أجمل مالرب وصفه فى
حب فقال : « كان له رأس فرانسيس بيكن ، وقلب لويبتال » (٨٩) .

٦ - وزارة نكير الأولى : ١٧٧٦ - ٨١

خلف طورجو في رقابة المالية كلوفى دنوى ، الذى رد المسخرة والكثير من النقابات الحرفية ، ولم ينفذ مراسيم الغلال . . وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليوناً من الجنيهات بسعر أربعة فى المائة ، ولم يكشف الوزير الجديد طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيراً من إنشاء يا نصيب قوى (٣٠ يونيو ١٧٧٦) . فلما مات كلوفى (أكتوبر) ، أقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعى إلى خدمته الرجل الذى كان أكفأ نقاد طورجو .

كان جاك نكير بروتستنتياً ، ولد فى جنيف عام ١٧٣٢ وأرسله أبوه - وتان أسنذاً للقانون فى أكاديمية جنيف - إلى باريس ليعمل كاتباً فى مصرف اسحاق فرنيه . فلما تقاعد فرنيه أقرض نكير بعض المال ليفتح مصرفاً خاصاً به . وضم نكير ماله إلى مال رجل سويسرى آخر ، فأصابا نجاحاً بتقديم القروض للحكومة والمضاربة فى الغلال . وحين ناهز نكير الثلاثين كان غنياً ، محترماً ، عزباً . ولم يتمن الآن مزيداً من الثراء بل منصباً رفيعاً ، وفرصة للمخدمة الممتازة والشهرة القومية . وهذا يقتضيه زوجة وبيتاً يكون نقطة ارتكاز ، أو قاعدة عمليات . ومن ثم تودد إلى المركيزة فرمنو الأرملة ، فرفضته ، ولكنها جاءت من جنيف بسوزان كورشوا الجميلة الموهوبة التى كانت قبيل ذلك قد أفلتت من الزواج بأدورد جهون . ووقع نكير فى غرام سوزان . وتزوجها فى ١٧٦٤ . ويعد وفاؤها المتبادل طوال حياة حافلة بالأحداث من ألمع الأضواء فى مشكال ذلك العصر المضطرب . وأقاما بيتاً فوق مصرفه . وهناك أفتتحت صالوناً (١٧٦٥) دعت إليه الكتاب ورجال الأعمال ، أملاً فى أن تعبد هذه الصداقات طريق زوجها وتنبه .

وكان نكير نفسه يتحرق شوقاً للتأليف ، فبدأ فى ١٧٧٣ بكتابة « مديح لكويلير » الذى توجته الأكاديمية الفرنسية . واعتزل الآن عمله ودخل المعترك السياسى بذلك المقال « فى قانون الغلال » الذى عارض سياسة طورجو فى

عدم التدخل الحكومى . وظفر الكتيب بثناء ديدرو ، الذى لعله استمتع
بفقرة تكلم فيها المؤاف كما يتكلم الاشتراكيون ، وكان قد قرأ روسو . وقد
هاجم نكير :

« قوة الطبقة المالكة التى تمكنها من أن تدفع نظير جهد العامل أبخس
أجر لا يكاد يكتفى لغير الحاجات الماسة . . . إن كل المؤسسات المدنية
تقريباً أقامها الملاك . ولنا أن نقول إن قلة من الناس — بعد أن قسموا الأرض
فيما بينهم — شرعوا القوانين تكتلاً وضماناً لهم ضد الكثرة . . . ول هؤلاء
أن يتساءلوا . « أى معنى تعنيه لها قوانين الملكية التى شرعتموها ؟ — فنحن
لأنملك أملاكاً ، أو قوانينكم فى العدالة ؟ — فنحن لأنملك شيئاً ندافع عنه .
أو قوانينكم فى الحرية ؟ — فإننا سنموت جوعاً إن لم نعمل غداً » (٩٠) .

وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٧٦ عين اويس السادس عشر نكير « مديراً للخزانة
الملكية » بناء على تزكية موريبا . وكان تعييناً يشوبه الاعتذار . فقد احتج
بعض الأساقفة على السماح لبروتستنتى سويسرى بأن يتحكم فى مال الأمة ،
فأجاب موريبا ، « فى وسع رجال الدين أن يشاركوا فى اختيار الوزراء
إذا هم دفعوا ديون الدولة » (٩١) . وسترأ لهذا الواقع عين كاثوليكي فرنسى
يدعى تابورو دريو مراقباً عاماً للمالية له الرئاسة الاسمية على نكير . وتضاءلت
معارضه الاكليروس حين جعل نكير تدينه واضحاً جلياً . وفى ٢٩ يونيو
١٧٧٧ استقال تابورو ، وعين نكير مديراً عاماً للمالية . وقد رفض أن
يتقاضى راتباً ، بل أقرض الخزانة مليونى جنيه من ماله الخاص (٩٢) . ولكنه
ظل محروماً من لقب الوزير ، ولم يسمح له بعضوية المجلس الملكى .

وقد وفق فى حدود خلقه وساطته . ذلك أنه درب على علاج مشكلات
الصيرفة لا مشكلات الدولة ، وكان فى قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من
سياسة الرجال . وقد أرسى فى الإدارة المالية نظاماً وحسابات ووفرأ أفضل ،
وألقى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة . وإذا كان
محاذراً على ثقة المجتمع المالى ، فقد استطاع طرح أسهم بقروض أكسبت

الخزانة ١٤٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عام واحد . ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة ، فخفض من المظالم في فرض الضرائب ، وحسن المستشفيات ، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء المال بفائدة منخفضة ، وواصل جهود طورجو للحد من نفقات البلاط ، والبيت الملكي ، والمملكة . ورد إلى الملتزمين العموميين جمع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) ، غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق . وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية في برى ، وجرينوبل ، ومونتوبان ، ووضع سابقة هامة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلي الطبقة الثالثة (التي تنظم الطبقتين الوسطى والدنيا) في هذه المجالس مساوين لمثلي النبلاء والأكليروس مجتمعين . على أن الملك كان يختار أعضاء هذه المجالس ، ولم يسمح لهم بأى سلطة تشريعية . وقد ظفر نكير بنصر هام حين أقنع الملك بأن يعتق من بقى من الأفتان على الأراضي الملكية ، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحنوا حلوه . فلما رفضوا أشار نكير عليه بإلغاء القنبه كلها في فرنسا ، مع دفع التعويضات للسادة ، ولكن الملك الذى كان حبيس تقاليده أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغاً يعسر معه إلغاؤه بمرسوم (٩٣) . وفى ١٧٨٠ ، وتحت إلحاح نكير أيضاً ، أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائى ، وإلغاء السجون السفلية ، وفصل السجناء الذين جرموا فعلاً عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد ، وفصل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين . هذه وغيرها من انجازات وزارة نكير الأولى تستحق عرفاناً أكثر مما ناله عموماً . فلذا سألنا لم لم يعمل مبضعه بأعمق وأسرع مما أعمله ، وجب أن نتذكر أن طورجو قد لقي اللوم على طرحه القروض بدلاً من جمع الضرائب ، فى وقت واحد . وقد انتقد نكير على طرحه القروض بدلاً من جمع الضرائب ، ولكنه أحس بأن الشعب قد فرض عليه من الضرائب ما لا يكفى .

وقد أحسنت مدام كيبان تلخيص موقف الملك من وزرائه ، وهى اللصيقة دائماً بهذه الدراما المتطورة « لقد حكم طورجو ، ومالرب ، ونكير ، بأن هذا الملك المتواضع البسيط فى عاداته ، لن يتردد فى التضحية بحقه الملكى فى سبيل عظمة شعبه الحقيقية ؛ لقد كان قلبه ينعطف به نحو

الإصلاح ، ولكن تحيزاته ومخاوفه ، ومطالب الأشخاص الأتقياء وأصحاب الامتيازات الملحة جعلته جباناً ، وأكرهته على التخلي عن خطط أوحى بها إليه حبه للشعب»^(٩٤) . ومع ذلك فقد جرؤ على أن يقول في إعلان عام (١٧٨٠) لعل نكير كان قد أعده له ، إن « الضرائب المفروضة على أفقر شطر من رعايانا . . وقد زادت بنسبة تفوق كثيراً سائر الرعايا الباقين . » وأعرب عن آماله في ألا يحسب الأغنياء أنفسهم مظلومين إذا وجب عليهم ، بعد أن يردوا إلى المستوى العام (الضرائب) ، أن يؤدوا الفروض التي كان لابد أن يشاركوا فيها غيرهم منذ زمان بقدر أكبر من المساواة»^(٩٥) . وكان يرتعد إذا خطر بباله فولتير ، ولكن روحه التحررية شكها على غير وعى منه ذلك العمل الذي قام به فولتير ، وروسو ، وجماعة الفلاسفة بوجه عام لفصح المفاصل القديمة ولبعث الحياة الجديدة في المشاعر الإنسانية التي ارتبأت من قبل بالمسيحية . ففي هذا النصف الأول من حكمه بدأ لويس السادس عشر إصلاحات كان خليقاً بها لو اتصلت واتسعت شيئاً فشيئاً أن تنفادى الثورة . ثم إنه في عهد هذا الملك الضعيف نرى فرنسا التي سلبتها إنجلترا ممتلكاتها وأذلتها في عهد أسلافه — تكيل الضرائب بجرأة وبنجاح لبريطانيا الفخور ، وتعين بعملها هذا على تحرير أمريكا .

٧ — فرنسا وأمريكا

اتفقت الفلسفة هذه المرة مع الدبلوماسية . فتوافقت فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ورينال ، وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسي لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصر التحرير الفكري ، وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين — كواشنطن ، وفرانكلان ، وجفرسن — أبناء للتنوير الفرنسي ، ومن ثم فحين قدم سيلاس دين إلى فرنسا (مارس ١٧٧٦) لتجسساً قرضاً للمستعمرات الثائرة ، كان الرأي العام الفرنسي شديد التعاطف معه ، وراح بومارشيه في تحمسه يرسل المذكرة تلو المذكرة إلى فرجين يحثه فيها على مديد المعونة لأمريكا .

وكان فرجين نبيلاً يؤمن بالملكية والاسنقراطية ، ليس بينه وبين

الجمهوريات أو الثورات ود ، ولكنه كان تواقاً للثأر من انجلترا لفرنسا ، غير أنه لم يرض بالموافقة على أى معونة سافرة لأمريكا ، لأن البحرية البريطانية كانت لاتزال أقوى من الفرنسية رغم ما أنفقه عليها سارتين ، وكان فى قنصورها تدمير السفن الفرنسية إذا كانت الحرب سافرة إلا أنه أشار على الملك بالإذن ببعض المعونة السرية ، وحججه أن بريطانيا او سقطت الثورة لخلص لها فى أمريكا أو قربها أسطول قادر على الاستيلاء متى شاء على الممتلكات الفرنسية والإسبانية فى البحر الكاريبي . أما إذا أمكن المحاولة فى الثورة ، فإن فرنسا ستقوى ، وانجلترا تضعف ، وتستطيع البحرية الفرنسية استكمال تجديدها . أما لويس فكان يرتعد فرقاً لفكرة تقديم المعونة لثورة ما ، وحذر فرجين من أى عمل سافر قد يفضى إلى حرب مع انجلترا^(٩٦) .

وفى ابريل كتب فرجين إلى بومارشيه يقول :

« سنعطيك سرّاً مليوناً من الجنيهات ، وسنحاول الحصول على مبلغ مماثل من أسبانيا . (وقد حصوا على هذا المبلغ) وبهذين المليونين عليك أن تؤلف شركة تجارية ، وتزود الأمريكيين على مسئوليتك بالسلاح والذخيرة والأجهزة ، وسائر الأشياء التى يحتاجون إليها لمواصلة الحرب . وستسلمك ترسانتنا السلاح والذخيرة ، ولكنك ستعوضها أو تدفع ثمنها . وإياك أن تطلب مالا من الأمريكيين . لأنهم لا يملكون المال ، ولكن أطلب مقابلاً غلات أرضهم ، التى سنساعدك على بيعها فى هذا البلد »^(٩٧) .

وبهذا المال اشترى بومارشيه المدافع والبنادق والبارود والثياب والأجهزة اللازمة لخسة وعشرين ألف رجل ، ثم أرسل هذه البضائع إلى ميناء كان دين قد جمع فيه عدة قراصنة أمريكيين وأعاد تجهيزهم . وقد شجع وصول هذه المعونة أو الوعد الوثيق بها المستعمرين على إصدار إعلان الاستقلال (٤ يوليو ١٧٧٦) . فلما ترجم الإعلان إلى الفرنسية ، وتداوله الناس بموافقة الحكومة الفرنسية الضمنية ، استقبلته جماعة الفلاسفة بحفاوة وفرح ، وكذلك تلاميذ روسو الذين تبينوا فيه أصداء من « العقد الاجتماعى » .

وفي سبتمبر عين الكونجرس الأمريكي . بنيامين فرانكلين وآرثر لي —
ليمنزيا إلى فرنسا مندوبين ، وينضما إلى دين ، ويلتمسا لا المزيد من الإمداد
فحسب ، بل التحالف السافر ان أمكن .

ولم تكن هذه أول مرة ظهر فيها فرانكلين في أوروبا . ذلك أنه في
١٧٧٤ ذهب إلى إنجلترا ولم يكن قد بلغ التاسعة عشرة ، وقد اشتغل طباعاً ،
ونشر دفاعاً عن الاتحاد ^(٩٨) . وعاد إلى فيلادلفيا والروبية ، وتزوج ،
وانضم إلى جماعة الماسون ، وظفر بشهرة دولية بوصفه مخترعاً وعالمًا . وفي
١٧٥٧ أوفد إلى إنجلترا ممثلاً للمجلس بنسلفانيا في نزاع ضرائبي . ومكث
في إنجلترا خمس سنين ، والتقى بجونسن وغيره من وجوه القوم ، وزار
أسكتلنده ، والتقى بهيوم وروبرتسن ، ونال درجة من جامعة سانت
أندروز ، وأصبح منذ الآن الدكتور فرانكلان . ثم عاد إلى إنجلترا من ١٧٦٦
إلى ١٧٧٥ . وخطب في مجلس العموم معارضاً ضريبة الدمغة ، وحاول
المصالحة ، ثم عاد إلى أمريكا حين رأى أن الحرب واقعة . وقد شارك
في صياغة إعلان الاستقلال .

وصل فرانكلين إلى فرنسا في ديسمبر ١٧٧٦ ومعه حفيدهان له ، وكان
الآن في السبعين ، يبدو وكأنه الحكمة ذاتها مجسمة ، والعالم كله يعرف ذلك
الرأس الضخم والشعر المشعل الخفيف ، والوجه الشبيه بالبدر عند بزوغه
المشرق . وأمال عليه العلماء أسباب التكريم ، وادعى الفلاسفة والفيزيوقراطيون
أنه واحد منهم ، ورأى المعجبون بروما القديمة فيه سنسناطوس ، وسكيو
الأفريقي ، والكاتوين ، وقد بعثوا من مراقدهم ، وصففت نبيلات باريس
شعورهن في لمة مجمدة تقليداً لقبعته المصنوعة من فرو القندس ، ولا ريب
أنهن سمعن بغرامياته الكثيرة . وأذهلت الحاشية بساطة عاداته ، ولباسه ،
وحديثه ، ولكن بدلا من أن يبدو مضكاً في زيه القريب من زي الريفيين ،
كان احتياهم في الخجل والحير والخرم هو الذي تهدي الآن كأنه محاولة
فاشلة لإخفاء الواقع وراء مظهر كاذب . ومع ذلك قبلوه هم أيضاً ، لأنه
لم يستعرض أحلاماً لحكومات مثالية ، بل تكلم بتعقل وإدراك سليم ، وأظهر

الوعي الكامل بالمصاعب والحقائق . وكان يدرك أنه بروتستنتي ، ربوبي ، جمهوري ، يطلب العون من بلد كاثوليكي وملك تقى .

وقد باشر مهمته في حذر وحيلة . فلم يغضب أحداً ، وأبهج كل إنسان . وقدم فروض الاحترام لالفرجين فقط بل لمرابو الأب والمدام دودفان ، ولمع رأسه الأصيل في الصالونات وفي أكاديمية العلوم . وشرف نبيلاً شاباً هو الدوق دلا روشفوكو أن يكون سكرتيره . وكانت المجموع تجرى وراءه حين يظهر في الشوارع . ولقيت كتيبه ترحيباً واسعاً حين ترجمت ونشرت « أعمالاً كاملة » وطبع من كتاب واحد « تقويم ونشر د المسكين » ثمانى طبعات في ثلاثة أعوام . واختلف فرانكلين إلى محفل « النوف سير » الماسوني ومنح العضوية الفخرية ، وإعانة الرجال الذين التقى بهم هناك على كسب فرنسا في حلف مع أمريكا . ولكنه لم يستطع أن يطلب للتو المعونة السافرة من الحكومة . وكان جيش واشنطن يتقهقر أمام السر ولم هاو ، وبدأ أن معنوية الجيش تحطمت . وبينما كان فرانكلن ينتظر أحداثاً أكثر يمناً أقام في باسى ، وهى إحدى ضواحي باريس اللطيفة ، وراح يدرس ، ويفاوض ، ويكتب نشرات الدعاية تحت أسماء مستعارة ، ويستضيف طورجو ، ولافوازييه ، وموريلليه ، وكابانى ، ويغازل مدام دودتو في سائوا ومدام هلفتيوس في أوتوى ، ولا عجب فقد كان في هاتين المراتين فتنة جعلتهما جلداتين بغض النظر عن تقدمهما في العمر .

وكان بومارشيه وغيره أثناء ذلك يرسلون الإمداد إلى المستعمرات ، وضباط الجيش الفرنسيون يتعلوعون للقتال تحت إمرة واشنطن . كتب سيلاس دين في ١٧٧٦ « تتكاثر على تكاثر رهيباً طلبات الضباط الراغبين في الذهاب إلى أمريكا . . . ولو كان لدى عشر سفن هنا لماأتها كلها بركاب لأمريكا » (٩٩) . والعالم كله يعرف كيف ترك المركيز لافايت ، البالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، زوجة مخلصة محبلى ليرحل (ابريل ١٧٧٧) ويقاثل بلا راتب في جيش المستعمرات . وقد اعترف لواشنطن قائلاً « إن الشيء الوحيد الذى أتعطش إليه هو المجد » (١٠٠) ، وفى سبيل المجد أقنعهم كثيراً من المخاطر وألواناً من الهوان ، وجرح فى براند يواين ، وشارك فى أهوال فالى فورج . وظفر بالخبية الحارة من واشنطن رغم تحفظه المعهود .

وفي ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ هزم جيش للمستعمرين عدته عشرون ألف مقاتل قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندي بريطاني وثلاثة آلاف مرتزق ألماني قادمين من كندا في ساراتوجا وأكرهها على الاستسلام . فلما بلغ نبأ هذا الانتصار الأمريكي فرنسا وجدت مطالبة فرانكايين ، ودين ، ولي ، بابرام حلف قبولاً أكثر بين مشيرى الملك . غير أن نكير عارض إذ كره أن يرى ميزانيته التي قاربت التوازن تقلبها نفقات الحرب رأساً على عقب . إلا أن فرجين وموريبا ظفرا بموافقة لويس السادس عشر التي بدلها على مضمض حين حله من أن انجلترا — التي كانت عليمة منذ زمن طويل بالعون الفرنسى لأمريكا ومستاعة منه — قد تبرم صامحاً مع مستعمراتها وتوجه كامل قوتها الحربية ضد فرنسا . وعليه ففي ٦ فبراير ١٧٧٨ وقعت الحكومة الفرنسية معاهدتين مع « ولايات أمريكا المتحدة » أرست إحداهما علاقات التجارة ، والمعونة ، واشترطت الأخرى سرّاً أن ينضم الموقعان في الدفاع عن فرنسا إذا أعلنت عليها انجلترا الحرب ، ولا يبرم طرف صامحاً دون موافقة الآخر ، ويواصل كلاهما قتال انجلترا حتى يتحقق استقلال أمريكا .

وفي ٢٠ مارس استقبل لويس المبعوثين الأمريكيين ، ولبس فرانكلن جوارب حريرية طويلة لهذه المناسبة . وفي ابريل وصل جون آدمز ليحل محل دين ، وأقام مع فرانكلن في باسى ، ولكنه وجد الفيلسوف المعجوز في شغل بالنساء عن مهامه الرسمية . فتشاجر معه ، وحاول العمل على استدعائه لأمريكا ، ففشل ، وعاد إلى أمريكا . وعين فرانكلن وزيراً مفوضاً لدى فرنسا (سبتمبر ١٧٧٩) . وفي ١٧٨٠ ، حين كان يبلغ الرابعة والسبعين ، عرض الزواج دون جدوى على مدام هلفتيوس البالغة إحدى وستين سنة .

وأحب الفرنسيون كلهم تقريباً هذه الحرب عدا نكير . فقد كان عليه أن يجمع الأموال الطائلة التي أقرضتها فرنسا لأمريكا : مليون جنيه في ١٧٧٦ ، وثلاثة ملايين أخرى في ١٧٧٨ . ومليوناً آخر في ١٧٧٩ ، وأربعة في ١٧٨٠ . وأربعة في ١٧٨١ ، وستة في ١٧٨٢^(١٠١) . وبدأ مفاوضات

سرية مع اللورد نورث (أول ديسمبر ١٧٧٩) أملا في العثور على صيغة للصالح^(١٠٢). وكان عليه بالإضافة إلى هذه القروض أن يجمع المال لتمويل حكومة فرنسا وجيشها ، وبحريتها ، وبلاطها . وبلغت جملة ما اقترضه من المصرفين والشعب ٥٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه^(١٠٣). وقد لطف الأكليروس حتى اقترضوه أربعة عشر مليوناً ، ترد أقساطاً قيمتها مليون جنيه كل عام . وظل يرفض فرض ضرائب ، مع أن ثراء الطبقات العليا كان يمكن أن يجعل هذا الإجراء غير مؤلم نسبياً ، وسيشكو من خلفوه في منصبه . من أنه ألقي على عاتقهم هذه الضرورة التي لا يحصى عنها . وقد حبابه المليون لأنه منحهم على قروضهم معدلات الفائدة العالية التي طالبوا بها بحجة أنهم إنما يغامرون بأخطار متزايدة ، أخطار عدم استرداد قروضهم على الإطلاق . ورغبة في تنمية الثقة في المجتمع المالي ، نشر نكير بموافقة الملك في يناير ١٧٨١ « تقريراً مقدماً للملك » هدفه إطلاع الملك والأمة على إيرادات الحكومة ومصروفاتها ، وقد أضفى على الصورة إشراقاً بإسقاطه النفقات الحربية وغيرها من المصروفات « غير العادية » ، وإغفاله الدين القومي . وأقبل الجمهور على شراء « التقرير » بمعدل ثلاثين ألف نسخة في إثني عشر شهراً . وحيا الناس نكير ساحراً للمالية أنقذ الحكومة من الإفلاس . وطلبت كاترين الكبرى من جريم أن يؤكد لنكير « إعجابها الذي لا حد له بكتابه وبمواهبه »^(١٠٤). غير أن البلاط غضب لأن « التقرير المقدم للملك » فضح الكثير جداً من مفاصل الماضي المالية ، وكشف عن الكثير جداً من المعاشات التي تدفعها الخزانة . وهاجم بعضهم الوثيقة زاعماً أنها ليست إلا مديحاً للوزير بقلامه ، وغار موريا من نكير غيرته من طورجو من قبل وانضم إلى غيره في التوصية بإقالته . أما المالكة فدافعت عنه وان ساءتها لإجراءات الوفرة التي اتخذها ، ولكن فرجين سماه ثائراً^(١٠٥) . واشترك النظار المملكيون في اتهام نكير ومحاولة إسقاطه مخافة أن يحفظ التقويض سلطتهم بإنشاء المزيد من المجالس الإقليمية . وعمل نكير ذاته على سقوطه بتصريحه بأنه سيستقيل ما لم يمنح لقب الوزير وسلطته كما عين مع كرسي في المجلس المالكي ، وقال موريا للمالك أنه لو أجيب نكير إلى طلبه هذا

لتخلى جميع الوزراء الآخرين عن مناصبهم . واستسلم لويس ، وأُخلى سبيل نكير (١٩ مايو ١٧٨١) وحزنت باريس كلها لسقوطه إلا البلاط . وبحث يوزف الثانى بعزائه ، ودعته كاترين الثانية للحضور وإدارة مالية روسيا^(١١٦).

وفى ١٢ أكتوبر ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا ضد إنجلترا . وأوشك الأسطولان الفرنسى والإسبانى المجتمعان ، ببوارج مجموعها ١٤٠ ، أن يعدلا بوارج البحرية البريطانية وعددها ١٥٠^(١١٧) ، وقطعاً على بريطانيا مداتها على البحار . وقد أثر هذا التغيير فى ميزان القوة البحرية تأثيراً حيوياً فى الحرب الأمريكية . ذلك أن الجيش البريطانى الرئيسى فى أمريكا ، وعدته سبعة آلاف مقاتل يقودهم اللورد كورنواليس ، احتل موقعاً حصيناً فى يوركتون على نهر يورك قرب خليج تشيزايبك . وكان لافاييت برجاله الخمسة آلاف وواشطن برجاله الأحد عشر ألفاً (بما فيهم ثلاثة آلاف فرنسى تحت إمرة الكونت روشامبو) قد التقيا عند يوركتون واستوليا على كل المداخل البرية الميسورة . وفى ٥ سبتمبر ١ٷ٨١ هزم أسطول فرنسى بقيادة الكونت دجراس أسطولاً إنجليزياً صغيراً فى الخليج . ثم أغلق كل مهرب مائى على قوة كورنواليس الأقل عدداً . فلما استنفد كورنواليس ذخيره استسلم هو وجميع رجاله (١٩ أكتوبر ١٧٨١) . واستطاعت فرنسا أن تزعم أن دجراس ، ولافاييت ، ورشامبو قد لعبوا أدواراً كبرى فى ذلك الحدث الذى تبين أنه الفاصل فى الحرب .

وطلبت إنجلترا الصلح . وأوفد شلبيرن بعثتين منفصلتين إلى الحكومة الفرنسية والمبعوثين الأمريكان فى فرنسا ، آملاً أن يثير أحد الحليفين على الآخر . وكان فرجين (١٧٨١) قد فكر من قبل فى الصلح مع إنجلترا على أساس اقتسام معظم أمريكا الشمالية بين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا^(١١٨) ، وبدأ تفاهماً مع أسبانيا ليبقى وادى المسسى تحت السيطرة الأوروبية^(١١٩) . وفى نوفمبر ١٧٨٢ اقترح تأييد الإنجليز فى سعيهم لأقصاء الولايات الأمريكية من مصايد الأسماك النيوفوند لنديّة^(١٢٠) . وكانت هذه المفاوضات متفقة تماماً مع السوابق الدبلوماسية ، ولكن المبعوثين الأمريكين أحسوا حين

علموا بها أن الوضع يبرر عملهم بمثل هذه السرية . واتفق فرجين وفرانكلن على أن لكل حلف أن يتعامل مع إنجلترا مستقلاً عن الآخر ، على ألا يوقع طرف أى معاهدة صلح دون موافقة الطرف الآخر (١١١) .

أما المفاوضون الأمريكيان — خصوصاً جون جاي وفرانكلن — فقد لعبوا اللعبة الدبلوماسية بمهارة فائقة ، فلم يكسبها للولايات المتحدة الاستقلال فحسب ، بل حق استعمال المصايد النيوفوندي لندية ، ونصف البحيرات العظمى ، وكل المنطقة الشاسعة الغنية الواقعة بين جبال الياجاني والمسيبي ، وكانت هذه الشروط أفضل كثيراً مما توقع الكونجرس الأمريكي الحصول عليه . وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ وقع جاي ، وفرانكلن ، وآدمز ، معاهدة تمهيدية مع إنجلترا ، كانت من الناحية الرسمية انتهاكاً للاتفاق المبرم مع فرجين ، ولكنها اشترطت ألا يكون لها صلاحية حتى تبرم إنجلترا الصلح مع فرنسا . وشكا فرجين ، ثم قبل الوضع . وفى ٣ سبتمبر ١٧٨٣ وقعت المعاهدة النهائية « باسم الثالث الأقدس غير المنقسم » (١١٢) — بين إنجلترا وأمريكا فى باريس . وبين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا فى فرساي . وبقي فرانكلن فى فرنسا سفيراً للولايات المتحدة حتى ١٧٨٥ . فاما قضى نخبه فى فيلادلفيا (١٧ ابريل ١٧٩٠) لبست الجمعية التأسيسية الفرنسية الحداد عليه ثلاثة أيام .

وقد أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة . فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا على الصراع بليوناً من الجنيهات ، وكانت الفائدة على الدين القومى تبحر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد . على أن ذلك الدين كان مشككاً بين الحكومة والأغنياء لا تكاد تؤثر فى الشعب ، الذى أثرى كثير من أفرادها بفضل تنشيط الصناعة . وقد أوديت الملكية — لا الأمة — أذى بليغاً . وإلا فكيف يستطيع التاريخ تحليل النجاح الذى ثبت به اقتصاد فرنسا الثائرة وجيوشها لنصف أوربا من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥ ؟

لاريب فى أن روح فرنسا قد رفعت . فقد رأى رجال الدواة فى صلح

١٧٨٣ بعثاً ظافراً أقامها من كبوتها عام ١٧٦٣ . أما جاعة الفلاسفة فقد هلكوا للنتيجة ورأوها انتصاراً لآرائهم ، والحق ، كما قال توكفيل « ان الأمريكيين بدوا كأنهم نفذوا ما حلم به كتابنا »^(١١٣) . ورأى الكثير من الفرنسيين في الإنجاز الذى حققته المستعمرات إرهاباً يبشر بانتشار الديمقراطية في أوروبا كلها . وسرت الأفكار الديمقراطية حتى إلى الطبقة الأرستقراطية والبرلمانات . وأصبح إعلان الحقوق الذى أصدره مؤتمر فرجينيا الدستورى في ١٢ يونيو ١٧٧٦ ، وقانون الحقوق الذى ألحق بالدستور الأمريكى ، من بعض الوجوه نموذجين هذا حلوهما إعلان حقوق الإنسان الذى أعلنته الجمعية التأسيسية الفرنسية في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ .

ولقد كان البهاء الأخير لفرنسا الإقطاعية ، وأوج فروسياتها ، أن تموت وهى نعين على إرساء دعائم الديمقراطية في أمريكا . صحيح أن معظم رجال الدولة الفرنسيين كانوا يفكرون بلغة بعث قوة فرنسا وحيويتها . غير أن حساسة النبلاء من أمثال لافاييت وروكامبو كانت حقيقية لأمرائها فيها . فلقد خاطروا بحياتهم غير مرة في سبيل الدولة الوليدة . كتب الكونت سيجور الشاب يقول « لم أكن قط الوحيد الذى خفق قلبه لصوت استيلاء الحرية وهى تكافح للتخلص من السلسلة الاستبدادية »^(١١٤) . ونزول النبلاء الشهير عن حقوقهم الإقطاعية في الجمعية التأسيسية (٤ أغسطس ١٧٨٩) صور ومهد له هنا سلفاً . لقد كان ضرباً بأسلا من الهاربا - كبرى ، بذلت فيه فرنسا المال والدم لأمريكا ، ونالت لقاء ذلك دفعة جديدة للحرية .



الفصل الخامس والثلاثون

الموت والفلاسفة

١٧٧٤ - ١٨٠٧

١ - نهاية فولتير

أ - الشفق في فرنیه

كان يناهز الثمانين في ١٧٧٤ ، وكانت تغشاه نوبات إغماء في هذه السنين ونحن نسميها حالات بسيطة من النقطة ، وقد سماها هو إنذارات صغيرة ولم يعبأ بها ، لأنه وطن نفسه على الموت منذ أمد بعيد ، ولكنه عمر واستمتع بإعجاب الملوک والملکات . فقد وصفته كاترين الكبرى بأنه « أشهر رجال عصرنا »^(١) . وكتب فردريك الأكبر في ١٧٧٥ « أن الناس يتزاحمون ويتجاذبون على شراء تماثيل فولتير النصفية بمصنع البرسلان » في برلين « حيث لا ينتجون التماثيل بسرعة تكفي لتلبية الطلب عليها »^(٢) . وكانت فرنیه قد أصبحت منذ زمان كعبة يحج إليها المثقفون الأوروبيون ، أما الآن فكانت مزاراً دينياً تقريباً ، فاستمع إلى مدام سوار عقب زيارتها لها في ١٧٧٥ تقول : « لقد رأيت مسيو فولتير ، ان نشوات القديسة تريزا لم تفق قط تلك التي استشعرتها وأنا أرى هذا الرجل العظيم . فقد بدا لي أنني في حضرة إله ، إله محبوب معبود ، استطعت في خاتمة المطاف أن أعرب له عن كل عرفاني وكل احترامی »^(٣) . وحين مر بجنيف عام ١٧٧٦ كاد ينحقه الجمع المتحمس الذي التف حوله^(٤) .

وقد واصل اهتمامه بالسياسة والأدب حتى في ثمانيناته . فحيا ارتقاء

لويس السادس العرش بمديح تاريخي للعقل ، اقترح فيه بأسلوب التنبؤ - بعض الإصلاحات التي تحبب الأجيال القادمة في الحاكم الجديد :

« سوف توحد القوانين . . . وستلغى الوظائف المتعددة (التي يجمع بينها كنسي واحد) والإنفاق الذي لا حاجة إليه . . . وسيعطى للفقراء الكادحين تلك الثروة الضخمة التي يمتلكها فريق من الكسالى كانوا قد نذروا حياة الفقر من قبل . ولن تعد الزيجات التي تبرمها مائة ألف من الأسر (البروتستنتية) النافعة للدولة نوعاً من التسرى ، ولا أطفالها أبناء غير شرعيين . . . وان تعاقب الذنوب الصغيرة على أنها جرائم جسيمة . . . وأن يستخدم التعذيب . . . وان يكون هناك بعد سلطتان (الدولة والكنيسة) ، لأنه لا يمكن أن يكون غير واحدة - وهي ساطعة قانون الملك في الملكية ، وسلطة الأمة في الجمهورية . . . وأخيراً ، سنجرؤ على أن نفوه بكلمة التسامح » (٥) .

وقد أنجز لويس الكثير من هذه الإصلاحات ، فيما عدا الكنسية منها . وكان لتقواه الصادقة ، ولاقتناعه بأن ولاء الكنيسة سبيل لا غنى عنه لعرشه ، بأسف على تأثير فولتير . ففي يوليو ١٧٧٤ أصدر حكومته تعليماتها لناظر برجندييه الملكي بمراقبة المهترطق العجوز مراقبة يقطعة ، ومصادرة أرواقه جميعها فور وفاته ، وكانت ماري أنغلوانيت تتعاطف مع فولتير ، وقد بكت حين شهدت تمثيل مسرحية « تانكريد » ، وقالت أنها تود أن « تعانق مؤلفها » (٦) ، فأرسل لها أبياتاً لطيفة .

وقد غمرته نوبة من التفاؤل يوم عين صديقه طورجو مراقباً عاماً للمالية ، ولكن حين أقبل طورجو أصابه تشاؤم بسكالى قاتم حول أحوال البشر ، ثم استعاد السعادة بتبنيه ابنة ، هي رين فليبرت دفاريكور التي قدموها إليه في ١٧٧٥ على أنها فتاة تنوى أسرتها لإدخالها أحد الأديرة لأنها تشكو فقراً يمنعها من تدبير مهر لها . وقد أذفاً جمالها البريء عظام الشيخ ، فأخذها في بيته ، وسماها « جميلة وطيبة » ووجد لها زوجاً - هو المركز دفليت الشاب الموسر . وتزوجا في ١٧٧٧ ، وقضيا شهر العسل في فرنيه . كتب

يقول « ان العاشقين الشابين بهجة للناظرين ، وهما يعكفان على العمل ليل نهار ليصنعا فيلسوفاً صغيراً الى » (٧) ، ذلك أن الثمانين الأبترا اغتبط لفكرة الأوبة ولو بالأناوبة .

وكتب أثناء ذلك آخر دراماته « ابرين » ودفعها إلى الكوميدي فرانسيز . وقد أحدث قبولها (يناير ١٧٧٨) مشكلة . ذلك أن الفرقة درجت على أن تقدم كل مسرحية حسب تاريخ قبولها ، وكانت الفرقة قد تلقت مسرحيتين أخريين ووافقت عليهما قبل مسرحية فولتير - احدهما بقلم جان فونسوا دلاهارب ، والأخرى بقلم نيقولا بارت . وتنازل المؤلفان كلاهما للتو عن حقهما المقدمين في التمثيل . وكتب بارت إلى الفرقة يقول :

« لقد قرئت عليكم تمثيلية جديدة بقلم مسيو فولتير وكنتم على وشك النظر في تمثيل مسرحيتي « الرجل ذاته » . « وليس أمامكم الآن غير شيء واحد ، هو ألا تفكروا في مسرحيتي أكثر من ذلك . وأنا علمم بالإجراء المتبع في هذه الأحوال ، ولكن أى كاتب يجرؤ على المطالبة بالتزام القاعدة في حالة كهذه ؟ أن مسيو فولتير يقف فوق القانون كأنه ملك . وإذا لم يكن في الإمكان أن أتشرف بتقديم إسهامى في امتاع الجمهور ، فلا أقل من التنحى عن طريق إلهاج الجمهور بمسرحية جديدة من القلم الذى أنشأ « زائير » و « مروب » . انى لأرجو أن تعرضوا هذه المسرحية بأسرع ما تستطيعون وأتمنى لو واصل مؤلفها ، مثل سوفوكليس ، تأليف التراجيديات حتى يبلغ المائة سنة ، ثم يموت كما نحيون أيها السادة - مكللاً بفيض غامر من التصفيق » (٨) .

فلما بلغ النبأ فولتير داعب في حب فكرة الذهاب إلى باريس ليشرف على إخراج مسرحيته . ذلك أنه لم يكن هناك على أية حال حظر رسمى أو صريح على دخوله باريس . وأى بأس فى أن يهاجمه رجال الدين من فوق منابرهم ؟ انه ألف ذلك . وماذا لو أقنعوا الملك بزجه فى الباستيل ؟ حسنا ، انه ألف ذلك أيضاً . فيا لها من فرحة أن يرى المدينة الكبرى مرة أخرى بعد أن غدت قصبة التنوير ! لكم تغيرت طبعاً منذ فراره الأخير منها قبل

ثمانية وعشرين عاماً ! ثم أن مدام دنى ، التي ماتت فرنیه منذ زمن طويل ، كثيراً ما توسلت إليه أن يعود بها إلى باريس . وعرض المركيز دفلبيت أن يهيئ له أسباب الإقامة المريحة في قصره في شارع بون . وأقبلت الرسائل ترى من باريس صائحة : تعال !

فقرر أن يذهب . فإذا أجهزت عليه الرحلة فإنها ان تفعل أكثر من تقديم نهاية ما لا مفر منها زماناً يسيراً ، فالآن حان وقت الموت . واعترض على الكفرة وحزن خدام بيته ، ومشرفو مزرعته ، وفلاحو أرضه ، والعمال في مستعمرته الصناعية ، فوعدهم بأن يعود بعد ستة أسابيع ، ولكنهم كانوا واثقين في حزن أنهم ان يروه بعدها أبداً . وأى خالف له سيمبلف عليهم عطشه ؟ فلما غادرت القافلة فرنیه (٥ فبراير ١٧٧٨) التفت أتباعه من حوله ، وبكى الكثير منهم ، ولم يستطع هو ذاته أن يملك دموعه . وبعد خمسة أيام ، ورحلة ثلاثمائة ميل ، وقع بصره على باريس .

ب — تمجيد فولتير

حين بلغت المركبة أبواب باريس فتشها الموظفون بحثاً عن المندوعات . وقال لهم فولتير مؤكداً « ودبنى أيها السادة اننى أعتقد أن ليس هنا من ممنوع غير شخصى »^(١) . ويؤكد لنا سكرتيره فانير أن سيده « تمتع طوال الرحلة بصحبة سابعة . فلم أره قط أروق مزاجاً ، وكان مرحة مبهجاً »^(٢) للنظارين .

وأعد له جناح في بيت مسيو دفلبيت في زاوية شارع بون والكى دى تياتر على الضفة اليسرى لنهر السين . وفور ترجمه من مركبته سار على الرصيف قاصداً بيت صديقه دارجنثال القريب ، وكان قد ناهز الثامنة والسبعين . ولم يكن الكونت في بيته . ولكن سرعان ما ظهر في قصر فيلبيت . وقال فولتير « توقفت عن الموت لآتى وأراك » . وبعثت إليه صديقة قديمة أخرى بكلمات ترحيب . فرد عليها بتأنيقه المألوف في نعى نفسه « لقد وصلت ميتاً ، ولا أريد أن أبعث حياً إلا لأرتقى تحت قدمى المركيزة دودفان »^(٣) . وأبلغه المركيز جوكور أن لويس السادس عشر ناطر ماجيئه إلى باريس ، ولكن

مدام دبولنيك جاءت لتؤكد له أن ماري أنطوانيت ستحميه^(١٢). ورغب الأكليروس في طرده ، ولكن لم يوجد في السجلات أى حظر رسمى يحرم زيارة فولتير لباريس ، واكتفى لويس برفض رجاء الملكة السماح للكاتب الذى طبقت شهرته الآفاق بالمشول فى البلاط^(١٣).

وحين ذاع فى باريس نبأ خروج الرجل الذى حدد الطابع الفكرى للقرن الثامن عشر من منفاه الطويل الأمد ، تحولت قاعة الأوتيل فيليت إلى بلاط وعرض حقيقتين . وقد قيل إنه فى ١١ فبراير زاره ثلاثمائة شخص ، منهم جلوك ، وبلتينى ، وطورجو ، وتاليران . ومارمونتيل ، والسيدات نكير ، ودوبارى ، ودودفان . وأتى فرانكلن فى صحبة حفيد له فى السابعة عشرة ، طالباً بركة الشيخ الجليل عليه ، ورفع فولتير يديه فوق رأس الصبي ، وقال بالإنجليزية « يابنى ، الله والحرية ، تذكر هاتين الكلمتين »^(١٤). فلما استمر سيل الزوار يتدفق يوماً بعد يوم كتب الدكتور ترونشان إلى الماركيز د فيليت يقول : « ان فولتير يعيش الآن على رأسماله لا على الفائدة ، وان تلبث عافيته أن تتبدد من جراء أسلوب عيشه هذا . ونشرت هذه الرسالة القصيرة فى « الجورنال دبارى » فى ١٩ فبراير ، لمنع الفضوليين فيما يبدو من الزيارة »^(١٥). أما فولتير نفسه فكان قد تنبأ فى فريته مما سيكلفه انتصاره : « سأموت بعد أربعة أيام ان كان على أن أحيا حياة أهل الدنيا »^(١٦).

وخطر لبعض رجال الدين أنهم قد يحققون نصراً كبيراً لو أصالحوا بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية . وكان نصف راعب فى هذا الصلاح ، لأنه كان عليمًا بأن الذين ماتوا فى أحضان الكنيسة هم وحدهم الذين يمكن دفنهم فى أرض مقدسة ، وكل المقابر فى فرنسا كانت أرضها مقدسة . ومن ثم فقد رحب بخطاب ورد له فى ٢٠ فبراير من الأبيه جولتييه يطلب مقابله . وجاء الأبيه فى اليوم الواحد والعشرين ، وتحدثا برهة ، دون نتيجة لاهوتيه معروفة . ثم رجعت مدام دنى الأبيه أن ينصرف ، وقال له فولتير أن له أن يحضر ثانية . وفى اليوم الخامس والعشرين أصيب فولتير بنزيف شديد ،

فنفث الدم من فمه وأنه حين سعل . وأمر سكرتيره بأن يستدعى جولتييه . ويقول فاجنيير معترفاً : « لقد أمسكت رسالتى لأننى كرهت أن يقال أن مسيو فولتير قد تخاذل ، فأكدت له أن الأبيه لم يمكن العثور عليه » (١٧) . وكان فاجنيير عليماً بأن الشكاك في باريس يعللون أنفسهم بالأمل بأن فولتير لن يستسلم للكنيسة في اللحظة الأخيرة ، ولعله سمع بنهوءة فردريك الأكبر ، « انه سيخزيينا جميعاً » (١٨) .

وعاده ترونشان وأوقف الزيف ، ولكن فولتير ظل يبصق الدم في الأيام الاثني والعشرين التالية . وفي اليوم السادس عشر كتب إلى جولتييه يقول : « أرجو أن توافيني بأسرع ما تستطيع » (١٩) . وجاء جولتييه في صباح الغد فوجد فولتير نائماً ، فانصرف . وفي اليوم الثامن والعشرين سلم فولتير فاجنيير اعترافاً بالإيمان نصه : « انى أموت وأنا أعبد الله ، وأحب أصدقائى ، ولا أبغض أعدائى ، وأكره الاضطهاد » (٢٠) . وعاد جولتييه في ٢ مارس ، وطلب فولتير الاعتراف على يديه ، وأجاب الأبيه بأن جان دترسك كاهن سان — سوليس اشترط عليه أن يحصل على عدول عن آرائه قبل أن يستمع إلى الاعتراف . واعرض فاجنيير . وطلب فولتير قلماً وورقاً ، وكتب بخطه :

« أنا الموقع أدناه ، نظراً إلى إصابتى في الشهور الأربعة الماضية بتقيؤ الدم ، ولما كنت عاجزاً وأنا في الرابعة والثمانين عن جر نفسى إلى الكنيسة ، ولما كان كاهن سان سوليس يريد أن يضيف إلى حسناته حسنة بإيفاد الأبيه جولتييه إلى ، فقد اعترفت على يديه ، (وأعلن) أنه إذا قبضنى الله إليه ، فلانى أموت على الدين الكاثوليكي الذى ولدت فيه ، مؤملاً في رحمة الله أن تغفر لى كل أخطائى ، وإذا كنت قد صدمت الكنيسة في يوم ما ، فلانى أطلب المغفرة من الله ومنها . التوقيع ، فولتير ، في الثانى من مارس ١٧٧٨ ، في بيت الماركيز فيليب (٢١) .

ووقع المسيو فييلفيل والأبيه منيو (ابن أخت لفولتير) الإقرار بوصفهما شاهدين . وحمله جولتييه إلى رئيس الأساقفة في ضاحية كونفلانس وإلى

كاهن سان — سولبيس ، فأعلن كلاهما أنه غير كاف^(٢٢) . ومع ذلك استعد جولتييه لمناولة القربان لفولتير ، ولكن فولتير اقترح تأجيل المناولة قائلا « أننى أبصق الدم فى سعالى باستمرار ، ويجب أن نحذر من اختلاط دى بدم الآله الصالح »^(٢٣) . ولسنا ندرى بأى روح قال هذه الكلمات — أبروح التقوى الصادقة أم بروح النزوة العارضة .

وفى ٣ مارس حضر ديدرو ، ودالامبير ، ومارمونتييل ، ليعودوا المريض . فلما جاءه جولتييه فى ذلك اليوم يحمل تعليمات من رئيسه بأن يحصل على اعتراف « أقل لبسا وأكثر تفصيلا » قيل له أن فولتير ليس فى حال تسمح له باستقباله . وعاد جولتييه عدة مرات ، ولكنه فى كل مرة كان يصرفه الحارس السويسرى الواقف بالباب . وفى ٤ مارس كتب فولتير إلى كاهن سان — سولبيس يعتذر لتمامه مع مرعوس له . وفى ١٣ مارس استقبل الكاهن ، ولكن يبدو أن الزيارة لم تسفر إلا عن تبادل المجاملات^(٢٤) . ثم توقفت نوبات الزيف أثناء ذلك . فشعر فولتير بأنه يستعيد عافيته ، وفترت تقواه .

وفى ١٦ مارس مثلت « ايرين » على مسرح التياتر — فرانسيه . وحضر الحفلة كل البلاط تقريباً بما فيهم المالكة . ولم تكن المسرحية مما يرقى إلى مستوى فولتير العادى ، ولكنها ظفرت مع ذلك بالثناء باعتبارها إنتاجاً رائعاً لرجل فى الرابعة والثمانين . أما فولتير الذى حالت شدة المرض بينه وبين حضور الحفلة فقد كان يحاط علماً باستجابة النظارة فصلاً فصلاً ، وفى اليوم السابع عشر جاءه وفد من الأكاديمية الفرنسية يحمل إليه تهنئتها . وفى ٢١ مارس شعر بأن فيه من العافية ما يسمح له بالخروج ركباً عربته ، فرار سوزان دلفرى ، مركيزة جوفرتيه ، التى كانت خليلته . قبل ثلاثة وستين عاماً . وفى الثامن والعشرين زار طورجو .

وكان يوم ٣٠ مارس يومه الأغر . فقد ذهب بعد ظهره إلى اللوفر ليعتصر اجتماعاً الأكاديمية . قال دنى فون فيزن ، وهو كاتب روسى كان يومها فى باريس « حين خرج ركباً عربته من بيته رافقها حتى الأكاديمية

حشد لا آخر له من الناس الذين لم يكفوا عن التصفيق . وخرج جميع الأكاديميين للقائه ^(٢٥) . ورحب دالامبير بمقدمة خطاب اغرورقت له عينا الشيخ . وأجلس فولتير في كرسي الرئاسة ، وانتخب وسط التصفيق رئيساً للدورة أبريل الربعية . فلما انتهت الجلسة ودعوه حتى مركبته ، التي سارت من هناك بمشقة إلى التياتر — فرانسيه مخترة حشداً ضخماً يردد الهتاف « يحي فولتير » .

فلما دخل المسرح قام النظارة والممثلون جميعاً لتحيته . وشق طريقه إلى المقصورة التي كانت تنتظره فيها مدام دني والمركيزة دفيابت . فجلس حلفهما ، ورجاه النظارة أن ييسر لهم رؤيته ، فاتخذ مقعداً بين السيدتين . وجاء ممثل إلى المقصورة ووضع لأكليلا من الغار على هامة فولتير ، فرفعه ووضع على رأس الماركيزه ، ولكنها أصرت على أن يقبله . وارتفعت أصوات بين النظارة تهتف « مرحباً بفولتير ! » « مرحباً بسوفوكليس ! » « الأجلال للفيلسوف الذي يعلم الناس أن يفكروا ! » « المجد للمدافع عن كالاس ! » ^(٢٦) قال جريم ، وكان شاهد عيان : « استمرت هذه الحماسة . هذا الهديان الشامل ، أكثر من عشرين دقيقة » ^(٢٧) . ثم عرضت « أيرين » للمرة السادسة . وفي ختام الحفلة طالب النظارة بكلمة من المؤلف ، فاستجاب فولتير . ورفع الستار ثانية ، وكان الممثلون قد أخذوا تمثالا نصفياً لفولتير من البهو ووضعوه على خشبة المسرح ، فكللوه الآن بالغار ، وقرأت مدام فستريس التي لعبت دور أيرين على فولتير أبياتاً في مديحه :

أمام عيون باريس المفتونة بك

تقبل اليوم تحية إجلال

سوف تؤكد لها الأجيال الصارمة

من عصر إلى عصر .

كلا . فما من حاجة بك

إلى بلوغ الشاطئ المظلم

لتحظى بشرف الخلود .

فتقبل يا فولتير التاج

الذى قدم إليك ،

فما أجمل أن تكون جديراً به

حين تكون فرنساً هي التى تقدمه (٢٨) .

وطلب النظارة إعادة الأبيات ، فأعيدت . وخلال التصديق غادر فولتير كرسىه ، وأفسح له الجمع الطريق ، وقادوه إلى مركبته وسط جمهوية يفيض حماساً . وجيء بالمشاعل ، وأقنعوا السائق بأن يبطئ السير بالمركبة ، وصاحبها جمع حتى الأوتيسل دفيليت (٢٩) . ان تاريخ الأدب الفرنسى بأسره لم يحوقط فيما نعلم شهيداً كهذا .

كتبت مدام فيجيه - لبرون التى شهدت هذا كله تقول : « كان الشيخ الذائع الصيت قد شف وهزل حتى لقد خشيت أن تؤذيه هذه العواطف الجياشة أذى مميتاً » (٣٠) .

ونصحه ترونشان بالعودة إلى فرنيه بأسرع ما يستطيع ، ولكن مدام دنى رجت خالها أن يجعل فى باريس مقامه الدائم . فوافقها بعد أن أسكرته حرارة استقباله . وامتدح شعب باريس لأنهم أكثر شعوب الأرض مرحاً ، وأدباً ، واستنارة ، وتسامحاً ، ولأن لهم أرفع الأذواق ، والملاهى ، والفنون (٣١) ، ونسى « الرعاع » لحظة ، وراح يجوب باريس فى مركبته باحثاً عن بيت يسكنه ، وفى ٢٧ أبريل اشترى بيتاً . واستشاط ترونشان غيظاً وقال « لقد رأيت حمقى كثيرين فى حياتى ، ولكن لم أرقط أكثر منه جنوناً . فهو يحسب أنه سيعمر مائة عام » (٣٢) .

وفى ٧ أبريل أخذ فولتير إلى محفل « الأخوات التسع » الماسونى فقبل عضواً دون أن يلزم باجتياز المراحل النهيدية المألوفة . وكلل رأسه بأكليل من الغار ، وألقى رئيس المحفل خطاباً قال فيه : « إننا نقسم بأن نساعد اخوتنا ، ولكنك كنت المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتفيض بإحساناتك . . . لقد

كنت أيها الأخ المحبوب جداً ماسونياً قبل أن تنال الرتبة ، وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها « (٣٣) . وفي اليوم الحادى عشر رد زيارة مدام دودفان فذهب ليراها فى شقتها بدير سان - جوزيف ، وتحسست وجهه بيديها المبصرتين . فلم تجد غير العظام ، ولكنها كتبت فى اليوم الثانى عشر إلى هوراس ولبول تقول : « اته يفيض حيوية كالعهد به دائماً . وهو فى الرابعة والثمانين ، والحق أننى أحسبه ان يموت أبداً . وهو يستمتع بجميع حواسه ، ولم تضعف منها واحدة . أنه مخلوق فذ ، وأسمى فى الحقيقة بكثير من سائر الخلق » (٣٤) . فلما سمع الراهبات بزيارته نددن بالمركيزة لتدنيسها ديرهن بحضور رجل أدانته الكنيسة والدولة جميعاً (٣٥) .

وفى ٢٧ أبريل ذهب إلى الأكاديمية مرة أخرى . ودارت المناقشة حول ترجمة الأبييه دليل لكتاب بوب « رسالة إلى الدكتور أريثنوت » ، وكان فولتير قد قرأ الأصل ، فهنا الأبييه على ترجمته ، واغتم الفرصة ليقترح مراجعة « قاموس » الأكاديمية اثناء اللغة المعتمدة بمئات الألفاظ الجديدة التى شقت طريقها إلى الاستعمال المذهب . وفى ٧ مايو عاد إلى الأكاديمية بخطة للقاموس الجديد . وتطوع بأن يضطلع بجميع الألفاظ المبتدئة بالحرف أ ، واقترح أن يتكفل كل عضو بحرف ، وعند رفع الجلسة شكرهم « باسم الأنجدية » ، ورد المركز رشاستلوكس « ونحن نشكرك باسم الآداب » (٣٦) . فى ذلك المساء حضر متكرراً حفلة تمثيل لمسرحيته « الزير » . وفى ختام الفصل الرابع صفق النظارة للممثل لاريف ، وشارك فولتير فى الأعراب عن استحسانه « آه ما أروع هذا الأداء ! » وتعرف عليه الجمهور ، فتجددت مظاهر الحفاصة العارمة التى شهدا ٣٠ مارس مرة أخرى .

ولعله خيراً فعل بالاستمتاع بتلك الأسابيع الأخيرة من حياته على حساب صحته ، بدلاً من الانزواء فى عقر داره وحيداً ليضيف إلى عمره بضعة أيام مؤلمة . وقد عكف بهمة عظيمة على خطته التى اقترحها لوضع قاموس جديد ، وأسرف فى تعاطى القهوة - فقد بلغ ما شربه من أقداحها فى اليوم أحياناً خمسة وعشرين - حتى لقد جفاه النوم ليلاً . وساء حصره أثناء ذلك ، وبات التبول أشد إيلاماً وقصوراً ، وسرت إلى دمه العناصر السامة التى

كان يجب التخلص منها ، فأحدثت بولينيا في الدم . وأرسل له الدوق رشليو محمولاً من الأفيون أوصى به مسكناً ولكن فولتير أساء فهم الإرشادات فشرب قنينة كاملة منه مرة واحدة (١١ مايو) ، فأصابه هذيان دام ثمانى وأربعين ساعة ، وشوه الألم وجهه . واستدعى ترونشان ، فأعطاه ما خفض عنه بعض الشيء ، ولكن فولتير ظل عدة أيام لا ينطق بكلمة ولا يمسك طعاماً . والتبس أن يعيدوه إلى فرنيه ، ولكن أوان ذلك كان قد فات .

وفي ٣٠ مايو قدم الأبيه جولتييه وكاهن سان - سوليس ، مستعدين لمناولته سر الكنيسة المقدس إذا أضاف لاعترافه السابق بالإيمان بإيمانه باللاهوت المسيح . وزعمت قصة لم يؤيدها مصدر آخر ، وقد رواها كوندورسيه^(٣٧) ، أن فولتير صاح « بالله لا تكلموني عن ذلك الإنسان ! »

أما لا هارب فروى أن جواب فولتير كان « دعوني أمت في سلام » . أما دنواريستير فقد قبل الرواية العادية : وهى أن الكاهنين وجدوا فولتير محمواً يهذى . فانصرفا دون أن يناولاه القربان^(٣٨) . وزعم ترونشان أن ساعات احتضار الفيلسوف اتسمت بالعذاب الشديد وبصيحات الغضب الشديد^(٣٩) . ثم هدأت نأتمته أخيراً في الحادية عشرة من تلك الليلة .

ووضع الأبيه منيو جثمان خاله قائماً في مركبة ، وكان قد توقع أن دفنه في مقبرة باريسية سيرفض ، وانطلق بها ١١٠ ميلاً إلى دير سكلير في قرية روميني - على - السين هناك قام كاهن محلي بمراسم الصلاة التقليدية على الجثمان ورتل قداساً مطولاً فوقه ، وسمح بدفنه في قبو الكنيسة .

وحظر أمر من لويس السادس عشر على الصحف نشر نبأ موت فولتير^(٤٠) ، وطلبت الأكاديمية الفرنسية إلى الرهبان الفرنسيين إقامة قداس على روح الميت ، ولكن لم يمكن الحصول على إذن بذلك . ورتب فرديريك الأكبر ، تحية من شك إلى شك ، أن يقام قداس على روح فولتير في كنيسة كاثوليكية براين . ونظم تأبيناً حاراً لصابقه وعدوه ، قرىء على أكاديمية براين في ٢٦ نوفمبر ١٧٧٨ . وكتبت كاترين الكبرى لجريم تقول :

« فقدت رجلين لم أرهما قط ، أحبائي . وبجملتهما — فولتير والاورد شاتام . وسيظل القوم زمناً طويلاً جداً . وربما إلى الأبد . يفتقدون من يعدلانهما . ولن يجدوا أبداً من يفوقانيهما — خصوصاً أول الرجاين . منذ أسابيع كرم فولتير علانية ، والآل لا يجرعون على دفنه . ياله من رجل ! أعظم رجل في أمته ، لم لم تأخذ جثمانه باسمي ؟ كان ينبغي أن ترساه إلى محبلاً . . . وكان سيحظى بأفخم مشوى . . . اشترى مكتبته وأوراقه بما فيها رسائله إن أمكن . وسأدفع لورثته ثمناً مجزياً » (٤١) .

وتلقت مدام دنى ١٣٥,٠٠٠ جنيه نظير المكتبة التي نقلت إلى أرميتاج سانت بطرسبرج .

وفي يوليو ١٧٩١ . وبأمر الجمعية التأسيسية للثورة . نقل رفات فولتير من دير سكليب إلى باريس . وطاقوا به المدينة في موكب نصر ، ثم ووري في كنيسة سانت جنيفيف (التي ستسمى بعد قليل بالباتنيون) . في ذلك العام أطلق على الكي دى تياتان رسمياً اسم جديد هو الكي دفولتير . وفي مايو ١٨١٤ خلال عودة الملكية البوربونيه . نقلت جماعة من الغيلان الأتقياء رفات فولتير وروسو من الباتنيون خفية . وأودعته غرارة ودفنته في مقلب بأطراف باريس . ولم يعثر للرفات بعد ذلك على أثر .

ج - تأثير فولتير

انه يبدأ بلحظات العداء للاكليروس في « أوديب » (١٧١٨) . وهو تأثير فعال اليوم على نطاق عالمي تقريباً . وقد رأينا هذا التأثير يحرك الملوك : فرديريك الثاني . وكاترين الثانية . ويوزف الثاني . وجوستاف الثالث ، وبدرجة أقل شارل الثالث ملك أسبانيا من خلال أراندا ، وجوزف الثاني ملك البرتغال من خلال بومبال . ولم يعد له في العالم الفكري في المائتي السنة الأخيرة غير تأثير روسو وداروين .

وبينا كان تأثير روسو الأخلاقي ينحو إلى الحنان . والعاطفة . وإعادة الحياة الأسرية والوفاء الزوجي ، كان تأثير فولتير الأخلاقي ينحو إلى

الإنسانية والعدالة ، وإلى تطهير القانون والعادات الفرنسية من المفااسد القانونية وألوان القسوة البربرية ، فلقد حفز فولتير أكثر من أى فرد آخر تلك الحركة الإنسانية التى أصبحت من مفاخر القرن التاسع عشر . ولا حاجة بنا أن أردنا الإحساس بتأثير فولتير فى الأدب إلا لنتذكر فيلاند ، وكلمجرين ، وجوته ، وبايرون ، وشلى ، وهينى ، وجوتيه ، ورينان ، وأناطول فرانس . ولولا فولتير لاستحال ظهور جبون ؛ ويعترف المؤرخون بقيادته وإلهامه فى التقليل من التركيز على جرائم الناس والحكومات وزيادة الاهتمام بتنميتها المعرفة ، والأخلاق ، والسلوك ، والأدب ، والفن .

وقد شارك فولتير فى إنجاب الثورة الفرنسية بإضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الارستقراطية بحقوقها الإقطاعية . ولكن تأثير فولتير السياسى بعد عام ١٧٨٩ طغى عليه تأثير روسو . فقد بدا فولتير شديد المحافظة ، شديد الازدراء لجاهلير الشعب ، شديد الاتسام بطابع السادة الإقطاعيين ؛ وقد رفضه روبيسر ، وظل « العقد الاجتماعى » سنتين انجيلا للثورة . أما بونابرت فأحس التأثيرين فى تعاقبهما العادى . قال منذ كراً تلك الحقبة « كنت حتى عامى السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعاً عن روسو ، أما اليوم فقد انعكس موقفى . . فكلما أعمنت فى قراءة فولتير ازددت شغفاً به . فهو رجل معقول دائماً ، لا بالمهرج ولا بالمعصب أبداً » (١٢) . وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازى ضد النبلاء والأكليروس المنبعثين من جديد . وقد صدرت بين عامى ١٨١٧ و ١٨٢٩ أثنتا عشرة طبعة من مجموعة أعماله . فى تلك السنوات الإثنى عشرة بيع من كتب فولتير نيف وثلاثة ملايين مجلد (١٣) . ثم أسلمت الحرب الشيوعية التى تزعمها ماركس وإنجلتره القيادة مرة أخرى لروسو . ويمكن القول بوجه عام أن الحركات الثورية منذ ١٨٤٨ تبتعت روسو أكثر من فولتير فى السياسة ، وتبتعت فولتير أكثر من روسو فى الدين .

وكان أعمق تأثير لفولتير وأبقاه على الزمن تأثيره على الإيمان الدينى . فبفضله وبفضله شركائه تجنببت فرنسا حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى ،

وانتقلت رأساً من النهضة إلى التنوير ، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التي رافق التغيير ، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستنتية . وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة التنوير في مجملتها كانت إصلاحاً أعمق من ذلك الذي أحدثه لوثر وكلفن ، لأنها لم تكتف بتحدى مغالاة الكهانة والخرافة فقط ، بل تحدث صميم أسس المسيحية ، لا بل كل العقائد فوق الطبيعية . وقد جمع فولتير في صوت واحد كل ضروب الفكر المناهض للكاتوليكية ، وأضفى عليها مزيداً من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفة الروح ، حتى لقد بدا حيناً كأنه قد هدم الهيكل الذي ربي فيه . وقد حركت جماعة الفلاسفة الطبقات المفكرة في العالم المسيحي كله صوب ربوبية مهذبة أو إلحاد مستتر . وتأثير جيل جوته من الشباب في ألمانيا بفولتير تأثراً عميقاً وذهب جوته إلى أن « فولتير سيعبد دائماً أعظم رجل في أدب العصور الجديده ، بل ربما جميع العصور » (٤٤) . وفي انجلترا أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير — جودوين ، وبين ، وهاري وولستونكرافت ، وبنثام ، وبايرون ، وشلي ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن الربوبية الانجليزية سبقتها فقللت من حدة تأثيره ، ثم إن السادة الانجليز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين يهب مثل هذا العزاء المهدي للطبقات الأضعف والجنس الأضعف . أما في أمريكا فإن الآباء المؤسسين كانوا كلهم تقريباً تلاميذ لفولتير . وهناك وفي انجلترا غطى تأثير داروين والبيولوجيا الحديثة على تأثير فولتير في إضعاف الإيمان الديني ، وفي عصرنا هذا يعاني اللاهوت المسيحي أكثر ما يعاني من وحشية حروبنا التي لانظر لها ، واقتحامات العلوم الظافرة التي تغزو تلك السماوات التي كانت يوماً ما مسكن الآلهة والقديسين .

ونحن مدينون لفولتير أكثر من أى إنسان آخر بذلك التسامح الديني الذي يسود الآن أوروبا وأمريكا الشمالية سيادة فلكة . ولقد رأى فيه أهل باريس لا مؤلف الكتب الفاصلة بين جيلين ، بل المدافع عن كالاس وسرفان . ولم تجرؤ محكمة في أوروبا بعده على تحطيم جسد رجل على دولايب التعذيب لهم وأدلة كتلك التي أدانت جان كالاس . صحيح أن كتباً مثل

« أميل » ظلت تحظر وتحرق ، ولكن رمادها أعان على بث أفكارها ، وتقلصت الرقابة الدينية حتى انتهى بها الأمر إلى الإقرار بالهزيمة في صمت . وإذا اضطرب أبنائنا يوماً ما إلى خوض معركة تحرير الفكر من جديد ، وهو أمر يبدو جائزاً ، فليلتمسوا الإلهام والتشجيع في كتب فولتير التسعة والتسعين . ولن يجدوا فيها صفحة واحدة تبث على الملل .

٢ — خاتمة روسو : ١٧٦٧ — ٧٨

أ — الروح المعذب

حين وصل روسو إلى فرنسا في ٢٢ مايو ١٧٦٧ بعد مقامه التعس في إنجلترا ، وبعد أن أشرف على الجنون ، وجد بعض العزاء في الترحيب الذي لقيه من المدن التي اجتازها هو وتريز . ومع أنه سافر متخفياً تحت اسم جان — جوزف رينو ، وكان لا يزال من الناحية القانونية خاضعاً للحظر الذي صدر ضده في ١٧٦٢ ، إلا أن القوم تبينوه وكرموه ، واستقبلته آميان استقبال الطاقرين ، وأرسلت له مدن أخرى « نبيذ المدينة » .

وعرض عليه كثير من الفرنسيين — وكلهم من النبلاء — بيتاً يقيم فيه . أولهم ميرابو الأب ، الذي خيره بين عشرين ضيعة ، فاختر روسو فلوري — سو — مودون ، القريبة من باريس . ولكن المركز ألح عليه إلحاحاً مزعجاً ليقرأ كتبه ، فهرب روسو ، ولجأ إلى لوى — فرانسوا البوربونى ، أمير كونتى ، في تربيته — لو — شاتو ، القريبة من جيزور . (٢١ يونيو ١٧٦٧) . ووضع الأمير القلعة بأسرها تحت تصرف جان — جاك ، بل إنه أوفد الموسيقيين ليشنفوا أذنيه بالموسيقى الهادئة ؛ وفسر روسو هذا بأنه اتهام له بالجنون ، وخامره الظن بأن شوازيل والكونتييسة بوفليه (خلية الأمير) انضموا إلى فولتير ، وديدرو ، وجريم ، في التآمر عليه ؛ والواقع أن فولتير كان قد اتهمه بإشعال النار في المسرح بجنيف ، الذي احترق وأصبح أنقاضاً في ٢٩ يناير ١٧٦٨^(٥٥) . واعتقد روسو أن كل من في جيزور ينظر إليه كأنه مجرم . وفاق إلى العودة لجنيف ، وكتب إلى شوازيل يرجوه إقناع مجلس جنيف بأن يكفر لروسو عن الإساءات الماضية التي ألحقها به^(٥٦) ،

وأرسل إليه شوازيل تصريحاً رسمياً بالسفر إلى أى بقعة يريدتها فى فرنسا ، وبأن يرحلها ويعود إليها متى شاء^(٤٧) . وخطر لروسو الآن أن يعود إلى إنجلترا ، فكتب إلى ديفنبورت يسأله أن كان يسمح له بأن يشغل ثانية بيت ووتن ، وأجاب ديفنبورت بأنه يسمح بكل تأكيد .

ثم هرب روسو من ترى فى يونيو ١٧٦٨ خوفاً على حياته فيها . وترك تريز فى القصر الرينى ضماناً لسلامتها . واستقل مركبة عامة إلى ليون ، وأقام حيناً مع أقرباء دانييل روجن الذى كان قد وفر له الملجأ فى ١٧٦٢ فى سويسرة . على أنه ما لبث أن اعتزل فى فندق الجولدن فونتين فى بورجوان — أن — دوفينه . وعلى باب حجرته كتب قائمة بالأشخاص الذين يعتقد أنهم يأتمرون به . ثم أرسل فى طلب تريز ، واستقبلها بالفرح والدموع ، وقرر آخر الأمر أن يتزوجها . وقد تم هذا القران فى حفل مدنى بالفندق فى ٣٠ أغسطس ١٧٦٨ .

وفى يناير ١٧٦٩ انتقلا إلى بيت بمزرعة فى موكان . قرب جربنويل . وهناك كتب آخر صفحات ، « الاعترافات » ، وهى صفحات نصف مجنونة ، وراح يهدى أعصابه بدراسة علم النبات ، ووجدت تريز أن طبعه يزداد حدة ، وكانت هى ذاتها تعانى من الروماتزم والأوصاب الغامضة التى تصاحب أحياناً « تغيير المعيشة » . وتشاجر الزوجان الحديثان مشاجرة بلغت من شدتها أن حملت روسو على الرحيل فى رحلة طويلة لجمع النبات ودراسته بعد أن ترك لها خطاباً ينصحها بدخول الدير (١٢ أغسطس ١٧٦٩)^(٤٨) . فلما عاد ووجدها تنتظره تجدد حبهما . وندم الآن على أنه تخلص من أطفالها . وأحس « أن الرجل الذى يستطيع تربية أولاده تحت بصره رجل سعيد جداً »^(٤٩) . وكتب إلى أم شابة يقول : إن أجمل أسلوب فى الحياة يمكن أن يوجد هو أسلوب الأسرة . . . فما من شئ يندمج معنا بأشد وأثبت من أسرتنا وأبنائنا . . . ولكن أنا الذى يتكلم على الأسرة والأبناء — . . . سيدى ، ارثى لأولئك الذين يحرمهم قدرهم القاسى من هذه السعادة ، ارثى لهم إن كانوا عاثرى الحظ فقط ، ومزيداً من الرثاء لهم إن كانوا مذنبين ! »^(٥٠) .

وكان الشتاء الذى قضته الأسرة فى موكان شاقاً فى بيت رينى يقع فى مهيب الرياح كلها . والتست تريز منه الرحيل إلى باريس . وهكذا استأنف الزوجان أسفارهما الطويلة فى ١٠ أبريل ١٧٧٠ وأنفقنا شهراً لطيفاً فى ليون ، حيث مثلت أوبريت روسو عراف القرية ، جزءاً من احتفال أقيم تكريماً له . ثم سافرا فى مراحل بطيئة مخترقين ديجون ، ومونبار ، وأوجيز ثم بلغا باريس فى خاتمة المطاف فى ٢٤ يونيو ١٧٧٠ . وأقاما فى الطابق الرابع من نرله القديم فى الأوتيل سانت اسبرى ، بشارع بلاتيرير — واسمه الآن شارع جان — جاك روسو فى حى من أشد أحياء المدينة ضحيجاً .

وعاش عيشة متواضعة هادئة ، يتكسب بنسخ الموسيقى ويدرس علم النبات . وكتب الآن (٢١ سبتمبر ١٧٧١) إلى لينايوس رسالة يعرب فيها عن إجلاله^(٥١) . فلما ذاع أنه يقيم فى باريس خف لزيارته قدامى الأصدقاء ومريدوه الجدد : الأمير لين (الذى عرض عليه بيتاً فى ضيعته قرب بروكسل) ، وجريترى ، وجلوك (الذى جاء ليناكش الموسيقى معه) . والمسرح جولدونى ، والمغنية صوفى أرنو ، وجوستاف ولى عهد السويد ، وشباب المؤلفين أمثال جان — جوزف دوزو ، وجاك — هنرى برناردان دسان — بيير . وفى ١٧٧٧ نال ما اشتهاه فولتير ولم ينله — وهو زيارة من الإمبراطور يوزف الثانى^(٥٢) . ورد إليه تصريح الدخول إلى دار الأوبرا بجائاً ، فكان يختلف إليها من حين لحين ، ليسمع جلوك على الأخص . ووصفه برناردان دسان — بيير فى هذه الحقبة (وكان الآن فى الستين) بأنه رقيق البدن ، متناسب الأعضاء ، وله « جبين عال ، وعينان متقدتان . وفى غضبون الجبين حزن عميق ، ومرح حاد بل كاو »^(٥٣) .

وقد استفزه للعودة إلى القلم — رغم وعده عام ١٧٦٢ بالكف عن التأليف — اتصال هجوم أعدائه عليه . وكان فى سبيل الرد عليهم ، وعلى كل ما دار حوله من شائعات معادية فى باريس وجنيف ، قد اضطلع بكتابه « الاعترافات » (١٧٦٥) ومن ثم أتم الكتاب الآن (نوفمبر ١٧٧٠) ، ومع أن روسو كان حتى ذلك الحين عازفاً عن نشره كاملاً . إلا أنه صمم على أن تطلع باريس على أجزائه المتصلة بهذه الهجمات . وهكذا قرأ فى

ديسمبر على مسامح دوزو وغيره ، فى حجراته ، فقرات طويلة من أعظم كتاب ألفه ، واستمرت القراءة سبع عشرة ساعة قطعها وجبتان خفيفتان عاجلتان^(٥٤) . وفى مايو ١٧٧١ قام بتلاوة أخرى أمام الكونت والكونتيسة أجمون ، والأمير بيناتلى أجمون ، والمركيزه ديم ، والمركيز جوينيه . واختتم بتحد من نار :

« لقد كتبت الحقيقة . فإذا سمع أى شخص أشياء مناقضة لما قررتة الآن ، حتى إذا أثبتت ألف مرة ، فهو لم يسمع سوى تشهير وافتراء ، وإذا رفض بتاتاً أن يمحصها ويراجعها معى وأنا حى فهو ليس صديقاً للعدالة أو الحق . أما عن نفسى فأنى أعلنها صريحة دون أدنى خوف أن كل من دقق النظر فى بعينه - طبعى ، وخلقى ، وسلوكى ، وميولى ، ولذائق ، وعاداتى - حتى بغير قراءة كتبى ، ثم حكم على بأننى رجل غير شريف إنما يستحق أن يشنق »^(٥٥).

والذين استمعوا إليه استنتجوا من شدة انفعاله أن عقله يوشك أن يختلط . وقال دوزو أن شكوك روسو واتهاماته لاتليق « بنجان جاك الرجل السمع الفاضل » ، فكان هذا النقد نهاية صداقتهما^(٥٦) . وحمل غيره من المستمعين أصداء هذه القراءات إلى صالونات باريس ، وأحس بعض ذوى النفوس الحساسة أن روسو قد افترى عليهم . وكتبت مدام ديبينيه إلى مفتش عام الشرطة تقول :

« يجب أن أحيطك علماً مرة أخرى بأن الشخص الذى حدثتك عنه صباح أمس قد قرأ كتابه على السادة دورا ، ويزيه ، ودوزو . ومادام يستخدم هؤلاء الرجال ليأتهمهم على القذف والتشهير فإن لك الحق فى أن تحيطه برأيك فى هذا الأمر . ويخيل إلى أنه ينبغي أن تكلمه بما يكفى من التعاليف حتى لا يشكو ، ولكن يحزم يثنيه عن العودة إلى خطئه . فإذا حصصت على كلمة شرف منه فأنى أعتقد أنه ان يحنث بها ، معذرة ألف مرة ، ولكن سلامى النفسى كان فى خطر »^(٥٧) .

وطلبت الشرطة إلى روسو أن يكف عن قراءاته ، فوافق ، وخلص إلى أنه لم يستطع قط أن يظفر بالاستماع المنصف إليه فى حياته ، وأعان

شعور الأحباط هذا على اختلاط عقله . وبعد عام ١٧٧٢ أغلق بابه دون الزوار كافة تقريباً عدا برناردان دسان — بيير . وكان في جولاته منفرداً يخامره الظن بأن كل من يمر به تقريباً عدو له . وفيما عدا أشباح العداء هذه فإنه احتفظ بطبيعته الطيبة الأصلية . فاكتتب رغم مقاومة فولتير في المال المجموع لإقامة تمثال له . وحين أرسل إليه أحد الآباء الروحيين كراسة تندد بفولتير ويخ الكاتب قائلاً : « لاريب في أن فولتير رجل ردىء وليس في نيتي أن أنفي عليه ، ولكنه قال وفعل أشياء طيبة كثيرة جداً بحيث ينبغي أن نرخصي الستار على أخطائه » (٥٨) .

وحين كان يصرف فكره عن « المؤامرة » التي يتمخilha من محوله ، كان في استطاعته أن يكتب بوضوح كالعهد به من قبل ، وبروح مدهشة من المحافظة والواقعية وقد رأينا كيف التمس المؤتمر البولندي المنعقد عام ١٧٦٩ اقتراحاته بشأن دستور جديد . وقد بدأ كتابه « آراء حول حكومة بولنده » في أكتوبر ١٧٧١ ، وانتهى منه في أبريل ١٧٧٢ . وأول انطباعاتنا عنه أنه يخرق جميع المبادئ التي دافع عنها من قبل دفاعاً مشوباً . فإذا اعدنا قراءته في شيخوختنا كان عزاء لنا أن نرى أن روسو (وقد بلغ الستين) يمكن أن يشيخ هو أيضاً ، وأن ينضج — كما يحب الشيوخ أن يقولوا . فالرجل الذي صرخ قائلاً « ولد الإنسان حراً ، وهو في كل مكان يرسف في الأغلال » هذا الرجل بعينه نبه الآن البولنديين ، الذين حكم عليهم « حق النقض المطلق » بالفوضى ، إلى أن الحرية امتحان عسير كما أنها عطية إلهية ، وأنها تحتاج إلى مجاهدة للنفس أشق كثيراً من طاعة الأوامر الخارجية . قال :

« إن الحرية طعام قوى ، ولكنه طعام يحتاج إلى هضم متين . . انني أضحك من تلك الشعوب المنحطة التي تثور لمجرد كلمة من متآمر دساس ، والتي تجرؤ على التحدث عن الحرية وهي تجهل كل الجهل ما تعنيه ، والتي تتصور أنه لكي يتحرر الإنسان يكفي أن يكون ثائراً متمرداً . أيتها الحرية المقدسة السامية ! ليت هؤلاء المساكين يعرفونك حق المعرفة ، ليتهم يتعلمون أى

ثم يبدل للظفر بك ولصبيانك ، وليت في الإمكان تعليمهم ان قوانينك أشد صرامة من نير الطغاة الثقيل ! » (٥٩) .

لقد علمت الحياة ومونتسكيو روسو أن مناقشات مثل « عقده الاجتماعي » إنما هي أحلام تهوم في الفراغ ونظريات مجردة لا تركز على الواقع . لذلك سلم الآن بأن جميع الدول تضرب جذورها في التاريخ والظروف ، وأن مصيرها الفناء ان هي قطعت جذورها دون تمميز . ومن ثم فقد نصح البولنديين بالألا يبدخلوا تغييرات فجائية على دستورهم ، وبأن يحتفظوا بملكهم المنتخب على أن يقيّدوا حق النقض المطلق ، وبالكاثوليكية ديناً رسمياً للدولة مع تطوير نظام تعليمي يستقل عن الكنيسة (٦٠) . وقد بدت له بولنده بحال مواصلاتها ووسائل نقلها الراهنة أوسع من أن تحكم من مركز واحد ، فمن الخير إذن تقسيمها إلى ثلاث دول تتحد فقط في الاتصالات المشتركة والشئون الخارجية . ومن عجب أن الرجل الذي ندد من قبل بالملكية الخاصة أصلاً لكل الثرور ، كرس الآن الإقطاعية البولندية ، واقترح فرض الضرائب على جميع الأراضي ، على أن تترك حقوق الملكية الراهنة دون مساس بها . ثم أعرب عن أمله في أن تلغى القنية يوماً ١٠ ، ولكنه لم يدع إلى إنهاؤها في وقت قريب ، فهذا في رأيه يجب أن يؤجل إلى أن يتاح للفقير مزيد من التعليم . وقد أكد أن كل شيء رهن بنشر التعليم ، وتعزيز الحرية بأسرع من تعزيز الذكاء والأخلاق معناه فتح الباب على مصراعيه للفوضى وتقسيم البلاد ،

غير أن التقسيم تم قبل أن يتمكن روسو من إنهاء مقالته ، فالسياسة العملية تجاهلت تشريعه الفلسفي في بولنده كما تجاهلته في كورسيكا . وقد شارك هذا الأحباط المزدوج في تكدير سنيه الأخير . وزاد من حدة احتقاره لجماعة الفلاسفة الذين أثنوا من قبل على أولئك الحكام — فردريك الثاني ، وكاترين الثانية ، ويوزف الثاني — الذين يقطعون الآن أوصال بولنده ، وامتدحهم باعتبارهم حكاماً مستبدين مستنيرين وماو كاً فلاسفة .

وفي ١٧٧٢ بدأ محاولة أخرى للرد على خصوصه وسعى الكتاب « حوارات :

روسو يحاكم جان — جاك. وقد عكف على هذا الكتاب الذى بلغت صفحاته ٤٥٠ فترات متقطعة على مدى سنين أربع ، وكان الظلام يغشى عقله أكثر فأكثر كلما مضى فيه . وقد رجحت المقدمة القارىء أن يقرأ الحوارات الثلاثة قراءة دقيقة شاملة ، « انظر إلى هذا التفضل الذى يطلبه منك قلب أثقله الحزن على أنه دين انصاف تفرضه السماء عليك » (٦١) . وقد اعترف بما يشوب الكتاب من « إسهاب مفرط وتكرار ، وحشو ، وفوضى » (٦٥) ، غير أن مؤامرة اتصلت خمسة عشر عاماً — فيما زعم — للنيل من سمعته ، ولا بد أن يرى نفسه قبل أن يموت . وقد نفي وجود أى تضارب بين فردية « الأحاديث » وجماعية « العقد الاجتماعى » ، وذكر قراءه أنه لم يرغب قط فى أن يقضى على العلوم والفنون ويرتد إلى الهمجية . ووصف مؤلفاته — لا سيما « جولى » و « أميل » — بأنها غنية فى الفضيلة والحنان ، وتساءل كيف يمكن أن يؤلف مثل هذه الكتب فاسق أنهمكه المرض كما صوره المنتقصون من قدره (٦٣) . واتهم أعداءه بأنهم أحرقوا دمية تصوره ، وبأنهم ألفوا السرينات عنه للهزء به (٦٤) وشكا من أنهم ، حتى الآن ، يراقبون كل زواره ويحرضون جيرانه على إهانته (٦٥) . ثم كرر قصة ميلاده ، وأسرته ، وصباه ، ووصف رقة خلقة ونزاهته ، ولكنه اعترف بما فيه من كسل ، و « ميل إلى أحلام اليقظة » (٦٦) ، ونزوع إلى أن يخلق فى جولاته منفرداً عالماً وهمياً يستطيع أن يسعد فيه ولو للحظة . وعزى نفسه بهذه النبوة « أنا واثق من أنه سيأتى يوم يبارك فيه الناس الطيبون الشرفاء ذكراى ويبكون على مصيرى » (٦٧) .

ثم أضاف إلى الحوار الأخير فصلاً عنوانه « تاريخ هذا الكتاب » ذكر فيه كيف أنه لكى يلفت نظر باريس وفرساي لكتابه اعتزم أن يودع نسخة من المخطوط ، موجهة إلى العناية الإلهية ، على المذبح الأعلى فى كتندرائية نوتردام . وقد حاول هذا فى ٢٤ فبراير ١٧٧٦ ، فلما وجد المذبح مسدوداً بدرازين ، حاول الدخول إليه من جانبيه ، فلما وجدها مقفلين أصابه دوار ، وخرج عدواً من الكنيسة ، وراح يضرب على غير هدى ساعات

فى الشوارع فى شبه هديان قبل أن يبلغ مسكنه « (٦٨) . ثم كتب نداء للشعب الفرنسى عنوانه « إلى جميع الفرنسيين الذين ما زالوا يعشقون العدل والحق » ونسخ صوراً منه على إعلانات وزعها على المارة فى الشوارع . وقد رفضه العديد منهم قائلين أنه ليس موجهاً إليهم (٦٩) . فأقلع عن محاولاته ، واستسلم للهزيمة .

وهدأت الآن ثائرته بعد أن راض نفسه على الإذعان ، وكتب فى هذه الفترة (١٧٧٧ — ٧٨) أجمل كتبه « أحلام جواب منفرد » فروى كيف أن أهل موتيه رفضوه وحصبوا بيته ، وكيف اعتكف فى الأيل دسان تبير فى بحيرة بين . وهناك وجد السعادة ، ثم راح — بعد أن استرجع ذكرى تلك الخلوة — يصور المياه الهادئة ، والجداول المتدفقة ، والجزيرة تغطيها الخضرة ، والسماء الكثيرة الصور والأشكال . وقد عزف على نغمة رومانسية جديدة بالماعة إلى أن الروح المتألمة قد تجد دائماً فى الطبيعة شيئاً يستجيب لمزاجها . ونحن نسأل أنفسنا حين نقرأ تلك الصفحات ، أيستطيع رجل نصف مجنون أن يكتب بهذا الإتقان ، وبهذا الوضوح ، وأحياناً بهذا الهدوء والصفاء ؟ ولكن الشكاوى القديمة تعود إلى الظهور ، وينوح روسو من جديد لأنه نبذ أطفاله ، وأنه لم يؤث الشجاعة البسيطة التى تمكنه من تربية أبنائه . وقد رأى طفلاً يلعب ، فعاد إلى حجرته و « بكى وكفر عن ذنبه » (٧٠) .

فى تلك السنين الأخيرة التى قضاهما فى باريس كان ينظر بعين الحسد إلى ذلك الإيمان الدينى الذى سما بحياة العامة من الناس المحيطين به إلى مسرحية من الموت والبعث . وكان أحياناً يختلف إلى خدمات الصلاة الكاثوليكية . وقد زار ديراً مع بزاردان دسان — تبير ، وسمع الرهبان يتلون ابتهالاً فقال « آه ، ما أسعد الإنسان الذى يستطيع أن يؤمن » (٧١) . إنه لم يستطع أن يؤمن (٧٢) ، ولكنه حاول أن يسلك كمسيحى ، يتصدق ، ويفتقد المرضى ويواسيهم (٧٣) . وقد قرأ وكتب حواشى على كتاب توماس أكينيس « الاقتداء بالمسيح » .

ثم خف إحساسه بالمرارة فى نفسه بدنو أجله . وحين وصل فولتير

إلى باريس فأنهالت عليه أسباب التكريم ، شعر روسو بالغيرة منه ولكنه تكلم بخير عن عدوه القديم . ووبخ أحد معارفه الذى سخر من تتويج فولتير فى التياتر — فرانسيه فقال : « كيف تجرؤ على السخرية من التكريم الذى بدل لفولتير فى الهيكل الذى هو ربه ، وبيد الكهان الذين ظلوا خمسين سنة يعيشون على روائعه ؟ »^(٧٤). ولما سمع بأن فولتير يحتضر قال متنبئاً « كانت حياتانا مرتبطتين الواحدة بالأخرى ، ولن يطول عمرى بعده »^(٧٥).

وحين بدأ ربيع ١٧٧٨ يزهر طلب بيتاً فى الريف ، فدعاه المركز رنيه دجيراردان ليسكن كوخاً على مقربة من قصره الريفى فى ارمينونفيل ، على نحو ثلاثين ميلاً من باريس . وذهب إليه جان — جاك وتريز فى ٢٠ مايو ، وهناك راح يجمع العينات النباتية ويعلم النبات لابن المركز البالغ من العمر عشر سنين . وفى أول يوليو تعيش بشبهة مع أسرة مضيفة . وفى صباح الغد أصيب بالنقطة ووقع على الأرض . فرفعته تريز إلى فراشه ، ولكنه وقع منه ، واصطدم بالأرض المبلطة صدمة شادة أحدثت قطعاً فى رأسه تدفق منه الدم ، وصرخت تريز مستغيثة ، فحضر المركز ، ووجد أن روسو قد غاصت روحه .

ولا حقيقته الافتراءات إلى النهاية . فأذاع جريم وغيره القصة التى زعمت أن روسو انتحر . وأضافت مدام دستال فيما بعد أنه قتل نفسه حزناً حين اكتشف خيانة تريز . وفاقت هذه القصة غيرها قسوة ، لأن تعقيب تريز عقب موته بقليل كشف عن حبها له . قالت « إن لم يكن زوجى قديساً فمن يستطيع أن يكون ؟ » ووصف غير ذلك من الشائعات روسو بأنه مات مجنوناً ، ولكن كل الذين كانوا معه فى أيامه الأخيرة تلك وصفوه بالهدوء والصفاء .

وفى ٤ يوليو ١٧٧٨ وورى الثرى فى جزيرة الحور فى بركة صغيرة على ضيعة جبراردان . وظلت جزيرة الحور هذه طويلاً كعبة يحج إليها الأتقياء ، فأمرها المجتمع العصرى كله — حتى الملكة — للصلاة على قبر روسو . وفى ١١ أكتوبر ١٧٩٤ نقل رفاته إلى البانتيون حيث ثوى إلى جوار رفات فولتير ،

ومن ذلك المرفأ الذى نعما فيه بسلام الجوار نهضت روحاهما لتجددا حرهما
فى سبيل الثورة ، وفرنسا ، والإنسان الغربى .

ب — تأثير روسو

وهكذا نتهى كما بدأنا بالتأمل المعزز بالدليل الآن ، فى ذلك الأثر الذى
لا يصدق ، والذى خلفه روسو فى أدب القرن الذى بدأ بموته ، وفى بيداجوجيته
وفلسفته ، ودينه ، وأخلاقه ، وعاداته ، وفنه ، وسياسته . والكثير مما
كتب يبدو اليوم أن فيه غلوآ ، أو إسرافاً فى العاطفة ، أو سخفاً ، و«الاعترافات»
و«أحلام اليقظة» فقط هما اللذان يحركان مشاعرنا ، ولكن حتى الأوس
كانت كل كلمة من كلماته تسمع فى ميدان أو آخر من ميادين الفكر
الأوربى أو الأمريكى . إن روسو كما قالت مدام دستانل «لم يخترع شيئاً ،
ولكنه أشعل النار فى كل شىء» (٧٦) .

فأول شىء بالطبع هو أنه كان بمكانة الأم من الحركة الرومانتيكية .
وقد رأينا غيره كثيرين يبذلون بذرتهم . «طومسن ، وكولنز ، وجراى ،
ورتشرسن ، وبريفو ، والمسيحية ذاتها ، التى يعد لاهوتها وفنها أعجب
ضروب الرومانس قاطبة . ولكن روسو أنضج البذار فى مستنبت عواطفه
الدافاء . وأسلم لنا الثمرة مكتملة النمو خصبة منذ مولدها ، فى «الأحاديث :
و«العقد الاجتماعى» و«اميل» و«الاعترافات» .

ولكن ما الذى سنعينه بالحركة الرومانتيكية ؟ تمرد الوجدان على الفكر ،
والغريزة على العقل ، والعاطفة على الحكم ، والذات على الموضوع ، والنزعة
الذاتية على الموضوعية ، والوحدة على التجمع ، والخيال على الواقع ،
والخرافة والأسطورة على التاريخ ، والدين على العلم ، والتصوف على
الشعائر ، والشعر والنثر الشعرى على النثر والشعر النثرى ، والفن القوطى
المحدث على الكلاسيكى المحدث ، والأنثوى على الرجولى ، والحب الرومانسى
على زواج المصلحة ، و«الطبيعة» و«الطبعى» على المدنية والتكاف ،
والتعبير العاطفى على الضوابط العرفية ، والحرية الفردية على النظام الاجتماعى ،
وتمرد الشباب على السلطة ، والديمقراطية على الأرستقراطية ، والإنسان فى

مواجهة الدولة - وبإختصار - تمرد القرن التاسع عشر على الثامن عشر ،
أو بعبارة أكثر تحديداً - الفترة ١٧٦٠ - ١٨٥٩ على ١٦٤٨ - ١٧٦٠ :
هذه كلها أمواج للامد الرومانتيكى العظيم الذى اكتسح أوروبا فيما بين
روسو وداروين .

ولقد وجد كل من هذه العناصر تقريباً فى روسو تعبيراً وتأيداً ، ووجد
بعض الدعم فى حاجات العصر وروحه . ذلك أن فرنسا كانت قد مات الفكر
الكلاسيكى والانضباط الأرسقراطى . فأتاح تمجيد روسو للوجدان تحرراً
للغرائز المكبوتة ، والعاطفة المكظومة ، والأفراد والطبقات المظلومة .
وأصبحت « الاعترافات » كتاب الوجدان المقدس كما كانت « الموسوعة »
العهد الجديد لعصر العقل . ولا يعنى هذا أن روسو رفض العقل ، فهو
على العكس وصفه بأنه عطية إلهية ، وقبله حكماً نهائياً (٧٧) ، ولكنه أحس
أن نوره البارد فى حاجة إلى دفء القلب ليلهم العمل والعظمة والفضيلة .
وأصبحت « الحساسية » شعار النساء والرجال . وتعلم النساء الأغماء ،
والرجال البكاء . بأسرع من ذى قبل . وتذبذبوا بين الفرح والحزن ،
ومزجوا الإثنين فى دموعهم .

وقد بدأت الثورة « الروسية » على صدور الأمهات . هاتيك الصدور
التي آن الآن أوان تحريرها من عقال المشدات ، على أن هذا الجانب من
الثورة كان أصعب جوانبها ، ولم يعقد له النصر إلا بعد أكثر من قرن تراوح
فيه الحبس والإفراج . وبعد نشر « اميل » أرضعت الأمهات الفرنسيات
أطفالهن ، حتى فى دار الأوبرا . وفيما بين الألحان (٧٨) . وأطلق الطفل
من سجن أقطته ، وقام أبواه على تربيته بأنفسهم . فإذا التحق بالمدرسة
حظى بالتعليم « على طريقة روسو » فى سويسره أكثر منه فى فرنسا ، ولما
كانت النظرة للإنسان الآن تعده خيراً بطبيعته ، فإن التاميد وجب أن ينظر
إليه لا على أنه عفريت صغير مشاكس بل ملاك رغباته هى صوت الله .
ولم تعد حواسه تدان لأنها أدوات الشيطان ، بل تعد أبواباً للخبرات المنيرة
ولمئات المباحج البريئة . ووفقاً للنظرة الجديدة لا تعود حجرات الدرس
سجوناً . أما التعليم فيجب أن يجعل طبيعياً وماراً بتفتيح حب الاستطلاع

والقوى الفطرية وتشجيعها . وأما حشو الذاكرة بالحقائق ، وخلق الفكر بالعقائد القطعية ، فيجب أن يحل محلها التدريب على فنون الإدراك الحسى ، والحساب ، والتفكير . ويجب أن يتعلم الأطفال من الأشياء لا من الكتب كلما أمكن — من النبات فى الحقل ، والصخور فى التربة ، والغيوم والنجوم فى السماء . وقد حفز التحمس لأفكار روسو التربوية بنسالتوتزى ولافاتير فى سويسره ، وبازدوف فى المانيا ، وماريا مونتسورى فى إيطاليا ، وجون ديوى فى أمريكا ؛ و « التربية التقدمية » هى جزء من تراث روسو . وقد أنشأ فريدرش فروبل نظام رياض الأطفال فى ألمانيا ، ومنها انتشر فى العالم الغربى طولا وعرضاً .

ثم أدركت الفن نفحة من الإلهام الروسوى . فقد أثر تمجيد الطفولة فى جروز ومدام فيجيه — لبرون ، وعكست لوحات الفنانين من المدرسة السابقة — للرفائيلين فى انجلترا تمجيد العاطفة والغموض . وأعقب من هذا أثر روسو فى الأخلاق والسلوك : فطراً المزيد من دفء الصداقة ووفائها ، ومن التضحيات والاهتمامات المتبادلة . واقتنص الحب الرومانسى الأدب وشق طريقه إلى الحياة . واستطاع الأزواج الآن أن يحبوا زوجاتهم دون هزء بالتقاليد ؛ واستطاع الآباء أن يحبوا أبناءهم ، وأصلح ما فسد من الأسرة ، « كان الناس يغضون عن الخيانة الزوجية ، أما روسو فقد جرد على اعتبارها جريمة »^(٧٩) . صحيح أنها استمرت ، ولكنها لم تعد أمراً لاغنى عنه . وحل محل الإعجاب الأعمى بالمحظيات الشفقة على المومسات . وقاوم احتقار العرف طغيان الأتيكيت . وارتفعت سمعة الفضائل البورجوازية ، كالاتجاه ، والاقتصاد ، وبساطة العادات واللباس . وعمّا قليل ستطيل فرنسا « الكيلوت » (السراويل القصيرة) إلى سراويل طويلة وتصبح « صان — كيلوت » (متطرقة) فى زيها كما هى فى سياستها . وقد ساهم روسو مع البستنة الانجليزية فى تغيير الحدائق الفرنسية من رتابة طراز النهضة إلى المنحنيات الرومانتيكية والأركان الفجائية ، وأحياناً إلى فوضى برية و « طبيعة » . وانطلق الرجال والنساء من المدينة إلى الريف ، وزاوجوا

بين حالات الطبيعة وحالاتهم النفسية وتسلق الرجال الجبال ، والنمس الرجل منهم الوحدة ودل « أنا » .

واستسلم الأدب بمجملته تقريباً لروسو والموجة الرومانتيكية ، فغمر جوته بطله « فوتر » في فيض من الحب ، والطبيعة ، والعبرات . (١٧٧٤) ، وجعل بطله فاوست يحتزل نصف روسو في كلمات ثلاث « الوجدان هو الكل » . قال في ١٧٨٧ مسترجعاً ذكرياته « كان لكتاب اميل وماحوى من عواطف تأثير شامل على العقل المثقف » ^(٨٠) وأكد شيلر التمرد على القانون في « اللصوص » (١٧٨١) ، وحيا روسو محرراً وشهيدا ، وقارن بينه وبين سقراط ^(٨١) . وصاح هرذر في مرحلة مماثلة من مراحل تطوره « تعالى يا روسو وكن لي مرشداً » ^(٨٢) . وأعانت بلاغة روسو على تحرير الشعر والمسرحية الفرنسيين من قواعد بوالو ، وتقليد كورني وراسين ، وقيود الأسلوب الكلاسيكي الصارمة . وقد أبدع برناردان دسان — بيير ، وهو تلميذ ماحمس لروسو ، رائعة رومانسية في « بول وفرجين » (١٧٨٤) . وانتصر تأثير جان — جاك الأدي بعد الفاصل النابليوني في أشخاص شاتوبريان ، ولا مارتين ، وموسيه ، وفيقي ، وهوجو ، وجوتيه ، وميشليه ، وجورج صاند . وقد أنجب هذا التأثير جيلا من الاعترافات ، وأحلام اليقظة ، وقصص العاطفة أو الغرام ، وحبد تصور العبقرية على أنها فطرية لا تعرف قانوناً ، وأنها القاهرة للتقليد والتقييد ، فحرك في إيطاليا ليوباردى ، وفي روسيا بوشكين وتولستوى ، وفي إنجلترا وردزورث ، وصيدى ، وكولردج ، وبايرون ، وشلى ، وكيثس ، وفي أمريكا هوثورن وثورو .

ونصف فلسفة القرن المحصورين « هلويز الجديدة » (١٧٦١) وكتاب داروين « أصل الأنواع » (١٨٥٩) يلوونه تمرد روسو على عقلانية حركة التنوير . والواقع أن روسو كان قد أعرب من قبل في رسالة وجهها عام ١٧٥١ إلى بورد عن احتقاره للفلسفة ^(٨٣) ، وأقام احتقاره هذا على عجز العقل في زعمه عن تعليم الفضيلة للناس . فالعقل يبدو أنه بغير حس أخلاقى ، وهو يناضل للدفاع عن أى رغبة مهما كانت فاسدة إذ أن الحاجة إلى شيء

آخر — إلى وعى فطرى بالصواب والخطأ ، وحتى هذا الوعى لا بد من أن يدفعه الوجدان إن أريد منه أن يولد الفضيلة ، وأن ينبج رجلا فاضلا لا آلة حسابية ماهرة .

وهذا بالطبع كلام قاله بسكال من قبل ، ولكن بسكال كان قد رفضه فولتير ، وفي ألمانيا كانت « عقلانية » فولف فى صعود فى الجامعات . وحين أصبح إيمانويل كانط أستاذاً فى كونيجزبرج كان قد اهتم بما قاله هيوم وجماعة الفلاسفة الفرنسيين من أن العقل وحده لا يمكنه أن يقدم الدفاع الكافى حتى عن أساسيات اللاهوت المسيحى . ولكنه وجد فى روسو سبيلا لإنقاذ تلك الأساسيات : هى أن تنكر مفعول العقل فى العالم فوق الحسى ، وتؤكد استقلال الفكر ، وأولية الإرادة ، والقوة المطلقة للضمير الفطرى ؛ وتستنبط حرية الإرادة ، وخلود النفس ، ووجود الله ، من شعور الإنسان بالزمام غير مشروط بالقانون الأخلاقى . وقد أقر كانط بدينه لروسو ، وعلق صورته على جدار مكتبه ، ونادى به « نيوتنا » للعالم الأخلاقى^(٨٤) . وشعر ألمان آخرون بروح روسو تتمصهم : ياكوبى فى فلسفة الوجدان ، وشلايثر ماخر فى تصوفه الدقيق النسيج ، وشوبنهاور فى تمجيد الإرادة . وتاريخ الفلسفة منذ كانط صراع بين روسو وفولتير .

أما الدين فقد بدأ بتحريم روسو ، ثم انتقل إلى استخدامه منقذاً له . وأجمع القادة البروتستنت والكاثوليك على تكفيره ، ووضع على صعيد واحد مع فولتير وبيل بوصفهم رجالا « يبتون سموم الضلالة والفسوق »^(٨٥) . ومع ذلك فحتى فى حياة روسو وجد نفر من رجال الدين والعلمانيين راحة وعزاء حين سمعوا أن قسيس سافوا قد قبل بتحمس العقائد الجوهرية للمسيحية ، وأنه نصح الشكاك بأن يثوبوا إلى إيمانهم الأصيل . وحين فر روسو من سويسره عام ١٧٦٥ رحب به أسقف ستراسبورج ، وبعد أن عاد من إنجلترا وجد بعض الكاثوليك الفرنسيين يستشهدون بأقواله شاكرين فى ردهم على غير المؤمنين ، وتراودهم الآمال فى هدايته الظافرة .

وقد حاول منظرو الثورة الفرنسية إقامة أخلاقية مستقلة عن العقائد

الدينية ؛ على أن روبسبير في اقتدائه بروسو أقطع عن هذه المحاولة لفشلها ،
والتمس قوة تأييد المعتقدات الدينية في صيانة النظام الأخلاق والمضمون
الاجتماعي ، وأدان جماعة الفلاسفة لأنهم رفضوا الله وأبقوا على الملوك ؛
أما روسو (في رأى روبسبير) فقد ارتفع فوق هامات هؤلاء الجبناء ،
وهاجم جميع الملوك بشجاعة وجاهر بالدفاع عن الله والخلود^(٨٦) .

وفي ١٧٩٣ بلغ تراثا فولتير وروسو المتنافسان مرحلة الحسم في الصراع
بين جاك - رينيه إيبير ومكسليان روبسبير . فأما إيبير ، أحد قادة كومون
باريس ، فقد اتبع العقلانية الفولتيرية ، وشجع انتهاك حرمت الكنائس ،
وأقام العبادة العلنية للآلهة العقل (١٧٩٣) . وأما روبسبير فكان قد رأى
روسو أثناء مقام هذا الفيلسوف آخر مرة في باريس . وقال مناجياً جان - جاك
« إيه أسها القديس ! . . . لقد تطلعت إلى محياك المهيب . . . وفهمت كل
أحزان حياة نبيلة كرسست نفسها لعبادة الحق »^(٨٧) . وحين تقاد روبسبير
زمام السلطة أفتتح المؤتمر الوطني بتبني « إعلان الإيمان » الذي دان به قسيس
سافوا ديناً رسمياً للأمة الفرنسية ، وفي مايو ١٧٩٤ افتتح مهرجان الكائن
الأعظم إحياء لذكرى روسو . وحين أرسل إيبير وغيره إلى الجيلوتين
بتهمة الإلحاد ، شعر بأنه يتبع نصائح روسو بخذافيرها . ووافق نابليون
اللا أدرى روبسبير على الحاجة إلى الدين . وأعاد وضع الحكومة الفرنسية
في جانب الله (١٨٠٢) . ثم أعيدت الكنيسة الكاثوليكية إعادة كاملة
بعودة الملكية البوربونيه الفرنسية (١٨١٤) وكسبت أقلام شاتوبريان ،
ودميتر ، ولامارتين ، ولامنية القوية . ولكن الإيمان القديم اتكأ الآن أكثر
فأكثر على حقوق الوجدان لا على جح اللاهوت ، فحارب فولتير وديدرو
ببسكال وروسو . وازدهرت من جديد تلك المسيحية التي بدت محتضرة في
١٧٦٠ - في إنجلترا الفكتورية وفرنسا في عهد عودة الملكية .

ونحن الآن فقط - من الناحية السياسية - نخرج من عصر روسو ،
وأول علامة على تأثره السياسي كانت في موجة التعاطف العام الذي أيد
المعونة الفرنسية الفعالة لثورة الفرنسية . وقد اقتبس جفرسن إعلان الاستقلال
من روسو كما اقتبس من لوك ومونتسكيو ، واستوعب الكثير من كل من

فولتير وروسو حين كان سفيراً لدى فرنسا (١٧٨٥ - ٨٩) ، وردد صدى جان - جاك في أفتراضه أن هنود أمريكا الشمالية « ينمتعون في جملتهم بقدر من السعادة يفوق بمراحل أولئك الذين يعيشون في ظل الحكومات الأوروبية »^(٨٨) . وقد رفع نجاح الثورة الأمريكية مكانة فلسفة روسو السياسية .

وتزعم مدام دستال أن نابليون عزا الثورة الفرنسية إلى روسو أكثر من أى كاتب آخر^(٨٩) . وقد ذهب إدمند بيرك إلى أن في الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية (١٧٨٩-٩١) خلافاً كبيراً بين زعمائهم على أيهم أقرب شياً بروسو . والحق أنهم جميعاً يشبهونه . . . فلياه يدرسونه ، وإياه يتأملون ، وإليه يرجعون في كل الوقت الذي يستطيعون اقتناصه من شروهم المجهدة نهائياً أو فجورهم وعربدتهم ليلاً . فروسو هو كاهن كتابهم المقدس . . . وله يقيمون أول تماثيلهم^(٩٠) .

وفي ١٧٩٩ استعاد مالميه دويان إلى الأذهان أن « روسو كان له قراء من الطبقتين الوسطى والدنيا أكثر مائة مرة مما لفولتير : فهو وحده الذى لقح الفرنسيين بعقيدة سيادة الشعب . . . ومن الصعب ذكر ثورى واحد لم يفتش بهذه النظريات الفوضوية ولم يشتعل بغيرة تحقيقها . . . وقد سمعت مارا في ١٧٨٨ يقرأ « العقد الاجتماعى » ويعلق عليه في الشوارع العامة ، فيقابلها السامعون المتحمسون بالتصفيق » . . .^(٩١) .

واستشهد الخطباء في طول فرنسا وعرضها بأقوال روسو في التبشير بسيادة الشعب ؛ وبعض الفضل في استطاعة الثورة أن تعيش عقداً من الزمان الزمان رغم خصومها وشططها راجع إلى الترحيب العارم الذى لقيته هذه العقيدة .

وقد اتصل تأثير روسو في السياسة طوال تقلبات الثورات والرجعية ، وبسبب تناقضاته ، وبسبب القوة والحماسة اللتين بشر بهذه التناقضات بهما ، وجد فيه الفوضويون والاشتراكيون على السواء نبياً وقديساً ؛ ذلك لأن كلتا

الدعوتين المتعارضتين وجدنا غذاء في إدانته الأغنياء وعطفه على الفقراء . وقد ألهمت النزعة الفردية التي اتسمت بها أول «الأحاديث» ورفضه «المدينة» الثوار من بين ، وجود وين ، وشلي ، إلى تولستوى وكرويوتهكين وادورد كاربنتر . قال تولستوى «كنت وأنا في الخامسة عشرة أحيط عنقى بمدالية عليها صورة روسو بدلاً من الصليب المعتاد» (٩٢) . وقد وفرت عقيدة المساواة ، التي بشر بها ثاني «الأحاديث» موضوعاً أساسياً لضروب متنوعة من النظرية الاشتراكية ، من «جراكوس» بابوف وشارل فورييه وكارل ماركس إلى نيقولاى ليتين . يقول جوستاف لانسون «كان كل تقدم أحرز طوال قرن من الزمان في الديمقراطية ، والمساواة ، وحقوق التصويت للجميع ، وكل دعاوى الأحزاب المتطرفة التي قد نكون موجة المستقبل ، والحرب على الثراء والملكية ، وكل الحركات المحرصة للجماهير الكادحة المعانية ، كل أولئك كان ، من بعض النواحي ، من عمل روسو» (٩٣) أنه لم يخاطب المثقفين والكبار بالمنطق والحجة ، بل تكلم إلى الشعب كله بشعور وحاسة في لغة يستطيعون فهمها ، وكانت حرارة بانه ، في السياسة كما في الأدب ، أقوى من سلطان قلم فولتير .

٣ - لحن سير جنائزى

بعد أن رأى ديدرو فولتير عام ١٧٧٨ سأل صديقاً «لم يتحتم أن يموت؟» (٩٤) . ولقد بدا لحن السير الجنائزى الذى شيعت به جماعة الفلاسفة ، من موت هلفتيوس في ١٧٧١ إلى موت موريللية في ١٨١٩ ، كأنه تعليق ساخر على الغرور والخيلاء ، ولكننا قد نتساءل أيضاً لم طال عمر بعض هؤلاء الرجال طويلاً جر معه كل آلام الشيخوخة وهوانها .

وقد مات المحظوظون منهم قبل الثورة ، تعزيمهم مائة أمانة على أن أفكارهم وشيكة الانتصار ففضى كوندريك في ١٧٨٩ ، وطورجو في ١٧٨١ . أما دالامبير فقد مد في أجله على كره منه بعد موت الأنسة دلسبيناس . وكانت قد أودعته أوراقها ، ووضح منها أنها في السنين الإثنتى عشرة الأخيرة من حياتها منحت حبها لمورا أوجيبير ، ولم تترك له غير

صداقة يشوبها الضيق أحياناً . قال كوندورسيه لطورجو « ان دالامبير مطعون طعنه نجلاء ، وكل ما أرجوه له الآن أن تكون حياته محتملة » (٩٥) . وقد عاد إلى دراساته ، ولكنه لم يكتب بعدها شيئاً ذا بال . وكان يختلف إلى بعض الصالونات ولكن الحياة انطفأت من حديثه الذي كان يوماً ما أليماً . وقد رفض الاستجابة لدعوة فردريك إلى بوتسدام ، ودعوة كاترين إلى سانت بطرسبورج . وكتب إلى فردريك يقول : « اننى أشعر كأننى رجل تنبسط أمامه صحراء شاسعة تنتهى بهاوية الموت ، ولا أمل له فى لقاء إنسان واحد يحزن إن رآه يسقط فيها . أو يفكر فيه مرة أخرى بعد أن يختفى » (٩٦) .

وكان فى هذا مخططاً ، فقد اهتم به كثيرون ، ولو أولئك الذين كان يمدحهم ببعض دخله بانتظام . ذلك أن هيوم أوصى دالامبير بمائتى جنيه (٩٧) وهو واثق أنه سيوزع هذا المبلغ . ومع أنه كان يتقاضى مختلف المعاشات ، فقد عاش عيشة بسيطة إلى النهاية ، و ١٧٨٣ أصيب هو وديدرو بأمراض خطيرة — فأصيب ديدرو بذات الجنب ، ودالامبير باضطراب فى المثانة . وشفى ديدرو ، أما دالامبير فقضى نحبه (٢٩ أكتوبر ١٧٨٣) بالغاً من العمر سبعة وستين عاماً .

وكان ديدرو قد عاد من مغامرته الروسية فى أكتوبر ١٧٧٤ . وقد أضناه طول السفر فى مركبة حبست حركته ، ولكنه تنبأ صادقاً بأن « القدر يجنىء له عشر سنين أخر فى جرابه » (٩٨) . ثم عكف على « خطة لإنشاء جامعة لحكومة روسيا » (لم تنشر حتى ١٨٠٣) ، وقد دعا للاهتمام الأشد بالعلم والتكنولوجيا ، ووضع اليونانية واللاتينية والأدب فى نهاية القائمة تقريباً . وبين الطائفتين الفلسفة فسبق بذلك التطورات التربوية بمائة وخمسين عاماً . وفى ١٧٧٨ بدأ « مقالا عن عهدى كلود يوس ونبيرون . وعن حياة سنكا ومؤلفاته » . واستطرد فى هذا المقال ليرجو الأمريكين المستصرين فى جمهوريتهم الجديدة أن « يمنعوا الزيادة الهائلة والتوزيع غير المتكافئ للثروة والترف ، والتبطل وفساد الأخلاق » (٩٩) . وفى القسم المخصص لسنكا

أفسح مكاناً للدفاع الحار عن جريم ومدام دينيه وعن نفسه ضد التهم التي رماهم بها روسو في قراءاته العلنية لاعتراقاته ، قال :

« إذا صدر يوماً ما ، نتيجة جنوح المؤلف دائماً للاغراب والشذوذ ، كتاب يمزق فيه الشرفاء ارباب قلم وغد خبيث ... فانظروا إلى الأمام واسألوا أنفسكم هل ... يجدر بنا أن نصدق رجلاً وقحاً ... اعترف بألف فعل شرير . فإذا بكلف الافتراء رجلاً كهذا — وماذا تضيف جريمة كثيراً أو قليلاً للفساد الخلقى المستر لمياة تتخفى طوال أكثر من خمسين عاماً وراء أصفى أقنعة الرياء ؟ ... فسحقاً للعاق الذى يذم من أحسنوا إليه ؛ سحقاً للرجل الأثيم الذى لا يحجم عن تشويه سمعة أصدقائه القدامى ؛ وسحقاً للجبان الذى يخلف فوق قبره كشف الأسرار التي أوتن عليها . . أما عن شخصي ، فأقسم أن عيني أن تتلوأنا أبداً بقراءة كتابه ، وأنى أؤكد أنى أوثر أن يسبني عن أن يمدحني ^(١٠٠) .

وفى ١٧٨٣ ماتت مدام دينيه . وأحس ديدرو بهذه الخسارة إحساساً عميقاً ، لأنه كان يستمتع بصداقتها وندوتها . وكان جريم ودولباخ على قيد الحياة ، ولكن علاقاته بهما كانت فاتره ، وكان الثلاثة ينحدرون إلى الأناية الضيقة التي تصحب الشيخوخة ، وكل ما كان فى استطاعتهم تبادلها من حديث كان آلامهم . أما تشكيلة الأمراض التي شكها منها ديدرو فكان منها التهاب الكلية والتهاب المعدة ، وحصى المرارة ، والتهاب الرئتين ؛ ولم يعد فى قدرته صعود السلم من مسكنه فى الطابق الرابع إلى مكتبته فى الطابق الخامس ، وشعر الآن أنه محظوظ لأن له زوجة ، وكان قد اختزل خياناته الزوجية إلى ذكريات حزينة ، وأبلى هي حصيلتها من الكلام ، وهكذا عاشا فى سلام الإعياء المشترك .

وفى ١٧٨٤ مرض مرضاً خطيراً . وحاول كاهن سان — سوليبس الذى فشل من قبل مع فولتير أن يكفر عن تقصيره برد ديدرو إلى حظيرة الإيمان ، فزاره ، وتوسل إليه أن يرجع إلى الكنيسة ، وألنره بأنه ما لم يتناول الأسرار المقدسة فإنه لن يحظى بدفنه فى جبانة عامة . وأجاب ديدرو ،

« انى أفهمك ياسيدى الكاهن . فلقد رفضتم دفن فولتير لأنه لم يؤمن بلاهوت الإبن . حسناً ، انهم يستطيعون دفنى حين أموت فى أى مكان يشاءون ، ولكنى أعلن أننى لا أؤمن لا بالآب ولا بالروح القدس ولا بأى واحد فى الأسرة » (١٠١) .

وحين سمعت الإمبراطورة كاترين بأوصابه ، وفرت لى ولزوجته جناحاً فاخراً فى شارع ريشليو . وانتقلا إليه حوالى ١٨ يوليو . وابتسم حين رأى الأثاث الجديد يحمل إليه ، وقال إن فى استطاعته أن يستعمله بضعة أيام لا أكثر . وقد استعمله أقل من أسبوعين . وفى ٣١ يوليو ١٧٨٤ تناول وجبة شبيهة ، فأصابته جلطة تاجية ، ومات وهو على المائدة بالغاً الحادية والسبعين . وأقنعت زوجته وصهره كاهناً محلياً بالصلاة فى الكنيسة على جثمانه رغم إلحاده المشهور . ودفن فى كنيسة سان — روش ، ثم اختفى منها على نحو غامض فى تاريخ غير معروف .

وواصل الموكب سيرته . فمات ما بليه فى ١٧٨٥ ، وبوفون فى ١٧٨٨ ، ودولايخ فى ١٧٨٩ أما رينال فقد عمر إلى ما بعد الثورة كما رأينا ، وأدان جرائمها الوحشية ، وفاجأ نفسه بالموت ميتة طبيعية (١٧٩٦) . وأما جريم فقد قابل كل لطومات الحظ بصبر تيوتونى . ففي ١٧٧٥ رقاها يوزف الثانى بارونا من بارونات الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفى ١٧٧٦ عينه دوق ساكسى — جوتا سفيراً لدى فرنسا . وأكثر « الرسائل الأدبية » كان يقوم بتحريرها بعد ١٧٧٢ سكرتيره ياكوب ما يستر ، ولكن جريم شارك بمقالات لاذعة فى الأدب ، والفن ، والدين ، والأخلاق ، والسياسة ، والفلسفة . وكان الشاك الوحيد الممعن فى شكوكيته بين جماعة الفلاسفة ، لأنه تشكك أيضاً فى الفلسفة والعقل والتقدم . وبينما كان دويدور ونفر من فريق المؤمنين يتطلعون إلى الأجيال القادمة بأحلام الطوبى تنعكس فى أعينهم . قال جريم أن هذا سراب قديم العهد جداً : « وهم نخدر من جيل إلى جيل » ، وقد لاحظنا نبوءته عام ١٧٥٧ بنشوب « ثورة قاضية » (١٠٢) وشيكاً فلما جاءت الثورة وكانت سفاكة للدماء ، عاد إلى وطنه الأصيلى ألمانيا وأقام فى جوتا

(١٧٩٣) وخففت كاترين من فقره وعينته سفيراً لها في همبرج (١٧٩٦) فلما ماتت ولية نعمته الامبراطورة ذهب ليعيش مع املى بلزونس ، حفيدة حبيبته مدام ديبنيه . وعمر حتى ١٨٠٧ ، وعاش هذه الحفيدة أولاً على ذكريات تلك الأيام المشيرة التي كان فيها فكر فرنسا يقود أوربا إلى حافة الهاوية .

: — خاتم الفلاسفة الفرنسيين

ولد جان — أنطوان — نيقولا كاريتا ، مركز كوندورسيه ، وحفيد أسرة عريقة في دوفينه ، في بيكاردي (١٧٤٣) ، وتلقى تعليمه على اليسوعيين في رامس وباريس ، وظل سنين طويلة لا يفكر إلا في أن يكون رياضياً كبيراً . وحين بلغ السادسة والعشرين أُنْتُخِبَ عضواً في أكاديمية العلوم ، وحين أصبح فيها بعد سكرتيراً دائماً لها ، كتب التأييدات للأعضاء الراحلين ، كما فعل فونتينيل الأكاديمية الفرنسية . وقد أحب فولتير هذه التأييدات التذكارية كثيراً حتى أنه قال لكوندورسيه : « إن الجمهور يتمنى أن يموت أكاديمي كل أسبوع أو نحوه حتى تتاح لك فرصة الكتابة عنه » (١١٣) ، وقد زار فولتير في فرنيه (١٧٧٠) ، وعلق على طبعة تنظم أعمال فولتير نشرها بومارشيه ، وكتب لها مقدمة حارة بعنوان « حياة فولتير » وأقنعه دالامبير بأن يكتب مقالات للموسوعة ، وقدمه لجول دلسيناس ، التي أصبح في حفلات استقبالها قطباً من الأقطاب رغم خجله . لا بل انه كان في نظر جول لايفضاه غير دالامبير من حيث سعة عقله ، وربما كان يفوقه في حرارة حبه للخير . وكان أحد الرعيل الأول ممن انضموا للحملة التي شنت على تجارة الرقيق (١٧٨١) ، وقد أعانت جول على تحريره من ربة عشقه اليائس للآنسة دوسي ، وهي فتاة لعوب استغلت حبه لها دون أن تبادلها إياه ، وقد عزى نفسه بصداقة جان — باتست سبوار ومام سيوار ، وعاش معهم في شركة ثلاثية قانعة .

وفي ١٧٨٥ أصدر « مقالا في تطبيق التحليل على الاحتمالات » وفيه سبق نظرية مalthus إذ قال إن نمو السكان ينحو إلى تجاوز إنتاج الطعام ، ولكنه لم يدع إلى العفة الجنسية علاجاً ، بل أقترح تحديد النسل (١١٤) .

وقد رحب بالثورة فاتحة لمستقبل التعليم الجامعي ، والعدالة ، والرخاء . وفي ١٧٩٠ اختير للمجلس البلدي الذي كان قد تسلم إدارة باريس . ثم أنتخب عضواً في الجمعية التشريعية التي حكمت فرنسا من أول أكتوبر ١٧٩١ إلى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ ، ووضع بوصفه رئيساً للجنة التعليم العام تقريراً يدعو إلى نظام قومي للتعليم الابتدائي والثانوي ، العام ، المجاني ، الشامل للجنسين على السواء ، والبعيد عن النفوذ الكنسي . ويخطط التقرير لهذا التعليم تخطيطاً عاماً (١٠٥) ، وقد وضع مبدأ « دولة الرفاهية » قال : « يجب أن يكون هدف جميع المؤسسات الاجتماعية تحسين الأحوال البدنية والفكرية والأخلاقية لأكثر طبقات السكان عدداً وأشدّها فقراً » (١٠٦) . وقدم التقرير إلى الجمعية في ٢١ أبريل ١٧٩٢ ، ثم عطلت حروب الثورة اتخاذ إجراءات تنفيذه ، ولكن حين وطد نابليون سلطته جعل تقرير كوناوردسيه الأساس الذي أرسى فوقه تنظيمه للتعليم من جديد في فرنسا تنظيمياً بدأ به عهداً حاسماً .

ولم يتح لكوندورسيه مثل هذه المكانة المرموقة في المؤتمر القومي الذي حل محل الجمعية التشريعية . لأن الجيرونديين المحافظين تشككوا فيه بوصفه جمهورياً ، وارتاب اليقظة المتطرفون في نواياه بوصفه أرستقراطياً يحاول أن يخضع الثورة لسيطرة الطبقة الوسطى (١٠٧) . وقد صوت في صف الذين أدانوا لويس السادس مذنباً بالخيانة ، ولكنه صوت ضد إعدامه . فلما عين مع ثمانية آخرين أعضاء في لجنة وكل إليها صياغة دستور جديد ، قدم مشروعاً رفض بدعوى إسرافه في محاباة البورجوازية — فلما تبني المؤتمر الذي سيعاير عليه اليقظة دستوراً أكثر تطرفاً ، كتب كوندورسيه نشرة غفلا من التوقيع ينصح فيها المواطنين أن يرفضوه . وفي ٨ يوليو ١٧٩٣ أمر المؤتمر بالقبض عليه .

وظل تسعة أشهر محتبساً في منزل لأرملة المصور كلود — جوزف فرنه . ولكي يصرف ذهنه عن خوف القبض عليه ألف كتاباً يصاح تاختيصاً لحركة التنوير . و « كتاباً أزرق » (أي مخطوطاً) للمجتمع المثالي القادم . وعنوان المخطوط « نشرة تمهيدية لجدول تاريخي يمر ارحل تقدم العقل البشري » (١٠٨) .

كذلك سماه Esquisse أى تخطيط ، ويبدو أنه كان يؤمل أن يكتب يوماً ما عرضاً أكثر تفصيلاً لفلسفته .

وقد استوحى مخطوطه من المحاضرة التى أجمل فيها طور جو ، يوم كان لاهوتياً ، (١١ ديسمبر ١٧٥٠) « المراحل المتعاقبة لتقدم الفكر البشرى » (١١٩) وقسم كوندورسييه التاريخ إلى عشر مراحل : (١) اتحاد الأسر فى قبائل ، (٢) الرعى والزراعة ؛ (٣) اختراع الكتابة ؛ (٤) ازدهار الثقافة اليونانية حتى عهد الاسكندر ؛ (٥) تطور المعرفة خلال صعود روما واضمحلالها ؛ (٦) العصور المظلمة ، من ٤٧٦م . إلى الحروب الصليبية ؛ (٧) نمو العلم بين الحروب الصليبية واختراع الطباعة ؛ (٨) من جوتنبرج إلى بيكن ، وجاليليو ، وديكارت ، « الذين خلعوا نير السلطة ؛ (٩) من ديكارت حتى تأسيس الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية ؛ (١٠) عصر الفكر الحر (١١٠) .

وكان كوندورسييه لا يعترف للعصور الوسطى بقدر ، شأنه فى ذلك شأن فولتير ، فقد تمثل فيها تساطت الكنيسة على الفكر الأوربى ، وتخذل الشعب بسحر القداس ، وانبعثت الشرك نتيجة لعبادة القديسين (١١١) . ومع أنه احتفظ — كفولتير أيضاً — بإيمان ربوبى بالله ، فإنه اعتمد على تقدم المعرفة وانتشارها لتقويض سلطان الكنيسة ، وتوسيع الديمقراطية ، بل والارتقاء بالأخلاق ، فقد شعر بأن الخطيئة والجريمة هما إلى حد كبير نتيجة للجهل (١١٢) . « سيأتى الوقت الذى تشرق فيه الشمس فقط على أحرار الرجال الذين لا يعرفون لهم سيدياً غير عقابهم » (١١٣) . وقد اتنى على فولتير لإطلاقه الفكر من عقاله ، وعلى روسو لإلهامه الناس بأن يقيموا نظاماً اجتماعياً عادلاً . وصور الخير العميم الذى سيفيض بهما القرنان التاسع عشر والعشرون بفضل جهود القرن الثامن عشر : التعليم العام ، وحرية الفكر والتعبير ، وتحرير المستعمرات ، والمساواة أمام القانون . وإعادة توزيع الثروة . وقد تلذذب بعض الشيء فى أمر حق التصويت للجميع : فهو يريد بصفة عامة أن يقصر التصويت على أصحاب الأملاك أو الثروة مهما قلت (١١٤) ، وكان أحياناً يخشى أن تمكن سداجة الجماهير قلة غنية من أن تلقى آراءهم متى

شاعت ، وهكذا تخلق أوجركية بورجوازية ، مستترة وراء واجهة ديمقراطية^(١١٥) ، ولكن هروب لويس السادس ومارى أنطوانيت إلى فارين ، والخوف من أن تحاول الدول إعادة الملكية الأوتقراطية في فرنسا ، رداه إلى الدعوة لحق التصويت للجميع بما فيهم النساء^(١١٦) .

وقد تطالع في الخيال من عزلته المطاردة إلى مستقبل ملؤه جلائل الأعمال . فتنبأ بصعود الصحافة ضابطاً لطغيان الحكومة ؛ وبتطور دولة الرفاهية بفضل التأمين والمعاشات الاجتماعية ؛ وبحفز الثقافة نتيجة لتحرير المرأة ؛ وبإطالة عمر الإنسان بفضل تقدم الطب ؛ وبانتشار النظام الاتحادي بين الدول ؛ وبانقلاب الاستعمارية إلى معونة أجنبية تقدمها البلاد المتقدمة للمتخلفة ؛ وبخفة التعصب القومي نتيجة لانتشار المعرفة ؛ وبتطبيق البحوث الإحصائية على إنارة السياسات وصياغتها ؛ وبازدياد ارتباط العلم بالحكومة^(١١٧) ، وإذ رأى كل عصر مضيقاً أهدافاً جديدة لإنجازاته ، فلا يمكن إذن أن تكون هناك نهاية متطورة للتقدم . ولا يعنى هذا أن الإنسان سيندو كاملاً في أى وقت ، بل أنه سيسعى أبداً إلى الكمال . « ان الطبيعة لم تحدد زماناً لكمال الملكات البشرية ، وقابلية الإنسان للكمال لا حدود لها ، وتقدم هذه القابلية — التي ستكون منذ الآن مستقلة عن أى قوة قد تبغى تعطيلها — لا حد له غير عمر هذا الكوكب الذي ألقننا الطبيعة على سطحه^(١١٨) »

وقرب ختام هذا التخطيط تصدى كوندورسيه للمشكلة التي سيعرضها بعد أربع سنين في « مقال عن مبدأ السكان » (١٧٩٨) :

« ألا يجوز أن تأتى لحظة . . . يترتب فيها على زيادة سكان العالم عن أسباب العيش تناقص مستمر لسعادتهم ، . . . أو على أفضل تقدير تذبذب بين النفع والضرر ؟ وألا يدل ذلك على أن العالم قد وصل إلى نقطة يستحيل تحقيق المزيد من التحسين بعدها — وأن قبول النوع الإنساني للكمال قد بلغ بعد سنين طويلة مرحلة يعجز عن تجاوزها ؟

ومنذا الذي يستطيع التنبؤ بالحالة التي يمكن أن يوصل إليها فن تسخير عناصر الطبيعة لخيز الإنسان في الوقت المناسب ؟ . . . وحتى لو اتفقنا على

أننا سنصل يوماً ما إلى ذلك الحد . . . فإنه قبل أن يقع هذا كله سيكون تقدم العقل قد واكب تقدم العلوم ، وتعصب الخرافة السخيف قد كف عن إفساد القانون الأخلاقي والخط منه بمعالجه المنكرة . . . ولنا أن نفترض أنه إذا جاء ذلك الوقت فإن الناس سيعرفون أن عليهم واجباً قبل أولئك الذين لم يولدوا بعد ، هو واجب تيسير السعادة لهم ، لا مجرد العيش وكفى » (١١٩) .

ولم يكن تفاؤل كوندورسيه تفاؤلاً أعمى تماماً . « ما زلنا نرى قوى التنوير لا تملك أكثر من جزء صغير جداً من العالم ، والمتنورين حقاً وصدقاً تغلغ عليهم كثرة جماهير الناس الذين مازالت تسيطر عليهم الجهالة والتعصب . وما زلنا نرى مناطق شاسعة يزرع فيها البشر تحت نير العبودية » (١٢٠) . ولكن « صديق الإنسانية » يجب ألا يفقد الأمل أمام هذه المصاعب ، فانظر إلى الكثير من الأشياء النبيلة التي أنجزت فعلاً ، أنظر إلى التطور الهائل للتعرف وحسب المغامرة ، فأى شيء يستعصى على هذه الإنجازات إذا اتصلت وانتشرت ؟ وهكذا أنتهم كوندورسيه كتابه برؤيا كانت سداً له في الشدة ، وبديلاً له ولآلاف غيره عن إيمان فوق طبيعي . وإلى القارئ الكاحمة الأخيرة والمتوجة لحركة التنوير :

« كم تعزى الفلاسوف الذى يرمى الأخطاء والجرائم والمظالم التى مازالت تلوث الأرض ، والى كثير ما يكون هو نفسه ضحيتها — لكم تعزيه هذه النظرة للنوع الإنسانى ، وقد تحرر من أغلاله ، . . . يسير قدماً بخطى ثابتة مطمئنة على طريق الحق ، والفضيلة ، والسعادة . ان تأمل هذا المشهد هو الذى يجزيه عن جميع ما بذل من جهود فى إعانة تقدم العقل والدفاع عن الحرية . . . وهذا التأمل ملاذ له لا يستطيع ذكرى مضطهديه أن تتبعه إليه . فهناك يحيا بالفكر مع الإنسان وقد رد له حقه وكرامته الطبيعيان ، وينسى الإنسان الذى عذبه وأفسده الجشع ، أو الخوف ، أو الحسد ؛ هناك يحيا مع أتباعه فى جنة خلقتها العقل ، وجملتها أظهر اللذات التى عرفها حب البشر » (١٢١) .

واقعد أوشاك اعتراف الإيمان هذا أن يكون صرخة رجل شاعر بأن.

الموت يبحث عنه . فلما خشي كوندورسيه أن ياحق الضرر بمدام فرنيه إذا اكتشف أنها تزويه ، أودعها مخطوطه وغادر بيتها متنكراً رغم اعتراضاتها . وبعد أن تشرد أياماً على أطراف باريس طلب طعاماً في فندق . وأثار الشبهة مظهره وعدم وجود أوراق تعرف بهويته . وسرعان ما تبينه القوم أرسطراطياً . وقبض عليه ، وزج في سجن بمدينة بور — لا — رين (٧ أبريل ١٧٩٤) . وفي صبيحة الغد وجد ميتاً في زنزانته . وقد ذهب أول كاتب لسيرته إلى أنه حمل السم في خاتم ، وابتلع هذا السم ، غير أن تقرير الطبيب الذى فحص الجثة عزا موته إلى جلطة في أحد عروقه (١٢٢) . أما المؤتمر فقد أمر بعد حصوله على تخطيطه وقراءته بأن تطبع الدولة ثلاثة آلاف نسخة منه وتوزعها في جميع أرجاء فرنسا .

٥ — الفلاسفة والثورة

اتفق بيرك ، وتوكفيل (١٢٣) ، وتين (١٢٤) ، على أن فلاسفة فرنسا ، من بيل إلى ما بلى ، كانوا عاملاً كبيراً في أحداث الثورة . فهل نستطيع قبول النتيجة التى خلص إليها جهابذة المحافظين أولئك ؟

لقد كان جميع الفلاسفة المرموقين معارضين للثورة على حكومات أوروبا القائمة آنذاك ، لا بل إن منهم من وضعوا إيمانهم في الملوك لأنهم أكثر أدوات الإصلاح عملية ؛ واحتفظ فولتير ، وديدرو ، وجريم بعلاقات صداقة ، إن لم يكن إعجاب شديد ، بواحد أو آخر من أشد الحكام المعاصرين استبداداً — فردريك الثانى ، كاترين الثانية ، جستاف الثالث ؛ وأسعد روسو أن يستقبل يوزف الثانى أمبراطور النمسا . أما ديدرو ، وهافيتوس ، ودولباخ ، فقد وجهوا النقد العنيف للملوك بصفة عامة ، ولكنهم لم يدعوا قط في كتبهم التى بين أيدينا إلى الإطاحة بالملكية الفرنسية (١٢٥) . وعارض مارمونتيل وموريلليه الثورة في غير موارد (١٢٦) ، وجهر ما بلى ، الاشتراكى بأنه ملكى (١٢٧) ، أما طورجو معبود جماعة الفلاسفة ، فقد جاهد لإنقاذ لويس السادس عشر لا للقضاء عليه . ودعم روسو الأقطار الجمهورية ، ولكن لصغار الدول فقط ، وقبلت الثورة نظرياته وأغفلت تحذيره . ومحين

أقام الثوار نظاماً جمهورياً في فرنسا لم يقيموه على طريقة الفلاسفة الفرنسيين بل أبطال بلوتارخ من اليونان والرومان . ولم تكن قبلتهم فرنيه ، بل اسبرطه وروما الجمهورية .

ان الفلاسفة وفروا الإعداد الأيدولوجي للثورة . وكانت أسبابها اقتصادية أو سياسة ، وعباراتها فلسفية ، وقد تيسر للأسباب الأساسية للثورة أن تفعل فعلها بفضل عمل الهدم الذي قام به الفلاسفة لإزالة العقبات القائمة في طريق التغيير ، مثل الإيمان بالامتيازات الإقطاعية والسلطة الكنيسية ، وحق الملوك الإلهي . فلقد كانت كل الدول الأوروبية حتى عام ١٧٨٩ تعتمد على معونة الدين في غرس قانسية الحكومات في النفوس ، وحكمة التقاليد ، وعادات الطاعة ، ومبادئ الأخلاق ، وكانت بعض جذور السلطة الأرضية مغروسة في السماء ، واعتبرت الدولة الله رئيس شرطها السرية . كتب شامفور والثورة تدور رحاها يقول إن « الكهانة كانت أول معقل للسلطة المطلقة ، وقد أطاح به فولتير » (١٢٨) . وذهب توكفيل في ١٨٥٦ إلى أن « سوء السمعة العام الذي انحدر إليه الإيمان الديني كله في نهاية القرن الثامن عشر كان له ولا ريب أعظم الأثر في سبر الثورة برمته » (١٢٩) .

ثم انتقلت الشكوكية التي مزقت اللاهوت القديم شيئاً فشيئاً إلى نقد المؤسسات والشئون العلمانية . وقد ندد الفلاسفة بالفقر والفتنة كما نددوا بالتعصب والخرافة ، وكافحوا ليقلصوا سلطان أمراء الإقطاع على طبقة الفلاحين . واعترف بعض النبلاء بقوة الانتقادات اللاذعة التي وجهت إليهم ، وفقد الكثير منهم الثقة في تفوقهم الطبيعي وحقوقهم المتوارثة . استمع إلى الكونت لوى - فليب د سيجور : :

« كنا نقاداً شديدي الاحتقار للعادات القديمة ، وكبرياء آبائنا الإقطاعية ومراسمهم المتزمتة . . . وشعرنا بالميل إلى أن نأبج في تحمس العقائد الفاسفية التي جهر بها الكتاب الأذكىاء الجسورون . واجتذب فولتير انتباهنا ، ومس روسو قلوبنا . . . ولدنا خفية أن نراهم يهاجمون النظام القديم . . . فاستمتعنا في وقت واحد بمزايا طبقة النبلاء وتمع الفلسفة الشعبية » (١٣٠) .

وكان من هؤلاء الأشراف الذين وخزهم ضميرهم أشخاص ذوو نفوذ كبير أبو الأب والإبن ، ولاروشغوكو — ليانكور ، ولافاييت ، والفيكونت لوى — مارى دنواى ، و « فليب إيجاليتيه » (مساواة) ، والدوق أورليان ، ثم لنذكر المعونة والمواساة اللتين قدمهما لروسو المرشال لكسبورج ولوى — فرانسوا البوربونى أمير كوتى . وقد قادت الأقلية البرالية التى حفزتها غارات الفلاحين على الملكية الإقطاعية أمراء الإقطاع فى الجمعية التأسيسية على التخلّى عن معظم حقوقهم الإقطاعية لقاء تعويضات (٤ أغسطس ١٧٨٩) . لا بل إن الأسرة المالكة تأثرت بالأفكار شبه الجمهورية التى أعان الفلاسفة على نشرها . وكان أبو لويس السادس عشر يحفظ عن ظهر قلب فقرات كثيرة من كتاب مونتنسكيو « روح القوانين » ، وقد قرأ كتاب روسو « العقد الاجتماعى » وحكم بأنه « سليم إلى حد كبير » فيما خلا نقده للمسيحية . وعلم أبنائه (الذين أصبح ثلاثة منهم ملوكاً) أن « أسباب الامتياز التى تحظون بها لم تعطكم إياها الطبيعة ، التى خلقت الناس كلهم سواسية » (١٣١) . واعترف لويس السادس عشر فى مواسميه بـ « القانون الطبيعى » و « حقوق الإنسان » (١٣٢) . المترتبة على طبيعة الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً .

وأضافت الثورة الأمريكية مزيداً من المكانة والقدر للأفكار الجمهورية . ولقد استمدت تلك الثورة هى أيضاً قوتها من وقائع الحال الاقتصادية كنظام الضرائب والتجارة ، وكان « إعلان استقلالها » مديناً للمفكرين الانجليز دينه للمفكرين الفرنسيين ، ولكن لوحظ أن واشنطن ، وفرانكلين وجفرسن ، قد تهيأوا لقبول الفكر الحر بفضل جماعة الفلاسفة الفرنسيين . وعن طريق أولئك الأبناء الأمريكيين للتنوير الفرنسى ، تدرجت النظريات الجمهورية حتى تمثلت حكومة ظافرة فى السلاح ، يعترف بها ملك فرنسى ، وتمضى فى إرساء دستور يدين ببعض الفضل لمونتنسكيو .

ولقد مرت الثورة الفرنسية بثلاث مراحل . فى الأولى حاول النبلاء عن طريق البرلمانات ، أن يستردوا من الملكية ذلك السلطان الذى انتزعه منهم لويس الرابع عشر ، وهؤلاء النبلاء لم يستأهبوا جماعة الفلاسفة . وفى

المرحلة الثانية ظفرت الطبقات الوسطى بالتحكم في الثورة ، وكانت عميقة التشرب بأفكار الفلاسفة ، ولكن المعنى الذى فهمته من « المساواة » كان مساواة البورجوازي بالاستقراطى . وفي المرحلة الثالثة انتزع الرئاسة زعماء غوغام المدينة . وظلت جماهير الشعب متمسكة بالدين ، ولكن زعماءهم كانوا قد فقدوا احترامهم للمساواة والملوك ؛ وأحبت الجماهير لويس السادس عشر إلى النهاية ، ولكن زعماءهم ضربوا عنقه . وبعد ٦ أكتوبر ١٧٨٩ ، سيطر اليعاقبة على باريس ، وكان روسو إلامهم . وفي ١٠ نوفمبر ١٧٩٣ احتفل المتطرفون الظافرون بعيد العقل في كاتدرائية نوتردام . وفي تورأحل الثوار تماثيل جديدة تسمى ما بليه ، وروسو ، وفولتير محل تماثيل القديسين . وفي شارتر عام ١٧٩٥ ، في الكاتدرائية الشهيرة ، افتتح عيد العقل بدراما أظهر فيها فولتير وروسو متحدين في حملة على التعصب (١٣٣) .

لا سبيل إلى الشك إذن في أن الفلاسفة أثروا تأثيراً عميقاً في أيديولوجية الثورة ودرامتها السياسية . أنهم لم يقصدوا إلى العنف ، أو التقتيل ، أو الجيوليتين ؛ ولو قد شهدوا هذه المناظر الدموية لاقشعروا رعباً ، ولربما قالوا بحق إنه قد أسىء فهمهم على نحو قاس ، ولكنهم كانوا مسئولين بقدر ما استخفوا بأثر الدين والتقاليد في ضبط الغرائز الحيوانية للبشر . وكانت الثورة الحقيقية أثناء ذلك ماضية في طريقها في ظل تلك الآراء الأخذاة والأحداث المرئية ، إذ انتزعت الطبقات الوسطى من الأرستقراطية والملك التسلط على الاقتصاد والدولة ، متدرعة بالفلسفة أداة من مائة أداة أخرى في بلوغ غايتها تلك .

الفصل السادس والثلاثون

عشية الثورة

١٧٧٤ - ٨٩

١ - الدين والثورة

كانت الكنيسة الكاثوليكية من الناحية المالية أسلم مؤسسة في البلاد ، تملك نحو ٦ ٪ من الأرض ، وأملاكاً أخرى تقدر قيمتها في مجموعها بمبلغ يتفاوت بين بليونى جنيه وأربعة بلايين ، وتغل دخلاً سنوياً قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه^(١) . يضاف إلى هذا ١٢٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من العشور التى تجبى على غلات الأرض وماشيتها^(٢) . وكانت هذه الدخول فى نظر الكنيسة لازمة لأداء مختلف وظائفها - وهى دعم الحياة الأسرية ، وتنظيم التعليم (قبل ١٧٦٢) ، وتربية الأخلاق ، وتأييد النظام الاجتماعى ، وتوزيع الصدقات ، ورعاية المرضى ، وتوفير الأديرة ملاذاً للنفوس النزاعة للتأمل أو العازقة عن السياسة بحميتها من فوضى الزحام واستبداد الدولة ، وغرس مزيج حكيم من الخوف ، والرجاء ، والتسليم ، فى نفوس ضرب عليها الفقر أو المشقة أو الحزن نتيجة لعدم المساواة الطبيعية بين البشر .

كل أولئك زعمت أنها تفعله بواسطة اكليروسها الذى كان قوامه نحو نصف فى المائة من السكان . وكان عدد رجاله قد تقلص منذ عام ١٧٧٩^(٣) ، وأصاب الأديرة اضمحلال خطير . ويروون إن « رهبان كثيرين كانوا يحبذون الأفكار الجديدة ، ويقرأون مؤلفات الفلاسفة »^(٤) . وهجر مئات الرهبان حياة الرهبة ولم يحل محلهم جدد ، وتقلص عددهم فى فرنسا بين ١٧٦٦ و ١٧٨٩ من ٢٦,٠٠٠ إلى ١٧,٠٠٠ ، وفى أحد الأديرة

من ثمانين إلى تسعة عشر ، وفي آخر من خمسين إلى أربعة^(٥) . وقد أغلق مرسوم ملكي صدر عام ١٧٦٦ جميع الأديرة التي تضم أقل من تسعة نزل ، ورفع السن المسموح بها لنذر الرهبنة من ست عشرة سنة إلى إحدى وعشرين للرجال ، وإلى ثمان عشرة للنساء . وكانت أخلاق الرهبان منحلة . كتب رئيس أساقفة تور في ١٧٧٨ : « ان الأخوة الرمادين (الفرنسيسكان) في حالة انحطاط في هذا الإقليم ، ويشكو الأساقفة من خلاعتهم وما في حياتهم من فوضى »^(٦) . أما أديرة الراهبات فكانت في حالة طيبة . وكان هناك ٣٧,٠٠٠ راهبة يضمهن ١,٥٠٠ دير في فرنسا عام ١٧٧٤^(٧) ، وكانت أخلاقهن فاضلة ، وقد نشطن لمهامهن في تعاليم الفتيات ، والخدمة في المستشفيات ، وتقديم المأوى للأرامل ، والعوانس ، والنساء اللاتي تحطمن في معركة الحياة .

وحسن حال الأكليروس من غير الرهبان مادياً في مقار الأسقفيات وساء في الأبرشيات . وقد كان هناك الكثير من الأساقفة المخلصين المجتهدين ، وبعض الكسالى المتشبهين بمتع الحياة الدنيا . وقد وجد برك أثناء زيارته لفرنسا عام ١٧٧٣ بعض الأساقفة ممن يعيهم الجشع ، ولكن السواد الأعظم منهم وقعوا من نفسه خير موقع بعلمهم ونزاهتهم^(٨) . وقد نخلص مؤرخ ألم بكتب الفصائح إلى هذا الحكم « يمكن القول بصفة عامة أن الرذائل التي استشرت في جسم الأكليروس كانه خلال القرن السادس عشر قد اختفت في القرن الثامن عشر . وكان قساوسة الريف عادة رجالاً ذوي أخلاق كريمة ، متقشفين ، فضلاء^(٩) رغم قانون التبتل » ، وقد شكوا كهنة الأبرشيات هؤلاء من الكبرياء التطبيقية في الأساقفة ، وكانوا كلهم نبلاء ، ومن إزامهم بتحويل الجزء الأكبر من العصور إلى الأسقف ، وما ترتب على ذلك من فقر ألبأ القساوسة إلى أن يفاحوا الأرض كما يخدمون الكنيسة . وقد تأثر لويس السادس عشر من احتجاجاتهم ، وأمر برفع رواتبهم من خمسمائة جنيه في العام إلى سبعمائة . فلما أقابت الثورة أيد كثيرون من صغار الكهنة الطبقة الثالثة . كذلك ظاهر بعض الأساقفة الإصلاح السياسي والاقتصادي ، ولكن أكثرهم ظل صلباً لايلين في عاداته لأي تغييرات في الكنيسة أو الدولة^(١٠) .

وحين أشرفت خزانة فرنسا على الإفلاس ظهر ثراء الكنيسة مناقضاً لفقر الدولة تناقضاً مغريباً بالعدوان عليه ، وبدأ أصحاب الصكوك الذين تشككوا في قدرة الحكومة على دفع فائدة قروضهم أو أصولها يرون في نزع أملاك الكنيسة السبيل الأوحى لإصلاح مالية البلاد . والتقى رفض العقيدة المسيحية المنتشر مع هذا الدافع الاقتصادي .

وزكا الإيمان الدينى فى القرى ، وخبا فى المدن ؛ وفى المدن احتفظت نساء الطبقتين الوسطى والدنيا بتدينهن التقليدى . قالت مدام فيجييه — ليرون مسترجعة ذكرى ما ضيها « كانت أمى تقيّة جداً . وكنت أنا أيضاً تقيّة فى قرارة نفسى . وقد ألفنا دائماً أن نستمع إلى القديس المطول ونخاف إلى خدمات الكنيسة » (١١) . وكانت الكنائس تكتظ بالمصايين فى الآحاد والأعياد الدينية (١٢) . ولكن عدم الإيمان بين الرجال كان قد تسلط على نصف العقول القائدة . وفى أوساط النبلاء أصبحت الشكوكية المرححة زياً راج حتى بين النساء . كتب مرسويه فى كتابه « صورة باريس » فى ١٧٨٣ يقول : « لم يحضر أفراد المجتمع العصرى القديس طوال السنوات العشر الماضية ، فإذا حضروا فلكيلا يصدّموا شعور أتباعهم الذين يعرفون أنهم يفعلون هذا لإرضاء لهم » (١٣) ، وحلوا القضاة الأعلى من الطبقة الوسطى حلوا الأرستقراطيين . أما فى المدارس « فإن مدرسين كثيرين سرت إليهم عدوى الإلحاد بعد عام ١٧٧١ » (١٤) ، وأهمل كثير من الطلاب حضور القديس وقرأوا كتب الفلاسفة . وفى ١٧٨٩ صرح الأب بونفاكس بأن « أخطر فضيحة ، والفضيحة التى ستجر أوحش العواقب ، هى المهجر التام تقريباً للتعليم الدينى فى المدارس العامة » (١٥) . وقد قيل عن إحدى الكليات أن « ثلاثة من البهلاء فقط » هم الذين يؤمنون بالله (١٦) .

أما بين الأكليروس فقد اختلف الإيمان عكسياً باختلاف الدخول . فالأساقفة « قبلوا المبادئ النفعية التى قال بها جماعة الفلاسفة ، واحتفظوا بالمسيح واجهة سائرة فقط » (١٧) . وكان مشاة من رؤساء الأديرة مثل ما بليه ،

وكوندياك ، وموريليه ، ورينال ، هم أنفسهم « فلاسفة » ، أو معتنقين للشكوك السارية . ثم أساقفة كتاليران لم يتظاهروا بالإيمان المسيحى إلا قليلاً ، ورؤساء أساقفة مثل لومنيه دبربين ، شكوا لويس السادس عشر من عدم إيمانهم بالله^(١٨) . وقد رفض لويس أن يكلف قسيساً بتعليم ولده مخافة أن يفقد الغلام إيمانه الدينى^(١٩) .

وواصلت الكنيسة مطالبتها بالرقابة على المطبوعات . فى عام ١٧٧٠ أرسل الأساقفة إلى الملك مذكرة تناولت « العواقب الخطيرة لحرية التفكير والنشر »^(٢٠) . وكانت الحكومة فى عهد لويس الخامس عشر قد تساهلت فى تطبيق القوانين التى منعت دخول البروتستنت إلى فرنسا ، فكان منهم الآن مئات فى المملكة ، يحبون فى ظل قيود سياسية ، وفى زيجات لا تعترف بها الدولة ، وفى خوف كل يوم من أن تطبق عليهم فى أى لحظة قوانين لويس الرابع عشر القديمة ، وفى يوليو ١٧٧٥ التمس مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك من الملك أن يحظر اجتماعات البروتستنت ، وزيجاتهم ، وتعليمهم ، وأن يحرم البروتستنت من جميع المناصب العامة ، كذلك طلب خفض السن التى يسمح فيها بنذر الرهبنة إلى السادسة عشرة^(٢١) . وناشد طورجو لويس السادس عشر أن يغفل هذه المقترحات ، وأن يخفف عن البروتستنت قيودهم ، فشارك الكهنة فى الحملة لإقصائه . وفى ١٧٨١ أحرقت الطبعة الثانية من كتاب رينال « التاريخ الفاسى لجزر الهند الشرقية والغربية » بأمر من برلمان باريس ، ونفى المؤلف من فرنسا . وهاجمت الصور بون بوفون لأنه وصف تطوراً طبيعياً للحياة . وفى ١٧٨٥ طالب الأكليروس بالحكم بالسجن المؤبد على الأشخاص الذين يدانون ثلاث مرات بالإلحاد^(٢٢) .

غير أن الكنيسة التى أوهرن بأسرها قرن من الهجمات لم تعد قادرة على الهيمنة على رأى العام ، ولا على الاعتماد على « الدراع العلمانية » فى تنفيذ أوامرها . فبعد أن ظل لويس السادس عشر شديد القلق بسبب يمين التتويج التى أقسمها لحق المهرطقة ، أذعن لضغط الأفكار الليبرالية وأصدر فى ١٧٨٧ مرسوماً للتسامح أعده باليرب : « ان عدالتنا لاتسمح لنا بأن نحرّم بعد اليوم

من حقوق الدولة المتحضرة رعايانا الذين لا يعترفون بالكاثوليكية» (٢٣) . وقد أبقي المرسوم على محرمان غير الكاثوليك من المناصب العامة ، ولكنه أعطاهم جميع الحقوق المهنية الأخرى ، وسمح لهم بالمهنة الحرة ، وأضفى الشرعية على زيجاتهم الماضية والمستقبلية ، وأباح لهم الاحتفال بخدماتهم الدينية في المنازل الخاصة . ويجب أن نضيف أن أسقفاً كاثوليكياً هو لا لوزرن أيد بقوة تحرير البروتستانت وإطلاق الحرية الكاملة لعبادة الميضية (٢٤) .

ولم تكن هناك طبقة في مدن فرنسا أبغض إلى أقلية الدكور المتعامة من الأكليروس الكاثوليك . يقول توكفيل أن الكنيسة كانت مكروهة « لأن المساواة زعموا أنهم ينظمون شئون العالم الآخر ، بل لأنهم كانوا ملاكاً للأرض ، وأصحاب ضياع وعشور وحكاماً في هذا العالم » (٢٥) . وكتب فلاح إلى نكير في ١٧٨٨ يقول : « إن الفقراء يقاسون البرد والجوع بينما يرتفع كهنة الكندرايات في رغد من العيش ولا يفكرون إلا في تسمين أنفسهم كأنهم خنازير ستلدح للفصح » (٢٦) . وغاظ الطبقات الوسطى إعفاء ثروة الكنيسة من الضرائب .

ولقد كانت معظم الثورات السابقة ثورات اما على الدولة ولما على الكنيسة ، ونادر أن نشبت ضدهما معاً في وقت واحد . فالثورات الهمجية أطاحت بروما ، ولكنها قبلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . والسوفسطائيون في اليونان القديمة ودعاة الإصلاح البروتستانت في أوربة القرن السادس عشر ، رفضوا الدين السائد ، ولكنهم قبلوا الحكومة القائمة . أما الثورة الفرنسية فإنها هاجمت الملكية والكنيسة جميعاً ، واضطلعت بمهمة ومخاطرة مزدوجة ، هي مهمة الإطاحة بالركيزتين الدينية والدنيوية للنظام الاجتماعي القائم . فهل من عجب أن يركب فرنسا الجنون عقداً من الزمان ؟

٢ - الحياة على شفا الثورة

أدرك الفلاسفة أنهم وقد رفضوا الأسس اللاهوتية للأخلاق ملتزمون أدبياً بالعثور على أساس آخر ، على نسق آخر للإيمان يحمل الناس على السلوك الكريم بوصفهم مواطنين ، وأزواجاً ، وآباء ، وأبناء (٢٧) . ولكنهم لم

يكونوا إطلاقاً واثقين من إمكان السيطرة على هذا الحيوان البشرى دون ناموس أخلاقى مكرس تكريساً فوق طبيعى . وانتهى فولتير وروسو إلى الاعتراف بالضرورة الأخلاق لإيمان دينى شعبى . وكتب مابليه إلى جون آدمز فى ١٧٨٣ فى « ملاحظات على حكومة . . الولايات المتحدة الأمريكية » عام ١٧٨٣ منبهاً إلى أن عدم المبالاة بأمور الدين ، مهما كان غير ضار بالأفراد المستورين العقلانيين ، إلا أنه ويبل على أخلاق الجماهير . ورأى أن على الحكومة أن تضبط وتوجه فكر هؤلاء « الأطفال » كما يفعل الآباء مع أبنائهم الصغار^(٢٨) . أما ديدرو فى النصف الثانى من حياته فكر ملياً فى وضع أخلاقيات طبيعية ، ثم اعترف بفشله : « بل إننى لم أجرو على أن أخط أول سطر . . ولست أخالى كفتاً لهذا العمل الجليل »^(٢٩) .

ولنسأل الآن أى ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات على المعتنقات فوق الطبيعية ؟ وفى جوابنا عن هذا السؤال يجب ألا ننصو النصف الأول من القرن الثامن عشر فى صورة مثالية . لقد قال فونتنيل قبيل موته فى ١٧٥٧ إنه يتمنى لو ولد فى أجله ستون سنة أخرى « لأرى النهاية التى تنتهى إليه الخيانة الزوجية المستشرية والخلاعة وتحلل جميع الروابط »^(٣٠) . فإذا كانت تلك العبارة (التى لعلها لم تنصف الطبقتين الوسطى والدنيا) تعطى صورة صادقة لأخلاق الطبقة العليا فى فرنسا قبل « الموسوعة » (١٧٥١) ، فلن نكون محقين إذا عزونا إلى جماعة الفلاسفة العيوب التى شابت الأخلاق فى النصف الثانى من القرن . ذلك أن عوامل أخرى غير اضمحلال الإيمان الدينى كانت توهم قوة الناموس الأخلاقى القديم ، فتكاثر الثروة مكن الناموس من الإنفاق على آثام كانت من قبل غالية التكلفة . وقد صور لنا رستيف دلابرتون بورجوازيًا فاضلاً يتمحسر على تدهور الخلق الفرنسى بانتقال السكان من القرى والمزارع إلى المدن^(٣١) ؛ وكان الشبان يهربون من النظام المفروض عليهم فى الأسرة ، والمزرعة ، والناحية ، إلى حياة المدن بما فيها من اتصالات وفرص مؤذية ، واختفاء للشخصية بين حشود المدينة . وفى كتابه « ليالى باريس » وصف رستيف باريس الثمانينيات كأنها دردور هائل عنيف يعج بالأحداث المنحرفين ، وصغار اللصوص ،

ويحتقر في الإجرام ، والبغايا إناثاً وذكوراً . وذهب تين إلى أن فرنسا في ١٧٥٦ — ٨٨ ابتليت « بالمتشردين » والمتسولين ، وبكل ضروب النفوس العنيدة . . . الكريمة ، القدرة ، الشراسة ، المتوحشة ، التي ولدها النظام ؛ وقد تجمعت كالحشرات على كل قرحة اجتماعية » (٣٢) . وكانت حثالة الكائن الاجتماعي هذه نتائج الطبيعة البشرية وحكم البوريون ، ولا يمكن أن تعزى إلى الفلسفة أو انطواء شعلة الإيمان .

وربما كان بعض القهار الذي ازدهر في باريس (كما في لندن) مرتبلاً بعدم الإيمان ، ولكن الجميع شاركوا فيه ، أتقياء وعصاة على حد سواء . وفي ١٧٧٦ ألغيت جميع ألوان اليانصيب الخاص لتدمج في « اليانصيب الملكي » . ومع ذلك يجوز أن نعوذ إلى حد معقول شرطاً من الفوضى الجنسية في الطبقات العليا إلى الإلحاد . ففي كتاب شودرلو دلاكلو « العلاقات الغرامية الخطرة » (١٧٨٢) نجد أشرافاً وهميين يتبادلون الملاحظات في فن الإغواء ، ويضعون الخطط لفض بكاراة فتاة في الخامسة عشرة بمجرد تركها الدير ، ويعتقدون فلسفة العدمية الأخلاقية . وحجة البطل ، الفيكونت فالون ، أن جميع الناس أشرار في رغباتهم على السواء ، ولكن أكثرهم يخفون في تحقيقها لأنهم يسمحون للتقاليد الأخلاقية أن تخوفهم . ويقول فالون أن الرجل العاقل يسعى إلى إشباع أى أحاسيس تعده بأعظم لذة ، ويحتقره كل النواهي الأخلاقية (٣٣) . ويحضرنا في هذا المقام أن بعض السوفسطائيين اليونان توصلوا إلى مثل هذه النتائج بعد أن نبذوا آلهتهم (٣٤) .

وفلسفة انعدام الحس الأخلاقي هذه ، كما يعرف العالم كله الآن ، غلا فيها غلوّاً مفرزاً الكونت دساد — الذي يسمى خطأ عادة بالمركز دساد . وقد ولد في باريس عام ١٧٤٠ ، وخدم في الجيش اثنتي عشرة سنة ، وقبض عليه وحكم عليه بالإعدام بتهمة اللواط (١٧٧٢) ، ثم فر ، وقبض عليه ، وفر ثانية ، وقبض عليه من جديد ، ثم حكم عليه بالسجن في الباستيل . وهناك ألف عدة قصص وتمثيلات ، فيها من الفحش والبذاءة ما أتسع له خياله : وأهمها « جوستين » (١٧٩١) ، و « قصة جوليت » ، أو أزدهار

الرذيلة» (١٧٩٢) ، وهو يزعم أنه مادام الإله غير موجود ، فإن العقول من سعى إلى إشباع كل رغبة ما استطاع دون أن يجر عليه عقوبة أرضية ، وكل الرغبات خيرة على السواء ، وكل الفوارق الأخلاقية أوهام ؛ والعلاقات الجنسية الشاذة مشروعة ؛ وهي ليست في حقيقتها شاذة ؛ والجريمة ممتعة لو تجنبنا افتضاح أمرك ؛ وقل أن تجد شيئاً ألد من ضربك فتاة جميلة ، ولم يصدم القراء بانعدام الحس الأخلاقي عند دساد كما صدموا بالماعة إلى أن القضاء المبرم على النوع الإنساني لن يصيب الكون بأى أذى يذكر حتى أنه « لن يقف مسيره أكثر مما لو باد نوع الأرانب البرية أو البيثية كله » (٣٥) . وفي ١٧٨٩ نقل دساد إلى مستشفى للأمراض العقلية في شارنتون ، ثم أفرج عنه في ١٧٩٠ ، وحكم عليه بالعودة في ١٨٠٣ لاستعصاء شفاؤه ، ومات في ١٨١٤ .

وقد يدفع الفلاسفة بأن هذا الانعدام للحس الأخلاقي هو استنتاج خلقى لنقدمه اللاهوت المسيحى ، وأن العقل السليم يقر الالتزامات لأدبية سواء دان أو لم يدين بالإيمان الدينى ، وقد أقرها كثيرون ، وكان بين سكان فرنسا — بل سكان باريس — الأسوياء في تلك السنين عناصر كثيرة للتجدد الأخلاقى : ازدياد رقة العاطفة والحنان ، وانتصارات الحب الرومانسى على زيجات المصلحة ، والأم الشابة ترضع طفلها بفخر ، والزواج يتودد إلى زوجته ، والأسرة ترد إلى سابق وحدتها باعتبارها أسلم منبع للنظام الاجتماعى . وكثيراً ما كانت هذه التطورات ممزجة ببقايا من العقيدة المسيحية ، أو بفلسفة روسو نصف المسيحية ، ولكن ديلرو الماحد أبدها تأييداً حماسياً .

وقد أعقب موت لويس الخامس عشر انتفاض على إباحيته الجنسية . وضرب لويس السادس عشر المثل الطيب ببساطة لباسه وحياته ، وبوفاته لزوجه ، وبأدائه للقمار . وشاركت الملكة ذاتها في زى البساطة ، وقادت حركة إحياء الحساسية ورقة العاطفة . وجرت الأكاديمية الفرنسية على منح جائزة كل سنة للفضيلة البارزة (٣٦) . وكان أكثر الأدب مهذباً ، ونحيت قصص كريبيون الإبن جانباً ، وقررت قصة برناردان دسان — بيير « بول وفرجينى » طابع الطهارة الخلقية في الحب . وعكس الفن الأخلاق الجديدة ، ومجد جروز ومدام فيجييه — لبرون الأطفال والأمومة .

وغدت المسيحية والفلسفة معاً نزعة إنسانية بثت المثالات من أعمال البر والخير . وفي شتاء ١٧٨٤ القارس خصص لويس السادس عشر ثلاثة ملايين من الجنيهات لإغاثة الفقراء ؛ وشاركت ماري أنطوانيت بمائتي ألف من جيبها الخاص ، وحذا الكثيرون حذوهما . وساعد الملك والملكة على تمويل مدرسة الصم والبكم التي أسسها الأب دليبييه في ١٧٨٨ لتعليم أبجديته الجديدة التي ابتكرها للصم والبكم ، ومدرسة الأطفال المكفوفين التي افتتحها فالتان هاوى في ١٧٨٤ . وأسست مدام نكير (١٧٧٨) ماعجاً ومستشفى للفقراء ، ظلت تشرف عليهما بشخصها عشرة أعوام . ووزعت الكنائس ، وأديرة الرهبان والراهبات ، الطعام والدواء . وفي هذا العهد تشكلت حملة لإلغاء الرق .

كذلك كانت آداب السلوك كالأخلاق انعكاساً لعصر روسو ، فهي لم تبلغ قط في عهد ملوك البوربون هذا المبلغ من الديمقراطية . صحيح أن للفوارق الطبقة ظلت قائمة ، ولكن خفف منها لطف أعظم ومجاملة أوسع . وكان المهوبون من الرجال ، الذين لا يحملون ألقاب شرف ، يلقون الترحيب في أعرق البيوت محترماً . ومرة قفزت الملكة من مركبتها لتعين حوذيلاً جريحاً ، ورفع الملك وأخوه الكونت دارتوا بكتفيهما العجلة ليساعدا عاملاً على تخليص عربته من الوحل . وأصبح اللباس أبسط : فانحلت البواريك ، وتخلت السادة ، إلا في البلاط ، من مطرزاتهم ، ومخزوماتهم ، وسبوفهم ، بحيث كان من العسر في عام ١٧٨٩ أن ينبيء المرء عن طبقة رجل من زيه . وحين استهوى فرانكافرنسا استسلم له حتى الخياطون ؛ وظهر الناس في الشوارع « يلبسون على الطريقة الفرانكلينية قاشاً خشناً ، وحذاء سميكا » (٣٧) .

أما سيدات الطبقة البورجوازية فتزين في لباسهن تزيين سيدات البلاط . وبعد ١٧٨٠ نبذت النساء الطوق الحديدى الثقيل ، ولكنهن حصن قوامهن بتنانير قاسية يلبسها متراكبة كالأحجية الصيذية المعقدة . وقصرت الصنادرات من أمام ، ولكن الصدر كان عادة يغطى بمنديل مثلث يسمونه (رباط) ،

وفى الإمكان تكثيف هذه المناديل لستر النهود النعيلة ، ومن ثم سماها الفرنسيون المناديل « الغشاشة » أو « الكاذبة »^(٣٨) . وظلت تسريحات الشعر عالية ، ولكن حين فقدت ماري أنطوانيت معظم شعرها أثناء حمل لها أحلت العقاص محل تسريحة « البرج » ، وانتشرت هذه الموضة الجديدة من البلاط إلى باريس . وكان هناك مائتا طراز لقبعات النساء ؛ وكان بعضها هياكل ضعيفة من السلك ، والریش ، والأشرطة ، والأزهار ، والخضر الاصطناعية ؛ ولكن النساء اتبعن فى أوقاتهن الأكثر دعة واسترخاء الطراز الذى ابتدعته الملكة فى البتى تريانون ، والذى يغطى الرأس بوشاح بسيط . وفى أعظم الثورات قاطبه لبس بعض النساء الأحنذية الواطئة أو الإخفاف المريحة^(٣٩) . ووافق هذا التغير إلى لباس أروح وأيسر أسلوب فى العيش أصبح . وأقبلت قلة متزايدة على « العيشة الطبيعية » : فلا مشدات ، ولا خدم ، ومزيد من الحياة فى الهواء الطلق ، وهروب من المدن إلى الريف كلما أمكن . كتب آرثر لينج يقول « كل من يملك بيتاً فى الريف يهرع إليه ، ومن لا يملك يزور من يملك . والثورة التى قلبت آداب السلوك الفرنسية هى ولارب من أفضل الملامح التى أخذوها عن إنجلترا . وقد زاد ادخالها يسراً سحر مؤلفات روسو^(٤٠) . غير أن الكثير من هذا « الرجوع إلى الطبيعة » كان كلاماً أو عاطفة أكثر منه عملاً أو واقعاً ، وظلت الحياة فى باريس تجرى فى سباق مجنون مع الحفلات الموسيقية ، والأوبرات ، والتبلييات ، وسباقات الخيل ، ورياضات الماء ، وألعاب الورق ، والرقص ، والحفلات الراقصة ، والدردشة ، والصالونات .

الصالونات (Salonnieres)

جملت النساء الفرنسيات اضمحلال الإقطاعية لامتفان أشخاصهن وأزيائهن فحسب ، بل بقدرتهن التى لاتبارى على جعل المجتمع الفرنسى جزءاً حيويًا من الحياة الفكرية للأمم ، لا مجرد اجتماعات للثروة والقبل والقال . كتب جبون بعد أن وصل فى ١٧٧٧ ما انقطع بينه وبين صالونات باريس يقول :

« لو أتيت ليوليانوس الآن أن يلم من جديد بعاصمة فرنسا (حيث ولد عام ٣٣١م) . لاستطاع أن يتبادل الحديث مع علماء وعباقره قادرين على فهم تلميذ من تلاميذ اليونان وعلى تعليمه ، ولعله مخترع تلك الحقايق اللطيفة التي تند عن أمة لم يوهن روحها الحربية قط حبها للترف ، وهو لابد مصفق لكمال ذلك الفن الرفيع الذي يرقق ويهذب ويجميل علاقات الحياة الاجتماعية » (٤١) .

ثم أضاف في إحدى رسائله « لقد بدا لي دائماً أن النساء في لوزان ، كما في باريس ، أرقى كثيراً من الرجال » (٤٢) .

وكانت قدامى الصالونيات يخالن المسرح على كره . فدام جوفران ماتت عام ١٧٧٧ كما سبق القول . أما مدام دود فان فقدت أوشكت أن تتم عبور القرن من أوله لآخره ، فقد دخلت التاريخ بوصفها إحدى خليات الوصى على العرش (٤٣) . وافتتحت صالوناً اتصل نشاطه من ١٧٣٩ إلى ١٧٨٠ ، وكانت قد خسرت معظم سباع الأدب ، إذ ظفرت بهم جولى دلسبيناس والصالونات الجديدة ، وقد وجد هوراس ولبول - الذى قدم إليها لأول مرة فى ١٧٦٥ - تشكيلتها من الشيوخ الأرستقراطيين مملة لا تثير اهتمامه . « إننى أتناول عشائى هناك مرتين كل أسبوع ، وأحتفل عشاءها المملين كلهم لأجل خاطر الوصى على العرش » (٤٤) ، وهو يعنى ذكرياتها المريحة لفترة الوصاية الرائعة تلك التى قررت طابع المجتمع الفرنسى والأخلاق الفرنسية طوال الستين عاماً التالية . أما هى ذاتها (فى عبارة هوراس) « فلديذة (فى الثامنة والستين) ، توافقه لمعرفة ما يجرى كل يوم توفى لما جرى فى القرن الماضى » .

وقد أعجب بفكرها إعجاباً مفرطاً - لأنه لم ياتق قط بمثل هذا الذكاء اللامع فى نساء انجلترا اللائى مازلن مقهورات مكبوتات - حتى لقد ألف أن يلم بها كل يوم ، وقدم لها من التحية والأطراء ما بدا معيداً شبابها الذهبى ، وأفردت هى له مقعداً خاصاً يحجز له دائماً ، ووفرت له التدليل بكل لون من ألوان اهتمام المرأة ورعايتها . وإذا كان فى طبيعتها بعض الذكورة ، فإن

رقيقته الأنثوية تقريباً لم تسؤ لها . واستطاعت وهي عاجزة عن رؤيته أن تشكل صورتها عنه كما يشتهيها قلبها ثم أحبت تلك الصورة . أما هو فلم يستطع قط وهو المبصر أن ينسى شيخوختها وعجزها البدني . وحين عاد إلى إنجلترا راحت تدبج له رسائل فيها من حرارة الحب ما يقرب مما في رسائل جولي . دلسيناس إلى جيبير ، مكتوبة بأروع ما أبداه ذلك العصر من نثر . وقد حاولت ردوده على رسائلها أن تكبح فرحتها ، وكان يشعر فرقاً إذا خطر له ما قد يفعله كتاب إنجلترا الهجاءون (مثل سلوين) بمثل هذه الأكلة الماثرة لشهية الهجاء . واحتملت لومه ، وأكدت حبها من جديد ، ووافقت على أن تسميه صداقة ، ولكنها أكدت له أن الصداقة في فرنسا كثيراً ما تكون أعمق وأقوى من الحب . « انني مملكتك أكثر مني مملك نفسي . . . وددت لو استطعت أن أبعث إليك بروحي بدلاً من رسالة . واني لأبذل السنين من عمري عن طيب خاطر لأضمن وجودي على قيد الحياة حين تعود إلى باريس » وقد شبهته بمونتين « وهذا أسمى مديح في وسعي أن أخصك به ، لأنني لا أجد فكراً يعادل فكرة انصافاً ونصوعاً » (٤٥) .

ثم عاد إلى باريس في أغسطس ١٧٦٧ . وانتظرته في انفعال العذارى « أخيراً ، أخيراً ، لم يعد يفرقنا بحر . لا أستطيع أن أحمل نفسي على أن أصدق أن رجلاً له شأنك في الحياة ، ويداه على عجلة حكومة عظمى ، وإذن على عجلة أوروبا ، في وسعه . . أن يترك كل شيء ليحضر ويرى عرافة عجوزاً في ركن دير . انه حقاً لأمر بالغ السخف ، ولكنني مسحورة . . . فتعال يا معلمى ! ليس هذا حلماً — فأنا أعلم أنني صاحبة — سأراك اليوم ! » وأرسلت مركبتها ليستقلها ، فوافها على الفور . وظل ستة أسابيع يطربها بحضوره ويحزنها بتهذيباته . فلما عاد إلى إنجلترا لم تستطع أن تفكر إلا في رجوعه إلى باريس ، « ستجعل غروبي أجمل وأسعد كثيراً من ظهيري أو فجرى . أن تلميذتك ، الطليعة طاعة طفل ، لا أمنية لها إلا أن تراك » (٤٦) .

وفي ٣٠ مارس ١٧٧٣ طلب إليها أن تكف عن الكتابة (٤٧) . ثم لانت قناته واستؤنفت الرسائل بينهما . وفي فبراير ١٧٧٥ طلب إليها أن ترد إليه جميع رسائله ، فامتثلت ، مع الماعة رقيقة إلى رغبتها في أن يرد إليها رسائلها

« سيكون لديك ما يكفي لإنارة أحاسيسك الحارة مدى طويلا ان أضفت إلى رسائلك كل الرسائل التي تلقيتها مني وسيكون هذا انصافاً ولا ريب ، ولكني أترك هذا الأمر لحكمتك » (٤٨) . ولم يبق من رسائله الثمانمائة إليها غير تسع عشرة ، أما رسائلها فقد احتفظ بها كلها ، ونشرت بعد موت ولبول . وحين سمع أن معاشها توقف عرض أن يعوضه من إيراده الخاص ، ولكنها لم تر ضرورة لهذا .

وقد زاد انهيار غرامها من قتامة ذلك التشاؤم الطبيعي لامرأة فقدت ألوان الحياة ولكنها عرفت أمواها الضحلة والعميقة . فقد استطاعت حتى في عماها ، أن تنفذ ببصيرتها خلال الظاهر الأنيق لتصل إلى أنانية البشر التي لا يدركها التعب . وقد سألت ولبول « يامعلمي المسكين ، ألم تلق غير الوحوش ، والتماشيح ، والضباع ؟ أما أنا فلا أرى غير الحمقى ، والبله ، والكذابين ، والقوم الحاسدين ، الغادرين أحيانا .. ان كل من أراه هنا يذبل روحي . فلست أجد في أحد فضيلة ، ولا إخلاصاً ، ولا بساطة » (٤٩) . ولم يبق لها غير إثارة من إيمان ديني بعزيبا . ومع ذلك فقد واصلت حفلات عشائها ، مرتين في الأسبوع عادة ، وكثيراً ما كانت تتمغذى خارج مسكنها ، ولو هروباً من سأم أيام مظلمة كالليالي .

وأخيراً كفت عن التشبث بالحياة بعد أن تعلمت أن تكرهها ، وراضت نفسها على تقبل الموت . وكانت الأمراض التي تبتلي بها الشيخوخة قد تفاقمت واصطلحت عايتها ، فشعرت وهي في الثالثة والثمانين بأنها أضعف من أن تقاومها . واستدعت كاهناً وأسلمت نفسها للأمل دون كبير إيمان . وفي أغسطس ١٧٨٠ بعثت بآخر رسالة إلى ولبول تقول :

« إنني اليوم أسوأ حالا . . . ولست أنال لهذه الحال معنى إلا النهاية . وليس في من القوة ما يكفي للإحساس بالخوف ، وبما أنه قدر على ألا أراك مرة أخرى فليس لدي ما أسف عليه . . . فسل نفسك يا صديقي ما استطعت . ولا تبتئس لحالي . . . وسوف تأسف على ، لأن المرء يطيب له أن يعرف أنه محبوب » (٥) .

وماتت في ٢٣ سبتمبر تاركة لولبول أوراقها وكلها .

وواصلت الكثيرات غيرها من الصالونيات هذا التقليد الجليل : السيدات دودتو ، ودبينيه ، ودنى ، ودجنليس ، ولكسمبور ، وكوندورسيه وبوفليه ، وشوازيل ، وجرامون ، وبوهارنيه (زوجة عم لجوزفين) . يضاف إليهن جمعا آخر صالونات ما قبل الثورة ، وهو صالون مدام نكير العظيم . وقد بدأت حوالى ١٧٧٠ حفلات استقبلها في الجمعة من كل أسبوع ، ثم أضافت الثلاثاء بعد ذلك وفيه كانت الموسيقى هي الغالبة على الندوة ؛ وهناك قسمت المدعوين للعشاء حرب جلوك — بلتشيى حزين ، ثم وحدت بينهم الآنسة كليرون بتلاوتها فقرات من أحب أدوارها التمثيلية إليها . وفي الجمع كان رواد الصالون يلتقون بديدرو ، ومارمونتيل ، وموريليه ، ودالامبير (بعد موت جولى) ، وسان — لامبير ، وجريم (بعد موت مدام دبينيه) ، وجبون ، وزينال ، وبوفون ، وجببير ، وجاليانى ، وببجال ، وأنطوان توما صديق سوزان الأديب الأثير لديها . وفي أحد هذه الاجتماعات (أبريل ١٧٧٠) طرقت فكرة إقامة تمثال لفولتير . هناك كان ديدرويكتت هرطقاته ، وهناك كاد يصبح رجلا مهذباً مصقولاً . كتب إلى مدام نكير يقول « مما يؤسفنى أن الحظ لم يواتى بمعرفتلك فى وقت أسبق ، وإلا لكنت بلا ريب بعثت فى إحساساً بالنقاء والرقّة يسرى من نفسى إلى كبتى »^(٥١) . ولم يبد غيرهم رأيهم فيها بمثل هذا الثناء . فمارمونتيل مثلاً ، وهو الذى ظل صديقاً لها خمسة وعشرين عاماً ، وصف سوزان فى مذكراته بهذه العبارات : « لم تؤت شيئاً من صفات الشابات الفرنسيات لجهلها بأداب باريس وعاداتها . . فلا ذوق فى لباسها ، ولا يسر فى حركاتها ، ولا سحر فى أدبها ، وكان ذهنها ، كما كان تعبير وجهها ، ثابتين ثباتاً مفرطاً بحيث أفقدوا الخفة والرشاقة . وكان أكثر صفاتها جاذبية هى المجاملة ، والإخلاص ، ورقة الفؤاد »^(٥٢) . ولم تحبها نساء الطبقة الأرستقراطية . مثال ذلك أن البارونه دوبركيرش التى زارت آل نكير مع الغراندوق بول فى ١٧٨٢ لم تر فيها « ببساطة أكثر من مربية »^(٥٣) ، أما الماركيزه دكريكى فقد مزقتها إرباً فى صفحات مشحونة بالغل الظريف^(٥٤) ، ولا بد أن مدام نكير أوتيت الكثير من الخصال

الطيبة حتى ظفرت بحب جيون الدائم ، ولكنها لم تتغلب تماماً على ثرائها الكافئ لإطلاقاً ، فظالت متزمتة صارمة التدين رغم ثرائها ، ولم تكتسب قط ذلك المرح الراقى الذى توقعه الرجال الفرنسيون من النساء .

وفى ١٧٦٦ أنجبت الفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دسنال . وقد غدت هذه الفتاة جرمين تكير — التى شبت وترعرعت بين الفلاسفة والحكام — عالمة وهى فى العاشرة . وجعلها نبوغها المبكر مفخرة لأبويها إلى أن أرق مزاجها العنيد العصبي أعصاب أمها . وقد أخضعت سوزان ابنها لنظام صارم لأن الأم كانت تزداد غلواً فى المحافظة كل يوم ، فتمردت الفتاة ، وأصبح الشقاق فى هذا البيت الأنيق منافساً للفوضى الضاربة فى مالية الدولة . وأضافت إلى تعاسة الأم تلك المصاعب التى لقيها نكير فى محاولته تفادى إفلاس الحكومة رغم الحرب الأمريكية ، وكرهها الكلى نقد توجهه إليه الصحافة ، حتى بدأت سوزان تحن إلى الحياة الهادئة التى كانت تحياها فى سويسرة .

وفى ١٧٨٦ تزوجت جرمين ، واضطلعت ببعض واجبات المضيفة فى صالون أمها . غير أن الصالون الفرنسى كان آخذاً فى الاضمحلال . فالنقاش الأدبى كان يخلى مكانه للسياسة المتحمسة المتحزبة . كتبت سوزان إلى صديقة فى ١٧٨٦ تقول « ليس عندى أبناء أدبية أسوقها إليك ، فحديث الأدب لم يعد الآن موضوعة العصر ، والأزمة بالغة الشدة ، والناس لا يهتمون بلعب الشطرنج وهم على شفا جرف هار »^(٥٦) . وفى ١٧٩٠ انتقلت الأسرة إلى كوبية ، وهو قصر ريفى اشتراه نكير على سواحل بحيرة جنيف الشمالية ، وهناك ملكت مدام دسنال ، وعانت مدام نكير سنوات من مرض عصبي ألهم قضى على حياتها فى ١٧٩٤ .

٤ — الموسيقى

كتب موتسارت من باريس فى أول مايو ١٧٧٨ : « من حيث الموسيقى أراى محاطاً بوحوش ضاربة لا أكثر . . . سل أى شخص شئت — شريطة ألا يكون فرنسى المولد — فإذا كان له أى علم بالموضوع أجاب بهذا الجواب بالضبط . . سأكون شاكراً لإله القدير إذا هربت دون أن يفسد ذوقى »^(٥٦) .

وهذا حكم صارم ولكن جريم وجولدوني وافقا عليه^(٥٧) ، إلا أن هؤلاء النقاد الثلاثة كانوا كلهم أجنبى . وقد عكس الذوق الموسيقى للباريسيين من عالية القوم آدابهم ، فقال إلى القصص في التعبير والرتابة في الشكل ، وظل يردد أصدااء عصر لويس الرابع عشر ، ومع ذلك ففي هذه السنوات الأولى للحكم الجديد بالضبط فقد نصف باريس قصدهم ، وربما آدابهم ، في وطيس المعركة الدائرة حول بكينى وجلوك . تأمل رسالة جولى ليسبيناس المؤرخة ٢٢ سبتمبر ١٧٧٤ ، « اننى أشاهد باستمرار « أورفى وأوريد يتثنى » وأنا أتواقة إلى الاستماع مراراً وتكراراً في اليوم الملك اللحن الذى يمزق نياط قاي » « لقد فقدت حبيبتي أوريد يتثنى »^(٥٨) . ان باريس لم تكن صماء لاستعطيب الموسيقى ، وان زاد ما استوردته منها على ملة أنتجتهم .

وفي ١٧٥١ قدم فرنسوا — جوزف جوسيك ، البالغ سبعة عشر ربيعاً ، من موطنه هاينو إلى باريس يحمل خطاب تقديم إلى راموا . وحصل له الفنان العجوز على وظيفة قائد للأوركستر الخاص الذى يديره الكسندر — جوزف دلابويلير . وألف جوسيك لهذه « الفرقة » (١٧٥٤ وما بعدها) سمفونيات سبقت سمفونية هيدن الأولى بخمس سنوات ، وفي ١٧٥٤ نشر رباعيات سبقت رباعية هيدن بستة . وفي ١٧٦٠ قدم في كنيسة سان روش « قداس الموت » الذى استحدث فكرة العزف على آلات نفخ «التوبا » خارج الكنيسة . ولم يكن لإقدام جوسيك وتعدد مواهبه نهاية ، ففي ١٧٨٤ أسس « مدرسة الغناء الملكية » ، التى أصبحت نواة كونسرفتوار باريس الموسيقى الدائع الصيت ، وقد حقق نجاحاً متواطعاً في الأوبرا ، الهازلة منها والجادة . ثم تكيف مع الثورة ، وألف بعضاً من أشهر أغانيها ، ومنها « ترنيمة للكائن الأعلى » لاحتفال روبسبير (٨ يونيو ١٧٩٤) . وعمر بعد انحسار جميع موجات السياسة ، ومات في ١٨٢٩ بالغاً من العمر خمسة وثمانين عاماً .

أما أبرز شخصية في أوبرا ذلك العهد الفرنسية فهو أندريه جريترى . وكان أجنبياً ككثيرين غيره من أقطاب الموسيقى الفرنسية في القرن الثامن .

عشر ، فقد ولد في ليميج عام ١٧٤١ لعازف كمان ، ويروى أنه في أول مرة تناول فيها القربان طلب إلى الله أن يدعه يموت لتوه ما لم يكتب له أن يكون رجلاً صالحاً وموسيقياً عظيماً . في ذلك اليوم سقطت عارضة خشبية على رأسه وجرحته جرحاً خطيراً ، ثم تماثل للشفاء ، واستنتج أن السماء تعدّه بمسقبل سام^(٥٩) . وكان منذ عامه السادس عشر يعاني دورياً من نزيف داخلي ، يتقيأ فيه ستة أقداح من الدم في اليوم ، وكان عرضة للإصابة بالحمى وبالهليان ينتابه بين الحين والحين ، وكاد أحياناً يحن لعجزه عن وقف نغمة موسيقية من التردد في رأسه دون توقف . ولعلنا نغتنر حتى الموسيقى الرديئة لرجل لقي كل هذا العذاب واحتفظ رغم ذلك بابتهاجه طوال اثنين وسبعين سنة .

وحين كان في السابعة عشرة ألف ست سمفونيات كانت من الجودة بحيث حصلت له من كاهن إحدى الكاتدرائيات على المال اللازم لسفره إلى روما ، وقطع الطريق كله على قدميه فيما روته « المذكرات » الجذابة التي نشرها عام ١٧٩٧^(٦١) ، وخلال الأعوام الثمانية التي أقام فيها بروما حملته نجاح برجوليزي على تأليف الأوبرات الهائلة : فلما جاء باريس (١٧٦٧) لقي التشجيع من ديدرو ، وجريم ، وروسو . ودرس فن الأنسة كليرون المسرحي ، واكتسب مهارة غير عادية في موازنة موسيقاه لنبات الحديث اللرامى وتغيراته ، وحقق في أوبراته رقة ونعومة غنائيتين كأنهما انعكاس لروح روسو ، وللعودة إلى البساطة ورقة العاطفة في الحياة الفرنسية . وظل محتفظاً بشعبيته طوال الثورة ، التي أمرت بنشر مؤلفاته على نفقة الحكومة ، وكانت الجموع الثورية تتغنى بألحان من أوبراته ، وقد منحه نابليون معاشاً ، وقد أحبه الجميع لأن محظه من وصحات العبقريّة كان ضئيلاً ؛ فهو رقيق القلب ، ودود ، أنيس ، متواضع ، يذكر منافسيه بالخير ، ويؤدى ديونه ، وقد أحب روسو مع أن روسو أساء إليه ، واشترى الإرميتاج في شيخوخته ، وهو الكوخ الذي أقام فيه روسو من قبل . في ذلك الكوخ ، في ٢٤ سبتمبر ١٨١٣ ، بينما كان نابليون يحارب أوربا كلها ، مات جريترى .

٥ - الفن في عصر لويس السادس عشر

واصل « طراز لويس السادس عشر » ، الذى بدأ تقريباً مع مولد لويس السادس عشر (١٧٥٤) ، انتفاضه على شذوذات الباروك المعقدة ورقائق الروكوكو الأنثوية ، وتحرك صوب الخطوط الرجولية والنسب السمترية لفن كلاسيكى محدث أهتمته حفائر هر كولانيوم وحماسة فنكلمان للفن اليونانى - الرومانى . وأشهر مثال على الطراز الجديد فى العمارة هو البتي تريانو ، ومن الطريف المسلى أن تتفق مدام دوبارى ومارى أنطوانيت ، على ما بينهما من عزوف عن المخالطة ، فى الاستمتاع بهذا التقدير المتواضع للنظام والبساطة الكلاسيكيتين . ومثال جميل آخر هو « قصر اللجيون دونور » الحالى ، والذى بناه باسم « الأوتيل سالم » (١٧٨٢) بيير روسو على ضفة السين اليسرى . وهناك نتاج أضحى لهذا الطراز هو « قصر العدالة » الذى أعيد بناؤه فى ١٧٧٦ ، بمصبعاته الفاخرة من الحديد المشغول فى واجهة « الكور دمية » . أما « مسرح الأوديون القومى » (١٧٧٩) فقد اتخذ نمطاً دورياً قائماً ؛ وألطف منه المسرح الذى شاده فى أميان (١٧٧٨) جاك روسو بطراز جمع بين الطراز الكلاسيكى وطراز النهضة ، وقد بنى فكتور لوى فى بوردو (١٧٧٥) على النمط الكلاسيكى مسرحاً ضخماً وصفه آرثر بينج بأنه « إلى حد كبير أفخم مسرح فى فرنسا ، ولم أر مسرحاً يدانيه » (١١) .

أما الزخرف الداخلى فقد احتفظ بالأنافة الفرنسية . وكان زى النسيج المزدان بالرسوم فى طريقه إلى الزوال إلا لتغطية الكراسى ذات الذراعين والأرائك ؛ وكان ورق الجدران المرسوم يصل من الصين ، ولكنه استعمل أساساً فى المخادع ، وقسمت جدران الصالونات عادة إلى حشوات من الخشب المشغول ، المنقوش أو المزين بأشكال أو زخارف نباتية عربية تضارع خير نظائرها فى إيطاليا . وأبدع الأثاث المصنوع فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر صممه ونفذه ألمانيان هما جان - هنرى ريزنر ودافيد رونتجن ؛ وتحوى مجموعة ولسن نماذج رائعة صنعت لمارى أنطوانيت والبتي تريانون ، وازدهر فن النحت ، وامتد العمر ببيجال ، وفالكونيه ، وجان -

جناك كافيري من أيام لويس الخامس . أما أوجستين باجو ، الذى كان قد بدأ العمل فى ذلك العهد ، فقد نال الآن ما يستحقه من تقدير . وقام بتكليف من لويس السادس عشر بنقش الزخارف للباليه - رويال . والباليه - بوربون . وفى تمثاله « هجران بسميخى »^(٦٢) حاول التوفيق بين عنصرين فى العهد الجديد - العاطفة الرقيقة والشكل الكلاسيكى . ثم نقل فنه - وزوج ابنته - لكلود يون ، واسمه الحقيقى كلود ميشيل . وقد شق كلوديون طريقاً إلى الثراء بمجموعات من الثريا - كوتا (الطين التضيخ) فيها شائبة من الدنيوانية ، وبلغ أوجه بتمثال لمونتسكيو^(٦٣) . وكل نشوة الجسد تغنى فى تمثاله « الحورية والساير » المحفوظ بمتحف المتروبوليتان للفنون فى نيويورك .

على أن أعظم نخاع العصر هو جان - أنطوان أودون . وكان أبوه بواباً ، ولكن فى مدرسة للفن . وإذا كانت فرساي مسقط رأس جان ، فقد تنفس النحت من التماثيل التى بنها لويس الرابع عشر فى حدائق لنوتر . وبعد أن درس على بييجال فاز بجائزة روما وهو فى العشرين ، فانطلق إلى إيطاليا (١٧٦٠) . وقد اغتبط الباكاهنت الرابع عشر بتمثال « القديس برونو » الذى نحتته فى روما اغتباطاً شديداً فعلق عليه بقوله « إن القديس يود أن ينطلق لولا أن قواعد رهبنته تفرض الصمت »^(٦٤) . وفى باريس نحت أو صب سلسلة متعاقبة من تماثيل ديانا . وتمثال برونزى منها فى مجموعة هنتنجتن بعد آية فى القسمات الكلاسيكية والرشاقة الفرنسية . وأشهر منه تمثال « ديانا العارية » « البرونزى المحفوظ الآن بالوفر ، وقد ضن عليه مكان فى « صالون » ١٧٨٥ ، ربما (كما قال ناقد) « لأنها كانت أكثر جمالا وعرياً من أن تعرض على الجماهير »^(٦٥) ، وأرجح من هذا السبب أن التمثال انتهك الفكرة التقليدية عن ديانا التى تصفها بالعفة .

وقد وجد أودون ككثيرين غيره من فناني القرن الثامن عشر فى تصوير معاصريه رنجاً يفوق تصوير الرباب اللاتى لا تنهك حرمانهن . على أنه قرر أن يكون منصفاً لاحقايق وأن يظهر الشخصية لا الوجه . وكان ينفق ساعات كثيرة فى حجرات التشريح بمدراس الطب لدراسة التشريح ، وكان يقيس

رأس من يصوره بعناية كلما استطاع ، ثم ينحت تماثله أو يصبه وفق هذه المقاييس ، وحين أثير سؤال عن جثة نبشت في باريس وهل هي حقيقة جثة جون بول جونز كما قيل ، قورن شكل الجمجمة ومقاييسها بشكل الصورة التي صلبها أودون في ١٧٨١ ومقاييسها ، وبلغ من توافق الشكاين أن عد التتطابق مؤكداً (٦٦) . وقد نحت في رخام التمثال الذى صنعه ليرابو كل غارات الجدرى ، وأبرز كل الظلال والتجاعيد ، بل توقد العينين وعمقهما ، والشفنتين تنفرجان استعداداً للكلام .

وسرعان ما أسعد جبايرة الثورة أن يجلسوا إليه ليصنع تماثيلهم ، فنقلهم إلينا بأمانة أحالت الرخام والبرونز إلى لحم التاريخ وروحه . وهكذا نستطيع الآن أن نرى فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، وبوفون ، وطورجو ، ولويس السادس عشر ، وكاترين الثانية ، وكاليوسترو ، ولافايت ، ونابليون ، ونائى . وحين قدم فولتير إلى باريس عام ١٧٧٨ صنع له أودون عدة تماثيل تصوره : منها تمثال نصفى برونزى محفوظ الآن في اللوفر ، يبدو فيه الإرهاق والكلال ، وتمثال نصفى شبيه به في متحف فكتوريا وألبرت ، وآخر في مجموعة ولس ، ثم رأس ميتسم مهذب مثالى الشكل طلبه فردريك الأكبر ، وأشهر الكل ذلك التمثال الذى قدمته مدام دنى إلى الكوميدي - فرانسىز : تمثال فولتير جالساً في روب فضفاض ، أصابع نخيلة تمسك بذراعى المقعد ، وشفاه رقيقة ، وفم أهتم ، وفي العينين الحزنتين مازالت أثارة من مرح - أنه واحد من التماثيل العظيمة في تاريخ الفن . فى ذلك العام ، حين سمع أودون ب وفاة روسو ، هرع إلى أرمون - فيل وصب قناعاً لغريم فولتير الميت ، ومنه صنع التمثال النصفى المحفوظ الآن باللوفر ، وهو أيضاً آية من آيات الفن .

وكان هناك أبطال أمريكيون أيضاً ، وقد صنع أودون رعوساً تماثيلهم نابضة بالحياة حتى أن قطع العملة المسكوكة فى الولايات المتحدة مازالت تحمل صورة لواشنطن ، وفرانكان ، وجفرسن . وحين عاد فرانكان إلى أمريكا عام ١٧٨٥ ذهب أودون معه ، وأسرع إلى مونت فرنون وأقنع

واشتغل ، الرجل المشغول النافذ الصبر ، بأن يجلس إليه في فترات متقطعة
أعلى مدى أسبوعين ، وهكذا صنع التمثال الذى يزدان به مبنى برلمان الدولة
فى رتشموند بفرجينيا - رجل من الجرانيت ، تجلله انتصارات غالية وأعباء
باقية . هنا أيضاً نجد ذلك الاتحاد بين الجسد والروح الذى هو علامة فن
فن أودون ونخاتمه .

مثل هذا النحت كان من الجائز أن يجعل التصوير بالقياس إليه ترافاً صغيراً لولا
أن جروز وفراجونار واصلا العمل طوال هذا العهد وخلال الثورة ، لولا
أن المصور جاك - لوى دافيد صعد إلى مقام الدكتاتورية على جميع الفنون
فى فرنسا فى انطلاقة نيزكيه كانهلاقة نابليون . وقد تعلم تقنيته من عمه البعيد
فرانسو بوشيه ، وأصبح رساماً من الطراز الأول ، وأستاذاً أتقن الخط
والتأليف أكثر من إتقانه اللون . وقد أدرك بوشيه أن تغير الأخلاق من
بومبادور ودوبارى إلى مارى أنطوانيت كان يقلص الطلب على الصور التى تبرز
الهدوء والأرداف ، فنصح دافيد بأن يذهب ويلتقط الأسلوب الكلاسيكى
المحدث البسيط فى مرسم جوزف فيان ، الذى كان يرسم الجنود الرومان
والنساء الأبطال . وفى ١٧٧٥ وافق دافيد فيان إلى روما . وهناك أحس بتأثير
فنكلمان ومنجز ، والمنحوتات القديمة فى متحف الفاتيكان ، والأطلال التى
كشفت عنها فى هر كولانوم وبومبى . وقد قبل مبادئ الكلاسيكية
المحدثة ، واتخذ النحت اليونانى نموذجاً يحتذىه فى تصويره .

فلما قفل إلى باريس عرض سلسلة من الموضوعات الكلاسيكية
المرسومة بصرامة : أندروماك تبكى على جثمان هكتور (١٧٨٣) ، وقسم
الهوراتيين (١٧٨٥) ، وموت سقراط (١٧٨٧) ، وبروتس عائداً من
الحكم بالموت على أبنائه (١٧٨٩) (٦٧) . (وتقول الأسطورة التى رواها
ليني أن لوشياس جونيوس بروتس ، حين كان بريئاً للجمهورية روما
الفتية (٥٠٩ ق . م) ، حكم على أبنائه بالإعدام لتأمرهم على إعادة الملك
إلى عرش روما) ، وكان دافيد قد رسم هذه الصورة الأخيرة فى روما ، فلما
عرضها على الأكاديمية فى باريس حظرت عرضها ، ولما كن جمهور الفن احتج ،

وأخيراً عرضت اللوحة ، فزادت من حمى العصر الثورية . ورأت باريس في هذه الرسم ، وفي الأخلاقيات الصارمة التي عبرت عنها ، ثورة مزدوجة على الروكوك الأرسنقراطي والعلنيان الملكي . وأصبح دافيد البطل الراديكالي لأستوديوهات باريس .

وقد أنتخب أثناء الثورة عضواً في المؤتمر ، وفي يناير ١٧٩٣ صوت بالموافقة على إعدام الملك . ثم قتل أحد المنتسبين للملكية عضواً آخر من نواب المؤتمر صوت بالموافقة مثل دافيد (٢٠ يناير ١٧٩٣) ، فعرض جثمانه على الجماهير شهيداً جمهورياً ، ورسم دافيد « آخر لحظات لبوليتيه » ، وعلق المؤتمر اللوحة في قاعته . وحين قتلت شارلوت كورداي مارا (١٣ يوليو ١٧٩٣) صور دافيد الميت راقداً في حمامه نصف مغمور في الماء ، ونذر أن كان التصوير معناه في تصويره للواقع إلى هذا الحد ، أو في تعمده إثارة المشاعر . وقد أرست اللوحتان سجل شهداء الثورة ، وعمل دافيد بحماسة للدائون وروبسبير ، ومكافأة له عين مديراً لجميع ضروب الفن في باريس .

فلما أن تقلد نابليون زمام السلطة بلقب « القنصل » الروماني ، رسم دافيد له بذات الحساسية التي رسم بها لزعماء الإرهاب . فرأى في بوناپرت ابن الثورة ، الذي يقاتل لمنع ملوك أوروبا من رد ملك نظيرهم إلى عرش فرنسا . وحين نصب نابليون نفسه امبراطوراً (١٨٠٤) لم يفتأ إعجاب دافيد به ، وعينه نابليون مصوراً للبلاط الإمبراطوري فرسم له المصور عدة صورة مشهورة : نابليون يعبر الألب ، نابليون يتوج جوزفين ، وتوزيع النسر ، وقد علقت هذه اللوحات الضخمة بعد ذلك على جدران حجرات قصر فرساي . وأظهر دافيد أثناء ذلك تعدد مواهبه بلوحتين رائعتين رسم فيهما مدام ريكامييه والبابا بيوس السادس (٦٨) . فلما رد آل بوربون نفى دافيد باعتباره من قتلة الملك ، فاعتكف في بروكسل ، حيث وافته زوجته لتشاركه منفاه (وكانت قد هجرته في ١٧٩١ لتحمسه للثورة) . وعاد الآن إلى المواضيع الكلاسيكية ، وإلى أسلوب التصوير النعني الذي جده منجز ،

وفي ١٨٢٥ أختتم وهو في السابعة والسبعين حياة من أروع ما عرف تاريخ الفن .

ومن لوحاته لوحة تصور مدام فيمجييه - لبرون ، التي رفضت الثورة وآثرت الملوك والملكات . وقد نشرت وهي تدنو من عامها السابع والثمانين (١٧٥٥ - ١٨٤٢) مذكرات تروى وصفاً لطيفاً لشبابها ، وتذكر قصة محزنة لزاوجها ، ويوميات برحلتها الفنية الطويلة ، وصورة لامرأة فاضلة يصدها عنف التاريخ . وقد مات أبوها وهي في الثالثة عشرة ، وكان مصور أشخاص ، ولم يترك لها مالا ، ولكن اليزابث كانت تلميذة شديدة الذكاء ، فاستداعت وهي بعد في السادسة عشرة أن تكسب دخلاً طيباً من صورها . وفي ١٧٧٦ تزوجت مصوراً آخر اسمه بيير البرون ، وكان ابن أخ بعيد لشارل لبرون الذي كان مدير الفنون للويس الرابع عشر . وبدد زوجها ثروتها وثروته (كما تقول) « بشغفه الجامع بالنساء السيئات الخلق ، وبولعه بالقمار »^(٦٩) . وقد ولدت له ابنة ، ثم هجرته بعد ذلك بقليل .

وفي ١٧٧٩ رسمت صورة لماري أنطوانيت ، التي بلغ إعجابها بها أن جالست لها لترسمها في عشرين لوحة . وتوثقت الصداقة بين المرأتين فكانتا تشتركان في غناء الألحان الرقيقة التي كان جريترى يستلذ بها العبرات من عيون باريس . وقد فتح كل الأبواب أمام المصورة الجليلة هذا العطف الملكي وما تميز بها عملها من أناقة مهذبة . وقد خلعت الحسن على كل امرأة ، ووضعت الورود في الحدود الدابلة ، وما لبثت كل سيدة ثرية أن اشتاقت للجلوس إليها لتصورها . وكانت تتقاضى أتعاباً يسر لها ارتفاعها الاحتفاظ بشقة غالية وصالون يختلف إليه خيرة موسيقي باريس .

وقد ذهبت ثلاث مرات لتصور مدام دوباري في لوفسيين رغم صداقتها للملكة . وفي المرة الثالثة (١٤ يوليو ١٧٨٩) سمعت قصف المدافع في باريس . فعادت إلى المدينة لتجد أن الباستيل سقط ، وأن جماهير الغوغاء الظافرة تحمل الرعوس النبيلة على أسنة الرماح المملوطة بالدماء . وفي ٥ أكتوبر بينما كان حشد آخر من الغوغاء يهبط صوب فرساي ليأسر الملك والمملكة ، جمعت

ما استطاعت جمعه من متاعها وبدأت ثلاثة عشر عاماً من النفي الاختياري ، وقد رسمت في روما لوحها المعروفة التي تصورها وتصور ابنتها (٧٠) ، وفي نابلي رسمت اللبدي هاملتين في صورة باخوسية (٧١) ، ورسمت في فيينا ، وبرلين ، وسانت بطرسبرج ، وحين أنهت الثورة شوطها قفلت إلى فرنسا (١٨٠٢) ، وهناك عمرت أربعين سنة أخرى بعد أن انتصرت على غير الدهر كلها ، وأحسنّت صنعا بموتها قبل أن تندلع الثورة من جديد .

٦ - الأدب

أنجب الأدب الفرنسي في الحقبة القصيرة الواقعة بين ١٧٧٤ ، ١٧٨٩ بعض الآثار المذكورة التي مازالت تجد القراء وتحرك العقول : منها « الحكم » لشفامفور ، وبول وفرجينى لبرناردان دسان - بيير ، والعلاقات الغرامية الخطرة لشودرلو دلاكولو (التي تكلمنا عنها بما فيه الكفاية) ، ومجلدات رستيف دلابريتون الكاشفة على ما فيها من فوضى .

تلك كانت جزراً انبعثت من بحر أحلى يموج بالمدارس والمكتبات ، ومجموعات القراء ، والمحاضرات ، والصحف ، والمجلات ، والنشرات ، والكتب ، فيض من المداد فيه الزبد وفيه الخمر لم يعرف العالم له نظيراً من قبل . ولم يكن يلم بالقراءة من الشعب الفرنسي غير قلة قليلة (٧٢) ، ومع ذلك كان الملايين منهم متعطشين للمعرفة جياشين بالأفكار . واتسع الطلب على الموسوعات ، وخلصات العلم الوافية ، وماخصات المعرفة ، وكان جماعة الفلاسفة والمصلحون يعلقون الآمال العراض على نشر التعليم .

وكان أكثر التعليم لا يزال في أيدي رجال الدين رغم إقصاء اليسوعيين وإشراف الدولة على المدارس ، أما الجامعات المتصلة في تقاليدھا الدينية والسياسية فكانت قد تبدلت وساءت سمعتها ، وكانت في نهاية القرن بادئة لتوها في الالتفات إلى العلوم . غير أن المحاضرات العامة في العلم كانت تجد رواداً حريصين عليها ، وكانت المدارس التقنية في ازدياد . وكان كل تلاميذ الكليات تقريباً من الطبقة الوسطى ، أما شباب النبلاء فأثروا إحدى

الأكاديميات الحربية الإثنى عشرة التي أنشأها. سان — جرمان عام ١٧٧٦ أو بعده (وفى واحدة منها — بمدينة بريين — كان نابليون بونابرت يتلقى دروسه) ، ويروون أن طلبة الكليات «كثيراً ما ألغوا التنظيمات لتأييد المظاهرات السياسية» (٧٣) ، ولما كان عدد خريجي الكليات في تلك الفترة يجاوز طاقة الاقتصاد الفرنسي على استئذاهم ، فقد بات الخريجون العاطلون مصدرراً للسخط والتذمر ، وألف هؤلاء الرجال نشرات أجمعت نيران الثورة .

وكان للأغنياء مكتبات خاصة في مقار تحسد عليها ، تضم كتباً تجلد تجليداً فاخراً وتقرأ أحياناً . أما أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا فكانوا ينفقون بالمكتبات المتنقلة ، أو يشترى كتبهم — وكلها تقريباً ورقية الغلاف — من الأكشاك أو الحوانيت . وفي ١٧٧٤ قدر المبيع من الكتب في باريس بأربعة أمثال المبيع في لندن الآهلة بعدد أكثر كثيراً من السكان (٧٤) ، وذكر رستيف دلابريتون أن القراءة قد جعلت عمال باريس «عنيدين» (٧٥) .

أما الصحف فكانت تنمو عدداً وحجماً وتأثيراً . وكانت صحيفة «الجازيت دفرانس» القديمة ، التي أنشئت في ١٦٣١ ، لا تزال الأداة الرسمية — وغير الموثوق بها — في نقل الأنباء السياسية . وكانت صحيفة «المركيز دفرانس» التي بدأت في ١٦٧٢ باسم «المركيز جالان» توزع في ١٧٩٠ ثلاثة عشر ألف نسخة ، وهو توزيع كان يعد ممتازاً ، وقد وصفها ميرابو بأنها أكفأ الصحف الفرنسية (٧٦) . وفي ١٧٧٧ صدرت «الجورنال دباري» — وهي أول الصحف اليومية الفرنسية ، أما صحيفة «المونيتور» الأوسع شهرة فلم تصدر إلا في ٢٤ نوفمبر ١٧٨٩ ، وكان هناك الكثير من الصحف الإقليمية ، مثل «الكوربيه دبروفانس» التي كان يحررها ميرابو الإين .

وكانت النشرات أو الكرايس فيضاً غامراً اكتسح في النهاية كل شيء أمامه ، ففي الشهر الأخير من عام ١٧٨٨ صدر منها نحو ٢,٥٠٠ في فرنسا (٧٧) ،

(م ٢٧ — قصة الحضارة ، ح ٤٢ :

وكان لبعضها تأثير تاريخي ، مثل كراسية الأبويه سبيس « ما الطبقة الثالثة » أو كراسية كامي دمولان « فرنسا الحرة » . حتى إذا جاء يوليو من عام ١٧٨٩ وجدنا الصحافة أعظم قوة في فرنسا . وقد وصفها نكير في ١٧٨٤ بأنها « قوة غير مرئية تملأ أوامرها على المدن والمحاكم على السواء ، وحتى في قصور الملوك ، رغم أنها بلا مال ، وبلا سلاح ، وبلا جيش » (٧٨) . ولعبت الأغاني دوراً في الدعوة والتحرير ، وقد وصف شامفور الحكومة بأنها ملكية مقيدة بالأغاني الشعبية (٧٩) .

وطوى تيار الثورة شامفور نفسه فانتقل من كونه « شخصاً مرضياً عنه » في البلاط إلى المشاركة في اقتحام الباستيل . وقد ولد ليدال ريني (١٧٤١) ، وقدم إلى باريس وكسب قوته بالحيلة والظرف . وكانت النساء يسكنه ويطعمنه لالشيء إلا للاستمتاع بإثارة حديثه ، وقد كتب عدة مسرحيات ، أبهجت إحداها ماري أنطوانيت كثيراً فأقنعت الملك بأن يمنحه معاشاً قدره ألف ومائتا جنيه . وعين سكرتيراً لأخت للويس السادس عشر ، وتلقى راتباً إضافياً قدره ألفا جنيه في العام . وبدأ أن كل شيء يربطه بالقضية الملكية ، ولكن في ١٧٨٣ التقى بيمرابو ، فما لبث أن انقلب لادعاً للحكومة . وهو الذي اقترح على سبيس العنوان اللافت الذي وضعه على كراسيته الشهيرة .

وفي هذه الأثناء ، وبوحي من لاروشفوكو ، وفوفنارج ، وفولتير ، دون بياجاز وعلى عجلة « حكماً » أفصححت عن نظراته الساخرة إلى العالم . وقد قالت مدام هلفتيوس التي ظلت تستضيفه في بيتها بسيفر طوال سنين أربع « كلما جرى حديث بيني وبين شامفور في الصباح ، كان الحزن يغمرني بقية اليوم » (٨٠) . وقد رأى الحياة خدمة ينخدع بها الأمل « ان الأمل دجال لا يفتأ ، يحتل علينا ، أما أنا فإن سعادتي لم تبدأ إلا يوم طلقت الأمل » (٨١) . « لو أن الحقائق القاسية ، والاكتشافات المحزنة ، وأسرار المجتمع — التي تتألف منها معرفة رجل الدنيا الذي بلغ الأربعين — عرفها هذا الإنسان نفسه وهو في العشرين ، لأصابه اليأس ، أو لبات إنساناً فاسداً عن عمد » (٨٢) .

وقد سخر شاه فور من العقل ، وهو الذى جاء فى ختام عصر العقل ، ورأى فيه سيئاً على العاطفة أقل منه أداة للشر . « ان الإنسان فى حالة المجتمع الراهنة يبدو أكثر فساداً بسبب عقله منه بسبب عواطفه المشبوبة » (٨٣) . أما عن النساء « فهما بلغ سوء رأى الرجل فيهن ، فما من امرأة لا يسوء رأيا فيهن عن رأيه » (٨٤) . والزواج فسخ ، « ان الزواج والعزوبة كليهما معجبة للعناء : وينبغى أن نفضل منهما ما ليست متاعبه بغير دواء » (٨٥) . « ان النساء لا يمنحن لل صداقة إلا ما يقترضنه من الحب » (٨٦) . و « الحب الذى يوجد فى المجتمع ليس إلا تبادل أوهام واحتكاك بشرتين » (٨٧) .

فلما خرج شاه فور من القصور والبيوت الفاخرة إلى شوارع باريس اشدت تشاؤمه . « باريس ، مدينة اللهو واللذة ، حيث يموت أربعة أخماس الناس حزناً ... المكان الذى يفوح نثنه وليس فيه لإنسان ينبض قلبه بالحب » (٨٨) .

والعلاج الوحيد لهذه الأحياء الفقيرة هو العقم . « من سوء حظ النوع الإنسانى ، وحسن حظ الطغاة ، أن الفقراء والتعساء لا يملكون غريزة الكبرياء التى يملكها الفيل ، فهو لا يتوالد وهو أسير » ... (٨٩) .

وكان أحياناً يسترسل فى الحلم بمثل أعلى « من الضرورى الجمع بين النفاض : حب الفضيلة دون اكتراث للرأى العام ، والميل للعمل دون اكتراث للشهرة ، وحب المرء لصحته دون اكتراث للحياة » (٩٠) . وقد خطر له فى بضع سنين أن يضاف على الحياة معنى بتكريس نفسه للثورة ، ولكن خمس سنين من التعامل مع ميرابو ، ودانتون ، ومارا ، وروبسبير ، أحييت يأسه من جديد وبدا له يومها أن شعار الثورة « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » أصبح معناه « كن أخنى وإلا قتلتك » (٩١) . واختار الانضمام إلى صفوف الجيروند ، وراح يسوط الزعماء الأكثر تطرفاً بدعابته المتهورة . فقبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد قليل . فلما رأى نفسه مهدداً بالقبض عليه ثانية ، ضرب نفسه بالرصاص وطعن نفسه . ومدة فى أجاه حتى ١٣ أبريل ١٧٩٤ ثم مات بعد أن قال لسييس ، « انى منطلق فى النهاية من هذا العالم الذى لا بد فيه للقلب أما أن ينكسر أو يتقسى .

وإذا كان تأثير فولتير هو الغالب عند شاهنمور ، فإن تأثير روسو كان كاملاً وسافراً في جاك — هنرى برناردان دسان — بيير . ففي الحادية والثلاثين (١٧٦٨) كلف بوصفه مهندساً مهمة حكومية في الأيل دفرانس ، المسماه الآن موريتيوس . في تلك الجزيرة الجبلية ، المطيرة ، الكثيرة الثمر ، وجد ما خاله « حالة الطبيعة » التي تخيلها روسو — رجالاً ونساء يعيشون ملتصقين بالأرض لم تلوثهم رذائل المدنية . فاما عاد إلى فرنسا (١٧٧١) أصبح صديقاً مخلصاً لجان — جاك ، وتعلم أن يحتمل غضباته ، وأن يرى فيه مخلصاً ثانياً للبشرية . وفي كتابه « رحلة إلى الأيل دفرانس » (١٧٧٣) اوصف حياة سكان الجزيرة البسيطة وإيمانهم الدينى الذى يشددهم . وقد رأى أسقف اكس في هذا الكتاب انتقاضاً سليماً على فولتير ، وحصل للمؤلف على معاش ملكى قدره ألف جنيه . واستجاب برناردان بكتاب عنوانه « دراسات للطبيعة » (١٧٨٤) ، وآخر عنوانه « توافقات الطبيعة » (١٧٩٦) ، وصف فيهما عجائب حياة النبات والحيوان ، وزعم أن الأمثلة الكثيرة للتوفيق ، والهدف ، والخطوة ، تثبت وجود عقل أعلى . وفاق روسو في تمجيده للوجدان فوق العقل . « كلما تقدم العقل أتنا بالدليل على تفاهتنا ، وبدلاً من أن يهدىء أحزاننا بأبحاثه ، فهو كثيراً ما يزيدنا بنوره . . أما الوجدان . . . فيعطينا دافعاً سامياً ، وهو إذ يخضع عقولنا يصبح أنبل الغرائز وأكثرها إشباعاً في حياة البشر » (٩٣) .

وقد ألحق برناردان بالطبعة الثانية من « الدراسات » (١٧٨٨) رواية سماها « بول وفرجينى » ظلت واحدة من عيون الأدب الفرنسى خلال التقلبات الكثيرة التى اعترت الذوق الأدبى ، وخلاصتها أن امرأتين فرنسييتين جبليتين تنزلان موريتيوس ، إحداهما مات زوجها ، والأخرى هجرها حبليها ، وتاد الواحدة بول والأخرى فرجينى . ويشب الطفلان ويتعرعان في وادى فى الجبل ، وسط مناظر رائعة ينتشر فيها أريج الأزهار الطبيعية . ويشكل اختلافهما حسب الأم وتعاليم الدين حتى إذا باثا الحلم أحب أحدهما الآخر . .

إذ ليس حولهما أحد غيرهما . وتبعث فرجينى إلى فرنسا لتتسلم إرثاً ، وهو أمر لا يحدث كثيراً فى الحالة الطبيعية . فيعرض عليها هناك الزواج والثراء العريض إن أقامت فى فرنسا ، ولكنها ترفضهما لتعود إلى موريقيوس وبول . ويعتدو بول هابطاً إلى الشاطئ ليرى سفينتها وهى تدنو من البر ، وتغمره الفرحه بخواطر الحب والسعادة ، ولكن السفينة تجنب إلى مياه ضحلة فترنطم بالقاع وتحطمها عاصفة . وتغرق فرجينى وهى تحاول الوصول إلى البر ، ويموت بول حزناً عليها .

والكتيب قصيدة مشورة ، رواها المؤلف ببساطة فى الأسلوب ، ونقاء وموسيقى فى اللغة لا يفوتها كتاب فى الأدب الفرنسى . ووافقت تقواه ورقة عاطفته مزاج الجبل ، ولم يزجج أحداً أن لهاتين المراتين الفاضلتين ولطفليهما عبيداً^(٩٤) . وهالى القوم لبرناردان خلفاً أصيلاً لروسو ، وكتبت إليه النساء بنغمة الإعجاب الحار التى طيبت من قبل خاطر مؤلف « ايل » . وحذا برناردان حذو روسو فلم يستغل شهرته ، بل تجنب مخالطة المجتمع ، وعاش عيشة هادئة بين الفقراء . وتركته الثورة دون أن تمسه بسوء . وفى إبان عنفها تزوج وهو فى الخامسة والخمسين من فيليسييتيه ديدو ، البالغة اثنتين وعشرين ربيعاً ، فولدت له طفلين سميا بول وفرجينى . وبعد أن ماتت فيليسييتيه تزوج ثانية وهو فى الثالثة والستين من شابة تدعى ديزيريه وبيلبو ، رعته فى حب حتى مات فى ١٨١٤ : وقبل رحيله شهد بزوغ نجم شاتوبريان الذى تلقى من يديه مشعل الرومانسية والتقىوى الفرنسيين وحمله إلى القرن التاسع عشر .

هذا وقد ظهرت فى هذا العصر كتب أقل شأنًا لم يعد الناس يقرعونها اليوم ، ولكنها شاركت فى إعطاء الجيل صوته ولونه . من ذلك أن الأبيه جان - جاك بارتلمى أصدر وهو فى الثانية والسبعين (١٧٨٨) كتاباً سماه « رحلة الفتى أناخارسس فى اليونان » بعد أن عكف على تأليفه ثلاثين عاماً ، وقد زعم الكتاب أنه وصف لطبيعة اليونان وآثارها ومؤسستها وعاداتها وعملاتها فى القرن الرابع قبل المسيح ، كما رآها رحالة سكودى . وقد صعد الكتاب إلى قمة الموجة الكلاسيكية ، وكان من أبرز الكتب الكلاسيكية الناجمة فى ذلك العصر ، وكاد يرسى أصول علم الهملات فى فرنسا .

ونافس شعبيته كتاب آخر هو «الأطلال» ، أو تأملات في ثورات
الامبراطوريات « الذى أصدره الكونت كونستانتان دفولنى فى ١٧٩١
بعد أن قضى أربع سنوات من الرحلة فى مصر والشام . وحين رأى حطام
الحضارات القديمة تسامل « من يستطيع أن يؤكد لنا أن مثل هذا الخراب
ان يكون يوماً ما مصير بلادنا ؟ » وقد نردد الآن فى إعطاء جواب متفائل
عن هذا السؤال ، ولكن فولنى الذى جاء فى ختام عصر العقل ، والذى ورث
كما ورث كوندوريسيه كل آماله للبشرية ، أخبر قراءه أن سقوط تلك
الإمبراطوريات القديمة مرده جهل شعوبها الذى نجم عن صعوبة نقل المعرفة
من إنسان إلى آخر ومن جيل إلى جيل . أما الآن فقد زالت هذه الصعوبات
باختراع الطباعة ، فكل ما يلزم منذ الآن لنفاذ تدمير الحضارة هو بث
المعرفة على نطاق واسع ، الأمر الذى يفضى بالناس والدول إلى المواءمة
بين دوافعهم غير الاجتماعية والصالح العام . وفى هذا التوازن بين القوى
ستحلى الحرب مكانها للمحكمين ، « وسيصبح النوع الإنسانى بأسره مجتمعاً
عظيماً واحداً ، أسرة واحدة تحكمها روح واحدة وقوانين عامة ، وتتمتع
بكل السعادة التى فى مقدور الطبيعة البشرية » (٩٥) .

والآن نصل إلى سيرة عجيبة هى سيرة نيقولا — إدمون رستيف
دلابريتون ، الذى لقبه بعض معاصريه « روسو البالغات » و « فولنير
خادمت المحادع » ، وهو مؤلف نحو مائتى كتاب ، طبع الكثير منها بيديه
ومطبوعته ، وبعضها فيه فحش متعمد ، وكلها يؤلف صورة تفصيلية لأخلاق
وعادات الطبقات الدنيا فى عهد لويس السادس عشر .

فى كتابه « حياة أبى » (١٧٧٩) أعطانا وصفاً صورياً فيه إدمون
فى صورة مثالية مشربة بالحنان ، هذا الأب الذى تذكر أن له « طلعة هرقل
ورقة صبية » (٩٦) . أما الابن فقد سجل حياته هو فى ستة عشر كتاباً مستفيضة
عنوانها « ميسونيقيولا » (١٧٩٤ — ٩٧) ، اختلطت فيها الحقيقة بالخيال عن
تقلبات حياته وغمائياته وأفكاره . وقد ولد فى بيت بزرعة (١٧٣٧) فى
ساسيه (التى سعى قسم منها لابلريتون) ، على عشرين ميلاً من أوكسير .
ويروى أنه حين بلغ الحادية عشرة أصبح أباً لأول مرة (٩٧) . وفى الرابعة

عشرة أحب جانيت روسو ، وكانت فى السابعة عشرة ، وبدأ إعجابه الذى امتد طوال حياته بأقدام الأنثى « كما شعورى نحوها نقياً رقيقاً كما كان حاداً . وكانت قدمها الجميلة شيئاً لا أستطيع مقاومته » (١٨) . ولعل الرغبة فى تخليصه من شرك كهذه هى التى أوحى بإيفاده إلى أوكسير (١٧٥١) ليعمل تلميذاً لطابع . وسرعان ما أغوى زوجته معلمه ، ولكن لا سند لنا لهذه الواقعة غيره . ثم يقول إنه فى الخامسة عشرة كان له خمس عشرة « خلية » . وبعد أربع سنين من هذه الهواية انتقل إلى باريس ، وهناك استخدم طابعاً باليومية يكسب فرنكين ونصفاً فى اليوم ، وهو أجر ممكن من الحصول على طعامه ودفع أجر مومس بين الحين والحين ، وكان إذا قلت موارده نام مع الخادمت (١٩) . وفى ١٧٦٠ حين كان فى السادسة والعشرين تزوج امرأة تكاد تقاربه خبرة ، واسمها أجنيس لوبيك ، ثم تبين أن كليهما غير وفى لصاحبه . وتم طلاقهما فى ١٧٨٤ ، لا بسبب هذه الزلات ، بل لأن كليهما وقع فى شرك التآليف ، وكانا يتنافسان على الورق والمداد والشهرة .

وكان نيقولا قد بدأ حياته كاتباً فى ١٧٦٧ بقصته « قدم فانشيت » التى كانت قدم الصبية هى « أبرز ملامحها Pièce de résistance وكان أول عمل أدبى ناجح له هو « الفلاح المنحرف » (١٧٧٥) وهو يقص بالرسائل كيف انحرف الفلاح إدمون بعد انتقاله إلى باريس متأثراً بحياة المدينة وفسوقها . فبعلمه ملحد يدعى جودى داراس أن الله أسطورة وأن الأخلاق أكذوبة . وأن كل اللذات مشروعة ، وأن الفضيلة عبء ثقيل لا مبرر له على الحقوق الطبيعية لرغباتنا . وأن أول واجباتنا أن نعيش ملء حياتنا ما استطعنا العيش (١٠٠) . ويقبض على أراس ، فيقول له إدمون « يوجد إله » ، ويشق أراس غير نادم ولا تائب . وقد سعى أحد معاصرى المؤاف هذا الكتاب « علاقات الناس الغرامية الخطرة » (١٠١) ، وذهب رستيف إلى أنه سيعيش ما عاشت اللغة الفرنسية (١٠٢) وفى كتاب مرافق سماه « الفلاحة المنحرفة » (١٧٨٤) واصل هجومه على انعدام المسؤولية الأخلاقية وفساد حياة المدينة . وقد استعمل حصيلة من كتبه ليرفع مقامه درجة أو اثنين على السلم الاجتماعى للفسق .

أما أهم أعمال رستيف فهو « المعاصرات » الذى طال حتى بلغ خمسة وستين مجلداً (١٧٨٠ - ٩١) . وكان لهذه القصص القصيرة عنوان فرعى جذاب هو « مغامرات أجمل نساء عصرنا » - وفيه وصف لحياة وغراميات وآداب بائعات الزهر ، وبائعات القسطل ، وبائعات الفحم ، والحياطات ، والحلاقات ، بلغ من الواقعية والدقة مبلغاً أتاح للنساء الحقيقيات أن يتبين أنفسهن فيه ويلعن المؤلف حين ياقينه فى الشوارع^(١٣) . ومثل هذا المشهد العريض من الحياة البشرية لم يقدمه كاتب فى الأدب الفرنسى حتى جاء بلزاك ، وقد أدان النقاد إدمان رستيف على « الموضوعات المنحطة » ، ولكن سياستيان مرسيين ، الذى كان كتابه « لوحة باريس » . (١٧٨١ - ٩٠) . يعرض مسحاً للمدينة أفضل ترتيباً ، حكم بأنه « أعظم قصاصينا غير منازع »^(١٤) ،

وقبيل نشوب الثورة بدأ رستيف يسجل فى « ليالى باريس » (١٧٨٨ - ٩٤) الأحداث التى شهدوها (أو تخيلها) فى جولاته الليلية . وهنا أيضاً كان أهم ما لاحظته الأعماق السفلى لباريس - الشحاذين ، والحمالين ، والنشائين ، والمهربين ، والمقامرين ، والسكارى ، ونحاطفى الأطفال ، واللصوص ، والمنحرفين ، والبغايا ، والقوادين ، والمتعهرين . وقد زعم أن محظه من السعادة كان ضئيلاً ، ومن الشقاء موفوراً ، وصور نفسه بطلاً منقذاً فى حالات كثيرة . وقد ألم بالمقاهى القريبة من البالية - رويال ، ورأى الثورة تتشكل ، سمع كاسى ديمولان يدعو الناس دعوته المشهورة إلى حمل السلاح ، ورأى الدهماء الظافرين يجوبون المدينة عارضين رأس دلوئى مأمور سجن الباستيل المفصول عن جسده ، ورأى النساء يزحفن على فرساي لأسر الملك^(١٥) . ثم لم يلبث أن مل العنف والإرهاب وعدم الأمان . وتعرض غير مرة لخطر القبض عليه ، ولكنه نجا بإعلانه الولاء للثورة . أما فى مجالسه الخاصة فكان يندد بهذا كله ويتمنى لو أمكن « رد لويس السادس عشر الطليب إلى مكان السلطة »^(١٦) . وقد عنف فى لوم روسو لأنه أطلق العنان لانفعالات الشباب والجهال والعاطفيين ، « ان كتابه أميل هو الذى

رمانا بهذا الجليل المغرور ، للعنيد ، الوقح ، المتصلب ، الذى يعلو صوته على من هم أكبر منه سنّاً فيسكتهم » (١٠٧) .

وهكذا تقدم به العمر وندم على أفكار شبابه لا على خطاياہ . وفى ١٧٩٤ عاد فقيراً كما كان ، غنياً فى ذكرياته وحفلاته فقط ؛ وقد وضع فى المجلد الثامن من « المسبونيقولا » « تقويماً » بالرجال والنساء الذين عرفهم فى حياته ومنهم عدة مئات من العشيقات ، وأكد من جديد إيمانه بالله . وفى ١٨٠٠ أخبرت الكونتيسة بوهارنيه نابليون بأن رستيف يعانى شغف العيش وأن حجراته ليس بها نار تدفئها ، فبعث إليه نقوداً وخادماً وحارساً ، ثم عينه (١٨٠٥) فى وظيفة بوزارة الشرطة . وفى ٨ فبراير ١٨٠٦ مات رستيف وقد بلغ الثانية والسبعين . واشتركت الكونتيسة وعدة أعضاء من المجمع الفرنسى (الذى كان قد رفض انضمامه إليه) مع جميع العامة البالغين ألفاً وثمانمائة فى تشييعه إلى مثواه الأخير .

٧ - بومارشيه

كتب أرثر ينج فى ١٧٨٨ يقول « كلما أخبرت المسرح الفرنسى وجدته مضطراً إلى الاعتراف بتفوقه على مسرحنا ، سواء فى عدد مثليه الأكفاء ، أو فى نوعية الراقصين والمغنين والأشخاص الذين تعتمد عليهم صناعة المسرح ، وكلهم راسخ القدم على نحو رائع » (١٠٨) . وكانت الحفلات التمثيلية تحيا كل ليلة ، بما فيها ليالى الأحد ، فى التياتر - فرانسيه الذى أعيد بناؤه فى ١٧٨٢ ، وفى كثير من المسارح الإقليمية . وجاءت الآن فترة خلت فيها خشبة المسرح من فحول الممثلين فقد مات لوكان ، ونقاعت صوفى أرنو فى ١٧٧٨ ؛ ثم استهل تالما الذى سيصبح أثر نابليون حياته المسرحية مع الكوميدي - فرانسيز فى ١٧٨٧ ، وحق أول انتصار له فى مسرحية مارى - جوزف شنييه « شارل التاسع » فى ١٧٨٩ . وكان أحب كتاب العصر المسرحيين إلى الشعب ميشيل جان سيدين الذى ألف كوميديات عاطفية استأثرت بالمسرح الفرنسى طوال قرن من الزمان . ونحن نحبيه وننتقل إلى الرجل الذى نفخ الحياة فى « فيجارو » بمساعدة موتسارت وروسيني ، وأعطي الحرية لأمريكا (فى زعمه) .

وقد عاش هذا الرجل ، وهو بيير - أوجستن كارون ، كما عاش فولتير ، أربعة وعشرين عاماً دون أن يعرف اسمه التاريخي . وكان أبوه صانع ساعات في ضاحية سان - ديني الباريسية . وبعد أن تمرّد قليلاً راض نفسه على احترام حرفة أبيه . فلما بلغ الحادية والعشرين اخترع ضرباً جديداً من الهروب ممكنه من أن يصنع « ساعات ممتازة بلغت غاية ما يناسب من الصغر والتسطح » (١١٩) . وقد أبيع لويس الخامس عشر بعينة منها ، وصنع للمدام بومبادور ساعة كانت من الصغر بحيث أمكن إدخالها في خاتمها ، وزعم أن هذه أصغر ما صنعه الصانعون من الساعات إطلاقاً . وفي ١٧٥٥ اشترى من مسيو فرانكيه المسن وظيفته التي كان يشغلها بوصفه أحد المشرفين على المائدة الملكية الذين كانوا يقومون على خدمة الملك خلال تناوله الطعام ؛ ولم تكن بالوظيفة المرموقة ، ولكنها أتاحت لبيير مدخلا إلى البلاط . وبعد عام مات فرانكيه ، فتزوج بيير أرملته (١٧٥٦) وكانت تكبره بخمس سنين . وإذ كانت تملك إقطاعاً صغيرة ، فقد أضاف بيير اسم الإقطاعة إلى اسمه ، فأصبح بومارشيه . فلما ماتت زوجته (١٧٥٧) ورث أملاكها .

ولم يكن قد حظى بأى تعليم ثانوى على الإطلاق ، ولكن الجميع - حتى الأرستقراطيين الذين ساءهم تسلفه السريع - أقرّوا بتيقظ ذهنه وسرعة خاطره . والتقى في الصالونات والمقاهى بديدرو ، ودالامبير ، وغيرهما من جماعة الفلاسفة ، فنهل من التنوير . وقد استرعى انتباه بنات لويس الخامس عشر العوانس تحسّين أدخله في نظام دواصة الهارب ، وفي ١٧٥٩ بدأ يعطين دروساً في الهارب . وطلب المصطفى جوزف بارى - دوفرينه إلى بومارشيه أن يستعين بالآنسات الملكيات في الحصول على تأييد لويس الخامس عشر للمدرسة الحربية التي كان رجل المال يديرها ، وأفلح بيير في الأمر ، فأعطاه بارى - دوفرنيه أسهماً قيمتها ستون ألف فرنك . يقول بومارشيه « لقد أطلعتنى على أسرار عالم المال . . . وبدأت أجمع ثروتي بإرشاده ، وعملاً بنصيحته دخلت في مضاربات عديدة ، أعانى في بعضها بماله أو بإسمه » (١٢٠) . وهكذا أصبح بومارشيه فيلسوفاً من أصحاب الملايين ، مقتدياً في هذا وفي كثير غيره بالسوابق التي وضعها فولتير . فما وافى عام

١٧٧١ حتى بلغ من الثراء ما أتاح له شراء وظيفة سكرتارية شرفية لدى الملك ، جاءته بلبق النبالة . وسكن منزلاً رائعاً في شارع كوندية أنزل فيه أباه وأخواته الفخوريين .

وكان له أختان أخريان تعيشان في مدريد — إحداهما متزوجة والأخرى — واسمها لينيت . - مخطوبة لخوزيه كلافيجو أى فخاردو المحرر المؤلف الذى ظل ست سنوات يؤجل الزواج غير مرة . وفى مايو ١٧٦٤ خرج بومارشيه فى رحلة طويلة ركباً عرباً البريد نهاراً وليلاً إلى العاصمة الإسبانية . فعثر على كلافيجو ، ووعده هذا بأنه سينزوج لينيت عما قليل ، ولكنه زاع متعتلاً من مكان إلى مكان . وأخيراً أدركه بيير ، طالبه بالتوقيع على عقد زواج ، فاعتذر خوزيه بحجة أنه تناول لثوه مسهلاً ، وكان القانون الإشباني يعتبر أى عقد يوقع فى ظرف كهذا باطلاً . فهدده بومارشيه ، فاستعدى عليه كلافيجو قوى الحكومة . وهزيم الفرنسى الذكى بسلاح التسويف والمماطلة . فلما أقبل عن المطاردة ، حول جهوده إلى ميدان التجارة وكون عدة شركات ، إحداهما لإمداد المستعمرات الإسبانية بالعبيد الزوج . (ونسى أنه قبل سنة واحد فقط كتب قصة ذم فيها الرق) (١١) . وتخطمت هذه الخطط جميعها على مضرة الموهبة الإسبانية ، موهبة التسويف والتأجيل . على أن بيير استمتع أثناء ذلك بالصحبة الطيبة وبخاتمة تحمل لقب نبالة ، وخبر من العادات الإسبانية ما أعانه على تأليف تمثيلياته عن حلاق أشبيلي . أما لينيت فقد وجدت حبياً آخر ، وقفل بومارشيه إلى فرنسا خاوى الوفاض إلا من الخبرة . وقد كتب مذكرات رائعة عن رحلته ، ألف منها جوته مسرحيته « كلافيجو » كما أسلفنا .

وفى ١٧٧٠ مات بارى — دوفرنيه تاركاً وصية أقر فيها بأنه مدين لبومارشيه بخمسة عشر ألف فرنك . ونازع أهم الورثة وهو الكونت دلابلاش على صحة هذه الفقرة مدعياً أنها مزورة . وأحيل النزاع على برلمان باريس ، فعين المستشار لوى — فالنتين جوزمان ليبدى رأيه فيه . فى هذا الظرف أخرج كان بومارشيه نزيل السجن نتيجة شجار عنيف مع الدوق دشوان على خليعة . فلما أفرج عنه مؤقتاً ، أرسل « هدية » من مائة جنيه ذهبي (لوى

دور) ، وساعة مرصعة بالماس ، إلى السيدة جوزمان اغراء لها على أن تمهد السبيل لاستماع زوجها إليه ، فطلبت خمسة عشر جنيهًا ذهبيًا أخرى أجر «سكرتير» ، فأرسلها . وظفر بالمقابلة ، ولكن المستشار اتخذ قراراً ضده ، فأعادت السيدة جوزمان كل شيء إلا الخمسة عشر جنيهًا ذهبيًا ، وأصر بومارشيه على ردها هذا المبلغ أيضاً ، واتهمه جوزمان بتقديم الرشوة . فعرض بيير الأمر على الشعب في سلسلة من «المذكرات» فيها من الحيوية والظرف ما أكسبه ثناء عريضاً باعتباره مجادلاً بارعاً ان لم يكن رجلاً أميناً كل الأمانة . وقد قال فولتير عنها : لم أر قط شيئاً أقوى ولا أجراً ولا أفكراً ولا أطرف ولا أشد إذلالاً لخصومه . فهو يحارب «دسته» منهم في وقت واحد ويحصدهم حصداً» (١١٢) . وأصدر البرلمان حكماً برفض دعواه في محقه في الميراث (٦ أبريل ١٧٧٣) ، واتهمه في الواقع بالتزوير ، وحكم عليه بدفع ٥٦,٣٠٠ جنيه نظير التعويض والديون .

فلما أفرج عن بومارشيه (٨ مايو ١٧٧٣) استخدمه لويس الخامس عشر جاسوساً في بعثة إلى إنجلترا ليمنع تداول نشرة فاضحة في حق مدام دوباري . فنجح في مهمته ، وواصل اشتغاله عميلاً في عهد لويس السادس عشر الذي كلفه بأن يعود إلى لندن ويرشو جوليلمو انجيلوتشي كي يمتنع عن إصدار نشرة في حق ماري أنطوانيت . وسلم انجيلوتشي المخطوطة نظير ٣٥,٠٠٠ فرنك ورجل إلى نورمبرج ؛ واشتبه بومارشيه في حيازته نسخة ثانية ، فتبعه عبر المانيا ، وأدركه قرب نويشتات ، وأكرهه على تسليمه النسخة ، ثم هاجمه قاطعاً طريق ، فدفعهما عنه ، ولكنه جرح ، وشق طريقه إلى فيينا ، حيث قبض عليه بوصفه جاسوساً ، وقضى في السجن شهراً ، ثم أطلق سراحه ، فركب قافلاً إلى فرنسا .

ولكن مغامرته الجريئة التالية أحق بمكان في التاريخ . ذلك أن فرجين أوفده في ١٧٧٥ إلى لندن ليستطلع له حقيقة الأزمة المتصاعدة بين إنجلترا وأمريكا . وفي سبتمبر بعث بومارشيه إلى لويس السادس عشر بتقرير تنبأ بنجاح الثورة الأمريكية ، وأكد وجود أقلية مناصرة للأمريكيين في إنجلترا .

وفي ٢٩ فبراير ١٧٧٦ وجه إلى الملك رسالة أخرى ، أوصى فيها بإرسال المعونة الفرنسية سرّاً إلى أمريكا ، بحجة أنه لا سبيل أمام فرنسا لحماية نفسها من التبعية إلا بإضعاف شوكة إنجلترا^(١١٣) . ووافق فرجين على هذا الرأي ، ورتب كما رأينا أن يمول بومارشيه تزويد المستعمرات الانجليزية بالعتاد الحربي . وفرغ بومارشيه بحملته لهذه المغامرة . فنظم شركة «رودريج هورتاليه وشركائه» . وراح يتنقل بين الثغور الفرنسية ويشترى السفن ويجهزها ويشحنها بالمؤنه والعتاد ، ويجند الضباط الفرنسيين المدربين للجيش الأمريكي ، وينفق (في زعمه) عدة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص فوق المليونين اللذين أمدته بهما الحكومتان الفرنسية والإسبانية . وقد أبلغ سايلاس دين الكونجرس الأمريكي (٢٩ نوفمبر ١٧٧٦) «اننى ماكنت لأستطيع انجاز مهمتى لولا جهود مسيو بومارشيه الذكية السخية التى يعترىها الكمال ، هذا الرجل الذى تدين له الولايات المتحدة من جميع الوجوه ، أكثر من دينها لأى رجل آخر على هذا الجانب من المحيط»^(١١٤) . وفي نهاية الحرب قدر سايلاس أن أمريكا تدين لبومارشيه بمبلغ ٣,٦٠٠,٠٠٠ فرنك . أما الكونجرس الذى افترض أن كل العتاد كان منحة من الحلفاء ، فقد رفض الطلب ، ولكنه في ١٨٣٥ دفع ٨٠٠,٠٠٠ جنيه لورثة بومارشيه .

ثم انه وجد خلال هذا النشاط المحموم وقتاً لكتابة المزيد من المذكرات الموجهة إلى الشعب والى محتج فيها على مرسوم البرلمان الصادر في ٦ أبريل ١٧٧٣ . وفي ٦ سبتمبر ١٧٧٦ ألغى ذلك المرسوم ، وردت إلى بومارشيه كل حقوقه المدنية . وفي يوليو ١٧٧٨ أصدرت محكمة في اكس — أن — بروفانس حكماً لصالحه في النزاع على وصية بارى — دوفرنيه ، واستطاع بومارشيه أن يحس أنه في النهاية قد برأ اسمه .

ولم تكفه كل هذه المغامرات في الحب ، والحرب ، والتجارة ، والقضاء . فقد بقى عالم لم يغزه بعد ، هو عالم الكلام ، والأفكار ، والطباعة ، وعليه ففي ١٧٦٧ قدم للكوميدي — فرانسيز أولى تمثيلياته «أوجينى» ، وقد عرضت في ٢٩ يناير ١٧٦٩ ، واستقبلها النظارة استقبالا حسناً ، ولكن

النقاد رفضوها . ثم سقطت تمثيلية أخرى هي « الصديقان » (١٣ يناير ١٧٧٠) رغم الأعداد المألوف ، « لقد ملأت الصالة بأفضل العمال ، بأيدى كالمجازيف ، ولكن جهود العصابة المتآمرة » غلبته (١١٥) . ذلك أن جمعية الأدباء التي يزعها فريريون قاومته باعتباره دخيلاً ، ومجرماً مزمناً انقلب كاتباً مسرحياً ، تماماً كما ناصبه بلاط فرساي العداء لأنه صانع ساعات انقلب نبيلاً . ومن ثم نراه فى مسرحيته التالية يجعل فيجارو يصف « جمهورية الأدب » بأنها « جمهورية الذئاب ، الذين لا يفتأ بعضهم ينشب محالبه فى رقاب البعض الآخر . . . كل الحشرات ، والبعض الصغير والكبير ، والنقاد ، وكل الحاسدين من الصحفيين ، والكتبيين ، والرقباء » (١١٦) .

ولقى بومارشيه فى المسرح كماله فى الحياة جيشاً من الأعداء فهزمهم جميعاً . وفى أروع لحظات الإبداع التى جادت بها عبقريته المتعددة المناحي تصور شخصية فيجارو الخلاق ، الجراح ، الفيلسوف ، اللابس صديريه من الساقان وسراويل ركوب ، وقيثارته المعلقة على كتفه ، وذنه المتوقد على استعداد لتدليل أى صعوبه ، وذكاؤه محترق بحجب النفاق والأكاذيب والمظالم التى تلوث عصره . ويمكن القول أن فيجارو من ناحية لم يكن خلقاً جديداً ، إنما هو اسم وشكل جديدان لشخصية مألوقة هى شخصية الخادم الذكى فى الكوميديا اليونانية والرومانية ، وفى الكوميديا ديلارقي الإيطالية ، وفى شخصية مولير « سجاناريل » ولكنه كله كما عرفناه من صنع بومارشيه إلا الموسيقى ، لا بل حتى الموسيقى كانت أصلاً من صناعه . فقد ألف أول الأمر « حلاق أشبيلية » أوبرا هازله عرضها على الكوميدي — ايتاليين فى ١٧٧٢ فرفضت ، ولكن موتسارت تعرف إلى هذه الموسيقى حين كان فى باريس (١١٧) . وعدل بومارشيه الأوبرا إلى كوميديا ، فقبها الكوميدي — فرانسيز وحدد تاريخاً لإخراجها ولكن سجن المؤلف (٢٤ فبراير ١٧٧٣) اضطار الفرقة لتأجيل عرضها . فلما أفرج عنه استؤنف اعدادها للعرض ولكنها أجلت لأن مؤلفها وجهت إليه التهمة من البرلمان . غير أن النجاح الذى لقيه دفاع بومارشيه عن نفسه فى « مذكراته » حدا بالمسرح مرة أخرى إلى ترتيب إخراجها ، فأعلن أنها ستعرض فى ١٢ فبراير ١٧٧٤ . يقول

جريم « نفذت كل المقاصير حتى الحفلة الخامسة » (١١٨) . ولكن حظرت التمثيلية في اللحظة الأخيرة بحجة أنها قد تحدث تأثيراً ضاراً بالقضية المعلقة في البرلمان .

ومضت سنة أخرى ، وجاء ملك جديد خدمه بومارشيه ببسالة معروضاً حياته للخطر غير مرة ، فأعطى الإذن ، وفي ٢٣ فبراير ١٧٧٥ وصلت « حلاق أشبيلية » آخر الأمر إلى خشبة المسرح . غير أن الحظ لم يحالفها ، فقد كانت مفرطة الطول ، وكانت الإثارة التي مهدت لها قد جعلت جمهور النظارة يتوقع منها فوق ما ينبغي . وعليه ففي يوم واحد راجعها بومارشيه واختصرها في عملية جراحية رائعة ، فنقبت الكوميديا من التعقيدات المشوشة ، وأخلت الفكاهة من الإسهاب في الحديث ، وأزال بومارشيه العجلة الخامسة من العربة على حد قوله — وحققت التمثيلية انتصاراً في المساء الثاني ووصفتها مدام دو دفان التي كانت تحضر الحفل بأنها « نجحت نجاحاً مفرطاً . . ولقيت من الاستحسان والتصفيق ما جاوز كل الحدود » (١١٩) .

ثم تحداه الأمير كونتي أن يكتب تنمته للمسرحية يبدو فيها فيجارو وشخصية أكثر تطوراً ونضجاً . وكان المؤلف مستغرقاً الآن في دور المنقذ لأمريكا ، فلما أنجز تلك المهمة عاد إلى المسرح وأخرج كوميديا خلقت تاريخاً أكثر درامية حتى من « طرطوف » مولير . ففي هذه الكوميديا — زواج فيجارو — نرى الكونت المافيفا وروزينا ، وهما شخصيتا حلاق أشبيلية — يقضيان عدة سنين في حياتهما الزوجية ، وكان قد مل المقاتن التي سمرته خلال الكثير من المواقف المعقدة ، وانصرف الآن إلى مغامرة هي إغواء سوزان ، خادمة الكونتيسة وخطيبة فيجارو الذي أصبح كبير خدام الكونت وقهرمان القصر الريفي . ويقوم تابع في الثالثة عشرة يدعى شيروبان بدور أشبه بالاحن الرشيق المصاحب للموضوع الرئيسي وذلك بعشقه الغرير للكونتيسة التي يبلغ عمرها ضعف عمره . أما فيجارو فقد تحول فيلسرفاً ، ويصفه بومارشيه بأنه « العقل موشعاً بالمرح والملح » (١٢٠) . ويكاد هذا أن يكون تعريفاً للروح الغالية ولحركة التنوير .

يقول لسوزان « ولدت لأكون رجلاً بلاطاً ، فإذا رأيت في هذه الوظيفة « حرفه عسيرة » أجابها « مطلقاً . الاستقبال ، والأخذ ، والطالب — هذا هو السر في كلمات ثلاث » (١٢١) . وفي المناجاة التي جعلها روسيني تدوى في جنبات العالم كله يخاطب نبلاء أسبانيا (وفرنسا) باحتقار يوشك أن يكون ثورياً ، « ما الذي صنعتموه لتناولوا هذا الحظ الوفير ؟ لقد كلفتم أنفسكم مشقة أن تولدوا ، لا أكثر ، وفيما عدا ذلك فأنتم قوم عاديون تماماً ، في حين أنني أنا ، الثائتة وسط الجماهير ، كما على في سبيل تحصيل قوتي فقط أن أستمع بقدر من العلم والحساب يفوق ما أنفق في حكم أسبانيا كلها هذه السنين المائة المنقضية » (١٢٢) . وهو يهزأ بالجنود الذين « يقتلون ويقتلون في سبيل مصالح يجهلون تماماً » . « أما أنا فأريد أن أعرف لماذا يشتد غضبي » (١٢٣) ، وحتى النوع الإنساني ينال منه ما يستحقه من قصاص : « أن يشرب وهو غير عطشان ، وأن يمارس الحب في جميع المواسم — هذا وحده ما يميزنا عن سائر الحيوان » (١٢٤) . ثم يكيل شتى الضربات لبيع الوظائف العامة ، وسلطة الوزراء النعسفية ، وإخفاقات العدالة ، وحالة السجون ، والرقابة على الفكر واضطهادها « مسموح لي أن أنشر ما أشاء ، شريطة ألا أذكر في كتاباتي لا الحكام ، ولا دين الدولة ، ولا السياسة ، ولا الأخلاق ، ولا الموظفين ، ولا المالية ، ولا الأوبرا ، ولا . . . أي شخص ذي خطر ، على أن أخضع لتفتيش رقيبين أو ثلاثة » (١٢٥) . واتهمت فقرة جنس الذكور بأنهم مسئولون عن البغاء — وهي فقرة حذفها الممثلون ، ربما لأنها اقتربت قرباً شديداً من أسباب ترفيهم — : أن الرجال يخلقون العرض بطلباتهم ، ثم يعاقبون بقوانينهم النساء اللاتي يلين هذا الطالب » (١٢٦) . أما حبكة التمثيلية فلم تكتف بإظهار الخادم أذكى من سيده — فهذا تقليد ألوف جداً بحيث لا يسيء لأحد — بل أنها فضحت الكونت النبيل فأظهرته رجلاً زانياً بكل ما في الكلمة من معنى .

وقبل الكوميدي — فرانسيز « زواج فيجارو » في ١٧٨١ ، ولكن لم يتيسر إخراجها حتى ١٧٨٤ . ذلك أنها حين تليت على مسامع لويس السادس

عشر احتمال بروح الفكاهة المتسامحة ما تخللها من هجاء عارض ، ولكن حين سمع المناجاة وما اشتحات عليه من هزء بعاقبة النبلاء وبالرقابة ، أحس أنه لا يسمعه السماح بأن تهان هذه المؤسسات الأساسية علانية ، فصاح قائلاً « هذا شيء بغيفض ، ويجب ألا يمثل أبداً ، ان السماح بعرضه ليعدل تدهير الباسنيل . فهذا الرجل يسخر من كل شيء يجب احترامه في أى حكومة » (١٢٧) ، ثم حظر تمثيل المسرحية .

وقرأ بومارشيه أجزاء منها في بيوت خاصة ، فأثار هذا فضول القوم ، ورتب بعض الحاشية أن تمثل أمام البلاط ، ولكن هذا أيضاً حظر في اللحظة الأخيرة ، وأخيراً أذن الملك للاحتجاجات والالتماسات ، ووافق على اعتماد تمثيلها علناً بعد أن ينقى الرقباء النص بعناية . وكانت حفلة العرض الأولى (٢٧ أبريل ١٧٨٤) حدثاً تاريخياً . وبدأت باريس كأنها مصممة على حضور هذه الحفلة الأولى . واقتتل الأشراف والعامّة على دخول المسرح ، وحطمت البوابات الحديدية ، وهشمت الأبواب ، واختنق ثلاثة أشخاص ، وكان بومارشيه موجوداً ، وقد سعد بهذا الشجار . وبلغ من نجاح المسرحية أنها مثلت ستين مرة دون انقطاع ، وكان المسرح يغص بالنظارة في كل حفلة تقريباً . أما الحصيلية فلم يسبق لها نظير ، وتصدق بومارشيه بنصيبه كله — البالغ ٤١,٩٩٩ جنيهاً (١٢٨) .

ولقد رأى التاريخ في « زواج فييجارو » إرهاباً بالثورة ، ووصفها نابليون بأنها « الثورة » وقد أخذت إتفعل إفعالها » (١٢٩) . ودخلت بعض عباراتها في خميرة العصر . وقد أنكر بومارشيه في المقدمة التي صدرت بها بعد ذلك المسرحية المنشورة أى قصد ثورى ، واستشهد بفقرات من كتاباته دافع فيها عن الملكية والأرستقراطية . فهو لم يطلب هدم المؤسسات القائمة بل القضاء على المظالم المتصلة بها ، وتوفير العدالة المتكافئة لجميع الطبقات ، ومزيداً من حرية الفكر والنشر ، وحماية الفرد من أوامر القبض المختومة

وغيرها من ضروب شطط الساططة المماكية . وقد رفض الثورة كما رفضها معبوده فولتير لأنها دعوة إلى الفوضى وطغيان الرعاع .

وواصل دراسة أعمال فولتير طوال شتى الاضطرابات العارمة التي اكتنفته . وأدرك أوجه الشبه بينه وبين الشيخ — ولكن لعله لم يدرك البعد — : ذلك المركب الذي جمع بين النشاط الذهني المحموم والدراية البارعة بأمور المال ، وذلك الاحتقار للشكوك والوساوس الخلقية ، وتلك الشجاعة في محاربة الظلم والخن والشدائد . واعتزم أن يحفظ أعمال فولتير وينشرها طبعة جامعة كاملة . وكان على يقين من أن هذا غير ميسور في فرنسا حيث حظر الكثير من مؤلفات فولتير . لذلك ذهب إلى موريا وأخبره أن كاترين الثانية مزمنة لإصدار طبعة فرنسية في سانت بطرسبرج . وقال إن هذا سيكون وصمة عار على فرنسا ، وأدرك الوزير المعنى المراد ، ووعد بالإذن بتداول طبعة كاملة . وكان كتيبى باريسى يدعى شارل — جوزف بانكوك قد حصل على حقوق طبع مخطوطات فولتير التي لم تنشر ، فاشتراها بومارشيه بمبلغ ١٦٠,٠٠٠ فرانك . ثم جمع كل ما وجدته من مؤلفات فولتير المنشورة ، واستورد حروف باسكرنيل الطباعية من إنجلترا ، واشترى مصانع الورق في الفوج . وظفر بكوندورسيه معاقاً ومترجماً لفولتير . واستأجر حصناً قديماً في كيل ، عبر الرين من ستراسبورج ، وركب المطابع ، وأخرج طبعتين رغم ميثاق الخن والشدائد ، لإحداهما في سبعين مجلداً من قطع الثمن ، والأخرى في اثنين وتسعين مجلداً من القطع الإثني عشرى (١٧٨٣ — ٩٠) . وهذا أضخم مشروع طباعى حاوله إنسان حتى ذلك التاريخ في أوروبا ، بما في ذلك « الموسوعة » . وطبع بومارشيه خمسة عشر ألف مجموعة وهو يتوقع بيعاً عاجلاً لها ، فلم يبع منها غير ألفين ، من جهة بسبب الحملات التي شنها البرلمان والاكليروس على المشروع^(١٣٠) ، ومن جهة ثانية بسبب الاضطرابات السياسية في ١٧٨٨ — ٩٠ ، ومن جهة ثالثة لأن قلقة مركز الناس المالى منعتهم من شراء المجموعة الغالية الثمن — وزعم بومارشيه أنه خسر في هذه المغامرة مليوناً من الجنيهات . على أنه أخرج أيضاً طبعة من أعمال روسو .

أما الثورة التي أعان على الإعداد لها فكانت نكبة عليه . ذلك أنه في ١٧٨٩ بنى لنفسه ولزوجته الثالثة قصراً غالى التكلفة تجاه الباستيل ، ملأه بالبديع من الأثاث والرياش وأحاطه بفدانين من الأرض . ونظر الرعاع الذين أثاروا الشعب مراراً في المنطقة شذراً إلى هذا الترف ، فأغاروا على بيته مرتين ، وأصبح بومارشيه الذى اكتمل الآن صممه وشاخ قبل الأوان مهدداً باعتباره أرسقراطياً . لذلك بعث بملتمس إلى كومون باريس يعلن فيه إيمانه بالثورة ، غير أنه قبض عليه رغم ذلك (٢٣ أغسطس ١٧٩٢) ثم أفرج عنه بعد قليل ، إلا أنه عاش في خوف من الاغتيال لا يفتأ يؤرقه . ثم دارت عجلة الخطر فكافته حكومة الثورة (١٧٩٢) بالسفر إلى هولنده وشراء المدافع للجمهورية . على أن المفاوضات أخفقت وصودرت أملاكه في غيابه ، وقبض على زوجته وابنته (٥ يوليو ١٧٩٤) ، فهرع قافلاً إلى باريس ، وحصل على الإفراج عنهما ، وسمح له باسترداد أملاكه . وعاش بعد ذلك ثلاث سنين محطم الجسد لا الروح ، ورحب بصعود نجم نابليون ، ثم مات في ١٨ مايو ١٧٩٩ بالنقطة وقد بلغ السادسة والسبعين . ونذر حتى في تاريخ فرنسا أن عاش رجل حياة يمثل هذا الملء والتنوع والمغامرة .

الفصل السابع والستون

تشريع الثورة

١٧٧٤ - ٨٩

لقد فحصنا فكر فرنسا عشية الثورة - فحسنا فلسفتها ، ودينها ، وأخلاقيها ، وسلوكها ، وأدبها ، وفنها . ولكن هذه كانت أزهاراً هشة نبتت من أرض اقتصادية ، ولا قدرة لنا على فهمها إن لم نلم بجذورها ، لا بل إننا لن نفهم حقيقة ذلك الزلزال السياسى الذى أطاح بـ « النظام القديم » دون أن نفحص كل جهاز من أجهزة الاقتصاد الفرنسى ، كل بدوره ولو فى إنجاز ، ونرى كيف عاونت حالته على مجيء هذه القارعة الكبرى .

وعلىنا ونحن نعود مرة أخرى إلى تناول الزراعة والصناعة والمالية أن نتذكر أنها ليست لوحات تجريدية قابضة للصدر بل كائنات بشرية حية حساسة : نبلاء وفلاحون ينظمون إنتاج الطعام ؛ ومديرون وعمال يصنعون السلع ؛ ومخترعون وعلماء يصوغون طرائق وأدوات جديدة ؛ ومدن تشغى بالمتاجر والمصانع ، وربات بيوت مهمومات وجاهير رعاى متمرده ؛ وثغور ومراكب تزخر بالتجار ، والملاحين ، والبحارة ، والرجال المغامرين ؛ ومصرفيون يغامرون بالمال ويكسبونه ويخسرونه مثل نكير ، وبالحياة مثل لافوازييه ؛ ثم تدفق الأفكار والسخط الثوريين وضغطهما خلال هذا الكل الهائج المضطرب ، أنها لصورة معقدة رهيبة .

١ - النبلاء والثورة

كان عدد الفرنسيين ٢٤,٦٧٠,٠٠٠ رجل وامرأة وطفل، وهكذا قدر نكير عدد السكان فى ١٧٨٤^(١) . فقد تصاعد عددهم من ١٧,٠٠٠,٠٠٠

في ١٧١٥ بفضل زيادة لإنتاج الطعام وتحسن وسائل حفظ الصحة وانعدام الغزو الأجنبي والحرب الأهلية ، وحظيت الأمة في مجموعها بازدياد الرخاء خلال القرن الثامن عشر ، ولكن أكثر الثراء الطارئ انحصر في الطبقة الوسطى (٢) .

وكان كل الفرنسيين ريفيين فما عدا مليونين من الأنفس ، والحياة الزراعية يديرها النظار الملكيون ، والمديرون الاقليميون ، وكهنة الأبرشيات ، والسادة — أى أمراء الإقطاع — الذين قدر عددهم في ١٧٨٩ بنحو ٢٦,٠٠٠ . هؤلاء وأبناؤهم خدموا وطنهم في الحرب بأسلوبيهم الأنيق العتيق (وقد أصبحت السيوف الآن حلية أكثر منها سلاحاً) . ولم تبق لإاقله من النبلاء في البلاط ، أما السواد الأعظم فعاشوا في ضياعهم . وزعموا أنهم يكسبون دخولهم بتوفير الإدارة الزراعية ، والرقابة البوليسية ، والمحاكم ، والمدارس ، والمستشفيات ، والإحسانات . على أن معظم هذه المهام كانت قد تلقاها عمال للحكومة المركزية ، وكان الملاك من الفلاحين يطورون نظمهم الهادفة إلى الإدارة الحامية ، وهكذا باتت طبقة النبلاء عضواً أثرياً ، يأخذ الدم الكثير من الكائن الاجتماعي ، ولا يعطيه لقاء ذلك إلا القليل بخلاف الخدمة العسكرية . وحتى هذه الخدمة أثارت شكوى عامة ، لأن النبلاء أقنعوا لويس السادس عشر (١٧٨١) بأن يحرم من جميع المناصب الكبرى في الجيش والبحرية والحكومة كل من لا يظهريه أربعة أجيال من الاستقرارية .

ثم رمى النبلاء فوق هذا بأنهم تركوا مساحات شاسعة من ضياعهم بورا في الوقت الذي يجوع فيه للخبز الآلاف من سكان المدن . ويصدق على الكثير من بتماع فرنسا هذا الوصف الذي كتبه آرثر ينج عن قطاعي الاوار ونهر شير : « ان الحقول مسرح للإدارة المهلهلة ، كما أن البيوت شاهد على الفقر المدقع . ومع ذلك فإن هذه البلاد كلها قابلة جداً للتحسين لو عرفوا ما ينبغي أن يصنعوه بها » (٣) . وكان عدد غير قليل من النبلاء فقراء ،

(*) قام آرثر يونج ، أحد وجوه المزارعين الانجليز ، برحلات في القارة في ١٧٨٧ و ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وروى مشاهداته في « رحلات في فرنسا » (١٧٩٢) وفي آرائه بمض التحيزات الانجليزية (« خلج جماع الجنس البشرى ، تجدد في انجلترا في نصف ساعة قدرا من حسن الادراك أكثر مما تجده في فرنسا في نصف سنة (٤) .) . ولكن يبدو انه قدم لنا وصفاً منصفاً موثقاً به لما رأى . وسواء يذكر الثراء كما يذكر الفقر . وأهم ما أخذه على فرنسا فتركز في تخلفها التكنولوجي ، وحكومتها المفسدة في المركزية ، والقهر ، واللاتقراطية .

بعضهم لنقص كفايتهم ، وبعضهم اسوء طالعههم ، وبعض لإرهاق أرضهم .
وقد التمس كثير من هؤلاء المعونة من الملك ، وتلقى العديد منهم منعها من
خزانة الدولة .

أما القنية بمعنى ارتباط الشخص قانوناً بقطعة من الأرض وخضوعه
بصفة دائمة للمالكها في أداء الرسم والخدمات ، فكانت قد اختفت من فرنسا
إلى حد كبير في ١٧٨٩ ، وبقي نحو مليون من الأقتان أكثرهم على الأملاك
الديرية . فلما حرر لويس السادس عشر الأقتان العاملين على الأراضي
الملكية (١٧٧٩) ، سوف برلمان فرانسن — كونييه (في شرقي فرنسا)
تسعة أشهر حتى سجل مرسومه . ورفض الاقتداء بالملك كنيسة لوكسوى
ودير فونتين ، ومجموع ما لديهما أحد عشر ألف قن ، ودير سان — كلود
في مديرية الجورا الحالية ، وكان لديه عشرون ألف قن ، وذلك رغم عدة
نداءات انضم فيها إلى فولتير عدد من الكنيستين^(٥) . على أن هؤلاء الأقتان
اشترى حريتهم شيئاً فشيئاً ، أو نالوها بالهروب ثم ألغى لويس السادس عشر
في ١٧٧٩ حق المالك في مطاردة الأقتان الأبقين خارج أملاكه .

ويع أن ٩٥٪ من الفلاحين كانوا أحراراً في ١٧٨٩ ، إلا أن السواد
الأعظم منهم ظلوا خاضعين لحق أو أكثر من الحقوق الإقطاعية التي تختلف
في الدرجة من إقليم لآخر . وكانت تشمل إيجاراً سنوياً (ضوعف في
القرن الثامن عشر) ، ورسماً نظير حق التوريث ، وأجراً عن استعمال
مطحن السيد وأقرانه ومعاصره وبرك سمكه — التي كانت كلها حكراً له .
وقد احتفظ بحق مطاردة طرائده حتى داخل محاصيل الفلاح ، وسيج مساحات
متزايدة من الأرض المشاع التي كان الفلاح يحتطب منها ويطلق فيها ماشيته
لترعى . أما السخرة فقد خففت في معظم أرجاء فرنسا إلى ضريبة تدفع
نقداً ، ولكن ظل الفلاح في أوفرن ، وشمبانيا ، وأرترا ، واللورين ،
مطالباً بأن يبذل للإقطاعي المحلي كل سنة ثلاثة أيام أو أربعة من العمل الذي
لا يتقاضى عنه أجراً ، وذلك لصيانة الطرق البرية والجسور والطرق المائية^(٦) .
ويمكن القول أن الحقوق الإقطاعية الباقية اقتطعت في جملتها ومتوسطها

عشرة في المائة من إنتاج الفلاح أو دخله ، ثم اقتطعت ضريبة العشور الكنيسية نسبة أخرى تتفاوت بين ثمانية وعشرة في المائة . فإذا أضيف إلى هذا الضرائب المدفوعة للدولة ، وضرائب السوق والبيع ، والرسوم المدفوعة لكاهن الأبرشية نظير مراسم العباد والزواج والدفن ، لم يبق للفلاح إلا نحو نصف ثمرات كده .

ولما كانت قبضة المبالغ النقدية التي يتسلمها السادة الإقطاعيون تتناقص بهبوط قيمة العملة ، فقد حاولوا حماية دخلهم بزيادة الرسوم ، وإحياء رسوم عفى عليها الدهر ، وتسبيح المزيد من الأرض المشاع . وكانت جباية الرسوم تعهد عادة إلى ملتزمين محترفين كثيراً ما لا يعرفون الرحمة في أداء عملهم . فإذا تشكك الفلاح في حق السيد في رسوم معينة قيل له أنها مدرجة في قوائم الضياع أو سجلاتها . فإذا تحدى صحة هذه القوائم رفع الأمر إلى المحكمة الإقطاعية أو إلى البرلمان الإقليمي الذي كان سادة الإقطاع يهيمنون عليهم ^(٧) . وحين نشر بونسير ، بتشجيع طور جوسرا ، (١٧٧٦) كراسة عنونها « مساواة الحقوق الإقطاعية » أوصى فيها باختزال هذه الحقوق ، لامة برلمان باريس . وانبرى فولتير لخوض المعركة من جديد وقد بلغ الثانية والثمانين ، فكتب يقول : إن اقتراح إلغاء الحقوق الإقطاعية يعدل مهاجمة أملاك السادة أعضاء البرلمان أنفسهم ، الذين يمتلك معظمهم إقطاعات . . . أنها قضية الكنيسة ، والنبل ، وأعضاء البرلمان . . . متضافرين ضد العدو المشتري — أي الشعب ^(٨) .

على أن هناك ما أمكن أن يقال دفاعاً عن الحقوق الإقطاعية فهي من وجهة نظر النبيل رهن عقارى قبله الفلاح بمحض حرية كجزء من الثمن الذي اشترى به قطعة أرض من ماله الشراعى — الذي كان في كثير من الحالات قد اشتراها بحسن نية ماله الشراعى السابق . وكان بعض النبلاء الفقراء يعتمدون في قوتهم على هذه الرسوم . وكان الفلاح يعاني من شر الضرائب ، والعشور ، ومطالب الحرب وغاراتها أكثر كثيراً مما يعاني من الرسوم الإقطاعية . استمع إلى أعظم وأشرف الاشتراكيين الفرنسيين وهو جان —

جوريه يقول « لو لم يكن في المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر مساوئ غير تلك البقايا التافهة لذلك النظام (الإقطاعي) ، لما دعت الحاجة لثورة تشفى هذا الجرح المتفحش ، ولكان اختزال الحقوق الإقطاعية تدريجياً وتحرير الفلاحين كفيلاً بإحداث التغيير بطريقة سامية ^(٩) .

وكان أبرز ملامح طبقة النبلاء الفرنسيين اعترافها بالذنب ، إذ لم يقتصر الأمر على انضمام الكثير من النبلاء إلى جماعة الفلاسفة في رفض اللاهوت القديم ، بل إن بعضهم كما رأينا سخر من امتيازات طبقتهم التي عفى عليها الزمن ^(١٠) . وقبل الثورة بسنة عرض ثلاثون نبيلاً أن يتنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية المالية ^(١١) . وكاننا يعرف مثالية الشاب لافاييت الذي لم يكتف بالقتال دفاعاً عن أمريكا بل حال عودته إلى فرنسا نحاض بقوة ذلك الكفاح في سبيل الإصلاح السلمي ، وقد ندّد بالرق ، ورصد جانباً من ثروته ليعتق العبيد في جيانا الفرنسية ^(١٢) . وفشا الجهر بالمبادئ البرالية ، والدفاع عن الإصلاح ، في شطر من الأرستقراطيين لاسيما حاملات الألقاب مثل النبيلات لا مارك ، ودبوفليه ، ودبرين ، ودلكسمبور . ولعب مئات من الأشراف والأساقفة دوراً نشيطاً في الحملات التي شنت لتحقيق المساواة في الضرائب ، والحد من الإسراف الحكومي ، وتنظيم أعمال البر ، وإنهاء السخرة ^(١٣) . وبذل بعض الأشراف ، كدوق بوربون ، معظم ثروتهم للفقراء ^(١٤) .

على أن هذا كله لم يكن إلا حيلة لطيفة فوق الواقع الواضح للعيان ، وهو أن طبقة النبلاء الفرنسيين لم تعد تستأهل قوتها . صحيح أن كثيرين منهم حاولوا الاضطلاع بمسؤولياتهم التقليدية ، غير أن المفارقة بين التبطل المترف الذي يرتع فيه الإقطاعيون الأثرياء وبين شظف العيش الذي تعانیه جماهير أشرفت غير مرة على المجاعة ، أثارت العداء والاحتقار . وقبل ذلك بزمان لم يدأ أحد رجل ، كان هو نفسه نبيلاً عظيماً ، حكم الإعدام على طبقته ، فلنستمع إلى رينيه — لوى دفوايه ، مركز دارجنسون ، وزير الدولة (١٧٤٤ - ٤٧) يكتب حوالي ١٧٥٢ :

« لا بد من القضاء على سلالة السادة العظام قضاءً مبرماً . وأعني بالعظام أصحاب الألقاب والأملاك والعشور والمناصب والوظائف ، الذين يتبوأون المقام الرفيع رغم أنهم بلا كفايات وأنهم ليسوا بالضرورة راشدين ، فهم لذلك عديمو القيمة في كثير من الأحيان . . . وإلى ألا نحظ أن الناس يحافظون على سلالة من كلاب الصيد الأصلية ، ولكن متى تدهورت السلالة قضاها عليها » (١٥) .

هؤلاء السادة بعينهم . الأغنياء ، المتكبرون ، الذين لا وظيفة لهم في الغالب ، هم الذين بدأوا الثورة . ذلك أنهم كانوا ينظرون بحسرة إلى العهد الذي سبق ريشليو ، يوم كانت طبقتهم هي السائدة الحاكمة في فرنسا . وحين أكدت البرلمانات حقها في إبطال المراسم الملكية ، انضم نبلاء الدم والسيوف إلى نبلاء الرداء — وهم القضاء الوراثيون — في محاولة لإخضاع الملك . وهملوا لخطباء البرلمان الذين ردّدوا صيحة « الحرية » وشجعوا الشعب وكتاب الكراريس على التشديد بساطة لويس السادس عشر المطلقة . وليس في وسعنا أن نلومهم على هذا ، غير أنهم بإضعافهم سلطة الملك مكنوا ١٧٨٩ الجمعية التشريعية التي تهيمن عليها الطبقة البورجوازية من أن تستحوذ على السيادة في فرنسا . وهكذا دق النبلاء أول مسمار في نعشهم .

٢ — الفلاحون والثورة

كان أكثر العمل الزراعي المؤدى على الخمسة والخمسين في المائة من أرض فرنسا الذي يمتلكه النبلاء ورجال الدين والملك . يؤديه محاصصون يأخذون المواشى والأدوات والبزار من المالك ويدفعون له نصف المحصول عادة . وكان هؤلاء المحاصصون بوجه عام فقراء معدمين حتى لقد حكم آرثر بينج على هذا النظام بأنه « لعنة البلاد بأسرها وخرابها » (١٦) ، ومرد ذلك ضعف الحوافز أكثر من قسوة الملاك .

أما أغلبية الملاك الفلاحين الذين زرعوا خمسة وأربعين في المائة من الأرض فقد قضى عليهم بالفقر صغر مساحة أراضيهم . الأمر الذي حد

من استعمال الآلات الزراعية استعمالاً راحياً . وتخلفت التكنولوجيا الزراعية في فرنسا عن نظيرتها في إنجلترا . صحيح كان هناك مدارس زراعية ومزارع نموذجية ، ولكن لم يفد منها غير قلة من المزارعين . ولعل ستين في المائة من الملاك الفلاحين كانوا يملكون أقل من الهكتارات الخمسة (نحو ثلاثة عشر فداناً) اللازمة لإعاشة الأسرة ، واضطر الرجال للعمل فعلة أجراء على المزارع الكبيرة . وقد ارتفعت أجور فعلة المزارع اثني عشر في المائة بين ١٧٧١ و ١٧٨٩ ، ولكن الأسعار ارتفعت في الفترة ذاتها خمسة وستين في المائة أو أكثر (١٧) . ومع أن الإنتاج الزراعي ارتفع خلال حكم لويس السادس عشر ، فإن الأجراء من الفلاحين ازدادوا فقراً ، وألفوا بروتاريا ريفية كانت في فترات العمالة الراكدة بمثابة عمل تفريخ ينتج حشوداً من المتسولين والمتشردين . وقد ذهب شامفور إلى أنه « لاجدال في أن بفرنسا سبعة ملايين رجل يتسولون ، واثني عشر يعجزون عن التصديق » (١٨) .

ولعل فقر الفلاحين قد بالغ الرحالة في وصفه لأن أول ما استرعى ملاحظتهم كان الأحوال الظاهرة ، فهم لم يروا العملة والسلع الخبأة هرباً من عين مقدر الضريبة . وتتضارب التقديرات المعاصرة لهذه الفترة . فقد وجد آرثر بينج مناطق يعمها الفقر والتوحش والقتادة كما في بريثاني ، ومناطق فيها الثراء والكبرياء كما في بيارن (١٩) . ويمكن القول عموماً أن الفقر في ريف فرنسا عام ١٧٨٩ لم يكن مدقعاً كما كان في إرلنده ، ولا أسوأ منه في أوروبا الشرقية أو في بعض الأحياء الفقيرة المزدهجة في المدن « الغنية » في وقتنا الحاضر ، ولكنه كان أسوأ منه في إنجلترا أو في وادي بو المعطاء أبداً . وتشير أحدث الدراسات إلى أنه « كان هناك أزمة زراعية في نهاية النظام القديم » (٢٠) . فإذا جاء القحط والمجاعة . كما حدث في ١٧٨٨ - ٨٩ بلغت معاناة الفلاحين لاسيما في جنوبي فرنسا مبلغاً لم ينج فيه نصف السكان من التضور جوعاً إلا بفضل الصدقات التي وزعتها الحكومة والكهنة ، وكان على الفلاح أن يدفع ما يفرض عليه أداؤه للدولة والكنيسة والنبلاء ، ووقعت ضريبة الثاى - أى ضريبة الأرض - كلها تقريباً على كاهله ، وكان يقدم كل الرجال اللازمين لمشاة الجيش أو جلهم . وقد نحمل عبء

احتكار الحكومة للملح . وكان الفضل لجهده في صيانة الطرق والجسور والقنوات . ولعله كان مؤدياً العشور برضى أكثر — فهو رجل « يخاف الله » والعشور تجبى جباية رحيمة ، ونذر أن أقتضيه عشر دخله بالضبط (٢١) ، ولكنه رأى أكثرها يترك الأبرشيه ليعول أسقفا في بلد ناء ، أو كنسياً عاطلاً في البلاط ، بل حتى عامانياً اشترى محصة في العشور المستقبله . وقد خفف لويس السادس عشر عبء الضريبة المباشرة على الفلاح ، ولكن الضرائب غير المباشرة زيدت في كثير من الأقاليم (٢٢) .

فهل كان فقر الفلاح سبب الثورة ؟ لقد كان فقره عاملاً درامياً في مركب من أسباب عدة . كان أفقر الفقراء أعجز من أن يثوروا ، في استطاعتهم أن يرفعوا أصواتهم طلباً للغوث ، ولكنهم لا يملكون الوسيلة ولا الهمة لتنظيم الثورة ، إلى أن استنفروهم المزارعون الأكثر ثراء وعملاء الطبقة الوسطى ، وائتماضات رعاى باريس . على أنه حين وهنت قوى الدولة نتيجة تطور الشعب الفكرى ، وحين سرت عدوى الأفكار الراديكالية إلى الجيش سرياناً خطراً ، وحين لم تعد السلطات المحلية قادرة على الاعتماد على التأييد الحربى يأتيها من فرساي — عندها أصبح الفلاحون قوة ثورية ، فتجمعوا ، وتبادلوا الشكاوى والعهود ، وتسامحوا ، وهاجموا القصور الريفية ، وأحرقوا بيوت الإقطاعيين المتعطلين ، ودمروا السجلات الإقطاعية التى استسلموا بها على صحة الحقوق الإقطاعية ، هذا العمل المباشر ، الذى هدد بتدمير شامل لأموال الإقطاعيين ، هو الذى روع النبلاء فزلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية (٤ أغسطس ١٧٨٩) . ووضعوا بذلك نهاية شرعية للنظام القديم .

٣ - الصناعة والثورة

في موضوع الصناعة على الأخص نعيم الصورة السابقة للثورة وتنعقد (١) . فالصناعة اليدوية — صناعة الرجال والنساء والأبناء في البيت — كانت تخدم التجار الذين يوفرون المادة ويشترون الناتج (٢) ، والطوائف الحرفية — الملمون ، وعمال اليومية ، والصبيدة — كانت تلتج السلع اليدوية لتلبية الاحتياجات المحلية بنوع شخاص . وقد عمرت هذه الطوائف حتى الثورة ، ولكن في

١٧٨٩ كان قد أوهنها غاية الوهن نمو (٣) المشروعات. الحرية الرأسمالية — وهى شركات كان لها أن تجمع رأس المال من أى مصدر ، وأن تستأجر أى إنسان . وأن تبكر وتطبق أساليب جديدة فى الإنتاج والتوزيع ، وأن تتنافس مع أى إنسان ، وأن تبيع فى أى مكان . وكانت هذه المؤسسات عادة صغيرة ولكنها أخذت تتكاثر ، فكان فى مرسلينا وحدها عام ١٧٨٩ ثمانية وثلاثون مصنعاً للصابون ، وثمانية وأربعون للقمبات ، وثمانية للزجاج ، واثنا عشر لتكرير السكر وعشر مدايق (٢٣) . أما فى المنشوجات ، والبناء ، والتعدين ، وتصنيع المعادن ، فقد اتسعت الرأسمالية وغدت مشروعات واسعة النطاق ، وكان هذا عادة بفضل شركات الخاصة .

وكانت فرنسا بطيئة فى الأخذ بالآلات النسيج التى كانت آتئذ تفتتح الثورة الصناعية فى انجلترا ، ولكن مصانع نسيج كبيرة كانت تدور دواليها فى أبفيل ، وأميان ، ورامس ، وباريس ، ولوفيه ، وأورليان ، وازدهرت صناعة الحرير فى ليون . وكانت صناعات المعمار تقيم تلك العائز الضخمة ذات الشقق ، التى مازالت تضفى على المدن الفرنسية ملامحها المميزة . وكانت صناعة السفن تشغل آلاف العمال فى نانت ، وبوردو ، ومارسليا ، أما التعدين فكان أكثر الصناعات الفرنسية تقدماً . وقد احتفظت الدولة بجميع الحقوق فى التربة السفلية ، وأجرت المناجم لأصحاب الامتياز ، وفرضت قانون أمن للمعدنين (٢٤) ، وحفرت الشركات مداخيل للمناجم وصل عمقها إلى ثلاثمائة قدم ، وركبت أجهزة غالية للتهوية ، والصرف ، والنقل ، وخلقت أصحاب ملايين . وكان لشركة انزان (١٧٩٠) أربعة آلاف عامل ، وستائة حصان ، واثنتا عشرة آلة بخارية ، وكانت تستخرج ٣١٠,٠٠٠ طن من الفحم فى العام . وقد وفر استخراج الحديد وغيره من المعادن المادة لصناعة معدنية متسعة . وفى ١٧٨٧ جمعت شركة كروزز المساهمة رأسمال قدره عشرة ملايين جنيه لاستخدام أحدث الآلات فى إنتاج المصنوعات الحديدية ، وكانت الآلات البخارية تشغل المنافيخ ، والمطارق ، والمناقب ، ويمكن السكك الحديدية الجواد الواحد من أن يجر ما كان يحتاج جره من قبل إلى خمسة جواد .

وقد ابتكر الفرنسيون بعض الاختراعات المذهلة في هذه السنين . ففي ١٧٧٦ رُفِه المركب جوفروا عن الجواهر المحتشدة على نهر دوب بمنظر قارب تحركه آلة بخارية ، وذلك قبل أن يبحر زورق فولتن « كليرمونت » التجارية في نهر هدرن ذهاباً وإياباً . بل أدهش من هذا كانت الحفلات الأولى في غزو الفضاء . ففي ١٧٦٦ أثبت هنري كافندش أن للهيدروجين كثافة أقل من الهواء ، واستنتج جوزف بلاك أن كبريتاً يمتلأ بالهيدروجين يستطيع الصعود في الجو . وعكف جوزف وإيتين مونجولفييه على تجاربهما على هدى المبدأ القائل بأن الهواء تقل كثافته إذا سخن ؛ وفي ٥ يونيو ١٧٨٣ ، في انونيه قرب ليون ، ملأ بالوناً بالهواء المسخن ، فارتفع إلى علو ألف وستائة قدم ، ثم هبط بعد عشر دقائق حين برد هواؤه . وصعد بالون مملوء بالهيدروجين صممه جاك — الكسندر شارل من باريس في ٢٧ أغسطس ١٧٨٣ على مشهد من ٣٠٠,٠٠٠ متفرج يهتفون له ، فلما هبط على بعد خمسة عشر ميلاً مزقه حشد من القرويين إرباً زاعمين أنه عدو مغير من الجو (٢٥) . وفي ١٥ أكتوبر قام جان — فرنسوا بيلاتر دروزيه بأول طيران مدون للإنسان ، مستخدماً بالوناً كبالون مونجولفييه به هواء مسخن ، واستمر صعوده أربع دقائق . وفي ٧ يناير ١٧٨٥ طار الفرنسي فرنسوا بلانشار ، والفزيائي الأمريكي جون جفرز ، في بالون من انجلترا إلى فرنسا . وبدأ الناس يتحدثون عن الطيران إلى أمريكا (٢٦) .

وزكت مدن فرنسا خلال هذا العهد الخامس بعد أن غلظتها الصناعة والتجارة . فكانت ليون تشغى بالخوانيت والمصانع والمشروعات . وذهل آرثر ينغ لفخامة بوردو . وأصبحت باريس الآن مركزاً تجارياً أكثر منه سياسياً ، فكانت بمثابة القلب لمجمع اقتصادي يهيمن على نصف عاصمة فرنسا ، ومن ثم على نصف اقتصادها . وكان يسكنها عام ١٧٨٩ نحو ٦٠٠,٠٠٠ نسمة (٢٧) . ولم تكن وقتها مدينة ذات جمال رائع ، وقد وصف فولتير الكثير منها بأنه جدير بالقوط والفندال (٢٨) . وقال بريستلي الذي زارها في ١٧٧٤ : « لا أستطيع الزعم بأنه قد راعى شيء منها غير اتساع

العمائر العامة وبهااتها ، وفي مقابل هذا ساعى كثيراً ضيق أكثر الشوارع وقذارتها وتنظفها»^(٢٩) . ومثل هذا الوصف كتبه ينج :

« ان تسعة أعشار الشوارع قذر ، وكلها خلو من أرصفة المشاة . والمشى - الذى تجده فى لندن غاية فى الإمتاع والنظافة بحيث تمارسه السيدات يومياً - هو هنا كد وعناء للرجل ، وضرب من المحال على المرأة الأنيقة الثياب . . وعربات الركوب كثيرة ، وأسوأ من ذلك كثيراً ذلك العدد الهائل من «الكبيريلات» التى يجرها حصان واحد ويسوقها الفتيان العصريون ومقلدوهم . بسرعة فائقة . . . تجعل الشوارع باللغة الخطر . . . وقد لطخنى أنا نفسى رشاش الوحل غير مرة»^(٣٠) .

وأخذت طبقة من العمال الكادحين «برولتاريا» تتشكل فى المدن كبرىها وصغيرها ، رجال ونساء ، وأطفال يعملون لقاء أجر بأدوات ومواد ليست ملكاً لهم . ولا يتوافر لدينا إحصاء عنهم ، ولكن قدر عددهم فى باريس عام ١٧٨٩ بـ ٧٥,٠٠٠ أسرة ، أو ٣٠٠,٠٠٠ فرد^(٣١) . وكان هناك أعداد كبيرة بهذه النسبة فى آيفيل ، وليون ، ومرسليا . وكانت ساعات العمل طويلة والأجور ضئيلة ، لأن حكماً أصدره برلمان باريس (١٢ نوفمبر ١٧٧٨) حظر على العمال تنظيم أنفسهم . وقد ارتفعت الأجور ما بين عامى ١٧٤١ و ١٧٨٩ اثنين وعشرين فى المائة ، وارتفعت الأسعار خمسة وستين فى المائة^(٣٢) ، ويبدو أن حال العمال تدهور فى عهد لويس السادس عشر^(٣٣) . فلما قل الطلب ، أو اشتدت المنافسة الأجنبية (كما حدث فى ١٧٨٦) ، طردت أعداد كبيرة من العمال فأصبحوا كلا على البر والإحسان . وكادت آلاف الأسر تموت جوعاً عندما ارتفع ثمن الخبز ، الذى كان قوام نصف طعام الجاهل الباريسية^(٣٤) . وكان ثلاثون ألف شخص يتلقون الإغاثة العامة فى ليون عام ١٧٨٧ ، واشتد فقر ثلثى سكان رامس فى ١٧٨٨ عقب أحد الفيضانات . وفى باريس عام ١٧٩١ قيدت مائة ألف أسرة على أنها معوزة^(٣٥) . وكتب مرسىيه حوالى ١٧٨٥ يقول «ان عامة الشعب فى باريس ضعاف الأبدان صفر الوجوه صغار الأجسام معوقو النمو وكانهم طبقة تفردت عن سائر الطبقات فى الدولة»^(٣٦) .

وألف العمال الاتحادات وأضرَبوا في تحد لأوامر الحظر في ١٧٧٤ توقفوا عن العمل لارتفاع تكاليف المعيشة بأسرع من الأجور ، ولأن قوانين العرض والطلب غير المنظمة تهوى بالعمال إلى درك الكفاف لا أكثر ، أما أرباب العمل الذين امتلأت مخازنهم بالطعام فقد انتظروا أن يكره الجوع العمال على طلب الصلح . ودفع الإحباط الكثير من العمال إلى الرحيل عن ليون قاصدين مديناً أخرى ، بل مهاجرين إلى سويسره وإيطاليا ، ولكنهم أوقفوا على الحدود وأعيدوا إلى مواطنهم قسراً . وثار العمال ، واستولوا على مكاتب البلدية ، وأقاموا دكتاتورية قصيرة الأجل من البرولتاريا على للكومون . فاستدعت الحكومة الجيش الذى أحمد التمدد ، ثم شق اثنان من زعماء العمال ، وعاد المضربون إلى ورشهم مقهورين ، يشعرون بالعداء نحو الحكومة وأرباب العمل على السواء (٣٧) .

وفي ١٧٨٦ عادوا إلى الإضراب ، مؤكدين أنهم عاجزون عن إعالة أسرهم حتى بمواصلة العمل ثماني عشرة ساعة في اليوم ، شاكين من أنهم يعاملون « بأقسى مما تعامل به الحيوانات المنزلية ، فحتى هذه تعطى من الطعام ما يكتفى لحفظها سليمة قوية » (٣٨) . ووافقت سلطات المدينة على منحهم علاوة ، ولكنها حظرت أى اجتماع يضم أكثر من أربعة أشخاص . واضطلعت كتبية مدفعية بتنفيذ هذا الحظر ، وأطلق الجند الرصاص على المضربين فقتلوا عدة أشخاص ، وعاد المضربون إلى العمل ومعيت العلاوة منهم بعد ذلك (٣٩) .

وقد نشبت حوادث الشعب احتجاجاً على ارتفاع تكاليف المعيشة ، متفرقة طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ف وقعت منها ستة في نورمنديه بين عامى ١٧٥٢ ، و ١٧٦٨ ؛ وفي ١٧٦٨ سيطر القائمون بالشعب على روان ، ونهبوا مخازن الغلال الحكومية ، وسلبوا المتاجر ، و وقعت أحداث مماثلة في رامس عام ١٧٧٠ ، وفي بواتيه عام ١٧٧٢ ، وفي ديجون وفرساي وباريس ويونتواز عام ١٧٧٥ ، وفي اكس - ان - برو فانس عام ١٧٨٥ ، ثم في باريس عامى ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ (٤٠) .

فأى دور إذن لعبه فقر البرولتاريا ، أو فقر المدن عموماً ، فى إحداث الثورة ؟ لقد كان فى ظاهر الأمر سبباً مباشراً ، فالعجز فى الخبز وما ترتب عليه من شغب فى باريس فى ١٧٨٨ - ٨٩ رفع حمى الشعب إلى درجة كان فيها أفرادها على استعداد للمغامرة بحياتهم فى تحدى الجيش والمهجوم على الباستيل . على أن الجوع والغضب يستطيعان إعطاء القوة المحركة ، ولكنهما لا يعطيان القيادة ، ومن المحتمل أن حوادث الشغب كان يمكن تهدئتها بخفض سعر الخبز لو لم توجه القيادة من الطبقات الأعلى المتمردين للاستيلاء على الباستيل والزمحف على فرساي . ثم ان الجماهير لم يكن لديها إلى ذلك الحين أى فكرة عن قلب الحكومة ، أو نخلع الملك ، أو إقامة جمهورية . وكانت طبقة البرولتاريا تتحدث عن المساواة الطبيعية حديثاً يملؤه الأمل ، ولكنها لم تحلم بالاستيلاء على الدولة . لقد طالبت بتنظيم الدولة للاقتصاد - بينما عارضتها البورجوازية - أو على الأقل بتحديد سعر الخبز ، ولكن هذا كان عودة للنظام القديم ، لا تقدماً نحو اقتصاد تهيمن عليه الطبقة العاملة . صحيح . أنه حين جد الجدل كان رعاى باريس المدفوعون بالجوع والمحرضون من الخطباء والعملاء هم الذين استولوا على الباستيل ومنعوا بذلك الملك من استخدام الجيش ضد الجمعية الوطنية ، ولكن حين أعادت الجمعية تنظيم فرنسا كان ذلك بإرشاد البورجوازيين وتحقيقاً لأهدافهم .

٤ - البورجوازية والثورة

كان المامح البارز للحياة الاقتصادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر هو صعود طبقة التجار ورجال الأعمال . وكانت قد بدأت تزكو أيام لويس الرابع عشر وكولبير ، وأفادت أعظم فائدة من الطرق والتقنيات الممتازة التى يسرت التجارة ، وأثرت على الاتجار مع المستعمرات ، وارتفعت إلى مكان مرموق فى الوظائف الإدارية (حتى ١٧٨١) ، وهيمنت على مالية الدولة .

ولكن ازعجتها إلى حد التمرد تلك المكوس التى فرضت لصالح

(م ٢٩ - قصة الحضارة ؛ ج ٤٢)

الإقطاعيين أو الحكومة على الطرق والترع ، وذلك الفحص المضيق للوقت للشحنات عند كل محطة للمكوس وكان هناك ثلاثون إلى أربعين من هذه المكوس يجب أن يدفعها المركب الذى يحمل بضاعة من جنوبي فرنسا إلى باريس^(٤١). وطالب رجال الأعمال بحرية التجارة داخل الحدود، ولكنهم لم يكونوا واثقين من رغبتهم فى هذه الحرية بين الأمم . وفى ١٧٨٦ . وبدافع من نظريات الفزيوقراطيين ، خففت الحكومة التعريفات على المنسوجات والبضائع الحديدية الواردة من إنجلترا ، مقابل خفض التعريفات الانجليزية على الخمور والزجاج والحاصلات الفرنسية الأخرى . وكان من نتائج هذا لصابة صناعة النسيج الفرنسية بضربة ، لأنها لم تستطع منافسة المصانع الانجليزية المجهزة بالآلات أحدث . وبلغت البطالة فى ليون ، وأميان ، نقطة التفجير .

ومع ذلك دعم خفض التعريفات التجارة الخارجية وملأ خزائن طبقة التجار . وتضاعفت التجارة تقريباً بين عامى ١٧٦٣ و ١٧٨٧ ، ونيفت على بليون فرنك فى ١٧٨٠^(٤٢) . واكتظت مدن الثغور الفرنسية بالتجار ، والشاحنين ، والملاحين ، والمتاجر ، ومعامل التكرير ، ومصانع التقطير . فى تلك المدن كانت طبقة التجار ورجال الأعمال هى الغالبة قبل أن تكرر الثورة تفوقها القوى بزمان .

وجاء شطر من الثروة التجارية من قنص العبيد الأفارقة أو شرائهم ونقلهم إلى أمريكا وبيعهم هناك ليعملوا على المزارع الكبيرة ، وهى ما كانت عليه الحال فى إنجلترا . وفى ١٧٨٨ شحن تجار الرقيق الفرنسيون ٢٩,٥٠٦ زنجياً إلى سان - دومينج (هايتى) وحدها^(٤٣) . وكان المستثمرون الفرنسيون يمتلكون معظم الأرض والصناعات هناك وفى جواد لوب والمارتيك . وفى سان - دومينج كان ثلاثون ألفاً من البيض يستخدمون ٤٨٠,٠٠٠ عبد^(٤٤) . وتألفت فى باريس « جمعية أصدقاء السود » عام ١٧٨٨ برئاسة كوندورسيه ، وكانت تضم بين أعضائها لافاييت وميرابو الابن ، وتستهدف إلغاء الرق ، غير أن الشاحنين أصحاب المزارع أغرقوا الحركة باحتجاجاتهم . وفى ١٧٨٩ صرحت غرفة بور دو التجارة بالآتى : « أن فرنسا تحتاج إلى مستعمراتها

لصيانة تجارتها ، ومن ثم تحتاج إلى عبيد حتى تصبح التجارة مجزية في هذا الجزء من العالم ، على الأقل إلى أن يعثر على وسيلة أخرى»^(٥٠) .

واحتاجت المشروعات الصناعية والاستعمارية وغيرها إلى رأس المال ، وولدت سلالة متكاثرة من المصرفيين ، وعرضت شركات المحاصة السندات ، وطرحت الحكومة أسهم القروض ، وتطورت المضاربة في بيع وشراء السندات المالية ، واستأجر المضاربون صحفيين لبث الشائعات المقصود بها رفع أسعار الأسهم أو خفضها^(٥١) . وشارك أعضاء الوزارات في المضاربة ، فأصبحوا خاضعين لضغط المصرفيين أو نفوذهم . وكانت كل حرب تزيد من اعتماد الدولة على المالين ، وتزيد من اهتمام المالين اهتماماً جديداً بسياسة الدولة وقدرتها على الوفاء بديونها . وحظى بعض المصرفيين بثقة شخصية تفوق الثقة في الحكومة ، ومن ثم استطاعوا أن يقترحوا بفائدة منخفضة ، ويقوضوا الحكومة بفائدة أعلى ، ويزيدوا ثروتهم بإمسك دفاترهم لأكثر - مادام حكمهم صائباً وما دامت الدولة تدفع ديونها .

وتعاضد ثراء الملتزمين العامين (وهم المليون الذين كانوا يشترون حق جباية الضرائب غير المباشرة بتقديمهم قرضاً للحكومة) واشتد كره الناس لهم ، وذلك لأن الضرائب غير المباشرة ، كضرائب البيوع عموماً ، كانت أفدح ما تكون على من يضطرون لإنفاق الكثير من دخلهم على ضروريات الحياة اليومية . وكان بعض هؤلاء الملتزمين مثل هلفيتوس ولافوازييه ، رجلاً ذوى نزاهة نسبية وروح وطنية ، أسخياء في مساهمتهم في البر والآداب والفنون^(٥٢) . وتبينت الحكومة مساوئ نظام الالتزام هذا ، وخفضت عدد الملتزمين من مئتين إلى أربعين في ١٧٨٠ ، ولكن عداء الشعب لهم استمر . وقد ألغت الثورة النظام ، وكان رأس لافوازييه أحد الرؤوس التي تهاوت في هذه العملية .

ولما كان نظام الضرائب قد لعب دوراً قيادياً بين أسباب الثورة . فلا بد لنا من أن نذكر القارئ مرة أخرى بمختلف الضرائب التي كان الفرنسيون يدفعونها . (١) كانت التأي ضريبة على الأرض والأملاك الشخصية . وقد

أعفى الأشراف منها لما يؤدونه من خدمة محربية ، وأعفى الأكليروس لأنهم يحفظون النظام الاجتماعى ويصلون من أجل الدولة ، وأعفى القضاة وكبار الإداريين ، وموظفو الجامعات ، ووقع كل الضريبة تقريباً على كاهل ملاك الأرض من الطبقة الثالثة — ومن ثم على الفلاحين فى المقام الأول. (٢) ضريبة الرعوس وكانت تفرض على كل رأس فى الأسرة ، ولم يعف منها غير الأكليروس (٣) الضريبة العشرينية وكانت ضريبة على الملكية كلها عقارية أو شخصية ، ولكن النبلاء تهربوا من شطر كبير منها ومن ضريبة الرعوس باستخدام النفوذ الخاص ، أو استخدام المحامين ليعثروا على ثغرات فى القانون ، وتفادى الأكليروس الضريبة العشرينية بعباء اختيارى دورى للدولة (٤) كانت كل مدينة تدفع ضريبة للحكومة وتفرضها على مواطنيها . (٥) فرضت الضرائب غير المباشرة بهذه الوسائل : (أ) مكوس النقل . (ب) مكوس الاستيراد والتصدير . (ج) رسوم الإنتاج على الأنبذة والمسكرات والصابون والجلد والحديد وورق اللعب الخ . (د) الاحتكارات الحكومية لبيع التبغ والملح ، فكان على كل فرد أن يشتري كل عام حداً أدنى مقررأ من الملح من الحكومة بالسعر الذى تحدده ، وكان دائماً أعلى من سعر السوق . وكانت ضريبة الملح (الجابل) هذه من أكبر أسباب شقاء الفلاح (٦) كان الفلاح يدفع ضريبة لينجو من السخرة . وبلغت جملة ما يدفعه الفرد من الطبقة الثالثة فى المتوسط من الضرائب اثنين وأربعين إلى ثلاثة وأربعين فى المائة من دخله (٤٨) .

فإذا أخذنا التجار وأصحاب المصانع ورجال المال والمخترعين والمهندسين والعلماء وصغار البيروقراطيين والكتبة وأصحاب الحوانيت والكيميائيين والفنانين والكتبة والمعلمين والمؤلفين والفزيائيين والمحامين والقضاة من غير ذوى الألقاب — إذا أخذنا هؤلاء جملة باعتبارهم المؤلفين للطبقة البورجوازية ، أمكننا أن نفهم كيف أنها فى ١٧٨٩ كانت قد أصبحت أغنى وأنشط شطر من الأمة . ولعلها كانت تملك من الأرض الريفية قدر ما تملك طبقة النبلاء (٤٩) ، وكان فى استطاعتها اكتساب النبالة بمجرد شراء إقطاعة نبيلة

أو وظيفة من وظائف « السكرتيرين » الكثيرة للملك ، وبينما خسرت الطبقة النبيلة النفر والمال بفعل البطالة والإسراف والتحلل البيولوجي ، ونخس الأكليروس الأرض الصلبة بصعود العلم والفلسفة ، والحياة والناموس الأبيقوريين الحضريين ، إزدادت الطبقات الوسطى ما لا وقوة بفضل تطور الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمالية ، فلأت بغلاتها أو وارداتها الحوانيت (البوتيكا) التي أدهش بهاؤها الزوار الأجانب الذين ألهو بباريس أوليون أورامس أو بوردو^(٥٠) ، وبينما كانت الحروب تفقر الحكومة كانت تغي الطبقة البورجوازية التي قدمت النقل والمواد . وقد انحصرت أكثر الثروة المتعاضمة في المدن ؛ وهربت من الفلاحين والعمال وظهرت أوضح ما تكون في التجار والمالين . فكان أربعون تاجراً فرنسياً يملكون في ١٧٨٩ ثروة جملة ستمائة مليون جنيه^(٥١) ، وجمع مصرفي واحد هو باري - مونمارتل مائة مليون^(٥٢) .

أما السبب الأساسي في الثورة فهو تلك المفارقة بين الواقع الاقتصادي والنظم السياسية ، بين أهمية الطبقة البورجوازية في إنتاج الثروة وتملكها وبين إقصائها عن القوة السياسية . وكانت الطبقة الوسطى الراقية على وعى بقدراتها وحداثة للاستخفاف بها . وأحفظها انغلاق طبقة النبلاء الاجتماعي ووقاحتها - كما حدث لامرأة ألمعية هي مدام رولان حين دعيت للمكث حتى تتناول العشاء في بيت أرسطوقراطي ، ثم وجدت الطعام يقدم لها في جناح الخدم^(٥٣) . وقد رأى البورجوازيون طبقة النبلاء تستنزف مال الدولة في الإنفاق الميسرف والولايم الباذخة في الوقت الذي أنكر فيه المنصب أو الترقية السياسية أو الحربية على الرجال الذين وسعوا بجرأتهم وإبتكارهم اقتصاد فرنسا الجالب للضرائب ، والذين تدعم مدخراتهم الخزانة الآن ، ثم رأو الأكليروس يلتمسون ثلث دخل الأمة في الإبقاء على لاهوت عده كل الفرنسيين المتعلمين تقريباً طفلياً وأثراً متخلفاً من تراث العصر الوسيط .

ولم يكن بالطبقات الوسطى رغبة في الإطاحة بالملكية ، ولكنها تطلعت إلى الهيمنة عليها . ولم يكن بها رغبة قط في الديمقراطية ، ولكنها أرادت

حكومة دستورية ، يمكن أن يحشد فيها ذكاء جميع الطبقات للتأثير في التشريع والإدارة والسياسة . وقد طالبت بالتححرر من هيمنة الدولة أو الطوائف النقابية على الصناعة أو التجارة ، ولكنها لم تكره الإعانات المالية للحكومية ، أو التأييد من الفلاحين وجهاير المدن لتحقيق أهدافها . وكان لب الثورة الفرنسية هو إطاحة البورجوازية بالنبل والأكليروس ، وهى بورجوازية استخدمت منط الفلاحين للقضاء على الإقطاعية ، ومنط جهاير المدن لشل جيوش الملك . فلما عقد اللواء للجمعية التأسيسية بعد عامين من الثورة ، ألغت نظام الإقطاع ، وصاشرت أملاك الكنيسة ، وأجازت تنظيم التجار ، ولكنها حظرت جميع تنظيمات العمال أو تجمعاتهم (١٤ يونيو ١٧٩١) (٥٤) .

٥ - احلشاد القوى

كانت هذه القوى الثورية كلها خاضعة لتأثير الأفكار ، وقد استخدمتها قناعاً للرغبات وموجباً لها . وكان يوجد بالإضافة إلى الدعوة التى نشرها الفلاسفة الفزيوقراطيون شيوعيون مبعثرون واصلوا ووسعوا الاشتراكية التى فصلها فى الجيل الماضى موريللى ، وما بلى ، ولنجد (٥٦) . فسبق بريسو دافريل بكتابه « مباحث فلسفية حول حق الملكية » (١٧٨٠) كتاب بيير برودون « ليست الملكية إلا لصوصية » ، إذ زعم أن الملكية الخاصة إنما هى سرقة للممتلكات العامة ، فليس هناك « حق مقدس ... يبيح أكل طعام عشرين رجلا بينما يكون نصيب الرجل الواحد غير كاف » والقوانين « مؤامرة الأقوياء على الضعفاء ، والأغنياء على الفقراء » (٥٧) . وقد اعتلر بريسو فيما بعد عن كتبه الأولى باعتبارها فورات طالب ، وأصبح من زعماء الجيرونديين ، وأعدم بالجليوتين لاعتداله (١٧٩٣) .

وفى ١٧٨٩ قبيل الاستيلاء عنوة على الباستيل ، أصدر فرنسوا بواسيل « كتاب تعليم للنوع الإنسانى بالسؤال والجواب » ، قطع الشوط كله إلى الشيوعية ، فزعم أن كل الشرور مردها « الطبقة المرتزقة ، القاتلة للبشر ، المعادية للمجتمع » ، التى ظلت إلى الآن تحكم الناس وتلطم وتدمرهم (٥٨) . ولقد استرق الأقوياء الضعفاء ، ووضعوا القوانين ليحكموهم . واخترعت

الملكية ، والزواج ، والدين ، لأضفاء الشرعية على الغصب ، والعنف ، والخداع ، وكانت النتيجة أن قلة قليلة هي التي تملك الأرض ، بينما تكابد الأغلبية الجوع والبرد . وما الزواج إلا ملكية خاصة في النساء ، وليس لإنسان حق في أكثر مما يحتاج إليه ، وكل ما زل على ذلك يجب أن يوزع على كل إنسان حسب حاجته . وعلى العاطلين الأغنياء أن يعملوا أو يجوعوا ، ويجب أن تحول الأديرة إلى مدارس ^(٥٩) .

أما أطرف هؤلاء الرايكالين وأبعدهم أثراً فهم فرنسوا - اميل بابيف . فبعد أن أعان النبلاء والأكليروس في تأكيدهم للحقوق الإقطاعية ضد الفلاحين ^(٦٠) ، أرسل إلى أكاديمية آراس (٢١ مارس ١٧٨٧) اقتراحاً بأن تقدم جائزة لأفضل مقال يكتب في هذا الموضوع « إذا أخذنا في الاعتبار مجموع المعرفة التي حصلناها الآن ، فإذا يكون حال شعب بلغت غرائزهم الاجتماعية حالة تستوجب أن تسود بينهم المساواة الكاملة . . . التي يكون فيها كل شيء مشتركاً بينهم » ^(٦١) . غير أن الأكاديمية لم تستجب لاقتراحه ، فبين جراكوس بابيف (كما سمي نفسه فيما بعد) في رسالة بتاريخ ٨ يوليو ١٧٨٧ أن كل الناس متساوون بالطبيعة ، وأن كل الأشياء مشتركة في الحالة الطبيعية ، أما كل التاريخ التالى لهذه الحالة فهو انحطاط وخذاع . وقد جميع خلال الثورة أتباعاً كثيرين ، وكان على وشك تزعم تمرد على حكومة الإدارة ، ولكن عملاءها قبضوا عليه فحكم عليه بالإعدام (١٧٩٧) .

على أن آراء كهذه لم تلعب غير دور متواضع في توليد الثورة . فلم يكن هناك أثر يذكر للميول الاشتراكية في « كراسات المظالم » التي وردت لمجلس طبقات الأمة من جميع أرجاء فرنسا في ١٧٨٩ ، ولم يحتو أى منها على هجمات على الملكية الخاصة أو النظام الملكي - وكانت الطبقة الوسطى تمسك بزمام الموقف .

ثم هل كان البنائون الأحرار (الماسون) عاملاً في الثورة ؟ لقد سبق ذكر صعود هذه الجمعية السرية في إنجلترا (١٧١٧) وأول ظهورها في فرنسا (١٧٣٤) ، وقد انتشرت سريعاً في أوروبا البروتستنتية ، وأيدها

فردريك الثانى فى المانيا ، وجستاف الثالث فى السويد . وحظر البابا كلمنت الثانى عشر (١٧٣٨) على السلطات الكنسية أو العلمانية الانضمام إلى الماسون أو مساعدتهم ، ولكن برلمان باريس رفض تسجيل هذا الأمر البابوى ، فجرده بذلك من مفعوله القانونى فى فرنسا . وفى ١٧٨٩ كان هناك ٦٢٩ محفلاً مسونياً فى باريس ، كل منها يضم عادة خمسين عضواً إلى مائة (٦٢) ، وبين هؤلاء كثير من النبلاء ، وبعض الكهنة ، وأخوة لويس السادس عشر ، وأكثر زعماء حركة التنوير (٦٣) ، وفى ١٧٦٠ أسس هلفتيوس محفل العلوم ، وفى ١٧٧٠ وسعة الفلكى لالاند إلى « محفل الأخوات التسع » (ربات الفنون) . هذا التقى برتوليه ، وفرانكلان ، وكوندورسيه ، وشامفور ، وجروز ، وأودون ، ثم سييس ، وبريسو ، وديمولان ، ودانتون (٦٤) . وكان الماسون من الناحية النظرية يستبعدون من عضويتهم كل « فاسق كافر » وكل « ملحد غبي » (٦٥) ، وكان على كل عضو أن يعلن إيمانه بـ « مهندس الكون الأعظم » ولم تشترط فى العضو عقيدة دينية غير هذه ، وبذلك قصر الماسون بوجه عام لاهوتهم على الربوبية . ويبدو أنهم كانوا أصحاب نفوذ فى الحركة التى قامت لطرد اليسوعيين من فرنسا (٦٦) . وكان هدفهم المعلن أن ينشئوا جماعة إخوان دولية سرية يترابطون فيها بالاجتماع والطقوس ويتعهدون بتبادل العون وبالتسامح الدينى والإصلاح السياسى . وفى عهد لويس السادس عشر دخلوا ميدان السياسة بنشاط ، وأصبح عدد من الأعضاء الأرستقراطيين زعماء متميزين فى الجمعية الوطنية -- لافاييت ، وميرابو الأب والإبن ، والفيكونت دنواى ، ودوق لاروشفوكو -- ليانكور ، ودوق أورليان (٦٧) .

وأخيراً جاءت الأندية ذات الطابع السياسى الواضح . وقد نظمت أول الأمر على غرار الأندية الانجليزية — لتناول الطعام ، والسمر ، والقراءة — ثم أصبحت حوالى عام ١٧٨٤ مراكز للدعوة شبه الثورية . قال معاصر إنهم فى هذه الأندية « يبدون آراءهم بصوت عال ودون قيد فى حقوق الإنسان ، وهزايا الحرية ، والشرور الكبرى الناجمة عن عدم المساواة فى ظروف الحياة » (٦٨) . وبعد تجمع مجلس الطبقات ككون المندوبون عن

لإقليم برننى « نادى برتن » ، ولم يلبث النادى أن وسع عضويته فشملت غير البرتدين كيرابو الإبن ، وسييس ، وبروبسيير ، وفى أكتوبر ١٧٨٩ نقل مقره إلى باريس ، وأصبح « جمعية اليعاقبة » .

وهكذا تضافرت عشرات القوى المتنوعة لأحداث الثورة الفرنسية ، وهو ما يحدث فى معظم الأحداث البالغة الأهمية فى التاريخ . وكان من العوامل الأساسية نمو الطبقات الوسطى عدداً وتعليماً وطموحاً وثراء وسلطاناً اقتصادياً ، ومطالبتها بوضع سياسى واجتماعى يتناسب وإسهامها فى حياة الأمة ومالية الدولة ، وحشيتها من أن تجعل الخزائنة سندات الحكومة عديمة القيمة بإعلانها الإفلاس . وبما لحق بهذا العامل واستخدمه مساعداً ومهدداً فقر ملايين الفلاحين الذين يستصرخون طلباً للتخفيف من الرسوم والضرائب والعشور ، ورخاء عدة ملايين من الفلاحين لهم من القوة ما يكفى لتحدى الإقطاعيين وجباة والضرائب والأساقفة وأفواج الجند ، والسخط المنظم الذى استشعرته جماهير المدن التى عانت من التلاعب فى إمدادات الخبز ، ومن تخلف الأجور عن الأسعار فى التصاعد التاريخى للتضخم .

أضف إلى هذا أشتاتاً متشابكة من العوامل المساعدة : إسراف البلاط المكلف ، وعجز الحكومة وفسادها ، وإضعاف الملكية نتيجة لصراعتها الطويل مع البرلمانات وطبقة النبلاء ، وانعدام المؤسسات السياسية التى يمكن غن طريقها التعبير عن المظالم على نحو قانونى وبناء ، ومستويات الإدارة الرفيعة التى يتوقعها مواطنون شحذت عقولهم المدارس والكتب والمصالونات والعلم والفلسفة وحركة التنوير أكثر من أى شعب من الشعوب المعاصرة . هذا فضلاً عن انهيار الرقابة على المطبوعات أيام لويس السادس عشر ، وبث أفكار الإصلاح أو الأفكار الثورية على يد فولثير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامير ، ودولباخ وهلفتيوس ، وموريلليه ، وموريللى ، وما بلى ، ولنجيه ، وميرابوا الأب ، وطورجو ، وكوندورسيه ، وبومارشيه ، وميرابوا الإبن ، ومئات غير هؤلاء من الكتاب الذين لم يكن لهم قط نظير من قبل عدداً والمعيه وقوة ، والذين تغلغلت دعوتهم فى كل طبقة باستثناء

طبقة الفلاحين — في ثكنات الجيش ، وصوامع الرهبان ، وقصور الأشراف ، وحجرات الانتظار الملكية . يضاف إلى هذا كله ذلك التقلص المدمر الذى أصاب الإيمان فى صدق كنيسة كانت قد ساندت الأوضاع الراهنة وحق الملوك الإلهى ، وبشرت بفضائل الطاعة والإستسلام ، وكدست قدراً هائلاً من الثروة المحسودة فى الوقت الذى لا تستطيع الحكومة أن تعثر فيه على وسيلة لتمويل واجباتها المتسعة . ثم انتشر الإيمان بـ « قانون طبيعى » يتطلب عدالة إنسانية لكل عاقل دون نظر للمولد أو اللون أو العقيدة أو الطبقة ، وبـ « حالة طبيعية » معطاءة كل الناس فيها متساوون ، فضلاء أحرار ، سقطوا منها نتيجة لنمو الملكية الخاصة ، والحرب ، والقانون الذى يوجه لخدمة الطبقة المميزة ، أضف إلى هذا ظهور وتكاثر المحامين والخطباء المستعدين للدفاع عن الوضع الراهن أو مهاجمته ، ولإثارة مشاعر الشعب وتنظيمها ، وتكاثر كتاب النشرات وضراوتهم ، والنشاط السرى للأندية السياسية ، وطموح الدوق أورليان إلى التربع على عرش فرنسا مكان ابن عمه .

ثم أجمع هذه العوامل كلها معاً فى حكم ملك لطيف خير ضعيف متردد حيره تشابك الصراعات من حوله ، والدوافع المتضاربة فى داخله ، واتركها تفعل فعلها فى شعب أشد وعياً بمظالمه ، وأحر عاطفة وأقبل للإثارة وأخصب خيالاً من أى شعب آخر تقريباً وعاه التاريخ ، ثم لا يلزم لضم هذه القوى وتأجيجهما لتحديث انفجاراً مزمعاً إلا حادث يمس الجماهير ، ويتغلغل تغلغلاً أعمق من الفكر فى أقوى غرائز البشر . وربما كانت هذه هى وظيفة قحط عام ١٧٨٨ ومجاعته ، وشتاء ١٧٨٨ — ٨٩ القاسى . لقد تنبأ المركز دجيراردان فى ١٧٨١ بأن « الجوع وحده سيولد هذه الثورة الكبرى » (٦٩) . وقد وصل الجوع إلى الريف ، وإلى المدن ، وإلى باريس ، وأنشبت فى الجماهير أظفاره فى ضراوة تكفى للتغلب على التقاليد ، والاحترام ، والخوف ، ولتوفير معية لتحقيق أهداف وأفكار رجال ينعمون بالغذاء الغليب . وهكذا تحطمت سدود القانون والعرف والتدين ، واندلع لهيب الثورة .

الباب الثالث

الانهار السياسي

١٧٨٣ - ٨٩

١ - القلادة الماسية : ١٧٨٥

في يونيو ١٧٨٣ عاد أكسيل فون فرسن إلى فرنسا بعد أن أبلى بلاء حسناً في الدفاع عن أمريكا وكسب الفخار في يوركوتون ، فوجد ماري أنطوانيت في روعة حسنها الذي تركها عليه قبل ثلاث سنين . وحتى في ١٧٨٧ ، حين كانت في الثانية والثلاثين ، وجدها آرثر ينج « أجمل امرأة » رآها في البلاط ذلك اليوم^(١) . ولم تتردد في تأييد طلب جوستاف الثالث إلى لويس السادس عشر أن يعين فرسن الوسيم كولونيللا للفوج السويدي الملكي في الجيش الفرنسي — مما سيتيح له قضاء وقت غير قصير في فرساي ، واعترف أكسيل لأخته صوفى بأنه يحب الملكة ، وأنه يعتقد أن حبه يلقي استجابة منها . وما من شك في أنها كانت تحس الود الحار نحوه ، وقد تبادلوا الرسائل الرقيقة بعد ثمانية أعوام عقب المحاولة الباسلة التي بذلها لتهربها هي والملك من فرنسا ، غير أن دعوتها لصوفى أن تأتي وتعيش بقربه توحى بعزمها على أن تحتفظ بشعورها نحوه في نطاق الحدود اللائقة^(٢) . ولم يكذب مؤمن ببراءتها أحد في البلاط غير زوجها . وأكدت علاقتها الآتمة أغنية ذاعت بين عامة الشعب تقول :

إن أشئت أن تعرف

ديوثا ، وابن زنا ، وامرأة فاجرة ،

فانظر إلى الملك ، والملكة .

والأمير ولي العهد^(٣) .

ولقد تلخص لوى — فليب دسيجور الأمر في هذه العبارة : « لقد فقدت سمعتها ولكنها صانت فضيلتها »^(٤) .

وفي ٢٥ مارس ١٧٨٥ ولدت ماري أنطوانيت ابناً ثانياً سمي لوى — شارل . وسر الملك سروراً عظيماً فوهبها قصر سان — كلو الذى كان قد اشتراه من الدوق أورليان بستة ملايين من الجنيهات . وأدان البلاط غلو تقديره للمملكة ، ولقبها بارييس على سبيل التكميم (السيدة العجوز)^(٥) . وقد استخدمت نفوذها على زوجها لتوجيه تعيينه للوزراء والسفراء وغيرهم من كبار القوم وحاولت دون جدوى أن تغير من كراهيته للتحالف مع النمسا ، وزادت جهودها هذه من كره الشعب لها .

في هذا الجو من عدااء الشعب لـ « النمساوية » L. Autrichienne ، كما كانوا يلقبونها نستطيع أن نفهم تصديق الناس لقصة القلادة الماسية . وكانت هذه القلادة ذاتها أمراً لا يصدق ، فهي خيوط من ٦٤٧ ماسة قيل إنها تزن ٢,٨٠٠ قيراط^(٦) * وكان اثنان من جواهرية البلاط هما شارل بومر وبول باسانج — قد اشتريا ماساً من نصف العالم ليصنعا قلادة لمدام دوبارى ، اثنتين من أن لويس الخامس عشر سيبتاعها لها . ولكن لويس الخامس عشر مات ، فن تراه يشترى الآن حلقة باهظة الثمن كهذه ؟ وعرضها الجوهريان على ماري أنطوانيت لقاء ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ، فرفضتها لغلوها الشديد^(٧) وهنا تصدر الصورة الكردينال برنس لوى — ريينه — ادوار دروهان .

وكان الكردينال ثمرة ناضجة لأسرة من أعرق الأسر الفرنسية وأغناها ، فيل إن دخله بلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه في العام . رسم قسيساً في ١٧٦٠ ، وعين مساعداً لعمه رئيس أساقفة ستراسبورج ، وبصفته هذه رجب رسمياً بماري أنطوانيت أول مرة دخلت فيها فرنسا (١٧٧٠) . فلما وجد ستراسبورج ميداناً يضييق به طموحه ، عاش أكثر وقته في باريس ، حيث انضم إلى

(*) إذا أخذنا تقدير عام ١٩٦٠ ميارا لسر الماس (١٢٠٠ ريال للقيراط) كانت القلادة تساوى ٣٢٦٠,٠٠٠ دولار .

الحزب المناوئ للفرنسا والملكة ، وفي ١٧٧١ أوفده لويس السادس عشر إلى فيينا مبعوثاً خاصاً لاستطلاع المناورات النمساوية لتقسيم بولنده . واعتاضت ماريا تريزا من الولايم الباذخة التي كان يولها ومن بثه الشائعات الفاضحة عن ولي العهد الجديد . واستدعاه لويس السادس عشر إلى باريس ، ولكن الأقارب الأقوياء أقنعوا الملك بأن يعينه كبير المتصرفين في المبرات الملكية (١٧٧٧) . وبعد عام رقي القس المرح الوسيم إلى رتبة الكردينالية ، وفي ١٧٧٩ أصبح رئيساً لأساقفة ستراسبورج وهناك التقى بكاليوسترو فوقع تحت سحر المشعوذ وانطالت عليه دعاواه ، وإذ كان روهان قد ارتفع إلى هذا المقام العالي بهذه السرعة الكبيرة ، فقد خيل إليه أن في وسعه الطموح إلى تقلد منصب كبير وزراء لويس السادس عشر ، شريطة أن يكفر عن سنوات معارضته للملكة .

وكان من أسباب لهوه في باريس مدام دلاموت — قالوا ، المرأة الجذابة الذكية . وكانت جان دسان — ريمي دفالوا هله تدعى أنها تحدت من هنري الثاني ملك فرنسا وإحدى خليلاته . ولكن أسرتها فقدت ثروتها ، فاضطرت جان إلى الاستجداء في الشوارع ، وفي ١٧٧٥ أكدت الحكومة نسبها الملكي ، ومنحتها معاشاً قدره ثمانمائة فرنك . وفي ١٧٨٠ تزوجت أنطوان دلاموت ، وكان ضابطاً في الجيش يهوى الدس والتآمر ، خدعها في أمر دخله ، فكان زواجهما على حد قولها رباطاً بين القحط والمجاعة^(٨) . وقد انتحل لقب كونت ، فأصبحت جان كونتيسة دلاموت ، وهذه الصفة راحت ترف حول باريس وفرساي ، وتغزو قلوب الرجال بما سمته « مظهر العافية والشباب (الذي يسميه الرجال التائق) ، وبشخصية غاية في الحيوية والمرح »^(٩) ، فلما أصبحت خليلية للكردينال (١٧٨٤)^(١٠) ، ادعت أن لها صلات وثيقة جداً في البلاط ، وعرضت أن تنال له موافقة الملكة على أهدافه . فكلفت ريتو دفيليت تقليد نخط جلالتها ، وجاءت الكردينال برسائل حب زعمت أنها من ماري أنطوانيت ، وأخيراً وعدت بأن ترتب له لقاء مع الملكة . ثم دربت مومساً تدعى « البارونه » أوليفيا على انتحال شخصية الملكة ، وفي « بستان فينوس »

« بقرساي ، في جوف الليل البهيم ، التقى الكوردينال فترة قصيرة بهذه المرأة ، وحسبها أنطوانيت ، ولثم قدمها ، وتلقى منها وردة عربوناً للتصالح (أغسطس ١٧٨٤) ، أو هكذا تروى « الكونتيسة » (١١) .

ثم غامرت مدام دلاموت الآن نخطة أكثر جرأة لو نجحت لوضعت حداً حداً لفقرها . ذلك أنها زورت خطاباً من الملكة يخول لروهان شراء القلادة باسمها ، وقدم الكوردينال الخطاب إلى بومر ، فسلمه هذا الجواهر (٢٤ يناير ١٧٨٥) بعد تعهد كتابي منه بدفع ١,٦٠٠,٠٠٠ فرنك منجمة . وأخذ روهان الماسات إلى الكونتيسة ، وبناء على طلبها سلمها إلى ممثل مزعوم للملكة . أما تاريخ الماسات بعد ذلك فغير مؤكد ، ويبدو أن الكونت « دلاموت أخذها إلى إنجلترا وباعها قطعة قطعة » (١٢) .

وأرسل بومر فاتورة بالقلادة إلى الملكة فردت بأنها لم تطلبها قط وأنها لم تكتب قط الخطاب الذي يحمل اسمها . فلما وافى القسط الأول (٣٠ يوليو ١٧٨٥) ولم يعرض روهان غير ثلاثين ألف فرنك من المبلغ المستحق وقلده ٤٠٠,٠٠٠ عرض بومر الأمر على البارون دبروتوى وزير البيت الملكي . فأنبأ بروتوى به الملك : فاستدعى لويس الكوردينال ودعاه لتفسير تصرفاته ، فأراه روهان بعض خطابات زعم أنها من الملكة . وفطن الملك للتو إلى أنها مزورة وقال « ليس هذا خط الملكة ، والتوقيع ليس له حتى الشكل المميز » (١٣) ، واشتبّه في أن روهان وغيره من الحزب المناوئ لزوجته قد يبتوا هذه المؤامرة لتشويه سمعتها . فأمر بزج الكوردينال في الباستيل (١٥ أغسطس) وطلب إلى الشرطة البحث عن مدام دلاموت وكانت قد هربت إلى الخبأ تلو الخبأ ، ولكن أمكن القبض عليها ، فرجت هي أيضاً أيضاً في الباستيل . كذلك قبض على « البارونة » أوليفيا ، وريتو دفيليت ، وكاليوسترو ، الذي اشتبه خطأ في أنه مدبر المؤامرة ، مع أنه في الواقع فعل قصاراه ليشتعلها (١٤) .

واعتقد لويس أنه لا بد من محاكمة علنية لإقناع الشعب ببراءة الملكة ، فعرض القضية على أعدائه ، وهم برلمان باريس . وكانت المحاكمة أشد قضايا

القرن في فرنسا إثارة لاهتمام الرأي العام ، كما أصبحت قضية وارن هيستنجز في إنجلترا بعدها بثلاث سنين . وصدر حكم البرلمان في ٣١ مايو ١٧٨٦ . فأعلنت براءة الكردينال روهان ، باعتباره مخدوعاً أكثر منه خادعاً ، ولكن الملك حرّمه مناصبه الرسمية ونفاه إلى دير لاشيز - ديو .

أوحكم على اثنين من الشركاء في الجريمة بالسجن ، وورثت ساحة كاليوسترو . أما مدام دلاموت فقد جردت من ملابسها علانية وضربت بالسوط في « الكوردي » أمام قصر العدالة ، ورسمت بحرف V (اختصاراً للكلمة Voleur أى اللص) وحكم عليها بالسجن مدى الحياة في سجن سالتيرير ، وهو سجن النساء سيئ السمعة . وبعد أن قضت عاماً في هذا الحبس الذي يورث الجنون فرت ، ولحقت بزوجها في لندن ، وكتبت ترجمة لحياتها شرحت فيها كل شيء ، ثم ماتت في ١٧٩١ .

واغتبط النبلاء وسجّاهير الباريسيين بتبرئة ساحة الكردينال وانتقدوا الماكة لإيصالها الأمر إلى محاكمة علنية ، وكان الشعور العام أن شرها المعروف للعواهر هو عذر الكردينال في تصديق الرسائل المزورة . وغالت الشائعات والأقاويل إلى حد اتهامها بمخللة روهان^(١٥) ، مع أنها لم تكن رأته خلال السنوات العشر السابقة للقبض عليه . ومرة أخرى صانت الملكة عرضها ولحق الأذى بسمعتها . قال نابليون « إن موت الماكة يجب أن يؤرخ من محاكمة القلادة الماسية^(١٦) .

٢ - كالون : ١٧٨٣ - ٨٧

في ١٠ نوفمبر ١٧٨٣ عين الملك شارل - ألكسندر دكالون مراقباً عاماً للمالية . وكان كالون قد أصاب نجاحاً في منصب الناظر الملكي بمنزلة وويل ، واشتهر بأذابه الساحرة ، وروحه المرحّة ، وبراعته في أمور المال - رغم أنه هو ذاته كان غارقاً في الدين شأنه شأن الحكومة التي دعى لإنقاذها^(١٧) . ولم يجد غير ٣٦٠,٠٠٠ فرنك في الخزانة ، مع دين قصير الأجل قدره ٦٤٦,٠٠٠,٠٠٠ ، يزيد خمسين مليوناً من الفرنكات كل سنة . وقد رفض كما رفض نكير من قبل فرض المزيد من الضرائب مخافة أن يثير الأمر التمرد.

ويضعف الاقتصاد ، وبدلاً من الضرائب قرر عمل يا نصيب بعد المفاوضات ،
جاء بمائة مليون من الجنيهات ، ثم لجأ إلى الأكليروس وظفر منهم بمنحة
قدرها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات بعد أن تعهد بمصادرة الطبعة التي
أصدرها بومارشيه من أعمال فولتير . ثم أعاد سك العملة الذهبية فربح
للخزانة بذلك خمسين مليوناً . واقترض ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من المصرفين .
وحده الأمل في حفز التجارة إلى تخصيص مبالغ كبيرة للمشروعات الصحية
العامّة في المدن ولتمحيين الطرق والترع والثغور ، واستفادت موانئ الهافر
ودنكيرك ودييب ولا ووشيل ، وبدأت الأرصفة الكبرى في شربورج ،
وعملها بالنظرية التي تزعم أنه لا بد للحكومة من أن تتخذ لها دائماً واجهة
من الثراء ، خصص الاعتمادات دون تردد للحاشية ، ولم يسأل أسئلة حول
نفقات أخوة الملك والمملكة . أما الملك نفسه ، فإنه برغم نواياه الطيبة سمح
بزيادة نفقات بيته من ٤,٦٠٠,٠٠٠ جنيه في ١٧٧٥ إلى ٦,٢٠٠,٠٠٠ في
١٧٨٧ (١٨) .

وكان كالون يقترض كلما زاد إنفاقه ، وكلما اقترض ازدادت الفائدة
التي يتعين دفعها على الدين . وفي أغسطس ١٧٨٦ اعترف للملك المدهول
أن كل الوسائل قد استنفدت ، وأن الدين القومي والعجز السنوي زادا
زيادة لم يسبق لها نظير ، وأنه لانجاة للحكومة من الخراب المالي إلا بتوسيع
الضرائب لتشمل النبلاء الأكليروس . وكان كالون عليماً بأن برلمان باريس
الذي كان آنثد مرتبهاً بنبلاء السيف في حلف سافر سيقاوم هذا الاقتراح ،
ومن ثم اقترح أن يدعى لفيف من الرجال البارزين يختارهم بمعرفته من
الطبقات الثلاث كلها في جميع أرجاء فرنسا إلى فرساي للتشاور إنقاذاً مالية
الدولة ، فوافق الملك .

والتأم شمل « مجلس الأعيان » في ٢٢ فبراير ١٧٨٧ ، وكان يضم ٤٦
نبيلاً ، و ١١ كنسياً ، و ١٢ عضواً من مجلس الملك ، و ٣٨ قاضياً ، و ١٢
نائباً من « أقطار الدولة » (وهي أقاليم تتمتع بامتيازات خاصة) ، و ٢٥
موظفاً بلدياً ، وجملتهم ١٤٤ . ووجه كالون إليهم الخطاب بصراحة تنطوي
على الشجاعة ، وأفاض في الحديث عن المساواة التي لا بد من القضاء عليها

أياً كان رسوخها في الزمن والميول المفرضة ، لأنها «ثقيلة الوطأة على أكثر الطبقات إنتاجاً وكذا» . وأدان عدم المساواة العام في منح الإعانات المالية ، و «عدم التناسب الهائل في التوزيع الذي تسهم به مختلف الأقاليم والرعايا الذين يدينون بالتبعية للملك واحد» ^(١٩) . ثم عرض اقتراحات أكثر راديكالية من اقتراحات طورجو ، وقدمها على أن الملك قد وافق عليها ، ولو أنها نفذت لربما تفادت اندلاع الثورة . وقبل الأعيان بعضها مما تحذر من عهد طورجو كخفض ضريبة الملح ، وإلغاء المكوس على التجارة الداخلية ، وإعادة حرية الاتجار في الغلال وإنشاء المجالس الإقليمية ، وإنهاء السخرة . أما طلبه فرض ضريبة جديدة وعامة على الأرض فقد رفض ، وكانت حجة الأعضاء الأشراف والأكليروس أن «إعانة الأرض» تقتضى مسحاً لجميع الأراضي ، وإحصاء لكل ملاك الأرض ، في فرنسا ؛ وهذا يستغرق سنة ، وإن يكون له أثر في الأزمة الراهنة .

ولجأ كالون إلى الشعب بنشر خطبه . ولم يستطع النبلاء ولا الأكليروس هذا الالتجاء للرأى العام . ورد المجلس بأن طالب كالون بتقديم حساب كامل عن الإيرادات والمصروفات أثناء وزارته . فرفض الامتثال للطلب ، لأنه عرف أن الكشف عن وسائله ونفقاته سيكون فيه القضاء عليه . وأصر المجلس على أن الحاجة إلى القصد في النفقات أمس منها إلى تعديل هيكل الضرائب ، ثم تشكك في سلطته في وضع نظام جديد للضرائب ، فمثل هذه السلطة لا يملكها إلا مجلس طبقات الأمة (Etats Généraux) وهو مؤتمر قومي من نواب مختارهم الطبقات الثلاث (états) ولم يدع مجلس كهذا منذ عام ١٦١٤ .

ووافق أحد الأعيان ، وهو لافاييت ، على معظم مقترحات كالون ، ولكنه كان عديم الثقة بالرجل - فاتهمه ببيع بعض الأراضي الملكية دون علم الملك ، وتحذاه كالون أن يثبت التهمة ، فأثبتها ^(٢٠) . وكان لويس السادس عشر قد ساءه التجاء كالون للشعب متخطياً بذلك رجال الحكومة ، فأدرك

الآن بعد أن تكشفت له الأمور تباعاً أن كالون قد غشه في حالة الخزينة ، ووضح له أنه لن يستطيع الحصول على أى تعاون من الأعيان مادام كالون مراقباً للمالية . فلما طالب كالون إقالة ناقله البارون دبرتوى الذى كان صديقاً شخصياً لمارى أنطوانيت ، أشارت على الملك بأن يقبل كالون بدلاً منه . فاتباع النصيحة بعد أن أرمقته هذه الضجة الشديدة (٨ أبريل ١٧٨٧) . أما كالون فقد هرب سراً إلى إنجلترا بعد أن علم بأن برلمان باريس يحفظ للتحقيق فى إدانته وفحص شتونه الخاصة . وفى ٢٣ أبريل حاول لويس تهدئة الأعيان بالوعد بالوفر الحكومى ونشر مالية الدولة . وفى أول مايو ، وبناء على نصيحة المالكة أيضاً ، عين أحد الأعيان رئيساً لمجلس فرنسا .

٣ — لومفى دبرين : ١٧٨٧ — ٨٨

كان رئيساً لأساقفة تولوز ، ولكنه كان حر الفكر حرية اشتهر بها حتى أن جماعة الفلاسفة رحبوا بتقلده الساطة . وقبل ست سنوات ، حين زكى ليخاف كرسنوف ديومون رئيساً لأساقفة العاصمة ، اعترض لويس السادس عشر قائلاً « يجب على الأتلى أن يكون لنا رئيس أساقفة لباريس مؤمن بالله » (٢١) . وكان من أعظم ضرباته الموافقة وهو وزير للمالية أنه حصل على نقله لرئاسة أساقفة سانس ، وهو منصب أغنى كثيراً من منصب رئيس أساقفة تولوز . وقد أقنع الأعيان بالموافقة على خطته الرامية إلى جمع ثمانين مليوناً من الفرنكات ، ولكن حين طالب إليهم الموافقة على ضريبة الأرض الجديدة عاخوا يعتدرون بأنهم لا يملكون ساطة هذه الموافقة . فلما رأى لويس أن الأعيان لن يزيدوا على ذلك أقاله فى اعاف (٢٥ مايو ١٧٨٧) .

وقد حاول دبرين تحقيق الوفور بطلبه الخفض فى نفقات كل مصاحبة حكومية ، فقاومه رؤساء المصالح ، ولم يؤيد الملك وزيره . وخفض لويس نفقات بيته بمليون فرنك ، وارتضت المالكة خفضاً كهذا (١١ أغسطس) وقد أوتى دبرين من الشجاعة ما جعله يرفض المطالب المالية التى طالب بها البلاط ، وأصدقاء المالكة ، وأخ الملك . وما يشرفه أنه استصدر من

البرلمان الكاره (يناير ١٧٨٨) وفي وجه مقاومة معظم زملائه الأساقفة ،
المرسوم الملكي الذي بسط مظلة الحقوق المدنية على البروتستنت .

وكان من سوء طالع أنه تقلد السلطة في فترة انتشر فيها انكماش اقتصادي
استمر حتى الثورة ، نتيجة لنقصان المحاصيل مراراً ولمنافسة الواردات
البريطانية . وفي أغسطس ١٧٨٧ تصابحت جماهير المشاغبين الجائعة في باريس
بالنداءات الثورية وأحرقت الدمى التي مثلت بعض الوزراء . كتب أرثر
ينج في ١٣ أكتوبر يقول « يبدو أن الناس جميعاً يشعرون بأن رئيس الأساقفة
لن يقوى على تخليص الدولة من عبء موقفها الراهن ، ... وأن شيئاً
خارقاً للعادة سيقع ، وأن إشهار الدولة لإفلاسها فكرة ليست بعيدة النبل
إطلاقاً » (٢٢) ثم أضاف في اليوم السابع عشر « إن رأياً واحداً غلب على
الجماعة كلها ، وهو أنهم على شفا ثورة عظيمة في الحكومة . . . وغلbian شديد
في جميع صفوف الناس ، الذين يتوقون إلى تغيير ما ، . . . وخميرة قوية
من الحرية ، تكبر كل ساعة منذ الثورة الأمريكية » (٢٣) .

وكانت الإصلاحات التي دعا إليها كالون وبريين ، وقبلها الملك ،
تنتظر تسجيل البرلمانات لها وإقرارها قانوناً للدولة ، أما برلمان باريس فقد
وافق على إطلاق حرية تجارة الغلال وتحويل السخرة إلى مبلغ نقدي ،
ولكنه رفض التصديق على ضريبة دهنة . وفي ١٩ يوليو ١٧٨٧ أرسل إلى
لويس السادس عشر تصريحاً بأن « الأمة ، ممثلة في مجلس الطبقات ، هي وحدها
صاحبة الحق في أن تمنح الملك الموارد التي قد يتبين أنه لا غنى عنها » (٢٤) .
ووافقت جماهير باريس على هذا الحكم ، وفاتها أن مجلس الطبقات ، كما
هو معلوم إلى ذلك الحين في التاريخ الفرنسي ، ليس إلا مؤسسة إقطاعية
شديدة الانحياز إلى الطبقات المميزة . أما نبلاء السيف ، الذين لم تغيب عنهم
هذه الحقيقة ، فقد وافقوا على التصريح ، ومنذ ذلك الحين انضموا إلى
البرلمان ونبلاء الرداء في هذا « التمرد النبيل » الذي مهد للثورة . وأما لويس
فقد تردد في دعوة مجلس الطبقات مخافة أن ينهى المجلس استبدادية الملكية
البوربونية بتأكيده للسلطات التشريعية ،

وفي أغسطس ١٧٨٧ قدم للبرلمان مرسوماً بضرية على جميع الأراضي في جميع الطبقات : فرفض البرلمان تسجيلها : فدعا لويس الأعضاء إلى مجلس قضائي أعلى « سرير عدالة » في فرساي ، وأمرهم بالتسجيل ، فلما عاد الأعضاء إلى باريس أعلنوا أن التسجيل باطل ، وعادوا يطالبون بعقد مجاس الطبقات : فنفاهم الملك إلى ترويه (١٤ أغسطس) وثار البرلمانات الإقليمية احتجاجاً ، واندلعت حوادث الشغب في باريس ، وأذعن برين والملك ، فاستدعى البرلمان (٢٤ سبتمبر) وسط مظاهر ابتهاج الشعب .

ثم تجدد الصراع حين رفض البرلمان التصديق على اقتراح برين جمع قرض قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ودعا الملك لعقد « جلسة ملكية » للبرلمان (١١ نوفمبر ١٧٨٧) قدم فيها وزراؤه الحجج المؤيدة لتسجيل القانون . ولكن البرلمان أصر على الرفض ، وصاح الدوق أورليان « مولاي ، هذا غير قانوني ! » وأجاب لويس في نوبة غضب طائشة على غير العادة « هذا لا يغير من الأمر شيئاً ! انه قانوني لأنني أريده » - وهكذا أكد مبدأ الحكم الاستبدادي في غير موارد . ثم أمر بتسجيل المرسوم ، فسجل ، ولكنه ما إن غادر القاعة حتى ألغى البرلمان التسجيل : فلما سمع لويس بهذا نفى الدوق أورليان إلى فيلبه كوتريه ، وزج باثنين من أعضاء البرلمان في الباستيل (٢٠ نوفمبر) . واحتجاجاً على هذين الأمرين وغيرهما من أوامر القبض دون محاكمة ، بعث البرلمان إلى الملك (١١ مارس ١٧٨٨) « اعتراضات » اشتتمت كلاماً سر النبلاء والعامة على السواء : « ان القوانين التعسفية تنتهك الحقوق التي لا يمكن انتزاعها : ان الملوك يحكمون إما بالقهر أو بالقانون : . . . والأمة تطالب من جلالته أعظم خير يمكن لأي ملك أن يعطيه لرعاياه - وهو الحرية » (٢٥) .

ورأت الوزارة أن تهدى ثائرة البرلمان بالإذعان لما طالب به من نشر بيان بإيرادات الحكومة ومصرفاتها . فزاد هذا النشر الطين بلة لأنه كشف عن عجز مقداره ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ورفض المصرفيون أن يقرضوا الدولة مزيداً من المال ما لم يصدق البرلمان على القرض ، وأقسم البرلمان أنه

لن يفعل . وفي ٣ مايو ١٧٨٨ أصدر « إعلاناً للحقوق » ذكر لويس السادس عشر ووزرائه بأن فرنسا « ملكية يحكمها ملك ، طبقاً للقوانين » ، وأن على البرلمان ألا يتخطى عن حقه القديم في تسجيل المراسيم الملكية قبل أن تصبح قوانين . ثم عاود المطالبة بعقد مجلس الطبقات ، ه أمر الوزراء باعتقال عضوين من زعماء البرلمان هما ديمرنييل وجوابلار (٤ مايو) ، وتم هذا وسط فوضى واضطراب في القاعة واحتجاجات غاضبة في الشوارع . وفي ٨ مايو أعلن برين عزم الحكومة على إنشاء محاكم جديدة ، ترأسها « محكمة مطلقة السلطة » يكون لها وحدها منذ الآن سلطة تسجيل المراسيم الملكية ، أما البرلمان فتقتصر سلطتها على أداء الوظائف القضائية البحتة ، ثم يصلح هيكل القانون الفرنسي بجملة . ومنح برلمان باريس أثناء ذلك « أجازة » - أي أنه من الناحية الفعلية أوقف عمله .

وعليه لجأ البرلمان إلى النبلاء ، والأكليروس ، والبرلمانات الإقليمية ، فخفض الجميع لتأييده . وأرسل الأذواق والأشراف إلى الملك احتجاجات على إلغاء حقوق البرلمان التقليدية . وأدان مؤتمر للأكليروس (١٥ يونيو) « المحكمة المطلقة لسلطة » الجديدة ، وخفض « منحة » من إثني عشر مليون جنيه في المتوسط إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ ، ورفض أي معونة أخرى حتى يعاد البرلمان (٢٦) . ثم شقت البرلمان الواحد تلو الآخر عصا الطاعة على الملك . وأعلن برلمان بو (عاصمة بيارن) أنه لن يسجل مراسيم رفضها برلمان باريس ، وحين هددت الحكومة أعضائه باستعمال القوة تسلم الشعب ليحييهم ، أما برلمان روان (عاصمة نورماندي) فقد شهر بوزراء الملك باعتبارهم خزنة ، وحرّم من حماية القانون كل الأشخاص الذين يستخدمون المحاكم الجديدة . وأصدر برلمان رين (عاصمة برتني) قوانين مماثلة ، فلما أرسلت الحكومة الجند لفضه تصدى لهم موظفو النبلاء المحليون المسموحون (٢٧) . وحين أذاع الحاكم العسكري في جرينويل (عاصمة الدوفينه) مرسوماً ملكياً بحل البرلمان المحلي ، هبت جماهير المدينة التي عززها الفلاحون الذين دعاهم ناقوس الخطر ، فقدت الجند الكارهين لمهنتهم ببلاط من الأسطح ،

وأكرهت المحاكم على سحب مرسوم الملك (٧ يونيو ١٧٨٧ ، « يوم البلاط ») وإلا شفقوه على ثريا ردهته . ولكن القضاة امتثلوا لأمر ملكي بنفيهم .

ولقد صنع مجتمع جرينوبل التاريخ بانتقاضه هذا . وصمم النبلاء الكليروس والعامّة على إعادة مجلس طبقات الدوفينية ليلتئم في ٢١ يولو . ولما كانت الطبقة الثالثة قد قادت النصر في « يوم البلاط » فقد منحت تمثيلاً مكافئاً لتمثيل الطبقتين الأخيرين مجتمعين ، واتفق على أن يكون التصويت في المجلس الجديد بالأفراد لا بالطبقات ، وقد وضعت هذه الاتفاقات سوابق لعبت دوراً في تنظيم مجلس الطبقات القومي . فلما حضر على مجلس طبقات الدوفينه أن يجتمع في جرينوبل ، اجتمع في فيزيل على بضعة أميال ، وهنالـه ، بقيادة محام شاب يدعى جان — جوزيف مونييه ، وخطيب شاب يدعى أنطوان بارناف ، وضع النواب الخمسمائة قرارات (أغسطس ١٧٨٨) أبدت حقوق البرلمانات في التسجيل ، وطالبت بألغاء أوامر القبض الملكية ، ودعت إلى عقد مجلس لطبقات الأمة ، وتعهدت بعدم الموافقة إطلاقاً على ضرائب جديدة ما لم يصدق عليها مجلس الطبقات . هنا كانت إحدى بدايات الثورة الفرنسية : فإن إقليماً بأسره تحدى الملك ، وطالب في واقع الأمر بملكية دستورية .

واستسلم الملك بعد أن قهره هذا التمرد الذي شمل الأمة كلها تقريباً على السلطة الملكية ، فقرر أن يدعو مجلس الطبقات ، ولما كان آخر اجتماع لهذه الهيئة قد انقضى عليه ١٧٤ عاماً ، ولما كان نمو الطبقة الثالثة قد استحـال معه اتباع الإجراءات القديمة ، فقد أصدر لويس السادس عشر (٥ يوليو ١٧٨٨) نداء غير عادي على أنه أمر من أوامر مجلس الملك :

« سيحاول جلالته العمل بما يقرب من الإجراءات القديمة ، ولكن إذا لم يتيسر التحقق من هذه الإجراءات فإنه يريد أن يسد الثغرة بالتأكد من مشيئة رعاياه . . . وعليه فقد قرر الملك أن يأمر بإجراء كل البحوث الممكنة الخاصة بالأمر سالف الذكر في جميع محفوظات كل إقليم ، وأن تبلغ نتائج هذه البحوث إلى مجالس الطبقات الإقليمية ومؤتمراتها ، . . . التي بدورها

تبلغ جلالته برغباتها . . . ويدعو جلالته جميع الدارسين والأشخاص المتعاملين في مملكته . . أن يوافقوا حامل الاختتام بجميع المعلومات والمذكرات المتصلة بالشئون التي يتضمنها هذا المرسوم» (٢٨) .

وفي ٨ أغسطس دعا لويس طبقات فرنسا الثلاث أن توفد مندوبين إلى دورة لمجلس الطبقات تجتمع بفرساي في أول مايو ١٧٨٩ . ثم عطل في اليوم ذاته « المحكمة المطلقة السلطة » التي سرعان ما طراها التاريخ في زوايا النسيان . وفي ١٦ أغسطس اعترفت الحكومة بإفلاسها في الواقع ، إذ أعلنت أن التزامات الدولة ابتداء من ٣١ ديسمبر ١٧٨٩ لن تدفع كلها عملة بل يدفع بعضها ورقاً على المواطنين جميعاً أن يقبلوه عملة قانونية . وفي ٢٥ أغسطس استقال برين محم بالرضى والبراء في الوقت الذي أحرقت فيه جماهير باريس دمية تصوره . ثم اعتكف في سانس ، وهناك انتحرق في ١٧٩٤ .

٤ - عودة نكير : ١٧٨٨ - ٨٩

وطلب الملك إلى نكير على مضض أن يعود إلى الحكومة (٢٥ أغسطس) ومنحه الآن لقب الوزير ومقعداً في المجلس الملكي . وهال الجميع لهذا التعيين من الملكة والأكليروس إلى المصرفيين وعامة الشعب . وتجمع حشد في فناء قصر فرساي ليرحبوا به ، فخرج إليهم وقال لهل « نعم يا أبنائي ، أنا باق ، فاطمنوا » ووقع بعضهم على ركبهم وقبلوا يديه (٢٩) فبكى على طريقة ذلك العصر .

على أن التحلل الذي استشرى في الإدارة ، وفي الشوارع ، وفي الفكر الحكومي والشعبي ، كان قد قارب جداً حالة التحلل السياسي بحيث كان قصارى ما استطاعة نكير هو الاحتفاظ بالاستقرار حتى يجتمع مجلس الطبقات ، ثم بلفتة كريمة منه لاستعادة الثقة بالحكومة وضع ملبوني فرنك من ماله في الخزانة ، وارثن ثروته الخاصة ضماناً جزئياً لالتزامات الدولة (٣٠) . ثم ألغى الأمر الذي صدر في ١٦ أغسطس بإلزام حملة السندات بقبول

البنكنوت بدلا من النقود ، وارتفعت أسعار السندات الحكومية ثلاثين في المائة في السوق ، وقدم المصرفيون من المال للخزانة ما يكفي لتجاوز الأزمة عاما .

وعملا بنصيحة نكير دعا الملك البرلمان ثانية (٢٣ سبتمبر) . واقترح البرلمان في نشوة انتصاره خطأ التصريح بأن مجلس الطبقات القادم ينبغي أن يعمل كما عمل سابقه في ١٦١٤ - أى منعقداً بطبقات منفصلة ومصوتاً في وحدات طبقية ، وهذا كفيل بأن يصيب الطبقة الثالثة أوتوماتيا بالعجز السياسي . أما جواهر العامة التي كانت قد صدقت دعوى البرلمان بأنه يدافع عن الحرية ضد الطغيان ، فقد أدركت أن الحرية المقصودة هي حرية الطبقتين المميزتين في التسيد على الملك . وهكذا حرم البرلمان نفسه ، بانضمامه على هذا النحو إلى صف النظام الإقطاعي ، من تأييد الطبقة الوسطى القوية ، ولم بعد منذ الآن عاملاً مؤثراً في تشكيل الأحداث . وبلغ « التردد النبيل » بهذا حدوده وأنهى شوطه ، ثم أخل الآن مكانه لثورة البورجوازية .

وقد زاد مهمة نكير عسراً ما حل بالبلاد عام ١٧٨٨ من قحط انتهى بعواصف ثلجية أتلقت المحاصيل الهزيلة . وكان شتاء ١٧٨٨ - ٨٩ من أقسى ما عرفه تاريخ فرنسا ، ففي باريس هبط الترمومتر إلى ١٨° تحت الصفر الفahrenheit ، وتجمد السين تماماً من باريس إلى الهافر ، وارتفع سعر الخبز من تسعة سنتات في أغسطس ١٧٨٨ إلى أربعة عشر في فبراير ١٧٨٩ ، وبذلت الطبقات العليا قصارى جهدها للتخفيف عن الشعب ، وأنفق بعض النبلاء ، كاليدوق أورليان ، مئات الألوف من الجنيهات في إطعام الفقراء وتدفئتهم ، وتبرع رئيس الأساقفة بأربعائة ألف جنيه ، وظل دير للرهبان يطعم ألفاً ومائتي شخص يومياً على مدى ستة أسابيع (٣٢) . وحظر نكير تصدير الغلال ، واستورد منها ما قيمته سبعون مليون جنيه ، فأمكن تفادي المجاعة ، ولكنه ترك لخلفائه أو لمجاس الطبقات مهمة سد القروض التي اقترضها .

ثم أقنع الملك أثناء ذلك (٢٧ ديسمبر ١٧٨٨) بأنه يجب في مجلس الطبقات القادم أن يكون نواب الطبقة الثالثة مساوين في العدد لنواب الطبقتين الأخيرتين مجتمعين ، وذلك رغم النصيحة المضادة التي أشار بها النبلاء الأقوياء . وفي ٢٤ يونيو ١٧٨٩ أذاع على جميع أقسام فرنسا دعوة لانتخاب ممثلين لها بالتصويت . وكان كل رجل فرنسي في الطبقة الثالثة يزيد عمره على أربعة وعشرين عاماً ويدفع أى ضريبة ، من حقه — بل أنه مأمور — بأن يدلى بصوته ، وكذلك جميع المهنيين ، ورجال الأعمال ، وأعضاء الطوائف الحرفية ، أى أن جميع العامة — باستثناء المعدمين وأقفر العمال — كان عليهم أن يدلوا بأصواتهم^(٢٢) . واجتمع المرشحون الناجحون على هيئة لجنة انتخابية اختارت نائباً عن القسم . أما في الطبقة الأولى (الأكليروس) فكان كل كاهن أو خوري ، وكل دير للربان أو الراهبات ، يدلى بصوته لاختيار ممثل في الجمعية الانتخابية للقسم ، وكان رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، أعضاء في تلك الجمعية بحكم وظائفهم ، واختارت الجمعية مندوباً في مجلس الطبقات ، أما في الطبقة الثانية (الأشراف) فقد كان كل نبيل فوق الرابعة والعشرين تلقائياً عضواً في الجمعية الانتخابية التي اختارت مندوباً يمثل نبلاء قسمه . وفي باريس وحدها قصر حق التصويت على من يدفعون فريضة رؤس قدرها جنيهات أو أكثر ، وقد أسقط بذلك معظم أفراد الطبقة العاملة^(٢٣) .

ودعت الحكومة كل جمعية انتخابية في كل طبقة لوضع « كراسة بالشكاوى والمظالم » لإرشاد ممثلها . ونحست كراسات الأقسام لكل طبقة في كراسات إقليمية ، ثم قدمت هذه للملك ، كاملة أو مختصرة ، وأجمعت الكراسات كلها على إدانة الحكم المطاوع ، والمطالبة بملكية دستورية تنقيد فيها سلطات الملك ووزرائه بالقانون وبمجلس منتخب على نطاق قومي يجتمع دورياً وله وحده حق تقرير الضرائب الجديدة واعتماد القوانين الجديدة . وطلب إلى جميع النواب تقريباً عدم الموافقة على اعتماد أموال للحكومة حتى تحصل الأمة على دستور كهذا . وأدانت جميع الطبقات عدم كفاية الحكومة في شئون المال ، والمظالم المقترنة بالضرائب غير

المباشرة ، وشطط السلطة الملكية كما يتمثل في أوامر القبض الملكية . وطالب الجميع بالمحاكمة وفق نظام المحلفين ، وبسرية الرسائل ، وبإصلاح القانون . ودعا الجميع للحرية ، ولكن على طريقتهم الخاصة : فالنبلاء لاستعادة السلطات التي كانت لهم قبل حكم ريشليو ، والأكليروس والبورجوازيون للتحرر من كل تدخل للدولة ، والفلاحون للتحرر من الضرائب الظالمة والرسوم الإقطاعية . وقبل الجميع من حيث المبدأ المساواة في الضرائب على جميع أنواع الملكية . وأعرب الجميع عن الولاء للملك ، ولكن أحداً لم يذكر « الحق الإلهي » في الحكم ^(٣٤) ، فقد كان هذا الحق بإجماع الآراء في عداد الموتى .

واشترطت كراسات النبلاء أن تجتمع كل طبقة من الطبقات الثلاث في مجلس الطبقات منفصلة وتصوت بوصفها طبقة متحدة . أما كراسات الأكليروس فقد رفضت التسامح الديني ، وطلبت إلغاء الحقوق المدنية الممنوحة للبروتستانت مؤخراً . وطلبت بعض الكراسات بترك شطر أكبر من ضريبة العشر الأبرشية ، وبفتح المناصب في السلم الكهنوتي أمام جميع القساوسة على السواء . وأسفت معظم الكراسات الكنسية على ما شاب العصر من فساد أخلاق في الفن والأدب والمسرح ، وعزت هذا التدهور إلى حرية النشر المفرطة ، وطلبت بقصر الأشراف على التعليم على الأكليروس الكاثوليكي دون سواه .

أما كراسات الطبقة الثالثة فأعربت أكثر ما أعربت عن آراء الطبقة الوسطى والفلاحين الملاك . فطلبت بإلغاء الحقوق الإقطاعية ومكوس النقل ، وبفتح الطريق للمواهب لجميع الطبقات ولجميع المناصب . ونددت ببراء الكنيسة وتبطل الرهبان الغالى التكلفة . واقترحت لإحدى الكراسات على الملك إن أراد تغطية العجز أن يبيع أراضي الأكليروس وإيجاراتهم ، واقترحت كراسة أخرى مصادرة جميع الأملاك الديرية ^(٣٥) . وشكت كراسات كثيرة من العبث المنكر الذي تحدثه بالمزارع حيوانات النبلاء ومطاردتهم لصيدهم . وطلبت التعليم المجاني للجميع ، وإصلاح المستشفيات والسجون ، والقضاء المبرم على القنبة وتجارة الرقيق . وأكدت كراسة

نموذجية للفلاحين « أننا ركيزة العرش الرئيسية ، وسند الجيوش الصادق . . .
إننا مصدر الثراء للآخرين ، بينما نظل فقراء » (٣٦) .

لقد كان انتخاب مجلس الطبقات هذا ، في جملته ، لحظة نبيلة باعثة
على الفخر في تاريخ فرنسا . وكادت فرنسا البوربونيه ، ولو للحظة ، أن
تصبح ديمقراطية ، على الأرجح بنفسية من السكان تدلى بأصواتها تفوق نسبة
من يدلون بأصواتهم في إنتخاب أمريكي يجرى اليوم . وكان انتخاباً عادلاً ،
لا يشوبه التحلل الذي قد يتوقع في عملية هذه الجدة ، وواضح أنه كان أقل
فساداً من معظم الانتخابات التي أجريت في ديمقراطيات أوروبا اللاحقة (٣٧) .
ولم يحدث قط من قبل ، على قدر علمنا ، أن أصدرت حكومة من الحكومات
دعوة عريضة كهذه لشعبها لتحيطه علماً بالإجراءات ، ولتتعرف إلى شكاوى
الشعب وزغباته ، وقد أتاحت هذه الكراسيات في جملتها للحكومة نظرة
للأحوال في فرنسا أشمل من أى نظرة أتاحت لها في أى عهد قبل ذلك .
فالآن امتلكت فرنسا ، إن كانت قد امتلكت في أى عهد ، المواد المؤهلة
لفن الحكم ، والآن اختارت نخبة رجالها بمحض حريتها من كل طبقة ،
ليلتقوا بملك كان قد قام فعلاً بمقدمات شجاعة للتغيير ، وملاً الأمل فرنسا
كلها حين اتخذ هؤلاء الرجال القادمون من كل فجج الدولة سمتهم إلى باريس
وفرساي .

٥ — يدخل ميرابو

وكان أحدهم نبيلاً انتخبه العامة عن إكس — أن — برفانس ومرسليا .
وقد أصبح هذا الرجل ، أنوريه — جابرييل — فكتور ريكيتي ، كونت
ميرابو — الدميم الوجه الساحر الشخصية ، والذي تفرد بهذا الشرف الشاذ
المزدوج ، علماً مسيطراً من أعلام الثورة منذ وصوله إلى باريس (أبريل
١٧٨٩ حتى موته السابق لأوانه (١٧٩١) .

ولقد نوهنا من قبل بأبيه — فكتور ريكيتي ، مركز ميرابو — فزيوقراطية
و « صديقاً للإنسان » ، أى لكل إنسان عدا زوجته وأبنائه ، وقد وصف

فوفنارج « صديق الإنسان » هذا بأنه « ذو طبع ناري مكتئب ، أشد عتواً وتقلباً . . . من البحر ، يتسلط عليه نهم دائم للذة والمعرفة والمجد » (٣٨) .
وقد اعترف المركيز بهذا كله ، وأضاف إليه أن « الفساد الخلقى طبيعة ثانية فيه » . وحين بلغ الثامنة والعشرين صمم على أن يكتشف إن كان ممكناً أن يكتفى بامرأة واحدة ، فطلب يد ماري دفيسان ، التي لم يرها قط ، ولكنها كانت الوريثة غير المنازعة لثروة كبيرة . وبعد أن تزوجها وجد أنها امرأة سايطة رثة عاجزة ، ولكنها أنجبت له في إحدى عشرة سنة أحد عشر طفلاً ، تمنحلي الطفولة منهم خمسة . وفي ١٧٦٠ زج المركيز في « الشاتو دفانسين » بتهمة الكتابات المهيجية ، ولكن أفرج عنه بعد أسبوع . وفي ١٧٦٢ هجرته وعادت إلى ألها .

وشب ابنه البكر ، أونوريه — جابريل — وسط هذه الدراما العائلية . وقد ماتت إحدى جدتيه مجنونة ، وتعرضت إحدى شقيقاته وأحد إخوته للجنون بين الحين والحين ، ومن المعجزات أن ينجو جابريل نفسه من الجنون وهو يصارع الكارثة تلو الكارثة . وقد ولد له سنان ، وكأتهما تحذير للعالم . وحين بلغ الثالثة أصيب بالجذري الذي خلف في وجهه ندوباً ونقرأ كأنه ساحة قتال . وكان غلاماً شديداً الحيوية ، مشاكساً ، عنيداً ، وكان أبوه ، الشديد الحيوة ، المشاكس ، العنيد ، يكثر من ضربه ، فربى فيه كراهية أبيه ، وسر المركيز أن يتخلص منه بإرساله حين بلغ الخامسة عشرة (١٧٦٤) إلى أكاديمية حربية في باريس . وهناك تعلم جابريل الرياضيات والألمانية والانجليزية ، وقرأ بهم لاذ تسلطت عليه رغبة عارمة في الإتيان بجلائل الأعمال . وقرأ فولتير ففقد دينه ، وقرأ روسو فتعلم أن يتعاطف مع عامة الشعب ، وفي الجيش سرق خليعة قائدته ، واشتباك في مبارزة ، وشارك في الغزو الفرنسي لكورسيكا ، وظفر بقدر من الشناء على بسالته أشعر أباه بحبه ولو لحظة .

وحين بلغ الثالثة والعشرين تزوج ابتغاء المال بصراحة من إميلي مارنيك ، وكانت تتوقع أن ترث ٥٠٠,٠٠٠ فرنك . فولدت لجابريل ولداً ، ثم اتحدت عشيقاً ، واكتشف خيانتها ، وأخفى خيانتها ، ثم غفر لها . وتشاجر

مع رجل يدعى فلانيف ، وحطم شمسية فوق ظهره ، فاتهم بتعمد القتل ، ورغبة في تفادي القبض عليه حصل أبوه على أمر ملكي مختوم زج بمقتضاه جابريل في الشاتوديف ، القائم على جزيرة حيال مارسليا ، وطلب إلى زوجته أن تلحق به ، ولكنها رفضت ، وتبادلا رسائل فيها حق متصاعد ، انتهت بأن أقرأها « الوداع إلى الأبد » (١٤ ديسمبر ١٧٧٤) . واستدفا أثناء ذلك بمضاجعة زوجة مأمور السجن بين الحين والحين .

وفي مايو ١٧٧٥ نقل بمسمى أبيه إلى سجن أرخي في الشاتودجو ، قرب بونتارلييه والحدود السويسرية . ودعا سجنائه المسبوس دسان - موري إلى الحفلة التي فيها بصوفى دروفيه ، الزوجة ذات التسعة عشر ربيعاً للمركز ديمونييه السبعيني . وقد وجدت ميرابو أكثر إشباعاً من زوجها ، صحيح أن وجهه كان منفراً ، وشعره صوفي القوام ، وأنفه ضخماً ، ولكن عينييه كانتا متفتحتين ، وطبعه كان « ناريّاً » وكان في استطاعته أن يغوى بحديثه أي امرأة . واستسلمت له صوفي كلبية ، وفر من بونتارلييه ، ثم هرب إلى تونون في إقليم سافوا ، وهناك أغرى ابنة عم له . وفي أغسطس ١٧٧٦ لحقت به صوفي في فريير بسويسره لأن العيش بعيداً عنه كما قالت معناه « الموت ألف مرة كل يوم » (٣٩) . وأقسمت الآن « أما جابريل أو الموت ! » واقترحت أن تشغل ، لأن جابريل كان مفلساً .

فصحبها إلى أمستردام حيث استخدمه مارك ريه ، ناشر كتب روسو ، مترجماً ، وعملت صوفي سكرتيرة له ، واشتغلت بتدريس الإيطالية . وقد كتب عدة كتب صغيرة تحدث في أحاديث عن أبيه فقال « انه يعط بالفضيلة ، والبر ، والقصد ، في حين أنه أسوأ الأزواج ، وأقسى الأبناء وأكثرهم إسرافاً » (١) . ورأى ميرابو الأب في هذا خروجاً على أصول اللياقة . فاتفق مع والدي صوفي على تدبير إعادة الزوجين من هولنده ، فقبض عليهما (١٤ مايو ١٧٧٧) وجيء بهما إلى باريس . وبعد أن فشلت صوفي في محاولة الانتحار ، أرسلت إلى إصلاحية ، أما جابريل الساخط فقد زج في الشاتودفانسين ، مقتنياً في ذلك خطي أبيه وديدرو . وهناك ظل

يقضى فى السجن اثنين وأربعين شهراً . وبعد أن قضى فيه عامين سمح له بالكتب والورق والقلم والمداد ، فراح يبعث لصوفى برسائل ملؤها الإخلاص المشبوب . وفى ٧ يناير ١٧٧٨ ولدت بنتاً لهاها كانت ابنته . وفى شهر يونيـو نقلت الأم وطفلتها إلى دير فى جيان قرب أورليان .

والتس ميرابو من أبيه أن يصفح عنه ويعمل على إطلاق سراحه . وقال متوسلاً « دعنى » أرى الشمس ، دعنى أتنسم هواء أكثر حرية ، دعنى أرى وجه اخواتى البشر . اننى لا أبصر غير الجدران المظلمة . ابتاه ساموت من آلام التهاب الكلى ١ » ولكى يخفف من شقائه ويكسب بعض المال لصوفى ، ويتقى الجنون ، ألف عدة كتب ، بعضها جنسى . وكان أهمها هو « الأوامر الملكية المختومة » الذى وصف مظالم القبض دون إذن والسجن دون محاكمة ، وطالب بإصلاح السجون والقانون فلما نشر هذا الكتاب فى ١٧٨٢ باع تأثر لويس السادس عشر به مبلغاً حمداً على أن يأمر فى ١٧٨٤ بالإفراج عن جميع السجناء المعتقلين فى فانسين^(٤٢) .

وقد تراقى سجانو ميرابو به ، وبعد ١٧٧٩ سمح له بالتشـى فى حدائق الشاتو ولقاء الزوار ، ووجد فى بعض زائريه منصرفات لطافته الجنسية العارمة^(٤٣) . ووافق أبوه على أن يعمل على الإفراج عنه إذا اعتذر أزوجه واستأنف معاشرتها ، لأن المركز العجوز كان توافقاً لحفيد يواصل بقاء الأسرة . فكتب جابريل إلى زوجته يطلب الصـفـح . وفى ١٣ ديسمبر ١٧٨٠ أطلق سراحه بكفالة أبيه ، الذى دعاه إلى قصر الأسرة فى لوبنيون ، وكانت له بعض العلاقات الغرامية فى باريس ، وزار صوفى فى ديرها ، والظاهر أنه أخبرها أنه ينوى العودة إلى زوجته . ثم مضى إلى لوبنيون ، وأبهج قاب أبيه . وتلقت صوفى مالا من زوجها ، وانتقلت إلى بيت قريب من الدير ، وانهمكت فى أعمال البر ، ووافقت على الزواج من كبتن سابق فى الخيالة . ولكنه مات قبل أن يزف إليها ، فانتحرت فى الغد (٩ سبتمبر ١٧٨٩)^(٤٤) . أما زوجة ميرابو فقد رفضت لقاءه ، فأقام عليها دعوى تهـمها فيها بهجرها له ، وخسر دعواه ، ولكنه أدهش الأصدقاء والأعداء

ببلاغه مرافعته التي استغرقت خمس ساعات دفاعاً عن قضية يستحيل الدفاع عنها . وترأ منه أبوه ، فقاضاه ، وحصل منه على راتب قدره ثلاثة آلاف فرنك في السنة ، وراح يقترض المال زيجاً حياة مترفة . وفي ١٧٨٤ اتخذ خلية جديدة تدعى هنرييت نيرا . واصطحبها في رحلة إلى إنجلترا وألمانيا (١٧٨٥ - ٨٧) . وفي الطريق كانت له مغامرات غرامية عارضة ، غفرتها له هنرييت لأنه - كما قالت - « ما إن تتوودد إليه امرأة أقل تودد حتى يلتب لفوره » ^(٥) . والتقى بفردريك مرتين ، وعرف عن بروسيا ما يكفي لتأليف كتابه « في الملكية البروسية » (١٧٨٨) (من مادة زوده بها ضابط بروسى) ، وقد أهدى الكتاب لأبيه ، الذى وصفه بأنه « مصنف ضخم لعامل هائج . » وكلفه كالون برسئل سرية عن الشؤون الألمانية ، فأرسل منها سبعين أدهشت الوزير بإدراكها المرفه وأسلوبها القوى .

فلما عاد إلى باريس رأى أن سخط الشعب قارب الحماسة الثورية ، وفي رسالة إلى الوزير مونموران حذر من نشوب الثورة ما لم يجتمع مجلس طبقات الأمة قبيل عام ١٧٨٦ « انى أسأل هل حسبتم حساب قوة الجوع المزلزلة إذا تفاعلت مع روح اليأس . اننى أسأل من سيجرؤ على أن يكون مسئولاً عن سلامة جميع من يلتنون حول العرش ، أجل ، بل سلامة الملك نفسه ؟ » ^(٦) وقد طراه خضم هذا الهياج فاندفع فيه ووفق في مصالحة هشة مع أبيه (الذى مات في ١٧٨٩) . ثم رشح نفسه في اكس - أن - بروفانس لمجلس طبقات الأمة ودعا نبلاء التسم لاختياره ، فرفضوا ، فأنجه إلى الطبقة الثالثة ، التي رحبت به . وانبعث الآن من شرنتين المحافظة واتخذ له أجنحة بوصفه ديمقراطياً « أن حق السيادة كامن في الشعب وحده ، والملك لا يمكن أن يكون أكثر من القاضى الأول للشعب » ^(٧) ، وقد أراد الاحتفاظ بالملكية ، إنما حماية للشعب من الارستقراطية ، ثم دعا بالإلحاح أثناء ذلك إلى إعطاء حق التصويت لجميع الذكور البالغين ^(٨) . وفي خطاب موجه لمجلس طبقات لإقليم بروفانس هذه الطبقات المميزة بإضراب عام : « حذار من أن تحتقروا هذا الشعب الذى ينتج كل شيء ، هذا الشعب الذى لا يحتاج إلا لفرض الجمود عليه حتى يصبح رهيباً جباراً » ^(٩) .

ثم اندلع شغب بسبب الخبز في مارسليا (مارس ١٧٨٩) ، وأرسل أولو الأمر في طلب ميرابو ليهديء ثائرة الشعب لأنهم كانوا على بينة من شعبيته ، وتجمعت الجماهير في حشد من ١٢٠,٠٠٠ للتهاتف له^(٥٠) . فنظم دورية لمنع حوادث العنف . وفي « بيان لشعب مارسليا » نصبح العامة بالصبر حتى يتاح لمجلس طبقات الأمة الوقت للموازنة بين المنتجين الذين يريدون أسعاراً عالية والمستهلكين الذين يريدون أسعاراً منخفضة . وأطاعه القاثمون بالشغب . وبقوة الإقناع ذاتها هداً تمرداً نشب في إكس . وانتخبته إكس ومرسليا نائباً عنهما ، فشكر الناخبين ، وقرر أن يمثل إكس . وفي أبريل ١٧٨٩ اتخذ سمته إلى باريس ومجلس الطبقات .

٦ - التجربة الأخيرة للدراما : ١٧٨٩

واخترق بلدأ يواجه المجوعة ويجرب الثورة . ففي ربيع عام ١٧٨٩ نشب في أقسام عديدة تمرد متكرر على الضرائب وغلاء الخبز . من ذلك أن الجماهير في ليون أغاروا على مكاتب جابي الضرائب وأتلفوا سجلاته . وفي آجده ، قرب مونبلييه ، هدد الشعب بعمليات سلب ونهب شاملة ما لم تخفض أسعار السلع ، ومنعت القرى التي خشيت عجز الغلال عنوة تصديرها من الأقسام . وتحدث بعض الفلاحين عن إحراق جميع القصور الريفية وقتل أمراء الإقطاع (مايو ١٧٨٩)^(٥١) . وفي مونلري قادت النساء حشداً من الغوغاء في حملة على مخازن الغلال والخازن حين نعى إلىهن أن سعر الخبز قد زيد ، واستولين على كل ما وصلت إليه أيديهن من الخبز والدقيق ، ومثل هذا حدث في بريه — سير — سين» وبانول ، وأميان ، وفي كل مكان بفرنسا تقريباً . وفي المدينة تلو المدينة أثار الخطباء الشعب بأنائهم بأن الملك أجل دفع الضرائب كلها^(٥٢) . وسرى خلال إقليم بروفانس في شهرى مارس وأبريل نأ يقول ان « خير الملوك يريد المساواة في الضرائب ، وألا يكون بعد اليوم أساقفة ، ولا إقطاعيون ، ولا عشور ، ولا مكوس ، ولا ألقاب ، ولا امتيازات»^(٥٣) . وبعد أول أبريل ١٧٨٩ كف الناس عن دفع الرسوم الإقطاعية ، وهكذا لم يكن نزول النبلاء « التطوعى » عن

حقوقهم الإقطاعية في ٤ أغسطس عملاً من أعمال التضحية ، بل إقراراً بالأمر الواقع .

وازداد الانفعال والإثارة في باريس كل يوم تقريباً باقتراب موعد انعقاد مجلس طبقات الأمة ، فتدفقت النشرات من المطابع ورفع الخطباء عقائدهم في المقاهي والأندية وصدرت أشهر وأقوى نشرة في التاريخ بأسره في يناير ١٧٨٩ ، بقلم رجل من أحرار الفكر هو الأبيه إيمانويل — جوزف سيسيس ، الوكيل العام لأسقفية شارتر . وكان شاهفور قد كتب متسائلاً « ما الطبقة الثالثة ؟ — إنها كل شيء . وماذا تملك ؟ لا شيء » . فصاغ سيسيس هذا « الأبحر » المتفجر عنواناً جذاباً وحواله إلى ثلاثة أسئلة سرعان ما رددتها نصف فرنسا :

« ما الطبقة الثالثة ؟ كل شيء »

« إذا كانت إلى اليوم في النظام السياسي ؟ لا شيء » .

« ماذا تطلب ؟ أن تصبح شيئاً (٥٤) » .

وذكر سيسيس أنه من بين سكان فرنسا البالغين ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، ينتمي إلى الطبقة الثالثة — العامانية المجردة من الإلقاب — على الأقل ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ وهذا معناه في حقيقة الأمر أن الطبقة الثالثة هي الأمة . فإذا أبت الطبقتان الأخريان الجلوس معها في مجلس الطبقات ، كان لها العذر في أن تؤاف بنفسها « الجمعية الوطنية » . وقد حفظ التاريخ تلك العبارة فيما حفظ .

على أن الجوع كان أبلغ حتى من الكلام . فتقاطر الشحاذون والمجرمون على مراكز الإغاثة كما أقامتها في باريس الحكومة والكهنة والأغنياء ، وافدين من داخل البلاد ليأكلوا ويغاثروا بفقرهم في أفعال يائسة . وكانت الجماهير هنا وهناك تنفذ إرادتها بنفسها دون اعتداد بالقانون ، فهددت بشق أي تاجر يخفي الغلال أو يغالي في سعرها على أقرب عمود نور ، وكثيراً

ما اعترضت قوافل الغلال ونهبها قبل أن تستطيع هذه القوافل الوصول إلى السوق ؛ وكانت أحياناً تطابق على الأسواق بالغوءاء وتستولى عنوة ودون دفع الثمن على الغلة التي أتى بها الفلاحون ليبيعوها^(٥٥) . وفي ٢٣ أبريل استصبر نكير من المجلس الملكي مرسوماً يخول للقضاء والشرطة جرد مخازن الغلال الخاصة وإلزامها حيثما عز الخبز بإرسال غلالها للسوق ، ولكن هذا الأمر نفذ في تراخ . كذلك كانت صورة باريس في ربيع ذلك العام .

في هذه الجواهر الغاضبة من الدهماء تبين الدوق أورليان أداة قد تحقق له مآربه . وكان الحفيد البعيد لفايب أورليان الذي كان وصياً على عرش فرنسا (١٧١٥ — ٢٣) . وقد ولد في ١٧٤٧ ، ولقب بدوق شارتر في الخامسة من عمره ، ثم تزوج في الثانية والعشرين بلويز — ماري دبوربون بتييفر ، التي جعلته ثروتها أغنى رجل في فرنسا^(٥٦) . وفي ١٧٨٥ ورث لقب دوق أورليان ، وبعد ١٧٨٩ ، وبفضل دفاعه عن القضايا الشعبية ، عرف بقلب إيمانيه (المساواة) . وقد رأيناه يتحدى الملك في البرلمان وينتقل إلى فيلليه — كوربه . فلما عاد بعد قليل إلى باريس صمم على أن يجعل من نفسه معبود الشعب ، مؤملاً أن يختار خلفاً لابن عمه لويس السادس عشر أن اعتزل أو خلع هذا الملك الذي أزعجته الخطوب ، فسحا في عطائه للشعب ، وأوصى بتأمين أملاك الكنيسة^(٥٧) ، وفتح للجواهر حديقة البالية — رويال وبعض حجراته في قلب باريس ، وكانت له شمائل الارستقراطية الجواد وأخلاق سلفه الوصي على العرش . وقامت مربية أبنائه مدام جنليس ، همزة وصل بينه وبين ميرابو ، وكوندورسيه ، ولافايت ، وتاليران ، ولافوزيه ، وفولتي ، وسييس ، وديمولان . وقد بذل له زملاؤه من الماسون الأحرار التأييد الكبير^(٥٨) . وقام الروائي شوبرلو دلاكوا ، وكان سكرتيره ، بدور العميل له في تنظيم المظاهرات والانفاضات الشعبية . وفي الحدائق والمقاهي ، وبيوت القمار ، والمواخير القريبة من قصره كان كتاب النشرات يتبادلون الأفكار ويضعون الخطط ، هذا شارك آلاف الناس من جميع الطبقات في اضطرابات الساعة وانفجالاتها ، وأصبح البالية — رويال ، بوصفه اسماً على هذا المركب كله ، قلب الثورة النابض .

ويزعمون ، وهو زعم محتمل ولكنه ليس مؤكداً ، أن مال الدوق ، ونشاط شودرلو دلا كلو ، لعبا دوراً في تنظيم الهجوم على مصنع ريفيون في شارع سانت - أنطوان . أما ريفيون هذا فكان يتزعم ثورته الخاصة : يحل محل الرسوم والنسجيات الجدارية ورقاً رقيقاً رسمه فنانون بتقنية طورها بنفسه ، وينتج ما وصفه حجة انجليزى بأنه « أجمل ما صنع على الإطلاق من ورق الحائط بغير جدال »^(٥٩) . وقد استخدم مصنعه ثلاثمائة عامل ، كان الحد الأدنى لأجر العامل منهم خمسة وعشرين سوا (١,٥٦ دولاراً) في اليوم . وفي اجتماع لجمعية الناخبين في حي سانت - مارجریت نشب نزاع بين ناخبي الطبقة الوسطى والعمال ، وخيف أو تخفّض الأجور^(٦١) . وسرى نبأ كاذب بأن ريفيون قال « ان العامل الذى له زوجة وأولاد في استطاعته أن يعيش على خمسة عشر سوا في اليوم » . وفي ٢٧ أبريل احتشد جمع أمام منزل صاحب المصنع ، فلما لم يجدوه أحرقوا دية تمثاله . وفي اليوم الثامن والعشرين ، أغار الغوغاء بعد أن عززوا قوتهم وتسلحوا على بيته ، ونهبوه ، وأشعلوا النار في أثاثه ، وشربوا الخمر من مخزن خموره ، واستولوا على النقود والآنية الفضية . ثم انتقل القاطنون بالشعب إلى المصنع ونهبوه . وجرد الجنود لقتالهم ، فدافعوا عن أنفسهم في معركة اتصّلت عدة ساعات ، لقي فيها اثنا عشر جندياً ونيف ومائتا مشاغب مصرعهم . وأغلق ريفيون مصنعه وشد رحاله إلى إنجلترا .

كذلك كان مزاج باريس حين وصل النواب المنتخبون ومناوبوهم لحضور مجلس طبقات الأمة في فرساي .

٧ - مجلس طبقات الأمة : ١٧٨٩

في ٤ مايو تحرك النواب في موكب مهيب الاستماع إلى القداس في كنيسة القديس لويس : يتقدمهم كهنة فرساي ، ويليه ممثلو الطبقة الثالثة في ثياب سوداء ، ثم نواب الأشراف في ثيابهم الزاهية وقبعاتهم المزينة بالريش ، ثم النواب الكنسيون ، ثم الملك والملكة يحيط بهما أفراد الأسرة المالكة . وازدجم أهل المدينة في الشوارع والشرفات وأسطح المنازل ، وصفقوا

لممثل العامة ، وللملك ولدوق أورليان ، واستقبلوا بالصمت النبلاء ، ورجال الاكليروس ، والمملكة ، وكان كل إنسان (عدا الملكة) سعيداً ذلك اليوم ، لأن الأمل الذي تغلغ له الكثيرون قد تحقق . وبكى الكثيرون ، من بين النبلاء ، لمراى الأمة المنقسمة وقد بدت متحدة .

وفى ٥ مايو اجتمع النواب فى «قاعة الملامى الصغيره الضخمة ، الواقعة على نحو أربعائة ياردة من القصر الملكى . وبلغ عددهم ٦٢١ من العامة ، و ٣٠٨ من الاكليروس ، و ٢٨٥ من النبلاء (وفيهم عشرون من نبلاء الرداء) . أما النواب الكنسيين فكان نحو ثلثيهم من أصل شعبى ، وقد اختار كثيرون من هؤلاء الوقوف فى صف العامة . وكان نصف نواب الطبقة الثالثة تقريباً من المحامين ، وخمسة فى المائة من أرباب المهن ، وثلاثة عشر فى المائة من رجال الأعمال ، وثمانية فى المائة يمثلون الفلاحين^(٦٣) . ومن رجال الاكليروس أسقف أوتان ، شارل - موريس دتاليران - بيريجور ، الذى وصفه ميرابو وصفاً سبق به عبارة نابليون «الوحل فى جوارب حريرية» فقال عنه «رجل خسيس ، جشع ، سافل ، دساس ، لايشتمى غير الزحل والمال ، يبيع روحه فى سبيل المال ، وهو إن فعل كان على حق ، لأنه عندها سيأخذ الذهب بدل كومة من الروث»^(٦٤) ، ولم يكن فى هذا الوصف إنصاف لدكاء تاليران الطبع . وكان بين النبلاء عدة رجال دعوا إلى الإصلاحات الجهرية : لافايت ، وكوندورسيه ، ولا لى - تولندال ، وفيكونت نواى ، وأدواق أورليان ، وايجيون ، ولاروشفوكو - ليانكور . وقد انضم معظمهم إلى سيسيس ، وميرابو ، وغيرهم من نواب الطبقة الثالثة فى جمعية الثلاثين» التى قامت بدور الجماعة المنظمة للإجراءات البرالية» ومن أبرز نواب الطبقة الثالثة ميرابو ، سيسيس ، ومونيه ، وبارناف ، والفلكى جان بابى ، ومكسمليان روبسبير . وكان هذا الجمع فى مجموعه أبرز تجمع سياسى فى التاريخ الفرنسى ، وربما فى التاريخ الحديث بأسره . وتطلعت النفوس الكريمة فى طول أوربا وعرضها لهذا الحشد عساه أن يرفع لواء ينضوى تحته المظلومون فى كل أمة .

وافتح الملك الجلسة الأولى بخطاب موجز اعترف فيه صراحة بما
تعانيه حكومته من كرب مالى نسبه إلى « حرب غالية التكلفة ولكنها شريفة »
وطلب « زيادة في الضرائب » وأبدى الأسف على « الرغبة المغالية في التجديد » ،
ثم تبعه نكير بخطاب استغرق ثلاث ساعات واعترف فيه بعجز بلغ
٥٦,١٥٠,٠٠٠ جنيه (وحقيقة الأمر أنه بلغ ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠) وطلب الموافقة
على قرض قدره ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وتللم النواب من الإحصاءات
المرهقة للذهن ، وكان أكثرهم يتوقع من الوزير اللبرالى أن يبسط برنامجاً
للإصلاح .

ثم بدأ صراع الطبقات في الغد ، حين انفرد كل من طبقة النبلاء
والاكليروس بقاعة منفصلة وشق جمهور الشعب الآن طريقه عنوة إلى
قاعة الملامى الصغيرة ، وسرعان ما أخذ يؤثر في أصوات النواب بأعرابه
القوى — المنظم عادة — عن الاستحسان أو الاعتراض . ورفضت الطبقة
الثالثة أن تعترف بنفسها هيئة منفصلة ، وانتظرت في تصميم أن تنضم إليها
الطبقتان الأخريان ويتم التصويت عضواً عضواً . ورد النبلاء بأن التصويت
بالطبقات — أى بصوت لكل طبقة — جزء من الدستور الملكى لا يمكن
تغييره « ذلك أن إدماج الطبقات الثلاث في طبقة واحدة والسماح بالتصويت
الفردى ، فى جمعية تؤلف الطبقة الثالثة الآن نصف مجموعها وفى استطاعتها
دون عناء أن تكسب التأييد من صغار الاكليروزس هذا كله معناه تسليم
عقل فرنسا وخلقها لمجرد الكثرة العددية والإرادة البورجوازية . أما
مندوبو الاكليروس المنقسمون بين محافظين وأحرار ، فلم يتخذوا موقفاً
من الطرفين ، منتظرين أن تهديهم الأحداث إلى أفضل طريق . ومضى شهر
على هذه الحال .

وكان سعر الخبز أثناء ذلك يواصل ارتفاعه برغم محاولات نكير لضبعه ،
وخطر العنف الجماهيرى يتزايد . وتدفق فيض من النشرات ، فكتب آرثر
ينج فى ٩ يونيو يقول : « ان الحركة التجارية المتزايدة الآن فى حوانيت
باريس التى تباع النشرات لاتصدق . ولقد ذهبت إلى الباليه رويال لأرى

ما جدد نشره ولأحصل على قائمة بكل ما نشر ووجدت أن كل ساعة تلد جديداً . فقد صدر من النشرات اليوم ثلاث عشرة ، وأمس ست عشرة ، وفي الأسبوع الماضي اثنتان وتسعون . . وتسع عشرة من عشرين من هذه النشرات يناصر الحرية ، ويناوئى الاكليروس والنبلاء عادة . . . ولا يصدر أى رد عليه » (٦٥) .

وفي ١٠ يونيو أوفد نواب الطبقة الثالثة لجنة إلى النبلاء والاكليروس تكرر دعوتهم إلى اجتماع موحد ، ونصرح بأنه إذا واصلت الطبقتان الاجتماع منفصلتين فإن الطبقة الثالثة ستأخذ في التشريع الأمة بدونهم . ووقع التصديق في صراع الإرادات الجماعية في ١٤ يونيو ، حين انضم تسعة من كهنة الابريشيات إلى نواب العامة . في ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأى الابريشيات إلى نواب العامة . في ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأى رئيساً لها ، ووضعت لنفسها نظاماً للمناقشة والتشريع . وفي اليوم الخامس عشر اقترح سييس أن يطلق النواب المجتمعون في قاعة الملاهى الصغيرة — الذين يمثلون ستة وتسعين في المائة من الأمة — على أنفسهم اسم « جمعية نواب الأمة الفرنسية المعترف بهم والثابتة صحة عضويتهم . ورأى ميرابو أن العبارة فضفاضة ولا بد أن الملك سيرفضها . وبدلاً من أن يتراجع سييس ، بسط الاسم المقترح فجعله « الجمعية الوطنية » ، وكذلك تمت الموافقة على الاسم الجديد بأغلبية ٤٩١ مقابل ٨٩ صوتاً (٦٦) . وقد غير هذا الإعلان الملكية المطلقة تلقائياً إلى ملكية مقيدة ، وأنهى السلطات التي امتازت بها الطبقات العليا ، وشكل — من الناحية السياسية — بداية الثورة .

ولكن هل يقبل الملك هذا الغرض من سلطته ؟ ولكي تعطفه الجمعية الوطنية للقبول قررت أن جميع الضرائب القائمة ينبغي دفعها كالسابق إلى أن تحل الجمعية ، وبعدها لا تدفع ضرائب إلا ما أذنت به الجمعية ، وأن الجمعية ستنتظر بأسرع ما تستطيع في أسباب عجز الحيز وعلاجه ، وأنها بعد قبول دستور جديد ستتكفل بديون الدولة وتوافق على سدادها ، وقد استهدف أحد هذه القرارات تهديده القائمين بالمشغب ، وسعى آخر إلى

كسب تأييد حاملي للسندات الحكومية ، وقد وضعت كلها بمهارة لتقلل من مقاومة الملك .

واستشار لويس مجلسه . فحذره نكير من أن مجلس الطبقات سينهار ما لم تزعن الطبقتان المميزتان ، وأن الضرائب لن تدفع ، وأن الحكومة ستصبح مفلسة لا حول لها ولا قوة . واعترض وزراء آخرون بأن التصويت الفردى سيكون معناه دكتاتورية الطبقة الثالثة وإصابة طبقة النبلاء بالعجز السياسى . وقرر لويس أن يقاوم الجمعية الوطنية لأنه شعر أن عرشه يعتمد على النبلاء والأكليروس . فأعلن أنه سيبقى خطاباً على مجلس الطبقات فى ٢٣ يونيو . وقدم نكير استقالته بعد أن هزم . ولكن الملك أقنعه بالبقاء لعلمه بأن الشعب سيقاوم خطورة كهذه .

واقترضت « الجلسة الملكية » المقررة تجهيز قاعة الملاهى الصغيرة بترتيبات مادية جديدة فأرسلت الأوامر بإجراء هذه الترتيبات إلى مهرة صناع القصر دون إشعار الجمعية . فلما حاول نواب الطبقة الثالثة دخول القاعة فى ٢٠ يونيو وجدوا أبوابها مغلقة وداخلها مشغولا بالصناع . واعتقد النواب أن الملك يخطط لطردهم ، فانتقلوا إلى ملعب للتنس مجاور (وصالة ملعب التنس وأقسموا يميناً صنعت التاريخ .

« حيث أن الجمعية الوطنية دعيت لوضع دستور المملكة ، ولإحداث التجديد فى النظام العام ، ولصيانة المبادئ الصحيحة للنظام الملكى ، وحيث أنه ما من شىء يقوى على منعها من مواصلة مداولاتها فى أى مكان تضطر إلى الاجتماع فيه ، وأخيراً ، بما أنه حيثما اجتمع أعضاؤها فهناك تكون الجمعية الوطنية ، لذلك تقرر الجمعية أن يقسم جميع أعضائها يميناً مغلظة بالألا يتفرقوا ، وأن يعاودوا الاجتماع كلما دعت الظروف ، حتى يستقر حال المملكة ، ويرسئ على أسس مكيفة ، وأنه بعد حلف اليمين المذكورة سيصدق جميع الأعضاء ، وكل منهم بمفرده ، على هذا القرار الثابت بالتوقع عليه» (٦٧).

وقد وقع جميع النواب الحاضرين وعددهم ٥٥٧ نائباً وعشرون مناباً إلا اثنين ، ثم وقع فى تاريخ لاحق خمسة وخمسون آخر وخمسة قساوسة . فلما

أن ترمى نبأ هذه الأحداث إلى باريس احتشد جمع غاضب حول البالية — رويال وأقسموا على الدفاع عن الجمعية الوطنية أياً كان الثمن . وفي فرساي بات من الخطر على أى شريف أو أسقف أن يظهر في الشوارع ، وقد لقي عدد منهم معاملة خسنة ، ولم ينج رئيس أساقفة باريس بجلده إلا حين وعد بأن ينضم إلى الجمعية . وفي ٢٢ يونيو اجتمع النواب الذين أقسموا اليمين في كنيسة سان لوى ، وهناك انضم إليهم بعض النبلاء و ١٤٩ من النواب الكنسيين البالغ عددهم ٣٠٨ .

وفي ٢٣ يونيو اجتمع نواب الطبقات الثلاث في قاعة الملاهى الصغيرة ليستمعوا إلى الملك . وطوق الجنود القاعة . وتحلف نكير عن الحضور مع الحاشية الملكية على نحو واضح . وتكلم لويس فأوجز ، ثم أناب وزيراً في قراءة قراره . وقد رفض القرار دعوى النواب الذين أعلنوا أنفسهم جمعية وطنية باعتبارها غير قانونية وباطلة . وسمح باجتماع موحد للطبقات الثلاث ، وبالتصويت الفردى على المسائل التى لا تؤثر في هيكل فرنسا الطبقي ، ولكن يحظر أى عمل يمس « الحقوق القديمة والدستورية . . . للملكية ، أو الامتيازات التشريفية . . . للطبقتين الأولين » ، أما الأمور المتصلة بالدين أو الكنيسة فلا بد من أن يوافق عليها الاكليروس . وسمح الملك لمجلس الطبقات بحق الاعتراض على الضرائب والقروض الجديدة . ووعد بالمساواة في فرض الضرائب إذا وافقت عليها الطبقتان المميزتان ، وعرض أن يتلقى توصيات بالإصلاح . وينشئ مجالس اقليمية يكون التصويت فيها فردياً . ووافق على إنهاء السخرة ، والأوار الملكية المختومة ، والمكوس على التجارة الداخلية ، وكل آثار القنية في فرنسا . ثم ختم الجلسة بمظهر وجيز للسلطة :

« لو أنكم تركتمونى وحدى في هذه المغارة الكبرى فسأعمل وحيداً لرفاهية شعبي . . . وسوف أعد نفسى دون سواى الممثل الحقيقى لهم . . . ولن تصبح خطة من خططكم أو اجراء من اجراءاتكم قانوناً ما لم أوافق عليه صراحة . . . وانى آمركم بالتفرق فوراً ، وبمضى كل نائب إلى قاعة طبقته صباح غد لتستأنفوا مناقشاتكم » (٦٨) .

فلما انصرف الملك رحل معظم النبلاء وقلة من الاكليروس . وأعلن المركز بريزيه ، كبير التشريفات ، على النواب الذين بقوا أن الملك يريد الجميع أن يرحوا القاعة . ورد ميرابو رداً مشهوراً : « سيدى . . . ليس لك هنا مكان ولا صوت ولا حق في الكلام . . . فإذا كنت قد كلفت بلارغامنا على مباحة هذه القاعة ، فلا بد لك من طلب الأوامر باستعمال القوة ، . . . لأننا لن نبرح أما كننا إلا على أسنة الرماح » (٦٩) . وظهرت هذا التصريح صيحة هتف بها الجميع « هذه إرادة الجمعية » فانسحب بريزيه . وصدرت الأوامر للجنود المحلين بإخلاء القاعة ، ولكن بنص النبلاء الأحرار أقنعوهم بالابتعاد أى اجراء . فلما أنبىء الملك بالموقف قال « تباً لهم لهم ، فليمكنوا إذن » (٧٠) .

وفي ٢٤ يونيو كتب ينج في يوميته : « ان الغليان في باريس لا يمكن تصوره ، فقد كان عشرة آلاف شخص طوال اليوم في البالية رويال . . . والاجتماعات المستمرة هناك تتصل وتبلغ من التهور . وسورة الحرية درجة لاتكاد تصدأ » (٧١) . وعجزت السلطات البلدية عن حفظ النظام ، لأنها لم تستطع الاعتماد على « الحرس الفرنسيين » المحلين ؛ ذلك أن كثيرين من هؤلاء كان لهم أقرباء شرحوا لهم قضية الشعب ، وتأخى بعض هؤلاء الجنود مع الحشد المحيط بالبالية - رويال ؛ وفي فوج في باريس كانت هناك جمعية سرية أفسمت ألا تطيع أوامر مناوئة للجمعية الوطنية . وفي ٢٥ يونيو اجتمع الرجال الذين انتخبوا من قبل نواب الطبقة الثالثة عن باريس ، وعدد هؤلاء الرجال ٤٠٧ - وأحلوا أنفسهم محل الحكومة الملكية للعاصمة ، فأختاروا مجلساً بلدياً جديداً ، كله تقريباً من الطبقة الوسطى ، وترك لهم المجلس القديم مهمة حماية الحياة والأملاك . في ذلك اليوم نفسه انتقل سبعة وأربعون نبيلاً يتقدمهم دون أورليان إلى قاعة الملاهى الصغرى . وبدأ أن انتصار الجمعية أصبح الآن أكيداً ، وأن القوة وحدها هى التى تستطيع زعزعته .

وفي ٢٦ يونيو ، وبرغم معارضة نكير ، أخبر الأعضاء المحافظون في الوزارة الملك أن الجنود المحلين في فرساي وباريس لا يمكن بعد الآن الركون

إلى طاعتهم الأوامر ، وأقنعوه بأن يرسل في طلب ستة أفواج من الأقاليم .
وفي السابع والعشرين ، وتحولوا إلى نصيحة نكير ، أمر لويس وفود النبلاء
والاكليروس بالانضمام إلى باقى النواب . ففعلوا ، ولكن النبلاء أبو المشاركة
في التصويت بحجة أن تفويضهم عن دوائهم الانتخابية يمنعهم من التصويت
الفردى في مجلس الطبقات . وخلال الأيام الثلاثين التالية عاد أكثرهم إلى
ضحياتهم .

وفي أول يوليو استدعى الملك إلى باريس عشرة أفواج : معظمهم من
الألمان والسويسريين ، وفي الأسابيع الأولى من يوليو احتل ستة آلاف جندى
بقيادة المرشال برولى فرساي ، واتخذ عشرة آلاف آخر بقيسادة البارون
بزينفال مواقعهم حول باريس ، لاسيما في الشان دمارس . واعتقدت
الجمعية والشعب أن الملك يخطط لتفريقهم أو تخويفهم ، وبلغ الخوف من
القبض ببعض النواب مبلغاً جعلهم يبيتون في قاعة الملاهى الصغرى بدلاً من
العودة إلى بيوتهم إيلاً (٧٢) .

في جو الإرهاب هذا عينت الجمعية لجنة لوضع مخططات الدستور الجديد .
وقدمت اللجنة للجمعية تقريراً تمهيدياً في ٩ يوليو ، ومن ذلك اليوم أطلق
النواب على أنفسهم اسم « الجمعية التأسيسية الوطنية » . وكان الملل السائد
بين الأعضاء في جانب الملكية الدستورية . وكان من رأى ميرابو المطالبة بـ « حكومة
شبيهة بحكومة إنجلترا بوجه عام » تكون فيها الجمعية الهيئة التشريعية ، ولكنه
واصل في السنتين اللتين أفسحتا له في أجه الإلحاح على الاحتفاظ بملك
لفرنسا . وأثنى على لويس السادس عشر لما أتصف به من طيبة قلب وسماحة
مقصد يشوش عليهما أحياناً مشيروه قصار النظر ، ثم تساءل :

« هل درس هؤلاء الرجال ، في تاريخ أى شعب من الشعوب ، كيف
تبدأ الثورات وكيف تنفذ ؟ وهل لاحظوا بأى سلسلة رهيبة من الظروف
يكره أعقل الرجال على إتيان أفعال تتجاوز كثيراً حدود الاعتدال ، وبأى
دوافع خفيفة يقذف بشعب غاضب إلى ألوان من الشطط لو فكروا فيها
بجرد تفكير لارتعدت فرائصهم فرقا ؟ » (٧٣) .

وخامرت الجمعية الشك في أن ميرابو مأجور من الملك أو الملكة ليدافع عن الملكية ، ولكنها أساساً اتبعت نصيحته . وأحس النواب ، الذين كان العنصر السائد فيهم الآن رجالاً من الطبقة الوسطى ، أن جماهير الشعب أخذت تصبح عسيرة القياد إلى حد خطر ، وأن السبيل الوحيد للحيلولة دون التحالل الشامل للنظام الاجتماعى هو الإبقاء فترة على الهيكل التنفيذى الراهن للدولة :

على أنهم لم يشعروا بمثل هذا الانعطاف نحو الملكة . فقد علم أنها شاركت إيجابياً في تأييد الحزب المحافظ في مجلس الملك ، وأنها تمارس سلطة سياسية تفوق كفايتها كثيراً . وكانت خلال هذه الأشهر الحرجة قد تجلدت لثكل ربما نال من أى قدرة أوتيها على الحكم الهادئ المتعقلاً . ذاك أن ابنها البكر ، ولى العهد لويس ، كان شديد المعاناة من الكساح واعوجاج العمود الفقرى إلى درجة أعجزته عن المشى بغير معونة^(٧٤) . وفي ٤ يونيو مات . ولم تعد ماري أنطوانيت التى حطمها الحزن والخوف تلك المرأة الفاتنة التى كانت تفرح طوال سننى الحكم الأولى . وباتت وجنتها شاحبتين نحيلتين ، وأخذ الشيب يتسلل إلى شعرها ، وشاب الحزن بسماتها وهى تذكر أياماً أسعد ، ثم أرق مضجعها وعيا بحشود الدهماء تلعن اسمها في باريس وتحمى الجمعية في فرساي وترهبها .

وفي ٨ يوليو وافقت الجمعية على اقتراح ميرابو يطلب إلى الملك أن ينقل من فرساي جنود الإقليميين الذين جعلوا من حدائق لنوتر معسكراً مسلحاً ، ورد لويس بأنه ليس هناك أذى مقصود بالجمعية ، ولكن في ١١ يوليو أفصح عن سطوته بإقالته نكير وأمره بمغادرة باريس فوراً . تقول مدام دستال مستحضره ذلك الحدث « وتقاطرت باريس كلها لتزوره في الساعات الأربع والعشرين التى سمح له بها الاستعداد لرحلته . . . وأحال الرأى العام عاره انتصاراً »^(٧٥) . ثم رحل هو وأسرته في هدوء إلى الأراضى المنخفضة . أما الذين أيدوه في الوزارة فأقبلوا معه . وفي ١٢ يوليو ، وفى استسلام كامل لدعاة استخدام القوة ، عين لويس صديق الملكة ، البارون دبروتوى ، خلفاً لنكير ، وعين دبرولى وزيراً للحربية . وبدأ أن الجمعية وثورتها الوليدة مفضى عليهما قضاء مبرما .

ولكن الإنقاذ جاءهما من شعب باريس .

٨ - إلى الباستيل

كانت عوامل كثيرة تحمل الجماهير على الانتقال من الغليان إلى مرحلة العمل . فقد كان سعر الخبز قضية متيرة لحفيظة ربات البيوت ، وانشدت الشبهة في أن بعض تجار الجملة يحبسون الغلال عن السوق طمعاً في أسعار أعلى حتى مما وصلت إليه^(٧٦) . وأرسلت السلطات البلدية الجديدة الجند لحماية المخازن مخافة أن يفضي الجوع إلى النهب العشوائي . وكانت القضية التي تؤرق الباريسيين علمهم بأن الأفواج التي في خارج المدينة ، والتي لم يتسن بعد كسب تأييدها لقضية الشعب ، تهدد الجمعية والثورة . وقد بالغ غضب الجماهير وخوفهم أثر سقوط نكير المفاجيء - وهو الرجل الوحيد في الحكومة الذي كان الشعب قد وثق به - نقطة كفت عندها كلمة واحدة لتثير ردأً عنيفاً . ففي ١٢ يوليو وثب كامي ديمولان ، وكان أحد خريجي مدارس اليسوعيين ولكنه أصبح الآن محامياً متطرفاً في التاسعة والعشرين من عمره ، فوق مائدة خارج « الكافية دافوا » على مقربة من البالية - رويال وندد بأقالة نكير باعتبارها خذلاناً للشعب ، وصاح « إن الألمان (الجند) في الشان دمارس سيدخلون باريس الليلة لينهبوا سكانها ! » ثم لوح بعطينة وسيف وهتف « إلى السلاح ! »^(٧٧) . وللتو تبعه فريق من السامعين إلى ميدان فاندوم يحملون تماثيل نصفية لنكير والدوق أورليان ، وهناك أكرههم بعض الجند على الفرار ، ثم تجمع في المساء حشد في حدائق التويلري ، فهاجمهم فوج من الجند الألمان ، فقاوموهم بالقوارير والحجارة ، فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين ، وبعد أن تفرقوا عادوا إلى التجمع في الأوتيل ديفيل ، وشقوا طريقهم إليه عنوة ، واستولوا على ما وجدوه من سلاح . وانضم الشحاذون والمجرمون إلى القائمين بالشعب ، ثم انقض الجميع على عدة بيوت ونهبوها .

وفي ١٣ يوليو تجمع الحشد مرة أخرى ، ودخلوا دير سان - لازار . واستولوا على مخزونه من الغلال وحملوه إلى السوق في لي هال ، وفتح

حشد آخر سجن لا فورس وأطلق سراح السجناء وكان أكثرهم من المدنيين وراح أفراد الشعب يفتشون عن البنادق في كل مكان ، فلما لم يجدوا منها إلا القليل ، صنعوا خمسين ألف حربة ^(٧٨) . وخافت الطبقات الوسطى في باريس على بيوتها وممتلكاتها ، فألفت ميليشيا خاصة بها وساحتها ، وفي الوقت نفسه واصل الأغنياء تشجيع الجماهير الثائرة وتمويلها وتسليحها لعل هذا أن يثنى الملك عن استعمال القوة مع الجمعية ^(٧٩) .

وفي صباح ١٤ يوليو الباكر أغار حشد من ثمانية آلاف رجل على الأوتيل ديزنفاليد ، واستولوا على ٣٢,٠٠٠ بندقية ، وبعض البارود ، واثنى عشرة قطعة من المدفعية . وفجأة صاح أحدهم « إلى الباستيل » . ولكن لم الباستيل بالذات ؟ لا لإطلاق سراح سجنائه ، الذين لم يتعدوا السبعة ، فضلاً عن أنه كان بوجه عام منذ ١٧١٥ يستعمل مكاناً لحبس راق لسراة القوم . غير أن هذه القلعة الضخمة التي بلغ ارتفاعها مائة قدم وسمك أسوارها ثلاثين قدماً والتي أحاط بها خندق عرضه خمسة وسبعون قدماً ظلت أمداً طويلاً رمزاً للاستبداد . وكانت ترمز في ضمير الشعب إلى مئات السجون والزنزانات الخفية ، وكان بعض الكراسيات قد طالب بتدميرها . ولعل ما أثار الجمع علمهم بأن الباستيل قد صوب بعض المدافع إلى شارع وضاحية سانت - أنطوان ، وهي حتى يغلب بالمشاعر الثورية . وربما كان أهم من هذا كله ما قيل من أن الباستيل احتوى مخزناً ضخماً من السلاح والذخيرة ، لا سيما البارود ، ولم يملك الثوار منه إلا القليل . وكان في القاعة حامية قواها اثنان وثمانون جندياً فرنسياً واثنان وثلاثون من الحرس السويسري ، بقيادة المركز داوني ، وكان رجلا لين الطبع ^(٨٠) . ولكن ذاع عنه بين الجماهير أنه وحش غليظ القلب ^(٨١) .

وبينما كان الجمع الذي تألف أكثره من الباعة والصناع يتجه صوب الباستيل استقبل داوني وفداً من المجلس البادي . طلب إليه سحب المدافع المهددة من مواقعها ، وألا يتخذ أى إجراء عدائى نحو الشعب ، ووعد نظير ذلك باستخدام نفوذه لثنى الجمع عن مهاجمة الحصن . ووافق القائد ، واستضاف الوفد تناول طعام الغداء ، وتلقت لجنة أخرى أوفدها المحاصرون

أنفسهم تعهداً من دلوئي ألا يطلق جنوده النار على الشعب ما لم تكن هناك محاولة لاختحام الحصن عنوة . ولكن هذا لم يرض الجميع الهائج ، فقد كان مصمماً على الاستيلاء على الذخيرة التي لا يستطيع بنادقه بدونها أن تقاوم الزحف المنتظر من جنود بزنغال الأجانب على المدينة ، على أن بزنغال لم يكن محريصاً على الزحف إلى داخل باريس إذ يخافه الظن بأن جنوده سرفضون إطلاق النار على الشعب . لذلك انتظر الأوامر من دبرولي ، ولكن شيئاً منها لم يصله .

ومحاولي الواحدة بعد الظهر تساق ثمانية عشر من الثوار سور بناء مجاور ، ووثبوا إلى داخل القناء الأمامي للباستيل ، وأنزلوا كوبريين متحركين ، فعبث المئات فوق الخندق ، وأنزل كوبريان آخران ، وسرعان ما امتلأ القناء بجمع متحفز واثق من نفسه . فأدركهم دلوئي بالانسحاب ، فأبوا ، وعليه فقد أصدر أمره لجنوده بإطلاق النار عليهم . ورد المهاجمون على النار وأشعلوا النيران في بعض الأبنية الخشبية والملاحقة الأسوار الحجرية . ومحاولي الثالثة انضم أفراد من الحرس الفرنسيين المنطرفين إلى المحاصرين ، وأنخلوا يقصفون الحصن بخمسة من المدافع التي استولت عليها الجماهير ذلك الصباح من الأوتيل ديزنفاليد . وبعد أربع ساعات من القتال لقي ثمانية وتسعون من المهاجمين وواحد من المدافعين مصرعهم . أما دلوئي فعين رأى الجمع لا يفتأ يزداد عدداً بوصول امداد جديدة ، وإذ لم تصابه كرامة تعده بالعون من بزنغال ، ولم يكن لديه مؤونة من الطعام تثبت للحصار ، فقد أمر جنده بالكف عن إطلاق النار ورفع علم أبيض . ثم عرض الاستسلام إذا سمح لجنوده بالخروج بسلاحهم آمنين ، فرفض الجمع الذي هاجمه منظر قتلاه النظر في أي شيء غير التسليم دون قيد أو شرط (٨٢) . وأراد داروي نصف الحصن فنهجه رجاله . وعليه أرسل إلى المهاجمين أسفل الحصن مفتاح المدخل الرئيسي . واندفع الجمع ، وجردوا الجنود من سلاحهم ، وقتلوا ستة منهم ، وقبضوا على دلوئي ، وأطلقوا سراح السجناء المذهولين .

وبينما كان كثير من المنتصرين يستولون على ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وذخيرة ، قاد فريق من الجمع دلوئي إلى الأوتيل ديفيل توطئه لاحتكمته

فما يبدو على جريمة القتل : رفى الطريق أوقفه المتحمسون منهم وأوقعوه أرضاً ، وأوسعوه ضرباً حتى مات ، ثم قطعوا رأسه ، واخترقوا شوارع باريس فى عرض ظافر وهم يحملون هذه الغنيمة الدامية مرفوعة عالياً فوق حرية .

فى عصر ذلك اليوم عاد لويس السادس عشر إلى فرساي من رحلة صيد قضى فيها نهاره ، ودون فى يوميته هذه الملاحظة « ١٤ يوليو : لا شىء » فلما وصل الدوق دلا روشكوكو — لا نكور قادماً من باريس أنبأه نبأ الهجوم الناجح على الباستيل ، وقال الملك مندهشاً « ماذا ، هذا تمرد ! » وأجاب الدوق « لا يا مولاي ، إنها ثورة » .

وفى ١٥ يوليو ذهب الملك إلى الجمعية فى تواضع وأكد لها أن الجنود الإقليميين والأجانب سيعدون عن فرساي وباريس ، وفى ١٦ يوليو أقال يروتوى واستدعى نكير لوزارة ثالثة ، وبدأ بروتوى وأرتوا ودبرولى وغيزهم من النبلاء حركة نزوح المهاجرين عن فرنسا ، ودمرت الجماهير أثناء ذلك الباستيل بعد أن تسلمت بالمعاول والبارود . وفى ١٧ يوليو ذهب لويس إلى باريس يرافقه خمسون من الجمعية ، واستقبله المجلس البلدى والشعب فى الأوتيل دفييل ، وثبت على قبعته شارة الثورة الحمراء البيضاء الزرقاء .

ختام

وهكذا نختتم فى هذين المجلدين الأخيرين مسحة للقرن الذى مازالت صراعاته وإنجازاته فعالة اليوم فى حياة البشر . لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التى قد تحقق — قبل أن نصل إلى الألف الثانى للميلاد — حلم أرسطر بالآلات التى تحرر البشر من كل عناء يدوى ، ولقد سجلنا المراحل التى سخطها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها . ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل فى شئون البشر الدنيوية . ولقد تبعنا باهتمام حى محاولة تحرير الدين من الشعوذة والتعصب الأعمى وعدم التسامح ، وتنظيم الأخلاقية

دون استعانة بالشواب والعقاب السماويين ؛ ولقد عامتنا جهود السياسة والفلسفة أن نقيم حكومة عادلة قادرة ، وأن نوفق بين الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية . ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجبال في الباروك ، والفن الكلاسيكي المحدث . وانتصارات الموسيقى في باخ ، وهندل ، وفيفاالدى وفي جلوك ، وهایدن ، وموتسارت . ولقد شهدنا ازدهار الأدب في ألمانيا على يد شيلر وجوته ، وفي إنجلترا على يد فحول الروائيين وأعظم المؤرخين ، وفي أسكتلنده على يد بوزويل وبيرنز ، وفي السويد بتفجير الأغنية في عهد جوستاف الثالث ؛ وفي فرنسا تردنا بين فولتير ، منافحاً عن العقل والذكاء وبين روسو مدافعاً بالدعوى عن حقوق الوجدان . ولقد سمعنا الصحفي الذي عاش عليه جاريك وكليرون ، وأعجبنا بسلسلة من النساء الفاتنات في صالونات فرنسا وإنجلترا ، وملك النساء المتألق في النمسا وروسيا . ثم راقبنا الملوك الفلاسفة .

وقد يبدو من السخف أن ننهي قصتنا في اللحظة التي أوشك الكثير جداً من الأحداث على بث الحياة ونفخ الروح في هذه الصفحات . وما كان أسعدنا لو أتيح لنا الزحف خلال ضجيج الثورة وعجيجها ، ثم فحسنا ذلك التفجير البركاني للطاقة المعروف بنابليون ، واستمتعنا أتما استمتاع بثورة القرن التاسع عشر في الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والموسيقى ، والفن ، والتكنولوجيا ، والحكم . وكان يهيجنا أكثر لو عدنا إلى وطننا أمريكا ، جنوبها وشمالها ، وحاولنا أن ننسج قطعة النسيج المعقدة ، نسيج الحياة والتاريخ الأمريكيين في صورة واحدة متماسكة متحركة . بيد أنه لا بد لنا أن نروض أنفسنا على تقبل فكرة الفناء ، وأن نترك لعقول أنضر القيام بمهمة ومغامرة . هما إضافة تجارب في التأليف والتركيب إلى البحوث الأساسية التي قام بها الإخصائيون التاريخيون والعلميون .

لقد آتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ، ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل ، فلإننا علمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ ، وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين

يطمو نهر المعرفة ويتعظم . غير أننا ونحن نابع درستنا من قرن إلى قرن ،
ازددنا يقيناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً ،
وأنة يبدئنا لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ ممكلاً ، كما كان يعاش ، في جميع
وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ .
وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد . والآن وقد أقبل
هذا اليوم فلننا عليمان بأننا سنفتقد الهدف الممنوع الذي أضفى على حياتنا
معنى وانبهاها ،

ولننا لشاكران للقارئ الذي صاحبتنا هذه السنين الكثيرة بعض الرحلة
الطويلة أو كلها . لقد كنا على الدوام واعين بحضوره . والآن نستأذنه في
الرحيل ونقرئه تحية الوداع ،



المراجع

19. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 73.
20. Mantoux, 439; Smith, 60.
21. Ashton, 203.
22. Mantoux, 70.
23. Arthur Young in Turberville, *Johnson's England*, I, 218.
24. Müller-Lyer, F., *History of Social Development*, 221.
25. Mantoux, 420.
26. *Ibid.*, 421.
27. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 313.
28. Webb, Sidney and Beatrice, *History of Trade Unionism*, 51.
29. Ashton, 235.
30. Traill, H. D., *Social England*, V, 336.
31. Mantoux, 411.
32. *Ibid.*, 413.
33. 413.
34. Lecky, *History of England*, III, 135-36.
35. Smith, *Wealth of Nations*, I, 59.
36. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 89.

CHAPTER XXVIII

1. George, M. D., *England in Transition*, 218 f.
2. *Ibid.*, 219.
3. 218.
4. Namier, *Structure of Politics at the Accession of George III*, 80.
5. New CMH, VII, 145.
6. Lecky, *History of England*, III, 171.
7. Wilson, P. W., *William Pitt the Younger*, 6.
8. Plumb, J. H., *Men and Places*, 22.
9. Namier, *Structure of Politics*, 77-79.
10. *Ibid.*, 150.
11. Lecky, III, 171.
12. Blackstone, Sir W., *Commentaries on the Laws of England*, 17 (p. 50 of orig. ed.).
13. Namier, *Crossroads of Power*, 133.
14. Thackeray, *The Four Georges*, 62.
15. Cf. Butterfield, *George III and the Historians*, 175; Morley, John, *Burke: a Historical Study*, 9.
16. Lecky, III, 11; Namier in *History Today*, September, 1953, p. 615.
17. Watson, J. S., *The Reign of George III*, 6.
18. *Age of Voltaire*, Ch. iii, Sec. ix; present volume, Ch. ii, Secs. ii, iv.
19. Walpole, Horace, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 331.
20. Burke, Edmund, speech on American Taxation, in *Speeches and Letters on American Affairs*, 28.
21. Burke, *Vindication of Natural Society*, 9.
22. *Ibid.*
23. 12-13.
24. 20.

CHAPTER XXVII

1. Shakespeare, *Richard II*, Act II, Sc. i.
2. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 130.
3. Namier, Sir Lewis, *Crossroads of Power*, 175.
4. Ashton, T. S., *Economic History of England*, 179.
5. Watson, J. S., *Reign of George III*, 28.
6. Nussbaum, 73.
7. Hammond, J. L. and Barbara, *The Village Labourer*, 17.
8. Usher, A. P., *An Introd. to the Industrial History of England*, 323.
9. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 79.
10. Mantoux, Paul, *The Industrial Revolution in the 18th Century*, 258.
11. Samuel Smiles, *Lives of the Engineers*, in *History Today*, April, 1956, 263.
12. *Ibid.*, 263, 265.
13. *The Age of Voltaire*, 517.
14. Mantoux, 326.
15. Usher, *Introd. to Industrial History*, 326.
16. Boswell, *Life of Johnson*, 598.
17. Lipson, E., *Growth of English Society*, 190.
18. Mantoux, 385; George, *London Life*, 206-7.

25. 22.
26. 44.
27. 21.
28. 48.
29. 50.
30. Morley, John, *Burke*, 13.
31. *Vindication*, 4 (preface).
32. Burke, *On Taste, and On the Sublime and Beautiful*, 45 f.
33. *Ibid.*
34. 93.
35. 95.
36. Macaulay, *Essays*, I, 454.
37. Morley, *Burke*, 30.
38. *Ibid.*, 104.
39. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 141.
40. Stephen, Sir Leslie, *History of English Thought in the 18th Century*, I, 222.
41. *Parliamentary History*, XXXVII, 363, in Buckle, H. T., *An Introd. to the History of Civilization in England*, I, 327.
42. Piozzi, Hester Thrale, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 138.
43. Morley, *Burke*, 107.
44. In *Cambridge History of English Literature*, XI, 9.
45. *Enc. Brit.*, XI, 644d.
46. Moore, Thomas, *Memoirs of the Life of Sberidan*, I, 78.
47. Drinkwater, John, *Charles James Fox*, 9, 11.
48. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 277.
49. Thackeray, *Four Georges*, 87.
50. *Enc. Brit.*, IX, 568b.
51. Drinkwater, 195.
52. Walpole, Horace, *Letters*, Feb. 4, 1778.
53. Lecky, III, 468.
54. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 54.
55. National Gallery, London; Dulwich College; National Gallery, Washington.
56. Moore, *Sberidan*, I, 17.
57. *The Rituals*, Act I, Sc. ii.
58. *Ibid.*, III, iii.
59. In Taine, H., *English Literature*, 355.
60. *Enc. Brit.*, XVII, 973b.
61. Wilson, P. W., *William Pitt*, 58.
62. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 75.
63. Walpole, letter of Oct. 31, 1760.
64. Laski, Harold, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 144.
65. Butterfield, *George III*, 173.
66. Lecky, III, 61.
67. Macaulay, *Essays*, I, 431.
68. Wilson, *William Pitt*, 44.
69. Gibbon, Edward, *Journal*, 145.
70. *Enc. Brit.*, XXIII, 602b.
71. *Ibid.*
72. Sherwin, *A Gentleman of Wit and Fashion: The Life and Times of George Selwyn*, 27-53.
73. Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 140.
74. Walpole, *Memoirs of Reign of George III*, I, 248.
75. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
76. Walpole, *Reign of George III*, I, 263.
77. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica and France*, 5.
78. Walpole, *Reign of George III*, III, 239.
79. Lecky, III, 151.
80. S. MacCoby, ed., *The English Radical Tradition*, 2.
81. Lecky, III, 175-76.
82. *Ibid.*, 152.
83. MacCoby, 2.
84. Lecky, III, 153.
85. Junius, *Letters*, 3-6.
86. Junius, letter of Nov. 29, 1769.
87. *Letters*, pp. 134, 148.
88. *Ibid.*, p. 29.
89. Lecky, II, 468.
90. Walpole, *Reign of George III*, IV, 78; Lecky, III, 143.
91. MacCoby, 31.
92. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
93. *CMH*, VIII, 714.
94. Lecky, III, 268.
95. *Ibid.*, 300.
96. Watson, *Reign of George III*, 174.
97. Ashton, 158; Traill, V, 115.
98. Hanimond, J. L. and Barbara, *Rise of Modern Industry*, 32.
99. Lecky, III, 299.
100. Drinkwater, 94.
101. *CMH*, VIII, 521.
102. Lecky, III, 331.
103. Beard, Charles and Mary, *Rise of American Civilization*, I, 212.
104. Peterson, Houston, *Treasury of the World's Great Speeches*, 102-22.
105. Lecky, III, 530.
106. *Ibid.*, 531.
107. 545.
108. Peterson, 143-46.
109. *CHÉ*, IX, 6.
110. Sherwin, 205.
111. Burke, *Speeches and Letters on American Affairs*, 84.
112. *Ibid.*, 118-19.
113. Drinkwater, 145.
114. Walpole, letter of Sept. 11, 1775.
115. Lecky, IV, 82.
116. Churchill, Sir Winston, *History of the English-Speaking Peoples*, II, 116.
117. Lecky, IV, 221.
118. Namier, *Crossroads*, 130.
119. *Enc. Brit.*, V, 833d.
120. Namier, *Crossroads*, 164.
121. Walpole, letter of Mar. 5, 1772.
122. Lecky, III, 491.
123. *CMH*, VI, 570.
124. *Ibid.*, 572.

125. 578-80.
126. Walpole, letter of Mar. 2, 1773.
127. Wilson, *William Pitt*, 171.
128. Morley, *Burke*, 33; Narnier, *Crossroads*, 165-67.
129. Watson, *Reign of George III*, 319.
130. Morley, *Burke*, 125.
131. G. G. S., *Life of R. B. Sheridan*, 113.
132. Macaulay, *Essays*, I, 633.
133. Peterson, *Great Speeches*, 179.
134. Gibbon, *Memoirs*, 334.
135. Macaulay, I, 644.
136. Burke, *Observations on the State of the Nation* (1769), in Lecky, V, 335n.
137. Burke, speech on "Relief of Protestant Dissenters" (1773), in Morley, *Burke*, 69.
138. Wilson, *William Pitt*, 226.
139. Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 279.
140. Lecky, V, 449; Wilson, 235.
141. Burke, *Reflections on the French Revolution*, 8.
142. *Enc. Brit.*, IV, 418c.
143. Burke, *Reflections*, 33.
144. *Ibid.*, 18 f.
145. 36.
146. 73.
147. *Enc. Brit.*, IV, 418d.
148. *CHE*, X, 285.
149. Morley, *Burke*, 179.
150. *Ibid.*, 15.
151. Burke, *Reflections*, 93.
152. *Ibid.*, 6.
153. *CHE*, XI, 11.
154. *Letter to a Member of the National Assembly*, in *Reflections*, 279.
155. Burke, 87.
156. Lecky, III, 218-19; Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 251-52; Laski, 159, 171.
157. Laski, 147.
158. Sherwin, *Selwyn*, 275.
159. Taine, *English Literature*, 416.
160. Wilson, 325.
161. G. G. S., *Life of Sheridan*, 155.

CHAPTER XXIX

1. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, Mar. 12, 1827.
2. Lecky, *England in the 18th Century*, VI, 139.
3. Quennell, *Everyday Things*, 93.
4. George, *London Life*, 103.
5. Quennell, 90.
6. George, 26.
7. Boswell, *Hebrides*, 31.
8. Lecky, VI, 153.
9. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 128.
10. Boswell, *Life of Johnson*, I, 781.
11. Sherwin, *George Selwyn*, 34.
12. *Ibid.*, 125.
13. Drinkwater, *Charles James Fox*, 13.
14. Lecky, VI, 152.
15. Boswell, *Johnson*, 978.
16. *Age of Voltaire*, Ch. ii, Sec. vi.
17. *Wealth of Nations*, II, 276.
18. Stephen, *English Thought*, I, 421.
19. Besant, *London*, 282-83.
20. Sherwin, 288.
21. *Vicar of Wakefield*, Ch. xxiv.
22. Boswell, *Johnson*, 338.
23. Lecky, VI, 268; Drinkwater, 131.
24. Lecky, VI, 269.
25. Boswell, *Johnson*, 846.
26. Walpole, Mar. 22, 1780.
27. *CMH*, VI, 187.
28. Buckle, *An Intro. to the History . . . of England*, I, 321n.
29. George, *London Life*, 135.
30. Botsford, J. B., *English Society in the 18th Century*, 332 f.
31. Blackstone, *Commentaries*, 118-19.
32. *Enc. Brit.*, XX, 780a.
33. *Ibid.*, 780d.
34. Fay, Bernard, *Franklin*, 77.
35. Mowat, *Age of Reason*, 61.
36. Quennell, 9.
37. Watson, P. B., *Some Women of France*, 77.
38. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, IV, 158.
39. Boswell, *Johnson*, 597.
40. Burke, *Reflections*, 86.
41. Boswell on the *Grand Tour: Italy . . .*, 184.
42. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 206.
43. Boswell in Holland, 62.
44. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, V, 554.
45. Fay, *La Franc-Maçonnerie*, 273.
46. *Age of Voltaire*, pp. 528, 580.
47. Cowper, *The Task*, ii, lines 378-94.
48. Stephen, *English Thought*, II, 375.
49. Walpole, June 3, 1780.
50. Walpole, June 7, 1780.
51. June 16, 1780.
52. Lecky, V, 189.
53. Sir F. D. McKinnon, in Turberville, *Johnson's England*, II, 289.
54. Bentham, Jeremy, *A Fragment on Government*, 22.
55. Blackstone, *Commentaries*, Vol. I, p. 3.
56. *Commentaries* (orig. ed.), Book I, Ch. vii.
57. *Commentaries* (1914 ed.), Vol. II, p. 129.
58. Lecky, VI, 261.
59. *Ibid.*, 255-58; Turberville, I, 17-21; Johnson, *The Idler*, Jan. 6, 1759.
60. Besant, *London*, 608.
61. Bentham, *Fragment*, 10.
62. *Ibid.*

63. Ch. iv, No. 20.
64. Bentham, *Fragment*, 3.
65. *Ibid.*, 56.
66. *Age of Voltaire*, 139, 149, 529, 687.
67. Mack, M. P., *Jeremy Bentham*, 102-5.
68. Bentham, *Introduction to Principles of Morals and Legislation*, 189.
69. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 127.
70. Davidson, W. L., *Political Thought in England: The Utilitarians*, 26.
71. Turberville, II, 178.
72. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, V, 388.
73. Krutch, *Samuel Johnson*, 272.
74. Barron, Margaret, *Garrick*, 53.
75. *Ibid.*, 59.
76. 50.
77. Burney, Fanny, *Diary*, 12.
78. Hawkins, Sir John, *Life of Samuel Johnson*, 189.
79. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 282.
80. Johnson, Samuel, *Works*, I, 196.
81. Krutch, 37.
82. George, *London Life*, 288.
83. *Boswell: The Ominous Years*, 118.
84. Turberville, I, 195.
85. George, *London*, 171.
86. *Ibid.*, 24.
87. Turberville, I, 171.
88. *Boswell's London Journal*, 81.
89. Boswell, *Johnson*, 733.

CHAPTER XXX

1. Geiringer, *Haydn*, 95.
2. *Ibid.*, 103.
3. Burney, Charles, *History of Music*, II, 868.
4. Walpole, June 23, 1789.
5. National Portrait Gallery, London.
6. Burney, II, 9.
7. Sherwin, *Selwyn*, 110.
8. Lewis, W. S., *Horace Walpole*, 107.
9. Turberville, II, 110.
10. Dillon, *Glass*, 299.
11. Samuel Smiles in Mantoux, *Industrial Revolution*, 385.
12. London, Royal Academy of Arts.
13. Turberville, II, 10.
14. *Ibid.*, 91.
15. Wilson, *William Pitt*, 97.
16. Collection of Lady Ford.
17. Greenwich, Eng., National Maritime Museum.
18. London, National Gallery. (Unallocated pictures are in private collections.)
19. National Portrait Gallery.
20. *Ibid.*
21. Reynolds, Sir Joshua, *Portraits*, 110.
22. National Portrait Gallery.
23. *Ibid.*

24. San Marino, Calif., Huntington Art Gallery.
25. Waterhouse, *Reynolds*, 110.
26. *Ibid.*, 127.
27. 79.
28. 87.
29. 63.
30. 267.
31. 291; London, National Gallery.
32. Waterhouse, 57.
33. Wallace Collection, London.
34. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 3.
35. Wilenski, R. H., *English Painting*, 150.
36. Reynolds, *Portraits*, 167.
37. Boswell, *Johnson*, 651.
38. National Portrait Gallery.
39. Royal Academy of Arts.
40. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 78 (Discourse vi), 8 (1).
41. *Ibid.*, 7 (1).
42. 14 (II).
43. *Ibid.*
44. 30 (III).
45. *Ibid.*
46. 264 (XV).
47. Wilenski, 113.
48. Allan Cunningham in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 789.
49. Gillet, Louis, *La Peinture, XVII^e et XVIII^e siècles*, 416.
50. Washington, National Gallery.
51. Edinburgh, National Gallery.
52. Millar, Oliver, *Thomas Gainsborough*, 11.
53. Clark, B. H., *Biographies*, 796.
54. Craven, Thomas, *Treasury of Art Masterpieces*, 214.
55. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 230 (xiv).
56. Waterhouse, *Gainsborough*, 36.
57. Pijoan, Joseph, *History of Art*, III, 479.
58. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 227 (xiv).

CHAPTER XXXI

1. Lecky, *England in the 18th Century*, IV, 314.
2. *New CMH*, VIII, 28.
3. *Ibid.*, 714.
4. Lecky, IV, 317.
5. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 545; *Enc. Brit.*, X, 659d.
6. Favé, *La Franc-Maçonnerie*, 399.
7. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 70.
8. Johnson, *Works*, II, 271, 345.
9. Boswell, *Hebrides*, 135.
10. *Enc. Brit.*, XX, 169d.
11. Snyder, F. B., *Life of Robert Burns*, 189.
12. *Age of Voltaire*, 184.
13. *Ibid.*, 507-86.
14. 586-602.
15. 139-61.
16. Reid, Thomas, *Works*, I, 7, 81, 91.

17. *Ibid.*, 12.
18. 106.
19. Hume, David, *Treatise of Human Nature*, I, 254.
20. Reid, *Works*, 423.
21. Boswell's Journal, Sept. 16, 1769 (*Boswell in Search of a Wife*, 293).
22. London National Portrait Gallery.
23. Edinburgh National Gallery.
24. Private Collection.
25. Carlyle, *Schiller*, 103.
26. Walpole, July 11, 1759.
27. Gibbon, *Memoirs*, 122.
28. Stewart, Dugald, *Life of Robertson* (1811), 305.
29. Gibbon, *Memoirs*, Appendix 22, p. 296.
30. Black, *Art of History*, 15.
31. Brandes, *Goethe*, I, 84.
32. See *The Age of Faith*, 498.
33. Thomson, Derick, *The Gaelic Sources of Macpherson's "Ossian,"* 4-5, 80.
34. Macpherson, James, *Poems*, 40 (*Fingal*, Book I).
35. *Ibid.*, 49, 52, 54.
36. 415-16.
37. Johnson, *Works*, XII, 375; Boswell, *Heb-rides*, 163.
38. Boswell, *Johnson*, 496.
39. Thomson, Derick, 16 f.
40. Buckle, *ib.*, 347.
41. Smith, Adam, *Moral and Political Philosophy*, 75.
42. *Ibid.*, 255.
43. 191.
44. Laski, *Political Thought in England*, 99, 101, 188; see also *Age of Voltaire*, 155.
45. Smith, *Wealth of Nations*, II, 107.
46. *Ibid.*, 113.
47. 121.
48. See *Age of Voltaire*, 138.
49. *Wealth of Nations*, II, 180.
50. *Ibid.*, I, 26, 29.
51. *ib.*, 119.
52. 120.
53. 129.
54. 42.
55. 75, 2.
56. 73.
57. 72, 345.
58. Rosebery, Lord, *Pitt*, 4.
59. Waterhouse, *Reynolds*, 329.
60. Burns's autobiographical letter to John Moore, in Neilson, W. A., *Robert Burns*, 1.
61. In Snyder, *Burns*, 54.
62. *Ibid.*, 67.
63. 67.
64. 239.
65. See "The Ordination."
66. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
67. Hill, J. C., *Love Songs and Heroines of Robert Burns*, vii-2.
68. Burns, Robert, *Works*, I, 85, 75.
69. *Ibid.*, 101.
70. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
71. "The Riggs o' Barley."
72. Burns, *Works*, I, 85, 77.
73. *Ibid.*, 50.
74. Brown, Hilton, *There Was a Lad*, 23, 50.
75. Carlyle, *Essay on Burns*, in *Works*, XIII, 294-96.
76. Burns, *Works*, I, 162.
77. Keith, Christina, *The Russet Coat*, 81.
78. Burns, *Works*, I, 141.
79. Brown, Hilton, 26.
80. Snyder, 297.
81. *Ibid.*, 308.
82. Hill, J. C., 102.
83. Snyder, 360, 374, 379, 390.
84. Burns, Robert, and Mrs. Dunlop, *Correspondence*, 11, viii.
85. Burns, *Works*, I, 24.
86. Currie, James, *Life of Robert Burns*, in Burns, *Works*, II, 58.
87. Robert Chambers in Snyder, 432.
88. Snyder, 432-35.
89. *Ibid.*, 430.
90. Boswell's *London Journal*, 108.
91. Pearson, 107.
92. Boswell's *London Journal*, 66.
93. *Ibid.*, 93.
94. 66.
95. 93.
96. 137.
97. 206-9.
98. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 44.
99. Boswell, *Johnson*, 237-40.
100. Boswell's *London Journal*, 251, 281.
101. Boswell in Holland, Sept. 18, 1763.
102. *Ibid.*, 387-90.
103. 46.
104. 157.
105. 259-61.
106. 314.
107. 328.
108. 330.
109. 349.
110. 368.
111. *Boswell on the Grand Tour: Germany*, 134.
112. *Ibid.*, 117.
113. 164-66.
114. 241.
115. Boswell in Search of a Wife, 24.
116. *Ibid.*, 36-37.
117. 76.
118. 207.
119. 240.
120. Boswell for the Defense, 140.
121. Boswell; *The Ominous Years*, 34-48.
122. *Ibid.*, 304-7.
123. Macaulay, *Essays*, II, 539-41.
124. Boswell; *The Ominous Years*, 37-38.

125. *Boswell in Search of a Wife*, 40.
126. *Boswell: The Ominous Years*, introd., x.

CHAPTER XXXII

1. Johnson, *The Idler*, No. 40.
2. Brooke, Henry, *The Fool of Quality*, 80.
3. Cross, Wilbur, *Life and Times of Laurence Sterne*, 99.
4. *Ibid.*, 179.
5. *Ibid.*
6. 183.
7. Parton, *Life of Voltaire*, II, 267.
8. Mossner, E. C., *Life of David Hume*, 503.
9. Sterne, Laurence, *Tristram Shandy*, Book VIII, Ch. ii.
10. *Ibid.*, Book IV, Ch. xxxviii.
11. Cross, 263.
12. Sterne, *Letters to Eliza*, x.
13. *Ibid.*, letter of Apr. 14, 1767.
14. Sterne, *Journal*, Apr. 24, 1767.
15. Moore, Thomas, *Life of Lord Byron*, in Taine, *English Literature*, 477.
16. Macaulay, *Essays*, II, 565.
17. Burney, Fanny, *Diary*, 17.
18. Burney, Fanny, *Evelina*, 22.
19. Letter of Mar. 5, 1772.
20. Walpole, Feb. 28, 1769.
21. See *Age of Voltaire*, 95-98.
22. Lewis, Horace Walpole, 12n: Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, II, 28.
23. Walpole, "Reminiscences," in *Letters*, I, xciii.
24. Letter of Mar. 2, 1773.
25. Nicolson, Harold, *The Age of Reason*, 249.
26. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 154.
27. Letter of Nov. 24, 1774.
28. Nicolson, 248.
29. *Ibid.*, 249.
30. Letter of July 24, 1756.
31. Letter of Dec. 2, 1762.
32. Sherwin, Selwyn, 104.
33. Letter of Nov. 11, 1766.
34. Walpole, *Memoirs of the Last Ten Years of the Reign of George the Second*, p. 21.
35. Letter of June 15, 1768.
36. Oct. 1, 1782.
37. Nov. 11, 1763.
38. Lewis, Horace Walpole, 5.
39. Feb. 7, 1772.
40. Jan. 12, 1766.
41. Letter to John Chute, January, 1766.
42. Lewis, 20.
43. Wharton, II, 83.
44. Lewis, 81.
45. Jan. 18, 1759.
46. Gibbon, *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, xvi; Robertson, J. M., Gibbon, 1.
47. *Memoirs*, 20.
48. *Age of Voltaire*, 127.
49. *Memoirs*, 45.
50. *Ibid.*, 51, 54.
51. 65.
52. 69.
53. 105.
54. 106, 156.
55. Gambier-Parry, M., *Madame Necker*, 16.
56. Gibbon, *Journal*, introd., lxxii.
57. *Memoirs*, 107.
58. *Ibid.*, 120.
59. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, No. 1.
60. *Ibid.*, liii.
61. *Memoirs*, 143.
62. *Journal*, 22.
63. *Ibid.*, 136.
64. *Memoirs*, 153.
65. Robertson, J. M., Gibbon, 117; *Memoirs*, 158.
66. *Ibid.*, 167.
67. *Decline and Fall of the Roman Empire*, final page.
68. *Memoirs*, Appendix 30.
69. *Ibid.*, 172.
70. 189.
71. 191n.
72. 193.
73. Robertson, Gibbon, 119; Drinkwater, Charles James Fox, 206.
74. Low, D. M., Edward Gibbon, 282.
75. *Memoirs*, 290.
76. *Ibid.*, 195.
77. 195.
78. *Decline and Fall*, I, 316. Renan agreed with Gibbon about the Antonines; see his *Marc Aurèle*, 479. Calmann-Lévy, Paris, n.d.
79. *Decline and Fall*, I, 316.
80. *Ibid.*, 250.
81. 9 and 10 William III, c. 22.
82. *Decline and Fall*, II, 72-73.
83. *Ibid.*
84. 102-5.
85. 182.
86. 244; see Voltaire's view in *The Age of Voltaire*, 486.
87. Low, 260.
88. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 152-53.
89. Low, 258.
90. Gibbon, *Miscellaneous Writings*, 277.
91. Walpole, Jan. 27, 1781.
92. *Memoirs*, 211.
93. *Decline and Fall*, 432-33.
94. *Memoirs*, 213.
95. *Ibid.*, 215.
96. Low, 202.
97. *Memoirs*, 214.
98. Walpole, June 5, 1788.
99. *Decline and Fall*, VI, 656.
100. *Memoirs*, 225.
101. *Ibid.*, 89n.

102. Fuglum, Per, *Edward Gibbon*, 15.
103. *Memoirs*, 240.
104. Boswell, *Johnson*, Mar. 19, 1781.
105. Low, 222-23.
106. *Memoirs*, 230-31.
107. Low, 320.
108. *Memoirs*, 228, 234. G. G. S., *Life of Sheridan*, 122.
109. *Memoirs*, Appendix 55.
110. *Ibid.*, 241n.
111. Appendix 66.
112. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 159.
113. *Memoirs*, Appendix 66.
114. *Ibid.*, 339 and Appendix 62.
115. Gibbon, *Correspondence*, II, 93, 298, in *Memoirs*, 339.
116. *Correspondence*, II, 255, in Robertson, *Gibbon*, 120.
117. Gibbon, *Autobiography*, Everyman's Library ed., in Gay, P., *Voltaire's Politics*, 259.
118. *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, xii.
119. Low, 344.
120. Gibbon, letter of Nov. 11, 1793.
121. *Decline and Fall*, 1776 ed., I, 206.
122. Bury, J. B., in *Enc. Brit.*, X, 331d.
123. *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, I, xli.
124. *Ibid.*, xlvii; Robertson, *Gibbon*, 15; Black, *Art of History*, 161.
125. *Decline and Fall*, IV, 673.
126. *Ibid.*, 99.
127. I, 314.
128. Voltaire, *Works*, XVIa, 250-51.
129. *Decline and Fall*, III, 97.
130. VI, 337.
131. Cf. Fuglum, 136.
132. *Decline and Fall*, Ch. lxiv.
133. V, 237.
134. *Ibid.*, 423.
135. III, 522.
136. Preface to Milman ed., p. 6.
137. *CHE*, X, 445.
138. Seebohm, Frederick, *The Age of Johnson*, 228.
139. Walpole, letter of Nov. 15, 1764; *Reign of George III*, II, 25.
140. Nevill, J. C., *Thomas Chatterton*, 96.
141. Chatterton, *Complete Poetical Works*, 207.
142. *Ibid.*, 64.
143. Walpole, letters of June 19, 1777, and July 24, 1778.
144. Irving, Washington, *Oliver Goldsmith*, 266.
145. Stanza xlv.
146. Cowper, William, *Poems*, 135.
147. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 173.
148. Cowper, 188.
149. *CHE*, XI, 89.
150. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 176-77.
151. Cowper, 87.
152. See *Age of Voltaire*, 331.
153. Cowper, *The Task*, Book I, line 749.
154. *Ibid.*, line 718.
155. II, lines 1-7.
156. II, 11-28.
157. 206.
158. Cowper, *Poems*, 172.
159. *Enc. Brit.*, X, 495a (by Macaulay).
160. Boswell, *Johnson*, 252.
161. *Ibid.*, 305.
162. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 37, 170.
163. Thackeray, *English Humourists*, in *Works*, 281n.
164. Irving, 170.
165. *Picar of Wakefield*, preface.
166. Boswell, *Johnson*, 449.
167. Barton, *Garrick*, 256.
168. E.g., Reynolds, *Portraits*, 38.
169. Irving, 121.
170. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 342; Irving, 320.
171. *Boswell for the Defense*, 167.
172. Thackeray, *English Humourists*, 291.
173. *Ibid.*
174. Goldsmith, Oliver, *Select Works*, 194.

CHAPTER XXXIII

1. Boswell, *Johnson*, 17.
2. Boswell, *Hebrides*, 142.
3. Krutch, *Johnson*, 12.
4. Pearson, *Johnson and Boswell*, 6.
5. Krutch, 10.
6. Boswell, *Johnson*, 564.
7. *Enc. Brit.*, XIII, 109d.
8. Hill, G. Birkbeck, *Johnsonian Miscellanies*, II, 309; Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 133.
9. Johnson, *London*, line 102.
10. Hawkins, *Life of Samuel Johnson*, 55-57.
11. Krutch, 49.
12. *Ibid.*
13. Turberville, *Johnson's England*, I, 318n.
14. Boswell, *Johnson*, 94.
15. *Enc. Brit.*, XIII, 110d.
16. Boswell, *Johnson*, 1177.
17. Hawkins, 66.
18. Hume, David, *Essays, Literary, Moral, and Political*, 52.
19. Johnson, *Works*, I, 213.
20. *Ibid.*, 215.
21. 217.
22. Hawkins, 98.
23. Johnson, *The Rambler*, 257-64.
24. Boswell, *Holland Journal*, Sept. 23, 1763.
25. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, 72.
26. Hill, G. B., *Miscellanies*, I, 136.
27. Boswell, *Johnson*, 165.
28. *Ibid.*, 242.
29. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 130.
30. Boswell, *Johnson*, 992.

- 07 -
31. *Ibid.*, 157.
 32. *Boswell for the Defense*, 55 (Mar. 23, 1772).
 33. *Johnson's Dictionary*, preface; p. 20.
 34. *Ibid.*, 284.
 35. *Boswell, Johnson*, 179.
 36. Arthur Murphy in *Johnson, Works*, I, 89.
 37. *Works*, V, 419.
 38. *Rasselas*, Ch. vi.
 39. *Ibid.*, Ch. xix.
 40. Ch. xxviii.
 41. Ch. xli.
 42. *Boswell, Johnson*, 228.
 43. *Ibid.*, 260.
 44. Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, I, 366.
 45. *Krutch*, 264.
 46. *Pearson*, 184.
 47. *Boswell, Johnson*, 272.
 48. *Bailey, John, Dr. Johnson and His Circle*, 35.
 49. *Boswell*, 542.
 50. *Boswell for the Defense*, 175.
 51. *Boswell, Hebrides*, 189.
 52. *Pearson*, 195.
 53. *Boswell's London Journal*, 234.
 54. *Piozzi, Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 190.
 55. National Portrait Gallery.
 56. National Gallery, London.
 57. *Hawkins*, 293.
 58. *Turberville*, I, 384.
 59. *Boswell, Johnson*, 283; *Hawkins*, 147.
 60. *Boswell, Hebrides*, 136.
 61. *Boswell, Johnson*, 49.
 62. *Pearson*, 81.
 63. *Boswell: The Ominous Years*, 264.
 64. *Bailey*, 29.
 65. *Boswell, Johnson*, 955.
 66. *Ibid.*, 1197.
 67. 293.
 68. *Piozzi*, 181.
 69. *Hawkins*, 122.
 70. *Rasselas*, Ch. xliii.
 71. *Hawkins*, 132.
 72. *Boswell*, 586.
 73. *Turberville*, II, 198.
 74. *Krutch*, 369.
 75. This is Hume's report, in *Krutch*, 221, and *Pearson*, 48; the phraseology was made more decorous in *Boswell*.
 76. *Boswell, Hebrides*, 144.
 77. *Walpole*, May 26, 1791.
 78. *Irving, Goldsmith*, 183.
 79. *Piozzi*, 70.
 80. *Ibid.*, 57.
 81. *Boswell, Johnson*, 1124.
 82. *Ibid.*, 1126.
 83. *Bailey*, 30.
 84. *Boswell*, 351.
 85. *Krutch*, 366.
 86. *Boswell, Hebrides*, 201.
 87. *Boswell, Johnson*, 343.
 88. *Boswell: The Ominous Years*, 133.
 89. *Low, Gibbon*, 223.
 90. *Lovejoy, Arthur, Essays in the History of Ideas*, 39.
 91. *Walpole*, Mar. 28, 1786.
 92. In *Gibbon, Memoirs*, 120n.
 93. *Boswell, Hebrides*, 11.
 94. *Boswell, Johnson*, 222.
 95. *Hebrides*, 140.
 96. *Johnson*, 988.
 97. *Pearson*, 262.
 98. *Greene, Donald, Politics of Samuel Johnson*, 270.
 99. *Boswell, Johnson*, 744.
 100. *Ibid.*, 1025.
 101. 807.
 102. 362.
 103. *Bailey*, 104.
 104. *Boswell, Johnson*, 807.
 105. *Ibid.*, 410.
 106. 263.
 107. 525.
 108. 274.
 109. *Hawkins*, 208.
 110. *Boswell, Johnson*, 267, 414, 469, 514, 740; *Boswell's London Journal*, 276, 281.
 111. *Ibid.*, 253; *Johnson, Works*, XII, 111.
 112. *Boswell, Johnson*, 787.
 113. *Ibid.*, 341.
 114. 309.
 115. 486.
 116. *Greene*, 161.
 117. *Ibid.*, 167.
 118. *Taxation No Tyranny*, in *Works*, XII, 225.
 119. *Boswell, Johnson*, 508.
 120. *Johnson, Works*, XII, 198n.
 121. *Hawkins*, 222.
 122. *Boswell, Johnson*, 505.
 123. *Ibid.*, 507.
 124. 654.
 125. In *Greene*, 195.
 126. *Boswell, Johnson*, 33, 1051; *Piozzi*, 14.
 127. *Boswell, Johnson*, 1107-3.
 128. *Ibid.*, 282.
 129. 221; *Bailey*, 103.
 130. *Pearson*, 252.
 131. *Ibid.*, 251.
 132. *Lives of the English Poets*, I, 63 ("Milton").
 133. *Rasselas*, Ch. xxxi; *Hawkins*, 131.
 134. *Lives*, I, 63.
 135. *Pearson*, 248.
 136. *Boswell, Johnson*, 352, 807.
 137. *Ibid.*, 309.
 138. 308.
 139. *Hopkins, Mary A., Hannah More*, 61.
 140. *Hawkins*, 108.
 141. *Johnson, Works*, X, 169.
 142. *Ibid.*, 137, 249.

143. Krutch, 189.
144. Boswell, *Hebrides*, 178.
145. *Ibid.*, 268.
146. *Works*, XII, 413.
147. Pearson, 237.
148. Boswell, *Johnson*, 685n.
149. *Lives*, I, 93.
150. Walpole, Feb. 19, 1781.
151. Walpole, Apr. 14, 1781.
152. Piozzi, 186.
153. Krutch, 522.
154. *Ibid.*, 509.
155. Schuster, *Treasury of the World's Great Letters*, 133.
156. Burney, Fanny, *Diary*, 92.
157. Boswell, *Johnson*, 1109.
158. Krutch, 547.
159. Boswell, *Johnson*, 1059.
160. Hawkins, 255.
161. *Ibid.*, 259.
162. Krutch, 551.
163. Boswell, *Johnson*, 1181.
164. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, vii.
165. *CHE*, X, 213.
166. Boswell: *The Ominous Years*, 103.
167. E.g., Boswell, *Note Book*, xvi, 1, 23; Krutch, *Johnson*, 384.
168. E.g., Boswell: *The Ominous Years*, 111.
169. Boswell, *Johnson*, 2.
170. Hannah More, *Letters*, 101.
171. *CHE*, X, 213.
172. Letter of May 26, 1791.

CHAPTER XXXIV

1. Gooch, *Maria Theresa*, 124.
2. *Ibid.*, 7.
3. 8.
4. Bearne, Mrs., *A Court Painter*, 323.
5. Ercole, *Gay Court Life*, 272.
6. Castelot, André, *Queen of France*, 20.
7. Zweig, Stefan, *Marie Antoinette*, 5.
8. Padover, Saul, *Life and Death of Louis XVI*, 30.
9. Gooch, *Maria Theresa*, 122.
10. Padover, 30.
11. Castelot, 37.
12. *Ibid.*, 40.
13. Zweig, 21.
14. Castelot, 64.
15. *Ibid.*, 73; Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, 19.
16. Walpole, July 10, 1774.
17. Mathiez, Albert, *The French Revolution*, 9.
18. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 122.
19. Maine, Sir Henry, *Ancient Law*, 48.
20. Cobban, Alfred, *History of Modern France*, I, 127.
21. Taine, *The Ancient Regime*, 95.
22. *Ibid.*, 68-69.

23. Mathiez, 5.
24. Taine, *Ancient Regime*, 118, 98.
25. Ercole, 370.
26. Castelot, 85.
27. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 317.
28. Mossiker, Frances, *The Queen's Neck-lace*, 201.
29. *Ibid.*, 163.
30. Castelot, 66, 158.
31. Lacroix, *The Eighteenth Century*, 35.
32. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 56.
33. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 194.
34. Castelot, 174.
35. Cobban, Alfred, *Historians and the Causes of the French Revolution*, 5, 14.
36. Mme. Campan gives several examples (*Memoirs*, I, 190-94).
37. Cobban, *History of Modern France*, I, 115.
38. Castelot, 123.
39. Fay, Bernard, *Louis XVI, ou La Fin d'un monde*, 311.
40. Havens, G. R., *The Age of Ideas*, 392.
41. In Mossiker, *Queen's Necklace*, 160.
42. Castelot, 119.
43. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 119, 125.
44. *Ibid.*, 119.
45. Castelot, 122.
46. *Ibid.*, 121.
47. 124.
48. Zweig, *Marie Antoinette*, 137.
49. Padover, *Louis XVI*, 102.
50. Ségur, Marquis de, *Marie Antoinette*, 104.
51. *Ibid.*
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 491.
53. "The Good-natured King."
54. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 178.
55. Padover, *Louis XVI*, 118-19.
56. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 545.
57. Gibbon, *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, IV, 529.
58. Padover, *Louis XVI*, 23.
59. Campan, Mme., I, 185n.
60. Fay, *Louis XVI*, 8.
61. Taine, *Ancient Regime*, 304.
62. Funck-Brentano, 546.
63. Campan, I, 180.
64. Stryiński, *Eighteenth Century*, 213.
65. Gooch, *Catherine the Great*, 230.
66. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350.
67. Dakin, *Turgot*, 126.
68. Say, Léon, *Turgot*, 101.
69. Robinson, J. H., *Readings in European History*, 426.
70. See *Age of Louis XIV*, 160.
71. Voltaire, *Works*, XXIIb, 347.
72. Parton, *Life of Voltaire*, II, 535.
73. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 340.
74. Dakin, 187; Padover, *Louis XVI*, 75.
75. Say, 12.

76. Dakin, 152; Tocqueville, 190.
77. Tocqueville, 190.
78. Say, 161-66; Funck-Brentano, 554.
79. Renard, Georges, *Guilds in the Middle Ages*, 125.
80. Martin, H., *France*, XVI, 371.
81. *Ibid.*, 372.
82. Taine, *Ancient Regime*, 237.
83. Padover, *Louis XVI*, 92.
84. Dakin, 221.
85. Say, 185-91.
86. Dakin, 163; Martin, H., *France*, XVI, 370.
87. Michelet, *Histoire de France*, V, 480.
88. Say, 43.
89. Warwick, *Mirabeau and the French Revolution*, 104. On L'Hôpital see *The Age of Reason Begins*, 337-45.
90. Jaurès, Jean, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 159.
91. Martin, H., *France*, XVI, 387.
92. Taine, *Ancient Regime*, 302.
93. Michelet, *Histoire de France*, V, 488.
94. Campan, Mme., I, 181.
95. Tocqueville, 191.
96. Lecky, *History of England in the 18th Century*, V, 39-41.
97. Padover, *Louis XVI*, 108; Martin, H., *France*, XVI, 416.
98. Becker, Carl, *The Heavenly City of the 18th-Century Philosophers*, 77.
99. Lecky, IV, 50.
100. *History Today*, October, 1957, 659.
101. Martin, H., *France*, XVI, 428.
102. Morris, R. B., *The Peacemakers*, 104-7.
103. CMH, VIII, 93.
104. Gooch, *Catherine the Great*, 97.
105. Martin, H., *France*, XVI, 500-1.
106. *Ibid.*, 504.
107. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 337.
108. Morris, *Peacemakers*, 178-81.
109. Lecky, IV, 256-59.
110. *Ibid.*
111. Morris, 277.
112. *Ibid.*, 461.
113. Tocqueville, 155.
114. *Ibid.*, 119.

CHAPTER XXXV

1. Parton, *Life of Voltaire*, II, 491.
2. *Ibid.*, 496.
3. Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 427.
4. Chaponnière, *Voltaire chez les calvinistes*, 262.
5. Faguet, *Literary History of France*, 508.
6. Lanson, Gustave, *Voltaire*, 158.
7. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 150.
8. Brandes, *Voltaire*, II, 317.
9. Wagnière in Parton, II, 564.
10. *Ibid.*
11. Note to Walpole, *Letters*, VII, 35.

12. Brandes, *Voltaire*, II, 322; Parton, II, 367.
13. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 199-200; Campan, I, 323; Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 393.
14. Parton, *Life of Voltaire*, II, 368.
15. Brandes, II, 324.
16. Pomeau, 263.
17. Noyes, *Voltaire*, 583.
18. Pomeau, 307.
19. Desnoiresterres, VIII, 230.
20. Lanson, *Voltaire*, 200.
21. Desnoiresterres, VIII, 232-33.
22. *Ibid.*, 235.
23. 236.
24. 245.
25. Wiener, Leo, *Antibology of Russian Literature*, I, 357.
26. Noyes, 600.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 336.
28. *Ibid.*, 337.
29. Desnoiresterres, VIII, 283-91.
30. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 199.
31. Dueros, *French Society in the 18th Century*, 121.
32. Desnoiresterres, VIII, 302.
33. *Ibid.*, 306; Brandes, *Voltaire*, II, 340.
34. Strachey, Lytton, *Books and Characters*, 121n.
35. Brandes, II, 341.
36. Desnoiresterres, VIII, 334, 365.
37. Pomeau, 447.
38. Desnoiresterres, VIII, 359.
39. *Ibid.*, 366; Crèqui, Marquise de, *Souvenirs*, 235n.
40. Brandes, *Voltaire*, II, 348.
41. Gooch, *Catherine the Great*, 70.
42. In Brandes, *Voltaire*, II, 94n.: the order has been slightly changed.
43. *Ibid.*, 354.
44. Parton, II, 494.
45. Voltaire, *La Guerre de Genève*, in Josephson, *Rousseau*, 479.
46. Hendel, Charles, *Citizen of Geneva*, 92.
47. Josephson, 481.
48. Hendel, *Citizen*, 98.
49. *Ibid.*, 99 (letter of Oct. 10, 1769).
50. *Ibid.*, 101 (letter of Jan. 17, 1770).
51. See *Age of Voltaire*, 565.
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 485.
53. Morley, *Rousseau*, II, 156.
54. Josephson, 495.
55. Rousseau, *The Confessions*, II, end.
56. Josephson, 501.
57. *Ibid.*
58. Desnoiresterres, VII, 488.
59. Vaughn, C. E., *Political Writings of Rousseau*, II, 445.
60. *Ibid.*, 376, 381.
61. Rousseau, *Rousseau juge de Jean-Jacques*, p. x.
62. *Ibid.*, 19.

63. 64-67.
64. 120, 124.
65. 117-18.
66. 292, 302, 327.
67. Third Dialogue.
68. Rousseau judge, 319 f.
69. Josephson, 308.
70. *Reveries of a Solitary*, Ninth Promenade.
71. Josephson, 318.
72. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 213-15, 301-2.
73. *Ibid.*, 246.
74. Josephson, 302; Faguet, *Vie de Rousseau*, 399.
75. Josephson, 327.
76. Babbitt, Irving, *Spanish Character and Other Essays*, 225.
77. Cassirer, *The Question of Rousseau*, 39.
78. Lemaître, *Rousseau*, 247.
79. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
80. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 236.
81. Schiller, "Rousseau," in *Poems*, 25. In *Works*.
82. In Maritain, *Three Reformers*, 125.
83. *Collection complète des oeuvres*, I, 186.
84. Cassirer, *Question of Rousseau*, 39.
85. Pomeau, 340.
86. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 239-44.
87. *Ibid.*, 74.
88. In Morley, *Rousseau and His Era*, II, 273.
89. Masson, *La Religion*, III, 227.
90. Burke, "Letter to a Member of the National Assembly," in *Reflections on the French Revolution*, 262.
91. Taine, *Ancient Regime*, 317.
92. Lemaître, 361.
93. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
94. Crocker, *The Embattled Philosopher*, 310.
95. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 41.
96. Letter of Feb. 27, 1777, in Hazard, *European Thought*, 323.
97. Ford, Miriam de, *Love Children*, 212.
98. Havens, *Age of Ideas*, 351.
99. Crocker, *Embattled Philosopher*, 400.
100. Rousseau judge de Jean-Jacques, "Avertissement," vii.
101. Crocker, *Embattled Philosopher*, 433.
102. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 213.
103. Schapiro, J. S., *Condorcet*, 69.
104. Russell, Bertrand, *History of Western Philosophy*, 722.
105. Schapiro, *Condorcet*, 91.
106. Martin, H., *France*, XVI, 525.
107. Schapiro, 96-97.
108. So reads the ms. in the Bibliothèque de l'Institut.
109. See *The Age of Voltaire*, 775.

110. Condorcet, *Sketch for a Historical Picture of the Progress of the Mind*, p. v.
111. *Ibid.*, 105.
112. 10.
113. 179.
114. Aulard, A., *The French Revolution*, I, 123.
115. Schapiro, 80, 88.
116. Condorcet, 193.
117. *Ibid.*, x-xi, 175.
118. 4.
119. 188.
120. 169.
121. 202.
122. Schapiro, 107.
123. Tocqueville, 8.
124. Taine, *Ancient Regime*, 317.
125. Aulard, I, 83.
126. Robertson, J. M., *Short History of Free-thought*, II, 284.
127. Aulard, I, 83.
128. Robertson, J. M., *Short History*, 188.
129. Tocqueville, 165.
130. J. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 107.
131. Padover, *Louis XVI*, 6, 7, 11.
132. Tocqueville, 156.
133. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 237.

CHAPTER XXXVI

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 61; Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 60; Taine (*The French Revolution*, I, 168) estimated the value of church property at four billion livres.
2. Herbert, Sydney, *The Fall of Feudalism in France*, 40.
3. Mornet, Daniel, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 278.
4. *Ibid.*, 274; Sée, 66.
5. *Ibid.*; Taine, *French Revolution*, I, 162-63.
6. Sée, 66.
7. Taine, *French Revolution*, I, 167.
8. Burke, Edmund, *Reflections on the French Revolution*, 142.
9. Sanger, W., *History of Prostitution*, 131.
10. Sée, 23; Mornet, 176.
11. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 14.
12. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 346.
13. Taine, *Ancient Regime*, 291.
14. Mornet, 335.
15. Lacroix, 265.
16. Mornet, 331.
17. Fay, *Louis XVI*, 280.
18. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 512.
19. Fay, 280.
20. Lecky, *England in the 18th Century*, V, 308.

21. Martin, H., *France*, XVI, 353.
22. Morner, 212.
23. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 554.
24. Martin, H., *France*, XVI, 585.
25. Tocqueville, 9.
26. Herbert, S., *Fall of Feudalism*, 84.
27. See *Age of Voltaire*, 776-80.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 392.
29. In Becker, *Heavenly City*, 80.
30. Carlyle, *Essay on Diderot*.
31. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 90 f.
32. Taine, *Ancient Regime*, 380.
33. Lacroix, Choderlos de, *Les Liaisons dangereuses*, Letter LXVI.
34. See Plato, *The Republic*, Nos. 338-44.
35. De Sade, Comte, *Juliette*, in Crocker, *Age of Crisis*, 15.
36. Guerard, Albert, *Life and Death of an Ideal*, 204.
37. Mme. d'Oberkirch in Taine, *Ancient Regime*, 163.
38. Köhler, Carl, *History of Costume*, 366.
39. Bochin, *Modes and Manners*, IV, 215.
40. In Loonis, *Du Barry*, 164.
41. *Decline and Fall of the Roman Empire*, near end of Ch. xix.
42. Gibbon, *Correspondence*, II, 46, in *Memoirs*, 2220.
43. See *Age of Voltaire*, 301-2.
44. Walpole, Dec. 2, 1765.
45. Koven, Anna de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 102, 116.
46. *Ibid.*, 127.
47. Watson, Paul, *Some Women of France*, 90.
48. *Ibid.*
49. 80; Koven, 157.
50. *Ibid.*, 195.
51. Crocker, *Embattled Philosopher*, 354.
52. Gambier-Parry, *Madame Necker*, 78.
53. *Ibid.*, 215.
54. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 192-94.
55. Gambier-Parry, 350.
56. Anderson, E., *Letters of Mozart*, II, 787.
57. Einstein, *Mozart*, 356.
58. Lespinasse, *Letters*, 138.
59. Rolland, Romain, *Essays in Music*, 147.
60. *Grove's Dictionary of Music*, II, 456.
61. Young, Arthur, *Travels in France*, 67.
62. Louvre.
63. In the Institute, Paris.
64. Dilke, Lady Emilia, *French Architects and Sculptors*, 130. It is now in the Ecole des Beaux-Arts in Paris.
65. *Time* magazine, Jan. 31, 1764, p. 44.
66. *Ibid.*
67. All in the Louvre.
68. Both in the Louvre.
69. Vigée-Lebrun, 42.
70. Louvre.
71. Private collection.
72. Taine, *French Revolution*, I, 141; Morner, *Origines intellectuelles*, 419; La Fontainerie, *French Liberalism*, 23.
73. Morner, 443.
74. Lecky, V., 394.
75. Morner, 426.
76. *Enc. Brit.*, XVI, 349d.
77. Lecky, V., 425.
78. Ducros, *French Society*, 314.
79. *Ibid.*
80. Faguet, *Literary History*, 539.
81. Chamfort, Sébastien, *Maximes*, 25.
82. *Ibid.*, 27.
83. 6.
84. 71.
85. 67.
86. 69.
87. 62.
88. 87.
89. 89.
90. 26.
91. 539.
92. *Ibid.*, preface, p. 50.
93. In Masson, *La Religion de Rousseau*, III, 137-38.
94. Bernardin de Saint-Pierre, *Paul et Virginie*, 15, 34, 58.
95. In Bury, J. B., *The Idea of Progress*, 200; italics ours.
96. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 75.
97. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 172.
98. *Ibid.*, 191.
99. Restif, *La Vie de mon père*, 14.
100. Chadourne, *Restif de La Bretonne*, 185.
101. *Ibid.*, 354.
102. Palache, 246.
103. Chadourne, 223.
104. *Ibid.*, 219.
105. Restif, *Les Nuits de Paris*, Nos. 109-114.
106. *Ibid.*, No. 112.
107. No. 103.
108. Young, Arthur, 143.
109. Beaumarchais, letter of June 16, 1755, in Loménie, *Beaumarchais and His Times*, 55.
110. *Ibid.*, 78.
111. 94.
112. Voltaire, letter of Jan. 3, 1774.
113. Loménie, *Beaumarchais*, 263, 269 f.
114. Havens, *Age of Ideas*, 368.
115. Beaumarchais, *The Barber of Seville*, Act I, in Matthews, *Chief European Dramatists*, 332.
116. *Ibid.*
117. Blom, Eric, *Mozart*, 1190.
118. Loménie, *Beaumarchais*, 250.
119. *Ibid.*, 252.
120. *Le Mariage de Figaro*, directions to the players, in Beaumarchais, *Oeuvres*, 184.
121. *Ibid.*, Act II, Sc. ii.

122. V, vii.
123. V, xii.
124. II, xxi.
125. V, iii.
126. Preface, *Oeuvres*, 172.
127. Loménie, *Beaumarchais*, 351.
128. *Ibid.*, 383-84.
129. Havens, 382.
130. Loménie, 348.

CHAPTER XXXVII

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 8.
2. Labrousse, C. E., in Cobban, *Historians and . . . the French Revolution*, 35.
3. Young, Arthur, *Travels in France*, 70.
4. *Ibid.*, 10.
5. Herbert, *Fall of Feudalism*, 5-10.
6. *Ibid.*, 12, 15.
7. Lefebvre, Georges, *Coming of the French Revolution*, 121.
8. Sée, *Economic Conditions*, 54.
9. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 36.
10. Morner, *Origines intellectuelles de la Révolution*, 121.
11. Michelet, *Histoire de France*, V, 548.
12. Martin, H., *France*, XVI, 512n.
13. Tocqueville, 103; Taine, *Ancient Regime*, 300 f.; Taine, *French Revolution*, I, 157.
14. Goodwin, *The European Nobility*, 41.
15. Argenson, Marquis d', *Pensées sur la réformation de l'état*, in Sée, *Economic Conditions*, 109.
16. Young, 24.
17. Herbert, *Fall of Feudalism*, 58; Sée, 5; Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 310.
18. Chamfort, *Maximes*, 90.
19. Young, 125, 61.
20. Lefebvre, 116; see also Taine, *Ancient Regime*, 335-36.
21. Lefebvre, 118.
22. *Ibid.*
23. Jaurès, I, 76.
24. *Ann. CMH*, VII, 237.
25. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 137.
26. Strvienski, *Eighteenth Century*, 271.
27. Lefebvre, 87.
28. Leclerc, *Eighteenth Century in France*, 340.
29. French, Sidney, *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 87.
30. Young, 103.
31. Lefebvre, 97.
32. *Ibid.*, 21.
33. Sée, 183; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern France*, 198.
34. Mousnier and Labrousse, 186.
35. Taine, *Ancient Regime*, 387.
36. *Ibid.*, 388.
37. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 109.
38. *Ibid.*, 110.
39. *Ibid.*
40. Taine, *Ancient Regime*, 334.
41. *Ibid.*, 361.
42. Lecky, V, 394; Gershoy, 308.
43. Jaurès, I, 69.
44. *Ibid.*, 68.
45. Sée, 148.
46. Cobban, *History of Modern France*, I, 123.
47. Jaurès, I, 62; Sée, 197-98.
48. Taine, *Ancient Regime*, 351-52.
49. Lefebvre, 14.
50. Jaurès, I, 62.
51. *Ibid.*, 98.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 404.
53. Taine, 320.
54. Beard, Miriam, 352.
55. Lecky, V, 484.
56. See above, Ch. iii. Sec. v.
57. Lichtenberger, André, *Le Socialisme et la Révolution française*, 35; Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 252.
58. Lichtenberger, 447.
59. *Ibid.*, 446-50.
60. *Enc. Brit.*, II, 238b.
61. Lichtenberger, 442 f.
62. Morner, 360.
63. *Ibid.*, 364; Lefebvre, 43.
64. Cumming, Ian, *Helvétius*, 126-28.
65. *Ibid.*, 119.
66. Fülöp-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 436.
67. Fay, *La Franc-Maçonnerie*, 242.
68. Georgel, *Memoirs*, II, 310, in Buckle, *ib.*, 665.
69. Morner, 450.

CHAPTER XXXVIII

1. Young, Arthur, *Travels in France*, 15.
2. Ségur, *Marie Antoinette*, 121; Castellet, 184.
3. Fay, *Louis XVI*, 293.
4. Gooch, *Marie Theresa*, 168.
5. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 57.
6. Mossiker, *Queen's Necklace*, 36.
7. *Ibid.*, 37, 200, 203.
8. 105.
9. *Vie de Jeanne de Valois*, by herself, in Mossiker, 63.
10. *Enc. Brit.*, VII, 321a.
11. Mossiker, 183-84.
12. *Ibid.*, 216.
13. 273.
14. 269.
15. Fay, *Louis XVI*, 275.
16. Mossiker, ix.
17. Martin, H., *France*, XVI, 539.

18. Taine, *Ancient Regime*, 92.
19. Martin, H., XVI, 573.
20. Paine, Thomas, *The Rights of Man*, 80.
21. Stryienski, *Eighteenth Century*, 286.
22. Young, Arthur, 92.
23. *Ibid.*, 97.
24. Guérard, A., *Life and Death of an Ideal*, 308.
25. Martin, H., *France*, XVI, 597.
26. Lefebvre, 29; Cobban, *History of Modern France*, I, 128.
27. Martin, H., XVI, 608.
28. Stewart, J. H., *Documentary Survey of the French Revolution*, 27-29; Martin, H., XVI, 612.
29. Michelet, *The French Revolution*, 118.
30. Michelet, *Histoire de France*, V, 545.
31. Fay, *Louis XVI*, 308; Taine, *French Revolution*, I, 2.
32. Aulard, I, 129; Michelet, *French Revolution*, 73.
33. Lichtenberger, 20; Martin, H., XVI, 630n.
34. Tocqueville, 121.
35. Herbert, *Fall of Feudalism*, 76, 87.
36. *Ibid.*, 76.
37. CMH, VIII, 128.
38. Barthou, Louis, *Mirabeau*, 11.
39. *Ibid.*, 62.
40. 68.
41. Michelet, *Histoire de France*, V, 515.
42. Crocker, *Embattled Philosopher*, 436.
43. Barthou, 91.
44. *Ibid.*, 97.
45. 118.
46. 138.
47. 162.
48. 163; Martin, H., *France*, XVI, 624.
49. Jaurès, I, 77.
50. Michelet, *Histoire de France*, V, 554.
51. Herbert, *Fall of Feudalism*, 95.
52. Taine, *French Revolution*, I, 17.
53. Taine, *Ancient Regime*, 378.
54. Martin, H., *France*, XVI, 625.
55. Lefebvre, 94.
56. *Enc. Brit.*, XVI, 909d.
57. Fay, *Louis XVI*, 312.
58. *Ibid.*, 305.
59. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
60. Taine, *French Revolution*, I, 28.
61. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
62. Taine, I, 28.
63. CMH, VIII, 133; Cobban, *History of Modern France*, I, 140.
64. Barthou, 171.
65. Young, Arthur, 153.
66. Lefebvre, 72.
67. Young, 176.
68. Lefebvre, 76.
69. Young, 176.
70. Lefebvre, 77.
71. Young, 177.
72. Michelet, *French Revolution*, 137; Lefebvre, 80-81.
73. Speech of July 8, 1789, in Barthou, 186.
74. Mme. Campan, *Memoirs*, I, 358.
75. Mme. de Staël, *Considérations sur la Révolution française*, in Ducros, *French Society*, 316.
76. Kropotkin, Peter, *The Great French Revolution*, 61-63.
77. Michelet, *French Revolution*, 133.
78. *Ibid.*, 141.
79. Lefebvre, 86.
80. Taine, *French Revolution*, I, 42.
81. Michelet, *French Revolution*, 150.
82. Lefebvre, 101.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥٥٦٦

مطابع النجوى القاهرة - عابدين